عَبد العَزيز عَبد الغَني إبراهيم



رِوَايات غربيَة عَن رحلات في شِبهِ الجَزيرة العربيَّة

الجزء الثاني

١٨٥٠ـ ١٨٨٠

دار الساقي

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم

روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية

الجزء الثاني

١٨٥٠- ١٨٨٠





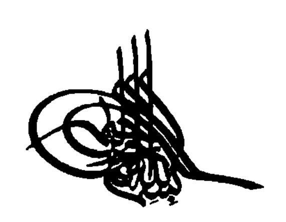
روايات غربية عن رحلات
في شبه الجزيرة العربية

الجزء الثاني

١٨٥٠ ـ ١٨٨٠

للمؤلف

1. **بريطانيا وإمارات الساحل العماني**، دراسة وثائقية، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة 1978 م.
2. **التوسع الإقليمي لإيران في إمارات الساحل العماني**، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة 1979 م.
3. **حكومة الهند والإدارة في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار المريخ، الرياض، 1981.
4. **السلام البريطاني في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار المريخ، الرياض، 1981.
5. **سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي (1914-1868م)**، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1982.
6. **علاقة ساحل عمان ببريطانيا**، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز الرياض، 1982.
7. **أمراء وغزاة، قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج**، دراسة وثائقية، دار الساقي، لندن، 1988.
8. **صراع الأمراء، علاقة نجد بالقوى السياسية في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار الساقي، لندن، 1991.
9. **نجديون وراء الحدود (1950-1750)**، دار الساقي، لندن، 1991.
10. **حبال ودمى، بداية العلاقات العربية الأمريكية**، دار الأصالة، الخرطوم، 1992.
11. **أهل بلال، جذور الإسلام التاريخية في الحبشة**، الدار السودانية، الخرطوم، 1995.
12. **محاضرات في تاريخ أوروبا بين النهضة والثورة الفرنسية**، دار ألقا، مالطا، 1997.
13. **محاضرات في تاريخ النهضة الأوروبية**، دار ألقا، مالطا، 1997.
14. **التاريخ، تاريخه وتفسيره وكتابته**، الدار السودانية، الخرطوم، 1999.
15. **من الوثائق العثمانية في تاريخ الخليج والجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2000.
16. **من المصادر البريطانية في تاريخ الخليج والجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2001.
17. **من وثائق الأرشيف المصري في تاريخ الخليج وشبه الجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2001.
18. **تاريخ عمان (ترجمة رحلة ولستد في عمان)**، دار الساقي، بيروت، 2001.
19. **أبو ظبي، توحيد الإمارة وقيام الاتحاد**، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي، 2004.



الطبعة الأولى 2013

ISBN 978-1-85516-858-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi



Dar Al Saqi

الإهداء

إلى عبد العزيز بن محمد

لكل امرئ من اسمه نصيب، فليكن حظك من هذا الاسم – في سرك وعلانيتك – ما يؤمن به جدّك من أن العزّة لله جميعاً، ولك أن تردد مع الإمام الشافعي:

ولولا خشية الرحمن ربي حسبت الناس كلهم عبيدي

لم تكن مقولة الإمام كبراً منه ولاغروراً، فقد شرح السرّ في ذلك بقوله:

إذا أصبحت عندي قوت يومي فخلّ الهمّ عنك يا سعيد

ولا تخطر هموم غد ببالي فإن غداً له رزق جديد

أسلم إن أراد الله أمراً فأترك ما أريد لما يريد

مع حبي

جدّك، عبد العزيز

المحتويات

بين يدي هذا الكتاب

تيسّر لنا - بحمد الله - أن نجمع في هذا الكتاب الثاني من إبل إبليس عدداً من أشهر رحالة الغرب الذين حملوا معهم بعد عودتهم إلى أوطانهم من مغامراتهم في شبه الجزيرة العربية فيضاً من القصص الطريفة والغريبة، قدراً ناءت به رفوف مكتباتهم. وإذا كانت المهمات الملقاة على أغلب الرحالة الذين حشدناهم في الكتاب الأول تتطلب منهم التلصص لاستجلاء حقائق في شبه الجزيرة العربية تُعين على إرساء ركائز الاستعمار الغربي في البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة، فإن المهمات التي دفعت بإبل إبليس في هذه الفترة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي كانت مختلفة في ظاهرها باختلاف المرحلة التاريخية، متوافقة في باطنها مع الهدف الأصيل في خدمة الأهداف الاستعمارية.

رسخت في هذه الفترة قواعد تلك الإمبراطوريات الاستعمارية بالهيمنة على عدد من أقطار الشرق الإسلامي، وتمكنت من استعمار مناطق عديدة فيه، لم يكن الحجاز كما لم تكن نجد في قلب شبه الجزيرة العربية من ضمنها، فقد حفظ الفقر المادي المستشري في تلك البقاع والظروف الطبيعية والإيكولوجية السائدة تلك المناطق استقلالها ووقاها شرّ الاستعمار الغربي المباشر، حيث لم يكن لأيّ دولة غربية مطمع في ذلك القفر اليباب. ورغم ذلك فقد كانت هذه المنطقة مهمّة تماماً لكل إمبراطورية استعمارية قامت على أنقاض بلاد كانت تتمتع بحكم إسلامي. فقد شرّفت مكة المكرّمة من أرض الحجاز بمهبط الوحي الذي كانت شريعته تحكم العديد من المناطق الإسلامية، ويحتكم إليها العديد من مواطني المناطق التي تمّ للغرب استعمارها في هذه الفترة. وكان هذا هو الدافع الأبرز الذي جعل هولندة ترسل أحد باحثيها إلى مكة المكرّمة ليعيش فيها ويراقب الجاوة "الإندونيسيين" الذين تمّ لها استعمار بلادهم، وكانت سلطاتها الاستعمارية تجد من العائدين من الحجّ أبرزِ معارضيها وأبلغهم مقاومة لها. وقد تمكن هذا الأستاذ الجامعي الذي أرسلته هولندة إلى مكة المكرّمة من عيش الحياة الاجتماعية في تلك البلدة وكتابة ملاحظاته عنها وفق منهجية علمية تراعي دقّة الهدف الذي تخدمه، فلا غرو أن جاءت أخباره التي روينا بعضها في هذا السفر والتي كانت موثقة

بالصور والرسومات وقد امتازت بالكثيرمن الصدق الذي لا يفسده إلا تحامل القلم الغربي الذي لا تخفف الموضوعية من غلوائه حين يتصل الأمر بالشرق. فالتحامل ضد الشرق الذي يظهر دائماً في صورة البدائي والغريب متداخل في نسيج أدب الرحلة الغربية، حتى أضحى الخيال الغرائبي في تلك الكتابات أساساً من أسس المعرفة الغربية عن الشرق.

لعل من أبرز العوامل التي دفعت بالدوائر الاستعمارية الغربية للاهتمام بشبه الجزيرة العربية في هذه الفترة، أنها مهد العروبة التي يُمثّل إنسانها ركيزة أساس في الدولة العثمانية التي كانت قد بنت قواعد حكمها للعرب بداية على الشرعية الإسلامية. فقد راحت تلك الدولة في هذه الفترة تتمرد على شرعيتها حين تبنّت الدعوة الطورانية، الأمر الذي قاد إلى إحياء الشعوبية والنعرات القومية الأخرى في تلك الإمبراطورية، وكان من أهمها في هذا المجال دعوة القومية العربية التي شرع الاستعمار الغربي في خداعها وتوظيفها لخدمة أهدافه في البلاد العربية. أما ثالثة الأثافي التي حملت مرجل الدوائر الاستعمارية الغربية الذي بات يغلي بالاهتمام بشبه الجزيرة العربية، فتتمثل في أن لموقع شبه الجزيرة العربية الجغرافي بين الشرق والغرب أهمية استراتيجية قصوى. تُعدّ النهايات الشرقية لشبه الجزيرة العربية حدّاً إثنولوجياً فاصلاً بين شرق عربي في معظمه، مسلم في أعمّه، يمتد الى المغرب الأقصى، وشرق آخر أعجمي اللسان تدين العديد من أقاليمه بالإسلام، يمتد عبر إيران ليشمل شبه القارة الهندية وما وراء ذلك، وصولاً إلى مناطق في أقاصي الصين، ظفر بالقدح المعلى من ذلك الاهتمام. وفي اعتقادنا أن دراسة الدوائر الاستعمارية لعوامل التناحر في هذا الكيان المترهل في شبه الجزيرة وغربها، وذلك الكيان المتشرذم في شرقها الذي غالباً ما يغلي بالخلافات العقدية والطائفية، واستغلاله للنفخ في خلافات كلا الطرفين لتأجيجها داخلياً واستثمار مؤثراتها في تباعد شقّة الخلاف بين الشقين العربي والعجمي، وتوظيف العامل العنصري لتعميق الهوّة بين الجانبين، كانت - ولعلها لا تزال - الشغل الشاغل لقوى التسلط والاستعمار. ولا بد من الإشارة إلى أنه رغم الاتفاق الكامل بين دوائر الاستعمار الغربية على ما ذكرناه من دوافع ومحركات، إلا أن تنافس بعضها مع البعض الآخر أحياناً، وسعي كل منها لزيادة رقعته من الحصّة الشرقية استعماراً أو هيمنة او استثماراً، جعلا كل قوّة من تلك القوى ترسل الرسل إلى تلك الأرجاء المستهدفة لدراسة اتجاهات أهلها وشيوخها وحكامها، تستأنسهم أو تستعديهم على القوى الدولية الأخرى المنافسة لها. وحين تستقرّ الأمور في المنطقة المتنازع عليها لأي من تلك القوى، بالتوافق أو بالحرب، تعود الأهداف الجمعية لتلك الدوائر لتدور دورتها من جديد.

ربما تبيّن لنا في الكتاب الأول من هذا السفر أن الإمبراطورية البريطانية تمكنت من استحداث شريط هامشي من النفوذ والسيطرة والاستعمار يُطوّق شبه الجزيرة العربية، بدأ عند مسقط وامتدّ في اتجاهين ليشمل ساحل عمان على الساحل الشرقي ويتحكم في مداخل

الخليج، كما امتد هذا الحاجز الساحلي إلى مناطق جنوب اليمن حتى عدن ليسيطر على مدخل البحر الأحمر. وتدخلت فرنسا بواسطة موريزي وغيره للعبث بهذه الاستراتيجية الهندوبريطانية في مركزها الذي مثلته مسقط. وقد استمرت التدخلات الفرنسية لتخريب تلك السياسات البريطانية القائمة في هذه المنطقة، فكلفت في هذه الفترة من القرن التاسع عشر بالجريف الذي نجد خبره في هذا الكتاب، باستطلاع الأحوال في شبه الجزيرة العربية. ولا ندري هل قام بالجريف بما كُلف به أم ظلّ قابعاً في دمشق يستقي هناك معلوماته عن شبه الجزيرة العربية، ويستطلع تفاصيل أحوالها من العقيلات وغيرهم من تجار نجد الذين كانوا يتعاملون مع الشام. وربما كنا أكثر ميلاً إلى ترجيح هذا الرأي الأخير الذي قال به بعض الرحالة الذين دخلوا إلى المنطقة بعد بالجريف، والذي تبنّاه أيضاً من تبعهم من النقاد الغربيين الذين كشفوا عن أخطاء وقع فيها بالجريف في تقدير المسافات بين المواقع التي ادّعى زيارتها، كما كشفوا عن غير ذلك من الشواهد التي تُكذب أقواله. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن تضخيم بالجريف للذات كان أوضح موضوع في كتابه الذي امتاز – كعمل أدبي – بإعمال الخيال الجامح الذي صبغ الكثير من رواياته، ما جعلها تستعصي على القبول. ولا نميل إلى من أيّد خبر قيام بالجريف برحلته من الرحالة والنقاد الغربيين الآخرين الذين صدّقوا حكاياته التي سطّرها، مُدّعياً أنه عاشها في شبه الجزيرة العربية. جاءت أخبار رحلة بالجريف في صيغة رواية صاغها أديب واسع الخيال، فساورت بعض الجهات العلمية في بريطانيا الشكوك في رواية الرجل لما رشح منها من غرائب وعجائب، وربما كان هذا هو الدافع الذي جعلها تحرّض لويس بيلي على القيام برحلته إلى الرياض، رغم أن حكومتي الهند وبريطانيا لم يكن لهما اهتمام بما يعتمل في قلب شبه الجزيرة العربية من أحداث لم تكن في تلك الفترة تملك وسائل التحكم في توجيهها. ولا نعتقد أن ما جاء في محاضرة بيلي في الجمعية الجغرافية الملكية التي جاءت في صيغة تقرير أكثر منها في صيغة الرواية أمراً بالغ الفائدة لمن يكتب التاريخ، فقد انصبّ اهتمام الرجل في رحلته على الطوبوغرافيا التي ما عادت تلك المعلومات القديمة عنها بذات أثر في عصرنا الراهن، كما أن أخبار رحلته لم تخلُ من التحامل المقيت الذي صبّه على بعض الشخصيات التي قابلها، و لم تبرأ محاضرته من تضخيم الذات، ذلك الداء الذي اعترى كافة الرحالة الغربيين، و لم تنجُ من المبالغة في ادعاء المعرفة بكل صغيرة وكبيرة في تلك الأرض التي وفد إليها في صحبة بعض الرفاق العرب، ثم اعتقد أنه ألمّ بكل شاردة وواردة فيها.

كان يمكننا أن نقطع بعدم دخول بالجريف إلى شبه الجزيرة العربية لولا هذه الزيارة للويس بيلي، المقيم البريطاني في الخليج، التي جاءت زمنياً تالية بنحو مباشر للزمن الذي يقول بالجريف إنه زار فيه تلك المنطقة. وتعتقد بعض الدوائر العلمية أن إبطال الأثر الفرنسي الذي ربما تكون قد أحدثته زيارة بالجريف إلى شبه الجزيرة العربية كانت من بعض دوافع قيام المقيم البريطاني

برحلته إلى الرياض. ولكن ما يضعف هذه الحجّة أن المقيم لم يُشر إلى ذلك إلا ضمناً، وكان الأولى به أن يذكر ذلك الدافع في رسائله إلى رئاسته في الهند، ولكننا لا نجد لهذا الخبر ريحاً في وثائق بيلي التي اطلعنا عليها. وعلى أي الحالين، أقام بالجريف برحلته أم لم يقم، على دارس التاريخ أن يميز في تعامله نقدياً بين التقارير التي يعدّها الرحالة للدوائر الرسمية في بلاده والتي يجتهد في أن يتحرّى فيها عن الحقيقة بعين الهدف الذي ساقه إلى تلك المنطقة، وغالباً ما تمتاز تلك التقارير بالسرية، وبين المحاضرات التي يلقيها الرحالة في الدوائر العلمية وهي التي تتحرى عن الحقيقة بالقدر الذي تتطلبه السياسة، وبين الكتاب الذي يعدّه ذلك الرحالة لجمهور القراء عامة لمداعبة الشعور الوطني في تلك المجتمعات وإطلاعها على جهود أبنائها الذين يحملون مشاعل المعرفة والتحديث للمجتمعات الخاملة في ما وراء البحار، ولا ضير في هذه الحالة الأخيرة أن يُمازج الكاتب بين قشور من الحقيقة وسدوف من الخيال، ليكون كتابه أدعى للقبول من الجمهور الذي يستهدفه الرحالة بتجربة إنسانية فريدة جعلته يعيش حقيقة رحلات السندباد التي حملته إلى بلاد العجائب والغرائب التي ما فتئت تعيش طفولة البشرية.

امتازت رحلة بيلي بكثير من الأخبار التي تثبت أمام النقد، ولكن ربما أمكن أن نكشف عن بعض ما يجعلنا لا نثق بالاستعانة بما ورد في كثير منها في كتابة تاريخنا، فالأخذ منها يحتاج إلى ناقد محترف تمرّس في صناعة التأريخ. فمن ذلك أن الأذن الغربية لا تستطيع أن تميز أصوات بعض الحروف العربية فيختلط الأمر عليها. وقد استبان المقيم لويس بيلى هذه الحقيقة حين طلب إلى مستمعي محاضرته التي درسناها في هذا الكتاب أن يدركوا أن هناك فارقاً بين هجر وحجر! وعرّف بيلي بشيء من الدّقة معنى الكلمتين العربيتين المتحدتين لفظاً في لغات الأعاجم، ولكن الرجل ذاته وقع في المحاضرة ذاتها في خلط طريف بين لفظي قطف وخطف حين حاول أن يصل علمياً إلى اشتقاق لفظ القطيف الذي تُعرف به تلك القرية الواقعة في الأحساء. وعرض بيلي في هذا الشأن معلوماته التاريخية ليصل في ذلك المجمع العلمي – من دون أن يعترضه معترض من الحاضرين من الذين يعدّون أنفسهم أساتذة في الشرقيات – إلى أن اسم البلدة ربما كان مشتقاً من القطف لثراء المنطقة بالمزروعات والقطوف، وقد أصاب هذا الأعجمي بطبيعة الحال في ما ذهب إليه، ولكنه أخطأ حين أضاف: "أو ربما اشتُقّ الاسم – كما قال – من الخطف! واستطرد بيلي ليحدث مستمعيه عن "خطف" القرامطة الحجر الأسود من الكعبة. وطوّف بيلي بعد ذلك بالمستمعين وخاض في تاريخ القرامطة كما سمعه من بعض الرواة، فالتاريخ في هذه المناطق يكتسبه الرحالة سماعاً ممن يصادفونه، أو قد يقرأ الرحالة شيئاً منه في كتب الرحالة السابقين لهم الذين كانوا قد اكتسبوه بدورهم سماعاً أيضاً. وراح بيلي يعرض معلوماته عن القرامطة الذين "خطفوا" الحجر الأسود، ويستطرد في تلك الروايات غير المتصلة بموضوع محاضرته إلا بما كان من عدم تمييز أذنه لجرس كل من حرفي الخاء

والقاف، ولربما لإدراكه أيضاً أن مستمعيه –حتى في الدوائر العلمية – يستمتعون بالروايات التي تسيء إلى الإسلام وتاريخه. وربما استمتع هو أيضاً حين راح يروي تلك القصص بالشعور بتضخم الذات إلى درجة التورّم. فقد برهن الرجل لمستمعيه أنه اكتسب خلال الفترة التي سبقت رحلته القصيرة إلى الرياض وإبان تلك الرحلة كل معارف تلك الأرض، وغدا حجّة، ليس في ما وقع فيها من أحداث تاريخية، بل في تاريخها البعيد والقريب وفي اشتقاقات لغتها أيضاً. وهنا يلزمنا أن نشير إلى أن علينا ألا نأخذ التاريخ الإسلامي ووقائعه من أفواه الرحالة الغربيين، فالرواة الذين يُمثّلون المصدر الذي غالباً ما يأخذ عنه أولئك الرحالة لن يصل علمهم إلى ذلك الزمن البعيد، ولا يزيد ما يعرفه هؤلاء عنه على أساطير قد لا تحمل إلا المشاعر الشعبية الصادقة والكاذبة على حدّ سواء. أما وقائع التاريخ الحديث للمناطق التي وقف عليها هؤلاء الرحالة وسمعوها من أفواه المعاصرين لها من أهل البلاد فيمكن المؤرخ الجاد – لا سواه – الأخذ منها بعد أن ينزع بإعمال المنهج السليم عن تلك الروايات المبالغات التي يضيفها إليها رُواتها العرب، لدوافع متضاربة، أو ربما يختلق بعض هؤلاء ممن يدّعون المعرفة الشاملة بكل ما حدث في ذلك المجتمع قصصاً وهمية قد يضيف إليها الرحالة زخماً جديداً من طريف القول وغريبه. ويقع على معشر المؤرخين، بعد أن يتحققوا من الهدف الذي يخدمه ذلك الرحالة، أن يطبقوا – بلا هوادة – على روايات الرحالة منهج نقد التاريخ الشفاهي، وذلك بعد أن يجردوها من الخيال الذي يلازم صياغة الرواية ويداخلها بما درج عليه الرحالة من تزيينها للقارئ الغربي بالبدائي والغريب فيها. أما الأحداث المعاصرة لزيارة الرحالة إلى تلك المناطق والتي وقف عليها ذلك الرحالة بنفسه أو شاهدها أو التقى بعض المشاركين فيها، فيمكننا بعد النقد الذي تتطلبه مناهج كتابة التاريخ أن نعتمدها، شرط أن تؤيدها شواهد أخرى، وشرط اتساقها مع السياق العام لزمانها ومكانها، وذلك حتى لا يقودنا ادّعاء الرحالة الغربي المعرفة الشاملة إلى أن نستبدل اسم بلدة في شبه الجزيرة العربية لنجعلها "الخطيف" بدلا عن القطيف ثم يضع الرحالة بيلي لها تاريخاً أسود يمتد إلى العصور الأوروبية الوسطى.

يطالعنا في الفصل الأول من كتابنا هذا ما رواه بيرتون، الرحالة الغربي الذي يفاخر حين يُحدّث عن نفسه بأنه بذيء قولاً وفعلاً، ولنا أن نضيف أنه كان صاحب قلم ساخر يضرب به حيث شاء من دون وازع أخلاقي أو رادع من قوانين عرفية أو وضعية، فقد نشأ منذ نعومة أظفاره متفلتاً غير عابئ بها. كان بيرتون رجلاً غير منضبط ولكنه، من ناحية أخرى، امتاز – في ما نعتقد – عن غيره من الرحالة الغربيين من العسكريين في معالجة موضوعاته بالسلاسة التي يفتقر إليه أبناء مهنته. فقد تمتع الرجل بمعارف كثيرة – وإن كانت في بعض الأحيان ضحلة – في فنون الأدب العربي، كما كان يعمد في أحيان كثيرة إلى استخدام الشعر، ديوان العرب، في العديد من تحليلاته لأنماط الحياة البدوية، فأخطأ في ذلك أحياناً وأصاب في كثير من الأحيان.

وربما كان بيرتون - في تفرده - الرحالة الغربي الأول الذي قارن بين ما يعدّه نقائص العرب ونقائص قومه الغربيين، وكثيراً ما اعتبر أن العرب، شأنهم شأن الهنود الحمر، أمّة من البشر يمكن بعد مراعاة الفروق الإثنية اعتبارهم كالغربيين تماماً، بل إنه ذهب في بعض ما كتب إلى تفضيل العديد من ممارسات العرب وسلوكياتهم مقارنة بما لدى قومه الإنجليز من ممارسات وسلوكيات. وربما حمله ذلك على أن ينأى بنفسه في كثير من الأحيان عن العنصرية التي تُعدّ أبرز عنصر في أدب الرحلة الغربية. ولا يقع علينا أن نلوم بيرتون على عدم تحرّيه عن الحقيقة في ما كتب ونتهم جنوحه للخيال الساخر في روايته لجمهوره، فالحقيقة لم تكن ضالّته، و لم يدّعِ أنه تحرى عنها، فقد ابتُعث هذا الرجل لتعلم اللغة العربية للقيام بمهمات تتصل بالإدارات الاستعمارية البريطانية. وحكماً بما كتب، فإننا نرى أن الرجل قد نجح في مهمته، واستشهد في كثير مما كتب بأدب العرب وتراثهم، ولكننا لا نستطيع أن نعتمد عليه في كتابة تاريخنا، وذلك لأننا أقدر من بيرتون على استعمال هذه المصادر والتعامل معها لاستنباط ما يهمنا. وفي تقديرنا أن رواية بيرتون الساخرة تضعه، أخلاقياً، - رغم الفحش البادي في أخلاقياته - في منزلة أرفع من داوتي الذي ترجمنا له في الفصل الأخير من هذا الكتاب. فداوتي رحالة متسكع، حملته عنصريته إلى الدخول إلى شبه الجزيرة العربية التي أظهر في روايته عنها بغضه لشعبها ولحيوانها ولأرضها وجوّها، ولكل شاردة وواردة فيها. أساء داوتي إلى الرجال الذين أكرموه وهو المفلس، وإلى الذين أمّنوه من دون أن يرتضي لهم "خوّة" أو يدفع لهم مقابلها، بل إن الأباعر التي حملته عبر تلك الصحارى لم تنجُ من كراهيته، فاتهمها - لا لسبب إلا لاتصالها بالبدوي - بأنها حيوانات بليدة. و لم يلقَ كتاب داوتي - بادئ الأمر - في أوساط قومه رواجاً. وربما يعود ذلك إلى أنهم اعتادوا صورة العربي المتوحش النبيل في كتابات أكثر السابقين له من الرحالة، ولكنهم لم يجدوا في ما كتب داوتي بقلم يطمح إلى أن يحاكي به الأسلوب الأدبي الذي كان سائداً في العصر الفيكتوري ريحاً لذلك النبل المميز لذلك البدوي المتوحش، فقد طفح كتابه برائحة "البالوعات" التي يجلس فيها العربي التيّاه بنفسه وحاجباه معلقان بالسماء.

خلاصة القول إننا عمدنا في هذا المجلد إلى حشد عدد من إبل إبليس اختلفت أساليبهم في الرسائل التي حملوها إلى أوطانهم باختلاف الفترة الزمنية التي دفعت بأقرانهم إلى شبه الجزيرة العربية في الفترة التاريخية السابقة التي اهتم بها المجلد الأول. وتلتقي دروب هذه الإبل مع سابقاتها في هدفها العام لخدمة إبليس الساعي إلى اختراق هذه المنطقة، بحكم كونها مركزاً دينياً يشعّ بدعوة الحرية في العالم الإسلامي، كما تدلّ على ذلك رحلة هورنيكا الذي وفد إلى المنطقة لدراسة الحجّ وأثره على الاستعمار الهولندي في الشرق، أو لكونها مهداً للعنصر العربي ومستودعاً للغته، كما يظهر في ما كتبه بيرتون، أو لموقعها الاستراتيجي كما تشير رحلتا

بالجريف وبيلي. ونعترف بقصورنا في عدم استكمال دراسة عدد كبير من إبل إبليس من الذين جابوا الجزيرة العربية في هذه الفترة الزمنية، وعذرنا في ذلك أن أهداف جميعهم متماثلة، بحيث عبّر الجزء الذي أوردناه عن الكل الذي لم نستوفه، إضافة إلى ذلك فإن الباحث الفرد لا يمكنه الإحاطة بأنشطة كل من دخل إلى هذا المجال المَتسع الذي لم نطمع في بلوغ قاصيته أو الاستيلاء على غايته، ولكن رُبّ رمية حصلت إصابة، ونسأل القارئ الدعاء لنا لجهدنا الذي بذلناه في ما أدت إليه الاستطاعة، فربّ دعوة حصلت إجابة.

أ. د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم حمدون

سنار – السودان

٢٣ رمضان ١٤٣٣

الفصل الأول

بيرتون أبو شوارب

رتشارد فرانسيس بيرتون المولود عام ١٢٣٦هـ/١٨٢١م أنموذج لفئة قليلة من موظفي حكومة الشركة في الهند، من الذين زاروا مواقع في شبه الجزيرة العربية من دون تكليف رسمي. فالرجل مغامر بطبعه، شأنه شأن كافة الرحالة الغربيين الآخرين، ولكنه بزّهم بشخصيته المتطلعة إلى المعرفة بأي ثمن وعلى أي نحو، وعلى أي شكل كانت المعرفة، أخلاقية أو غير ذلك. درس بيرتون العديد من اللغات، ونظنّ أن الذين أرّخوا له قد جنحوا إلى المبالغة حين ذكروا أنه كان يعرف أكثر من أربعين لغة يتحدثها كأهلها، أما هو فيقول في وثيقة رسمية قدّمها إلى حكومته يعدّد فيها خدماته: إنه يعرف تسعاً وعشرين لغة، اجتاز اختبارات رسمية في ثمانٍ منها، ذكر منها العربية والفارسية والهندوستانية، ولكن ما يهمنا هنا القول: إنه كان يعرف العَربية، وهذا صحيح رغم أنه كثيراً ما يقع في الخطأ حين يجنح إلى الاستعراض والحذلقة. وأراد بيرتون أن يستزيد من معرفته بقواعد هذه اللغة وآدابها، ووجد أنه يمكن أن يحقق غرضه في شبه الجزيرة العربية، وفي مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة بصفة خاصة.

تقدم بيرتون في عام ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م إلى الجمعية الجغرافية الملكية في لندن بطلب لإرساله في بعثة إلى شبه الجزيرة العربية "ليستكشف دروبها ويقطعها من مسقط إلى الحجاز ولا يستثني الربع الخالي". وأقرّت تلك الجمعية طلبه الذي يبدو أنه استوحاه في فترة عمله في السند، حيث عرف من عدد من حجاج تلك المنطقة أنهم يفدون إلى مسقط بحراً ثم يواصلون طريقهم برّاً إلى الحجاز. ولربما كان لنشر بيرتون كتابين له: أحدهما عن جولاته في بلاد السند، والآخر عن رحلة له إلى جاوة الأثر الأكبر في حماسة هذه الجمعية لتمويل الرحلة التي اقترحها عليهم، إلا أن حكومة شركة الهند البريطانية التي كان بيرتون في هذا الوقت من موظفيها لم تمنحه الإذن إلا سنة واحدة فقط، وعلّلت قرارها بأن فترة سنة مدّة كافية ليتمكن من متابعة

دراسته للغة العربية في مهدها الذي أشاروا إلى أنه يمثل البيئة الفضلى لتحقيق هذا الهدف، ولذا قرّر بيرتون أن يقصر رحلته على المدينتين المقدستين: مكّة، والمدينة، فهناك يمكن أن يستزيد من دراسة اللغة العربية وآدابها، كما يمكن أن يقابل العديد من المسلمين وخاصة العرب منهم الذين يأتون من كل فجّ عميق من الذين جابوا الصحراء وخبروا مسالكها.

لم تكن الرواية هي المصدر الأول لهذا الرحالة كما هي الحال لكل الرحال الغربيين. فقد كان هذا الرحالة المغامر الجريء المقدام في غير مبالاة، المتعدد المواهب، يؤمن بأن التجربة هي المعلم الأول، وأن المعرفة تُكتسب عملياً ولا تعتمد على الرواة فقط. وعلى الرغم من ذلك كان بيرتون مثقفاً وقارئاً ممتازاً وصاحب قلم منساب في سلاسة لا تعرف الحدود، ولكنها لا تعتمد الأخلاق ولا تميل إلى التحري عن الحقيقة. يكتب من دون حرج كل ما يعنّ له، لا يهمه إن أساء لصاحبه أو لنفسه. أما العرب فقد كتب عنهم، رغم ثقافته الممتازة، بالنهج نفسه الذي ميّز كافة الرحالة الغربيين. فالبدوي عنده هو "البدائي النبيل"، وعادة ما يقارنه بالهندي الأحمر. ولا يخفى ما في هذا من إشارة صريحة إلى أنه لا يستحق الحياة، وأن غيره من شذّاذ الأرض يمكن أن يرثوا أرضه بعد أن يدفنوه فيها. أما الشعائر الإسلامية فقد لقيت منه نقداً لاذعاً غير متبصر، ولكنه في ذلك كان مقلداً للرحالة الغربيين قبله وإماماً لمن جاء بعده منهم ومتوائماً مع أهداف الرحلة الغربية إلى الأماكن المقدسة. أما ما يؤخذ على كتاباته – حتى عند الغربيين – فهو الإشارات الجنسية الفاضحة المتكررة التي، وإن لوّنت كتاباته بمنهج متفرد، كانت غير مستساغة. عمد الناشرون إلى حذف العديد من هذه الإشارات الإباحية، فحذفوا بعضها واستجابوا لرغبته في الإبقاء على بعضها الآخر، بعد أن أخرجوها من النصّ إلى الهامش، وترجمتها إلى اللغة اللاتينية حتى يطلع عليها الخاصة فقط ولا تخدش حياء العامة.

قام بيرتون قبل هذه الرحلة بعدّة رحلات في أفريقيا الشرقية في مناطق متعددة من آسيا، خاصة في شبه القارة الهندية في أدائه مهماته الرسمية، وكتب عن تلك المناطق. و لم تكن شهرة بيرتون مقصورة على الكتابة في أدب الرحلات، بل كانت له عدّة كتابات أخرى تتصل بهذا الفن وترتبط بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالاستشراق، منها: أنه ترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغة الإنجليزية، ولكننا نعتمد ما كتبه هذا الرحالة في سيرته الذاتية للجهات المسؤولة في الحكومة البريطانية حين طلب إنهاء خدماته في السلك القنصلي، والتمس أن يُصرف له معاشه كاملاً. جاء في هذا الصدد أنه نشر "أكثر من ستة وأربعين كتاباً"، العديد منها مثل: كتاب مكّة، وكتب استكشاف أخرى معتمدة.

ولد رتشارد فرانسيس بيرتون لأب إيرلندي من أصل غجري في ما يعتقد، ونشأ وترعرع في جنوب فرنسا ثم في توسكانيا من إيطاليا التي هاجر إليها الأب بعد أن ترك الخدمة في الجيش البريطاني، فنشأ رتشارد عارفاً للغتين الفرنسية والإيطالية وآدابهما. كان أبوه – في

تقديرنا – رجلاً صاحب مثل وأخلاق، أشاد بسلوكه حتى ابنه رتشارد الذي ما كان يضع للأخلاق وزناً. نفى الرجل نفسه اختيارياً إلى إيطاليا بعد أن أدرك أن لا مكان له في بلاده، بعد رفضه أن يشهد ضدّ الأميرة كارولين حينما أراد الملك جورج الرابع أن يطلقها. وكان رأي رتشارد – حين كبر – أن والده قد تصرف تصرفاً نبيلاً.

أرسل الوالد ابنه للدراسة في إنجلترا، ولكن التعليم النظامي ما كان يروق هذه الشخصية المتمردة، فمدير المدرسة التي ألحق بها كان في تقديره غير صالح لهذا المنصب، إذ إنه – في تقدير بيرتون – "مؤهل كي يصبح حاكماً من خلفاء جنكيز خان يحكم أرض التتار". وقد أتيح لرتشارد أن يترك المدرسة بسبب وباء الحصبة الذي خيّم على المدرسة فترة طويلة لزم خلالها رتشارد المنزل أولاً، ثم خرج مع أسرته إلى إيطاليا مرّة أخرى.

أراد الأب أن يهيّئ ابنه للخدمة في الكنيسة، فألحقه بكلية اللاهوت عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م بجامعة أكسفورد لينال شهادة في فقه النصرانية وآدابها ومناهج التفسير. يقول ريتشارد: إن زملاءه في الكلية كانوا يضحكون منه، لأنه كان ينطق الإنجليزية على أصولها اللاتينية، بينما كان زملاؤه يتحدثون الإنجليزية غير المعروفة إلا في إنجلترا فقط! لم يرق الابن اختيار أبيه، فهو بعيد عن كل ما يتصل بالدين، أيّاً كان، فقد كان مفتوناً بالسُّكر لا يستلذّ إلا بفقدان الوعي، مُغرماً بالرقص، مُحبّاً للغناء، مُفرطاً في البوهيمية، وكان يهوى الملاكمة، ولكنه ما كان يستحب أن يمارسها في الحلبة فقط، بل ضدّ زملائه من الطلاب في الجامعة! ما أدى إلى فصله منها مؤقتاً، ولكنه لم يعد إليها مرّة أخرى، فقد كان زاهداً في الانتظام والجلوس لتلقّي المعرفة من الأساتذة، واحتفل بطرده من الجامعة بأن هيّأ لنفسه عربة يجرّها حصانان أخذ يجوب بها في سرعة جنونية حدائق الكلية وساحاتها الخضراء! وحين لم يُبقِ فيها على زهرة واقفة على ساقها أرسل حصانيه في اتجاه لندن التي وصلها وهو مبتهج لطرده من أكسفورد!

التحق رتشارد في رمضان ١٢٥٨/أكتوبر ١٨٤٢ بالفرقة الثامنة عشرة مشاة في قوات شركة الهند البريطانية رغم أنف أبيه، ولم يكن قد تجاوز في تلك الفترة إحدى وعشرين سنة. وفي الهند وجد ضالته في اكتساب التعليم بالممارسة الذاتية للتجارب وبالقراءة أيضاً. وخالط في فترة عمله في الهند كافة طوائفها وأعراقها ومللها، وتعرّف إلى أديانها ونحلها ومعتقداتها، وتعلم اللغتين الهندوستانية والفارسية، وأخذ في دراسة العربية. مارس بيرتون طقوس البراهمة وانخرط في صفوفهم، وعاش في أوساط الهندوس ومارس طقوسهم، وكان الهندوس يحترمونه، لأنه – كما يقول هازئاً – كان يأكل لحم البقر من دون أن يدروا! وكان له تمثال شيطان يعبر عن الوثنية يحتفظ به في غرفة نومه، ويضيف رتشارد: إنه دخل في مدينة كوتشن Cochin في الهند معبداً يهودياً، وقرأ من مواعظهم في كتاب كبير، كما يقرأ كهنتهم تماماً! وعاشر أهل الفساد من كل لون، وعاش – كما يقول – الجانب الإباحي من الحياة

الشرقية. ومن عجب أنه أخذ في هذه الفترة يدرس الإسلام ويخالط المسلمين، وتمكن من حفظ أجزاء كاملة من القرآن الكريم، وتقلب في أوساط الصوفية، وشاقته حياة الدراويش، وعاشر أصحاب الدعوات الباطنية وصاحبهم. وكان - في ما يدّعي - يرتل القرآن ويجوّده تجويداً.

عُرف الرجل في تقارير رؤسائه بأنه مُحبّ للفحش يتعاطاه بنهم، لا يملّ منه ولا يشبع، يمارسه قولاً وفعلاً، ويصوغه أدباً وفكراً، وفق الفلسفات الإباحية التي كان يفخر بأنه من أئمتها. وقد استغلّ رؤساؤه هذا الجانب فيه فكلفوه بدراسة حياة الشواذ جنسياً في السند وجمع معلومات عن بيوت الرذيلة في تلك المنطقة. وتفيد تقارير رؤسائه بأنه قد أدى مهمته بنجاح، لأنه عاشها وجدانياً وأكدها بالتجربة! و لم يكن بيرتون يخجل من أن يجاهر بالفاحشة، بل إنه كان أحياناً يشيعها عن نفسه. فقد كتب عن نفسه أنه مسكون بشيطان، وأن ألاعيب هذا الشيطان تستهويه أكثر من أي شيء آخر. ومن الأمثلة الدالة على تفسخه أنه كان يحتفظ ببعض القرود في منزله، وأشاع أنه متزوج إحداها.

بداية الرحلة

بدأ بيرتون رحلته من ميناء ثاونهامبنتون في ٢٤ جمادى الآخرة ١٢٦٩/٣ إبريل ١٨٥٣ في طريقه إلى الإسكندرية، وعندما استشرف مركبه الأراضي العربية، أخذ يستعرض في مذكراته مخزونه من اللغة العربية الذي ندرك أنه ثري جداً، ولكنه لا يصل بحال إلى درجة النقد والتحليل ورد المشتقات إلى أصولها، فهو قد أخذ اللغة اكتساباً و لم يتعلمها في معهد أو جامعة. فسّر الطرف الأغر "طرف القار" بالإنجليزية، ورأى أنها محرّفة عن طرف الغرب "لأنها تمثل أقصى نقطة غرباً وصلتها الغزوات العربية"، وحين مرّ بساحل أفريقيا الشمالي قال إنه "قد وقع في أحضان سقف العالم الشرقي حيث يتجول النسيم العليل في سديم السماوات المتلألئة بالنجوم ثم ينثني ليحوم في تلك الآجام المتشابكة مُحدثاً صوتاً لا يُحدث مغزاه إلا عن الكآبة".

وصل المركب إلى الإسكندرية ومن هناك راح يعمل على تقمص الشخصية التي تتوافق مع دخوله المدينتين المقدستين المحظورتين على غير المسلمين، حتى لا ينكشف أمره لاحقاً ويفشل، وكان بارعاً في فنون التنكر والقيام بأدوار شخصيات مختلفة منذ طفولته، وقد أجاد تلك الفنون في فترة وجوده في الهند وهو يقوم بمهمات خاصة لحكومته أو إرضاءً لمزاجه الخاص. كان بيرتون في فترة وجوده في أوساط مسلمي الهند قد سمّى نفسه ميرزا عبد الله، وعرف في الإسكندرية أن شخصية الفارسي لم تكن في ذلك الوقت تلقى إعجاباً كبيراً عند عرب الحجاز، فأسقط ميرزا من اسمه الحركي واستبدل به الحاج فأصبح اسمه الحاج عبد الله. وكان للحاج عبد الله خبرته في التصوف التي اكتسبها في الهند وصقلها في الإسكندرية، فلم

يجد صعوبة حين وفد إلى القاهرة في أن ينخرط في سلك الطريقة القادرية، وما لبث أن تدرج في مراتبها حتى وصل إلى مرتبة المرشد بعد أن اكتسب ثقة الشيخ ولي الدين الذي أعاد تسميته فأصبح اسمه بسم الله شاه، إضافة إلى عبد الله الذي احتفظ به. وتبيّن لبيرتون – و لم يجانب الصواب – أن شخصية الدرويش هي الشخصية المثلى في التنكر خلال هذه الرحلة، إذ تتيح له مخالطة المجتمع المسلم في تلك البقاع المقدسة، وتتناسب مع أي شخص، وعلى أي مذهب، ولا ترتبط بسن معينة ولا بعرق بعينه. "فيمكن الفلاح الكسول أن يدّعيها تهرباً من أداء أعماله، كما يمكن أن يدّعيها أي فقير شحاذ معوز"، يقول بيرتون: إن هذه الشخصية تصلح لأي فاسق تاب وثاب إلى ربه "وتدروش" تكفيراً عن ذنوبه، كما تصلح ل"المجذوب" الذي تمكن منه الحب الإلهي أو حب الرسول صلى الله عليه وسلم، ويستطرد فيقول: إن الرحالة الدرويش يأمن المساءلة مهما ارتكب من أخطاء، وإنه يظفر بعطف الجميع مهما أساء الأدب وتعدى حدود اللياقة، ولن يجد من يحاسبه على قول أو فعل. يمكن الدرويش – كما يقول بيرتون – أن يؤدي الصلاة أو لا يؤديها، ولن يثير في الحالتين فضول أحد، كما لن تجد أي أحد يسأله عن هويته، أو من أين أتى، أو أين يقصد، فهو سائح بطبعه، ولن تجد أحداً يتحرى عن السبب الذي جعل هذا الدرويش يمشي راجلاً أو حافياً، أو يمتطي صهوة حصان يحيط به عدد من المريدين، إضافة إلى أن الناس يخشون إغضاب الدرويش، ويمكن أن يُكوّن هذا الأمر له حصانة طبيعية ضدّ تعدّيهم وإن تعدّى عليهم، ويعفيه هذا من حمل سلاح يدافع به عن نفسه. ويضيف بيرتون: إن الدرويش كلما ازداد صلفاً وصفاقة ازداد احترام الآخرين له، وتضاعفت خشيتهم منه. فالدرويش في نهاية الأمر رجل "مجذوب" لا يتصرف وفق إرادته، بل بحسب ما تمليه عليه "الروح". ويستطرد هذا الرحالة ليقول: إذا تهيّأ للدرويش شيء من المعرفة الطبية ودراية بطرف من فنون السحر، وسمعة واسعة بأنه يهتم بالكتب أكثر من أي شيء آخر، فإنه سيغدو آمناً تماماً ولن يتمكن أي مسلم من كشف أمر أي رحالة يجيد أداء هذا الدور المركب.

كان بيرتون يهوى التنكر والمغامرة منذ صغره، ليحقق به لنفسه التعليم الذاتي، ويشبع حب الاستطلاع في شخصيته القلقة. ففي الخامسة عشرة من عمره نزل الطاعون بمدينة نابولي في إيطاليا التي كان يقيم فيها مع أسرته، فتنكر في زي حانوتي، وأخذ يساعد في دفن جثث موتى الفقراء التي كانت تملأ الشوارع. وكتب عن هذه التجربة لاحقاً ووصف "تلك الجثث التي دهمها الموت فتصلبت أعضاؤها واسودّ لونها" وكيف كانوا يلقون بها "مثل الزبالة في مقابر جماعية". كان بيرتون يرى التنكر وسيلة لاكتساب المعرفة لا تدانيها أي وسيلة أخرى، وأن على من يسعى إلى التنكر أن يجيده مهما كانت التضحية. ومن الطريف أنه بدأ تنكره في شخصية المسلم للرحلة إلى المدينتين المقدستين بأن أُجريت له عملية الختان!

يقول بيرتون إنه وجد في الإسكندرية "الكيف" واستمتع بالملذات الحيوانية للرجل الشرقي الذي يجلس هانئاً تحت ظلّ ظليل يبني في الهواء قصوراً، مستمتعاً برطوبة الجوّ وتناول القهوة وتدخين النارجيلة وشراب "الشربات" والاستمتاع برائحة العطر، غير مكترث بما يمكن أن يعكر صفو الحياة. إن غاية ما يطلبه الشرقيون هو الراحة، لا يأنسون إلا للظلّ الظليل للأشجار الفواحة بالأريج على ضفاف نهر متدفق. يُرى الشرقي في ذروة سعادته وهو يدخن غليونه ويرشف قهوته أو يتناول كوباً من الشربات. ولن يتعب جسده أو يشغل فكره إلا بالنزر اليسير حين يهوم فكره في ذكريات سيئة تقطع عليه الكيف. ويضيف أنه لا يجد مرادفاً لكلمة الكيف في الإنجليزية ليُمكن القُرّاء من كنهها. فالكيف لفظ خاص بالعنصر الشرقي دون غيره من العناصر الأخرى. وخلص بيرتون إلى أن الشرقي يختلف في سلوكه عن الأوروبي، فالأخير مفعم بالنشاط يتحرك بصفة دائمة ليقاوم وقع الحياة في أوروبا الباردة الأجواء. وهنا نلاحظ هذه العنصرية التي بدت واضحة في أول مقارنة له بين الشرقي والغربي، وهنا أيضاً يجب أن نشير إلى أن الغربي مهما بلغ في مدارج الثقافة يبقى ذهنه الذي تكوّن في فترة الحروب الصليبية – وبزخم كتابات الرحالة الغربيين، وبالزهو الذي يحسّه أولئك الرحالة بحسبانه مستكشف مناطق في عالم متخلف – ملوّثاً بالعنصرية التي تغلب عليه وإن حاول مغالبتها. فهذه الملاحظة البيئية التي وردت عن هذا الرحالة المثقف هي من موروثات فكر مونتسكيو الذي ربط بين البيئة والاقتصاد في كتابه الشهير **روح القوانين** الذي يرى أن كل المسميات المادية والعقلية من قانون وإنتاج وتجارة وفكر وأخلاق وقيم وتقاليد هي نتاج البيئة. فإذا أخطأ بيرتون في انسياقه وراء مونتسكيو وفلسفته، فإنه أخطأ مرّة أخرى في انسياقه وراء أفكار الرحالة السابقين له، تلك الأفكار التي تميل إلى تعميم الظاهرة الفردية المقطوعة – خاصة إذا كانت ظاهرة غريبة أو متخلفة – على المجتمع كله. فهو حين وجد في الإسكندرية من يجلس هانئاً يبني قصوراً في الهواء عمّم تلك الظاهرة على الشرقيين كلهم! ولنا أن نسأل: كم من أهل الإسكندرية تيسر له هذا الفراغ و"الكيف" ليعممه هذا الرحالة على البلدة كلها أو على سكان مصر جميعهم أو على الجنس العربي قاطبة، ليصل بهذا التعميم إلى أهل الشرق كافة، ثم يحكم بأنهم جميعاً، لطبيعة مناخهم، كسالى لا يجيدون إلا شمّ العطور؟!

أغفل بيرتون الحصول على جواز سفر من إنجلترا ووجد بعض الصعوبات في استخراجه مزوّراً من القنصلية البريطانية في الإسكندرية. يقول إنه ارتدى ملابس رثّة واستعان بلغة إنجليزية مكسرة ليقنع القنصل بأنه من رعايا بريطانيا، وأنه يمتهن الطب، فاقتنع الأخير وأصدر له جوازاً برسم قدره ريال واحد. "ولكن يا لضيعة بريطانيا، الدولة ذات السطوة والصولجان، سيدة البحار التي تحكم سدس الجنس البشري كله ثم تحصل على رسوم قدرها خمسة شلنات لتمد ظلّ حمايتها. يا لخسّة عظمتنا، يا لضآلة فخامتنا".

ترك بيرتون الإسكندرية إلى القاهرة بعد أن أعدّ مستلزمات الرحلة وهي: جبّتان، وحزام جلدي لحفظ العملات الذهبية التي يحملها معه، وكيس نقود صغير من القطن لوضع العملة الفضية والعملات الصغيرة الأخرى التي يحتاج إليها للنثريات، ومسواك وصابونة ومشط من خشب وخنجر ومحبرة نحاسية ومقلمة ملصقة بالحزام ومسبحة طويلة، كما اقتنى زمزمية من جلد الماعز، وشمسية "صفراء اللون تسرّ الناظرين"، وكانت تبدو كأنها زهرة "الماريجولد" وقد تضخّم حجمها، إضافة إلى سجادة فارسية خشنة "لتقوم مقام السرير والمائدة والكرسي وسجادة الصلاة والتلاوة"، وصندوق خشبي أخضر في لون البسلّى لحفظ الأدوية، وثوب قطني طوله ست أقدام وعرضه خمس أقدام، وعادة ما يستعمل هذا الثوب ليتدثر به المسافر في القافلة إذا بلغ منه المرض في الطريق مبلغاً لا يرجى له برء، أو أصابه جرح بليغ. فالقافلة - كما يقول بيرتون - لا تستطيع الانتظار! ولذلك، فإنهم يغسلون هذا المريض أو الجريح ليطهروه دينياً، ثم يدثرونه بهذا الكفن، ويحفرون له حُفرة غير عميقة في الرمال، ويتركونه هناك ليواجه مصيره. ولا يستطيع المرء أن يفكر في مصير مثل هذا من دون أن يصاب بالذعر. ويعدد بيرتون أنواع العذاب التي يواجهها مثل هذا الرجل من آلام الجراح والعطش والشمس الحارقة "التي تنفذ إلى النخاع". والأسوأ من ذلك كله مهاجمة الضباع والغربان والهوام المتوحشة "التي لا تصبر على المرء حتى يُسلم الروح"، وعادة ما يكون مثل هذا الثوب (الكفن) قد رُشّ سابقاً بماء زمزم.

ركب بيرتون قارباً في رحلته إلى القاهرة عبر ترعة المحمودية إلى النيل، إذ لم تكن مصر قد عرفت بعد الخطوط الحديدية، وبلغ القاهرة بعد ثلاثة أيام بدلاً من الثلاثين ساعة المقررة للرحلة، فقد تعرضوا لحادث كاد يودي بمركبهم. وفي المركب تعرّف إلى رجل من لاهور اسمه خودا بخش نامدار "وجرت بيننا الأحاديث التي كشفت وقتها عن الثورة التي قامت بعدئذ في الهند بعد سنتين من نشر حديثي معه (١٨٥٥م)، إضافة إلى أن الرأي الذي قلت به صراحة في ما يخصّ قناة السويس جلب لي في الحالتين عدم رضاء المتنفذين في حكومة الهند البريطانية".

وفي الحقيقة، على الرغم من أن رحلة بيرتون لم تكن ذات صبغة رسمية، إلا أن الهند البريطانية ظلت أبداً في ذهن هذا الرحالة الذي اتهمه رؤساؤه بأنه غالباً ما يزجّ أنفه في ما لا دخل له فيه. فعلى سبيل المثال، نجده حين زار مكّة المكرّمة يلتقي في بيت أم محمد الذي نزل فيه بأربعة خدم من البنغال، ويتحسر على فقدان الهند لهذه القوى العاملة، وينتقد الحاكم البريطاني هناك، ويقول: إن حكم البريطانيين للهند قد أفقر الهند الثرية، وإن خروج هؤلاء المعدمين من الهند لن ينتج إلا السخط والتعصب، ولن يورث الحكومة البريطانية والهند إلا سخط الشعوب الأجنبية وازدراءها. واقترح بيرتون على حكومة الهند أن تقنن خروج الهنود

إلى الحجّ بحيث لا تسمح إلا للموسرين منهم به، ويدين ما يقوم به الهنود في مكّة، الذين يبلغ عددهم نحو ألف وخمسمئة، من تسوّل، وأشار إلى ضرورة تعيين نائب قنصل مسلم في مكة لمعالجة هذه الظاهرة، وأشاد في هذا الصدد بالقناصل البريطانيين في المنطقة وسلوكياتهم وقيامهم بالدفاع عن المصالح البريطانية. وكانت أم محمد تصرف لهؤلاء الخدم رطلاً واحداً من الأرز يومياً، وتترك لهم أن يدبروا بأنفسهم الكركم والبصل اللازمين لطهيه، كما كانت تقدم لهم المأوى ولكنها لم تكن تقدم لهم أي نقود.

تعرّف بيرتون أيضاً إلى التاجر التركي الحاج ولي الدين الذي يقيم في قرية بالقرب من القاهرة، ونزل الرجلان في وكالة الجمالية في الحي اليوناني في غرفتين متجاورتين، وتوثقت العلاقة بينهما من واقع "الأخوة الدينية"! وفي القاهرة مارس بيرتون النطاسة، وادّعى أنه عالج جاريتين من الشخير، ما ضاعف ثمنهما. ومكث بيرتون في القاهرة للدراسة في الأزهر الشريف ليستزيد من علوم العقائد والعبادات، وتتلمذ على الشيخ محمد علي العطار. وحين ظنّ أنه أتقن هذه العلوم الدينية، تقدم إلى القنصل الإيراني في القاهرة للحصول على جواز سفر يمكنه من دخول الحجاز، و لم يحصل عليه، إذ رفض أن يؤدي الرسوم البالغ قدرها أربعة استرلينيات، وكان يساوم على أداء استرليني واحد لهذه الخدمة. وخلع بيرتون عن نفسه شخصية الفارسي، وهي الشخصية التي كان زاهداً فيها منذ زمن، وتنكر في شخصية باتاني، وأشاع أنه أفغاني الأصل ولكنه وُلد وتربّى في الهند، ويقول: إنه يحتج بنشأته في الهند حتى لا يثير الريبة لدى هذه الجماعة حين يتحدث بلكنته غير السوية. وذهب بيرتون لمقابلة شيخ الأفغان ليحصل منه على خطاب مرور إلى الحجاز، وشكا من أن ذلك الشيخ النحيل القصير الأعور صاحب اللحية الكثّة والشارب الذي تشكل فوق شفته النحيلة في غير انتظام قد قضى علي أكثر من نصف وجبته التي كان قد أعدّها لنفسه، ثم قام بعد ذلك فاصطحبه إلى القلعة ومكنه من الحصول على الأوراق الثبوتية اللازمة لدخول الحجاز، و لم يكلفه ذلك سوى "شلن" واحد. وعسى أن يكون ذلك الشيخ قد كفّر بهذه التكلفة الزهيدة عن شراهته التي اشتكى منها هذا الرحالة!

بدأت الاستعدادات النهائية للرحلة إلى شبه الجزيرة، فاشترى بيرتون المؤن الضرورية من شاي وسكر وزيت وخلّ وبسكويت وتبغ وآنية طبخ و"فوانيس" للإضاءة، وقد رتّب كل الأشياء في أكثر من قفّة – زنبيل – أما الأدوية والملابس فقد وضعت في "سحارة" (صندوق خشبي مكعب ضلعه ثلاث أقدام ونصف القدم مكسو بالجلد) واستأجر بعيرين من بعض البدو الذين رافقوه في هذه الرحلة عبر الصحراء من القاهرة إلى السويس.

تحرك بيرتون من القاهرة في الساعة الثالثة من عصر ٢٤ رمضان ١٢٦٩/الأول من يوليو عام ١٨٥٣ بعد أن ودّعه ولي الدين ورافقه شيخه الأزهري حتى باب المدينة، وكان كل المارة

يهللون عند رؤيته ويقولون: بارك الله فيك يا حاج، وأعادك إلى أهلك وأصدقائك سالماً، وكان معه الشيخ نور، وهو هندي اكتراه ليخدمه. وكان نور "قبل أن يكتشف شخصيتي بعد رجوعي من مكة يتصرف بأمانة، ولكنه ما إن أدّى الحج وغسل عنه ذنوبه القديمة، حتى بدأ يمارس السرقة في جرأة، ما اضطرنا إلى أن نفترق".

أبحر بيرتون في ٦ يوليو على السنبوك "سلك الذهب" من السويس مع بعض أصدقائه، ضمن فوج من سبعة وتسعين حاجاً من الحجاج المغاربة، فيما القارب لم يكن يتسع لأكثر من ستين. تكوّم الحجاج في القارب، وحين اشتكوا من الزحام عرض عليهم مالك القارب أن يعيد النقود لمن شاء أن يتخلف، فلم ينزل من القارب أحد. وهكذا أبحر الرجل بعد التوكل على الله "الذي يجعل كل صعب هيّناً". تقمص بيرتون شخصية الدرويش الطبيب الذي يتعاطى ضروباً من السحر، وأخذ يطبّق وصية أحد أصدقائه بأن يعلن بنحو متكرر، كلما سنحت الفرصة، أنه يقوم بحجه هذا وفاءً لنذر سابق، فمثل هذا القول يكسبه المزيد من تقدير من يخالطهم ويجعله عندهم أكثر قبولاً. دخل "سلك الذهب" الطور حيث تزوّد بالماء واجتاز العقبة، فالوجه، ثم وصل إلى ينبع، ميناء المدينة المنوّرة في ١٠ شوال ١٢٦٩/١٧ يوليو بعد رحلة دامت اثني عشر يوماً بدلاً من الخمسة أيام المعتادة، قطع خلالها مئتين وخمسين ميلاً من السويس إلى ينبع. ويعزو هذه الفترة الطويلة التي استغرقتها الرحلة إلى أن العرب لا يحرون ليلاً بل نهاراً، حين تصبح الرياح المُحمّلة بالحرارة من الساحل الصحراوي كالصادرة من فرن وهي تهبّ على المسافرين الذين يبدون كالنائمين، ولكنهم كانوا على درجة من عدم الإحساس ويدركون أن زخّة أخرى من الحرّ قد تعني الموت. تنعكس أشعة الشمس على سطح المياه التي تعكسها بدورها بريقاً يُعمي البصر ولهيباً يُدمي الجلد ويجفف الفم، إلى درجة تصيب المرء بالهوس. وفي المساء يلجأ المركب إلى فجوة في الساحل، فيطبخ المسافرون وجباتهم ويدخنون ويروون الحكايات حول النار، وقد ينامون على رمال الساحل حتى الصباح.

ميناء ينبع

راع بيرتون – في ما يدّعي – منظر ينبع التي تشكلت من صف طويل من المنازل البيضاء تقوم على سهل أحرقته الشمس، ويمتد في ما وراء تلك المنازل سهل منبسط تعلوه غبرة. وتعجب الرجل من أولئك الجنود الزنوج "القذرين" في ينبع الذين ينظرون إلى الناس "في أنفة وكبرياء ووجوههم مقطبة، والذين يقومون مقام الشرطة للشريف الذي يحكم البلدة التي تمثّل الحدّ الفاصل بين سلطة باشا مصر وسلطة السلطان العثماني". ويلاحظ هذا الرحالة أن "الناس مسلحون أكثر مما يجب، متلفعون بالملابس أكثر مما ينبغي، وأنهم متعصبون وأبلغ أهل الحجاز

شغباً". وأفاد بأن كل واحد من أهل تلك البلدة قد تسلح بعصا غليظة (نبوت) يسندها إلى كتفه اليمنى، وهي جاهزة لتصوب إلى رأس الخصم فوراً لحسم أي خلافات طارئة. وكان فيهم نفر من البدو المتجهمين كصحرائهم الجافة تكللهم الأنفة والبساطة. غير أنه استمتع في تلك البلدة ب"الحمام الساخن" وبالماء العذب، واستطاع بعد مساومات أن يكتري إبلاً لتأخذه إلى المدينة المنوّرة لقاء ثلاثة ريالات لكل بعير، على أن يدفع نصف الإيجار فوراً، ويؤدي النصف الثاني عند بلوغه نهاية الرحلة. ولم يكن الرجل سعيداً بالدليلين اللذين رافقا إبلهما، فقد قال عنهما: إنهما ينتميان إلى قبيلة "حرب، وهي إحدى قبائل الحجاز العريقة التي حافظت فترة طويلة على نقاء نسبها، ولكن اختلاط هذين الرجلين بالحجاج قد أفسدهما، فلم يتبقّ لهما من صفات أسلافهما سوى الجشع، وحب المال، وعدم التسامح، وبعض فلتات من شجاعة تعلن نفسها بين الفينة والأخرى".

يصف بيرتون الرجلين فيقول: إن كلاً منهما يتميز بجسم نحيل وأطراف متساوية، ولكنها هزيلة، وحاجبين ناتئين، ولحية تحيط بوجه صاحبها كأنها تخنقه، ونظرات متوثبة للشر أبداً، أما صوتاهما فيبعثان على الضحك. ويضيف: إن كلا الرجلين كان يستر جسده ذا اللون الحنطي بأطمار بالية، لكنهما مع ذلك كانا يظهران أنفة وكبرياء. وينعى بيرتون على الرجلين أنهما كان يزدردان طعامه ازدراداً ولا يتورّعان عن طلب المزيد، وكانا مع ذلك يأنفان من خدمته إلى درجة أن وعوده لهما ب"البقشيش" ما كانت كافية لدفعهما إلى مساعدته في نصب خيمته. ورأى بيرتون أن الطبقات الدنيا من الشرقيين يجب أن تُؤخذ بالشدّة وتُعامل بغلظة، ومعاملتهم بالمعروف تُعدّ عندهم دليلاً على الضعف والخور. "كنت بادئ الأمر لطيفاً معه، ولكني اضطررت إلى غير ذلك، وبتّ أسبّه بكلمات نابية، يا ابن... وألاحقه بالتهديد. ورغم أنه كان يهمهم ويبرطم تحسن أداؤه".

في الحقيقة ليس ثمّة جديد في نظرة بيرتون إلى عرب شبه الجزيرة في هذين الرجلين وفي وضعهم أيضاً في مناسبات أخرى لا نرى داعياً لاستقصائها. فالرحالة اللاحق لا يملك إلا أن يدير شريط "الإستيرو" الذي تلقفه من سابقه ليطرب لأنغام هذا "النبل البدائي"، ونلاحظ أن نغمة الاستعلاء تزيد عند موظفي حكومة الهند البريطانية الذين يزورون المنطقة، وتصبح أكثر حدّة عندهم ممن سواهم، فهم لا يرون أبداً الحقّ لأصحاب الأطمار البالية في الأنفة والإباء فوق أرضهم وتحت أديم سمائهم. فاضل بيرتون بين بدو الحجاز، وخصّ قبيلة عنزة بالقدح المعلى في كتاباته، شأنه في ذلك شأن بوركهاردت، إلا أن أسلوب بيرتون الرشيق اكتسى غلالة شفافة من السخرية لا يثير حفيظة القارئ العربي بقدر ما يستثير غيظه. ودرج العديد من الرحالة السابقين لبيرتون على المفاضلة بين العنصرين العربي والتركي، وتفضيل الأول على الأخير، فيما فاضل أبو الشوارب بين العرب والهنود الحمر الذين حلّت عليهم نقمة الغرب فأسكنتهم

باطن أرضهم التي اغتصبها الغرب بعد إبادتهم. يقول بيرتون: إن العرب كما الهنود الحمر أمراء في أسمالهم البالية، فكلاهما يقتات الغارات ويمتهن النهب، وكلاهما لا يعرف عملاً إلا الحرب والطراد. والعربي مثله مثل الهندي الأحمر شجاع إلى حدّ البسالة، وهو مثله في توخي الحذر. هم شجعان متهورون، ولكنهم لا يحتملون وطأة الأخطار، وكلا العنصرين يكره الزيف في أهل الحواضر ويقاومهم بازدراء كما يفعل ديكٌ فحل أطلق على جماعة من الدجاج داخل حظيرتها. ويستطرد بيرتون فيفضل العرب علي الهنود الحمر، ويرجح كفتهم لأنهم يحسنون معاملة المرأة، ولأنهم امتازوا برقي ذهني سطّر في يوم من الأيام صفحات عديدة في كتاب تاريخ البشرية.

قرأ بيرتون كثيراً لكافة الرحالة الغربيين الذين سبقوه إلى الجزيرة العربية، وكثيراً ما استشهد بهم أو نقل عنهم، كما امتاز على كثير ممن سبقوه بزخم متراكم من الثقافة الأوروبية، وبحكم هويته وبمثابرته على تنمية محصلته منها بالقراءة الجادة التي كان عادة ما يحاول أن يمتحنها بالتجربة التي يؤمن بأنها معلّمه الأول الموثوق به، أما الثقافة العربية الإسلامية فقد عرف منها ما يتصل بمهمته في شغف لا مزيد فوقه، واطلع على أمهات الكتب في هذا المضمار، ولكن بلا مرشد ولا معلم، فأخطأ أكثر مما أصاب، ولم يكتف بذلك، بل خالط المسلمين والعرب في أوطانهم، وكان دقيق الملاحظة يراعي في تصرفاته أَبسط الأشياء، فجاءت كتاباته في الموضوعات الحسية الملموسة أكثر صدقاً من كتابات الكثيرين من أمثاله.

يقول بيرتون – على سبيل المثال – إن استراتيجية التنكر تضطر المرء إلى أن يلاحظ تفاصيل كل شيء واستيعابه بدقّة. انظر – على سبيل المثال – إلى الهندي المسلم وهو يشرب كوباً من الماء. إننا نقوم بهذه العملية بمنتهى البساطة، ولكنه حين يقوم بها يُؤدي خمس حركات على الأقل: تجده يمسك الكوب بقوّة، وكأنه يضغط على رقبة عدوه، ثم يذكر اسم الله قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، وذلك قبل أن يبلل شفتيه بالماء، ثم يأخذ في امتصاص الماء امتصاصاً ويزدرده بدلاً من أن يرتشفه، وينتهي بإصدار صوت كصوت الخنزير(؟!)، والرابعة أنه قبل أن يضع الكوب من يده يقول: الحمد لله، والعبارة لا يعرف معناها الحقيقي في هذه الحالة إلا من يعيش في جوّ الصحراء، أما الخامسة فهي أن يرد على صديقه الذي يقول له: صحّة وعافية بلفظ: شكر الله لك.

وهكذا تتجلى الصور الدرامية الساخرة في رواية بيرتون الذي لم تسلم حتى قرود الحجاز منها. يقول بيرتون إن القرد الحجازي ينبطح أرضاً بحيث تكون مؤخرته الحمراء مكشوفة، فيقع الطير عليها ظناً منه أنها قطعة لحم ملقاة في العراء، وسرعان ما يثب على الطير الغافل قرد آخر من مكان قريب كان يختبئ فيه متربصاً فيمسك به ويلتهمه. ولا ندري مدى صحة هذا التعاون (القرودي) من أجل الحياة في صحارى الحجاز، فلربما كان من طرائف بيرتون

الذي لا يني يزخرف بها سرده في كل صفحة من صفحات كتابه الذي نرى أنه امتاز بقدر وافر من الجدية.

في هذا الصدد، فإننا نعجب لسعة اطلاع بيرتون على شؤون المسلمين وممارساته العملية لكثير من الشعائر الإسلامية بحذق وإتقان، حتى إنه – في ما يقول – صام رمضان في وقت اشتدّ فيه الحرّ، و لم يعمل حتى في خلوته على استراق جرعة ماء، لأنه عمل على أن يعيش التجربة شهراً كاملاً! وتشهد على ثقافته الواسعة في مجال الدراسات العربية والإسلامية ترجمته معانيها بنحو صادق إلى حد بعيد، ولا نراه تعمّد تشويهها إلا نادراً حين تغلبه سخريته المميزة لهذه الشخصية، كما كان يفسرها أحياناً بالخبث بحسب ثقافته. وأورد بيرتون عدداً من الأحاديث الصحيحة، وكانت ترجمته لها – على الجملة – أمينة، وأورد كذلك مجموعة من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، ولكنه نقلها عن مصادرها و لم يكذب فيها. كذلك قرأ أيضاً لبعض الفرق الباطنية وأخذ عنهم، ولكنه خلط بين الملل والنحل وأقحم تفسيرات هذه في تلك. ونعتقد أنه رغم تفسيره كل تلك النصوص المقدسة بكل التعصب الثقافي الموروث في الغرب، نقل طرفاً من التراث الإسلامي والعربي للغرب، قصد أو لم يقصد. كان بيرتون علمانياً لا يهتم بالدين كثيراً، وربما سخر من كثير مما أورده في ما يخصّ الإسلام، ولكنه كان متوازناً في سخريته التي طبّقها في مؤلفه هذا على النصرانية التي يُفترض أنه من معتنقيها، وعلى أديان ومعتقدات وملل أخرى. فالرجل لعين لا يأبه لدين، ولا يبحث عن هداية في الإسلام أو النصرانية أو في سواهما من سائر المعتقدات.

اعتمد بيرتون على بعض كتب السيرة النبوية الشريفة، سمّاها ونقل عنها، كما استشهد بكثير من الشعر الجاهلي، خاصة المعلقات العشر. أما أبو الطيب المتنبي فقد أعجب الرجل بشعره، حتى إنه بدأ مقدمة كتابه عن الحجّ إلى مكة والمدينة ببيت شعرٍ له كتبه بالعربية، ثم أضاف إليه الترجمة الإنجليزية. يقول هذا البيت:

الليل والخيل والبيداء تعرفني والسيف والضيف والقرطاس والقلم

نعتقد أن في الرجلين – المتنبي وبيرتون – شيئاً مشتركاً، وإن غمض علينا تحديده. وإذا كان بيرتون قد حرّف بيت المتنبي عمداً أو عن جهل حين وضع "الضيف" مكان "الرمح" الذي ثبت عن المتنبي، نرى أن للأول أذناً موسيقية تستوعب الجناس، وهو أمر لم يكن يغرب عن بال شاعرنا العربي الذي أبى طيلة حياته أن يكون "مضيفاً"، فقد سعى أبداً لأن يكون ضيفاً يفرض شروط إقامته على مضيفه:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فإني أغني منذ حين وتشرب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ففضلك يكسوني ومدحك يسلب

كان بيرتون بدوره شاعراً فحلاً كما يقول نقاده من الإنجليز، والعُهدة عليهم. ومن قصائده

الشهيرة عندهم: حديث الحجر Stone Talk (١٨٦٥م) وهي قصيدة انتقد فيها موظفي الحكومة البريطانية بعنف وحدّة وسخر منهم، وفنّد فيها أوجاع السلوك السائد في المجتمع البريطاني وقتها.

لم يكتفِ بيرتون بكتب أهل السنّة في دراسته للإسلام، بل اعتمد بنحو كبير على كثير من كتب الشيعة، كما أخذ أيضاً عن الحكايات التوراتية والإسرائيليات الواردة في كتب العرب، وحاول – في ما نعتقد – أن يعامل هذا الخليط الثقافي كله – اعتباراً من القرآن الكريم ونزولاً إلى روايات مرافقيه وأصدقائه في مختلف الطبقات في البادية والحاضرة وكافة من لقيهم من علماء الشيعة والسنّة، والقائلين بالفكر الباطني، وأهل الزور والضلال، إضافة إلى ما اختزنه من الفكر اليوناني الروماني، والفكر الغربي عموماً واتجاهاته التوراتية والنصرانية والإلحادية والوثنية – معاملة نقدية واحدة، واعتمد كل هذه المصادر وعالجها بمنهج نقدي لم يراعِ اختلافها ولا ائتلافها، ما أورث ذهنه تشويشاً جعله في كثير من الأحيان يهرب إلى السخرية، فأفسد بذلك تحليلاته وتعليلاته، إلا أن وفرة علمه ودقّة ملاحظته تجعلاننا معشر المؤرخين نأخذ عنه – بعد النقد والتمحيص – ما أدركه بخبرته المكتسبة في ما يتصل بالخريطة الحقيقية للحالة الاجتماعية والمادية في المدينتين المقدستين، وكذلك أشكال المزارات فيهما. فالرجل وإن كان كافراً ومنكراً – كما يعتقد البعض – لم يتعمد الكذب، فقد كان يدرس ثم يطبق ويعمل ليتعلم من تجربته.

الطريق بين ينبع والمدينة المنوّرة

يقول رتشارد بيرتون عن رحلته إلى المدينة المنورة، التي بدأها من ينبع في مساء يوم ١٨ يوليو/ ١٠ شوال، إنه سافر في قافلة كانت تسير ليلاً وتستريح نهاراً على تلك الأرض الرائعة في وحشتها التي ألهبتها الشمس حتى جففت كل ذي عصارة فيها، يتلوّى دربهم تفادياً لكتل الغرانيت المبعثرة على أديم الأرض المشققة الموات التي تبدو شقوقها كالجراح الغائرة، تظللهم سماء كأن صفحتها صيغت من فولاذ أزرق صقيل. ليس في هذا الدرب من أثر لحياة، حتى إن حشيش علف الإبل لم يجد من التراب ما يكفي لنمو جذوره. ويضيف بيرتون أن كل الطريق بين ينبع والمدينة الذي يبلغ طوله حوالى مئة وثلاثين ميلاً طريق صعب المسالك صخري في أعمّه، يفتقر إلى موارد الماء، أما الجوّ الذي يسوده فهو "التبادل بين النار والثلج"، ويتحكم في هذا الطريق "الحروب"، بدو الجبال الذين كان شيخهم "سعد" قاطع طريق من الطراز الأول، "وهو رجل ضئيل الجسم، متناسق الأطراف، حنطي اللون، مشهود له بالشجاعة والذكاء، ما كتب له النجاة دائماً من مسدسات أعدائه والسمّ الذي يدسّونه له. يعرفه البعض صديقاً

للمساكين، ويعرفه الجميع عـدواً للأغنياء". ولا نعرف هنا إن كان بيرتون يعيد لنا من خلال معرفته بالشعر العربي رسم صورة السليك بن السلكة أو يعيد لنا من خلال ثقافته الغربية صورة أخرى لروبن هود.

يقول بيرتون: إن الرحلة بين البلدين تستغرق خمسة أيام، ويعدّ نفسه محظوظاً لأنه قطعها في ثمانية للأخطار التي واجهت الركب. اشترى من ينبع "شقدفاً" (راجع الرسم) يتسع لاثنين واختار الصبي محمد البستاني، أحد معارفه من ذوي الشهامة والشجاعة، ليكون رفيقه. ولما كان الشقدف "وسيلة سفر النساء والأطفال والضعاف والمعوقين"، فقد اعتذر بيرتون بجرح أصابه، ولكنه اختار هذه الوسيلة بطبيعة الحال حتى يخلو بنفسه ويكتب مذكراته بعيداً عن أعين رفاق سفره. تحرّك الركب من ينبع بكل ما يميّز الرجال من همّة، وطفقنا ندخل رؤوسنا في فك الأسد. وكان القمر بازغاً، عالياً وصافياً يطلّ علينا ونحن نغادر الشوارع المعتمة، ويستشرف هذه الصحراء التي هبت علينا نسائمها البليلة النقية تبدد هواء المدينة الراكد. وارتفعت عقائر مرافقيّ من العرب تصدح بالغناء، وهكذا دأب العرب كلهم حين يرتحلون. نسوا أنهم يحملون نفائس القسطنطينية التي يمكن أن تكون عرضة للنهب، وطفق ركبهم يواصل طريقه حتى الثالثة صباحاً فأناخوا. ويروي بيرتون أن العرب يسافرون ليلاً استجابة لحديث شريف جاء فيه أن هوام الأرض من عقارب وثعابين وحيوانات متوحشة أخرى فتاكة تكون أكثر فتكاً في ساعات الظلام. ونحن إذ لا نجد ضرورة في تحقيق الحديث نقول: إن بيرتون هنا قد خالف أقوال كافة الرحالة السابقين له الذين عرفوا من العرب أن سرى الليل يقيهم ودوابهم شدة الهجير وحدّة العطش، وهذا تفسير لا يحتاج إلى اجتهاد ليخرج منه بيرتون إلى غيره. وربما تضطر بعض القوافل إلى أن تسير نهاراً في بعض الأحوال لدواعي الأمن أو غير ذلك من الأسباب الطارئة.

صادف ركب بيرتون في اليوم التالي قافلة من مئتي بعير تحمل غلالاً في طريقها إلى المدينة المنوّرة، يحرسها سبعة من جنود الباشبوزغ، وهم الجنود غير النظاميين. وأكد هؤلاء الجنود لبيرتون ومرافقيه - كما يقول - أن البدو "قد خرجوا" للنهب وأن سعد "رجل الجبال العجوز هدد بأنه سيقطع رقبة كل امرئ يجرؤ على المرور" عبر هذا الطريق. ويقول بيرتون: "إن اللصوص قد أظهروا لنا في هذه الليلة شيئاً يسيراً من دربتهم، ولكنهم سرعان ما هربوا. وفي اليوم الثالث عبر ركبهم "أرضاً حديدية تظللها سماء نحاسية"، وانتهى إلى قرية انتشرت أحياؤها في غير انتظام هي قرية "الحمراء" التي استمدت اسمها من لون ترابها الأحمر، "وتُعدّ هذه القرية موقعاً في منتصف الطريق بين ينبع والمدينة". وسار الركب في اليوم الرابع حتى أشرف على درب السلطان الذي يربط بين مكة والمدينة، وهنا انضم إلى ركبهم "بعض الأتقياء" الذين كانوا في طريقهم للزيارة. وقضى الركب اليومين الخامس والسادس في مكان

يسمى بئر عباس حيث أناخوا عند ذلك الماء، وكانوا – في ما يدّعي – يسمعون تردد صدى بعض الطلقات، ما يدل على "أن البعض كان يُسوي مع رجال الجبال نزاعاً صغيراً". ويضيف أن مرافقيه ما كانوا مكترثين لما يحملونه من ثروة، وقضوا وقتهم في نزاع وشجار بعضهم مع بعض.

اجتمع عند بئر عباس عدد من القوافل، بين ثلاث وأربع، فألّفوا قوّة واحدة يمكن أن تشكل دفاعاً ضد البدو. وتحرك الركب في يوم ٢٣ يوليو في الحادية عشرة مساءً وأدلجوا فوصلوا مع الفجر إلى منطقة شعاب الحاج، وهي منطقة بدت لهم حين اقتربوا منها "تصيب الشجاع بالهلع"، وكانت أعمدة الدخان الأسود تتصاعد على أجنحة هواء الصباح الراكد من اتجاه صخرة "على يسارنا"، وكانت بنادق "رجال الجبال" يعلو صداها مدوياً، تردد الصخور التي على ميمنتنا صداه، "فقد انتشر على منحدراتها عدد من البدو" كأنهم الأفاعي المجنّحة "يحملون أسلحة حرب ضخمة". تحصّن أولئك النفر وراء سواتر من الأحجار التي كوّموا بعضها فوق بعض "وراحوا في تصميمهم على قطع الرقاب يرسلون وابلاً من الرصاص من مكامنهم الآمنة". يقول بيرتون: إن القافلة لم تجد ما تفعله سوى أن أفرادها راحوا يطلقون الرصاص، فاتخذوا من دخانه ساتراً وقاهم حتى تركوا تلك المنطقة و لم يفقدوا سوى اثني عشر رجلاً، وعدداً من الإبل، وبعض أحمال الدواب. نجد من جانبنا أن ما رواه بيرتون هنا هو الصورة النمطية التي تتكرر عند كافة الرحالة الغربيين، ونجده أكثر صدقاً من سابقيه الذين كانوا عادة ما يسندون إلى أنفسهم أدواراً بطولية في حماية رفاق طريقهم، تضيف إلى خيال القراء الغربيين أبعاداً للخوارق التي يقوم بها أبناء جلدتهم لإنقاذ من لا يعنيهم أمره من تعديات البدو وأخطار البادية!

يصف بيرتون ليلة ٢٤ يوليو بأنها كانت قاسية، فقد راحوا يعبرون طريقاً وعراً يمرّ عبر ممر جبلي صخري مرتفع زلق، عانت منه الإبل التي كان راكبوها يحثونها على الإسراع رغم خطر العقبات التي كانت تقيّد خطاها. وتسمّرت الشفاه وساد صمت لم يقطعه إلا همس الرجل لمن يجاوره: هل ظهر اللصوص؟ ويتلقى إجابة مقتضبة: لا. وحين أصبحوا فوق ذلك المدرج البازلتي تبدّى لهم فجأة منظر المدينة المنوّرة كأنه حلم من قصص ألف ليلة وليلة. وفجأة أيضاً أوقفنا دوابنا وكأن أمراً قد صدر لنا بإيقافها، ونزل الجميع كما كان يفعل الأتقياء القدامى، وجلسوا على الأرض مجهدين جوعى، ليملأوا أعينهم من منظر أرض النخيل التي مثلت لهم عيداً بعد اجتيازهم تلك الأرض الصخرية الجرداء. ورحنا نتطلع إلى الشرق حيث برزت الشمس من حجرها في الأفق من وراء تلّ أسود، وتبدّت لنا حدود هضبة نجد من وراء سهل عكس لوناً أصفر وأشعّة بنفسجية، وإذا التفتنا إلى يسارنا ونظرنا في اتجاه الشمال وقع بصرنا على جبل أُحُد الشهير، وهو معلم له مكانته في الإسلام وتقوم قبّة عند سفحه، وتبدو

منازل المدينة وقد تكدّس بعضها فوق بعض، يحيط بها سور بيضاوي الشكل في غير انتظام، كما يمكن رؤية المآذن الأربع العالية تحيط بالقبّة الخضراء العظيمة التي تظلل قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وحين ننظر في اتجاهي الغرب والجنوب، نرى المزارع والبساتين البهيجة، وقد أدركت في هذه اللحظة معنى الشعيرة الإسلامية: على الحجاج ما إن تقع أنظارهم على أشجار المدينة المنوّرة أن يرفعوا أصواتهم ويلهجوا بالصلاة على النبي بأفضل صلاة ممكنة (؟!). إن أكثر ما أثار اهتمامي في هذه "البانوراما" التي تتمثل أمامي بعد أن تمكنا من اجتياز ذلك القفر اليباب حتى وصلنا إلى هنا هو هذه البساتين القائمة على أطراف المدينة، وأخذ رفاقي يُصلّون على النبي مراراً وتكراراً...

امتطينا دوابنا مرّة أخرى، ورحنا نحث خطاها حتى اجتزنا باب الأميري الذي تجمهر عنده الأقارب والأصدقاء ليكونوا في استقبال العائدين. ومضينا في هذا الطريق الترابي الذي تداعت الخرائب على جانبيه حتى وصلنا إلى موضع يسمى المناخة، وهو مكان تجمع إبل المسافرين، ويقود هذا الطريق إلى باب المصري مباشرة، ولكننا انحرفنا عنه إلى اليمين وسرنا مسافة بضع ياردات فقط، لنجد أنفسنا عند مدخل بيت الشيخ حامد الذي كان قد تقدم ركبنا للإعداد لاستقبالنا في منزله.

زيارة المسجد النبوي الشريف

يحظر تأجيل زيارة الحرم فترة بعد الوصول إلى المدينة، فبالكاد تمكنا من تناول إفطارنا ثم الوضوء واستبدال ملابس السفر المغبرة. وركبنا بعدئذ على الحمير التي أخذتنا عبر البوابة الغربية (باب المصري) لنجد أنفسنا فجأة عند المسجد النبوي. ويشير بيرتون إلى أن الدروب إلى المسجد قامت عندها أعداد من البيوت "الحقيرة الشكل" حتى كادت تسدها، وحين وصلوا إلى هناك دخل ومرافقيه باب المسجد عبر باب الرحمة، وأضاف: إنه لم يُؤخذ بمنظر المسجد المملوء بالزخارف بشكل مبهرج.

تحدث بيرتون عن تاريخ بناء المسجد النبوي، وكيف بُني أول عهده باللَّبِن في بستان تظلله أشجار النخيل. ويقول: إن المبنى الذي يزوره حالياً بُني قبل حوالى أربعة قرون من الحجر على شكل مستطيل تتراوح أبعاده بين أربعمئة وعشرين قدماً طولاً وثلاثمئة وعشرين عرضاً، وفي منتصفه منطقة مسوّرة مكشوفة تضمّ "حديقة ستنا فاطمة"، وعند الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا المبنى "بئر النبي" وعليها سقيفة خشبية على أعمدة. ويرى بيرتون أن مياهها عسرة ملحية. ويجتمع قرب البئر في الصباح والمساء "فقهاء المدينة" لتدريس طلابهم. ويكتب بيرتون في وصف ساحة المسجد والأروقة الأربعة التي تحيط به والتي قال: إنها تختلف في

أنماطها وأشكالها وحتى في المواد التي بنيت بها، وإن الرواق الشمالي الذي كانوا يبنونه في الفترة التي أقام فيها في المدينة، والذي سُمّي رواق عبد المجيد - السلطان الحاكم في ذلك الوقت - سيكون أفخم وأبهى. ويأخذ بيرتون في وصف المسجد وفرشه، كما تناول طرفاً من سيرة صاحبه، عليه أفضل الصلاة والتسليم، فقال: إنه صلى الله عليه وسلم قد توفي عن ثلاثة وستين عاماً في السنة الحادية عشرة من بعثته التي توافق ٦٣٢م، ونقل عنه صلى الله عليه وسلم أن الأنبياء يُدفنون حيث تُوافيهم منيتهم، ولذلك فقد أمر خليفته رضي الله عنه بدفنه في غرفة السيدة عائشة، وهي غرفة كانت مجاورة للمسجد النبوي حين ذاك. وانتقلت السيدة لتعيش في غرفة مجاورة لا يفصلها عن القبر إلا حاجز. ولما كان هذا المكان من المسجد فقد تعارض ذلك مع نهيه صلى الله عليه وسلم أن يتخذوا من قبور الأنبياء مساجد، وكان عليهم - نتيجة لذلك - أن يفكروا في طريقة بحيث تكون هذه المنطقة داخل المسجد ولكن خارج نطاق المصلى، منطقة التعبد، ولذا فقد بنوا برجاً في الناحية الجنوبية الشرقية من المسجد سمّوه الحُجرة. وهي منطقة مربعة طول ضلعها بين خمسين وخمس وخمسين قدماً، محاطة بممر، ورفعوا أسواره حتى السقف، وتوّجوه بقبة، وهي التي تبدو بارزة للعيان ما إن يشرف الزائر على المدينة.

"دخلنا المسجد من باب السلام، وأخذنا طريقنا في تؤدة في محاذاة سور يصل ارتفاعه إلى قامة الرجل تقريباً يسمى الواجهة الشريفة". وحين وصل بيرتون مع رفيقه حامد إلى مواجهة القبر الشريف، طلب منه الأخير أن يردد وراءه الدعاء الآتي: "بسم الله وببركة رسول الله، اللهم أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، وهب لي من لدنك سلطاناً نصيراً... وامنحني قربك، وصلى الله على النبي.. وافتح لي يا الله أبواب رحمتك وأدخلني فيها واحمني من الشيطان الرجيم".

زار بيرتون بعدئذ المحراب السليماني، مصلى الشافعية، الذي كان السلطان سليمان القانوني قد تكفل ببنائه، ووصل في رفقة حامد إلى مكان المنبر الشريف، ورأى المحراب النبوي، مصلى الحنفية، وأبدى إعجابه بالفسيفساء الرائعة والزخرفة على الرخام ذي الألوان المتعددة، كما أشاد بالمنبر الذي وصفه بأنه مجموعة أعمدة رفيعة زُينت بزخارف شجرية أنيقة وكتابات محفورة بشكل جذّاب.

أتى بيرتون بعدئذ إلى الروضة الشريفة ونقل عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -: "ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة". وفي الروضة أدى بيرتون مع حامد صلاة العصر، وأدى بعد ذلك - في ما يقول - ركعتي صلاة تحية المسجد (؟)، ثم قرأ سورة "الكافرون" عشر مرّات، ثم سجد بعدئذ سجدة الشكر (؟)، وقام بعد ذلك متجهاً لزيارة القبر الشريف وهو يردد: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً".

وردد دعاء الرسول لربه: "اللهم، لا تجعل قبري وثناً يعبد... لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد...". وحين أصبح بيرتون عند شباك حجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - في مواجهة الحضرة الشريفة، أخذ يردد بصوت خفيض: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا صفي الله، السلام عليك يا أفضل خلق الله، السلام عليك يا إمام الأنبياء، السلام عليك يا أمير الأتقياء، السلام عليك وعلى آلك وزوجاتك الطاهرات وعلى كافة الأنبياء، وعلى كل الذين أرسلهم الله لنشر كلمته. أشهد أنك عبد الله ورسوله الصادق وأفضل خلقه، وأشهد أنك رسول الله قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة بالصدق، وفتحت باب التوبة، وأقمت الحجة، وجاهدت بإخلاص في سبيل الله، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين. نحن أحبابك يا رسول الله أتيناك من فجاج بعيدة وبلاد نائية، وخضنا إليك الأخطار، وجابهنا الصعاب في ظلام الليل ووضح النهار، وذلك شوقاً منا لأداء حقوقك علينا. لقد أثقلت الخطايا ظهورنا وأنت شفيعنا لدى التواب: "ومن يعمل سوءاً ويظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً". الشفاعة يا رسول الله، الشفاعة، الشفاعة. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وآته الدرجة الرفيعة ومقاماً محموداً الذي وعدته، وارزقنا بكرمكَ يا الله، ويسر لنا إتمام هذه الزيارة، وأشهد وأنا بجوارك يا رسول الله في هذه البقعة بشهادتي التي لن أحيد عنها اعتباراً من هذا اليوم حتى يوم الحساب. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. آمين يا رب العالمين. الفاتحة: وتجري كلماتها على النحو التالي...

هكذا انتهت الزيارة "وقمنا بعدئذ بتوزيع الصدقة"، ثم خطا بيرتون وصاحبه مقدار خطوة ونصف حتى أصبحا في مواجهة الشباك الثاني، فأدّيا التحية لساكن الضريح: السلام عليك يا أبا بكر، يا أيها الصديق، السلام عليك يا خليفة رسول الله في خلق الله، السلام عليك يا رفيق الغار، يا صديق الأسفار، يا لواء المهاجرين والأنصار. أشهد أنك قد ثبتّ على الطريق المستقيم، وكنت حاسماً على الكافرين، وباراً بأهلك الأقربين. وأكرمك الله ببركة نبيه. ونحن ندعو الله أن نموت على حبك، وأن نحشر في زمرة رسول الله وفي صحبتك. وقد كان الله بنا حفياً حين يسر لنا هذه الزيارة. وخطا بيرتون خطوة أخرى في اتجاه اليمين حتى غدا في مواجهة ضريح الفاروق عمر، وأشار بيده تحية عند الشباك ودعا قائلاً: السلام عليك يا عمر، يا أمير المؤمنين، يا من عُرف بقول الصدق، يا من جعلت عالمك يوافق كتاب الله المبين، يا أيها الفاروق الأمين المؤتمن، فأنت الذي جعلتهم يستكملون العدد أربعين (؟) وتسببت في فلاح الصلاة على النبي (؟) ولقيت ربك شهيداً مرضياً. لقد أحسن الله إليك برسوله وبخليفته وبالمسلمين... رضي الله عنك... الفاتحة... ثم ذهب بيرتون مع صاحبه إلى الركن الجنوبي الشرقي للضريح حيث مهبط جبريل واستدارا ثم تليا الدعوات الآتية: السلام عليكم يا ملائكة الله المقربين المشرفين الأتقياء الأطهار الذين شرفهم الله بالجلال في السماء وعلى الأرض، يا إلهنا يا رحمن يا ذا

الجلال والإكرام، يا رحمن يا رحيم، أتمم لنا نورنا، واغفر لنا خطايانا، واقبل توبتنا، وابعثنا مع الأبرار. السلام عليكم يا ملائكة الرحمة، فرادى ومجتمعين ورحمة الله وبركاته. وهكذا انتهت الزيارة وخرج بيرتون مع رفيقه من المسجد "مقدماً رجله اليمنى في الخروج، وكان قد قدّم اليسرى عند الدخول. وهنا أخطأ الرجل في سرده فعكس ما رواه هو الصحيح.

بيرتون في البقيع

يقول بيرتون: إن أول من دُفن في البقيع هو عثمان بن مظعون – رضي الله عنه – الذي توفي في المدينة المنوّرة في شهر شعبان في السنة الثالثة من الهجرة، وهو أول من توفي من المهاجرين، ويقال: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد قبّل جبهته عند الوفاة، وأمر بأن يدفن غير بعيد عن بيته. وكان البقيع قبل أن يُدفن فيه ابن مظعون منطقة تنمو فيها أشجار الغرقد Gharkad فقطع المسلمون هذه الأشجار وسُويت الأرض، وجعلوا قبر ابن مظعون وسطها. ويقال: إن محمد – صلى الله عليه وسلم – وضع بيديه حجرين أحدهما عند رأس صاحبه المتوفى، وآخر عند قدميه شاهدين على قبره، كذلك دُفن إبراهيم، الابن الثاني للرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى جوار ابن مظعون، وبعدها أصبح البقيع مقبرة ذات شهرة، وبمرور الزمن غطت القباب المكان كله.

يكتب بيرتون عن زيارته ضريح عثمان بن عفان – رضي الله عنه – فيقول: إنه ضريح صغير "لعثمان المظلوم كما يسميه بعض المسلمين"، ويتحدث بعد ذلك في تاريخ الفتنة الكبرى، ويروي أن أصحاب عثمان كانوا يريدون دفنه إلى جوار الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم تعترض السيدة عائشة – رضي الله عنها – على ذلك ولكن "أهل مصر من الثوار أصرّوا على عدم دفنه أو الصلاة عليه، ولكنهم رضخوا واستجابوا حين هددتهم أم حبيبة – رضي الله عنها – إحدى أمهات المسلمين وبنت أبي سفيان بأنها ستخرج عليهم سافرة مكشوفة الوجه! وفي الليل حمل نفر من أصحابه الجثمان لدفنه، ولكنهم اضطروا إلى أن يواروه في الثرى في حديقة عند أطراف البقيع بعيداً عن أماكن قبور الصالحين في منطقة كانت تسمى "حصن كوكب". وكان الناس يتشاءمون من هذا المكان حتى ألحقه مروان بن الحكم بعدئذ بالبقيع. وقف بيرتون ومن في رفقته أمام ضريح عثمان – رضي الله عنه – وراحوا يرددون: " السلام عليك يا سيدنا عثمان بن عفان، السلام عليك يا خليفة رسول الله، السلام عليك يا كاتب الوحي، يا من تستحي منك الملائكة، السلام عليك يا جامع القرآن، السلام عليك يا صهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، يا ذا النورين، السلام عليك يا من خضت معارك الايمان، رضي الله عنك وأرضاك وجعل الجنة مثواك. والحمد لله رب العوا لم الثلاثة!"

يسترسل بيرتون في الحديث عن سيدنا عثمان بن عفان ويورد رأي الشيعة فيه، ويذكر أن اسمه – رضي الله عنه – يأتي دائماً مقترناً باسم أبيه، ويرد ذلك إلى أن أباه دخل في الإسلام قبله. ويفسر العوالم الثلاثة التي ذكرها في آخر تحيته لقبر عثمان فيقول: إنها عوالم الإنس والجن والملائكة! ويشير إلى أن المسلمين في بعض الأحيان يفضلون بني آدم على الملائكة، ويضيف أن هذا لا يتفق مع مفاهيمه "ولكنه يستثير التفكير".

يصف لنا بيرتون مشهد دفن حاج فقير في البقيع فيقول: "إن رحلة هذا الرجل إلى هذه المدينة كانت الأخيرة له التي لن تعقبها أخرى، فقد انفضّ عنه جميع الأصدقاء والمعزين الذين ألقوا نظرات أخيرة على الجثمان الذي غدا محمولاً فوق أكتاف الحانوتية المستأجرين لدفنه في البقيع". وفجأة تباطأت خطواتهم المسرعة وطرحوا الجثمان أرضاً، فأخذت الجثة تهتزّ كأنما دبّت فيها الحياة من جديد، فقد كان الكفن محكماً على الجثة محدداً لمعالمها. وكم ملأني هذا المنظر رعباً، إذ خُيل إليّ أن ذلك الميت قد أخذ يشعر بما يوشك أن يؤول إليه. وكان هؤلاء الحانوتية قد نسوا آلات الحفر فبعثوا أحدهم لإحضارها. وما إن أتى حتى حفروا للجثمان حفرة غير عميقة وضعوه فيها على عجل، وهالوا عليه التراب بنحو جعله يلامسه من كل جانب ولا يكاد يغطيه. أي إهمال هذا وقسوة في شعائر الدفن عند المسلمين، ويبقى العزاء أن هذا الرجل الفقير مات شهيداً، ولن يمضي وقت طويل حتى تغادر روحه مقبرة البقيع! ليأكل من شهْد الجنة وينهل من حليبها.

بيرتون عند قبر حمزة رضي الله عنه

يتحدث بيرتون عن الظروف التي أدت إلى استشهاد حمزة سيد الشهداء – رضي الله عنه – ويروي عن مكانته عند الرسول الكريم، ويخلص إلى الحديث عن الأرواح، ويقول: إن طبيعة الأرواح عند المسلمين تماثل طبيعتها عند الأوروبيين القدماء، فالأرواح عندهم "أشياء" غير مادية تتقمص أشكالاً لها وجوه عابسة وعيون تعكس "رزانة"، ولحى رمادية طويلة، وهذه الأرواح تجوس خلال النخيل "تحاور الحوادث التي طمرها الزمن وطوتها غياهب السنين". ويعيب بيرتون على العرب تصديقهم لهذه الخرافات، ويتمنى لو استطاع دحضها. ولكنه – في ما يقول – قد منعه "الخجل" من نفسه، لأن بلاده لا تزال تعيش الخرافات، ففي نوتنجهام لا يزال الناس يعتقدون بوجود أشباح لعجائز بشعر متموج يرتدين عباءات سوداء، أما الاسكتلندي فحين يرى في المنام أن أحداً ما يرتدي كفناً فذلك يعني أن وفاته قد حانت. ويستمر بيرتون في تقصي الخرافات السائدة في الغرب، فيذكر خرافات فرنسا ثم ألمانيا، ويسخر من إنسان أوروبا "المتحضرة المستنيرة" الذي يسعى إلى معرفة "ما وراء المنظور"،

ويخلص إلى أن الخرافات تستشري حتى في أوساط الأمريكيين "ذوي الأدمغة اليابسة"، ويذهب إلى تعداد خرافاتهم أيضاً. وينتهي إلى القول: "أهنّئ أهل المدينة على حكمتهم وتعلقهم بخرافاتهم الجديرة بالاحترام، مثلها في ذلك مثل خرافات الشعوب الأخرى". ولعلنا نلاحظ أن احترام هذا الرحالة لخرافات أهل المدينة المنوّرة التي لا نراها جديرة بالاحترام نابع من وجود خرافات في أوساط "الشعوب المتحضرة". وإذا كنا نرى أن السبب في هذا الاحترام غير منطقي، فإننا نحمد له ذكره خرافات قومه، فالاعتراف بذلك نادر الحدوث عند الرحالة الغربيين الآخرين الذين ينتقدون نقائصنا، ويعمون عن تعداد نقائصهم.

بيرتون وجبل أحد

يروي بيرتون أن شهرة هذا الجبل تعود إلى وجود الكهف الذي كان قد احتمى به الرسول - صلى الله عليه وسلم (؟) وإلى وجود بعض العيونِ التي كان - صلى الله عليه وسلم - قد شرب منها، ويستطرد ليقول: إن هذا الجبل شهد غزوة أُحد، تلك الغزوة الشهيرة في تاريخ الإسلام. ففي يوم السبت الموافق للحادي عشر من شوال من العام الثالث للهجرة حارب محمد - صلى الله عليه وسلم - مع سبعمئة من أتباعه ثلاثة آلاف كافر كان يقودهم أبو سفيان. وقد تعرض الرسول في هذه الغزوة لخطر جسيم وقُتل عمّه حمزة (سيد الشهداء).

يضيف بيرتون أن قبة هارون تقع عند قمة جبل أحد، وهي تؤوي رفات سيدنا هارون. وقيل له: إن القبّة - حالياً - في حالة مهترئة، كما أخبروه أن هناك قباباً أخرى لهارون فوق قمم سبعة جبال أخرى تشبه بشكل ما مبنى قبر القديسِ أنجليو عند خليج نابولي. وقد نقش أحد مواطني المدينة على جدار القبة فوق جبل أحد شعراً منمنماً للدلالة على الجهد الذي يبذله المرء للوصول إلى قبة هارون، حيث يفقد أنفاسه جراء الوصول إلى تلك القمة:

ملعون وابن ملعون رجل طلع قبة هارون

يستطرد هذا الرحالة ليقول إن "أتقياء" المسلمين يزورون جبل أُحد بعد فجر كل يوم ثلاثاء للصلاة ترحماً على أرواح الشهداء، ثم يعودون أدراجهم بعد الفراغ من الزيارة إلى الحرم لأداء صلاة الظهر. ويشير بيرتون إلى قبر سيدنا حمزة عند السفح الجنوبي لجبل أحد، وقد أشرنا إلى هذا في ما سبق.

بساتين المدينة المنوّرة

ينتقد بيرتون عدداً من الرحالة الغربيين الذين سبق أن زاروا بعض حدائق الشرق وبساتينه و لم

تُثر فيهم (السواقي) البهجة والسرور، فكثير ممن ذكرها منهم كتب عن الصرير الحزين الصادر عن تلك الآلات الكئيبة ورتابة دورانها التي تحزّ في النفس، والحواجز الرتيبة التي تستقبل المياه. ويرى هذا الرحالة أن صوت الساقية يحرك في النفس الشجون ويبث في القلوب البهجة، فالسواقي – في نهاية الأمر – مياه تتدفق في حقول نضرة، وهي المحاصيل الوافرة والقرى المضيافة.

يسترسل بيرتون ليتحدث عن نخيل المدينة (لما له من شهرة يستحقها). امتازت نخلة المدينة بساق غليظة عمودية الشكل في استواء من دون عوج، ما لا تجده في سوق أي نخيل آخر في أي بقعة أخرى. أما الجريد فيسمح للنسيم بأن يداعبه، فيتمايل في عليائه من دون أن يلحق أدنى أذى بتلك السوق. ويقول بيرتون: إن النخيل كانت إلى فترة زيارته قد طرحت ثمارها الناضجة من الرطب، ويرى أن النخلة تحمل ما لا يقل عن ثمانين رطلاً في "عذوق غليظة مثل كعب القدم تتدلى تحت الغصون السفلى للنخلة، ويكاد بعضها يعانق بعضاً في تناغم"، فهي ذات طلع نضيد.

يقول بيرتون: إن الكتب تحصي ما لا يقل عن مئة وتسعة وثلاثين نوعاً من النخيل في المدينة المنوّرة، منها حوالى ستين إلى سبعين نوعاً يعرفه كل من هبّ ودبّ، ويعطي العرب كل نوع منها اسماً يميزه عن الآخر. ويأخذ هذا الرحالة في عرض هذه الأنواع بعد أن يسميها. ويحدثنا عن "الشلبي" الذي هو أفضل الأنواع، وعادة ما يجمعه العرب ثم يخزنونه في جرابات من الجلد أسطوانية الشكل ويغطونه بأوراق الشجر، ويشبه أسلوبهم هذا بنحو أو بآخر أسلوب الفرنسيين في حفظ البرقوق، ويضيف: إن هذا النوع من التمور هو بعض الهدايا التي يعود بها الحجاج إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، "خاصة أن الفقهاء يحظرون نقل حجارة المدينة المنوّرة أو رمالها للاحتفاظ بها على سبيل التذكار، ولا يستطيع أي من زار المدينة المنوّرة أن يعود إلى بلاده ما لم يجلب معه صناديق من تمرها وكيساً من الحناء، وإلا فإن نساءه لن يُحسنّ لقاءه حين يؤوب". ويستطرد في وصف تمرة "الشلبي" فيقول: يبلغ طولها حوالى بوصتين، وتمتاز بمذاق خاص ورائحة مميزة، أما نواتها فصغيرة. ويضيف: إن عامة أهل المدينة نادراً ما يستمتعون بأكل "الشلبي" لغلاء ثمنه الذي يتراوح المُدّ منه – حسب الموسم – بين قرشين وعشرة. فهذه النخلة – كما يقال – شحيحة الثمار لا يصل إنتاجها إلى إنتاج غيرها من النخيل.

يكشف بيرتون عمّا يظنّه في نفسه من علم بالفقه والسنّة فيقول: إن عجوة المدينة لا تباع إنما تؤكل في المدينة، وذلك لقوله – صلى عليه وسلم –: "من أفطر بست تمرات أو سبع أمن السمّ والسحر". ويقارن هذه العجوة بالتي تنتجها مصر، ويرى أن الأخيرة لا تصلح إلا علفاً للأبقار "إلا أن واحة سيوه في مصر تنتج عجوةً ممتازة".

يمكننا أيضاً أن نختار من أنواع التمر التي ذكرها بيرتون الحلوة التي تمتاز بكبر حجمها

وفرط حلاوتها. يدّعي بيرتون أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كما يروي المسلمون – زرع نواة من هذا النوع فنمت واستوت وأثمرت في دقائق معدودات (!). ويحدثنا هذا الرحالة أيضاً عن البرني Birni الذي قيل: إن تناوله يطرد السقام ويورث الصحة والعافية. أما التمر الواحشي Wahsi الذي يقول المسلمون (؟): إن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد مرّ به ذات يوم وعصب رأسه من سعفه وتناول منه بعض ثمرات فلم يسعه إلا أن يلقي عليه السلام. و"عليه نجد أن جريد هذا النخيل ينمو في اتجاه مائل نحو الأرض استذكاراً للمناسبة الجليلة". أما الصيحاني فقد سمّي بهذا الاسم – كما يقول بيرتون نقلاً عن رواته – لأن إحدى نخلاته رأت الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتجول في أحد البساتين ممسكاً بيد علي – رضي الله عنه – فصاحت: هذا محمد – صلى الله عليه وسلم – وهذا الإمام علي، أمير المؤمنين وجدّ الأئمة الأطهار، فلا عجب – كما يقول بيرتون – أن احتل هذا النوع مكاناً علياً في مملكة النخيل خاصة لدى أحفاد الرسول – صلى الله عليه وسلم –. ويخبرنا أيضاً أن العامة من الرعاع والدهماء حين يأكلون هذا التمر (يقذفون نواته على الحريم!). ويحدثنا عن تمرة أخرى من نوع (الخضيرية) التي سمّيت بهذا الاسم لاخضرار لونها الذي يلازمها حتى بعد نضوجها. ويقول: إن أهل المدينة يحتفظون بهذا النوع من التمر بعد تجفيفه كشيء يعتز به. ويأخذ هذا الرحالة في تعداد أصناف التمور وأنواعها وأسمائها حتى يصل بنا إلى أردأ أصنافها المتمثلة (في الألوان والحلية)، ويفيد أن ثمن المُدّ من أي من هذين النوعين يتراوح بين أربعة إلى سبعة قروش. ويستطرد بيرتون ليقول: إنه لم يجد لمذاق تمر المدينة فضلاً على مذاق تمر مكة، إلا أن تمر المدينة هو الطعام المفضل للرسول – صلى الله عليه وسلم – يتناوله دائماً في إفطاره، إضافة إلى أن النخيل الذي ساعدت الظروف البيئية على ازدهاره في المدينة يُعد إلى حد ما أثراً مقدساً! ينبغي الحفاظ عليه.

لا نعتقد أن بيرتون كان صادقاً في حديثه عن الكرامات المتصلة بالنخيل، والتي رواها عن الرسول الكريم، فلربما روى له بعض العامة شيئاً من ذلك فأخذه وأضاف إليه ونسج على منواله بأسلوبه السلس. وصوّر الأمر كله من "عقيدة المسلمين". وكان الرجل آمناً من النقد، فمن من الذين يقرأون له ويستمتعون بهذه الأكاذيب "البريئة" التي تداعب الخيال سيأتي إلى المدينة المنوّرة ليتحرى عن مكانة النخلة في عقيدة المسلمين؟ وفي الحقيقة، إن المبالغة هي السمة الأبرز في أدب الرحلة الغربية تقل درجتها أو تزيد بحسب ثقافة الرحالة المعني وسعة خياله، وبحسب الموضوع الذي يعالجه وجمهور القراء الذي يخاطبه.

يحدثنا بيرتون عن شغف المسلمين بالتمر، فهم يجدون لذّة في الحديث عنه كلذّة الإيرلندي وهو يتحدث عن البطاطا: فكلا العنصرين شغوف بما أحبه من طعام؛ فالتمر عند المسلمين دواء وطعام، يحتفظون بالرطب ويحافظون عليه لئلا يفسد، لأنه لذيذ الطعم طيب النكهة يُشبع

ويداوي. يعد العرب من البلح أطباقاً مختلفة تتباين تبايناً كبيراً، ولكن طبق التمر المفضل لديهم هو التمر المقلي بالزبد النقي. ويسترسل فيقول: إن بعض الثمار تترك على أصولها حتى تجفّ وتسمى حينئذ تمراً، وعادة ما يؤكل التمر بعد الطعام "عقبه" كنوع من الحلوى. ويصنع الفرس من التمر "نقليات؟" Nukliyat، كما يقول بيرتون، أما العرب فيصنعون منه قلائد يسمونها "قلادات الشام"، ويرى أنهم ألحقوا هذه القلائد بالشام لاشتهار قرية في الشام تسمى الصفراء بهذا النوع من الصناعة. ويقول: إن هذه القلائد تصنع من ثمار التمر التي تسقط قبل نضجها، فيأخذونها ويغلونها في الماء حتى تحتفظ بلونها الطبيعي ثم يسلكون فيها خيطاً سميكاً وتغلق حتى تجفّ، ثم يحولونها إلى قلائد يلبسها الأطفال في سائر بلاد الحجاز، كما يبعث البعض بهذه القلائد هدية إلى العديد من الناس في المناطق النائية، ويضيف: إن الأطفال ممن لبسوا هذه القلائد عادة ما يأكلونها إذا أمنوا تلقي الصفعات.

خصص بيرتون قسماً كبيراً من فصول كتابه عن المدينة المنوّرة لتمورها، وأفاض في الحديث عنها، وكتب عن تلقيح النخيل، وذكر أن النخلوي Nakhlawi يلقح النخيل عادة في الفترة من يناير إلى فبراير، فيأتي ببذور اللقاح الذكرية ويربطها إلى المؤنثة. ويضيف: إن هذه الممارسة في الجزيرة العربية هي عينها التي في مصر، ويقول: إن تمر المدينة عادة ينضج في منتصف مايو، وترى القوم فرحين بنتاج نخيلهم الذي أمن شر الآفات، فالجراد عادة ما يقضي على المحصول كما أن الجفاف يضرّ به. ويرى أن توافر المياه في المدينة المنوّرة حيث توجد بئر في كل بستان هو السبب في تميز نمو تمر المدينة، فالأشجار تُروى بالسواقي كل ثلاثة أيام حين يشتد القيظ. ويضيف بيرتون: إن النخيل يمكن أن ينمو في المناطق الجافة والمجدبة، ولكنه يزدهر عند مجاري الأودية حيث تتوافر له الرطوبة الكافية، كما يحدثنا عن التمور التي تنمو في سهول المدينة المنوّرة خارج نطاق البساتين، والتي تعتمد في ريّها على الأمطار فيقول: إنها أقل إنتاجاً من الأولى وتمورها أقل جودة.

يطوف بنا هذا الرحالة في بساتين المدينة المنوّرة في منطقة قباء، حيث تنمو الذرة بكميات وافرة، وكذلك الشعير والقمح ولكن بدرجة أقل، كما يزرع البعض البرسيم المصري "الذي تتلألأ زهوره الناعمة تحت أشعة الشمس"، ويُزرع الباذنجان في هذه المزارع أيضاً كما تُزرع البامية (وهي صنف من الفصيلة الخبازية يصلح للطهو وتوجد منها فصيلة في الهند يسمونها بندي Bhendi. أما الملوخية "وهي نبات شديد الشبه بالسبانخ وفيه لزوجة حين يطبخ"، فإنهم يأكلونها بكثرة في هذه المنطقة. ويزرع البعض البطاطا ويأكلونها أيضاً، كما لاحظ هذا الرحالة وجود بساتين شاسعة زُرعت بالبصل والكرّاث والجزر والفاصوليا واللفت والقرع والخيار وأصناف أخرى من الخضر، ولكن بكميات أقل.

يعدد بيرتون أنواع الفاكهة في بساتين المدينة المنوّرة وصنوفها وأشكالها وأسماءها، فهناك

خمسة أنواع من العنب أفضلها الشريفي، ويمتاز بحبته الطويلة ذات اللون المائل إلى البياض، أما مذاقه "فمثل مذاق عنب توسكانيا". ويعدد الأنواع الأخرى التي منها المجازي وهو "كروي الشكل حلو المذاق ولكنه بلا نكهة"، والسوادي ذو اللون الأسود، والزريقي الذي يمتاز بحبته الصغيرة وبذوره المتناهية في الصغر، والبرني الذي يشابه الشريفي إلى حدّ كبير، كما يحدثنا عن وفرة أشجار السدر التي تنتج "النبق أو العبري" وأشجار العناب، كما أشار إلى وجود عدد قليل من أشجار الدراق، وهو يابس كالخوخ المصري وبلا طعم، ولا يصلح للأكل إلا بعد غمسه فترة في ماء ساخن، ولكنهم هنا يأكلونه بشهية وإن لم يكن ناضجاً تماماً، كما أشار إلى وجود موز كبير الحجم لكنه رديء، ووفرة أشجار الليمون وثلاثة أنواع من الرمان، وأفضل أنواعه الشامي ذو القشرة الحمراء، وهو فائق الحلاوة، ويصل ثمن الحبّة إلى قرش واحد، وهناك النوع التركي، وحبتّه "الداخلية" بيضاء، والمصري وقشرته "خضراء" وهو حامض جداً ومذاقه غير مستساغ، ويباع بثمن الرمان الشامي. ويسترسل ليشيد بالفاكهة الشامية عامة وبرائحتها الزكية، وهي غالباً بلا بذور مثل فاكهة مسقط. ويشيد أيضاً برمان الطائف وشراب رُبّ الرمان Rubb Rumman الذي يستخلصونه منه، والذي يعدّونه شراباً "مرطباً للجوف" وصحياً منعشاً. ويعود إلى بساتين المدينة المنوّرة فيقول: إنهم يزرعون التين والتفاح والبطيخ ولكن ليس بكميات كبيرة.

في مجلس حامد

يروي بيرتون عن مجلس مضيفه حامد في بيته فيقول: إنهم ما إن جلسوا حتى جهزت النارجيلات ووضعت القهوة على موقد عند الممر، وراحوا يدخنون التبغ ويتحدثون، يسألون عن أحوال معارفهم الغائبين، وعن أصدقائهم المسافرين، ويرتشفون القهوة. ويلاحظ بيرتون أن القهوة في المدينة المنوّرة تعد من أجود أصناف البن، ولا تشبه قهوة مصر، حيث يتناول روّاد المقاهي ذلك الشراب (المُرّ كالموت، الأسود كالشيطان). ففي القاهرة يضعون البن على النار حتى يغدو لونه أسود، ثم يغلونه فترة طويلة ويشربون بعدئذ "مغلي البن" الكثيف. أما في المدينة، فإنهم ينتقون حبوب البن وينقّونها من الشوائب بعناية، ولا يضعونها على النار إلا عندما يزمعون إعداد شراب القهوة، فالبن هنا "يحمّص" أولاً بأول كلما احتاجوا إلى القهوة، ولا يتركونه على النار حتى يصبح لونه أسود، لكن يرفعونه عن النار حين يصفرّ. وتُدقّ الحبوب لتُجرش لا لتُسحق كما هي الحال في مصر، ثم يضعون البن المجروش في الماء ويتركونه حتى يغلي، ثم يرفعونه عن النار ثلاث مرات متتالية، ثم يرشون الوعاء برذاذ ماء بارد، لكي يترسب البن المجروش، ويصب المشروب المصفّى في إناء آخر ويقدم بعدئذ. أما الذين يستحبون القهوة

الكثيفة (الثقيلة أو كيمياك Kaimack) فإنهم يتناولونها من الوعاء الأول. ونادراً ما يشرب العربي في المرّة الواحدة أكثر من فنجان واحد، لأنهم يشربونها بمعدل كل نصف ساعة على مدار ساعات النهار. وتشتهر اليمن بمغلي قشر البن، وهذا شراب غير معروف في مصر.

يدخل الشباب المجلس بهدوء ويعانق الواحد منهم الآخر عند الباب، ثم يلقون تحية خجلى على الحاضرين، ويجلسون ويختارون أبعد المقاعد عن الصدارة ليجلسوا عليها، ويأخذون في "التدخين" ويتناولون القهوة بعد تمنع، ويخرجون من الغرفة بهدوء كما دخلوها. أما كبار السن فيبدون كأنهم في شغل شاغل، يكتنفهم الغرور، ويمتازون بالرزانة، وكأني بلسان حالهم يقول: "حسناً فعلنا في هذا العالم". يدخلون المجلس فتسري فيه ضوضاء جرّاء قيام كافة الحاضرين توقيراً لهم، ويجلسون جلسة تنمّ عن الأهمية، ويحتكرون الحديث، ثم يغادرون بنفس الأسلوب الموحي بالأهمية، متوقعين أن يهبّ الجميع وقوفاً تحية لهم في هذه المناسبة.

يستطرد بيرتون فيقول: إن الحرب الروسية العثمانية (١٨٥٣–١٨٥٦م) كانت تشغل القوم، وإن الجهاد كان محور حديثهم. وقد سمع منهم أن السلطان قد أصدر أمره للقيصر لكي يُسْلِم إلا أن الأخير رفض ذلك، وتطلع إلى شراء السلام بدفع الجزية وتقديم فروض الطاعة، وقد أبى السلطان ذلك قائلاً: "لا والله، لا بد من الإسلام". ولم يكن القيصر بمستطيع ذلك إلا بعد تردد، ولكن "الله مخزي الكافرين"، وإن عبد الحميد (السلطان) سيقضي على الموسكوف في وقت وجيز، ثم يستدير بجيشه "ضد الفرنجة الكفار من إنكليز وفرنسيين وروم". ويستطرد بيرتون فيقول: "إن ما يهمني من هذا الهراء هو سماعي أخباراً تنذرني بالشر إذا عزمت على القيام برحلتي إلى مسقط. فقد قرر البدو تشكيل فيلق عربي (تجريدة) طمعاً في أسلاب أوروبا تنادى له الجميع، ولم يتخلف عنه أيّ ممن بلغ العاشرة. وقد سمعت من الزوار أن هؤلاء الرجال الظرفاء كانوا يحاربون في كل اتجاه، ولكني علمت بعدئذ أنهم كانوا مجانبين للصواب تماماً."

بيرتون الطبيب

امتهن العدد الأكبر من الرحالة الغربيين المعرفة الدوائية، ومارسوا النطاسة في المناطق التي وقفوا عليها في شبه الجزيرة العربية. وقد نُرجع هذا إلى عدّة أسباب أهمها أن مهنة الطب هي المهنة الوحيدة التي تهيّئ لهذا الرحالة الغريب عن أهل شبه الجزيرة العربية – هوية ولساناً ولوناً وثقافة – مجلساً في أوساطهم، اعتباراً من مجالس شيوخ القبائل وأعيانها، وانتهاءً بالقاعات الداخلية وغرف الحريم وفي المضارب والخيام. يضاف إلى هذا أن المناطق المذكورة لم تكن تعرف الطب الحديث، ما مكن هؤلاء الرحالة من استغلال آلام الناس والتلاعب بأوجاعهم،

وأن يكسبوا ببعض معرفة اكتسبوها في الطب ثقة الكثير من الناس، ما جعلهم يقدمون الحماية والعطف، بل والاحترام. ونرى أن انتحال هذه المهنة كان أيسر على الرحالة من غيرها، فالأمر لا يتطلب من هؤلاء الأدعياء أكثر من أن يحملوا معهم عقاقير تكفي - كما يقول بالجريف - لقتل أكثر من نصف سكان شبه الجزيرة العربية أو لشفائهم، فكلا الأمرين لا يعني شيئاً للرحالة، فالمهم لديه هو الاختلاط بالقوم ليتلقّط ما يمكن تلقّطه منهم عبر الألفة والثقة والتعاطف التي يحسّها المريض وأهله تجاه هذا الطبيب.

مارس الرحالة الغربيون هذه الخدعة منذ أمد حين عمدوا إلى استغلال الطب أداة للتعارف والتآلف بين المنصّر والطبيب. وكان العديد من أوائل المنصّرين الذين مارسوا هذه المهنة في شبه الجزيرة العربية غير مؤهلين لممارستها. ولربما كان للثقافة الإسلامية المنفتحة على كافة ثقافات العالم دور في ذلك، فالبدوي - رغم ما يغيب عن البادية من الفقه - مسلم متمسك بثقافته كما يفهمها. فعامة المسلمين وخاصتهم مؤمنون - بنص الكتاب - بمعجزات المسيح في شفاء المرضى، بل وفي إحياء الموتى بإذن الله، فلا غرابة إن رأى العامة انتقال "بركة" هذه المعجزات إلى أتباعه الوافدين إلى بلادهم بالدواء. أما الأمر اللاأخلاقي في هذه المسألة فهو أن أولئك الأدعياء غير المؤهلين ما كانوا يحملون من الدواء إلا بعض المسكنات من أسبيرين وغيره، وبعض المخدرات من صنوف الخمور الأوروبية والحشيش وغير ذلك، وبعض المنشطات من أفيون وغيره، إضافة إلى أن العلاج لم يكن مقصوداً لذاته، بل هو وسيلة مكيافيلية للوصول إلى قلوب الناس لتحقيق أهدافهم.

يحكي لنا بيرتون بأسلوبه الساخر اللاأخلاقي اللاذع الذي يمكن أن يرسم الابتسامة على شفاه القراء - حتى من غير الغربيين - كيف يمكن مثل هذا الطبيب الدعي أن يُؤدي دوره مطمئناً إلى عدم انكشاف أمره فيقول: حين تُستدعى لمعالجة مريض عليك حين تدخل إليه أن تلقي السلام على جميع الحاضرين، من دون أن تخصّ شخصاً منهم بعينه. تبدأ بالقول: السلام عليكم، وستتلقى فوراً رداً جماعياً: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وعليك بعدئذ أن تسترسل فتقول: "إن شاء الله ما في شي إلا العافية". ويضيف بيرتون: إن لكل كلمة مجاملة يلقيها الطبيب على مثل هذه الجمهرة الجالسين حول المريض ما يقابلها. فالرد على الجملة السابقة هو: الله يعطيك العافية. ويوصي بيرتون الطبيب بأن يأخذ مجلسه، ثم يقوم بتحريك يده اليمنى بنحو متكرر بين فمه وجبهته بالتزامن مع انحناءات طفيفة متكررة، وسيجد أن جميع الحضور يتبادلون هذه التحية بإشارات مماثلة. أما حين يستقر المقام بالطبيب قرب المريض، فعليه أن يسأل عن صحة الجميع، وسيكون الرد على هذه المجاملة سؤال الطبيب عن المشروب الذي يفضل تناوله، وعلى الطبيب أن يسأل شيئاً يدرك أنه غير موجود في المنزل، فيظفر بعدئذ بتدخين غليون مع فنجان قهوة! وعلى الطبيب - في ما يقول بيرتون - أن يتفحص المريض

الذي يبدأ فوراً بمدّ ذراعه له فيسأله الطبيب عمّا يعانيه، ويقوم في هذه الأثناء بتفحص لسان المريض، ويضع يده على النبض وهو يكسو وجهه قناعاً ضافياً من الحكمة والمعرفة، ويظلّ صامتاً بينما يترك المريض يثرثر طيلة هذه المدّة. ويأخذ المريض في سرد قائمة طويلة من الأوجاع التي يعانيها، ما يمكن الطبيب الصامت من تشخيص المرض!

يوصي بيرتون الطبيب من هذه الفئة بأن يساوم على الأجر، وإلا فإنه سيثير الشكوك في حذقه للمهنة، ويقول: إنه عالج ذات مرّة تاجراً ثرياً من حضرموت من أوجاع الروماتيزم، ولكنه نسي أن يسأله الأتعاب، فما كان من ذلك المريض وهو يرتشف على مهل قهوة الطبيب إلا أن سأله باستغراب عن جنسيته، فتنبه بيرتون حالاً لما كان قد سها عنه، فطلب إلى التاجر أن يؤدي خمسة قروش أو شلناً واحداً، فرمى الرجل بالشلن على الأرض فوق السجادة وهو "يلعن جشع الهنود!".

أما الوصفة الطبية للمريض فيجب – كما يقول بيرتون – أن تتضمن تعاطي مادة صلدة جافة تضاف إليها مادة تضاعف الإحساس بالألم. ويمكن الطبيب – كما يقول على سبيل المثال – أن يوصي بمسح الدواء على جسد المريض بفرشاة تنظيف الخيول إذا أمكن، فذلك أنجع وأوفق. ويدّعي بيرتون أن الشرقيين كلهم مثل الريفيين في أوروبا يتطلعون إلى أن يقدم لهم الطبيب شيئاً ملموساً نظير ما يبذلونه له من مال، إضافة إلى أن الأساليب "الخشنة المؤلمة تتوافق مع المزاج العام للشرقيين"، ويسترسل ليدلل على صدق قوله بأن "حكيماً" فارسياً كان يعالج مرضى الحمى بضربهم بالعصي على باطن القدمين، وأن بعض أطباء بغداد كانوا يعالجون مرضاهم بالكي بنار التنور. ويقدم بيرتون وصفة لعلاج عتمة عدسة العين، وذلك بنزع أسنان بغل وشويها في النار وسحقها جيداً قبل وضعها في العين المصابة.

على الطبيب – في ما يقول بيرتون – أن يقدم الدواء بنفسه للمريض، فيقدم له ستة أقراص خبز كبيرة مشبعة بمحلول القرفة الذكية النكهة، وهذه هي الوصفة الناجعة في علاج أمراض سوء الهضم، وعلى الطبيب ألا ينسى وهو يناول العلاج للمريض أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقول بعد تعاطي المريض للدواء: الحمد لله الشافي المعافي. وعلى الطبيب حين يفرغ من مهمة إعطاء الدواء للمريض أن يلتفت ناحية أهله المجتمعين حوله، ويطلب إليهم أن يأتوه بورقة وقلم وحبر لكتابة الوصفة التي يجب أن تجري على النحو الآتي:

> بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:
>
> فيُعطى المريض جرعة من عسل النحل المخلوط بالقرفة وزلال البيض، وكذلك مقداراً كاملاً من الزنجبيل المسحوق المخلوط بعسل النحل أيضاً. يقلب هذا الخليط ويعجن ليصاغ على هيئة أقراص يزن كل منها مثقالاً واحداً،

يتناول المريض منها على الريق يومياً قرصاً واحداً. ولا شك في أن لهذا الدواء خصائص عجيبة. وتذهب وصفة بيرتون إلى أن على المريض أن يتجنب تناول اللحم والسمك والخضر وأصناف الحلوى، ويحذر تناول الأطعمة التي تسبب غازات المعدة، وكذلك كل الأطعمة الحامضة الطعم، وكافة أنواع المخللات. ويجب – كما يقول بيرتون – أن يُوصي الطبيب المريض بأن يحرص على أن يكون دائماً على طهارة، وأن يكون راضياً مطمئن النفس، وبذلك يمكن هذا المريض أن يبلغ الشفاء "بإذن الله الشافي المعافي".

رغم السخرية المريرة البادية في كلمات بيرتون الذي اطلع – في ما يبدو – على بعض كتب الطب الشرقي ومارس التطبيب الشعبي، فإن المحصلة النهائية لقواعد العلاج – إذا استثنينا طابع السخرية – تبدو صحيحة إلى حد بعيد، فالحِمْية وصفاء النفس ونقاء الروح هي من القواعد التي يقوم عليها الطب الحديث. ولعلنا نستفيد مما ذكرنا معرفة بسلوك الأطباء الشعبيين وتعاملهم مع مرضاهم أكثر مما نستفيد معرفة بأنواع العلاج، فالسلوك الإنساني الذي عبّر عنه بيرتون في سخرية واضحة هو الذي يستهوي القارئ الغربي الذي يتطلع – وهو يطالع كتب رحلاته – إلى الشرق لالتقاط البدائي والغريب الذي أصبح بمجهود المستشرقين مغروساً في وجدانه الاجتماعي. ويزداد الإعجاب في ذلك المجتمع بالرحالة كلما زاد في جرعة اللامعقول، ما جعل بيرتون – على سبيل المثال – لا يتورّع عن ذكر أنواع من الأدوية والوصفات الطبية التي منها أن عتمة العين تعالج بمجروش أسنان بغل بعد شيّها فترة! كما يحدثنا بيرتون عن العلاج عند العرب ب"حمام الرمال" فيقول: إنهم يحفرون للمريض حفرة ثم ينزلونه فيها قائماً على رجليه، ويهيلون عليه التراب حتى مستوى الرقبة. ويظلّ المسكين قائماً في الشمس على حاله تلك صائماً طوال النهار لا يفطر إلا مساء على وجبة خفيفة. ويستمر علاجه على هذا المنوال القاسي شهراً كاملاً! ولكي يسبغ بيرتون على روايته هذه ظلاً من الصدق، يستطرد فيقول: إن البعض يحتمل هذا العلاج بينما لا يستطيعه آخرون – خاصة المرضى الأوروبيين الذين لجأوا إلى هذا النوع من العلاج فماتوا بالحمى – ويضيف: إن العرب يعالجون تسوّس الأسنان "بالحرارة والدخان"، ويخلعون الضروس "بالكماشة"، ويطردون البرد من البدن بدهنه بوفر من السمن ثم يعرضونه لوهج النار.

البدو والبادية

يقول بيرتون: إن بدو الحجاز عامة قصار القامة تماماً مثل الهنود الذين يقيمون بالقرب من

بومباي، إلا أن العربي "أثقل وزناً من صخرة متوسطة"، يندر أن تجد فيهم عملاقاً أو قزماً. وهم عامة أصحاء، إذ قلّ أن يعيش فيهم طفل ضعيف، إضافة إلى ما يتعرضون له من تربية قاسية، تكسب أجسامهم قوّة ومنعة. ونستطيع أن نصف العربي بأنه ربْعة غير مترهل، ونادراً ما تكون أطرافه ممتلئة، أما رقبته فهي عصب ترقوة، وأما صدره فعريض حتى يمكن أن يوصف بأنه عريض المنكبين، والساقان حسنتا التكوين غير ممتلئتين، وهما في الغالب نحيلتان لا انحناء فيهما مثل ما يميز سيقان الأفارقة. وذراع البدوي دقيقة وعضلاتها مشدودة، وبطنه ضامر. أما أحجام الأيدي والأقدام فهي متوسطة تقصر عن أحجام أمثالها عند الأوروبيين وتزيد على أمثالها عند الهنود، وأجد أنهم في هذا أشبه بالسلتيين Celt. والإبهام طويلة بنحو ملحوظ تمتد غالباً إلى الخط الأول من خطوط السبابة، ما يمكن البدوي من استخدامه في قبض الأشياء بإحكام. أما الكف فمرنة غير ممتلئة، دقيقة العظام.

يستطرد بيرتون فيقول: إن العربي يمشي بسرعة ونشاط وفي غير تكلف، تساعده على ذلك أكتافه المستقيمة، ما يجعل ثقل الجسم كله يقع على كعب القدم فتجده متوازناً، ولكنه قد يمشي متبختراً في بعض الأحيان. ويشير هذا الرحالة إلى عادة زواج الأقارب المنتشرة في أوساط البدو، فعادة ما يتزوج البدوي من ابنة عمه حتى أصبح لفظ (بنت العم) في حديثهم يدل على الزوجة، وأكد أن العافية التي يتمتع بها هؤلاء البدو تدحض عملياً ما يقول به "بعض علماء إسبانيا" من أن زواج الأقارب يؤدي إلى نتائج سيئة ويسبب إضعاف النسل. ويقول: إن هذه النظرية قامت على افتراضات خاطئة وربما نتيجة لمعلومات غير كافية، ويستدرك بيرتون فيقول: إن هذه النظرية قد تصدق في الحضر حيث أساليب الحياة المصطنعة، ولكنها بالقطع لا تصدق في حياة البادية. ويضيف أن بدو الحجاز – عدا المتزمتين منهم – لا يعترضون على زواج بناتهم من الأجانب بشرط أن يلتزم الزوج الأجنبي بالإقامة معهم. "وقد يبدو هذا الأمر جذاباً في بداية الأمر، ولكنه سرعان ما ينقلب إلى ضجر وإرهاق".

المرأة البدوية

يدخل بيرتون عالم البدوية بسؤال: "قد يسألني سائل: كيف وجدت نساء المناطق التي زرتها؟ ويجدر بي أن أكون صادقاً، فأقول: إنهن – بصورة عامة – حسناوات. ويحق لبني عمرو Amur أن يتباهوا بجمال نسائهم، ولكن بدويات الحجاز لا يرقى حسنهن رُقي فاتنات نجد ذوات النهود الجامحات."

عيون البدوية – كما يصفها بيرتون – متلألئة، ووجهها دقيق التكوين، وملامحها حادة، إلا أن هذا الحسن في ما يقول بيرتون سرعان ما يذبل حين تتقدم بها السنون فتنقلب إلى

شمطاء حيزبون. ويتحدث بيرتون عن الوضع الذي تحظى به المرأة اجتماعياً، وينتقد نظرية تشارلز روبرتسون (؟) الذي يقول: إنه ألّف عدّة كتب من أهمها: **نظريات في الشعر للمثقفين من الرجال**. تقول هذه النظرية: إن الرحمة والعطف ينقلبان بفعل المؤثرات النصرانية إلى شيء يتعالى عن الجنس، ومن ثمّ جاءت فكرة الأم العذراء، وهي فكرة لم تعرفها فلسفات اليونان والرومان. وبعد أن يعرض هذا الرحالة سلوك آلهة الإغريق الوثنية مثل إيروس، إله الحرب عندهم وPsyche الأميرة الفائقة الجمال التي عشقها كيوبيد، يخلص إلى أن فكرة الأم العذراء - رمز الطهارة الأخلاقية - رمز شائع في العقائد القديمة ولدى كافة الشعوب المتبربرة كحال هذه القبائل "القديمة". فالهوى والخيال والمثالية عناصر متشابكة تعكس أثر الوجدان والعاطفة في البُنى البشرية. ويضيف بيرتون نقلاً عن كالتن (؟): إننا لن نعدم مثل هذا السلوك بين هنود أمريكا الشمالية ولا بين الجالا في الصومال. ويستطرد فيقول: إن هذه الجماعات المتبربرة حين ترتقي سلم الحضارة درجة ما لتصبح نصف متبربرة - كما هي حال معظم الشعوب الشرقية، وكما هي الحال التي صورها المؤلفون الكلاسيكيون من يونان ورومان - تتدنّى مكانة المرأة من عليائها التي كانت عليها في الحالة البدائية، وتنحط لتصبح مجرد أداة إمتاع وترفيه، ولكن حين ينتقل المجتمع إلى المرحلة التالية ليعيش الحضارة، ترتفع مكانة المرأة مرّة أخرى لتعلو قيمتها، ولا تعود في المجتمعات المتحضرة مجرد دمية يعبث بها. ولا نستطيع في الحقيقة إلا أن نقول: إن كثرة قراءات بيرتون التي لم يحسن هضمها - في ما يبدو - قد جنت عليه، فراح يتخبط هنا وهناك ليأتي بنظريات غير مسبوقة، لا تقوم على أي قواعد من الحقيقة، ولا تثبت أمام الحجّة، بالرغم من أنه يعتذر للعرب "أنصاف المتبربرين" ليقول: إن لهم مشاعر دافئة نبيلة، فهم يشفقون على الفقراء، ويتعاطفون مع المساكين والتعساء، وتنعكس مشاعرهم النبيلة هذه على الحريم أيضاً. ويحدثنا بعدئذ عن الزوج المسلم الذي يعدل في معاملة زوجاته، ويقدم لكل منهن منزلاً مستقلاً، ويساوي بينهن "إلا إذا كانت إحداهن صغيرة السن والأخريات مسنات". ويقول بيرتون: إن العرب يدافعون عن التعدد بالسؤال: هل الزواج بواحدة فقط مبرأ من العيوب؟ ويتحدث بيرتون عن نظام الحريم فيقول: إنه لم يشاهد هذا إلا نادراً، وإن البيت العربي مثل الأوروبي يقوم على الزوج والزوجة والأبناء والآباء. ويسخر مما روته الرحالة مارتيميو (؟) Martimo التي شبهت حريم المماليك في القاهرة ببيوت الرذيلة، ويذكّرها بأن كثيراً من الحياة المنزلية الهانئة "في الغرب"، إذا كُشف المستور، فقد يجعل حزنها أضعاف حزنها على حريم القاهرة، ويذكر بيرتون صورة مغايرة لتلك التي رسمتها مارتيميو لنساء المماليك، وجدها عند الرحالة سونيني Sonnini الذي كان بغضه لهم لا يحتاج إلى دليل، وقال: إن سونيني قد كان مأخوذاً بعفّة حريم المماليك وطهارتهن، ومثل الشهامة ومشاعر الغيرة، وروابط الحب التي تتشابك في نسيج متلائم يتناغم مع جاذبية المرأة

في حريم المماليك. ويرى بيرتون أن تلك الفتاة وهذا الرجل قد جانبا الصواب الذي هو بين هذا وذاك؛ فالنساء في كل عصر وأينما كنّ وحللْنَ متقلبات كسولات في الظروف العادية، ولكنهن يبدين عند الملمّات شجاعة لا متناهية "فالنفس البشرية واحدة لا تختلف إلا في درجة الاستجابة". ويسترسل في الحديث عن الحب والمشاعر السامية الفياضة والجنوح إلى الخيال الذي تلبسه إياه الطبقات العليا الأكثر رقياً، والتي هي في نهاية الأمر كما يقول فولتير: غطاء للرغبات الحقيقية للبشر. ويأخذ بيرتون في مناقشة ما يسمى الحب العذري عند العرب، وهو أمر – كما يقول – يسخر منه أهل الحواضر العربية، رغم أن فكرة الحب الأخلاقي هي فكرة عربية في الأساس، انتقلت إلى الفكر الأوروبي عبر تأثير الفروسية العربية. ويستنكر بيرتون ما ورد من أن هذه الفكرة نابعة من المؤثرات النصرانية في العصور الوسطى، ويقول: إن آباء الكنيسة الأوائل كانوا يقولون إن النساء مخلوقات بلا أرواح، "وهذا أمر لم يقل به المسلمون قط". ويذهب بيرتون في عالم العلاقات بين الجنسين مذاهب بعيدة، فيتحدث عن حياة الرحلة في البادية حيث تلتقي القبائلِ عند مواطن الكلأ ترعاها ثم يفارق بعضها بعضاً، وقد لا يجتمع الفريقان بعدئذ جيلاً كاملاً، وقد يتعلق قلب شاب بعذراء رحلت ولا يستطيع أن يلاحقها إلا بروحه وخياله الذي يُضفي على الجمادات حياة، فيبثها عواطفه ويتغنى ببعر آرام ذلك الموقع. ويستشهد بيرتون في هذا الصدد بمعلقة لبيد التي يجد بين أثنائها الشجن الشديد والنبل الأكيد. يغني الشاعر العربي للطلل البالي فيهتف قلبه، يناجي الظاعنات، ويطلق العنان ليطير على أجنحة مشاعره، ينادي "نوار" التي غادرت وما عادت تحنّ لذكراه. وينفد صبره وهو يراقب الدمن، ويسعى لاستبدال حب زائف بالحب الحقيقي، فيأنس إلى بعيره الذي يخبّ به مسرعاً، وكأنه يجد السلوان في هذا الخبب من هجر الحبيب ونسيانه، ولكنه مع ذلك غير قادر على أن يسلو نوار، فيبحث في نفسه بشغف عن بقايا الحب الراحل المقيم، ويستثيره مفاخراً بشجاعته وأصالته وطيب محتده وكرمه وكافة الصفات التي يمكن أن تقرّبه إليها، وتخلص ملحمته الشعرية إلى الفخر بقومه الذين يضفي عليهم كافة الفضائل. يقول:

أو لم تكن تدري نوار أنني ... وصّال عقد حبائل جذّامها

ترّاك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يعتلق بعض النفوس حمامها

يذهب بيرتون هنا إلى ذكر الشعر الإيرلندي الذي يحمل بعض هذه السمات، ولكنه مع ذلك يقصر دون مرتبة الشعر العربي. فللشاعر العربي – على حدّ قوله – من دفق المشاعر، وقوّة اللغة وفيض الأحاسيس، ما لا يتوافر للشاعر الإيرلندي، "ولو كان في خدمة جولد سميث".

يذكر بيرتون أن النساء المسلمات يطرحن في أوقات المحن ضعفهن جانباً، فهن شقائق الرجال، ويستشهد بالتاريخ العربي الإسلامي، ولكنه يستدرك بالقول: "هذا إذا كان التاريخ صادقاً"، ويحكي عن جهاد المسلمات الأوائل في فجر الإسلام، وعن الخليفة عمر بن الخطاب

- رضي الله عنه - ذلك الفارس الشغوف بالأسفار، الحاسم النصرة للمظلوم، الذي لا يتوانى عن عقاب المعتدي، العامل على هداية الكفار، فيقول: إن أبرز ما يميز هذه الشخصية الفذّة هو حمايته للنساء، فهذا الأمر هو العنصر الحقيقي للفروسية. كذلك يتناول بيرتون طرفاً من سيرة المعتصم، الخليفة العباسي، ويروي أنه سمع أن البيزنطيين البرابرة حبسوا في عمورية امرأة مسلمة من الأشراف استنجدت حين لطمها جندي وصرخت: وا معتصماه! فتبسم الجندي من قولها وهزئ بها قائلاً: انتظريه حتى يأتيك على جواده المطهم، فإذا بالمعتصم في اليوم التالي يسير على رأس سبعين ألف فارس ويحتل عمورية، ويشجّ رأس ذلك الوغد الخسيس، ويطلق بيده سراح تلك السيدة التي استنجدت به. ويحدثنا أيضاً عن السيدة غالية زوجة "الوهابي" التي يقول: إنها واجهت محمد علي باشا نفسه في كثير من المواقع الدامية، كما يحدثنا عن مجاهدة النساء الأفغان الإنجليز. ويرى في نساء العرب - حتى الشابات منهن - جرأة وشجاعة، ويضرب المثل بإحداهن - سمّاها لنا - خرجت يوم "عرفات" متلثمة بالكوفية لتأخذ بثأر أخيها ممن قتله. وينتقد بيرتون الرحالة الأمريكي صاحب كتاب **الهلال والصليب** الذي ينكر فروسية عنترة، ويرى أن شعره لا يحمل منها إلا النزر اليسير، فشعره لا يدل إلا على أنه مولع بالجنس اللطيف، مسكون بروح الدفاع عنه. فعلى سبيل المثال نراه يوصي شيبوب بألا يحمل حقداً، فالحقد لن ينجم عنه خير، كما نراه في بعض المواضع يبرز صفات النبل والشرف في سيده، وليس في ذلك تعبير عن العظمة، إضافة إلى أننا نراه في مواطن أخرى من شعره يقول: إن الفخر بالنسب هو شأن الكسالى المتعطلين، وإن على الفتى أن يفخر حين ينفض عنه الكسل ويتدرع بدرعه غير مبالٍ بهجير الظهيرة، ولا متوجس من ظلمة الليل التي يخترقها، غير وجِلٍ ولا هيّاب. ويعود ليقول: إن عنترة قد عشق عبلة، لأنها مشرقة كالشمس، ذات شعر فاحم كالليل، ترقد الجنة هانئة بين جفونها، وهي فوق هذا كله ذات قوام فارع لَدن كشجرة الطرفاء داعبتها صبا نجد، ذات صدر ناهد و... ويستطرد بيرتون ليقول: إنه لا يَنكر هذا كله فهذه أسباب حسية للعشق، ولكن ينبغي ألا ننسى الأسباب المعنوية التي عشقها عنترة في عبلة من إخلاص وعفّة ودفء مشاعر، وتعلق بها، لا لمفاتن جسدها وبهاء وجهها، ولكنه أحبّ فيها - قبل هذا وذاك - خلقها القويم وطهارتها وطيب محتدها. ونرى بيرتون صادقاً حين يقول: إن هذه الصفات المعنوية هي التي ملكت على عنترة لبّه وجنانه، وتمكنت منه روحاً ووجداناً، ويستشهد ببيت ورد عن عنترة فحواه أن الحب يثير كل نوازع الفروسية في الإنسان، ويقول: إنه ليعجب للعديد من الرحالة الغربيين الذين ينظرون نظرة سلبية إلى العرب، ويعتذر عن ذلك بأن بعضهم قد عاش تجارب سلبية في أوساط بعض السوريين "المنحطين" أو في أوساط عرب سيناء، فأقام لذلك الحُجّة على العنصر العربي كله. ويعيب بيرتون على اللورد لندسي - أحد نواب الملك في الهند بعدئذ - أنه لا يرى في سلالة عنترة من تميز برقة الشعور أو تحلٍّ بالحكمة.

يرى بيرتون المهر الذي يدفع للعروس ثمناً لها حين يقول: إن المرأة تمثل سلعة عند البدو كما هي عند الحضر؛ فالشاب في الحجاز لن يتأهل ما لم "يشتر له والده عروساً" بحوالى ثلاثين ريالاً إسبانياً، كما أن بعض القبائل تقبل من أصناف الماشية مهراً "ثمناً" لبناتها. ويحكي بيرتون عن حفلات الزواج التي تختلط فيها طلقات البنادق ابتهاجاً بأصوات الغناء، وتقام فيها الولائم (بلحم الضأن) ويستطرد ليقول: "إن المرء إذا ضجر من زوجته طلقها – تخلص منها – مرّة واحدة. ولن يؤدي الطلاق إلى مشكلات ما دام المهر قد استخلص في حينه كاملا". ويذهب في سخريته المعهودة بعيداً حين يتناول موضوع الزواج فيقول: إن العرب شأنهم شأن المصريين لا يحبذون العزوبية، ولكنهم حينما يتحدثون عن الزواج يجعلونه موضوع تندّر قاسٍ، وتتجلى في أحاديثهم نوادرهم وفكاهاتهم، ولا نعدم أن يصوغ البعض هذه الطرف نظماً. يقول هاريكار الحكيم Harikar Al Haakim وهو رجل عارف بكل شيء (Do All) وهو يوصي ابن أخيه السيد مخبولٍ بعدم الزواج، فالزواج سعادة شهر، وغمّ دهر وكسر ظهر، وتعرض للسان المرأة. ومن شعرهم في هذا المجال أيضاً قالوا: زواج، قلت: باعدوا بيني وبينه، أأضم إلى صدري كيساً مليئاً بالأفاعي؟! إنني أستمتع بحريتي، فلماذا أسعى كي أكون عبداً؟! لا بارك الله في مجالس النسوان. أما أشهر أبيات شعرهم في هذا المجال فتجري على النحو الآتي: من عشر سنين إلى عشرين تنام الزوجة في عيون زوجها، ولا تزال مليحة مكتنزة لحماً من العشرين إلى الثلاثين، ومن الثلاثين إلى الأربعين هي أم البنات والبنين، وعجوز مخادعة من الأربعين إلى الخمسين، ومن الخمسين إلى الستين أذبحها بالسكين! ومن الستين إلى السبعين لعنة الله عليها وعلى من يشبهها في العالمين! ولهم أيضاً شعر يقولونه فيه: إن جنس النساء جنّة الرجال، ولكني أقول: عسى أن يدفع الله بي إلى جهنم إذا كان في الجنّة نساء!!

الحالة الدينية في أوساط البدو

يصف بيرتون البدو عامة برقة الدين، ويرى أن محمد – صلى الله عليه وسلم – وصحابته "لم يهزموا" إلا الأكثر حضارة في البدو، أما غلاتهم فقد ظلوا بمنأى عن حياض الإسلام، بل إن بعضهم لم يرده أصلاً، ولا يزال في البادية العربية "من لا دين له". وبعد أن يؤكد أن البدوي الأقرب إلى الحاضرة هو الأكثر تديناً، يصل إلى أن الآخرين لا يزالون يعيشون تراث أجدادهم في القيم والتقاليد والأعراف. فالمناخ الذي يعيشونه في حاضرهم هو ذاته الذي عاشوه في جاهليتهم. والحقيقة لا ندري من الذي أنبأ هذا الرحالة الأرعن أن الإسلام قد حارب قيم وأعراف وتقاليد البادية العربية في الجاهلية أو حتى قيم الحواضر وتقاليدها في أي منطقة في العالم. ثبت الإسلام على كل سمة طيبة في كل مجتمع وأكدها من دون الاهتمام بمصدرها، من

البادية أو الحاضرة، و لم يعرف في بداياته ولا في تاريخه اللاحق انقطاعاً قيمياً، و لم يدعُ إلى ذلك يوماً. ويحدثنا بيرتون من دون أن يذكر لنا مصدره فيقول: إن البدو الذين يعيشون على تخوم الربع الخالي ما زالوا على وثنيتهم، ونراه في ذلك كاذباً كما تدل الشواهد. ويحكي عن بدو آخرين، ويثبت لهم تمسكهم بالأخذ بالثأر، ولا نشك في وجود هذا العرف الممقوت عند أولئك البدو وغيرهم، كما يحدثنا عن بدو لا يزالون يثبتون براءة الرجل أو إدانته بمقدرته على لعق حديدة حامية، ويحدثنا أيضاً عن بدو يأكلون الميتة، وآخرين يقدمون زوجاتهم لضيوفهم، وما إلى ذلك من مظاهر لم يرها ولكنه سمع عنها، وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.

يقول بيرتون: إن بدو الحجاز شافعية، ويردف ذلك بقوله: إنهم لا يؤدون الصلاة، فهم يحتاجون إلى الماء القليل في بلادهم لشرابهم، لا يبدّدونه في الوضوء. وبالطبع ربما جهل الأرعن أو تجاهل التيمم، ويقول: إنهم لا يتصدقون، لأنهم يأخذون الصدقات، ولنا أن نتساءل هنا هل شرع الإسلام الصدقة إلا لسد حاجات الفقراء؟ وهل من شروط الإسلام أن يؤدي الفقير مما لا يملك؟ لقد ربط الإسلام كافة العبادات والقربات بمن استطاع إلى ذلك سبيلاً. ويضيف بيرتون: إن البدو لا يصومون شهر رمضان، لأنهم يتضورون جوعاً العام كله، ولا يحجون، لأن العالم كله بيت الله. وفي الحقيقة لا نعتقد أن رتشارد بيرتون بدراسته الفقه الإسلامي ومعرفته ظواهره من دون مقاصده، كان يجهل تفسير ما أورده عن البدو دينياً، ولكننا نراه قد عمي عن أبسط ما تثبت له دراسته حيث اتصل الأمر بالإسلام، وأصيب بتلك البلادة الموروثة التي تميز أمثاله في هذا المجال. وقد نحاول أن نعتذر هنا لبيرتون بعلمانيته أولاً، وبسخريته ثانياً، فالرجل – في ما يقول – ينقل تجاوزات البدو الدينية التي تثير في الحواضر العربية السخرية والضحك، ما يدل على أنه سمع ذلك من بعض الحضر المتفلّتين، وأضاف إلى ذلك من سخريته حين قال: إن البدو يخرجون الصدقة ممّا يسلبونه وينهبونه، وإنهم لا يقدمون نذوراً أو قرابين.

الحياة الاجتماعية للبدو

يتحدث بيرتون عن الحياة الاجتماعية في البادية، ويستعرض في البداية شطراً من تاريخ العرب في الجاهلية، ويخلص إلى أن بدْوهم قوم تتأجج العاطفة في صدورهم جراء ذلك الانفعال الذي يعتريهم فجأة بلا مقدمات ويستبد بهم، ثم يأخذ بتلابيبهم ويدفعهم دفعاً في دروب الشوق والرحلة، وضروب اللهفة والشعر والهوى والرثاء، ما يدعوهم للقيام بأشد الأعمال خطراً لإفراغ شحنات العواطف التي تعتمل في دواخلهم. وعندما أسلم هؤلاء البدو تحولت تلك الدوافع التي كانت تحرضهم على القيام بأخطر الأعمال إلى حماسة نشيطة لنشر كلمة

الإسلام. ويخلص بيرتون، بعد ما رويناه عنه من حديث خرافة لا يثبت أمام أبسط الحقائق التي لا بد أنه قرأها ولكنه لم يعها، فقد حجبها عنه ظل ثقافة غربية تعشو عن كل حقيقة حين يتصل الأمر بالتاريخ الإسلامي، إلى أن الإسلام دين نزل في مكّة وهي من الحضر، وتكوّنت مؤسساته في المدينة المنوّرة وهي من الحضر، و لم تتصدّ البادية لنصرة الدين إلا بعد أن اكتسبت من أهل الحضر وعياً كافياً به، فأصبحت بعدئذ من أخلص جنده بعد أن كانت من أبرز معارضيه. ولعل في هذا ما يجعلنا نرفض ما أورده بيرتون من أن عواطف البدو المتأججة هي التي أدت إلى نشر كلمة الإسلام الذي يدعو إلى التدبر والتفكر، ولا نغفل في الوقت ذاته دور العاطفة.

يستطرد بيرتون فيقول: في طباع البدو تحرر، وبساطة لا تعرف التكلف وتأنف من التجمل، وذلك الارتباك "الناجم عن صقل الشخصية الذي سبّبته الوفرة". إن غاية التكلف قد تكون في البدو أحياناً – في ما يقول بيرتون – لا تتعدى ما قد يحدث عند لقاء صديقين. فحين يتقابلان يتعانقان، أو ربما يتصافحان، أو يضغط كل منهما جبهته على جبهة الآخر، ويظلان على هذا المنوال عدّة دقائق يستفسر كل منهما عن صحّة الآخر، ويصغي إلى ما يقوله رداً عليه، فالبدوي يقابل الآخر بوجه طلق، ولا يصحّ أن يعطي الآخر ظهره "وإن كان يتناول طعامه"، ومن يفعل ذلك فقد قصد الإساءة.

يكرم البدوي ضيفه بالقهوة، ويكرم الفارسي ضيفه بشربات القاجار، والمصري بالشاي السليماني. ولكن على هؤلاء جميعاً قبل أن يقدّموا إلى الضيف القهوة أو الشربات أو الشاي أن يتناولوا منه أولاً. ويرد بيرتون هذه الممارسة إلى أن شربات القاجار الذي تعود شهرته إلى الأسرة القاجارية الحاكمة في ذلك الوقت كانت لا تتورع عن خلطه بالزنجار (صدأ النحاس) مع الحليب ليصبح سماً قاتلاً لخدمة سياسة الدولة، أما السليماني – واللفظ هنا يدل على الأفغان بصفة عامة – فهو يستعمل في مصر كما في الموصل سماً يؤدي الغرض السابق. ويستدرك هذا الرحالة ليقول: إن مصر غير مشهورة بصناعة السموم، ولذا فقد أرسل محمد علي باشا يستقدم خبراء سموم من أوروبا.

يستطرد بيرتون فيقول: حين يقترب ضيف من خيام حي في الصحراء، فعلى أول من يراه من أهل الحي أن يناديه باسمه ويهرع لتحيته حاملاً رمحه أو بندقيته، ولكن يجدر بالغرباء غير المعروفين لأهل الحي ألا يقتربوا من تلك الخيام إلا في رفقة صديق وإلا أصابهم الهلع. وعادة ما يُحيّي البدو ضيوفهم بإطلاق النار، ويطلقون على هذه الممارسة "لعب البارود". يرى بيرتون أن البدوي مهذب، حلو الحديث، رصين الألفاظ إلا حين يغضب، فتراه عندئذ يرمي الخصم بأقذع الشتائم التي تنطلق من فمه كأنها القذائف: "يا كلب... يا سكير... يا كذاب... يا كافر". أما أفضل الصفات التي يراها هذا الرحالة في البدوي فهي طبعه النبيل وكياسته وكرمه وعزمه وتصميمه، كما يرى في طبع البدوي مزيجاً من المكر الشديد والبساطة اللامتناهية

ومن الحساسية البالغة والروح الرياضية، ومن دماثة الخلق والوقار مع الشغف بالفكاهة، تأسره الابتسامة، وتشوقه الكلمة الطيبة، وتجده – إن نلت منه الود – سمحاً لين العريكة، ولكنه أيضاً حقود نزّاع للانتقام إذا آذيته.

يشبّه بيرتون مجتمع البادية بمجتمع الأسود، يظفر فيه الأوفر قوّة والأبلغ شراسة والأكثر براعة بمكان الصدارة والرئاسة، كما تتحكم في هذا المجتمع أيضاً عادة الثأر. ولا تستجيب البادية – رغم كونها مسلمة – لقوانين الشريعة، بل تستجيب لأعرافها التي يمثلها "قاضي العرب"، وهي قاسية جداً. ويستطرد هذا الرحالة فيقول: "ولما كان الإنسان بطبعه حيواناً يتصيد الفريسة"، ولكنه يتعلم من وشائج المجتمع المتشابكة ما يلطف ذلك، فإنه يبدو مستعداً في كل لحظة لممارسة عاداته القديمة. ولافتقار البادية إلى الحضارة الحديثة، فإن الضراوة والتعطش للدماء في الصحراء أقوى فيها مما في سواها. ورغم ذلك نجد المتوحشين وأشباه البرابرة يتميزون بالحذر، فهم – كما يقول بيرتون – عطل من كل شيء، لا يملكون شيئاً إلا حياتهم، ولا يهمهم من الدنيا شيء سوى إشباع حاجاتهم البسيطة وتحقيق آمالهم التي لا يكون من دونها للحياة طعم. ويسترسل هذا الرحالة فيقول: إن شجاعة العرب لا تستهوي الغربيين، ويرى أن هذا القصص الأسطوري المتْرع بالمغامرات البطولية "الطائشة" والممارسات المستحيلة قد يسترعي نظر الغربيين أول وهلة، ولكنه لا يمثّل عندهم مقياساً لشعب مقاتل حقاً، فالشعب المقاتل حقاً – كما يقول بيرتون – لا يعجب بقاطع طريق متربص يتخذ له متراساً عند قمة الجبل، ويطلق من مكمنه النار على القوافل الآمنة، إضافة إلى أن الحروب العربية لا تزيد على كونها سلسلة من الكرّ والفرّ، ترى الخمسمئة يولّون الأدبار إذا قتل منهم اثنا عشر. وفي مثل هذه الحروب، فإن الذي يحقق إسقاط أكبر عدد من القتلى أولاً يظفر بالنصر، ويرجع الطرف الثاني بالهزيمة، ثم ما يلبث أن يولّي الأدبار لا يلوي على شيء حتى يستره ظلام الليل. وما إن تنتهي المعركة حتى يتصاعد عويل النساء ينتحبن ويوبّخن المهزوم، ويصغن مطالبتهن بالثأر شعراً يؤرق كلا الطرفين المتقابلين. ويلي هذه المعارك عقد صلح لا يعدو كونه هدنة بوساطة بعض الشيوخ البارزين من أمثال شريف مكّة، فيستتبّ السلام في أوساط البدو بضعة أشهر، ولكن قد تكفي كلمة أو نظرة واحدة لنقض السلام، وتتفجر الأحقاد التليدة من جديد ويسيل الدم. وهكذا يذهب بيرتون في رسم صورة البدو والبداوة من مجموعة خطوط متنافرة ومتناقضات لا يستطيع القارئ أن ينسج منها صورة حقيقية، مع اعترافه بعلوّ كعب الكاتب في المجال التصويري واتساع ثقافته التي حوت كل تلك الألوان ومازجت بينها ثم وضعتها في قالب واحد مؤتلف.

يرى بيرتون أن الجراد يُكوّن طبقاً مفضّلا لدى البدو يستعذبه حتى الذين تحضّروا منهم، ويستطعمونه أكثر مما يستطعم المصريون طبق "الفسيخ". ويضيف أن العرب حين يوقدون

النار ليلاً فيسقط عليها الجراد، يلتقطونه ويقولون وهم يلتهمونه أُحلّت لهم ميتتان: السمك والجراد، ودمان: الكبد والطحال. ويصف بيرتون طريقة حفظ الجراد لأكله لاحقاً، فيقول إنهم يغلونه في الماء المالح ثم يعرضونه لأشعة الشمس لمدة أربعة أو خمسة أيام حتى يجفّ ثم يحفظ. أما الجراد الذي يؤكل طازجاً فإنهم يلتهمونه نيئاً بعد قطع رأسه وسحب أحشائه معه ثم يقطعون الأرجل والأجنحة ويأكلونه من دون تعريضه للنار. ويحدثنا عن مطبوخ الجراد، فيقول إنهم يقلونه مع البصل في السمن ويجعلون عليه بعض الملح والبهار، ويصبح طعم هذا الطبق – كما يفيد بيرتون – كطعم الروبيان غير الجيد، وينتهي بيرتون إلى القول إن الجراد الطازج يماثل عند البدوي القواقع عند البريطانيين. ويبدو أن أكل الجراد وطرائق طهيه وحفظه كانت من الغرائب التي حرص كافة الرحالة على روايتها لشعوبهم. يحدثنا جورماني عن الجراد الذي يُعدّ في البادية مصيبة تنزل بالأخضر واليابس، ولكنه يُعدّ أيضاً مورد رزق. يحفر البدو حفرة في الرمل ويتسابقون إلى سُحب الجراد التي تغطي الأفق، فيقبضون عليه ويلقونه في الحفرة حتى تمتلئ. ولم يعجب هذا الرجل، على النقيض من كثير من الرحالة الآخرين، بالجراد، لا مشوياً ولا مسلوقاً، فطعمه كالشعير بالنسبة إلى الخيل، وأفاد جورماني بأن الجراد يُجفّف ثم يُسحن ويُحفظ "لسنين عديدة بهذه الطريقة من دون أن يتسرب إليه التلف".

يلاحظ بيرتون أن لفظ حرامي Harami لا يزال يستهوي أهل الحجاز، وأن الرجل منهم إذا لقي حتفه في معركة أو غارة فإنه يكون "غندوراً"، أي شجاعاً، أما إذا مات في مخدعه فيعدونه قد مات "فطيس" ستندبه أمه وتقول: مات ابني موتة طائر، وتواسيها من في صحبتها من العجائز بقولهن: إنها إرادة الله. ويضيف: إن عشيرة اللهابة من عوف ترى في السلب من قوافل الحجاج شرفاً، وإن بناتها لا يقبلن الزواج بشاب حتى وإن كان من أبناء العمومة ما لم يعترض القافلة ويسلب "الباشا". ويقول: إن العثمانيين كانوا يعالجون أمر الاعتداء على القوافل قبل عقدين من الزمان بوضع المعتدي على الخازوق، ولكنهم تراجعوا في الفترة الأخيرة عن هذا العقاب، وادّعوا أن السلطان لا يريد أن يُنزل العقاب باللصوص في الأراضي المقدسة. ويرى بيرتون أن الأتراك إنما يسترون بهذا العذر ضعفهم وقلة حيلتهم، ويستطرد فيقول: إن مثل هذه الممارسات التي تعكس ثورة ضد المجتمع هي بالضرورة ممارسات لرجال لهم أجسام حديدية وعقول حديدية أيضاً، ما يثير في النفس البشرية الإعجاب، رغم أنهم يبدّدون طاقاتهم في غير موضعها. ويعتذر هذا الرحالة بأن هذه المناطق التي "تعيش الخيال وذكرى القصص الرومانسي تجعل من اللص بطلاً، خاصة إذا سطا على الأغنياء ووهب الفقراء، ما يكسبه الذكر الحسن، ويسبغ عليه نوعاً من أنواع الاستقامة الأخلاقية". ويضيف: إن قاطع الطريق يصرخ فيمن يعترضه: اخلع عنك العباءة والعمامة فابنة العم تحتاجها– يقصد الزوجة – وما عليك إذا لم يكن ثمّة مهرب إلا أن تستجيب لحاجات الجنس اللطيف. أما إذا

عضدت استجابتك بكلمات مهذّبة، وقدمّت للصوص فنجاناً من القهوة مع الشيشة فإنك قد تسترجع نصف ثيابك. وقد تكسب صداقتهم، وإذا استشهدت بشيء من الشعر، فعندها لن تخسر إلا حذاءك! أما إذا رفض الرجل الخضوع فسيتلقى وخزة بطرف الرمح، ولكنه سيجد التعاطف من تلك العصابة ما إن يسيل منه الدم!

يقول بيرتون: إن البدوي ليس جباناً رغم تفاهة المعارك التي يخوضها، فقد أدى تعرضه الدائم للأخطار، وسعيه لطلب الثأر، وكذلك تقلب الجو وقسوة العوامل المناخية، واحتمالات أن يفقد حياته في أي لحظة، إلى أن يتبلد جهازه العصبي، فلا يكاد يعرف الخوف، يُضاف إلى ذلك توافر السلاح في مجتمعاتهم، وبراعتهم في الرماية وركوب الخيل تدفعهم إلى مقابلة الموت وجهاً لوجه، غير وجلين ولا هيّابين. ويضيف: إن أكثر ما يعيب الرجل سلبه فرسه، فتراه يبذل حياته رخيصة دون ذلك حتى لا يعود بالخزي والشنار، فيواجه في هذه الحالة أعداءه مهما بلغت أعدادهم كثرة بروح التضحية انطلاقاً من قدرته على القيام بأعمال انتحارية، مثل أبطال هوميروس الذين كان الواحد منهم يواجه أكثر من ثلاثمئة خصم. ويضيف بيرتون: "إذا كان الإنجليزي - في ما يقال - يحارب لأسباب دينية، والإيرلندي يحارب حباً في الحرب ذاتها، فإن العربي يحارب لإحراز كسب أو إدراك ثأر أو للانتقام. ولكن العربي حين يحارب، يقوم بذلك بنحو تشنجي متقطع يفتقر إلى روح البسالة التي يمتاز بها الفرنسي، أو لروح المثابرة المتتالية التي تميز قتال الأنجلوساكسون. لن تجد بدوياً يقاتل قتال من يصمم على إحراز النصر، ما لم تتحرك في دواخله عوامل التعصب والرغبة اليائسة في الدفاع عن شرفه، فتراه يقوم بأعمال جنونية إن تعرضت نساؤه لمكروه، أو إذا أهنته ووصمته بالجبن، فحينها يقاتل قتال من لا يرتد على عقبيه البتّة. فعندما انجلت معركة "بسل" التي هزم فيها محمد علي باشا أربعين ألف مقاتل كانوا تحت قيادة الوهابي فيصل بن سعود، وجدوا كافة مقاتلي "بني عسير" قتلى، وكانوا - في تصميمهم على عدم النكوص - قد قيّد كل منهم رجله إلى رجل المقاتل الآخر بالحبال."

يتحدث بيرتون عن أثر الدين في البدوي فيقول: إن التمسك بأهدابه يؤدي إلى إخلاص الجندي لقائده والوفاء له، وهو ينطلق من عقيدة ثابتة وليس من مجرد حماسة. وعاب بيرتون على بعض الرحالة الغربيين الذين لم يدققوا في هذا الأمر، فعدوا حذر البدوي جبناً شديداً. ويستطرد فيقول: إن المرء حين يُمعن في طبيعة الحروب البدوية، وينقّب في أسسها، سيكتشف أن البدو - مثل الهنود الحمر - يفقدون بريق النصر إذا ذهب منهم قتيل واحد في المعركة، فهم لا يضحّون بأرواحهم ولا يستهينون بالخطر ما لم تستدعهم دواعي الدفاع عن الشرف، إضافة إلى دوافع أخرى تجعل البدوي شديد الحيطة والحذر، فعليهم - حتى إذا حلّ السلام - أن يدفعوا ثمنه، ويقول: إن ديّة القتيل تبلغ ثمانمئة ريال أو مئتي جنيه استرليني، وربما مقابل هذا

المبلغ ماشية. ويجمع الخمسة وهم أقارب القاتل "العَصَبَة" هذا المبلغ الذي تسهم فيه مجموعة الأقارب. وتنازع البدوي رغبتان حينئذ: جشعه وحبه للمال، ورغبته في الثأر، وإن رأى رقبة عدوه قد فصلت عن جسده. وأخيراً - كما يقول بيرتون - تتغلب رغبته في تحقيق مشاريعه لشراء بعير أو فرس أصيل، فيقبل بالديّة على استحياء. أما النساء المسنات فإنهن لا يقبلن الديّة، وتشحذ الواحدة منهن مديتها وتقسم أنها لن تأكل من دم ابنها.

يسترسل بيرتون في حديثه عن البدو، فينصح من يأتي بعده من الرحالة فيقول: ثق بشرفهم تكن آمناً في أوساطهم، مع أنهم غير أمناء، فهم يسرقون شعر رأسك إن استطاعوا. ويوصي بأن يكون الرحالة هادئ الأعصاب لا ينفعل، يتحمل مشاقّ الصحراء بنفس راضية، يعرف شيئاً من خصائص العقاقير، ويجيد الرماية والركوب، ولكن يجب ألا يحمل معه أسلحة ثمينة فهي تستثير طمع البدوي أكثر مما يفعل الذهب، وعليه أن يقرأ سلفاً عن أعرافهم وتقاليدهم، ويحذر الإساءة إليهم بالشتائم، إضافة إلى ضرورة معرفته اللغتين العربية والتركية. وعلى الرحالة أن يتخذ منهم رفيقاً مع إنفاق مبلغ صغير، وسيجد من هذا الرفيق إخلاصاً غير متناه إذا حدث أن تناول مع الرحالة طعاماً، فعبارة: قد أكلنا الملح معاً، أو كما يقولون بحسب لهجَتهم: نحن مالحين، تمثل رابطة صداقة قوية، ولكن هناك بعض القبائل التي لا تني تسعى إلى تجديد هذه الرابطة كل اثنتين وعشرين ساعة، ويقولون: ما عاد الملح في معداتنا. ويوصي بيرتون زميله الرحالة الغربي بضرورة أن يحسن اختيار الرفيق، فلا يختار من علق به ثأر، ويقول: إن مبلغاً صغيراً يتراوح بين عدّة بنسات إلى ريالين تدفعه إلى رجل أو امرأة أو طفل في القبيلة يتيح لك امتياز مشاركة القبيلة العيش والملح، وتدخل أنت وحصانك في حمايتها، وتصبح "دخيلاً"، على كل أفراد القبيلة الدفاع عنك كما لو كنت واحداً منهم. أما من يعمد إلى قطع أرض قبيلة من دون أن يؤدي حقوق "الخوة" أو الرفقة فسيتعرض للسلب، ثم القتل إذا حاول أن يقاوم، ويستطرد ليقول: إن من لا يراعي هذه التقاليد ويخطئ بأن يعدها عاراً فهو مجازف لا يتحرى عن الحقيقة، فهذا النظام يسود هذا الجزء من العالم وإن اتخذ أسماءً مختلفة، فهو في الحجاز رفيق، وفي سيناء خفير، وفي شرق شبه الجزيرة العربية ربيع، وفي الصومال عبان، وعند الجالا موجاسا... كذلك يوصي بيرتون الرحالة الغربي اللاحق بأن يحمل معه مصحفاً وبوصلة وقلماً وأوراقاً، وألا يكتب شيئاً أمام البدو إلا التعاويذ، وألا يعمل على استخلاص المعلومة من البدوي بالأسئلة المباشرة، بل عليه أن يستدرج محدثه خطوة بعد أخرى، فقد ينزعج بعضهم إذا سألته مباشرة عن اسمه أو عشيرته، إضافة إلى أن الأسئلة المباشرة تثير ريبته، وتكشف عن جهل الرحالة وشدّة فضوله. ويستطرد فيقول: إن بعض البدو قد يعيشون بأسماء مستعارة، ولكن القبائل لها القدرة على كشف هوية مثل هذا الرجل من مظهره ولباسه ولهجته ونبرة صوته. ويوصي بيرتون بأن يحمل الرحالة معه بضعة ريالات ويراها كافية لتكسبه الاحترام

في البادية. ويقول: إنه حمل معه بعض الهدايا الصغيرة من مواس وطرابيش وما إلى ذلك ليكسب بها ودّ شيوخ القبائل.

يقول بيرتون إن حكومة العرب مستقلة تتمتع القبيلة فيها بحكم ذاتي، وتخضع لشيوخها، لا يعصي لهم أمراً إلا أولئك الأفراد الذين يتمتعون بذكاء متقد، وصفاقة تؤدي بهم إلى أن يرفعوا أصواتهم فوق أصوات قادتهم، تماماً كما هي الحال في بعض الجيوش المتمدنة. وعلى العموم، فإن السيف - كما يقول بيرتون - هو الذي يفرض القانون في مجتمع الأسود الذي تمثله البادية. ويتحدث عن العلاقات التي تربط أو تفرق بين القبائل في الحجاز. فهم إما أصحاب يصاهر بعضهم إلى بعض، ويربطهم تحالف هجومي دفاعي، أو "كيمان" متفرقون، أو إخوان متجاورون.

الأوزان والمكاييل في المدينة المنوّرة

١٢ درهماً = أوقية.

٢٠ أوقية = رطلاً.

٢٤ مداً = أردباً.

يلاحظ بيرتون أن الرطل يعتبر أكبر وحدة للوزن للسلع الاستهلاكية في المدينة المنوّرة، مثل: اللحم، والأرز، والسمن، والخضر، والبن، والصابون. أما في مكّة فيلاحظ أن الرطل فيها غير الرطل في المدينة المنوّرة، فهو أقل وزناً. والرطل في مكّة مثل الرطل المصري يساوي ١٤٤ درهماً، أي ١٢ أوقية.

أهل المدينة وملابسهم والحلي وأدوات الزينة

يسكن المدينة نحو ستة عشر ألف نسمة تدّعي أربع أسر منها أنها من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، أما من تبقّى فهم خليط من كل جنس وعرق يدين بالإسلام، لكنهم اكتسبوا الملامح العربية، وفيهم من خصال العرب الحميدة "الفخر والشراسة والشرف وحب الانتقام". وتتسم سلوكياتهم بالوقار والأبهة والتزامهم بأصول الأدب بنحو لا يخلو من الرياء. ويشيد بيرتون بـ"رجولة" أهل المدينة التي لا يتوافر "لأي جنس شرقي آخر مثيلها". ويعتقد بيرتون أن أهل المدينة يأنفون من القيام بأي عمل يدوي. ويعمل علية القوم منهم في تدبير شؤون عقاراتهم وشؤون المسجد النبوي الكريم، أما أبناء الطبقة الوسطى فيعملون في تجارة الذرة والقمح وغير

ذلك من البقول والتموينات، فيما يقوم الرقيق الأسود بالأعمال الدنيا.

تعكس ملابس أهل المدينة – في ما يقول بيرتون – أناقة امتاز بها الجنسان رجالاً ونساءً. فالمرأة تسند ثدييها بصديرية تتخذها من قماش الكاليكو Calico وغيره من الأقمشة المماثلة، ولا تتعمد أن تبرزهما بنحو فاسد كما هي الحال عند نساء أوروبا، وتستر جسدها بثوب أبيض ذي أكمام واسعة جداً تتخذه من قماش يسمى الهلالي Halaili أو برنجك Burunjuk، وينسدل الثوب طويلاً ساتراً يتدلّى إلى القدمين، أما سراويلهن فليست واسعة كسراويل المصريات، فهي أكثر إحكاماً مثل سراويل الهنديات. ففي الهند كما في السند قد تقضي المرأة التي تتبع أصول الموضة حوالى ربع ساعة وهي تحاول أن تمرّر السروال من منطقة الكعب. ويستطرد بيرتون ليقول: "وأنا في هذا لا أبالغ".

إذا أرادت المرأة في المدينة المنوّرة الخروج طرحت فوق رأسها عباءة "ملاية" حريرية أو قطنية مصبوغة بمربعات تتبادل ألوانها بين الأبيض والأزرق كمربعات رقعة الشطرنج، وتضع على وجهها برقعاً أبيض، وهو لون البرقع السائد في منطقة الحجاز برمتها. وتتبارى النسوة من كافة الطبقات في صبغ أخامص أقدامهن وأصابع أيديهن باللون الأسود، ويرسمن خطوطاً سوداء نحيلة في المنطقة بين الأصابع، فيبدأن أولاً بوضع طبقة من الحناء، ثم يضفن بعد ذلك خلطة شادر Shadar، وهي خليط من الفضة والجوزية ومسحوق الشبّ والليمون. وتفرق المرأة شعرها عند منتصف الرأس وتضفره، ويبلغ عدد الضفائر حوالى عشرين، وهن يطلقن على الضفائر لفظ: الجدائل. أما الحلي وأشكال الزينة الأخرى فهي في المدينة مختلفة اختلافاً واسعاً، ومتباينة، شأن ما يحدث في الشرق كله، تتراوح في أدناها من الحلي النحاسية والترتر (اللمَّح) إلى الذهب والأحجار الكريمة. ونساء المدينة شغوفات بالعطور النفاذة التي يتخذونها من المسك والزباد والعنبر وعطر الورد وزيت الياسمين وزيت الصبار ومستخلص القرفة.

يلبس الرجال والنساء أيضاً أحذية إستانبولية، كما ترتدي المرأة جوارب تحت خف داخلي من جلد أصفر فاتح وتغطي الكعب بالبابوش Papush المصنوع من الجلد أيضاً الذي يزين أطرافه المخمل أحياناً، كما تحمل قاعدته في منطقة تجويف القدم شغلاً ذهبياً على هيئة أوراق نبات أو غصينات متفرعة صغيرة.

في حالة الحداد يختلف لباس المرأة عما اعتادته، ولا يرتدي الرجال ملابس تدلّ على الحداد، فالرجال في المدينة يتصرفون على هذا النحو، كما يتصرف كافة المسلمين الحقيقيين الذين لا يجزعون عند الموت، أما النساء فلا يستطعن السيطرة على الحزن الذي يأخذ بقلوبهن، فيعبّرن عن الأسى بالتخلي عن زينتهن المعتادة وبارتداء ملابس بيضاء، هذا على الرغم من أن بوركهاردت – وهو رحالة دقيق الملاحظة كما يقول بيرتون – يقول: إن نساء المدينة ما كنّ يعرفن ملابس الحداد. ويستطرد رتشارد بيرتون فيقول: إن هناك أنواعاً كثيرة من الملابس

الأنيقة تأتي إلى المدينة من إستانبول أو باريس الشرق. ويرتدي الرجال من ذوي الشأن البنش Banish أو الجبّة التي عادة ما يكون لونها فاتحاً يخطف الأبصار. ويتدرّج لون الجبّة بين الأصفر الفاتح إلى الأصفر الغامق، وكذلك الأخضر الفاتح، والوردي الأنيق المتدرج إلى الأحمر الفاتح. وهذه هي اختيارات الرجال الذين يتمتعون بذوق راقٍ ويتبعون أصول الأناقة. ولا تختلف جُبَب أهل اليسار في المدينة المنوّرة عن جُبَب أمثالهم في مكة المكرّمة، أما إذا لم يكن للمرء استطاعة إلا لشراء جبّة واحدة يجب أن يعكس لونها احتشاماً، فيتخذونها غامقة اللون حتى تبدو دائماً نظيفة فلا تثير السخرية، ولا تستدعي الاستهزاء. وبصورة عامة، فإن فقراء الحجاز مثل أثريائهم يفضلون الألوان الفاتحة، خاصة تلك التي تعكس ألوان زهر الخزامى، أما العباءة الطويلة التي لا أكمام لها فلا يلبسها هنا إلا أفراد الطبقات الدنيا، مع العلم بأنها منتشرة في المجتمعات العربية الخالصة في المناطق الأخرى من شبه الجزيرة العربية. ويشتهر أهل المدينة بلبس الطربوش التونسي الأحمر. ويحدثنا بيرتون بأن أصل كلمة طربوش فارسية تلفظ ساربوش Sarpush، وتعني بالفارسية غطاء الرأس، كما يطلق عليه البعض – في ما يقول بيرتون – اسم فاس نسبة إلى المدينة المغربية التي تصنع فيها أجود أنواعه، ويضيف: إن المصريين يفرقون بين الطربوش والفاس، فالأخير هو النوع الكبير الطويل ذو اللون القرمزي، أما الآخر فيشبه الطاقية. ويرى بيرتون أنه أسوأ غطاء للرأس يمكن المرء أن يستعمله، ويأسف لأن الكوفية والعقال، وهما أكثر أغطية الرأس ملاءمة لأهل المنطقة في ما يقول، قد باتتا في سبيلهما إلى الانقراض، فلا تكاد تراهما إلا على رؤوس الأشراف والبدو. ويسترسل بيرتون في الإشادة بأناقة أهل المدينة رجالاً ونساء على حد سواء، ولكنه يلاحظ أن المديني يهذب لحيته ويشذبها لتصبح أقل كثافة من لحية البدوي بنحو بارز، ويحمل على شباب المدن الحجازية الذين أخذوا يقلدون الأتراك، ويحلقون لحاهم، الأمر الذي كان يمقته أسلافهم، ويرى في ذلك انعكاساً "للتفاهة الشخصية واستشراء البطالة، وهما العاملان اللذان يحكمان الشرقيين فيدفعانهم للتنافس في محاكاة الغربيين والأتراك، يتسابق شبابهم في تقليدهم حتى في حلق اللحى، مع أنهم الأمة الوحيدة بين سائر الأمم التي يوصيها الدين بإعفاء اللحى".

متسوّلات قباء

يتحدث بيرتون عن المتسوّلات وأطفالهن في قباء، فيرسم صورة إنسانية بائسة تحدث عن المعاناة. ويُحمد لهذا الرحالة أنه يغوص في حياة المجتمع حتى يصل إلى قاعه، ويطلق العنان لقلمه فيبدع في الوصف بأسلوب لا يفسده سوى أن تشبيهاته التي تحمل الصورة الخارجية تطغى عليها ثقافته الغربية التي لا تتعاطف مع صور البؤس التي أجاد تصويرها. أما التحليلات

والتفاسير والنتائج فهي تتقاطع أبداً – شأن كل ما ينتجه الفكر الغربي الاستشراقي – مع الحقائق المنطقية التي نراها في أنفسنا ونحسّها ونحياها.

يبدأ بيرتون برسم الصورة الكئيبة بأطفال المتسوّلات: "هذه المخلوقات العجيبة المذعورة التي تشابه قرود البابون التي لا ذيل لها"، والتي اتسمت بالهزال وجفاف العود وبدت أضلاعها بارزة بنحو منفّر. تعكس ألوان أجسادهم سواداً كأنه هباب المصابيح الزيتية، وهي تماثل ذلك اللون الذي يميز وجوه الكنّاسين في أوروبا. شعورهم مجعّدة كلحاء جوز الهند، أما ألوانهم فقد لوّحتها الشمس وأزرت بها الرياح والأمطار، فانقلبت بنّيةً هي إلى الحمرة أقرب، وبدت رؤوسهم شديدة الشبه برؤوس الراكشاسا Rakshsa التي هي من المردة الأسطورية التي صاغها خيال الرومانسيين الهنود. كان هؤلاء الأطفال الذين حملتهم أذرع أمهاتهم صورة مصغرة لكل منهن، وإن كانت أكثر بشاعة، وتورث المناظر المخيفة لهؤلاء الأطفال – ذوي العيون التي تكاد من اتساعها تشغل الوجه كله – النفس كآبة. ومع كل ذلك، كان أولئك البائسون لا يزالون قادرين على مد أيديهم طلباً للصدقة، بينما كانت رئاتهم المجهدة لا تزال قادرة على دفع الصرخات المفزعة والصخب والضوضاء، أما الأمهات فكن بحقّ جديرات ببنوّة هؤلاء الأطفال، فهنّ عجاف طويلات، أطرافهن ناحلة كأنها خشب مسندة، وأكتافهن تطاولت مرتفعة، وظهورهن مستقيمة. أما أثداؤهنّ فغير ممتلئة تترجرج على صدورهن وتتأرجح. أذرعهن كأذرع العناكب، وأقدامهن مفلطحة، وشعورهن طويلة ولكنها ملبدّة متشابكة، أما وجوههن المتغضنة التي تبرز منها عظام الخدود الناتئة وتظهر شفاهاً لونها أكثر سواداً من ألوان بشراتهن، فتتميز بتلك العيون "الفارغة" اللامعة التي تقدح كالشرر، فتشع حولها أقصى درجات البشاعة وأنبى مدارج القبح. كنّ في طلبهن يصدرن زمجرة كأنها فحيح الغضب المكتوم الذي انفجر فلا حابس له، فأصبحن – وهنّ على هذه الشاكلة – كأنهن التعاويذ أو الرقى التي تُتخذ لطرد العفاريت.

هؤلاء النسوة اللائي يمكن أن نطلق عليهن – كما يقول ريتشارد بيرتون – لقب حارسات جهنم، كنّ يتشحن بعباءات سود طوال، أطول من ليلة ليلاء كالحة سوداء الإهاب، وكنّ قد صبغنها باللون الأزرق لستر ما بها من قذارة، وحتى لا يضطررن إلى غسلها مراراً وتكراراً. تلفّ كل امرأة منهن بنحو "ياردة" من هذا القماش نفسه خصر طفلها، ويستخدم هذا المئزر ذاته في مسح براز الطفل وتجفيف بوله. ويستطرد بيرتون ليقول: إن هذه الصورة التي استحدثها لهؤلاء الفلاحين العرب لا تحمل أدنى مبالغة، بل تعبر عن الحقيقة، فهؤلاء هم الأجدر بالازدراء دون أهل البلاد الآخرين، الأشرس أخلاقاً، والأبشع منظراً في كافة بني جنسهم.

بيرتون إلى مكّة المكرّمة

يكتب بيرتون عن خواطره وذكرياته بأسلوب مؤثر وعفوي وصادق إذا قيس بمقياس ثقافة هذه الشخصية التي تكوّنت بالطبع مع مواريث استقرّت في الذهن الأوروبي عامة، ومكتسبات لم تتهيأ للكثيرين من شاكلته من الرحالة. فالرجل رحالة - رغم أنفه - منذ نعومة أظفاره، لم يعرف الاستقرار منذ طفولته، وهو بطبعه متمرد بوعيه على كافة المواريث تمرداً لا يصل به في اللاوعي إلى الخروج تماماً إلى إنصاف الثقافات الأخرى، وإن أدى به وهو يكشف عما يظنّه عورات الثقافات المغايرة إلى نقد عورات مجتمعه، ولسان حاله يقول: "من يكن منكم بلا خطيئة فليرمِها بحجر". والرجل - فوق هذا وذاك - قارئ نهم واسع الاطلاع والثقافة حتى لا تكاد تخلو أي صفحة من كتابه الذي نحن بصدده: **حكاية شخصية عن الحجّ إلى المدينة ومكّة**، من استشهاد بكاتب مشهور أو بشاعر عاش في عصره هو أو سبقه، أو بفيلسوف صاحب نظرية في نقد التاريخ وتفسيره. وتتجلى سلامة المنهج في هذا الكتاب من عنوانه، فهو كما يقول صاحبه "حكاية شخصية" لمن شاء أن يأخذ منها ولمن شاء ألا يقرأها. أما إيمانه بالتجربة معلماً لا يرقى إليه معلم آخر مهما بلغ شأنه، وتتضاءل أمامها كل الكتب التي قرأها مهما تعددت، وتتوارى خلفها كافة الأفكار، أياً كانت بواعثها، فهو الذي صاغ شخصيته الناقدة الحاذقة. لن تجد في كتاب بيرتون - شأن أكثر كتب الرحالة الغربيين - نقلاً صريحاً لرواية الرواة، فهو يثبتها ولكنه قبل أن يفعل يعمد إلى نقدها، وكثيراً ما أصاب وربما أخطأ أحياناً. ولا نجد في هذا الكتاب خروجاً بيّناً عن جادة الصواب إلا في ما يتصل بأمرين: الأول منهما أنه حين يتناول موضوعاً يخصّ الدين الإسلامي أو يتصل بالتاريخ الإسلامي لا يعالجه بالجدية المطلوبة والنظرة الناقدة. ولا نظنه هنا قد جنح إلى الإساءة أو التقليل من شأن هذه الثقافة كما فعل أكثر من على شاكلته من الرحالة الغربيين، لكن نبع ذلك من كونه متفلتاً ساخر الأسلوب يروي حكاية شخصية فينعكس ذلك على كتاباته. أما الأمر الثاني فهو تفخيم الذات الذي يبدو بارزاً في سرده لتجربته في الرحلة. وإذا كنا نرى أن بيرتون كان ضخماً بعلمه وثقافته ومعرفته، إلا أننا نراه أيضاً وهو يعيش متنكراً في أوساط قوم مختلفين هوية وثقافة وتوجهاً كثير الإعجاب والزهو بنفسه. وكيف لا يزهو وهو صاحب حيلة جازت على كل الحجيج من المسلمين حوله؟! فهم المغفلون الذين لم يكتشفوا أمره، وهو في ما يعتقد الأقوى عقلاً، والأحسن تدبيراً، وهذا ما أوقعه بعدئذ في العنصرية البغيضة، إذ يرد قوّة العقل وحسن التدبير إلى كونه غربياً، ولا يتورع عن أن يذكر ذلك صراحة، وهو ينقل عن محمد الدميري (؟) أن الحكمة في العالم قد تجلّت في ثلاثة: فصاحة العرب، وأيدي الصينيين، وعقول الفرنجة. يضاف إلى ذلك أن كل الرحالة الغربيين كانوا من المغامرين في حقيقة الأمر، ولم يكن يصلح للقيام

بمثل هذه الرحلة في أرض غريبة في أوساط أغراب مجرد موظف يؤدي مهمة ما، بل يجب أن تكون مثل هذه الشخصية شخصية جريئة مُحبّة للمغامرة، وأن تكون لها أهدافها الخاصة من الرحلة، لا يهم إن تطابقت مع الهدف الأساسي المحدد للرحلة من قبل الجهات التي موّلتها أو لم تتطابق. وكان أكثر ما يهم أي رحالة منهم وهو يكتب للرأي العام أن يبالغ في تصوير ما صادفه من رهق وعنت، وكيف قابل تعديات هؤلاء "المتوحشين" في أرض موحشة بعزم أكيد وهو يشاهد مصارع المعتدين أو يشارك بسلاحه أو بحكمته في رد البُغاة عن المسلمين. وقد استدعى هذا من كافة الرحالة اللاحقين أن يقرأوا ما كتبه السابقون لهم، ليضيفوا إلى أبعاد المعاناة ويصوغوا - بعد استثمار أقوال السابقين - سجلاً جديداً للبطولة يلحقونه بذواتهم. ولم يكن بيرتون في هذا الشأن بدعاً ممن سبقه، وقد أساء هذا التأثير كثيراً إلى كتابه، وكثيراً ما أخرجه عن جادة الصواب والموضوعية. أثّر هذا الزخم المتراكم من كتابات الرحالة السابقين في بيرتون تأثيراً كبيراً، وخاصة أنه يرى في نفسه الجرأة للقيام بما لم يستطعه الأوائل. يقول في هذا الصدد: "إن ما أحببت أن أثبته هو أن الخطر الذي يمكن أن يلحق بالآخرين ليس إلا برداً وسلاماً بالنسبة إلي". ولنا أن نصفق لرجل يثق بنفسه إلى هذا الحدّ، ولكن علينا أن ننبه - في الوقت ذاته - إلى أن هذه الثقة غير المتناهية قد وجدت طريقها إلى تحليلاته لنتائج رحلاته، فأورثتها الخطل في بعض الأحيان. مع ذلك فهو لم يخرج عن جادة المنهج الروائي. فالرجل - في ما يقول - يروي حكاية شخصية ما كان لها إلا أن تحمل إحساسه وتترجم مشاعره وتعبّر عن آرائه التي لا يهمّه إن وافقت آراء الآخرينِ أو خالفتها، فهذا هو بيرتون، وهذه هي حكايته.

يقول بيرتون عن الهدف من رحلته إلى مكة والمدينة: إنه أحسّ نتيجة للإرهاق والعمل فوق الطاقة بآلام روماتيزمية شديدة اضطرته إلى أن يعود إلى أوروبا في عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م، وظلّ هناك ثلاث سنوات متصلة، وحين عوفي كان قد ملّ طول البقاء في هذه المناطق المتحضرة، وسئم وقع الحياة الراكدة فيها، فأراد أن يعيش الصحراء ويتنسم هواءها، ويصغي إلى معزوفات حفيف جريد النخيل. تقدم بيرتون بطلبه إلى هيئة مديري شركة الهند الشرقية المعظمة للسماح له بأن يستكشف تلك السباسب المترامية التي تقع وسط شبه الجزيرة العربية، "والتي ما زالت تورث أميز خرائطنا العار وتستعصي عليها". ولكن هيئة مديري ما كان يعرف وقتئذ (١٨٥٢م) بشركة الهند الشرقية المعظمة التي كان يرأسها الرجل اللطيف الودود السير جيمسَ هوج Hogg، رفضت طلبي رفضاً باتاً، إذ رأت في شخصي فريسة أخرى تلاقي حتفها بظلفها، مثلي في ذلك مثل الكولونيل تشارلز ستيوارت والكابتن آرثر كولنلني (وكان قد جرى أسرهما في بخارى وربما قتلا في عام ١٨٤٢م)، وكذلك الأخوين وايبرد (؟) Wyburd، تاركين خلفهم أصدقاء وعائلات تزعج بالتماساتها رئاسة الشركة وتقلق راحتهم."

لعلنا نلاحظ أن بيرتون كان يتحدث عن رؤسائه بسخرية بارزة وعدم رضاء بالغ، وكثيراً ما

أدخله ذلك في دائرة غضبهم. راح يتهمهم بعدم الإصغاء إلى ما يشير به عليهم، فقد سبق أن استنتج في بعض رحلاته أن الهند ستنتفض في ثورة عارمة ضد الاستعمار البريطاني، ولكنهم لم يستمعوا إليه ففاجأتهم تلك الثورة في عام ١٨٥٨م، وأبدى - في ما يقول - آراءً صائبة بالنسبة إلى قناة السويس، و لم يجد من رؤسائه آذاناً صاغية.

وجد بيرتون - كما أسلفنا القول - الدعم من الجمعية الجغرافية الملكية، واقتصر الأمر على التعرّف إلى الحياة الداخلية في أرض إسلامية خالصة، "ولمّا كنت أتحرق رغبة في استطلاع أسرار مكّة المكرّمة وتصوير الحياة فيها ورسم مظاهرها" فقد رحّب بالمهمة. ويأخذ بيرتون في شرح معنى الحجّ عند المسلمين فيقول: إن معناه حرفياً هو أن الإنسان في هذه الدنيا ما هو إلا مسافر، عابر سبيل يجتاز هذا العالم إلى العالم الآخر الذي هو الحيوان. يعتقد "لابسو الصنادل" أنه كلما عظمت المشقّة، وكلما ازدادت معاناة الطريق ازداد أجر السماء لهم. وقد ورد في التحريض على الحجّ ما يأتي: "يا أيها الذين يرهقون أنفسهم إرهاقاً شديداً للظفر بملذّات الدنيا والحصول على الربح العابر، هل أدلكم على عمل رابح أكثر ثباتاً وأعظم أجراً؟!". و لم نتمكن من جانبنا من أن نجد آية قرآنية تحثّ على الحجّ والعمرة على النحو الذي أشار إليه بيرتون. ويتناول بيرتون تاريخ الحجّ من قديم الزمان في المعتقدات القديمة التي انقرضت، وفي تلك التي لا تزال تسود أجزاء العالم، ويمضي في عرض ذخيرته المعرفية حتى يصل بسرده ليحدثنا عن الحجّ عند الكاثوليك. ويستطرد للحديث عن كنه الإسلام فيقول: إنه دين يحضّ على الفضيلة للظفر بالحياة الأبدية، وذلك من خلال القيام بصالح الأعمال في هذا العالم. ويصل إلى أنه دين بسيط، وأن صالح الأعمال لا يتعدى الطهارة، والصلاة، وأداء الصدقات في مناسبات بعينها، وصيام شهر واحد في السنة، والقيام بالحجّ إلى بيت الله الحرام مرّة واحدة في العمر، والوقوف بعرفات. ويضيف: إن الحجّ فريضة على المسلم مرّة واحدة في حياته وتُسمّى حجة الإسلام. وهي في الغالب الحجّة الأولى والأخيرة لكل مسلم، هذا إلى أن القليل منهم يؤدونه مرّات أخرى تطوعاً، فذلك من القربات، ويستطرد ليقول: إن الحجّ فرض على المسلم الذي يتمتع بالصحة التي تمكنه من ذلك، وبالمال الكافي. فالإسلام في ما يقول بيرتون دين منطقي وعقيدة عقلانية. ويضيف بيرتون فيقول: لمّا كان قد فرغ من زيارة المدينة المنوّرة، فعليه أن يتابع طريقه لأداء الحجّ. ويستطرد ليفيد بأن المسلمين يفرقون بين العبادة التي يجب أن تكون خالصة لله وحده، والتقديس الذي يمكن لهم إسباغه على المخلوق. هذا التمييز واضح تماماً عند كافة المسلمين، ولكن الوهابيين وبعض العرب "المتطهرين" يلعنون لعناً كاملاً كل مُشبِّه للإنسان بخالقه، ومن مظاهر ذلك الصلاة عند قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم -. إلا أن عامة المسلمين - كما يقول بيرتون - يعدّون الزيارة من العبادة، ويرون في الصلاة على النبي أكثر العبادات التي تقرب العبد إلى ربه، فهو - صلى الله عليه وسلم - الوسيلة.

يخوض بيرتون في الحجّ وآدابه وفقهه وأحكامه ويقول: إن المسلمين قد وضعوا في الحجّ والزيارة كتباً كاملة، ويضيف: إن كتب مدارس الفقه التقليدية الأربع وهي: الحنفيّة والشافعية والمالكية والحنبلية لا يختلف بعضها عن بعض إلا في الفروع وفي مسائل ثانوية غير مؤثرة، وهذه المدارس كلها لا تنكر الزيارة ولا تمنع القيام بها. ويضيف: إن عامة الحجاج، خاصة الذين يؤدون الحجّ أول مرّة، يؤدون الحجّ أولاً ثم يزورون المدينة المنوّرة تالياً، مع أنهم يدركون أنه يجوز لهم تقديم الزيارة على الحجّ. "وفي هذه الأيام" يقوم حجاج من مصر وسورية ودمشق وبغداد بزيارة القبر الشريف وهم في طريقهم إلى مكة المكرّمة، ويكررون الزيارة مرّة أخرى بعد الحجّ، فالطريق ذهاباً وإياباً يمّر بالمدينة المنوّرة. أما الآخرون الذين يأتون من شرق أفريقيا والهند وجاوة، فإن بعضهم قد لا يزور المدينة المنوّرة وذلك لخطر الطريق ولتجنّب الإنفاق الزائد.

يقول بيرتون: إن الحاج "في هذه الفترة" ما عاد يحمل سجلاً يثبت أنه قد أدى الحجّ، ففي فترة من الفترات السابقة كان شريف مكّة - وهو من سلالة الحسن رضي الله عنه - يعطي شهادة بالحجّ لمن يطلب ذلك، ولكن "مع بداية هذا القرن"، فإن الحاج الذي يُؤدي الفريضة ويدفع الرسوم يُوضع اسمه في دفتر التسجيلات.

يحدثنا بيرتون عن الرحالة الغربيين الذين زاروا مكّة قبله فيقول: إن منهم الحاج يونس أو لودفيكو فارتيما الذي حجّ عام ١٥٠٣م، وجوزيف بتس من أكستر الذي حج عام ١٦٨٠م، وعلي بك العباسي أو باديا القطلوني الذي حج عام ١٨٠٧م، والحاجي محمد أو جوفياني فيناتي من فرارا الذي أدى الحجّ عام ١٨١١م، وكذلك الرحالة السويسري "الممتاز" بوركهاردت الذي حجّ عام ١٨١٤م. ويضيف أن هذه الأسماء هي المعروفة لديه، لأنهم كتبوا عن تجاربهم، ولكن ربما كان هناك آخرون لم يكتبوا، وهؤلاء بالطبع مجهولون لديه. ولعلنا نلاحظ أن بيرتون قد نقل عن الرحالة الذين ذكرهم العديد من المعلومات والآراء. ويحدثنا هنا عن الجديد الذي أمكنه إضافته إلى ما كتبه السابقون له فيقول: "إن كان لي أن أدّعي أني قد أحدثت جديداً فهو أنّي قد أدّيت الحجّ مثل أي من المسلمين الآخرين، وهذا ما لم يتيسر لكافة المذكورين. فعلى الرغم من أن الإسلام يشجع الآخرين على اعتناقه، وذلك من الناحية العقلية الصرفة، إلا أن المسلمين من الناحية الفعلية يرتابون في الذين ارتدوا عن أديانهم، ولا يكشفون لهم عن كثير، ويظنونهم جواسيس، ويراقبونهم بحذر ليلاً ونهاراً، كما أن مثل هذا الرجل سيجد مشقة كبيرة في قطع الطريق بين مكة والمدينة في حالة نشوء مشكلات. حجّ فارتيما في صورة مملوك في الوقت الذي كان فيه المماليك مجموعة من عبيد النصارى (؟!)، أما بتس فقد كان عبداً وفد مع سيده الجزائري إلى الحجّ، وانتحل "باديا" وضعاً كانت السلطات المعنية تعرفه جيداً، بينما كان فيناتي جندياً ألبانياً. أما بوركهاردت فقد كشف عن هويته لذلك الرجل

العجوز، محمد علي باشا. ويستطرد بيرتون فيقول: إن دخول أرض الإسلام محظور على غير المسلمين، ولكننا لا نجد في القرآن ولا عند السلطان أي شواهد تؤيد قتل متطفل يهودي أو نصراني يدخل تلك المناطق. ويروي أن يهودياً حجّ عام ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م، وانكشف أمره بعد أن رفض أن يؤدي الشهادة فقتله أهل مكة، هذا إضافة إلى أن السلطات ستظل عاجزة عن حماية أي شخص يُعلن صراحة في الحجّ أنه كافر.

الإعداد لرحلة الحجّ

وصلت إلى المدينة المنوّرة في يوم ٢٣ ذي القعدة ١٢٦٩/٢٨ أغسطس قافلة دمشق الكبرى، وكانت تضمّ نحو سبعة آلاف شخص. تبدأ هذه القافلة مسيرتها من القسطنطينية، وكان أهل المدينة يترقبون وصولها بشغف زائد لعدّة أسباب:

- لأنها كانت تحمل ستارة جديدة لحجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، فالقديمة كانت تبدو في حالة بالية.
- لأنها تحمل الهدايا والصدقات لأهل المدينة المنوّرة.
- كانت بعض الأسر تنتظر وصول هذه القافلة، لأن عدداً من أفرادها الغائبين كانوا ضمن مسافريها، وتأخرت القافلة يوماً عن موعدها المحدد، فازداد القلق الشعبي نتيجة الأحوال المضطربة في المناطق المجاورة.

لم يكن بيرتون ينوي الانضمام إلى قافلة الحجّ الشامية أو ما يعرف بقافلة دمشق، فقد استهوته المدينة المنوّرة التي قال إنه يريد أن يمكث فيها أطول فترة ممكنة، وكان ينوي أن يلتحق بالقافلة الطيارة (Kufitat At Tayyrad) التي تغادر المدينة في الثاني من ذي الحجة، ولكن فجأة ثار لغط بأن القافلة الطيارة قد تُلغى، وأن على الحجاج جميعهم أن يلتحقوا بقافلة الحجّ الدمشقية، أو أن ينتظروا قافلة الركب Rakb وهي قافلة سريعة يتحتم على اللاحق بها ألا يحمل من المتاع إلا خُرْجيْن، وأنها تواصل السفر بشكل دائب لا تتوقف إلا في الخبت Al Khabt لتصل إلى مكة المكرّمة في اليوم الخامس من انطلاقها. وأضاف بيرتون: إن الطريق غير آمن، فقد هدد الشيخ مسعد بأن تُرد إليه المشيخة التي أقيل منها مقابل أن يسمح بالمرور الآمن في منطقته، وإلا فإنه سيقطع رقبة كل "دجاجة" تجرؤ على دخولها.

يقول بيرتون: إنه اضطر إلى الانضمام إلى هذه القافلة التي ما كان يعرف أي طريق ستسلك، أدرب الساحل السهل أم الطريق الثاني الصعب الخطر الذي يُعرف بالدرب الشرقي، أم الطريق الصحراوي الذي هدد الشيخ مسعد بإغلاقه أمام القافلة؟ ويبلغ طول هذا الطريق بين المدينتين المقدستين حوالى ٢٥٠ ميلاً، والمياه فيه في هذا الوقت من السنة من شهر سبتمبر نادرة وغير

مستساغة. وقد فرح هذا الرحالة – في ما يقول – حين عرف أن القافلة ستسلك الدرب الشرقي، لأنه يريد أن يستكشفه، فلم يحدث لأي أوروبي أن مرّ بهذا الطريق الذي كان قد استحدثه هارون الرشيد وزوجته زبيدة.

جهّز بيرتون أوعية الماء، واشترى ما يكفي من المؤن، واستأجر بعيرين من مسعود الحربي بعشرين ريالاً، وقال إن مضيفه في المدينة المنوّرة حذّره من هؤلاء الرجال "المتوحشين" الذين يجب عليه أن يأكل معهم الملح يومياً وإلا فإنهم سيسلبونه بحجّة أن الملح لم يعد له أثر في أحشائهم! وبالطبع ما كان لبيرتون في هذه المناسبة إلا أن يستعرض تفسيراته التي اكتسبها من بعض قراءاته ليقول: إن عادة أكل الملح هي عادة أوروبية قديمة، فقد كانوا يرون أن الملح مادة مكونة من عدّة عناصر لا يمكن فرزها وفصلها وتحليل مكوناتها، وبهذا غدا الملح رمزاً للرابطة غير المنفصمة بين بني الإنسان.

في مساء يوم ٣٠ أغسطس اجتاحت المدينة المنوّرة حركة كبيرة وغدت مسرحاً للضوضاء بسبب خروج قافلة الحجاج، فخرج للحاق بها بعد حوالى ساعة من صلاة المغرب، وظلّ ينتظر – بعد أن أدى ركعتين – إعلان انطلاق القافلة حتى الساعة الثانية صباحاً، ولما لم تصدر إشارة التحرك "نمنا ما تبقى من ساعات الليل، وكانت هذه ليلتي الأخيرة في مدينة الرسول".

في الساعة التاسعة صباحاً من يوم الأربعاء ٢٦ ذي القعدة/٣١ أغسطس ودّع بيرتون مضيفه حامد الذي كان قد أجهد نفسه في إعداد مستلزمات الرحلة، وتخلى عن مطالبة حامد بالخمسة جنيهات التي كان قد اقترضها منه في السويس، وذلك تقديراً منه للخدمات التي لقيها منه، وركب بيرتون مع الصبي علي، رفيق سفره، في "شقدف"، كل منهما على جانب من جانبي البعير، بينما ركب خادمه الشيخ نور فوق سرير عادي مرفوع على ظهر جمل. ويؤكد بيرتون أنه قد أجاد فن التعامل مع الإبل، فحين يخاطب البعير: إخ إخ IKH فإنه يبرك، أما إذا أردت تحذيره فتقول: هي هي (بكسر الهاء وإمالة الألف بين الكسر والفتح). أما: يه يه (بفتح الياء مضخمة وتسكين الهاء) فلحثّه على القيام أو للإسراع في المسير. وبدأت المسيرة عبر طريق بين بساتين النخيل التي على ميمنتهم وقباب مساجد حمزة الراقدة عند سفح جبل أحد على شمالهم. وحين أصبح الركب على مشارف المدينة ترجّل الحجاج جميعهم ليلقوا نظرة الوداع، وحدقوا طويلاً إلى المآذن العالية والقبّة الخضراء "المنظر الذي سيهدهد وجدانهم فترة طويلة من الزمان". أما بيرتون فقد أخبرنا أن المدينة المنوّرة تتكون من ثلاثة أحياء هي المدينة ذاتها، والقلعة، ونجع كبير، وأن عدد سكانها يتراوح بين ستة عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألفاً، بينما يبلغ عدد سكان مكّة المكرّمة نحو خمسين ألفاً، وأن الجند الذين يحرسونها يصل عددهم إلى أربعمئة، أي نحو نصف فيلق. ويأخذ في وصف منازل المدينة التي يراها جميلة مع الأخذ في الاعتبار أنها في شبه الجزيرة العربية، وأنها مشيّدة بالحجر من طابقين، وسقوفها مستوية،

وفيها النوافذ والشرفات، وتقوم المباني وسط ساحة كبيرة فيها حدائق صغيرة وأحواض ماء وأشجار، ويتحدث عن الأزقة الضيقة السوداء غير المرصوفة إلا قليلاً. أما القلعة التي يُميزها علم يحمل الهلال والنجمة فهي لافتة للنظر بلونها الأبيض وبمدافعها المصوّبة في كل اتجاه، خاصة في اتجاه المدينة المنوّرة "وكأنها مضيق جبل طارق بالنسبة إلى البدو". ويقول: إن المسلمين يحنّون إلى المدينة المنوّرة، ويتمنون أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة فيها، فلا عجب أن أكثر مواطنيها من الأجانب من كل فجّ وصوب من العالم الإسلامي، "ويرى خادمي الشيخ نور أنها مدينة سماوية".

الطريق إلى مكّة المكرّمة

أخذ بيرتون ومجموعته يجدّون في مسيرتهم خلف قافلة دمشق التي سلكت بهم الدرب الشرقي وهو الذي يقول عنه: إن زبيدة خاتون زوجة هارون الرشيد قد عبّدته، فقد أمرت تلك المرأة الورعة – في ما يقول بيرتون – بحفر الآبار على طول الطريق، وبناء خزانات المياه على امتداده، ويضيف: إن البعض قد روى له أنها رفعت سوراً عليه أبراج ربطت به بين بغداد ومكة المكرّمة لئلا يضلّ الحجاج دربهم وسط الرمال المتحركة، ويستطرد فيقول: إنه لم يرَ شيئاً مادياً يدل على هذا العمل الخيري.

كتب بيرتون في مشاق الرحلة: "فالأرض ملتهبة، والسماء متوهجة، وريح السموم المتوحشة تصلى الخدود كأنها أنفاس الأسود المتوثبة، والهواء مجنون يراقص ذرّات تلك التربة الصفراء، وترى الإبل خلف السراب فتظنها سرباً من طيور ضخمة".

يرسم بيرتون للقافلة والمسافرين ضمنها منظراً كاريكاتورياً طريفاً، ويلاحظ أن هناك حوالى ثماني درجات من الحجاج، أدناهم أولئك الذين يمشون راجلين، وهم في الغالب فئة من بائعي التبغ والقهوة والشربات، وبعض الذين يرعون الضأن والماعز، وكذلك زنوج أفريقيا وجموع من الفقراء، وكثير منهم يتوكأ على عكازه، وقد أحسّ دنو أجله، وكان قد تطلع إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في المدينة المنوّرة. يأتي بعد ذلك راكبو الهجن والبغال ثم الحمير. يقول أحد الشعراء العرب: إن ركوب الخيل شرف، ولكن ركوب البغل مسيء للشرف، أما ركوب الحمار فهو العار مجسّداً. ويلي هؤلاء بعض الذين يركبون الأصائل، وهي نوق تمتاز بصغر الحجم ورشاقة الأطراف والأحداق المتسعة كأنها عيون الغزلان. لها رِحال مزخرفة تنتهي بقوائم حديدية طويلة تعلق فيها خِرَجة (جمع خُرْج) ذات ألوان براقة تتدلى في اتجاه الأرض ولا تكاد تلامسها. وترى الجنود غير النظاميين على صهوات جيادهم، كما ترى أيضاً بعض الصبية المرافقين لبعض شيوخ العرب يؤدون رقصات الحرب على أنغام الأهازيج التي

يصوغونها، "يتملّقون" بها شجاعة سيدهم، أو يطلقون في الهواء طلقات بنادقهم التي لا تصلح إلا لصيد البط، أو يشعلون بارودا في الأرض تحت أقدام الحفاة الذين يسيرون بقربهم. ينتضي هؤلاء الصبية سيوفهم أو يشهرون رماحهم، ويقفزون في الهواء قفزات تستجيب لها أسمالهم البالية الملونة فتتطاير في الهواء. وترى في المسيرة أيضاً نساء الفقراء وأطفالهن وهن يفترشن سجادات يجلسن عليها فوق الصناديق الكبيرة التي تكوّن حمل البعير. أما من هم أيسر حالاً من أولئك فيستعملون "الشبرية"، ويستعمل الأكثرون ثراء "الشقدف"، أما الوجهاء والأثرياء فتراهم على خيولهم المطهّمة أو في التختروانات "الملوّنة بنحو بهيج، المزركشة بالجلّ النحاسي، الموضوعة على ظهور الإبل أو البغال. تتباين المظاهر بنحو عجيب، فأزياء الناس متباينة، وكذلك زينات الإبل والخيول. وليس أقل تبايناً مسيرة "التكارنة" أنصاف العراة إلى جانب عربة الباشا، والفرس بلحاهم الكثّة وقلنسواتهم العالية يتجاذبون أطراف الحديث مع الأتراك الحليقي اللحى الذين يلبسون الطرابيش.

قضى بيرتون ليلته الأولى هانئاً مع القافلة في حراسة الجند، قُرَبه مترعة بالماء، وأوعيته الجلدية "الخِرَجة" مليئة بالمؤن، وباعة الشربات والليمون والقهوة الساخنة، إضافة إلى مجهّزي النارجيلة، يتجوّلون منادين على سلعهم. ويلاحظ بيرتون أن المرء يستطيع أن يدخن داخل رحله، إلا أن القليل من المسافرين يفعل ذلك، خاصة في فترة هبوب السموم، فيرجئون التدخين إلى حين التوقف. وحين ينزلون يسرعون لتعاطي "الشيشة" ثم شرب فنجان من القهوة، ثم غفوة فوق الرمال. ويعدّ الحجاج في فترة التوقف الليلي طعامهم، وهو في العادة أرز أو "كشري". والكشري عبارة عن أرز وبقول تخلط معاً وتضاف إليها الصلصة والليمون المخلل. ولربما استعاض البعض عن الكشري بلحوم الضأن والماعز. ويحدثنا بيرتون عن أحد الصبيان المرافقين له فيقول: إنه أكل كثيراً من التمر المهروس في المعجنات، "الفطائر"، وشرب قدراً من السمن، وما إن أقبل الليل حتى بدا كأنه على وشك أن يسلم الروح. وكتب بيرتون عن بعض رفاق رحلته، وذكر منهم الرجل العجوز علي ياسين الذي جاب العالم واكتسب من معارفه، وهو زمزمي يسكن مكة في منزل صغير عند سفح جبل أبو قبيس. تجاوز هذا الرجل الستين وقد نالت منه السنون حتى أقعدته بعد أن انحنى عوده وتساقطت أسنانه ولكنه لم يتقاعد، فقد كان يعمل دليلاً للحجاج يذهب للقائهم في كل عام عند المدينة المنوّرة. وبعد أن يصف بيرتون شقدف ابن ياسين المريح المزود "بالمرتبة" والوسائد الناعمة، وأخراجه التي تفيض بوسائل الرفاهية بما في ذلك الشيشة، يقول إنهم حين ينزلون فإنه يترفع عن الحديث مع الآخرين ويأوي إلى خيمته ليعيش مع دخان نارجيلته. ويعتقد بيرتون أن هذا الرجل أنموذج نمطي لعجائز العرب، تراه يهمهم بكلمات طوال نهاره وثلاثة أرباع ليله، فهو قلق لا ينام، مغترّ بنفسه، مزدرٍ للآخرين، لا يحب أن يوضع الشيء في غير موضعه، ولا أن يقوم أحد

بعمل في غير ميقاته، ومع ذلك فهو جشع تراه يلتقط حبات الرمان التي تسقط من أصابع الآكلين ويتناولها، ويبرر ذلك بأنها حبات من فاكهة الجنة. ويحدثنا عن مشكلة قامت بين هذا الرجل وأحد رفاق سفره من المصريين، فقذف علي برفيقه خارج الشقدف "وأسمعه من التهديدات والشتائم ما لا يستطيع إلا المصري أن يسمعها بهدوء".

ذكر بيرتون أيضاً عبد الله الذي جاءه يريد دواءً ولم يكن به داء إلا ما كان من معاناة وعثاء السفر "وثقل أكياس الريالات التي يلفها حول خصره". وقد رأى بيرتون في هذا الرجل "موسوعة مفتوحة لا تضنّ بالمعلومات على من يطلبها. فإضافة إلى تجاربه من أسفاره، كان يعرف بعضاً من اللغات الفرنسية والإيطالية واليونانية تعلمها في إستانبول. وتحدث بيرتون كذلك عن بعض رفاقه من السوريين الذين هم "أسوأ رفاق طريق لا يرعون صحبة، فتجدهم يسعون دائماً لتحقيق الأسبقية، فيسدون الطريق على من سواهم". وقد "تجرّأ" أحدهم - في ما يقول بيرتون - وفك رسن بعيره ليفسح الطريق لرفاقه، فاستلّ بيرتون سيفه وكاد أن يُعمله فيه لولا عبد الله الذي أمسك بيده وعنّف السوري فانسلّ هارباً. ويدّعي بيرتون أنها ليست المرّة الأولى التي وجد فيها هذا التجاوز من السوريين، إلا أن رفيقه عبد الله كان دائماً ينجح في إلزامهم بحدودهم. يبدأ معهم أولاً بالقول: "حرك، أبعد شوي يا بوي"، فإذا وجد أن ذلك غير كاف، أضاف: "وسّع الطريق يا أبو الشام". فإذا لم يُجدِ ذلك صرخ فيه: "رح رح يا هو"، فإذا لَم تجدِ هذه الكلمات نفعاً خاطبهم ناعتاً إياهم بخونةَ الملح وبأتباع يزيد وسلالة الشمر (؟) Shimer. ويستطرد بيرتون ليحدثنا عن فضل دمشق التي تُسمّى "ابتسامة النبي أو باب الحجّ الأكبر"، كما تُسمّى أيضاً "شام شريف". ويذكر أن للرسول - صلى الله عليه وسلم - عدّة أحاديث في فضل سوريا، وأنه كان - صلى الله عليه وسلم - يستعمل كلمات سورية مثل: "بخ بخ" لعلي - رضي الله عنه -، و"كخّ كخّ" للحسين - رضي الله عنه -. ويستطرد ليقول إن كلمة كخّ (كسر الكاف وتشديد الخاء) وجدت طريقها من سوريا إلى مصر، ثم إلى الميثيولوجيا اللاتينية، ثم دخلت إلى اللغات الأوروبية الحديثة من فرنسية وإنكليزية وألمانية وإيطالية وغير هذه وتلك.

كذلك يحكي بيرتون عن ذلك الآرنوطي الألباني العجوز الأشيب الذي لا يعرف فن التعامل معه إلا عبده الأفريقي "البائس الوقح" الذي لم يتجاوز عمره الرابعة عشرة:

فقد كان الرجل رغم أنه لا يستطيع الحركة إلا بعد جهد جهيد أحمقا. قامت بين هذا الألباني ومسعود - جمّال بيرتون - مشادة كلامية حين قال مسعود إنه لو كان "لهذا الرجل أسنان لكان أكثر اتزاناً"، فابتدره الألباني بضربه بعصا غليظة أخطأته وأطاحت قوّة الضربة الألباني أرضاً.

وجرى تراشق بالكلمات المقذعة بين الرجلين، وكان الألباني "كالحديد الساخن" لم يهتم

بتدخل المجموعة لتهدئته ولا لتهديدها إلا بعد أن ذكروه بأنه حاج، وأن عليه أن يتصرف وفقاً لهذا، وإلا فيمكنهم أن يتركوه وراءهم ويرحلوا!

المسؤولون في القافلة الذين عدّدهم بيرتون هم أمير الحجّ وهو أشقر علي باشا، وهو محارب قديم، وكان عبداً لعبد، أي مملوكاً لمملوك. فقد كان الرجل - كما قال رفاق بيرتون عنه همساً - حامل الشيشة لأحد الذين كانوا من حاملي الشيشة لمسؤول آخر، يليه في المرتبة الوكيل الذي يقوم بالشؤون التنفيذية، وهناك أيضاً أمير الصُرّة الذي يشير إليه الناس "بالصُرة"، وهو أمين الأموال والهدايا الخاصة بالمدينتين المقدستين، وهناك أيضاً باشا العسكر، ويقود نحو ألف من الجند غير النظاميين، "الباشبوزغ" الذين هم أنصاف جنود وأنصاف لصوص، يلبس كل منهم ما يحلو له، ويتسلح بما يريد أن يتسلح به، ويصفهم بيرتون بأنهم شجعان، ولكنهم قذرون ولا فائدة تُرتجى منهم في الحجاز.

يكتب بيرتون عن فترات المسير وفترات النزول التي تتوافق وأوقات الصلاة. ويأتي إعلان التوقف بإطلاق قذيفة مدفع قديم. وفي هذه الفترات يعمل الخدم على نصب خيام خضراء كبيرة تعلوها أهلّة مذهبة لراحة سادتهم وحريمهم. ويقول بيرتون: إنهم حين يتوقفون عند موارد المياه ترى الجند النظاميين وغير النظاميين يحيطون بالآبار ويقسرون الحجاج على أداء مبالغ لقاء الماء. وكانت القافلة تتحرك دائماً في الفترة ما بين الواحدة صباحاً إلى الثالثة صباحاً. ففي الليلة الأولى بعد خروجهم من المدينة تحركت القافلة في الثالثة صباحاً. وعادة ما تلفّ القافلة - عند إطلاق قذيفة مدفع إيذاناً ببداية الرحيل - فوضى وضوضاء وكثير من السباب المتبادل. ويبدأ المسير ويحتك شقدف بآخر وتحتك أشواك الشجيرات الجافة بجلود الإبل فتدميها، أو بالشقادف فتمزق أغطيتها. وانتهت هذه المسيرة في حوالى السادسة صباحاً حين أناخوا مرّة أخرى للصلاة والإفطار والراحة، و لم يحدث أن خيّمت القافلة الليل كله إلا في قريتين صغيرتين هما السويرقية والسفانية. وفي السفانية صادف ركبهم قافلة حجاج بغداد التي تضم إضافة إلى البغداديين حجاجاً أكراداً وفرساً، ومجموعات أخرى من المناطق الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة العربية، وبعض الوهابيين ونفر من قبيلة عقيل وأهل جبل شمّر الذين يصفهم بالشراسة. وكاد أهل قافلتي دمشق وبغداد أن يقتتلوا، فكل كان يبغي المكان الأفضل للنزول الذي ظفرت به قافلة بغداد لسبقها إليه، وكانت مجرد نظرة كافية لوقوع معركة. ويحكي بيرتون عن أحد هؤلاء الوهابيين وقد تحرّش بهم لأنهم يدخنون التبغ، وذلك بإشارات تنمّ عن الاستهانة والاحتقار. ويقول بيرتون إنه أراد أن يشاكس الرجل بدوره فقدم له "في أدب جم وابتسامة" تبغاً فأجاب الوهابي بإشهار خنجره الذي ما لبث أن أعاده إلى جرابه حين قامت جماعة بيرتون بإشهار مسدساتها، "ولا يفلّ الحديد إلا الحديد". وقد أصاب الحجاج في السويرقية والسفانية بعض المؤن التي لم تكن بالطبع كافية لأهل القافلة الذين بلغ

عددهم بين سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف شخص. ويصف بيرتون الأرض الفاصلة بين المدينة ومكّة بأنها أرض موحشة في أعمّها، تعيش فيها حيوانات متوحشة مع أناس "أبلغ وحشية من حيواناتها"، أما موارد المياه فيها فتكاد تزجر في وجوه قاصديها: "اشرب وارحل فوراً" بدلاً من أن ترحب بهم ولسان حالها يقول: خذ راحتك واشكر. أما المناطق الأخرى في هذا القفر فهي صحراء جرداء يباب لا يسكنها سوى الصدى، وهي مهد الموت، إذ لا يوجد إلا القليل من الأحياء التي يمكن أن تموت. هي متاهة، إذ لا يوجد شيء، فكل حياة فيها زائلة أو يمكن أن أستعير اللفظ العربي فأقول: "لا سواه"، يعربد فيها الهواء فتشب فيها أعمدة من الرمال صفراء لا رؤوس لها، تعلو في الأفق وتنثني إلى الخلف فتتخذ شكل السحاب، ثم تهبط لتدور في هذه المهامه الجرداء. ويعتقد العرب أن هذه الزوابع الرملية هي "جنّ الخرائب" فلا يمكن الإمساك بها. وقد تولدت هذه الفكرة في أذهانهم من الحركات اللولبية المتشنجة التي تظهرها هذه الرياح التي تطيحهم، فتجد المسلم التقي يرفع إصبعه ما إن يرى هذه الدوامات صائحاً: حديد، إنه نذير نحس (!). ويعلق بيرتون بأن العرب ليسوا وحدهم أصحاب الخرافات في هذا الصدد، فعامة أوروبا أيضاً يسمونها الشياطين، أما الأفق فهو بحر من السراب. ويضيف: "إن العرب ينخدعون بالسراب فيحسبونه بقايا ماء من سحابة عبرت أمس، إلا أن دوابهم لا تنخدع بذلك"، ويستطرد فيقول: "وهذا في تقديري صحيح، لأن معظم الدواب تدرك مواطن الماء بحاسة الشمّ أكثر مما تدركه بالنظر".

يلاحظ بيرتون أيضاً عدم وجود طيور أو حيوانات إلا بعض الأغربة والنسور، ويقول - ولا ندري صحة قوله الذي نراه من قبيل المبالغة -: إنهم صادفوا في طريقهم أسداً ضخماً إلى حد ما، ذا لون أصفر، وإن صبغ الزمن بعض إهابه باللون الأبيض. كان الأسد جاثماً على صخرة بارزة كأنه التمثال، وراح يحدق إلى المارة، وكأنه الملك يستعرض رتلاً من أتباعه. وقد احترمت القافلة هذا الحيوان النبيل، و لم يعمد أحد إلى مضايقته. يسترسل بيرتون فيقول: إن للعرب عادة يمارسونها حين يلتقون بهذا الحيوان فيبادرونه بسلام "عميق" ثم يقولون عبارات كثيرة يطلبون بعدها إلى هذا الحيوان ألا يؤذي رجلاً مسكيناً يعول أسرة كبيرة. وإذا لم يكن الوحش جائعاً فإن الرجل سيمضي في طريقه سالماً، ولكن عليه أن يحرص على أن يسلك طريقاً آخر في إيابه، فقد يندم "أبو الزئير" على أنه قد فرّط في هذه الوجبة سابقاً! ويلاحظ بيرتون أن العربي يحرص دائماً على أن يكون أباً، ففي شبه الجزيرة العربية يجب أن يكون المرء أباً لشيء، ويكره العربي بأن يوصف بأنه "أبو مناخير" ومع ذلك فهو - كما يقول بيرتون - لا بد أن يكون أباً: أبو ملامح، أبو جلّة، أبو رائحة قوية، أبو ضرطة، أبو أي شيء.

يقول بيرتون: إنه كان في فترة ما قبل النوم كثيراً ما يجالس مسعود الذي كان يمتعه بالقصص الخاصة به وبأهله وبمعاركه، وكان يتابعه بالأسئلة، ما أثار استياء بعض المرافقين. وكان مسعود

يحتجّ عليهم قائلاً: دعوا أبا الشوارب يسأل ويتعلم، إنه بتطلعه إلى المعرفة أميز منكم جميعاً، وهو صديق للبدو. ويستحضر بيرتون في هذه المناسبة بيتاً من الشعر يقول: مغفلون أولئك الذين يسخرون من الآخرين، فهم قد يكونون أحقّ منهم بالسخرية وأهلها.

وصلت القافلة في يوم الجمعة ٥ ذي الحجة/٩ سبتمبر إلى الزريبة، وهي على مسيرة مرحلتين من مكّة أو حوالى سبعة وأربعين ميلاً، وتكوّن الحدود الشمالية الشرقية للحرم، وهي الميقات. وفي الفترة بين صلاتي الظهر والعصر حلق الحجاج رؤوسهم، وشذّبوا لحاهم، وقصّوا أظافرهم، ثم اغتسلوا ولبسوا ثياب الإحرام الذي يراه بيرتون زياً للعرب الأقدمين. ويصف ملابس الإحرام بأنها تتكوّن من قطعتي قماش، طول الواحدة منهما حوالى ست أقدام وعرضها ثلاث أو أربع، مع شريط أحمر دقيق عند الأطراف وشراريب، وهي شديدة الشبه بالمناشف التي تستعمل في الحمامات التركية في لندن. يلفّ الحاج إحدى القطعتين على وسطه فتتدلى إلى الأرض، ويستر بالأخرى ظهره، ويرمي طرف القطعة على جانبه الأيمن، بينما يترك الذراع اليسرى مكشوفة، أما الرؤوس فحاسرة في مواجهة الشمس اللاهبة، والأرجل حافية تقاسي حدّة الهجير. وبعد أن أدى الحجيج ركعتي الإحرام ردّد كل منهم "نويت الحجّ والعمرة فيسّر يا الله إتمامهما وتقبّلهما مني وارزقني ثوابهما" ثم جأروا بالتلبية:

لبيك اللهم لبيك
لا شريك لك لبيك
إن الحمد والنعمة لك والملك
لا شريك لك لبيك.

أمسكت ضمائرنا بتلابيبنا تحرّضنا على أن نكون حجاجاً طيبين لا نتشاجر ونتبادل الشتائم والسباب، ولا نأتي بفعل أو بقول يدل على سوء الخلق، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ. علينا أن نحترم قدسية الحرم، فلا نقطع شجره ولا نقتل حيوانه إلا الخمسة المنصوص عليها وهي: الغراب، والفأرة، والعقرب، والكلب العقور والحدأة. علينا أن نحرص على ألا نستحم أبداً، وألا نضع عطراً على أجسادنا أو نمسها بالزيت، وألا نستعمل الصبغة، وأن ننأى بأنفسنا عن كل ضروب الزينة، وألا نقصّ أظافرنا، ولا نغطي رؤوسنا بعمامة أو نحوها، ولا نستعمل شمسية تقينا الشمس، ولكن يسمح لنا بأن نثوب إلى الظل ليقينا لفح الشمس، وأن نستعمل أيدينا نتقي بها الوهج. وعلينا أيضاً ألا نعقد عقدة في ملابس الإحرام، وإذا حدث أن خرقنا أياً من هذه المحظورات فعلينا أن نكفّر عن ذلك بالتضحية بخروف.

يتحدث بيرتون عن لباس إحرام النساء اللائي تخلّين عن اللثام (قطعة من الحرير الأبيض توضع على الفم ولكنها بعيدة عن العين حتى لا تحجب عنها الرؤية) واستبدلنه بحجاب من

سعف النخيل كالقفص فيه ثقبان يمكنان من الرؤية، وأحرمت كل منهن في جلباب أبيض طويل يغطي الرأس ويصل إلى الكعبين. وبدوْنَ كالأشباح يثير منظرهن الضحك حين تلمحهن أول وهلة. ويقول إن زوجة الحاج التركي وبناته اللائي كنّ في الركب لم يكنّ أقل بهجة واستغراباً من هذا الحجاب، فقد كن يهززن أكتافهن بمرح حين لبسنه. ويدافع بيرتون عن نظرة الإسلام إلى المرأة، ويرى أنها الأميز حين تقارن بنظرة آباء الكنيسة الأوائل.

تحرك الركب من الزريبة قبل العصر ملبّين، وأسرعت الجموع في اتجاه جنوبي غربي في إحرامها الأبيض الذي يتناقض بنحو سافر مع جلودهم السمراء. أما رؤوسهم الحليقة فقد راحت تلمع تحت أشعة الشمس، وما عادت شعورهم الطويلة تتطاير مع الرياح، وكانوا مدركين تماماً أنه حرام عليهم قتل الآخرين الذين "هم غير منهيين عن قتلنا". ويحدثنا بيرتون عن قبيلة عتيبة أشجع قبائل الحجاز وأكثرها شراسة "فهم يشربون من دماء أعدائهم" فترتفع بسالتهم ويزدادون شجاعة فوق شجاعتهم. وفي سخف بالغ يناقش بيرتون هذه العبارة ويرجّح أن "شرب دم الأعداء" مجرد صيغة بلاغية "رغم أن آخرين يعتقدون غير ذلك". ويضيف بيرتون قبيلة مطير إلى عتيبة في الشراسة، ويسند إلى بعض رُواته أن المطران والعتبان لا يسمح لهم بأداء الحجّ، وتلك لعمري خرافة كبرى من خرافات بيرتون.

بلغ ركبهم في الخامسة مساءً وادياً جافاً، وكان عليهم أن يجدّوا في المسير ليلهم كله حتى يقطعوه، فهو كان "مكان قطع الرقاب". ويصف بيرتون خطر المسالك في هذا الوادي الذي تعترض مجراه أهلّة من التلال الرملية، وترتفع جوانبه وتنخفض في غير انتظام. صمتت النساء وكففن عن الحديث، وخفتت أصوات الأطفال، أما الرجال فقد انخفضت أصواتهم، وهم يرددون التلبية كلما كان ذلك ممكناً، وبدت مقدمات الخطر واضحة لهذا الرحالة الذي يقول: إنه قد أبصر دخاناً أسود يتلوى خافتاً كأنه "خواتم النساء"، وسرعان ما سقط أحد الإبل أمامي إلى الأرض بعد أن أصابته طلقة. شنّت عتيبة الذين هم أجرأ قاطعي الطرق في الأرض المقدسة هذه الغارة التي يكفيهم منها فخراً قولهم: إنهم في ليلة كذا من سنة كذا أوقفوا قافلة السلطان ساعة كاملة عند الممر.

تصاعد في هذه اللحظات نحيب النساء وتعالى صراخ الأطفال، بينما ارتفعت أصوات الرجال وكل منهم يمسك بزمام دابته يحثها على الثبات في ما "وراء موقع الموت"، فالطريق ضيق تخنقه الصخور وتكثر فيه الأشجار الشوكية. وراحت القافلة يتداخل بعضها في بعض حيث يجري المذعور الوجل ليندسّ بين الجموع، حتى بدت القافلة كأنها كتلة واحدة عاجزة عن الحراك، تسري فيها مع كل دويّ طلقة رجفة يهتز لها هذا الجسد الكبير. وكان الحراس الذين بلغ عددهم نحو ألف من الجنود النظاميين وغير النظاميين بلا فائدة ولا جدوى. راح هؤلاء الجند يتحركون هنا وهناك ويتنادون، ويصدر كل منهم الأوامر للآخر. أما الباشا فقد نزل عن دابته

وفرشوا له سجادة، وراح يُدخن غليونه، ويجادل ضباطه في ما يمكنهم أن يفعلوه، "و لم يهمس أي منهم في أذنه قط بأنهم يجب عليهم أن يعتلوا المرتفعات ليطردوا منها المغيرين".

كان في القافلة نفر من الوهابيين من جبل شمّر يبلغ عددهم نحو مئتين إلى ثلاثمئة قفزوا فجأة على أكوار إبلهم العارية من السروج، وطارت إحراماتهم في الهواء، وقاموا بقيادة الشريف زيد – وهو من نبلاء مكة الشجعان – بملاحقة اللصوص في المرتفعات. وبعد عدّة طلقات انسحب اللصوص متراجعين إلى خلف القافلة وراحوا يصوبون من هناك. وفجأة استحال توقف القافلة إلى هروب إلى الأمام، الكل يسعى لينأى بنفسه عن الخطر، وتزاحمت الإبل وسقط بعض الناس أرضاً و لم يهتم لهم أحد. ويبدو أن عدد القتلى كان كبيراً، لأني قدّرته من أعداد الصناديق والمتاع الذي سقط على الأرض. وقد تضاربت الأقوال في هذا الصدد بين مُفرط ومُقلّ. وقد سعى هؤلاء اللصوص ليحوزوا الفخار، كما أسلفنا القول، ولكنهم كانوا – إضافة إلى ذلك – يسعون للسلب وللحصول على لحوم الإبل التي أصابها الرصاص. يقول بيرتون إنه لم يجزع، وبالطبع لا يمكن أي رحالة غربي أن يقول بغير هذا، وادّعى أنه قد أعدّ مسدسه ولكنه لم يدرِ ماذا يفعل إلا "أن يلفت الأنظار إلى شخصه"، فأخذ يقفز هنا وهنا ويحدث جلبة مثل " باباديل " الذي لا يحسن إلا الاستعراض الذي لا يفضي إلى عمل مفيد"، كما هي حال الشرقيين. وأخيراً طلب بيرتون إلى خادمه الشيخ نور الذي كاد أن يقتله الخوف أن يأتيه بعشائه. أما مرافقه محمد، فقد سأله مستنكراً ما هذا يا سيدي؟ وعبّر الآخرون عن دهشتهم "يا الله إنه يأكل". أما الشيخ عبد الله فقد مازحه قائلاً: "أهذه عادة الأفغان يا أفندم؟ فأجبته بأن الناس في بلادي تأكل قبل مواجهة اللصوص، فإذا لم يكن من الموت بد فمن غير اللائق أن تموت جوعاناً".

ويستطرد بيرتون فيقول إن "تظاهره بالشجاعة" بدا كأنه في غير محله، ولكنه أفاده بعد ذلك حين كان في طريقه إلى جدّة ودخل في مشادة مع بعض الركب، فصرخ فيهم مرافقه محمد: أتعرفون من هذا؟ إنه الرجل الذي جلس يتناول عشاءه غير آبه حين هاجمت عتيبة القافلة في ممر الزريبة. وكان في هذه الإشارة ما فيها، فقد تركهم الآخرون وشأنهم بعدها.

ظلت الجموع تتدافع، تخترق ظلام الليل في هلع وفي غضب، وكأن ملك الموت في أثرها، يطاردها فتفرّ. ومع تباشير الفجر اجتاز الركب هذا الوادي الخطر ليصل إلى وادي الليمون، وهو واد ممرع أخضر نضر تنمو فيه أشجار الرمان والفاكهة الأخرى، وراحوا ينصتون إلى أصوات الطبيعة. وعند الظهر شدّوا الرحال من هذا الوادي الذي مثّل منذ قديم الزمان منتجعاً لأهالي مكّة المكرّمة، "لقد أصبحنا في أرض تغنّى بها شعراء العرب الأقدمين:

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافع الريان عرى رسمها ... خلقا كما ضمن الوحي سلامها"

عند الغروب أخذت الجموع في القافلة ترنو بعيونها في اتجاه مكّة ولكن من دون جدوى.

وعند حوالى الواحدة صباحاً، وبينما كان بيرتون نائماً في شدقفه صحا علي أصوات عالية وصخب، فقد كان البعض ينادي: الحرم، الحرم، وآخرون يصيحون: مكة، مكة، بينما تعالت أصوات أخرى منادية: لبيك اللهم لبيك، مع أصوات شهيق ونحيب تتخللها في بعض الأحيان الزفرات والبكاء. "وبقلب استشعر معنى الحمد لله نظرت فأبصرت حدود مدينة غير واضحة المعالم"، كبيرة ممتدة، كأنها ظلّ بدا أكثر سواداً من السهل المجاور لها. وفي هذه اللحظات استقبلت القافلة نسمات رياح شرقية، ما يدل على أن الطائف كانت ممطرة، كما بدا البرق الذي راح يرقص فوق المنطقة التي وُلد فيها النبي – صلى الله عليه وسلم – والذي هو ظاهرة طبيعية عامة – شهادة لدى المسلمين علي قدسية المكان.

وصل الركب إلى الحدود الشمالية لمكة المكرّمة التي دخلتها القافلة من حي السليمانية أو حي الأفغان، وقال بيرتون إنه قد تعلم من الشيخ عبد الله الابتهالات التالية:

> اللهم اجعل حرمك حرماً آمناً... آمين... اللهم حرّم بدني ولحمي وعظامي على النار ونجّني من عذابك يوم العرض عليك، فأنت الله الرحمن الرحيم لا شريك لك، وصلِّ وسلم على سيدنا محمد وعلى أصحابه أجمعين. ورحت بعد ذلك أنادي بالتلبية وأدعو لنفسي. وما لبث القوم أن وجدوا أنفسهم في الساعة الثانية ظهراً عند بيت النبي – صلى الله عليه وسلم –. وكان اليوم هو السبت ١١ سبتمبر ١٨٥٣م الموافق للسابع من ذي الحجة ١٢٦٩هـ. سبق الشاب محمد، رفيق بيرتون، الركب إلى منزله الذي كان على بوابته الضخمة حارس هندي كان نائماً فهبّ مذعوراً على ركلات محمد الذي صعد الدرج قفزاً ليحتضن أمه التي استقبلته بالزغاريد (lu lu) التي تبهج قلب العائد إلى بيته وتكيد الغريب. وأعدت السيدة على شرف وصول ابنها طبقاً من "الكنافة" التي رُشّ على سطحها السكر "وراحت أيادينا اليمنى تغوص في الطبق، فقد كانت الكنافة لذيذة خاصة بعد الجوع الذي أضنانا خلال الرحلة". وغفا بيرتون لساعتين حيث كان عليه أن يؤدي مع الفجر طواف القدوم.

يتحدث بيرتون عن الكعبة حين وقفت عليها عيناه للمرّة الأولى. فهي بحسب كلماته: ليست عملاً عملاقاً عجوزاً كآثار مصر، ولا هي كآثار اليونان والرومان التي تفيض تناغماً وجمالاً فنياً، وهي لا تعكس تلك الروعة البربرية لآثار الهندوس. فالكعبة "لها منظرها المتفرد الغريب... تملّكني هذه اللحظة إحساس صوفي جاذب وانتابني الشعور بالرضا". ففي وسط هذا الجمع من العابدين الذين أمسكوا بقوّة بأهداب ستار الكعبة أو أولئك الذين خفقت

قلوبهم التي ألصقوها بالحجر الأسود كان بيرتون - كما يدّعي - الأكثر تأثراً من الجميع. وبدا له كأن "أساطير العرب التي صاغوها شعراً تنطق صدقاً، وأجنحة الملائكة المرفرفة، وليس نسيم الصباح العليل، هي التي تحرك ستارة الكعبة".

يؤكد بيرتون أن الشعائر المرتبطة بالكعبة تبعدها كثيراً عن الوثنية، ويتساءل أي الأديان يخلو من التوثين؟ ويتهم بيرتون الفكر الديني الإنجليزي بالشوائب الوثنية. ويستطرد فيقول إن الكعبة في عزلتها تبدو مجسدة لعظمة التوحيد الذي قام عليه الإسلام. إن كل فرد في البيت الحرام، حتى البدوي الساذج، يدرك وهو يطوف حول الكعبة أنه لا يعبدها ولكنه يتمثل فيها ذكرى خليل الرحمن. وأشار إلى أن مسيلمة حين سمح لأتباعه بأن يتوجهوا في صلاتهم لغير الكعبة، لأي قبلة يريدونها، وتوجيه وجوههم لمن لا اتجاه له ولا جنب ولا صنم، لم يظفر من التاريخ إلا بلقب الكذّاب. ويدّعي بيرتون أنه تمكن من الحجر الأسود لمدة عشر دقائق يقبّله ويفرك يديه وجبهته على سطحه، ولذلك فإنه لم يتمكن من تدقيق الملاحظة ليقدّم له وصفاً، فابتعد عنه وهو "مقتنع أنه حجر نيزكي".

قضى بيرتون ورفاقه اليوم كله في الحرم، كما قضوا فيه أغلب ساعات الليل هادئة قبل أن تبدأ رسمياً مراسم الحجّ في اليوم التالي. وأشار إلى أن الكعبة تزداد بهاءً في المساء و"قد انتصبت شامخة في استرخاء أجرأ مما كانت عليه حالها نهاراً". وقد حدثنا بيرتون عن البشر الذين أثاروا انتباهه في الحرم، منهم تكروري كالفيل الهائج ويتوجع من أعماقه. وقال بيرتون إنه ربما أصاب هذا الرجل مسٌّ من جنٍّ لمعاناة الزنوج الطويلة في قطع البحار والفيافي والقفار، ما يلهب الخيال ويقود إلى حافة الجنون. ومنهم بدوية ترفل في إباء في ثوبها الأسود المسدل كثوب الراهبات يغطي جسدها، ونقاب أحمر اللون انشقّ عن حدقتين لماعتين في صفاء. وهندية نحيلة قصيرة الرداء تغطي ساقيها النحيلتين بسروال ضيق وهي تهرول حول الكعبة، وأتراك شُقر من ذوي الجلود الملساء ينظرون - كما هي عادتهم - إلى ما حولهم في برود وازدراء، وآخرون يحملون نعشاً يطوفون به قبل الصلاة عليه، ويسرع الآخرون - كما هي العادة - للمشاركة في حمله.

بيرتون يؤدي حجّه

وصلت القافلة يوم السبت ١١ سبتمبر الموافق للسابع من ذي الحجة ١٢٦٩هـ إلى مكّة المكرّمة، وقضى بيرتون ليلته الأولى في مكّة - كما يقول - في العبادة والنوم، وقد فاضت الحناجر ب"لبيك" تصدر مجلجلة من القوم الذين تنادوا إلى البيت الحرام. ويقول: إن للحرم تسعةً وثلاثين باباً، ولكن باب السلام الذي يفتح في اتجاه الشرق هو "الأكثر ملاءمة" لاستقبال القادمين الجدد، لكنه ومجموعته دخلوا من باب شيبة. وفي محاولة منه خاطئة لرد الأسماء إلى

أصولها، ومحاولاته في هذا الجانب غالباً ما تجانب الصواب، يقول: إن شيبة تعني: المرأة المسنّة! ويأخذ بيرتون في وصف الحرم فيقول: إنه نزل درجاً ليدخل باحة المسجد، فقد حافظت أرضه على ما كانت عليه بينما ارتفعت الأرض خارجه بالركام عبر عدد كبير من السنين. ويحدثنا عن الدهليز الذي تفصله الأعمدة التي يقول: إنها تبلغ خمسمئة وخمسين عموداً، وهي في هيئتها وشكلها غير منتظمة، تشابه الأشجار. ويحدثنا كذلك عن الأقواس التي تقوم على هذه الأعمدة، وتعلو كل أربعة منها قبة مطلية باللون الأبيض في شكل نصف برتقالة. ويقدر بيرتون عدد هذه القباب بمئة وخمسين ويقول: إن آخرين قد يزيدون في هذا العدد أو ينقصون منه، أما الخرافات في مكّة فتشير إلى أنها لا تُعدّ ولا تُحصى. ويحدثنا عن المآذن السبع التي هي أبراج عالية، مستديرة جزئياً وأسطوانية جزئياً، وأضخم من الأبراج في أوروبا فيقول: إنها تقوم على السور الخارجي، وهي مطلية بألوان مخططة، ويقول: إن المنطقة المحيطة بالبيت العتيق رملية يصل طولها إلى ستمئة وخمسين قدماً، وعرضها إلى مئتين وخمسين قدماً، فيها أبنية صغيرة وثمانية خطوط من الأرصفة، ويقوم البيت العتيق في منتصف هذه الساحة على بعد مئة وخمس عشرة خطوة من البهو الشمالي وثمانٍ وثمانين خطوة من البهو الجنوبي.

هكذا فقد أنجزت ما خططت له بعد سفر طويلٍ مضنٍ، فتحققت الآمال التي كانت تراودني سنة بعد أخرى. هذه هي الكعبة أو المكان الذي يستقبله كل مسلم في صلاته منذ أيام محمد – صلى الله عليه وسلم – والتي كانت سنين طويلة قبل مولد الدين النصراني مكاناً مقدساً تهوي إليه أفئدة العابدين.

يحدثنا بيرتون عن المشاهد التي يرى أنها "مثيرة ولا شك". العابدون يتعلقون بأستار الكعبة فتسمع زفراتهم الحرّى الصادرة من قلوب تكاد تنفطر من أثر النحيب، ترى الرجل منهم وقد رفع ذراعيه إلى أعلى ولامس صدره حائط البيت فيبدو لك كأنه قد أوشك أن يُغمى عليه. وترى آخرين يمسحون جباههم على الأحجار وعيونهم تتدفق أنهاراً من الدمع... "يا له من منظر يهز حتى الرجل الذي لا تحركه العواطف!".

يحدثنا رتشارد بيرتون في سخرية بالغة عن أولئك الحجاج الذين راحوا يسألون عن اتجاه القبلة، والكعبة أمامهم. ففي الحرم المكي يمكن المصلي أن يستقبل القبلة من أي اتجاه يريد. ولا يترك بيرتون مثل هذه الفرصة تمرّ من دون أن يتحفنا بشيء من قراءاته فيقول: إن الكعبة لفظ يعني "المكعب أو المربع"، وهي تسمى أيضاً بيت الله، فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الآية (**آل عمران: ٩٦-٩٧**)، كما تعرف الكعبة – في ما يقول – بعروس مكّة، ومن هنا نشأت – في ما يقول بيرتون – فكرة نقاب الكعبة وكسوتها وحراسها من الخصيان.

الكعبة برج غير مرتفع من أحجار الغرانيت الرمادي، غير متساوية الأبعاد، متينة البناء، تلتصق أحجارها بعضها ببعض بإحكام من دون ملاط أسمنت. ويرى بيرتون أنها قد بُنيت في شكلها الذي رآها عليه منذ عام ١٦٢٧م ويقول: إن شكلها يماثل المعيّن شبه المنحرف أكثر منه مربعاً، ويبلغ طولها أربعين قدماً وعرضها خمساً وثلاثين قدماً، أما ارتفاعها فهو خمس وأربعون قدماً. سقف الكعبة مسطح مع انحدار طفيف يتجه من الناحية الجنوبية الغربية إلى الناحية الشمالية، وينتهي إلى "ميزاب" من الذهب لتصريف المياه. ويستطرد: إن الكعبة – عدا سقفها – مكسوّة بثوب يُسمى ستارة (tea–veil) (؟) البيت، وهذا ما يجعلها كأنها النعش وقد غُطّي بثوب.

يعرض بيرتون قراءاته عن كسوة الكعبة، فقال إن تُبّع الحميري الذي اعتنق اليهودية كان أول من ابتدع الكسوة، ثم يحدثنا عن الكسوة في العصر الجاهلي حيث كساها قُصي ثم أبو ربيعة المغيرة بن عبد الله، ثم يحدثنا عن الكسوة على عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي اختار لها قماشاً من نسيج اليمن الجميل، واختار عمر – رضي الله عنه – أن يكسوها بالكتان المصري، أما عثمان – رضي الله عنه – فقد اعتاد أن يكسو الكعبة مرتين صيفاً وشتاءً. ويحدثنا بعدئذ عن كسوة معاوية، ثم عن الخليفة المأمون الذي كسا الكعبة ثلاث مرات في السنة بقماش أحمر مطرز في المحرم، وبقماش كتاني في رجب، وآخر أبيض مطرز في شوال، ثم المتوكل الذي أخذ يكسوها مرّة كل شهرين. ويستشهد بابن جبير الذي قال إن الكسوّة كانت على أيامه خضراء ومذهبة. ويحدثنا عن السلطان قلاوون الذي أوقف ريع قريتين في مصر لكسوة الكعبة وستائر حجرة الرسول الكريم. وتحدث عن كسوة الكعبة في عهد العثمانيين، ثم إبان سيطرة الوهابيين الذين كسوا الكعبة كسوة حمراء من القماش ذاته الذي يصنعون منه العباءات الأحسائية الجميلة. ويقول إن الكسوة الحالية صنعت في مصنع الخرنفش لغزل القطن في باب الشعرية بالقاهرة، وإن أسرة بيت الصادي (؟) sadi تتوارث هذا العمل. ولون الكسوة أسود قاتم، طرزت بآيات قرآنية كريمة بالأسود اللماع. أما ستارة باب الكعبة فهي مطرزة بخيوط الذهب فوق نسيج حرير أحمر اللون. ويجري على امتداد محيط ستارة الكعبة كلها وعلى بعد حوالى ثلثي ارتفاعها شريط لمّاع من المادة ذاتها عرضه قدمان. وعندما تكون الستارة جديدة ترفع أطرافها السفلى بواسطة حبال تتدلى من سقفها، ولكن بعد ذلك تُرخى الكسوة وتُشبك إلى خواتم من المعدن مثبتة عند قاعدة البناء. وعندما يدخل الهواء بين الكسوة ومبنى البيت وتتحرك الستارة بحسب حركة الهواء، يعتقد أتقياء المسلمين أن الملائكة ترفرف بأجنحتها على البيت العتيق. ويدّعي بيرتون أنه قد انتابه هذا الشعور نفسه حين رأى الكعبة للوهلة الأولى: ويقول إن الحجاج يحاولون الحصول على قطعة من كسوة الكعبة التي هي بالية في هذا الموسم مما لحق بها من مسّ الأصابع، ولكن بما أن مسؤولي الحرم

يبيعون هذه القطع فإنهم يعالجون من يحاول أن يقطعها بنفسه بالنبّوت، ويقول إن المسلمين يضعون قطعة كسوة الكعبة في المصحف لتحديد المواقف التي وصلوا إليها في القراءة.

يفتح باب مدخل الكعبة المصنوع من خشب الصندل على الناحية الشرقية، ويرتفع المدخل عن سطح الأرض حوالى سبع أقدام، ولن يتمكن المرء من دخول الكعبة إلا أن يرفعه الآخرون على أذرعهم. وكان الباب في عام ٦٨٦م عندما اتخذ البناء شكله الحالي عند مستوى الأرض. ويحدثنا بأن الكعبة تُفتح للزوار حوالى عشر إلى اثنتي عشرة مرّة في السنة لاستقبال الزوار الذين يتزاحمون عند الدخول ويسقط العديد منهم قتلى. وأضاف: إن بعض المسلمين لا يرغبون في دخول الكعبة، لأن عليهم بعدئذ ألا تطأ أقدامهم الأرض حافية، وعليهم أن ينتعلوا، وعليهم أيضاً ألا يمسوا النار بأيديهم (؟!) إضافة إلى أنه يترتب عليهم كذلك ألا يكذبوا أبداً. ويسأل بيرتون: "كم من هؤلاء يستطيع أن يظفر بهذا الشرف فيمتلك حذاءً وكماشة لالتقاط الجمر؟". ويرى بيرتون أن المرء لن يكون أبداً بمنجاة من الكذب، ويستشهد بالشاعر طوماس (؟) الذي قُدمت له التفاحة التي تجعل لسانه غير قادر على الكذب حيث قال: "إن لساني هو كياني فكيف لي أن أجرؤ إن التزمت الصدق الكامل أن أحادث الأمير والشريف أو أن أطلب نعمة القرب من سيدة حسناء".

بعد أن يعرض بيرتون ما ورد في الكذب عند الهندوس والوسم الإلهي الذي لم يكذب من الهندوس من يقبل أن يُوسم به، يقول إن هندياً خادماً لصديق له أكد له أن الكذب طعام الشرقي وشرابه وغطاؤه الذي يستره (!) فكيف له أن يتركه؟ ويفيدنا بيرتون بأن مبنى الكعبة المشرّفة في داخله غاية في البساطة، وأن حيطانه الداخلية مغطاة بستائر من الحرير الدمشقي الأحمر المطرز بأزهار من خيوط الذهب. ويستند سقف الكعبة إلى أخشاب متعارضة جمعت بين الحائطين الشرقي والغربي، واستندت إلى ثلاث دعائم من خشب الصندل المشغول، وبين هذه الدعائم الثلاث وعلى ارتفاع حوالى تسع أقدام من الأرض قضبان حديدية عُلّق عليها عدد من المصابيح قيل: إنها من الذهب. ويظهر في المنطقة الشمالية باب صغير جداً يقود إلى ممرّ ضيق ينتهي إلى سلم صغير يصل به الخدم إلى أعلى البناء لتنظيف السطح أو لترميم البناء، كما يلاحظ وجود أريكة رباعية الشكل من خشب الصندل يجلس عليها "حارس المعبد" (؟) حامل مفتاح الكعبة. أما الحجر الأسود الذي يقول عنه بيرتون: إنه حديث العالم، فمُثبّت في الزاوية الجنوبية الشرقية للسور الخارجي للبيت العتيق، يعلو عن سطح الأرض بمقدار أربع إلى خمس أقدام ليكون في موضع ملائم لاستقبال القبلات، ويقول إنه حجر نيزكي وليس بركانياً كما ذكر أغلب الرحالة الغربيين السابقين له، وإن شكله أسود لامع وبه تجويف أحدثته شفاه المؤمنين. ويبلغ محيط الحجر الذي يُطوّق بصحن من ذهب حوالى سبع بوصات، أما امتداده في عمق سور المبنى فغير معروف، ولكن البعض يقولون: إنه يصل إلى حوالى قدمين.

ويضيف بيرتون نقلاً عمن يسميهم المؤمنين: إن الله عندما أخذ من بني آدم ميثاقهم كان هذا الحجر في السماء الدنيا، وكان لونه أبيض كالثلج، ولكنه اسودّ بعدئذ بذنوب بني الإنسان. أما الكفار – في ما يقول بيرتون – فيرونه حجراً مثل أي حجر آخر، وإن وجوده في الكعبة يعود إلى فترة كانت تعبد فيها أوثان من حجر. ويتحدث بيرتون بعد ذلك عن تاريخ الحجر الأسود وما تعرّض له من سرقة حتى أعيد إلى مكانه مرّة أخرى، ويحكي عن الملتزم وهو الواقع بين الباب والحجر الأسود، وكيف يلتزمه الحجاج بصدورهم وأذرعهم، ويبكون عنده بحرقة، سائلين الله غفران الذنوب. ويسترسل ليقول: إن الملتزم كان في فترة ما قبل الإسلام المكان الذي كان الجاهليون يعقدون فيه أوثق المواثيق وأقدسها وألزمها، ويروي بيرتون أنه لامس بطنه وصدره وظاهر خدّه الأيمن الملتزم وهو يدعو "اللهم يا رب البيت العتيق اعتقني من النار، واحمني من كل شرّ، وارزقني وبارك لي فيما رزقتني". ثم استغفر الله لذنوبه ودعا بما يريد وصلى على النبي! ويحدثنا عن حِجْر إسماعيل فيقول: إنه حجران يمتدان في شكل قوس يضم قبري إسماعيل وأمه هاجر. ويحَكي أن إسماعيل هو الذي يعدّه المسلمون الابن الأكبر "والشرعي" لإبراهيم – عليهما السلام – بينما يفضِّل اليهود ابن المرأة الحرة لا الجارية. ويعلق بيرتون فيقول: إن هذه مشكلة قائمة منذ القدم ولن تحلّ قريباً، ويحكي عن إنشاءات أخرى داخل باحة المسجد الحرام، نذكر منها الغطاء الكبير الذي يقوم على بئر زمزم. ويقول لنا: إن الزمزمة في اللغة العربية هي الهمهمة، وربما كان ذلك – في ما يقول بيرتون – كناية عن صوت الماء أو ربما جاءت الكلمة من قول هاجر: زمي زمي أي فيضي فيضي. ويأتي بيرتون بتفسير يرده إلى حكماء الإسلام (؟) وهو أن زمزم مشتقة من الفارسية ولها ارتباط بعبادة الزهرة خاصة والأجرام السماوية عامة. ويضيف: إن هذه البئر قد انبجست عن ماء لتروي إسماعيل الذي كان من معاناته شدة العطش يضرب الأرض بقدميه. ويضيف: إن ماء زمزم وَفْر، ولكنه مُرّ بنحو مزعج إلا أن الحجاج يعبّون منه عبّاً، لأنه يغسل أرواحهم من الذنوب وينفضها عنها كما يُنفض الغبار. ويستطرد بيرتون ليقول: إن ماء زمزم لا يستعمل إلا في الشرب وللوضوء، ويحظر استخدامه في سائر المهمات الأخرى. وينصح أهل مكّة الحجاج بأن يستفتحوا يومهم بالشراب من زمزم رغم أن مذاقه يوحي كأنه قد أضيف إليه ملح أبسوم Epsom الإنجليزي المسهل. وكم كان ظريفاً في نظر بيرتون منظر الحجاج – خاصة الأتراك – وهم يتناولون "هذا الماء المقدس" ويشكون من عدم استساغتهم له. ويقول بيرتون إن ماء زمزم يجد طريقه مع الحجاج إلى أماكن بعيدة من العالم الإسلامي في جرار فخارية توضع بعد ختمها بخاتم الزمازمة في سلال مغلقة. "فالأتقياء" يحرصون على أن يكون ماء زمزم أول ما يتناولونه في إفطار رمضان، كما يضعونه في أعينهم لتقوية النظر ويقدمون منه للمحتضر قطرات "حين يكون الشيطان واقفاً إلى جانبه يحمل الماء العذب ثمناً لإغواء الروح الراحلة".

يحدثنا بيرتون عن القُبّتين اللتين بالقرب من بئر زمزم، ويرى فيهما شكلاً قبيحاً، فقد زُينتا بخطوط من الأحمر والأخضر والأصفر في غير انسجام. وتضم القبتان الساعة للمواقيت وكذلك المكتبة، ويحكي لنا عن مقام إبراهيم، وهو مبنى وُضع فيه الحجر الذي كان إبراهيم - عليه السلام - يقف عليه حينما كان يبني الكعبة، وتبدو على الحجر آثار قدمي "خليل الله" بارزة، خاصة الأخمصان. ويملأ الأتقياء من الحجاج، وخاصة الأثرياء، تجويف هذا القدم بالماء ثم يأخذون منه فيمسحون به أعينهم، ويحظون بذلك بانتعاش طبيعي وروحي أيضاً. ويستطرد بيرتون في وصف الإنشاءات الأخرى في باحة الحرم، فيحدثنا عن المنبر الرخامي الأبيض ذي الدرج المنحوت في أصله الذي يقف عليه خطيب المسجد، كما يحدثنا عن الباحات الثلاث في جوانب المسجد: الشمالي، والغربي، والجنوبي، والشرقي، التي زوّدت بأسقف مائلة تقوم على أعمدة ضعيفة، حيث يقف أتباع المذاهب الثلاثة للصلاة وراء أئمتهم، كل في مكانه، أما أتباع المذهب "الأرثوذوكسي (؟!)" الرابع، الشافعي، فيؤدون الصلاة في المنطقة الفاصلة بين بئر زمزم ومقام إبراهيم، بينما تقوم "الفئات المهرطقة بالتجمع في أماكن غامضة يعرفونها".

كان محمد - مطوّف بيرتون - قد أدخله الحرم من باب السلام، وهما يهمهمان بآيات معينة حتى وصلا إلى ركن الشافعية حيث أدّيا ركعتي تحية المسجد، ثم تقدما إلى زاوية البيت العتيق الشرقية في مواجهة الحجر الأسود حتى أصبحا على بعد حوالى عشر أقدام منه وراحا يرددان وأكفّ الضراعة مرفوعة في اتجاه السماء: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير" وأشار بيرتون إلى الحجر الأسود في حركة تماثل تكبيرة الإحرام وقال: "يا رب العالمين أنا أفعل هذا إيماناً بك وتصديقاً لكتابك واتباعاً لرسولك - صلى الله عليه وسلم - وأمد إليك يدي رغبة فيك... اللهم اقبل دعائي وهوّن أمري وارحم ذلي واغفر ذنوبي...".

لم يتمكن من لمس الحجر الأسود، فوجّه كفّه تجاه الحجر كمن يستلمه ودعا لنفسه وكبّر وهلّل وحمد الله - في ما يقول - وقبّل أطراف أصابع يمناه. ويروي بيرتون - من دون أن يذكر مصدراً - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يبكي حين يلمس الحجر الأسود ويقول إنه المكان الذي تذرف فيه الدموع. وقد "اعتاد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن يقبله"، ثم أدى بيرتون صلاة الطواف (؟) وهو يردد وراء المطوف "بسم الله الرحمن الرحيم، نويت الطواف سبعة أشواط لله رب العالمين"، وراح يدعو ويردد "اللهم إني قد آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت"، وحين وصل إلى الملتزم قال: "اللهم تجاوز عن أخطائنا". أما حين بلغ إلى مواجهة باب الكعبة المشرفة فقد راح يدعو: اللهم إن هذا البيت بيتك والحرم حرمك والأمن أمنك. إنّا نفرّ إليك ونعوذ بك من عذاب النار. وحين وصل مقام إبراهيم

دعا: "اللهم إني في مقام اللائذ بك المستعيذ بك من النار. اللهم حرّم دمي ولحمي وجلدي وعظمي على النار". وعند الركن الشمالي (العراقي) دعا بيرتون: "اللهم إنا نعوذ بك من الشرك والعصيان والنفاق واللجاج. اللهم احفظ لنا أهلنا وذريتنا". وحين أصبح عند الميزاب دعا: "اللهم إني أسألك إيماناً لا يتحول ويقيناً لا يزول، وآتِ محمداً – صلى الله عليه وسلم – الوسيلة والفضيلة، وأظلني في ظلك يوم لا ظلّ إلا ظلك، واسقنا من حوض نبيك شربة لا نظمأ بعدها أبداً". وعندما وصل إلى الركن الغربي (الشامي) دعا: "اللهم اجعله حجاً مقبولاً وذنباً مغفوراً وسعياً مشكوراً وتقبل منا فأنت الغفور الرحيم". وكرر ذلك ثلاث مرات. أما في الركن اليماني حيث الزحام أقل فقد تمكن بيرتون من لمس جدار الكعبة المشرفة وقبّل أطراف أصابعه. وانتهى الشوط الأول من الطواف عند الحجر الأسود بالدعاء: " اللهم إني أعوذ بك من الشرك، وأعوذ بك من العوز، وأعوذ بك من عذاب، القبر وأعوذ بك من هم الدنيا ومن العذاب بعد الموت. اللهم إني أعوذ بك من خزي الدنيا والآخرة، فاغفر لنا واعفُ عنا. اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار".

هكذا انتهى الشوط الأول ليبدأ الشوط الثاني، ويقول بعد رفع يده تجاه الحجر الأسود "بسم الله والله أكبر"، وفي الشوط الأخير هيّأ محمد مضيفه ومطوفه نحو اثني عشر مكياً من الأقوياء لإزاحة البدو "الضعيفي السيقان" من منطقة الحجر الأسود، فالتفّوا حولهم "كالقطط البرية"... فقد كانوا من هزالهم مثل المومياءات، فالفصل خريف و لم يكونوا قد أصابوا لبناً لمدة ستة أشهر! وهكذا تمكن بيرتون ورفاقه من استلام الحجر الأسود (لعشر دقائق على الأقل)، وأشار إلى أن المسجد قد امتلأ حتى فاض بالحجيج من الذكور، فالنساء قلّ ما يظهرن في ساعات النهار، ويحكي عن معاناة الطواف برؤوس حاسرة وأقدام حافية على سطح أملس أشد نعومة من الزجاج، وحار كأنه الشمس قد تجسّدت، ويحكي لنا عن الطواف الذي هو سبعة أشواط: الثلاثة الأولى منها هرولة أو رملاً كما تُسمى، ويشرح كلمة الرمل فيقول إنها تعني كمن يسير على الرمل وتُؤدّى كما يفعل الفرنسيون حين يخرجون إلى الرياضة، أما ما تبقى فهو بالخطوات العادية، وقال: إن محمد – صلى الله عليه وسلم – قد وجه أتباعه بالقيام بالطواف على هذا النحو لإظهار أنفسهم أقوياء أشداء نشيطين في أعين الكفار الذين ادعوا أن المسلمين قد وهنوا من أثر هواء المدينة المنوّرة. ويحدثنا بيرتون أيضاً بأن لكل شوط من الأشواط السبعة دعاءً مأثوراً. وحين فرغ ومطوفه من الطواف الذي جعلوا فيه البيت على يسارهم طيلة الأشواط السبعة، قبّل بيرتون الحجر الأسود ومسح بيديه على جبهته – كما يقول – وشرب من ماء زمزم وأخرج الصدقة. ولكنه يسترسل فيقول: إن ذلك كله لن يهيّئ للمرء أن يحمل لقب حاج، فلبّ الحجّ ولحمته وسداه هو حضور خطبة عرفات، الموقع الذي يقع على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشرق من مكة. ولكن إذا تُوفي المرء وهو في طريقه إلى عرفات

فهو شهيد مغفور الذنب، لا يُسأل في قبره (!). فالموت هنا أمر يسير، ترى المرء يترنّح فجأة كمن أصابه طلق ناري فيدخل في تشنجات لفترة قصيرة يسلم بعدها الروح ويغدو بلا حراك كأنه حجر من رخام.

يحكي لنا هذا الرحالة فيقول: إن الحجّ أيام ثلاثة وهي: الثامن، والتاسع، والعاشر من ذي الحجة الذي هو الشهر الأخير من السنة العربية، ففي هذه الأيام الثلاثة يُستنفر المسلمون في المنطقة الممتدة من جبل طارق حتى اليابان استنفاراً كبيراً، والمسلمون الذين لم يتيسّر لهم الحجّ يُحيون هذه الأيام بالعبادة والصلاة وتقديم الأضاحي في منازلهم. ويذكر أن التاريخ الإسلامي قمري، وأنه يفرق سنة كاملة عن التاريخ الغريغوري "الشمسي" في كل ثلاث وثلاثين سنة، ما يتعذر معه ضبط ميقات الحجّ بالسنة الميلادية. ويضيف: إنه عندما زار مكّة بدأت شعائر الحجّ في يوم الأحد ١٢ سبتمبر ١٨٥٣م وانتهت في يوم الأربعاء ١٤ منه. خرج مع رفاقه من مكة وسط زحام الحجاج الذين كان بعضهم يمتطي حميراً وآخرون على ظهور الإبل، وهناك من هم على صهوة جياد وآخرون يمشون على أقدامهم إلى منى فالمزدلفة.

يستطرد ليقول إنهم صلّوا الظهر بمزدلفة حيث المئذنة التي ليس لها مسجد معين، وهي العلامة الدالّة على الموقع. وفي المزدلفة صادف ركب بيرتون المحمل الذي أرسله السلطان "وكان يتوهج بلونيه الذهبي والأخضر، يحمله بعير أبيض ضخم" يتهادى به في فخر بين جموع الحجاج المسالمين، وكانت تحيط به كوكبة من البدو المدججين بالسلاح "حتى أسنانهم". ويذهب بيرتون إلى القول بوقوع عدد من الاغتيالات في يوم عرفة، وإن العديد من الأشخاص يأتون عرفات بقصد الثأر، "فليس أيسر من القتل في هذا اليوم الذي يمكن أن يُؤخذ فيه المرء على حين غرّة. ويسمي هذا الرحالة عدداً من النسوة ومن الرجال الملثّمين الذين لم تُستبَن هوياتهم ولا يُعرف مظهرهم، والذين جاؤوا عرفة بقصد الثأر لا الحجّ. وينتقل بيرتون إلى الحديث عن عرفات، ويفيد بأن للموقع حدوداً معينة عرفت بعمودين أبيضين. وانتشرت الخيام في هذا الموقع لحوالى ميلين أو ثلاثة أميال عند سفح "الجبل المقدس" حيث قضينا ليلة مزعجة في الصلاة.

جبل الرحمة

جبل عرفات أو جبل الرحمة أو جبل إلال Ilall أو شدة العبادة عبارة عن كتلة من الغرانيت الخشن يعكس سطحه تشققاً، وتكتنفه صخور كثيرة، وتغطيه مجموعة من الأشجار الشوكية الجافة، ويصل ارتفاعه إلى ما بين مئة وثمانين إلى مئتي قدم. ويقف الإمام عند قمة الجبل لإلقاء الخطبة.

لعلنا نلاحظ أن بيرتون قد استقصى أسماء الجبل كلها حتى إلال لم يتركه، بل إنه شرح اللفظ بما يعني الاجتهاد في العبادة. ولعلّنا حين نراجع هذا اللفظ غير المألوف للعديد منا مليّاً ندرك سعة اطلاع هذا الرحالة وتشعب معرفته. فإلال في القواميس تعني "شدة القنوط، ويجوز أن يكون من رفع صوت بالبكاء". وبالطبع يجوز لنا أن نعتبر الرجل مخطئاً إذا لم يصل إلى درجة من الدقة تمكنه من أن يدرك أن الإلال بكسر الهمزة وتخفيف اللام الأولى جبل يكون على يمين الإمام عند وقوفه بعرفة. ويقول بيرتون في شرحه لمعاني الأسماء أيضاً: إن عرفات تعني "التعرف" وإن الاسم مستمد من أسطورة شهيرة في أوساط "المسلمين"، هي أن آدم حين نزل من السماء السابعة إلى الأرض نزل في سيلان بينما هبطت حواء في عرفات. وراح آدم يكدّ في البحث عن حوائه، ويرتحل من منطقة إلى أخرى. "وتقلبت به الأرض التي تدين بمظهرها الحالي له"، فحيثما وضع آدم قدمه على ثراها قامت مدينة، أما المنطقة الفاصلة بين الخطوتين فقد أصبحت بادية. قضى آدم من عمره سنوات في تجوال دائب لم يقرّ به قرار فيما كانت "أمّنا، أمّ الجميع" في عرفات تهتف منادية باسمه، وحين وصل آدم إلى هذه المنطقة تعرف الزوجان أحدهما إلى الآخر، ما أعطى المكان اسمه. وقد طلب جبريل – عليه السلام – إلى آدم أن يقيم في قمة الجبل مسجداً يعرف بالمدعى أو مكان الدعاء، فأقامه واستقرّ عنده مع زوجه. ويقول بيرتون إن هناك من يعتقد أن آدم أخذ حواء إلى الهند واستقرّا هناك، ولكنهما كانا يحجّان إلى مكة سنوياً طوال أربع وأربعين سنة. ويستطرد بيرتون في ذكر هذه الروايات التي نراها طريفة أكثر منها مفيدة، والتي جمعها الرجل باجتهاده وهو يقرأ الغث والسمين، ويضيف بعضه إلى بعض، فهو لا ينظر إلى ما يورده بعين ناقدة، فالتراث الإسلامي لم يكن يهمّه كثيراً، و لم يستدعِ منه التفكير والتأمل. جمع بيرتون من هذا التراث الأساطير التي تمتع القارئ والمستمع الغربي، وتكرّس في ذهنه صورة البدائي والغريب عن الشرق وثقافاته. ويزيد من متعة الأساطير التي نقلها بيرتون أسلوبه الساخر وثقته بمعرفته التي اعتقد أن ليس هناك من سبقه إليها، وربما لم يتأتَّ لأحد من الرحالة الغربيين بعده أن يضيف إليها.

يقول بيرتون: إن آدم – عليه السلام – مدفون في مسجد الخيف في منى "القرية التي اجتزناها اليوم"، وإن جثمانه يمتد بين سورَي المسجد البعيدي الطول، وإن القبّة التي على المسجد تشير إلى سرّته. ويروي أن أبانا آدم كان يمسح بجبهته السماء حين يسير، ولكنه وجد أن هذا غير ملائم، فاختزل طوله إلى مئة وخمسين قدماً فقط! أما حواء فإنها مدفونة في جدّة على الطريقة الإسلامية في توجهها ناحية القبلة. فقد وضع رأسها ناحية الجنوب وقدميها إلى الشمال راقدة على جنبها الأيمن. وقبّتها في مدينة جدّة بارزة بطلائها الأبيض وبابها الذي يفتح في اتجاه الغرب. طول حواء من الرأس إلى الخصر – في ما يقول بيرتون – مئة وعشرون خطوة، ومن الخصر إلى باطن القدم ثمانون خطوة، وقد وُضع حجر عند منطقة سرّتها. ويسخر

بيرتون فيقول: "لا بد أن منظرها كان فريداً".

اقتضى يوم عرفة من بيرتون والحجاج الآخرين الطهارة وملازمة الصلاة، إضافة إلى زيارة مواقع متفرقة على جبل الرحمة، منها مسجد الصخرة الذي يقول إن علي بك العباسي قد سمّاه مسجد الرحمة، وقد اكتسب اسمه من أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد وقف في ذلك المكان وردّد التلبية. والمسجد عبارة عن حوش مسوّر به محراب، وقد صلّى بيرتون فيه وردّد التلبية. كذلك زار الموقع الذي وقف فيه سيد الأنبياء في حجة الوداع، وهو الموقف نفسه الذي يقف فيه خطيب عرفات. وبعد أن أدى الصلاة في هذا الموقع ذهب إلى مسجد آدم في قمة الجبل وأدى الصلاة أيضاً ثم أوى إلى خيمته، فعرفة كلها مسجد، كما يقول هذا الرجل عن الرسول – صلى الله عليه وسلم –، ويقول: إنهم أخّروا وقت تناول الإفطار، لأنهم لن يستطيعوا أن يأكلوا بعدئذ إلا بعد المغيب. ونعتقد أن هذا الإجراء كانت تقتضيه منهم طول الخطبة التي يلقيها الإمام.

يقول بيرتون إن الجبل ازدحم منذ فجر اليوم التاسع من ذي الحجة بالحجاج، وقد حصل البدو و"المتوحشون" على أميز المواقع التي تمكنهم من الاستماع إلى الخطبة التي تبدأ منذ الظهر. وأخذت الزفرات تتعالى، والهمهمات تتوالى، والضجيج يعلو، والصخب يسود، وراع بيرتون سماع الرجال ينادون بأعلى أصواتهم على نساء، ما يناقض عادات البلاد الإسلامية، ولكنه عرف بعد ذلك أن بعض النساء حين يكنّ غير قادرات على الحجّ يُؤجّرن أحداً من معارفهن من الحجاج كي ينادي بأسمائهن في عرفات، ليضمن لهنّ أن يكنّ في الحجّ في السنة التالية. كانت المدافع تدوّي، وأهل الإبل يندفعون بها إلى كافة الاتجاهات. وجاءت طلقة المدفع في الثالثة مساءً لتعلن أن الخطبة ستبدأ، وأن الوقوف بعرفات قد بات وشيكاً. وأطلّ موكب الشريف حاكم مكّة، وأفسح له "أهل الإسلام" الطريق المزدحم بالعامّة. تقدم الموكب فرسان صحراويون يحمل كل منهم حربة قناتها من الخيزران، وفي أعلاها ريشة نعام سوداء، يلي ذلك الرتل عدد من الخيول التي يمسك بعض المشاة بأجمتها، يركبها أهل الوجاهة والنبل في شبه الجزيرة العربية، ثم حَمَلة أعلام حمراء وخضراء يتقدمون موكب الشريف الذي كان في ملابس الإحرام وكان يمتطي بغلاً "حسن السمت". وكان الفارق الوحيد الذي يميزه عن الآخرين من مرافقيه تلك الشمسية من الحرير الأخضر الموشّاة بالذهب التي كان أحد عبيده يتولى رفعها فوق رأسه. ويتبع ركب الشريف رتل من ملازميه وأتباعه، وينتهي الموكب بمسيرة مجموعة من الجنود من راكبي الخيول والهجن. ويرى بيرتون أن هذا المنظر طريف ويزداد طرافة حين يقارن بمجموع الأتقياء نصف العراة وهم يصرخون: لبيك اللهم لبيك!

حان وقت الخطبة التي كان يلقيها "رجل عجوز من فوق بعيره" ولم يتمكن بيرتون من سماع "الواعظ" لأنه كان بعيداً عنه، كما أن أبا الشوارب شُغل بمغازلة فتاة فارعة من المكيات

بلغ عمرها الثامنة عشرة. ورغم أن الفتاة كانت شاحبة – كما يقول – إلا أن أعضاءها كانت غاية في التناسق والروعة لا عيب فيها على الإطلاق من تلك العيوب التي تلحق "بالعناصر المتبربرة". فقد كانت ناعمة مصقولة ليّنة. لفت بيرتون نظرها إليه بشاله الكشميري الأحمر فاستجابت له بأن أرخت هوناً "باليشمك" عن وجهها، ورفعت في حركة تنمّ عن الدلال غطاء رأسها بوصة أو بوصتين فاستبان خصلة شعر فاحمة كالليل يعلو وجهاً بيضياً بدرياً جميلاً وذقناً مستديرة وغمازتين على الخدود تحرسان فماً متناسق الشفاه. "وانتهزت فرصة انشغال رفاقي، فقد كان الحجاج في حالة جذب صوفي، ورفعت يديّ إلى جبهتي فابتسمت في هدوء ثم أشاحت بوجهها بعيداً". وقد حاول بيرتون – في ما يقول– أن يقتفي أثرها في وقت "النفرة"، ولكن بعض ظروفه حالت دون ذلك. وفي الحقيقة فإن إعجاب المرأة العربية بالرجل الغريب عنها قصة مألوفة ينقلها الرحالة بعضهم عن بعض، مع زيادة أو نقصان في التفاصيل والوقائع والملابسات.

يحدثنا بيرتون بعد ذلك عن الحجّ الذي يقول: إنه إحياء لذكرى إبراهيم – عليه السلام – وأولاده. فقد وفد أبو الأنبياء من كالديا ونشر الشريعة في العرب، وهو أفضل الأنبياء لدى المسلمين ما خلا الرسول الكريم. ويستطرد بيرتون في رواية التاريخ، ويعود إلى الحديث عن الموقف وتلبية الحجاج وهم يرفعون أصواتهم بها جهد طاقتهم، والعديد من المتناقضات بين الأتراك على حُصنهم، والبدو على إبلهم، والجنود غير المكترثين، والمتسوّلين الملوّنين، وقبل أن ينقضي هذا اليوم رأيت خمسة من الحجاج قد أسلموا الروح من أثر الإجهاد. ويضيف بيرتون في وصف المنطقة فيقول: إن هناك تلّاً مخروطياً شمال الطريق، وهو جبل حِراء الذي يسمى حالياً جبل ثور، وهو الجبل الذي "استنار" فيه عقل محمد – صلى الله عليه وسلم –، وأشار إلى أن الكهف الذي كان الرسول يتعبّد فيه لا يزال قائماً يطل على صحراء موحشة، أما إلى الشرق والجنوب فهناك تلال متتالية تحجب عنه الرؤية.

يُقدر بيرتون عدد الحجاج بعرفات بخمسين ألفاً، ويقول: إنه عادة كان يصل إلى ثمانين ألفاً في بعض المواسم، بينما يعتقد العرب أن عددهم في عرفات يجلّ عن الحصر، وأنه حين يقل عن ستمئة ألف فإن الملائكة تتجسد في صور بني آدم وتنزل لاستكماله. ويضيف بيرتون أن الضرورة لا تقتضي أن يقف الحجاج على الجبل ذاته، ولذا فقد قنع بالجلوس في خيمته بعيداً عن موقع الإمام الذي كان يخطب في الجموع تأسّياً بمحمد – صلى الله عليه وسلم – الذي خطب في المسلمين من على ناقته في ذلك الموقع.في وقت صلاة العصر اجتمع المحملان المزيّنان: الدمشقي والمصري على مسطبة عند سفح الجبل، وكان شريف مكة في مواجهتهما تماماً، في موقع مرتفع على مقربة من موقف الإمام حتى يتمكن من سماع الخطبة، بينما تجمهر الحجاج حوله. فجأة خفتت الأصوات، فقد شرع الإمام في إلقاء "خطبة الجبل"، وتحدث

طويلاً قبل أن تصدر "آمين" من الحناجر التي ما زالت تلبي بصوت عالٍ ينطلق عند فواصل الخطبة، "وحمل النسيم إلينا أصوات شهيق وزفير وبكاء". ورأى المكّيون "أنهم أحق بذلك من غيرهم، وكان من الضروري إظهار تأثرهم، غير أن الذين لم يتمكنوا من أن يذرفوا الدموع دفنوا وجوههم في ملابس إحرامهم، أو ضغطوا على عيونهم عساهم يظفرون منها بدمعة.

استمرّت الخطبة ثلاث ساعات حتى موعد مغيب الشمس، "وأصدر الإمام أمره بالانصراف"، وهرعت الجموع مسرعة وهي تنزل من الجبل ومن كل اتجاه للنفرة من عرفات سالكين طريق منى. وعمت الفوضى المكان، فقد راح كل حاج يستحث دابّته جهد استطاعتها لاجتياز ذلك السهل، حتى إذا وصلوا إلى المزدلفة قضوا ليلتهم عند تلك المئذنة التي أخذت تلمع في الظلام. وبينما كان كثير من الحجاج يقضون ليلهم في التهجد، رأى بيرتون ورفاقه أن يخلدوا إلى النوم "ليستريحوا وينتعشوا"، ولكن لم يكن ليلهم هادئاً، ولا نومهم هانئاً، فالحيوانات المثقلة بالأحمال كانت تسير هنا وهناك، و"الأتقياء" الذين يحرسون أمتعتهم كانوا يرسلون من الإشارات ما يؤكد أنهم غير نائمين، بينما كان الصخب والضجيج والصراخ ينبعث من هنا وهناك. وهكذا أطلّ عليهم فجر العاشر من ذي الحجة أو يوم النحر، أو عيد القربان، أو يوم نحر الإبل (؟)، أو يوم "قربان برام" كما يقول الأتراك. وهو عند المسلمين "يساوي عيد الميلاد عند النّصارى".

صحونا فجراً وقلنا لكل الذين حولنا: عيدكم مبارك. وجمع كل حاج سبع جمرات في حجم البسلّى، وغسلها بالماء سبع مرات، ثم تقدم إلى نهاية الناحية الغربية من منى حيث الشيطان الأكبر (؟!)، وهناك أيضاً الشيطان الأوسط، والشيطان الأصغر (؟!)، ولكنهما يقعان في الجانب الشرقي منها. لا شيء في موقع الشيطان يلفت الانتباه، فهو مجرد بُنيان، يرسلون عليه وابلاً من الحصى. ويقول بيرتون: إن البعض يردّ هذه الممارسة إلى آدم – عليه السلام – الذي حصب "الشرير" ليهرب، وربما كان "ذلك شبيهاً بما قاله مارتن لوثر في كتابه **المحبرة الساحرة** Inkstand، وردّها البعض الآخر إلى إبراهيم – عليه السلام – حين قابله الشيطان في منى وحرّضه على عدم ذبح ابنه فحصبه إبراهيم بالحجر. على الحاج أن يتقدم – إذا أمكنه ذلك إلى بعد خمس خطوات من العمود الذي يبلغ ارتفاعه حوالى ثمانية أقدام وعرضه حوالى قدمين ونصف القدم، ويرمي بنحو متتابع سبع حصيات. يمسك الحصاة في كل مرّة بين إبهام اليد اليمنى وسبابتها ثم يوجهها ويقذف بها. وكان الزحام شديداً حتى خيل لبيرتون كما يقول إنه يمكن الشخص أن يعبر فوق رؤوس هؤلاء الحجاج المتجمعين في غير انتظام. ترى البعض منهم راجلين، والبعض الآخر على خيول مطهّمة تصهل، والبعض فوق الإبل المهتاجة، وآخرين على البغال وعلى الحمير. وكان بيرتون من ضمن راكبي الحمير، ولكنه انسحب من المشهد حينما أطاح جمل هائج حماره، فهرب من الزحام مع مرافقه محمد الذي أخذ أنفه

ينزف، انتظاراً لفرصة أخرى اهتبلها بيرتون في الرمي وهو يردد: بسم الله والله أكبر، اللهم اخزِ الشيطان، وهلّل بعد ذلك، وأثنى على الله ولعن الشيطان. ويروي بيرتون أن أهل مكة أكدّوا له وقوع حوادث مفجعة في رمي الجمرات، بينما يعتقد الحجاج أن ليس ثمّة أحد يمكن أن يموت وهو يقوم بالرجم (!).

هكذا دخل بيرتون في الحلّ، وجلس على دكة من طين أمام دكان حلاق فحلق رأسه، وشذّب لحيته، وقص أظافره، وطلب الحلاق إليه أن يردد خلفه "اللهم إني قد خلعت ملابس الإحرام جرياً على سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، اللهم اخلف لي بكل شعرة نوراً وتقوى وجزاءً كريماً، بسم الله والله أكبر".

انتهى الحلاق ودعا له: نعيماً، "فأجبته الإجابة التقليدية: أنعم الله عليك". وهكذا أصبح في مقدور بيرتون – كما يقول – أن يغطي رأسه بملابس الإحرام من الشمس المحرقة، وأن يبرم شاربه ويداعب لحيته. وقد انتهت شعائر ذلك اليوم بذبيحة يقدمها الحاج "في ذكرى كبش إسماعيل أبي العرب". وقال: إن الأمير والباشا والأعيان هم الذين يتمكنون من نحر الإبل، ويشرح طريقة نحرها فيقول: إنهم يغرسون سكيناً في المنطقة الفاصلة بين رقبة البعير وصدره، لأن قصبة البعير الهوائية غليظة قاسية تستعصي على القطع، ويشير إلى أن لحوم الإبل حلال على "العرب" حرام على "اليهود"، ويشير إلى الأعداد الكبيرة من الثيران والخرفان والماعز التي "تقطع رقابها" بعد توجيه الحيوان نحو القبلة وقول الجزار: بسم الله والله أكبر. ويقول بيرتون: إنه أجلب للتقوى أن تترك الضحية من دون أن تصيب منها شيئاً، حتى يتمكن فقراء الحجيج من أن يمتعوا أنفسهم باللحم في يوم العيد (؟). ويلاحظ بيرتون أن آلاف الحيوانات تذبح ويبقى لحمها مقدداً ليجفّ في أيام منى الثلاثة: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة، ويقول: إن من الكرامات التي يؤمن بها الحجاج أن الطيور لا تفد إلى المكان لتأخذ من اللحم، وأن الذباب لا ينزل به، ولكنه يؤكد وجود ذباب لا يحصى ولا يعد، وجادل بأن الطيور لا تزور المكان خوفاً من ضجيج الحجاج. ويلاحظ بيرتون كذلك أنه رغم درجة الحرارة العالية فإن الكوليرا يمكن أن تضرب مكة، وقد نزل الوباء بهذه البلدة عام ١٨٦٥م، ويرى أن سلامة أوروبا تقتضي التدخل "لإصلاح هذا المذبح القذر".

عاد بيرتون إلى مكة ودخل باطن الكعبة المشرّفة فانتابه – كما يقول – الإحساس بالرهبة، وغدا "مثل فأر وقع في فخ". فلو أدرك القوم هويته لأصبح المكان ساحة موته. عاد بيرتون بعدئذ إلى بيت ام محمد ، ذلك البيت المتداعي القديم الطراز الذي تملكه مشاركة مع أخيها المكي العجوز الواهن الذي يحمل وجهه ملامح النسر، له أظافر كأنها مخالب الحدأة وجسم لا يزيد على هيكل عظمي. له ضحكة كعواء الضبع. وقد تمكن من تأجير كل زاوية من زوايا المنزل، ما جعل بيرتون يعاني الازدحام، ولكنه تمكن أخيراً من الظفر برضاء أم محمد حين أخذ

يتملقها بإطراء محمد، ولدها الأثير لديها. وخفّف بيرتون من حروق الشمس على ذراعه وكتفه وصدره بالاغتسال بالحناء والماء الدافئ، وارتدى حلة جميلة احتفاءً بالعيد، وركب مع مجموعته الحميرَ ليعود إلى منى التي كانت كأنها حفرة بركان من شدة القيظ. وحين حلّ الظلام خرج الحجاج إلى مواجهة مسجد منى لمشاهدة الألعاب النارية وإطلاق قذيفة المدفع، فهبت عاصفة غطى نور برقها ضوء الألعاب النارية، وطغى صوت رعدها الذي تجاوبت التلال مع صداه على صوت المدفع وأخرسه. وبعد دفقات مطر فترة قصيرة سرعان ما تغلغلت داخل أعماق سطح الأرض المتعطشة، ما عادوا يحظون إلا بالرعد والبرق وسحب التراب والعواصف.

في يوم الخميس ١١ ذي الحجة/١٥ سبتمبر ١٨٥٣م زار بيرتون ورفاقه مجرّ الكبش حيث فدى الله إسماعيل بكبش سمين ذبحه إبراهيم الخليل في الكهف المجاور، ومن هنا عرف المكان باسم مجرّ الكبش. وبعد أداء الصلاة – كما فعل إبراهيم – ذهب بيرتون ورفاقه للبحث عن القرود التي تسكن الأرض المرتفعة بين عرفات والطائف. وبعد أن يشرح لنا صفات القرد الحجازي، ويصور لنا شكله، ويحكي عن عاداته، ويورد عدداً من الطرائف المتصلة به يقول: إنه لم يجد أي قرد في المنطقة، فعاد إلى خيمته في منى حتى الليل، إذ حضر حفلة رقص لم تظفر بإعجابه، فقد كان رقصاً حربياً – كما يقول – لم يتبيّن من أغنياته في بداية الأمر شيئاً، ولم يجد من يفسر له كلماتها، ولكنه فهم بعض مقاطعها التي تقول:

نهار العيد في منى شفت سيدي غريب الدار عنكم فارحموني

ورأى في هذا المقطع معنى رمزياً.

في اليوم الثالث للعيد خرج بيرتون من منى إلى مكّة المكرّمة التي ينصح بألا يمكث الحجاج فيها طويلاً بعد أدائهم شعيرة الحجّ – كما يقول –. حضر في مكة خطبة الجمعة وصلاتها التي أمّ الناس فيها شيخ هرم لحيته بيضاء كالثلج، وعمامته مغطاة بطيلسان (راجع الصورة) أبيض مثل سائر لباسه، ويحمل عصا قصيرة في يده اليسرى. وبعد الصلاة قصد بيرتون إلى مسكنه في بيت أم محمد وسمع من عبد الله ابنها الكبير أن الإنجريز Ingreez كانوا قد أرسلوا للرسول – صلى الله عليه وسلم – بعثة تطلب إليه أن يرسل إليهم خالد بن الوليد لهدايتهم إلى الإسلام، إلا أن البعثة وصلت متأخرة بعد وفاة الرسول الكريم، وحكايات عن تقدير المسلمين لهؤلاء الإنجليز بصفتهم أهل كتاب.

أهل مكّة

يقول بيرتون: إن أهل مكّة أكثر تحضراً وأقل تمسكاً بأهداب الأخلاق من سكان المدينة، فقد

أنساهم حب المال ذكر الله، فهم يسيرون على مبدأ "طف واسعَ واعمل السبعة"، وينتقد فكرة الغفران في الإسلام، ويرى أن الفجور لا يعرّض صاحبه للعقاب في مكة، وأن الخمور تباع فيها علناً رغم أن بعض الضباط الألبان قد قالوا له إنهم عانوا صعوبات في تهريب زجاجات العرقي Araki من جدّة إلى مكّة. ويقول: إن سكان مكة، البالغ عددهم نحو خمسة وأربعين ألفاً، أدكن ألواناً من أهل المدينة، ويرد ذلك جزئياً إلى الشمس المحرقة في مكّة، ويرى أن السبب الأساس في ذلك كثرة الجواري اللائي يُجلبن من أفريقيا من بلاد الجالا، والسواحليات والزيلعيات والحبشيات والصوماليات من بنات بربرة، وقال: إن رجال مكّة يحتفلون بهؤلاء الحظيّات السود. ويرى بيرتون أن رجال مكة غير وسيمين، ولكن بعض نسائهم جميلات، ويحدثنا عن المشالي "الشلوخ" التي يمارسها المكيون رغم أن الفقهاء يفتون بحرمتها، وهي عبارة عن ثلاث شرائط غائرة تبدأ عند نهاية زاوية العين، وتصل إلى قريب من الفم، ويدّعون أنها تحفظ أطفالهم من السرقة. ويرد بيرتون هذه الممارسة إلى عهود الوثنية، ويقول: إن بعض أهل مكة يمتازون بصفات الشجاعة وأخلاق الرجال وشيء من خفة الظل، وتجد فيهم ما يمكن أن تسميه الوطنية - كما يقول بيرتون - ولكن المكي مبذّر مسرف جشع، متطلع إلى ما في يد غيره، فهو قد استمرأ - مثل أهل المدينة - البطالة والكسل. ينفق المكيون بسخاء على زوجاتهم وعلى أثاث منازلهم من المعاشات والهدايا والإكراميات والكسب السهل، ومنهم من يستبق ما يمكن أن يكسبه في موسم الحجّ، فيقع في أيدي المرابين المخادعين، وقد يدفع فوائد تصل إلى خمسين في المئة على الأقل، ورغم ذلك يعترف المكي بالخطأ ويعود عنه، ويتقبل المنطق ولا يتمسك بعيوبه إذا استبانت له "كما تفعل الأجناس الأكثر غباءً وبلادة".
وقد لاحظ بيرتون أن محمد وأبناء عمومته كثيراً ما يشتبكون، ويسبّ بعضهم بعضاً، فيردعهم بيرتون بقوله: "في بلدي فإن هذه الساعة (المبكرة من اليوم) ساعة صلاة ودعاء وتدبر"، وأن الكفار أنفسهم لا يبدأون يومهم بالسباب والتنابذ واللعنات. وكان المستمعون يوافقون على ذلك بقولهم: كلامك صحيح يا أفندي. وعلى الرغم من اعتراف المتخاصمين بأنهم أخطأوا، "وأن الله غفور رحيم"، يعترضون على هذا "السليماني غير المكي الذي جاء ليعلم أبناء النبي".
ويلاحظ بيرتون أن العجوز أم محمد التي يسكن في بيتها توجّه لابنها الكبير ألفاظاً غليظة قاسية منها يا ابن... (يعني المنحرفة)، وعلى النحو نفسه نرى الأب في مصر يسب ابنه بقوله: "يا كلب يا ابن الكلب... يا ابن الكافر... يا ابن اليهودي... يا ابن النصراني... إلخ". ولا نستطيع بطبيعة الحال أن نوفّق بين صفتي الإسراف والجشع اللتين وُصم بهما بيرتون المكي، فقد ورد لدى بيرتون ما يجعلنا نقبل الأولى ونرفض نقيضها. فقد أقام له علي بن ياسين الزمزمي - الذي تعرّف إليه في الطريق إلى مكة - وليمة كبرى لم يعدّها بيرتون تكريماً له، بل عدّها محاولة منه لإثبات علوّ شأنه، واتسمت هذه الوليمة بالبذخ، فقد قدم العشاء لعلية القوم

في مكّة ولأبرز الحجاج فيها في أطباق صينية وأطباق نحاسية كبيرة بلغ محيط الواحد منهما حوالى ست أقدام، مزخرفة بنقوش عربية وضعت على مناضد قوائمها من خشب الصندل. بدأت الوليمة بتقديم مطهي السبانخ والبامية والمرق بالخضر، وشملت الجولة الثانية أطباق البرياني الذي هو شرائح اللحم المقلي بالزبد، وكذلك أوراق العنب المحشوة بلحم الضأن، ثم قدم الكباب وهو اللحم المشوي، إضافة إلى المقبلات من الخيار، وشملت الجولة الثالثة البطيخ والكنافة مع السكر وعسل النحل والتفاح والسفرجل والمهلبية المحلاة براحة الحلقوم Rahat al Hulkum المجلوبة من إستانبول، إضافة إلى أطباق من حبوب الرمان والتمر الحلو، وشملت الجولة الرابعة أطباق الأرز بالزبد الذي تناولوه بملاعق خشبية. وفي اعتقادنا أن هذا الإسراف لم يكن إلا كرماً عربياً لم يصادف محله.

يعدد بيرتون الجوانب السلبية في المكيين فيراها في عدم التواضع، وعدم التدين، والشره للكسب، والتفاخر، فهم يرون أنفسهم خلاصة أهل الأرض، ويمتعضون من سماع كلمة تمسّ مكة أو أهلها، وهم يتفاخرون بعدم وجود كفار في أرضهم، ويتباهون بأنهم الأنقى لغة، والأصح صياماً، والأكثر علماً.

يقول بيرتون: إن مدينة مكة، عاصمة الحجاز، تطوّقها الجبال من كل جانب فتمنع عنها الهواء، حتى بدت منازلها القوية المتينة أشبه بالأفران. يمتد طول البلدة إلى ميلين اعتباراً من المبعدة Mabdah (؟) أو النجع الشمالي إلى جياد، أما عرضها فلا يتجاوز في أوسع منطقة فيه ثلاثة أرباع الميل في المنطقة المحصورة بين جبل أبي قبيس في الشرق وكيكان أو كويكان Kaykan، Kuwaykan في الغرب. وتتكدس أغلب البيوت عند سفح جبل أبي قبيس وتلّي الصفا والمروة، ويقع المسجد الحرام في منتصف البلدة تقريباً. وتعسكر فوق جبل أبي قبيس حامية تركية، ولكن يبدو أنها غير قوية، وقد كان لقلعتها سابقاً سور وأبواب ولكنها غير مسوّرة حالياً.

يلاحظ بيرتون أن أرض مكّة وما بجوارها أرض رملية جرداء، تكتنفها جبال صخرية موحشة، وهي غير ذات زرع تأتيها الخضر والفاكهة وكذلك اللحوم من مناطق المرتفعات الشرقية. أما القمح فيستورد عن طريق ميناء جدّة الذي يقع على بعد حوالى خمسة وأربعين ميلاً منها. ويقول بيرتون: إن سوق الليل يعدّ سوق مكة الكبير، كما يحدثنا عن سوق الرقيق الذي يعرض فيه الرقيق في صفوف. وتجلس في الصف الأعلى الجواري الجميلات، بينما يجلس في الصفوف الأدنى الجواري الأقل ملاحة، فالصبية الأرقّاء. ويصف الرقيق بسعادة الحال، "تراهم يداعبون المشترين". وقال: إن أعلى سعر سمعه عن الجارية الوضيئة وصل إلى ستين استرلينياً. ودعا بيرتون الغرب إلى العمل على إلغاء هذه التجارة. أما جوّ مكّة فحار شديد الحرارة، ويندر أن تداخله نسائم البحر لتلطّفه، "لم أقاسِ في حياتي لفحة الحر كما قاسيتها في أسبوعي مكوثي بمكّة".

يعود بيرتون ليذكر أن مساحة مكّة تساوي مساحة المدينة المنوّرة مرتين ونصف المرة تقريباً. وهي بلدة تحمل كافة السمات المميزة للمدينة. فالطرق ضيقة عميقة، والبيوت متماسكة مبنيّة بالطوب وأحجار الغرانيت والأحجار الرملية التي تقطع من الجبال المجاورة، ومتناسقة، ويصل ارتفاع بعضها إلى خمسة طوابق. وهذه الأخيرة أشبه بالقلعة منها بالمساكن. ويلاحظ أن أسقف الأسطح مستوية تستعمل للنوم الجماعي "منامات"، أما داخل المنزل فعادة ما تُكسى الجدران بخيش داكن لطرد الحرارة (؟) وتلطيفها. وتحفل الطوابق بشرفات تطلّ على الشوارع على نمط الشرفات في منازل مدن البرازيل القديمة. وتحيط بهذه الشرفات ما يُسمى في القاهرة "مشربيات" وتُسمى هنا "الشامية".

في مكة العديد من المزارات التي زار بيرتون منها جنّات المعلا، وهي المقبرة التي تضم رفات "الفقهاء"، والمسجد الذي استمع فيه الجن إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، والبيت الذي وُلد فيه وعاش مع زوجته السيدة خديجة – رضي الله عنها – وولدت فيه السيدة فاطمة – رضي الله عنها – والحسن والحسين – رضي الله عنهما –، والمكان الذي نادى فيه الحجر على النبي – صلى الله عليه وسلم – ودعا له (؟). ويقول بيرتون: إن مكان الحجر الذي زاره حيث يروي الناس عن انشقاق القمر إلى نصفين لم يكن معروفاً أيام الرسول، ولم يروِه عنه أحد (!). ومكان حجر آخر في مدخل باب منزل أبي بكر، يقولون إنه حيّا النبي عندما طرق باب أبي بكر، وأخبره بأن صاحب الدار غير موجود (!). كذلك تضم مكة من المزارات أيضاً مولد النبي بالقرب من سوق الليل، وهناك أيضاً مسجد شعْب علي، ومسجد المتكأ Muttaka ومناطق أخرى كثيرة، منها مبنى مولد حمزة عند باب العَمرة، ويشك بعض المكيين – كما يفيد بيرتون – في أن حمزة – رضي الله عنه – قد وُلد في هذا المكان، هذا إضافة إلى البيت العتيق الذي يقول بيرتون: إن أصله مجهول، ويشك في وصول سيدنا إبراهيم إلى مكة، وفي زيارته لها سنوياً، ويرى أن مؤسس مكة التي تسمى بكة أيضاً هو قُصيّ القرشي.

بيرتون يغادر مكّة

كان على بيرتون قبل أن يغادر مكّة أن يردف حجة بعمرة، فخرج من مكّة من باب الصفا إلى منطقة في الشمال الشرقي منها، وتوقف على بعد حوالى نصف ميل عند موقع قال: إن أهل مكّة يعتقدون أنه مكان البئر التي وضع أبو لهب عندها أحد عبيده وأمره بأن يقذف بالحجارة أول شخص يقترب منها. ورجع أبو لهب ليحثّ محمداً – صلى الله عليه وسلم – على الذهاب إلى ذلك الموقع الذي عاد إليه بنفسه بعد ذلك ليتحرّى عن الأمر فلاحقه العبد بوابل من الحجارة. ومن هنا جاء القول المشهور في الإسلام: مَنْ حفر حفرة لأخيه وقع فيها

(؟). ومن جانبنا ربما لا نشك في أن بيرتون سمع من بعض المكيين هذه الرواية، ولكننا نشك في أن أبا لهب كان بليداً إلى هذا الحد الذي صوّرته خرافات أهل مكّة، ونشك في معرفة بيرتون "للأقوال المشهورة في الإسلام" التي أدخل فيها الأمثال السائرة.

عبر بيرتون ورفاقه حدود الحرم حيث العلمان اللذان يحددانها، ونزلوا عن حميرهم في المقهى الواقع في منطقة "العمرة". وأصرّ عبد الله - أخو محمد الذي كان يرافق بيرتون - على أن يؤدي العمرة وكيلاً عن والدي هذا الرحالة، وذلك رغبة منه في أن ينال بعض ريالاته. وتحت إلحاح عبد الله، سمح له بيرتون بأداء العمرة "نيابة عن أبيه يوسف بن أحمد وأمه فاطمة بنت يونس (!)"، فرفع عبد الله يديه ووجهه في اتجاه مكة المكرّمة، وتمتم: "نويت الإحرام بالعمرة ليوسف بن أحمد وفاطمة بنت يونس... اللهم يسّرها لهما وتقبّلها منهما بسم الله... الله أكبر". وبعد التلبية سار الجمع إلى مكة، وسعوا على حميرهم بين الصفا والمروة، وذلك في ذكرى هاجر تقليداً لها "حين كانت تبحث عن طفلها (؟)". رفع بيرتون يديه بعد النية والتهليل والتكبير والتلبية وكرر مرتين: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، لا إله إلا هو وحده الحي الذي لا يموت، وهو على كل شيء قدير"، وبدأوا بالسعي من الصفا في اتجاه المروة. وفي طريق سعيهم نزولاً من الصفا ردّد بيرتون: اللهم يسّر لي أداء العمرة على سنّة نبيك وأمتني على دينه، وباعد بيني وبين الخطيئة والمعصية برحمتك يا أرحم الراحمين. وفي منتصف الطريق بين الصخرتيْن كان بيرتون يستحث حماره على الإسراع ويردد: اللهم اغفر وارحم وتجاوز عما أنت به أعلم فأنت الأعز الأكرم، ونجّنا من عذاب النار، وأدخلنا جنتك بسلام، وهب لنا سعادة في الدنيا والآخرة... وردد وهو يصعد المروة: "إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما". وانتهت أشواط السعي السبعة عند المروة، وأسلم بيرتون رأسه إلى حلاق لقّنه وهو يحلق له الدعاء الآتي: "ربنا هذه نواصينا بين يديك فهب لي مقابل كل شعرة نوراً في الحياة الآخرة يا أرحم الراحمين".

يقول بيرتون: إنه بعد أن أنهى آخر مظاهر الحجّ المتمثلة في طواف الوداع، وتناول ماء زمزم، وتقبيل عتبة باب الحرم، والوقوف عند الملتزم، سانداً صدره إليه بقوّة، ورافعاً يديه متعلقاً بستائر الكعبة المشرفة، مبتهلاً بالدعاء، مصلياً على النبي في هذا الموقف الذي يجب على الحاج أن يبكي فيه إذا أمكن له ذلك، أو يتنهد إذا لم تطاوعه الدموع، خرج من باب الوداع ليلقي نظرة أخيرة قبل أن يولي وجهه حيث يسافر. وهكذا خرج بيرتون من مكة المكرّمة "كالسجين الذي أُخرج من زنزانته" لينطلق في اتجاه جدّة.

في الطريق تعرّض بيرتون لعدّة مشاجرات يدّعي أنها سُوّيت لمصلحته بالتهديد بالكلمات "فالتبجح والتظاهر بالشجاعة يؤتي ثماره في شبه الجزيرة العربية". في الحقيقة فقد ساد سرد

بيرتون تبجّحه بمظاهر القوّة التي رأى بعض مؤرخي الغرب فيها مظهراً من مظاهر الغرور الذي وصموه به، ولكننا نرى فيها مظهراً من مظاهر الطرافة والغرابة التي حرص هذا الرحالة الروائي القاصّ على أن يزين بها روايته. يقول بيرتون في هذا المجال، وهو يحكي عن أيام سكناه في الخان في القاهرة قبل سفره إلى شبه الجزيرة العربية، إنه التقى ضابطاً ألبانياً من القوات غير النظامية، من الذين يثير ذكرهم الرهبة حتى في أوساط بدو الحجاز. تحرّش هذا الضابط به "ففتلت شاربي مبدياً رغبتي في قبول التحدي". وانتهى الأمر بسقوط الضابط على أردافه وكاد رأسه أن يتحطم لولا أنه سقط على فراش. كذلك فرّق بيرتون شجاراً وقع في المركب سلك الذهب بين مجموعتين مسلحتين بالخناجر والهراوات، فتصدى لهم وقلب في وجوههم جرّة ماء تزن حوالى خمسين كيلوغراماً ووضع فوراً حداً للشجار.

قدّم بيرتون وصفاً لجدّة، والتقى في القنصلية البريطانية هناك عدداً من تجارها البارزين، منهم الخواجا سوير اليوناني، وأنطون وهو نصراني من بغداد، كما التقى خالد بك أخا عبد الله بن سعود الوهابي الذي عمل فترة سكرتيراً "مقيد جوابات Mukayyed Al Jawabat" لدى محمد علي بالقاهرة، ووصفه بأنه ودود غير متعصب، محب للأوروبيين، مولع بالمسرّات، وأضاف أنه يمكن الرحالة البريطانيين الوصول إلى الرياض وقلب شبه الجزيرة العربية عن طريقه.

غادر بيرتون جدّة في يوم ٢٢ ذي الحجة ١٢٦٩/٢٦ سبتمبر وهو يستحضر قول الرحالة فا-هيان Fa-hian الذي "ما زالت ذكراه حيّة في الذاكرة الإنسانية رغم تقادم الحقب الزمنية"، وجاء فيه: "كم تعرضت للخطر ونجوت! وكم بحراً قد قطعت من دون أن أستسلم لأنكى أنواع الضنك، وكان قلبي يخفق شكراً وعرفاناً، لأن الظروف قد مكنتني من تحقيق أهداف كنت أتوق لتحقيقها!".

وصل بيرتون مرفأ السويس في ٢٩ ذي الحجة/٣ أكتوبر ١٨٥٣م في طريقه إلى إنجلترا.

عاد بيرتون مرّة أخرى إلى شبه الجزيرة العربية في صفر ١٢٩٤/مارس عام ١٨٧٧ لاستكشاف بعض تخومها الشمالية. وكانت هذه الرحلة الثانية بتمويل من خديوي مصر إسماعيل باشا الذي كان في سعيه للتحديث مغرماً باستعمال موظفين من الغرب، فلم تصب مصر منهم من التحديث إلا قشوره، لأن كل ذلك الحشد من الموظفين الأجانب لم يكونوا إلا عيوناً وأيدي لتلك الدول الاستعمارية التي أوقع إسماعيل مصر في ربقتها استثماراً واستعماراً. أقنع بيرتون إسماعيل بأنه سيعمل لحسابه في تحديد مواقع وجود الذهب وتعدينه في سيناء، وانتهت هذه البعثة بأن عاد بيرتون إلى الباشا بعدّة عيّنات من الحصى والصخور وبعر الإبل المتحجر!

منحت الحكومة البريطانية هذا الرحالة لقب فارس عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م، تقديراً منها

لخدماته للإمبراطورية. وحين هلك هذا الرحالة الذكي المثقف الشجاع الماكر السيّئ الخلق عام ١٨٩٠م، أبت زوجته إيزابل أرندل Arundell التي كان قد تزوجها في رجب ١٢٦٦/يناير ١٨٦١م، والتي كانت مُحبة له مشفقة عليه، أن تنشر مخطوطاته العديدة التي تركها وراءه، فقد عدّتها من الفحش والحضّ على الرذيلة فأحرقتها. فهل يجوز لجماعة المؤرخين والفولكلوريين المسلمين أن يتعاملوا مع ما نشره بيرتون تعامل زوجته مع أعماله غير المنشورة؟ وإجابتنا عن ذلك بالنفي، ولا يعود ذلك إلى أن بيرتون قد صوّر جانباً من ثقافة العرب وتراثهم يمكن أن يفيدنا بعد النقد والتمحيص، ولكن لأن بيرتون كان الرحالة الغربي الوحيد الذي نقل خرافاتنا وسخر منها، ولكنه أثبت أن في الغرب مثلها. وهو أيضاً الرحالة الغربي الوحيد الذي حاول أن يقدم نقداً لبعض ممارساتنا الدينية التي لم يكن مؤهلاً لفهمها، ولكنه كال نقداً مماثلاً لمعتقدات الغرب الدينية التي قد لا يكون على معرفة بها أيضاً. فهو - في ما يبدو - علمانيّ موغل في علمانيته، بشخصيته الساخرة من الإسلام والنصرانية وكافة المعتقدات الدينية. فهو - على سبيل المثال - حين ينتقد المغفرة التي يصيبها الحاج بعد حجّه يساوي بين المسلمين والنصارى الكالفنيين الذين يستغرقون في صلواتهم طيلة يوم الأحد ليعودوا إلى الانغماس في الذنوب اعتباراً من يوم الاثنين، أو كالروم الكاثوليك الذين يسدرون بعيداً في مهاوي الآثام اعتماداً على مبدأ الغفران بالاعتراف. ويعود بيرتون ليقول: إنه بالرغم من ذلك فإن من المسلمين من يعود من الحجّ بقلب سليم، ويكون بداية لصلاحه، وهذه هي الحال أيضاً لدى بعض النصارى حين يعترفون.

لم يستطع بيرتون - رغم شخصيته المتفلتة - أن يفلت تماماً من ممارسة العنصرية والشعور بالفوقية، واعتبار العنصر الغربي عنصراً أرقى وأذكى وأجدر بالحياة من العناصر الشرقية. فالعرب وإن كانوا في نظره أميز من غيرهم، إلا أنهم دون الغربيين عنصراً وليسوا على شاكلتهم. فالتفاضل بين العناصر موروث قديم أرساه الاستشراق وجعله ركيزة أساس يبرر به أخلاقياً حركة المستعمرين الذين انتشروا في العالم بدعوى إعماره ودفعه إلى دروب المعرفة والتقدم والهداية! وعلى الرغم من ذلك، لم يظفر بيرتون بتقدير المستشرقين، لأنه الرحالة الأول الذي نقل صورة متكاملة - وإن كانت مشوّهة، ربما عن غير قصد منه - عن الإسلام وممارساته وأدعيته وبعض فكره للغرب، يضاف إلى ذلك أن النقد الذي قدّمه بيرتون للشخصية الغربية ومقارنة ممارساتها بممارسات الشخصية الشرقية كانا في تقديرهم فحشاً يضاف إلى الفحش الذي ميّز شخصية بيرتون، فأحرقت أوراقه التي لم تلاقِ منهم قبولاً حسناً. فالبدائي والغريب وأحاديث الخرافة تُمتع القارئ الغربي حين تتصل بالشرقي الهمجي الأدنى منه عنصراً وثقافة وعلماً، ولكنه يأنف أن يُذكّر بشيء من ذلك في ثقافته وممارساته، ما جعل بيرتون عندهم غير مقبول.

الفصل الثاني

باجريف في ألف ليلة وليلتين

صيغ أدب الرحلات في جانب منه على ضوء أهدافه المرسومة من قبل حكومات الغرب الاستعمارية ومؤسساته التنصيرية، وذلك للتعامل مع التقارير بالمعرفة الواجبة مع إنسان المناطق المستهدفة. وصيغ في جانب روائي منه أيضاً لمخاطبة الرأي العام المحلي في البلاد الغربية عموماً، لمداعبة الشعور القومي لديها وإقناعها بأن الاستعمار ضرورة إنسانية تقتضي مدّ يد التمدن لتلك الشعوب المتبربرة، لانتشالها وقسرها على السير في دروب التحضر والتقدم. أراد هؤلاء النفر إقناع شعوبهم بأن للاستعمار دوافع أخلاقية تقتضي مساعدة تلك الشعوب والارتفاع بها من وهدة التخلف الحضاري والمادي والأخلاقي الذي جُبلوا عليه. ومع ذلك يبقى للرحالة الغربي – أياً كان – الذي يشدّ الرحال إلى شبه الجزيرة العربية أهدافه الذاتية الخاصة به. فلا يمكن المرء أن ينطلق لاختراق ما يعدّه مجهولاً إلا بدافع ذاتي يتراوح بين حبّ للمغامرة والتطلع إلى تحقيق شهرة في مجالات السياسة أو الأدب والفن، ويُعضد بذلك الهدف المرسوم. ولذلك تتباين درجات الصدق عند الرحالة تبايناً كبيراً، فنجده أكثر صدقاً حين يلتزم بالأهداف الرسمية، وتتدنى درجة الصدق عنده حين يتملّق الرأي العام، فيبالغ في إنكار ثقافة الآخرين والحطّ من شأنهم، وينادي بشحذ همم شعبه المتحضر للأخذ بأيدي هؤلاء المتبربرين. ويتوارى الصدق تماماً حين تطغى الأهداف الذاتية على ما عداها في الرواية، فيرسم الرحالة لنفسه صورة البطل الغربي الذي اجتاز مناطق بدائية المسالك والمناهج والغايات وهو أعزل إلا من مسدسه، وما يميزه من تفوق عقلي وحضاري ورثه من كونه غربياً مغامراً صاحب رسالة أخلاقية يعمل على نشرها في أوساط أولئك الهمج الأوباش.

يُعدّ باجريف من هؤلاء الرحالة الذين طغت أهدافهم الذاتية – بنحو عام – على الأهداف الرسمية والإعلامية، فجاءت أخبار رحلته مليئة بالمبالغات التافهة، وتخلو – إلا قليلاً – من

الحقائق الرصينة. نزل الرجل بلعناته على البدو وتقاليدهم وأخلاقهم، وعاب عليهم جهلهم، ولم يجد فيهم أثراً للنبل المتوحش الذي قال به معظم من سبقه من الرحالة. وصبّ الرجل جامّ غضبه على الإسلام الذي قدّم نقداً لفقهه لا ينمّ إلا عن جهل وتعصب وهوس. وفي المقابل نجده يرفع من قدر نفسه وهو يقضي سنة كاملة في أوساط عرب الجزيرة المتخلفين حضارياً ومادياً - كما يدّعي - ونراه يكذب بلا حياء حين يدّعي أنه تحدّى هذا الشيخ أو ذاك وسخر من هذا الشيخ أو ذاك، ولم يتجرأ أحد منهم على عقابه أو مساءلته. أما روايته للأحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية، في الوقت الذي قام فيه برحلته وروايته للتاريخ كذلك، فهي عبارة عن سلسلة من المغالطات وتراجيديا اللامعقول. قدّم بالجريف هذه المسرحية التي عنوانها: سرد لرحلة سنة إلى نجد، في محاضرة في دار الجمعية الجغرافية الملكية. وجاء تعليق رئيس هذه الجمعية، بعد أن أصابه ما سمع من هذا الرحالة بالدهشة، بأن الحضور قد استمتعوا بسرد قصّة ليلة جديدة تُضاف إلى ألف ليلة وليلة. وعلى الرغم من أن هذه المقولة جاءت تعبيراً منمّقاً عن أن الرجل مدلّس كذّاب، إلا أن ما أدلى به ربما يكون قد أثار من هواجس حكومة الإمبراطورية البريطانية ما جعلها تسمح لمقيمها في الخليج، لويس بيلي، بالدخول إلى شبه الجزيرة العربية والتحري عمّا يجري في نجد، رغم ما في ذلك من خروج طارئ على سياستها الثابتة. وفي اعتقادنا أن بالجريف الذي تسمّى قبل بدء رحلته بالياس، قد كتب الكثير من الروايات التي سمعها من أبو عيسى الذي زعم أنه التقاه في بريدة وارتضى أن يكون دليله إلى الرياض.

وُلد وليام جيفورد بالجريف في عام ١٢٤١هـ/١٨٢٦م في أسرة ذات أصول يهودية عريقة. وكان والده فرانسيس مائير كوهين من العلماء البارزين في المجتمع البريطاني، وقد أسهم بدور كبير في تأسيس دائرة المعارف البريطانية العامة. وكانت مناسبة زواجه من اليزابث تيرنر حدثاً مشهوداً في تاريخ حياة عائلته من بعده، فقد خلع كوهين عن نفسه اسمه اليهودي وتسمّى بالاسم العائلي لأمّ زوجته: بالجريف. وكان زواجاً موفقاً، أثمر أبناءً أصابوا من التعليم ما أهّلهم ليتبوّأوا مواقع مرموقة في مجالات الفكر والثقافة في بريطانيا؛ فابنه الأكبر فرانسيس تيرنر بالجريف كان أستاذاً للشعر في أكسفورد، وهو مؤلف كتاب **الذخيرة الذهبية** الذي أصاب حال صدوره رواجاً كبيراً. أما ابنه الثاني فهو جيفورد الذي عرف كذلك باسم وليام، وهو الرحالة الذي نتتبع آثاره في هذا البحث. وتولت أخته أنجليا رئاسة تحرير الإكونومست، بينما أصبح ريجنالد - ابنه الرابع - كاتباً للتحريرات في مجلس العموم البريطاني. ولربما لا نخطئ حين نسند إلى وليام بالجريف، وهو من هذه الأسرة الشهيرة في مجال الفكر والأدب، تأليف رواية عن رحلة نعتقد أنها وهمية، جاب فيها شبه الجزيرة العربية.

تخرّج وليام جيفورد بالجريف في كلية الثالوث في أكسفورد، وكان من المتحمسين للكنيسة الأنجلوكانية، ولم يكن يهتم كثيراً باليهودية، دين آبائه، ولكنه ورث تلك اللمسة

اليهودية المغروسة في وجدانه التي تأكدت بتوثيق علاقاته ببعض اليهود وبالشرقيين عموماً. التحق وليام بالجيش الهندي في عام ١٨٤٦م وترك بريطانيا إلى الهند في يناير ١٨٤٧، ووصل إلى بومباي في مارس. والتحق في عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م بالفرقة الثامنة مشاة بومباي الوطنية. وسرعان ما زهد بالجريف في الخدمة العسكرية فتركها، ولمّا يقضِ فيها أكثر من عام واحد حيث تحول إلى الكاثوليكية، واستقال من الخدمة العسكرية ليعملَ مع جماعة الآباء اليسوعيين بعد أن زهد في البروتستانتية التي كان عليها، ودخل الكلية اليسوعية في مدراس، وسكن في دير للرهبان اليسوعيين هناك، وانتقل في عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م إلى روما، وانتظم في مدارس اليسوعيين في كلية رومانو متدرباً في سلك الكهنوت، حتى جرى ترسيمه كاهناً في رجب ١٢٧٣/مارس ١٨٥٧. سافر بالجريف إلى لبنان ليستقرّ لفترة في بكفيا من أعمال زحلة التي سبق له أن قضى فيها مدداً متقطعة متدرباً على العمل الميداني. وفي بيروت بدأ جيفورد بالجريف حياته العملية منصّراً في أوساط العرب. وما لبث أن ازداد نشاطه في هذا المجال الذي بدا كأنه نذر نفسه له، فزيدت مسؤولياته وأعباؤه واجتهد في إنشاء المدارس والجمعيات.

أتقن وليام جيفورد بالجريف في بيروت اللغة العربية وتمرّس بفنونها وأجادها، حتى إنه تمكن من صياغة بعض الترانيم والأناشيد النصرانية بهذه اللغة، كما كان يُلقي دروسه بالعربية. وادّعى بالجريف أنه قرأ في هذه الفترة معلّقة عنترة بن شداد العبسي، فحرّكت فيه رغبة جامحة للتدرب على مختلف فنون التنصير ونشر المذهب اليسوعي في أوساط العرب، أهل عنترة. غير أن هناك بعض المؤشرات على أن الرجل لم يكن صادق التوجه في مهماته التنصيرية، فقد أدى دوراً مُؤثراً في الفتنة الطائفية في لبنان عام ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م. وكان لدوره التجسسي على النصارى الأرثوذوكس وعلى الدروز والإسماعيلية أيضاً أثر كبير في تأجيج جذوة تلك الفتنة وإذكاء حدّتها، وكان في تلك الفترة في صيدا، وفرّ بجلده حين تقصّده الدروز هناك. وكان اهتمام نابليون الثالث بتلك الفتنة بالغاً، فقد وجد في استعار نارها وتعالي أوارها فرصة سانحة له لتحقيق أطماع فرنسا في استعمار المنطقة، فانتهز تداعيات تلك الفتنة ليرسل فرقة من جنوده لاحتلالها. و لم تخرج تلك الفرقة من لبنان حين خمدت الفتنة بعد أن عملت الدولة العثمانية على احتوائها واستقرّت الأحوال فيها. وكان هذا مدعاة لأن يُصرح اللورد بالمرستون في سياق التنافس التقليدي بين فرنسا وبريطانيا في استعمار الشرق، بأن لفرنسا أجندة خفيّة تعمل على تنفيذها بجندها الذين أرسلتهم إلى لبنان بحجّة حماية أرواح النصارى وممتلكاتهم، ثم ظلّوا بعد ذلك هناك، و لم يُحدِّث العاهل الفرنسي نفسه بسحبهم. وقد كتب بالجريف بعد تخلّيه عن خدمة الفرنسيين لبالمرستون أنه كان على معرفة تامة بالخطّة الفرنسية وبكافة تفاصيلها، وأنه قد قام شخصياً مع الإمبراطور نابليون الثالث ببلورتها وتطويرها.

قام بالجريف – في فترة المفاوضات بين الدولة العثمانية والقوى الأوروبية حول الأزمة اللبنانية – برحلة إلى أوروبا، وألقى في دوائرها "العلمية" عدّة محاضرات عبّر فيها عن آرائه، وانتهز الفرصة ليطلب إلى رؤسائه من اليسوعيين أن يدعموه للقيام برحلة تنصيرية، ليستكشف إلى أي مدى يمكنهم القيام بالتنصير في شبه الجزيرة العربية وسط العرب "الصرحاء". ووجدت الخطة قبولاً من الدوائر اليسوعية التي لم تكن تمانع في تداخل الدين مع السياسة، إن كان ذلك يخدم لها غرضاً. عرض اليسوعيون خطة بالجريف على الحكومة الفرنسية وسرعان ما تلقّفها الإمبراطور الطموح نابليون الثالث ودعاه إلى لقائه. كان العمل في مشروع حفر قناة السويس الذي هو استثمار فرنسي بامتياز قد بدأ قبل سنة من هذا التاريخ، وكان الإمبراطور يتطلع إلى الحصول على معلومات عن المناطق المتاخمة للحدود المصرية السورية، لما في ذلك من أهمية بالغة في العمل على الحفاظ على أمن القناة. وكان التوجس من الحملات العسكرية التي تخرج من شبه الجزيرة العربية وتبلغ هذه المنطقة حاضراً. فقبل ما لا يزيد على نصف قرن إلا قليلاً، خرجت من قلب شبه الجزيرة حملة وهابية وصلت إلى تخوم دمشق، وهددت الأمن في كل تلك المناطق. وعلى الرغم من أن الحملة العثمانية على نجد (١٨١٤–١٨١٨م) أنهت تلك الدولة، إلا أن القلق أخذ يساور ساسة أوروبا من جديد حين بدأت الدولة الوهابية تستعيد أنفاسها مرّة أخرى مع الإمام فيصل بن تركي الذي تمكن في هذه الفترة من إعادة بعث الدولة الوهابية مرّة ثانية. كذلك كان أولئك الساسة المتابعون للشأن العربي يعرفون عن قيام إمارة في شمّر لآل رشيد أضحت لها قوّة شبه مستقلة، يمكن التعامل معها لموازنة القوّة المركزية في الرياض. كان الإمبراطور الفرنسي يبحث عن وسيلة تُمكّنه من استجلاء حقائق الأمور في تلك المناطق، ووجد ضالّته في الأب بالجريف. أبلغ نابليون – على ما يبدو – الأب بالجريف خطّته الرامية إلى العمل على استحداث مستعمرة في الشرق العربي تكون صنْواً لمستعمرة الجزائر الفرنسية في المغرب العربي التي كان هذا العاهل الفرنسي يهتم بها وبإدارتها كثيراً، وقد بلغ من اهتمامه بها أنه زارها مرتين في فترة حكمه. وقضت هذه الخطّة التي تسربت بعض أخبارها بالعمل على ضمّ أراضٍ عربية في منطقة شرق السويس إلى حاكم مصر، الذي يمكن أن يُحرَّض بعدئذ على نزع السِّيادة العثمانية عنه ليصبح حاكماً تحت السيادة الفرنسية. وتلقى بالجريف عشرة الآف فرنك من نابليون الثالث لتمويل هذه الرحلة، أضاف إليها اليسوعيون مبلغاً آخر. وسافر بالجريف إلى روما للحصول على مباركة البابا، و لم يجد في الفاتيكان تلك الحماسة للمشروع، ولكنه تغلب على التردد في تلك الدائرة الكنسية، ما هيّأ له فرصة الجلوس مع البابا بيوس التاسع، حيث تلقّى منه المباركة المعتادة والطقوس التي تُكلّل بها البعثات التي تخرج لتنصير الوثنيين.

غادر بالجريف روما في طريقه بحراً إلى الإسكندرية في يونيو ١٨٦١، والتقى في القاهرة

حليم باشا لتنفيذ الشطر الأول من المهمة السرية المكلف بها من قبل الإمبراطور نابليون الثالث. اقترح على حليم أن يقود مصر لتدخل في دائرة الحكم الفرنسي، على أن تقوم الدولة الفرنسية بحمايته وتعيينه نائباً عنها في حكم البلاد. و لم تثمر هذه المؤامرة عن شيء ذي بال، فغادر بالجريف القاهرة إلى بيروت وأخذ يعمل على تنفيذ الشقّ الثاني من المهمة ويعدّ نفسه للرحلة إلى شبه الجزيرة العربية. عمل بالجريف على التدرب على مشاقّ الرحلة، فقام بعدد من الرحلات في بادية المناطق الشمالية الشرقية من سوريا، أوصلته إلى تخوم ما بين النهرين. و لم يرق ذلك اليسوعيين الذين ما كانوا يوافقون على قيام مبعوث فرد بمهمات تخصّهم من دون أن يكون معه مرافق من الطائفة نفسها، فعنّفوه على سلوكه. واختارت هذه المؤسسة لبالجريف مرافقاً لرحلته إلى شبه الجزيرة العربية هو الأب إلياس من الكَهَنَة المدربين الذين كانوا قد تلقّوا علومهم في المؤسسات التنصيرية في إيطاليا وفرنسا. وحين اعتذر ذلك الكاهن بسبب مرضه عن القيام بالرحلة التي لم تكن تروقه – في ما يبدو – لم ينتظر بالجريف ترشيحاً آخر، بل اختار بنفسه مرافقه. فقد وقع اختياره على شاب يوناني من ذوي الملامح العربية اسمه جريجوري، كان يعمل مديراً لمدرسة في مدينة زحلة، وأوصى بالجريف البطريق بترسيم هذا الرجل وتسميته للقيام بهذه المهمة. وظل بالجريف قابعاً في زحلة حتى صدر أمر البطريق في شعبان ١٢٧٨/فبراير ١٨٦٢ بترسيم الرجل.

قضى بالجريف هذه الفترة في لبنان وهو ينظر في أمثل السبل لتحقيق خطّته. ويبدو أن اتصاله في هذا الوقت بطلال بن رشيد – شيخ شمّر – قد جاء في هذا السياق. ومن الثابت لدينا أن ذلك الاتصال لم يكن ضمن الأنشطة التنصيرية التي كان بالجريف مرتبطاً بمؤسستها اليسوعية حتى وقت سفره إلى شبه الجزيرة العربية. ويمكن أن نشير في هذا الصدد أيضاً إلى أن تطلعات نابليون الثالث لاستعمار هذه المنطقة – التي بات استعمارها شأناً حيوياً للاستراتيجية الفرنسية مع تقدم العمل في حفر قناة السويس – ما كان لها أن تحظى بالنجاح، فقد وُئِدت الخطط الفرنسية الاستعمارية حين رجحت كفّة العسكرية الألمانية في موازين القوى في أوروبا، و لم يعد لفرنسا ما يؤهلها للقيام بمغامرات استعمارية جديدة.

وصل بالجريف إلى معان، بعد أن اتخذ لنفسه اسم سليم أبي محمود الياس. وكان الرجل في الشام قبل ذلك قد وضع عنه اسم بالجريف الذي دخل فيه أبوه، واختار العودة إلى اسم عائلته قبل دخول والده النصرانية، وعرف هناك باسم ميشيل كوهين، وكان – أحياناً، وبحسب الظروف – يسمّي نفسه في الشام ميشيل سهيل، كما ادّعى مع بداية هذه الرحلة أنه طبيب وتاجر أيضاً. أما جريجوري فقد أطلق على نفسه اسم بركات الشامي، وعرّف نفسه خلال الرحلة بأنه كان صهراً لسليم أبي محمود إلياس، كما عرّف نفسه في مراحل أخرى من الرحلة بأنه مساعده الطبي. ويقول بالجريف إن جريجوري رافقه في رحلاته عبر الجزيرة العربية

حتى الهفوف، و لم يواصل الرحلة معه إلى البحرين وقطر وعمان بعدئذ، فودّعه في ٣ شعبان ١٢٧٩/٢٣ يناير ١٨٦٣ وعاد إلى بلاده حيث أصبح كاهناً ثم رُقّي إلى رتبة البطريق. أما بالجريف – حسبما جاء عنده – فقد زار بعدئذ مناطق البحرين وقطر والساحل العماني، ثم اتجه إلى عمان. وغرق المركب الذي يقلّه عند السيب، ونجا جميع من كان في المركب. ويدّعي بالجريف أن بعض مذكراته قد فُقدت في هذا الحادث، ويدّعي أيضاً أنه زار مسقط بعد ذلك ثم غادرها في ٢٣ مارس بمركب كويتي إلى بوشهر التي قضى فيها فترة استقلّ بعدها سفينة البريد الهندية إلى البصرة، وسافر من هناك إلى بغداد فحلب، ثم أخذ طريقه إلى أوروبا. وفي ٥ مارس ١٨٦٤ اعتزل بالجريف في دير لليسوعيين في ألمانيا لينهي كتابة مذكراته، وحين فرغ منها تبيّن له أن اليسوعيين كانوا زاهدين في مخططاته التي يبدو أنه اجترحها من الخيال فاتهموه بالكذب. ولما كان بالجريف لا يعرف إلا الولاء لنفسه فقط، أعلن انشقاقه عن كنيسة روما وتخليه عن خدمة اليسوعيين، ثم ما لبث أن تخلى أيضاً عن خدمة نابليون الثالث أيضاً، ليعمل في خدمة الألمان الذين عيّنوه قنصلاً لهم في الموصل، ولكنه بدلاً من أن يذهب إلى العراق يمّم في يونيو ١٨٦٥ وجهه تجاه بريطانيا. و لم تمضِ إلا أسابيع قليلة بعد وصوله إلى هناك حتى كلّفت الحكومة البريطانية هذا الرجل – الذي كان دائم التقلب لا يكترث لتغيير الوظائف والأسماء والمبادئ، يُغيّرها أكثر مما يُغيّر سراويله – بمهمة في الحبشة ليفاوض في إطلاق سراح بعض أسراهم. ويبدو أنه فشل في مهمته التي أسندت إلى آخر اضطلع بها وأفلح فيما لم يفلح فيه بالجريف الذي قضى في الحبشة عاماً كاملاً. غير أن تلك الرحلة مثّلت بداية لتعاونه مع الحكومة البريطانية التي ألحقته بوزارة خارجيتها اعتباراً من عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٦م. وتقلّب وليام بالجريف في المناصب المختلفة للبعثات الدبلوماسية البريطانية في الدولة العثمانية وجزر الهند الشرقية والفيليبين، وعمل في بانكوك، ثم نقل إلى مونت فيديو في الأورغواي وزيراً مفوضاً لبريطانيا، ووافاه أجله هناك في المحرم ١٣٠٦/سبتمبر ١٨٨٨م، ونُقل جثمانه إلى لندن ودُفن في منطقة فولهام. وهكذا انتهت حياة جاسوس جعل همّه تحقيق أهدافه الخاصة من خلال خدمة الأهداف الاستعمارية أولاً للفرنسيين، و لم يتورّع بعدئذ عن الالتحاق بخدمة أعدائهم الألمان قبل أن ينتقل إلى خدمة أهداف الإمبراطورية البريطانية.

هدف رحلة بالجريف إلى شبه الجزيرة العربية

يقول هذا الرحالة في كتابه ذي الجزءين المسمّى: **مذكرات رحلة سنة في وسط شبه الجزيرة العربية وشرقها** الصادر في لندن عام ١٢٨١هـ/١٨٦٥م عن أهداف رحلته ما يأتي:

> ربما يرغب القراء في معرفة السبب الذي دفعني إلى زيارة شبه الجزيرة العربية، والظروف التي أحاطت بالرحلة موضوع هذا الكتاب. لقد كان يحدوني الأمل أن أقدم شيئاً يعود بالنفع العام لهذه الأقاليم المترامية الأطراف. وراحت تدفعني رغبة جياشة في أن أتمكن من ربط حياة الشرق الآسنة بتيار التقدم الأوروبي المتسارع... (!).

بعد أن يُقدم هذا الهدف الذي يراه خيِّراً ونبيلاً، يضع سببين إضافيين من المحفّزات الشخصية - كما يقول - التي دفعته إلى القيام بهذه الرحلة: رغبة دفينة في داخله لاستكشاف المجهول، وشغفه بارتياد غياهبه. وعلى القارئ أن يدرك أنه إنجليزي "والإنجليزي نادراً ما يعوز شخصيته حب المغامرة والتطلع لاستكشاف المجهول(!)". بهذه النظرة الاستعلائية التي هدهد بها مشاعر مواطنيه الإنجليز، راح بالجريف يعمل لتحقيق أهداف أعدائهم الفرنسيين. ولتبرئة نفسه من هذا الوزر القومي، أشار بالجريف في فقرة أخرى من مقدمته إلى ذريعة التنصير إذ قال: إنه كان يعمل في هذه الفترة لحساب "اليسوعيين الذين عُرفت عنهم جرأة الإقدام على الأعمال الخيرية، كما تثبت حولياتهم... وإن إمبراطور فرنسا قد تولى تمويل هذه الرحلة بسخاء يُشكر عليه". ورغم هذه الإيماءة الواضحة التي أشارت إلى أنه قصد شبه الجزيرة العربية - إن كان قد قصدها فعلاً - لتحقيق أهداف تنصيرية في حايل وغيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية، إلا أن الإمعان في مسيرة هذه الرحلة يكشف أنه كان يسعى لتحقيق أهداف نابليون الثالث في الاستعمار، وأن ارتباط طائفة اليسوعيين بهذه المهمة لم يكن يتجاوز الحدود التي التقت فيها مصالح اليسوعيين في الشرق بالمخططات الفرنسية لاستعماره.

في البداوة تتبدّى الطبيعة البشرية في أسوأ مظاهرها

تحرك ركب بالجريف من معان في مساء يوم الاثنين ١٨ ذي الحجة ١٢٧٨/١٦ يونيو ١٨٦٢م: "وعندما أرخى الليل سدوله كنّا خارج أسوار معان الشرقية. وراح مرشدونا من العرب والمرافقون لنا يملأون القِرَب - الأوعية الجلدية - من نبع ناضح على مقربة من أسوار المدينة، ثم انهمكوا في إصلاح أَقْتاب الإبل التي وضعوا أحمالهم عليها استعداداً لهذه الرحلة الطويلة التي أخذوا يستعدون للقيام بها. وكانت النجوم الأسطع نوراً قد برزت متلألئة في زرقة تلك السماء الداكنة الخالية من السحب، بينما راح الهلال الذي ارتفع عالياً في اتجاه الغرب يضيء، كما هو شأنه دائماً، في سماوات هذه المناطق، وكأني به يعدنا بأن يعيننا على دربنا ساعات ينير لنا فيها سبيلنا... وسرعان ما اعتلينا أكوار دوابنا السرابية (الشكل؟) ذات الأعناق الطويلة

الممتدة، وأصبحنا ومرافقونا – إذا جاز لي أن أستعير تعبير أحد الشعراء العرب – على أعالي شراع قد تهيّأ للإبحار. ويمّمنا وجوهنا صوب الشرق... وطفقنا في طريقنا إلى الجوف، وهي أقرب المناطق المأهولة إلى وسط شبه الجزيرة العربية، والتي يمكن وصفها بأنها المحطة الأقصى التي تقود إلى تلك المناطق.

كان بالجريف قاصّاً ذا خيال خصب كما يبدو من كتابه عن شبه الجزيرة العربية. و لم تكن الأعمال الإبداعية في الأدب وتفعيل الخيال الجامح وحبكة الرواية إلا بعض مواهبه. نشر بالجريف في عام ١٨٧٢م رواية بعنوان: **هرمان آغا** شوّه فيها صورة البدوي، وسخر من الذين يرون فيه نبلاً، فهو مجرد فرع ساقط من شجرة "العروبة العظيمة"، لا يهتم إلا بترداد الشتائم وصبّ اللعنات، وهو – في أحسن حالاته – يقدم اللحم لمضيفه "نصف نيء".

يرى بالجريف في البدو مخلوقات هوى بها الترحال وما يلازمه من نقائص وجرائم إلى حضيض الفساد والانحطاط، ويضيف أن ابن رشيد يحكم البدو بمقرعته، فالطريقة المثلى لحكم شبه الجزيرة العربية تتمثل في إلزام البدوي بالقيام بالدور الوحيد الذي يلائمه، وهو رعي الماشية. ويشير هذا الرحالة إلى التناسب العكسي بين ازدهار البدو والحياة الحضرية، ويرى وجوب أن يُحرم البدو من كل المقوّمات لكي تزدهر المدينة. ويصل بالجريف إلى ذروة حنقه على البدو والبادية، مادة شبه الجزيرة العربية ومستودع تراثها وثقافتها، حين ينعت "هذه العشائر المنحطة التي تعيث فساداً في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها... إنهم ليسوا سوى كلاب!". ويدّعي بالجريف أن مرافقه قال له: إن الكلاب أفضل منا! وَ"أنا أكبر فيه قول الحقّ". ويمضي بالجريف ليطعن البدوي في عرضه حيث يقول "إن القاعدة في العلاقات الزوجية بين البدو أساسها العلاقات غير الشرعية التي هي عندهم أكثر تواتراً من التعدد! فهم زُناة لا يتقيدون بما تبيحه الشريعة الإسلامية من قوانين تحكم الحياة الزوجية، ولن تجد طفلاً في البادية – مهما بلغ من الذكاء – يعرف من هو أبوه". ويضيف أن البدو غير مسلمين، ولكنهم يتظاهرون بالإسلام لأنهم يعيشون في وسط إسلامي، فتراهم يمارسون بعض شعائر الإسلام تماماً مثلما كان يفعل الغجر في أوروبا النصرانية حين يمارسون بعض مظاهر هذا الدين. ويتهم بالجريف البدو بعبادة الشمس والشيطان والجنّ وغير ذلك، فما يعرفونه من الدين الإسلامي لا يزيد على ما يمكن أن يعرفه أي فلاح في الريف الإنجليزي، وربما زادوا عليه أنهم يعرفون من الحجّ نهب الحجيج. ويهزأ هذا الكاذب من كرم البدو الذي لا ينكره ولكنه يراه نابعاً من عدم اكتراث همجي وطيش طفولي أكثر منه وازعاً أخلاقياً حقيقياً، فهو ليس جبلّة فيهم ولا أصل في أخلاقهم. فالبدوي كالطفل الغرير، يمدّ يده ليلتقط ما يصادفه ويلتقمه من دون أن يتحرّى عن كنهه، وبالقدر نفسه يُفرط الطفل بما في يده من دون أن يتحرّى عن قيمته. وجد بالجريف كرم ضيافة من بعض بدو وادي السرحان، و لم يشكر في روايته للقوم صنيعهم، بل

كتب أنه كان في تلك المناسبة يفكر في مقولة لأحدهم دخل مدينة سورية اشتهر أهلها بالغباء، فقال إن العاقل في هذه المدينة شأنه شأن من رُبط في إسطبل مع قطيع من البغال، ولكن ضيف بدو الصحراء المفتوحة التي لا تتمتع بحاجز الإسطبل فشأنه – كما يقول بالجريف – كشأن من وُضع في حقل ترعاه بغال سائبة ترفس بأرجلها كما يحلو لها.

"هنا في البادية تتبدّى طبيعة البشر في أسوأ مظاهرها. فجهل البدوي المطلق أخرجه عن حدود الأدب. ترى بعضهم في هذا المجلس وقد تمدّد على الرمل، وآخر منهم يرسم عليه بعصاه خطوطاً لا معنى لها، وآخر يريد أن يُجامل فيحكي نكات بذيئة، وصبية يتدافعون هنا وهناك، غير مكترثين بالكبار يقطعون عليهم حديثهم ولا يجدون من يوجههم. أما ميل البدوي إلى عدم قتل الذين يشنّون الإغارة عليه، فيرجعه إلى أن البدو في غزواتهم يبحثون عن الغنيمة فقط، ولا يحركهم شعور بالطموح النبيل الذي يستوجب قتل الأعداء أو الثبات في حربهم حتى يهلكوا تحت ضرباتهم... لا يمكن اعتبار البدو أكثر إنسانية مقارنة بالشعوب المتمدنة، فهم يفتقرون إلى المشاعر الوطنية التي كانت السبب في أكثر الحروب دموية في أوروبا وآسيا... فالبدوي يكره سفك الدماء، ولكن ذلك ليس ميزة تُحسب له، فهو لا يثبت عند اللقاء لأنه لا يقاتل دفاعاً عن وطن، فهو لا وطن له، ولا عن دين فهو يفتقر إلى ذلك، ولا ذابّاً عن شرف، بل يقاتل طمعاً في احتلال قطعة أرض ليستغلّ مياه آبارها المالحة لفترة غير طويلة، أو ليستولي على حصان أو بعير".

ويضيف أن همّ البدوي يقتصر على رعي الإبل في تلك البوادي الشاسعة، فهو لا يعرف قانوناً يحكمه ولا وازعاً دينياً يردّه عن الموبقات، يعيش العوز المقيم ويقتات الحرمان، ويعوزه الأمن المقيم. ويستثني بالجريف من موبقات البدو قبيلة الصليب البدوية التي يرجعها إلى "أصل نصراني سوري"، كما تدلّ على ذلك شقرتهم البارزة وألوان عيونهم غير الغامقة والجمال الذي يُميز بعضهم، كما أنهم لا يشاركون القبائل الأخرى في حروبهم ونزاعاتهم، ولا يرتبطون بهم زواجاً ولا مصاهرة. و"تعتبر كراهية هذه القبيلة لدين محمد كراهية مفرطة من السمات البارزة التي لا تجعل نصرانية هذه القبيلة مكان شكّ". ويرى بالجريف أن عدم التزام الصليب بالتعاليم الإسلامية بنحو علني يجمعهم مع عامة البدو، ويضيف أن عامة العرب يعزون للصليب معرفة أكبر بفنون الطب من غيرهم، وذلك لأن المسلمين يعتقدون أن النصارى هم أصل الطبابة. وينقل بالجريف ما اشتهرت به هذه الجماعة من عمليات طبية صعبة، مثل استخراج الحصى وغير ذلك. ويضيف أن نشاطهم الوحيد يتركز في صيد النعام والغزلان، فهم صيادون مهرة.

إن منطق بالجريف المنطلق من كراهية عميقة للمبادئ السامية التي تسود في البادية العربية من كرم وسماحة وعدم ميل طبيعي إلى سفك الدماء وتفسيرها على غير وجهها، يدلّ على

همجية لا تتناسب وأي هدف إنساني يمكن أن يسعى إليه "رجل متحضر" - كما يُسمّي نفسه - جاء إلى المنطقة لتحقيق غايات دينية أو سياسية أو غير هذه وتلك من الغايات النبيلة التي يدّعيها لنفسه. ويمتدّ حنق بالجريف على البدو والبادية ليلفّ الإبل أيضاً، فالجمل عند بالجريف حيوان همجي غير قابل للتأقلم مع الإنسان، فهو حيوان لا يمكن تدجينه أبداً، ولا تراه يخضع للإنسان إلا عن بلادة متأصلة فيه، ولا يخالجه سوى شعور فريد هو حب الانتقام. هو حيوان متوحش غبيّ حقود لا يتفاعل مع راكبه، و لم يكن خضوعه لبني الإنسان لأنه مستأنس أليف، ولكن لبلادة متأصلة فيه. ويذهب بالجريف ليحكي قصة قال إنه عرف أحداثها حين كان في بعلبك، عن جمل مُحمّل بالحطب كان يقوده صبي يافع من قريته إلى قرية أخرى. أخذ الفتى يضرب الجمل على نحو متكرر ليستحثّه. وبينما كان الصبي عائداً إلى قريته بعد عدّة أيام، وجد الجمل فرصته للانتقام، فاندفع نحو الصبي وأطبق بفمه الضخم على رأسه ورفعه عالياً في الهواء ثم ألقى به أرضاً، فهوى الفتى وقد انفصل جسده عن رأسه الذي تطاير أشلاءً ممزقة. ومضى الجمل غير عابئ في طريقه إلى القرية وكأن شيئا لم يكن. ويضيف بالجريف أن هناك وجه شبه بارز بين سلوك البدوي وسلوك هذا الحيوان، فكلاهما حقود، ويعزو ذلك إلى ما قال به "بعض الفلاسفة" من أن الإنسان يتأثر بنوع الغذاء الذي يتناوله، وبناءً على ذلك يرى أن غريزة حب الانتقام في العرب ناجمة عن أنهم يعتمدون في غذائهم على لحم الإبل وحليب النوق!

الجوف

أبرز بالجريف عمق المعاناة التي يدّعي أنه وجدها في طريقه من معان إلى الجوف عبر أرض "الموت والوحشة" التي يلفّها السراب يليه سراب، ولن تجد في تلك الأرض ولا في الرفاق البدو شيئاً يبهج النظر أو يسرّ الخاطر، جفاف يتلوه جفاف، عكس صورته حتى على الحياة الحيوانية والنباتية من السحالي اليابسة والجرابيع الضيئلة الجسم وعشب الحنظل الصحراوي المرّ السام. يضيف الرحالة أنه افترش الرمل والحصى لنوم غير عميق ولا متواصل، خوفاً من أن يؤدي الاستغراق فيه إلى أن تجفّ قرب الماء فيهلكون عطشاً، أما إذا ركبوا في جنح الليل المدلهم فيلفّهم الخوف من طارق يطرقهم من البدو النهّابين فيودي بهم وما ملكوا، وخاصة أن رفاقه من البدو كانوا بدورهم من السّرّاق والقتلة الذين لا يُؤمن لهم جانب. ويضيف من دون أن يذكر دليلاً، أن البدوي غير مؤتمن على رفيق سفره، وأن خيانتهم للرحالة متواترة، فهم كثيراً ما يقودونهم ليلاقوا في الفلوات ومسالك البيد المجهولة حتوفهم جوعاً وعطشاً، ويضرب مثلاً قافلة من اليهود كانت في طريقها إلى ما بين النهرين غدر بها مرافقوها - كما يدّعي - فهلك

أفرادها واستولى المرافقون على أمتعة تلك المجموعة، ورجع أحد البدو المرافقين من سلب "خيانته" بكتاب لا يدري شيئاً مما فيه، يُمنّي نفسه بربح كبير من ورائه، فالكتاب "من وجهة النظر الشرقية، يصبح ذا قيمة كبيرة طالما أنه غير مفهوم".

يستطرد هذا الرحالة في سرد معاناته في الطريق، فيذكر أن رياح السموم قد ضربت ركبهم حتى خُيّل إليه أن الأرض قد انشقت عن جهنم من تحتهم أو هبطت عليهم بسعيرها من السماء. ليس لهم في رحلتهم من زاد إلا بعض حفنات من دقيق، يعجنها ويلتّها أحد مرافقيه من البدو بيدين قذرتين حتى تصبح فطيرة يُلقي بها في نار وقودها من بعر الإبل والحشائش الجافة وجذور نبات الحنظل، يُغطي الفطيرة بالرماد ثم ما يلبث أن يقلبها على وجهها الآخر ويهيل عليها شيئاً من الرماد أيضاً. ويرفع البدوي ذلك القرص من النار نصف نيء ونصف محروق، فيهرعون إلى التهامه قبل أن يبرد ويصبح كالجلد يستعصي على المضغ وتعافه الشهية، وتنتهي المأدبة بجرعات من الماء الآسن. ويقول بالجريف إنه استبشر بالوصول إلى الجوف، وتمثّل ببيت من الشعر لشاعر جزائري جاء فيه أن المرء لا يدخل إلى الجنّة إلا بعد أن يجتاز الصراط.

يكتب بالجريف عن الجوف وسكانها وبساتينها التي تنتج تمراً تفوق جودته تمور مصر وأفريقيا ووادي دجلة، ولكنها لا تضارع تمور الأحساء جودة. ويرى أن التمر مادة الحياة التي تهبها الأرض للعرب، وهو غذاء حلو المذاق، ولكن الإكثار منه يورث المرض ويسبب القرحة، أو – على أحسن الفروض – يؤدي إلى التهاب الغشاء المخاطي للمعدة. أما عن سكان الجوف فيقول إنهم أبناء الطائي، ويرى أنهم قد ارتدّوا بعد إسلامهم وعبدوا الجنّ حتى ردّتهم إلى الإسلام سيوف الوهابيين مرّة أخرى. ويدّعي بالجريف أن أمّة العرب بطبعها أمّة غير متدينة، فلو عُهد الدين الإسلامي لهم من دون الفرس والمغول والترك وغيرهم من الأمم، ولولا المساعدات التي يلقاها هذا الدين من بعض الدول الأوروبية أحياناً، لتقلّصت كثيراً أعداد من يقرأون القرآن ويصومون رمضان. ويضيف أن العرب لا يبغضون النصارى، وأن ظهور النصراني في أي منطقة في شبه الجزيرة العربية خارج حدود الحرم لا تترتب عليه أي مخاطر، ولن يسأل العربي ضيفه عن عقيدته، فالفقهاء العرب يسودهم الرأي القائل إن الدين لله. ومع ذلك يوصي بالجريف من يأتي بعده من الرحالة بأن يجيب إذا سُئل عن دينه: كلّ على شاكلته، وسيلقى الاستحسان. ويرى أن القليل من العرب هم الذين يعرفون معنى النصرانية، فبعضهم يعتقد أنها طائفة إسلامية، وبعضهم يرى النصارى إخواناً للمسلمين، فيما يعدّهم آخرون كفاراً مارقين. ويضيف بالجريف أن كل أهل الجوف عرفوا أنه ورفيقه بركات نصرانيان، و لم يكن لذلك أثر سلبي عليهما، و لم ينقص من الكرم الحاتمي الذي لقياه من أهل الجوف، فقد انهالت عليهم الدعوات من كل من عرفهما. فإضافة إلى القهوة المعتادة والتمور التي تُغمس في الدهن وما إلى ذلك من الوجبات السريعة، كانت هناك الكثير من الدعوات الموجهة إليهما

لتناول طعام العشاء الذي يحين وقته في الجوف قبل مغيب الشمس. وعادة ما تتكون مادة العشاء من الجريش، وهو عبارة عن مسلوق جريش القمح يضاف إليه الزبد واللحم أحياناً وشيء من صنوف الخضر، وربما زيد عليه البيض المسلوق في بعض الأحيان، تُكوّم هذه المادة في طبق كبير من النحاس الأحمر تتجمع حوله الجماعة ويلتهمونه حارّاً. ويعيب بالجريف على العرب جهلهم بفنون الطهي، كما أنهم لا يتناولون مع الطعام شيئاً سوى الماء، رغم أنهم لهم من تمورهم ما يمكنهم من صناعة النبيذ. ويضيف بالجريف في فصل آخر من كتابه أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم حرّم النبيذ لأنه يكره النصارى، فأحدث ذلك ليزيد في عمق الهوّة بين الفريقين، فالنبيذ له في النصرانية مغزى كبير يصل إلى حدّ الخوارق. ويستطرد فيقول إن النبي قد حرّم سماع الموسيقى لارتباط الأجراس بالكنائس، كما حرّم الصلاة ساعة شروق الشمس ومغيبها لأن ذلك هو الوقت الذي يؤدي النصارى فيه عباداتهم في العادة، وكان كل ذلك منه من أجل ذلك الهدف في زيادة التباعد بين المسلمين والنصارى! ومن دون النظر في صحّة هذه الأقوال البالجريفية من الناحية الفقهية والشرعية، نؤكد من ناحية تاريخية عدم وجود عداء أو تصادم بين القوى الإسلامية والقوى النصرانية طيلة فترة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل يحفظ التاريخ لطائفة من النصارى أنهم قاتلوا معه في بعض حروبه قومه من مشركي قريش، كما يشهد لهم أيضاً بأنهم آووا المسلمين وانتصروا لهم، وأنهم الأقرب مودّة للمسلمين من كافة أهل الأديان الأخرى، وأن إحدى أمهات المسلمين كانت قبل ذلك قبطية.

حائل

اجتاز ركب بالجريف النفود في طريقه إلى حائل. كانت النفود في نظر بالجريف فرناً من الرمل تشع حرارته عليهم من الأسافل، فيما كانت أشعة الشمس تضربهم بوهجها وأشعتها الحارقة من الأعالي، حتى يكاد المرء أن يشمّ رائحة الحريق التي تتسرب نفّاذة من ملابسهم وأمتعتهم وهم يجتازون ذلك المحيط الشاسع من الرمل الممتد على مرمى البصر الذي يميل لونه إلى الاحمرار، تلك الرمال السائبة المكوّمة على شكل سلاسل هائلة ذات جوانب منحدرة وقمم مستديرة، المتتابعة بعضها في إثر بعض، والتي تنتظم في محاور تجري في اتجاه شمالي جنوبي. أما رفاق هذا الرحالة من البدو فقد قال في شأنهم إن "الهمجية البادية في مظهرهم لا تضاهيها إلا الهمجية الكامنة في أخلاقهم، أما تفكيرهم فقد كان ضحلاً ضحالة جذور النبات الذي ينمو فوق هذه الأرض". وقال إنه رفض من هؤلاء الرفاق الألفة "الوقحة" التي أبدوها تجاهه، فمن عادة البدوي حين يُبطن الخيانة وينوي الغدر أن يلاطف الضحية، فإذا أنس منها شيئاً من الخوف يمضي في سلبه قدماً. ويرى بالجريف أن على المرء أن يبدو أمامهم

متجهماً صامتاً إلا من ألفاظ تدلّ على التأنيب بين الحين والآخر حتى يرعوي "ذلك الهمجي" ويخاف ويتراجع مثل الكلب حين يتجاهل المرء نباحه.

في حائل التقى بالجريف حاكمها طلال بن رشيد، ووصفه بأنه في حوالى الأربعين من عمره، له شعر طويل، قصير القامة عريض المنكبين، أسمر ينمّ وجهه عن الصرامة، عيناه ثاقبتان ونظراته في تقلب مثير لا يهدأ أبداً، "لم أرَ في حياتي عين نسر من هذا القبيل في سرعتها ومضائها". وأعجب بالجريف بطلال، وصرّح بذلك حين كتب أنه لم يعرف في حياته حاكماً أحسن فنون الحكم بين جميع الحكام والملوك الأوروبيين منهم والآسيويين مثل طلال بن عبد الله بن رشيد. فهو لمّاح ذكي، حلو المعشر مع عامة شعبه، متواضع لا يبدي تعالياً إلا مع الطبقة الأرستقراطية، شديد في شؤون الإدارة والحكم، شجاع ماهر في فنون الحرب، غير ميّال إلى سفك الدماء، كتوم ولكنه يرعى العهود والمواثيق، جواد إلى حدّ الإسراف، معتدل غير متعصب دينياً، مُحبّ للبناء والإعمار، يعمل على تشجيع التجارة وازدهارها. وتراه في دائرة أصدقائه الخواص مرحاً ضحوكاً مُحبّاً للشعر وسماع القصص. ويمتدّ مدح بالجريف لطلال حتى يشمل الجنس العربي كله، فالعرب يعشقون الحرية ويُقدرون الحاكم الذي يمارس السلطة من دون أن يشعروا منه بتمييز قبلي، شجعان في الحرب، نشطاء في السلم، يعملون في التجارة بشغف، ولا يهتمون بوعثاء السفر في برّ أو في بحر، ولا يثنيهم الاغتراب عنها، وهم "عنصر" يتفوق على كافة العناصر الآسيوية والأفريقية! وما يلبث أن يعود ليغمز في العرب فيقول "إن فهم العربي – كما يقول المثل – يتركز في عينيه. وينطبق هذا المثل على البدوي أكثر مما يصحّ على العرب جميعهم، كما ينطبق على الأطفال بما في ذلك أطفال الأوروبيين"، أي إن الرجل منهم يحكم على الأشياء بمظهرها ولا ينفذ إلى جوهرها، ولا يعمل على التحرّي عن أسبابها ونتائجها. فقصر فخم كقصر ابن رشيد، ومدفعية ضخمة وإن كانت قليلة العدد، ورجال مسلحون في ملابس زاهية، وجمهور غفير وعشاء مُشبع، كانت كلها مؤشرات تكفي لإقناع البدو بالقوّة التي تلزمهم الخوف والخضوع، من دون أن تثور في أدمغتهم أسئلة عمّا إذا كانت المدافع تعمل أم غير ذلك، وهل يبذل أولئك المسلحون الولاء والإخلاص لسيدهم أم غير ذلك، أو عمّا إذا كانت مادة العشاء قابلة للهضم أم عسرة.

يورد بالجريف حادثاً طريفاً مرّ به عند دخوله إلى حائل كاد يفسد عليه رحلته، ويكشف أمام مندوب الأمير الذي سعى لاستقباله والترحيب به أنه أوروبي متنكر. التقى بالجريف – كما يقول – أحدهم وكان قد تعرّف إليه في دمشق، وأسرع الرجل إلى تحيته وسؤاله عن الريح التي دفعت به إلى حائل. ألجمته المفاجأة، وقبل أن يفكر كيف يجيب، ابتدره آخر بالقول إنه رآه في دمشق، ولم يكن بالجريف واثقاً من ذلك تماماً، وسرعان ما تدخّل رجل ثالث ليدّعي أنه رآه في القاهرة، وأنه رجل ثري اسمه عبد الصليب ويسكن منزلاً مع زوجته وابنته الجميلة

التي تركب حصاناً غالي الثمن وتتجوّل به. ووجد الرحالة فرصته في مخاطبة الرجل الثالث، فأنكر أنه زار القاهرة أو سكن فيها، وأنه ليس لديه ابنة أبداً، ولا شأن له أبداً بالخيول. والتفت إلى الرجل الثاني وأنكر بتاتاً أنه التقاه في يوم من الأيام، واحتجّ بأن أشباهه من ذوي اللحى الحمراء والشوارب التي في لون القشّ كثيرون في دمشق، أما الرجل الذي كان يعرفه حقيقة فقد اكتفى بالجريف بأن حملق فيه وأطال النظر، وبدا الرجل كأنه يُكذّب عينيه، فالرجل ربما كان غير ذلك الذي كان يعرفه، فهو بالتأكيد قد أخطأ التعرّف، وتجسّدت شكوكه حتى كادت تحمله على القول، "كما جاء على لسان عجوز في أغنية شعبية: عفواً لا تؤاخذني، فأنا لست أنا". والقصة كما نراها طريفة، ربما استحدثها قلم هذا الروائي ليزيد في زيادة إعجاب قرّائه به لإتقانه حبكة هذه الرواية الطريفة.

كتب بالجريف في تاريخ عائلة آل رشيد، وجمع الروايات الشفهية المتداولة إلى أطراف من تاريخهم المعروف، وأضاف إلى المزيج التاريخي من وحي خياله الجامح ما أفسد كل أمل بالإفادة مما جاء به. ولعل أبرز ما ورد عنه في هذا الصدد روايته عن العلاقة بين آل رشيد وآل سعود، التي قال إنها بدأت بدعم عبد الله بن رشيد للإمام تركي، وتوثقت مع ابنه فيصل بعد اغتيال تركي، واعترافاً من فيصل بخدمات عبد الله ساعده على القفز على إمارة حائل وأنابه أميراً عنه عليها. وبوفاة عبد الله في عام ١٨٤٥م حلّ ابنه طلال مكانه في الإمارة، ولكنه غدا يتصرف بنحو مستقلّ عن الرياض، ونجح في ذلك بفضل ما له من مآثر شخصية. حدثنا بالجريف عن لقاء سري دار فجراً، كما يزعم، بينه وبين طلال بن رشيد، أطلعه فيه – كما يدّعي – على هويته وطبيعة مهمته التي في ما يقول: لن يفصح عنها للقراء. وقد تقبّل طلال – كما يقول بالجريف – الخطّة قبولاً حسناً، ووعده بأن يصدر موافقته النهائية بشأنها حال عودته من رحلته إلى الرياض. وطلب طلال أن تبقى المباحثات بينهما "طيّ الكتمان، لأن في إفشاء طبيعتها خطراً على حياة الرحالة وصاحبه"، بل ربما "أفقد بدوري حياتي أيضاً". وكأننا ببالجريف يريد أن يُوهم القارئ بأنه تحدّث مع طلال أو مع بعض رفاقه بشأن تنصير المسلمين في حائل، إذ يذكر في فقرة أخرى أن عبيد بن رشيد – عمّ طلال – أعلمه في مناسبة ما أنه يعلم بأنه نصراني يعمل في التنصير، وأنه لن يفارق إسلامه وإن ارتضى ابن أخيه طلال وكافة مواطني شبه الجزيرة العربية هذا الأمر، "وإذا لم يبقَ في الدنيا سوى مسلم واحد فسأكون أنا ذلك المسلم". وفي اعتقادنا أن هذا الحديث ليس إلا جزءاً من الأكاذيب التي مثّلت عصب هذا الكتاب، فما نظنّ أبداً أن بالجريف يستطيع – في السرّ أو في العلن – أن يخاطب طلالاً أو غيره أو أي شيخ، كبر أو صغر – في شبه الجزيرة العربية وقتها – في أمر مثل هذا صراحة، ثم يخرج من مثل ذلك الاجتماع من دون أن يفقد رأسه. هذا على الرغم من أننا ندرك مدى التسامح الديني الذي كانت تمارسه حائل، لانفتاحها الكبير في ذلك الوقت على محيطها الذي

يصل إلى العراق ويتجاوزه إلى سوريا، إلا أننا ندرك أنه كان تسامحاً عفوياً لا يتعارض مع طبيعة الدين الإسلامي نفسه، ولكنه تسامح لم يكن ليبلغ درجة التفريط أو التغاضي عن الطعن في الدين، أو قبول شيخ عربي بدعوة له صريحة من رحالة أجنبي لتغيير دينه الذي ارتضاه وقومه. ويضيف أن ابن رشيد لم يجبه جواباً شافياً في ما تفاوضا فيه، ولكنه أكّد له مؤازرته بإرادة لن تتزعزع "تابع رحلتك ولاتبطئ العودة، وحين تعود ستجد أن ما طلبته قد غدا قانوناً، وسيتحقق لك كل ما تريده... هل أنت راضٍ؟... وتصافحنا علامة التحالف المتبادل...".
وفي اعتقادنا أن بالجريف – إذا صدق خبر زيارته لحايل واجتماعه بشيخها – ربما يكون قد خاطب ذلك الحاكم بشأن خطّة نابليون من إسباغ الحماية عليه وزيادة الرقعة التي يسيطر عليها لحجز أي مدّ عسكري يمكن أن يفد من داخل شبه الجزيرة العربية في اتجاه قناة السويس.

بالجريف رحالة أم مبدع في كتابة أدب الرحلة؟

افتقرت روايات بالجريف وحكاياته وتقدير مسافات رحلته وكثير مما ورد في كتابه إلى الدقّة، ما يبعد هذا الكتاب بنحو كامل عن قائمة المصادر التاريخية. ولا يضمّ كتاب هذا الرحالة سوى البدائي والغريب عن العرب. ولما كان المؤرخ العربي وغيره لا يعتمد مصدراً إلا بعد نقده، ولما كنا نعد كتب الرحلة الغربية – في أحسن حالاتها – مصادر ثانوية لتاريخنا، يلزم أن تساندها مصادر أخرى لتوثّقها، فإننا نرى أن حصاد النقد لرواية بالجريف التي عرضها في كتابه لا يفي بحال بأي جهد يستوجبه التوثيق. تفيد الرؤية النقدية لكثير مما رواه هذا الرحالة بكذبه الصراح، خاصة في ذلك الجزء من الكتاب الذي يُضخّم فيه الكاتب ذاته حتى غدت قدراته التي ادّعاها متورمة بارزة لكل ذي عينين، ففارق بذلك النهج القويم الضروري لإثبات مشاهداته، وإن واكب الحبكة الدرامية للرواية. ولا يمكننا في هذه العجالة أن نقدم نقداً مُفصّلاً لعمل لا يستحق جهد النقد لتتبع أكاذيب الرجل وفضحها، ولكننا عمدنا إلى ترجمة بعضها وتركنا لفطنة القارئ كشف زيفها. وإذا كانت شهادتنا في فضح زيف هذا الكتاب تقوم على نقد روايته، فهناك شهادات أخرى لرحالة غربيين ودارسين لأدب الرحلة أيضاً أنكرت قيامه بهذه الرحلة، وعدّت كتاباته خليطاً من روايات سمعها من عرب شبه الجزيرة العربية الذين كانوا يفدون إلى الشام، ومبالغات من نسج خياله، واعتمدوا في إثبات ذلك على شواهد بارزة.

كتب الرحالة فيلبي – واعتمد ذلك المؤرخ بيدجر – مؤكداً أن بالجريف لم يشخص أبداً إلى شبه الجزيرة العربية مستنداً في ذلك إلى عدم مطابقة كافة ما ذكره عن كثير من المواقع التي ادعى أنه زارها لواقع الحال، كما أشار أيضاً إلى أن كل المسافات الفاصلة بين المواقع المذكورة

عند بالجريف غير حقيقية، فهي - في أحسن حالاتها - مسافات تقديرية. وشنّ فيلبي أيضاً هجوماً كاسحاً على بالجريف وهو يعقب على محاضرة ألقاها بيرسي كوكس عن زيارته للبريمي، فقد لاحظ فيلبي بسخرية بالغة في كتابه **قلب شبه الجزيرة العربية** الصادر في عام ١٩٢٢م، في تعقيبه على ما كتبه بالجريف، أن كل الأماكن التي ادّعى أنه زارها ونزل بها أو استضيف فيها وأثبتها تبدو كأنها قد اختفت من الخريطة! وهاجم فيلبي هوجارث وغيره من الداعين إلى احترام ذكرى بالجريف الذي لم يقم بما يجعله جديراً بالاحترام. وأنكر فيلبي في محاضرته في الجمعية الملكية البريطانية في عام ١٩٤٧م قيام بالجريف بهذه الرحلة. وإذا عنّ لنا أن نتجاهل رأي فيلبي، فقد جاء نقد ولفرد بلنت لأجزاء من كتاب بالجريف ليؤكد عدم التزامه الرواية الصادقة، فقد أشار إلى أن ما كتبه عن الخيل في شبه الجزيرة العربية يتجاوز الحقيقة ويجافي الواقع. ويستطرد بلنت فيقول: إن ما ورد في هذا الصدد يبدو كأنه إضافة ألحقت بهذا الكتاب لتسدّ فيه ثغرة ما، ويقول: إنه - مع ذلك - لا يشك في أن بالجريف قد قام بهذه الرحلة فعلاً، فما أثبته هذا الرحالة عن واقع الحياة الاجتماعية في نجد يبدو صادقاً، وذلك حكماً بتجربته (تجربة بلنت) الخاصة. وفي الحقيقة، فإن بلنت قد شهد لبالجريف بصحة ما أورده من بدائي وغريب عن شبه الجزيرة العربية، واستنكر ما دون ذلك، قياساً - كما يقول - بتجربته التي استقاها من رحلته في نجد، ولكننا نقول - صدقاً -: إن تلك الشهادة أتت منه مواكبة لما يراه هذا الرحالة بعقله الذي تكوّن في جزء منه برؤية الرحالة الغربيين الآخرين للبدائي والغريب في شبه الجزيرة العربية. ويدحض شهادة بلنت أنه هو نفسه لم يوغل في نجد و لم يبلغ - باعترافه شخصياً - أبعد من مدينة حائل، فكيف له أن يشهد بحكم تجربته على صدق رواية بالجريف عن نجد؟! ولربما كان لزوجته ورفيقة سفره تأثيرها فيه، فدلّس في شهادته، فقد كانت تلك المرأة شغوفة بما كتب بالجريف، واستثارها كتابه - كما تقول - وحفّزها للقيام برحلتها إلى شبه الجزيرة العربية. ويبدو أنها استثيرت بقصص بالجريف وحكاياته ورواياته وجموح خياله، فقد كانت هذه السيدة امرأة حالمة، سليلة بعض أشهر شعراء بريطانيا، فلا عجب أن استهواها غريب بالجريف، ولا تثريب علينا إن اعتبرنا أن شهادة ويلفرد إذاً شهادة مجروحة، مثلها مثل شهادة الرحالة الألماني إدوارد نولده الذي زار بدوره حائل عام ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، واهتم بالتقلبات السياسية التي اكتنفت في ذلك الوقت تلك الإمارة العربية. قال نولده: إن ما كتبه بالجريف كان في عمومه حقيقياً وصادقاً، نابعاً من مشاهداته الشخصية، ويستطرد فيقول: إن بالجريف أضاف إلى كتابه من المبالغات ما أفسده، ولكنه يستشهد على صدق بالجريف ببعض روايات أوردها عن النفود. وقد وقع نولده نفسه في الخلط أيضاً، فالطريق التي قطعها عبر النفود طريق أخرى مغايرة للطريق التي قال بالجريف إنه قد سلكها (!) فكيف لنولده أن يشهد بصحة أمر لا يعرف عن جزيئاته شيئاً؟!

أما داوتي – شيخ الرحالة المتسكعين – فيقول صراحة: إن بالجريف قد اشتهر في أوساط اليسوعيين فترة انتظامه في سلكهم بأنه رجل كذّاب. ومع ذلك يعتقد داوتي أن بالجريف قد قام بهذه الرحلة إلى شبه الجزيرة فعلاً، ويستند في ذلك إلى ما رواه من أن أحد مواطني عنيزة قال له ذات يوم: إنه يعجب لهؤلاء الرحالة الذين يقطعون هذه الأرض التي لا ضابط فيها ولا رابط لها، ولا يتورّع أحدهم عن أن يعلن صراحة أنه نصراني، كما لا يتورع رحالة آخر منهم عن أن يكشف هويته فيقول: إنه إنجليزي (!). ويضيف داوتي أن مُحدّثه ذكر له اسم رحالة ما وفد إلى عنيزة ولكنه لا يستحضره، ثم يضيف: "ربما كان الرحالة المعنيّ هو بالجريف".

يقول مايلز، س. ب.، صاحب كتاب **بلدان الخليج وقبائله** – وهو من أكثر الرحالة الغربيين معرفة بالأرض العمانية – إن ما كتبه بالجريف عن مشاهداته في عمان هو من قبيل الخطأ المطبق الذي يجافي الواقع ولا يتّسق معه بحال. أما لورنس، تي إي، صاحب كتاب **أعمدة الحكمة السبعة**، فيعترف بأن بالجريف لم يتوخ الدقة في ما كتب، ويعتذر عنه بأنه لم يعمد إلى ذلك في ما يخصّ الحقائق الجغرافية التي لم يهتم بها الرجل اهتمامه بوصف الواقع الإنساني بأسلوب يجنح إلى الدراما التي قصد بها صاحبها المتعة والإثارة، ويضيف: إن كتب الرحلات الذائعة الصيت، رغم أنها قد كتبت بالإنجليزية، إلا أن اليهود والسويسريين والإيرلنديين وآخرين هم الذين "تآمروا" لتحريض الإنجليز على الاهتمام بأدب الرحلة. و لم يصرّح لورنس بالأهداف التي دفعت هذه الجماعات إلى ذلك، ولكنه ربما أراد أن يشير إلى أن أدب الرحلة الغربية في شبه الجزيرة العربية وإن مثّل قرون الاستشعار للاستعمار الغربي، إلا أنه لم يكن عند الرأي العام الإنجليزي ليخدم أهدافاً سياسية أو اقتصادية أو تنصيرية أو غير ذلك من الأهداف الحقيقية المعلنة والخفية لهذا الزخم، بل كان في اعتبارهم إبداعاً درامياً، أو ربما كان تراجيدياً اتخذ مادته من وقائع عالم غير عالمهم، عالم لا يزال مستغرقاً في مهد الإنسانية يفوق فيه الخيالُ الواقعَ، والغريبُ المألوف. ويخلص لورنس إلى القول: إنه لا يستطيع أن يجزم بأن بالجريف قد قام فعلاً بهذه الرحلة، ولكنه – مع ذلك – يجزم واثقاً بأنه قام بعمل إبداعي فني لم يفسده الاهتمام بحشد الحقائق، فالحقائق لم تكن تحتل المرتبة الأولى في اهتماماته، تلك المرتبة التي احتلتها انطباعاته، فأجاد تصويرها سواء أخطأ في ذلك أو أصاب.

لا نجد من دافع عن صدق روايات بالجريف من الرحالة الغربيين إلا اثنين: أولهما رحالة من رسميي حكومة الهند البريطانية هو بترام طوماس الذي أشار في كتابه **مخاطر الاستكشاف في شبه جزيرة العرب** إلى أنه يعدّ بالجريف من أميز الذين كتبوا في أدب الرحلة الغربية، ولكن طوماس لم يقدم دليلاً واحداً يؤيد رأيه، ولنا ألا نعتدّ أبداً بحكم صادر على متهم من دون تقديم أدلة براءته. ولربما استطعنا القول: إن بترام طوماس نفسه لم يهتم كثيراً في كتبه بالحقائق العلمية، فقد اهتمت تلك الكتب كثيراً بالقصص والحكايات. والفارق الوحيد بين الرجلين

هو اعتراف جميع المهتمين بأدب الرحلة الغربية، من عرب وأجانب، بأن طوماس قد قام فعلاً برحلاته التي نشر أخبارها، بينما يشكّكون في أمر بالجريف. وقد أدى هذا بدوره إلى أن يكون الأول صادقاً في رواية حكاياته عن أبي زيد الهلالي وغيره من المتواترات العربية، بينما نسج الثاني حكاياته على متواترات عربية أضاف إليها من خياله ما أفسدها. ويمكن - على ضوء ذلك - القول: إن ما كتبه طوماس يمكن أن يفيد - بعد النقد - جماعة الفولكلوريين والنسابة والأنثروبولوجيين وبعض المهتمين بالتاريخ الاجتماعي، أما ما أورده بالجريف فلن يثبت أمام النقد، ولن يفيد الدارسين، ولا يعني شيئاً إلا للاستشراقيين في تراكم البدائي والغريب عن شبه الجزيرة العربية، فهو يضيف إلى هذا المجال ويؤكد في الذهن الغربي التخلّفَ العربي، وضرورة تصديه لقيادة العرب والمسلمين للخروج من متاهات الجهل ونبذ ثقافاتهم البالية ودحض حضارتهم!

أما الآخر الذي دافع عن ترّهات بالجريف فهو منصّر أمريكي جاسوس يُدعى زويمر، ويُعدّ الأشهر بين منصّري الكنيسة المشيخية الأمريكية التي عملت في الخليج العربي، فهو من الآباء المؤسسين لها. يعُدّ زويمر كتاب بالجريف مرجعاً أصيلاً متفرداً في ما يخصّ نجداً، ويشهد بأنه لا يعرف مرجعاً آخر يماثله أو يساويه. أما ما رواه بالجريف عن الأحساء، فيمكن اعتباره - كما يقول زويمر - مرجعاً يفوق كل ما عداه. وقد أصدر زويمر هذه الأحكام من دون أن يورد شواهده، وبالطبع فإن شهادته مردودة لا يؤخذ بها. ولا يعود ذلك لكونه فاسقاً فارق يهوديته - كما يدّعي - لإيمانه بالنصرانية (الأمريكية) ونشرها في أوساط العرب فحسب، ولكن لعدّة اعتبارات أخرى، فآية فسوق زويمر التي لا مراء فيها إعلانه في مؤتمر تنصيري عقد في فلسطين عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م أن الهدف من التنصير في البلاد الإسلامية يجب ألا يكون الدعوة إلى دين المسيح، عليه السلام، بل العمل على إخراج المسلم عن دينه حتى لا يكون له منه إلا اسم أحمد أو مصطفى (!)، أي إن زويمر لم يكن - من وجهة نظر إنسانية بحتة - يدعو لهداية أو لبناء، بل كانت دعوته هدم القيم والأخلاق وليس خدمة الدين الذي يعمل باسمه. ولما كان بالجريف يعزف على الوتر نفسه، فلا نلومنّ زويمر حين طرب لها ورقص على صدى نغماتها. لم يكن زويمر صادق النيّة في قيامه بالتنصير، وكذا كان أمر بالجريف الذي انقلب في عام ١٨٦٣م - حال عودته من شبه الجزيرة العربية - على اليسوعيين، الذين ادعى في كتابه أنه دخل تلك المنطقة لنشر دعوتهم. تنكّر بالجريف لهم بعدئذ وسخر منهم، ما يؤكد أن اتصاله بهم لم يكن سعياً لتحقيق هدف ديني أو أخلاقي، بل اتخذهم ذريعة تُخفي خلفها أهدافه الحقيقية. ولسنا الوحيدين الذين ننكر شهادة زويمر وغيره من الرحالة المنصّرين الأمريكان في شبه الجزيرة العربية، ولسنا أول من أنكر عليهم القيام بأداء مهمة أخلاقية أو إنسانية في تلك المنطقة، فقد سبقنا إلى ذلك العديد من البريطانيين من موظفي حكومة الهند

البريطانية في الخليج العربي. وكثيراً ما تبرّع أولئك الرحالة المنصرون الأمريكان بإعداد تقارير استخبارية للسلطات البريطانية بعد كل رحلة يقومون بها في المناطق الواقعة على أطراف شبه الجزيرة في مواجهة الخليج، وكثيراً ما أرسل الموظفون البريطانيون المعنيون تلك التقارير إلى رؤسائهم، مشفوعة بملاحظة توخّي الحذر في قبول ما جاء فيها، لأن أهدافها لا تخدم - كما يقول أولئك الموظفون - إلا السياسة الأمريكية. فهل يجوز لنا أن نقبل شهادات من شهد المعاصرون من أمثالهم بزيفها (؟!).

كان بالجريف رجلاً متبجّحاً لا يتورّع عن تقديم أكاذيبه من على أعلى المنابر العلمية التي أنشئت في لندن وغيرها من العواصم الأوروبية، وخُصّصت لخدمة الاستعمار العالمي. ألقى بالجريف في مقرّ الجمعية الجغرافية الملكية في لندن محاضرة حول خلاصة التجارب المستمدة من رحلته، فحرّكت مشاعر المستمعين، وأثار كثير من ملاحظاته التي ذكرها دهشة المستمعين أكثر من تقديم المعرفة لهم، لأنها - كما قيل - لم تخاطب عقولهم. وقد جاء تعليق رئيس تلك الجمعية على تلك المحاضرة مختصراً ووافياً إذ قال: إنهم استمعوا من المحاضر إلى قصص ألف ليلة وليلتين، وذلك في إشارة واضحة منه إلى أن بالجريف قد أضاف ليلة أخرى إلى ليالي شهريار، وكأني به يقول: بلغني أيّها الملك السعيد ظهور كتاب جديد من قصص الشرق الخرافية.

من المدهش أن كتاب بالجريف بعد كل هذا النقد الذي وجده من الرحالة الغربيين والدارسين لأدب الرحلة الغربية قد وجد ترحيباً حاراً من أساطين السياسة الغربيين، ومن عُتاة المستعمرين. بلغ الإعجاب ببالجريف في الدوائر الاستعمارية البريطانية المختلفة حدّاً دفع تشارلز غوردون - وهو من المعنيين بهموم الاستعمار البريطاني الرافعين رايته من الصين شرقاً إلى السودان غرباً - إلى القول: إذا قُيّض له أن يجد بالجريف إلى جانبه، يمكنه أن يحكم أمّة العرب جميعاً تحت لواء الاستعمار البريطاني (!).

ربما كان لأخبار رحلة بالجريف - صحيحة كانت الرحلة أو غير ذلك - أثرها المباشر في السياسة البريطانية في الخليج العربي. فقد طلبت الجمعية الجغرافية الملكية في لندن إلى لويس بيلي - المقيم البريطاني في الخليج - أن يذهب إلى نجد ويتحرّى عن موقع الرياض. وهكذا وصل بيلي إلى الرياض (١٨٦٥م) وكان لزيارته وقعها الكبير في خط سير السياسة البريطانية في تلك المنطقة وفي الخليج برمّته. وورد ذكر رحلة بيلي في المصادر البريطانية والسعودية أيضاً، ولكننا لا نجد في أي مصدر من المصادر ذكراً صريحاً لرحلة بالجريف إلا في ما ذكره الرجل في كتابه. ولربما كانت رحلة بيلي هي الشاهد الوحيد، وإن كان غير مباشر، الذي يجعل البعض يُرجّح أحياناً أن بالجريف قد قام بهذه الرحلة فعلاً، ويستشهد بأنه كان من نتائجها أن شخص المقيم البريطاني في الخليج إلى الرياض بنفسه، هذا على الرغم من أن المقيم بيلي لم

يكتب في يومياته خلال الرحلة شيئاً عن بالجريف، و لم يتطرق إلى ذكره أبداً. ولكن إن صدق ظنّهم في أن الرجل قام برحلته فعلاً، فكيف لنا أن ندافع عن روايته لمشاهد الرحلة التي وصل بعضها إلى مصافّ الأحاجي الفجّة (؟!). وإذا جاز للمؤرخ أن يُخمّن ويدّعي دوراً ليس من حقّه، فإننا نضع أحد احتمالين: الأول – وهو الأرجح عندنا – أن الرجل كتب كتابه الضخم حال إقامته في الشام قبل قيامه برحلة خيالية إلى شبه الجزيرة العربية، تلك الرحلة التي قام بها لتنقيح كتابه الذي صاغه بداية لتحقيق أهدافه من خلال تطلعات الدوائر الاستعمارية في فرنسا. أما الاحتمال الثاني فهو أنه قد قام فعلاً بهذه الرحلة ولكنه حين تعرض في ١٢ رمضان ١٢٧٩/٣ مارس ١٨٦٣ لحادث غرق المركب الذي أقلّه إلى عمان – إذا صحّ ادّعاؤه – فقد أوراقه في ذلك الحادث، وراح بعد ذلك يؤلف من الخيال حكايات وجدها ممتعة. وعلى الرغم من أن هوجارث – وهو من أوائل المهتمين بنقد أدب الرحلة الغربية وأبرزهم، وله في ذلك كتاب **اختراق شبه الجزيرة العربية** – يقول بهذا الاحتمال الثاني، إلا أن بالجريف نفسه ينفي ذلك ضمناً، إذ قال: إنه حين فارق بركات في ٢٣ يناير ١٨٦٣ أوْدَعَه كافة المذكرات التي كتبها خلال الرحلة أمانة عنده حتى يلتقيا. فقد كان – كما يدّعي – يشعر شعوراً غامضاً بأنه سيتعرض للغرق، فعمل على الحفاظ على مذكراته (!). ويعترف بالجريف بأنه قد صاغ من الذاكرة المذكرات التي كتبها عن رحلته في الفترة من ٢٥ يناير حتى ٣ مارس فقط. وعلى ضوء ما قاله يصعب علينا التمسك بالاحتمال الثاني، ما يجعلنا نرجّح الاحتمال الأول.

تدلّ العديد من الروايات التي نسجها بالجريف على أنه لم يكن قاصّاً يروي جزافاً من خيال محض، بل كان روائياً استند في ما كتب إلى كثير من المراجع والمصادر المكتوبة، واعتمد على راوٍ أو ربما على عدّة رواة. سمع من هؤلاء وأولئك جميعاً، وقارن وقارب، وأضاف إلى تلك الروايات الشفوية والمكتوبة خبراته التي اكتسبها من بعض رحلات قام بها على أطراف البادية، وربما نقول إنه قد وصل بها إلى حائل و لم يتجاوزها فوق ذلك أبداً إلا بإعمال الخيال، وصاغ من هذا الخليط سفراً حقق به رغباته الخاصة، ولكنه لم يحقق الأهداف الرسمية لمُموّلي رحلته. أعدّ بالجريف كتابه الضخم هذا في فترة نشطت فيها رحلة تجار شبه الجزيرة العربية إلى خارجها، خاصة العراق وسورية ومصر، كما خرج في هذه الفترة عدد كبير من مواطني شبه الجزيرة للعمل في حفر قناة السويس. وكان أغلب الناشطين من العرب في مجال الرحلة من العقيلات الذين يشهد تاريخهم بأنهم أهل تجارة وأموال وأسفار. وكانوا – مثلهم مثل التجار في كل عصر ومصر – على معرفة بكثير من دقائق الأحوال السياسية في بلادهم (راجع كتابنا: **العقيلات**، الساقي، ١٩٩٢م)، وعمل بعضهم للالتقاء بالأجانب والتعامل معهم في تجارة السلاح، وزوّدوا هؤلاء الأجانب – من دون قصد سيّئ في الغالب – أخبار بلادهم ومجريات الأمور فيها. وكان يمكن بالجريف – إذا التزم بتسجيل روايات أولئك الرحالة

العارفين بأحوال بلادهم ولم يزد عليها أو ينقص - أن يفيدنا في كتابة التاريخ بعد النقد الواجب للرواية وصاحبها، ولكنه لم يعمل بهذا، بل ادّعى أنه أثبت ما شاهده بعينه، وأنه قدّم لنا خلاصة تجاربه. وفي الحقيقة، إن العديد من أهل الرحلة الأوروبيين - قبل بالجريف وبعده - كانوا يسجلون يومياتهم التي تلتزم الحقيقة على ضوء ما شاهدوه، ويخرجون عنها عادة حين يذهبون إلى تفسير مشاهداتهم، وإنهم كانوا في العادة لا يفسدون رواية ما شاهدوه إلا ببعض المبالغات التي تظهر بارزة لكل ذي عينين، حين يعمدون - من دون وعي منهم - إلى تضخيم ذواتهم وإبراز دلائل شجاعتهم وعمق معاناتهم. أما الرحالة الجالس إلى مكتبه - مثل بالجريف - وهو عُطل من الخبرة العملية قبل قيامه برحلته، فلا يقوم عمله إلا على الرواية والسماع وقراءة كتب عربية قد يفهم معنى ما جاء فيها أحياناً وقد يغيب عنه ذلك في أحيان أخرى. ويضاف إلى ذلك أن مثل هذا الرجل لن يقبل مادة الروايات كما سمعها، فتراه يأخذ في تحليلها وتدقيقها، ويعالجها بالحذف والإضافة حتى تخدم أهدافه، وحتى تبدو مستساغة لدى الذهنية الغربية التي لم يكن الشرق يمثل فيها - في هذه الفترة - إلا البدائي والغريب الساذج، ولذلك جاءت استنتاجات بالجريف كلها بدائية وغريبة، فحين تتوارى الحقيقة وراء الرواية التي تداخلها الصناعة، ويُشرع باب الزيف على مصراعيه، يمكن الأهداف الذاتية والمصالح الخاصة أن تختلط بالواقع وتتجاوزه إلى موارد الإبداع، ومجالات الخيال، ودوامة اللامعقول.

عادة ما يقوم الكذّابون الأكثرون جريرة بمهاجمة الصادقين، فيكيلون لهم التهم التي يعرفونها في أنفسهم. فقد تشدّق بالجريف وفخر بأنه أول رحالة غربي يقدّم صورة صادقة عن الجنس العربي. فالمستهدف من دراسته - كما جاء في كتابه - إنسان هذه الأرض العربية وليس أرض هذا الإنسان. وزاد في ذلك باتهامه كل رحالة غربي سابق له بتضليل الرأي العام الأوروبي. فالعديد من هؤلاء الرحالة لم يسافروا - كما يقول بالجريف - أبداً إلى شبه الجزيرة العربية، بل جمعوا معلوماتهم واستقوها من مواطني سورية ومصر وما بين النهرين وجدّة، وربما من تونس والجزائر أيضاً، وحشدوها ليؤلفوا منها كتب الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية! وهنا يبدو لنا بالجريف كأنه قد تصدى ليدرأ عنه وزر جريمته التي أرّقته، فأراد أن يُلقي بها على الرحالة الآخرين. ويضيف بالجريف أن أهل كل هذه المناطق المذكورة آنفاً، الذين اتهم الرحالة السابقين له بالأخذ عنهم، لا يدخلون صراحة في عداد العرب، بل هم أخلاط شتات من الأكراد والتركمان والأرمن والسوريين والفينيقيين والأتراك واليونانيين والأقباط ومن على شاكلتهم، ويرى أن العرب الصرحاء حقّاً هم أهل مناطق شبه الجزيرة العربية التي تبدأ عند خط يبدأ من جنوب سورية وفلسطين - الكرك - وجنوب العراق - الزبير -، أما المناطق التي تقع شمال هذا الخط فهي عنده ليست عربية (!). وهذا لعمري حديث خرافة استحدثه بالجريف الذي استمرأ رواية الكذب ودافع عنها بمزيد من الكذب، فعروبة أهل هذه المناطق تضرب

جذورها في فجر التاريخ. فقد استوطنها العرب منذ ضرب الجفاف شبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل التاريخ، أو في الفترة التي لم يكن إنسان شبه الجزيرة قد تسمّى بالعربي بعد (!).

القصيم

يتحدث بالجريف عن وصوله إلى بريدة في القصيم: "كان الصباح مشرقاً رغم رطوبة الجوّ عندما خرجنا من متاهة الأثل والتلال الرملية، ودلفنا إلى الطرقات التي تفصل بين الحدائق الدائرية التي تطوّق المدينة". ويصف سوق بريدة فيقول:

> أول ما يطالعنا من السوق صف طويل من محالّ القصابين يمتد على جانبي الشارع، وقد علّقت عند مداخلها كميات وافرة من لحم الخراف ولحم الإبل متراكمة بنحو قذر. ولولا ما تتمتع به المنطقة من هواء نقيّ ومناخ صحي لاستشرى الطاعون واستوطنها. ونسرع الخُطى هرباً من هذه المنطقة إلى التي تليها، وهي منطقة المحال التي تعرض الأقمشة المحلية إلى جانب الأخرى المستوردة، والتي تمثل القسم الأكبر من المعروضات. هنا تباع عباءات بغداد وأغطية الرأس والشالات السورية والمنسوجات المصرية. والجدير بالذكر أن تنظيم هذا السوق يسير على النسق الذي تنتظم فيه كل أسواق الشرق. فكل المحال والمخازن التجارية التي تتعامل في صنف واحد يقوم بعضها إلى جوار بعض.

ويرى بالجريف أن لهذا التنظيم فوائده في المدن الصغرى مثل هذه المدينة، ولكنه لا يصلح في المدن الكبرى والعواصم الأوروبية، حيث يقتضي امتدادها واتساعها تنظيماً مغايراً:

> فماذا يفعل ساكن هايدبارك على سبيل المثال إذا لم يجد سوقاً أقرب إليه من التاور؟ ولكن ماذا تساوي بريدة أو ماذا تساوي دمشق ذاتها حين نقيسها بمرسيليا أو بمانشستر، لا أقول بلندن أو برلين. أما الازدحام فإننا لا نستطيع أيضاً أن نقارن ازدحام شوارع بريدة بشوارع المدينتين المذكورتين، فقد غصّت شوارع هذه المدينة بالزحام إلى درجة الاختناق. وتسوء الأمور أكثر حين يأتي بعير ضخم يسير متهادياً متمايلاً من جانب إلى آخر تحت حمله الذي يعلو

> وينخفض كأنه قارب أمسك بدفّته ملاح أخرق. تبرز أعواد الحطب من جانبي البعير كتلتين ضخمتين، كل كتلة تفوق الأخرى حجماً، فتزوّر عنها رؤوس المارة ويخلو الطريق أمامه من الرجال والنساء والأطفال. أما سائقه الذي يعتلي ذروة سنامه (؟) فلا يبدو مهتماً بما يسببه من مضايقات يعدّها من توافه الأمور. وما دام جمله يشقّ طريقه بلا عوائق فلا يعير هذا الأمر أدنى اهتمام. وقد تصادف في بعض الأحيان رتلاً كاملاً من هذه الحيوانات، ربط خطام كل منها إلى السير الذي يمرّ تحت ذيل سابقه. وحين يواجه المارة مثل هذا الوضع عند منحنى الطريق فسيكونون في وضع صعب.

يستطرد بالجريف في وصف السوق فيقول:

> وأخذنا نشقّ طريقنا مجتازين هذه العقبات حتى بلغنا المنطقة التي يشغلها الإسكافية وباعة الجلود، ومضينا في طريقنا حتى بلغنا منطقة الحدادين والنحاسين الذين تتوالى ضربات مطرقاتهم بقوّة "توقظ الموتى أو تميت الأحياء"، ونوالي المسير حتى نبلغ الساحة الوسطى في المدينة.

ويصف بالجريف الساحة الوسطى فيقول: "إنها ليست منتظمة تماماً، ولكنها أيضاً ليست سيئة باعتبار أنها في القصيم. اعتدى الجامع الكبير على هذه الساحة فالتهم نصفها تقريباً".

ويرى بالجريف أن هذا الجامع قد شُيّد قبل حوالى قرنين من الزمان حكماً بمظهره وأسلوب بنائه، ويلاحظ أن هناك طبقة مجصّصة تعلو أبوابه، وطبقات أخرى من جصّ على بعض أسواره نُقشت عليها كتابة. ويرى أن التجصيص قد أضيف إلى المبنى حديثاً في السنوات القليلة الماضية، ويضيف: "إن النحت معروف في نجد رغم أنه بدائي، ولا يعود ذلك إلى نقص في خبرة العامل بل إلى انعدام الكفاءة". ويلاحظ بالجريف أن فن النحت وزينة العمارة قد تطور في عمان، ولكنه يتفوق على ما في نجد من هذا الفن. ويلاحظ أيضاً أن مئذنة الجامع مرتفعة جداً وضخمة، بها شقّ أحدثه زلزال أو هزّة أرضية ضربت المنطقة قبل ثلاثين عاماً، ويرى أن ارتفاع المئذنة وضخامتها يدلان على قِدمها. ويرجع بالجريف بناء الجامع إلى "ما قبل السيطرة الوهابية، فالأسرة النجدية لا تقرّ بناء المآذن العالية اعتماداً على أنها لم تكن معروفة" في عهد محمد صلى الله عليه وسلم. كم هم محافظون! ولذلك نجدهم يكتفون في عمارة المساجد بدكّة صغيرة في زاوية من السطح لا يزيد ارتفاعها عليه إلا قليلاً. ويضيف: "إن بناء الأقواس وعمارة القباب عموماً غير معروفين في تلك الأرجاء،

ولذلك فإن الأعمدة التي يقوم عليها البناء بعضها قريب من بعض وكثيرة العدد".

يلاحظ بالجريف أن مزارع القصيم تنتج أجود أنواع التمور، ما خلا الخلاص الذي تشتهر الأحساء على نحو خاص بإنتاجه. ويضيف أن التمور تُمثّل الغذاء الرئيس للعرب، كما أنها مصدر أساس لثروتهم، إذ يصدرون الفائض منها إلى الحجاز واليمن. وتنتج مزارع القصيم الذرة والقمح والعديد من أصناف الخضر والفاكهة، إضافة إلى القطن. وينمو في القصيم نبات مخدر لم يحدد بالجريف له اسماً، لكنه يقول إن متعاطيه تنتابه حالات من الضحك والطرب، ويأتي بحركات هستيرية عنيفة، ثم يدخل في غيبوبة وسبات عميق، ما إن يصحو منه حتى يكون قد نسي كل ما بدر منه. يصف بالجريف هذا النبات فيقول إن أوراقه داكنة اللون وتنمو زهوره في شكل عناقيد صفراء، أما ثماره فتتخذ شكل كبسولات ذات بطانات خضراء تضمّ حبوباً لها رائحة نفّاذة يماثل مذاقها مذاق الأفيون. ويضيف أنه شاهد هذه النبتة مرّة أخرى في مجاورة صحار في عمان، إلا أنها هناك تتخذ شكل الشجرة، حيث يصل طول ساقها إلى ثلاث أو أربع أقدام، فيما لا يزيد طولها في القصيم على ست بوصات.

معسكر الحجاج الفرس في القصيم

اهتم بالجريف بتقديم وصف ضافٍ للعديد من المواقع الجغرافية والأماكن والمدن، ووضع لها الخرائط والرسوم التوضيحية، وربما وجد البعض من أمثال فيلبي وغيره في عدم دقة ما أورده في هذا الصدد دليلاً يؤكد عدم قيامه بتلك الرحلة. أما اهتمام بالجريف بما يجري في تلك المواقع فكان أبلغ وأوفى من اهتمامه بالطوبوغرافيا، كما يتضح من هذا العرض لمعسكر الحجاج الفرس في القصيم. يروي بالجريف عن الحجاج الفرس، ويقدم نقداً قاسياً لشخصية مهنّا حاكم بريدة الذي عيّنه الإمام فيصل بن تركي فيقول:

> على الحجاج الفرس أن يعيشوا عملياً الحياة في بريدة ليصدق عليهم المثل الذي يتردد عندما يقابل المرء سوء الطالع: "كالمستجير من الرمضاء بالنار". لقد دخل الحجاج الآن في قبضة وهابي حقيقي هو مهنا العنزي الذي نُزعت الرحمة من قلبه. لقد دخلوا الآن تحت نير أبلغ الوهابيين النجديين خبثاً.

يستطرد بالجريف فيقول:

> إن مهنا هو الرجل الذي عيّنه عبد الله بن فيصل نائباً عن فيصل في بريدة والقصيم

> بعد مذبحة آل عليان. وقد تجاوب مهنا بنحو منقطع النظير مع كافة رغبات سيده واتبع خطاه، فقد اتخذ هذا الرجل الرديء القاسي كل وسيلة يمكن المرء أن يتخيلها لكسر روح القصيم، واستغلّ كل مصادر المنطقة لإخماد جذوة الحرية فيها، وطبّق كل مبادئ الوهابية من منع لبس الحرير وحظر التدخين وغير ذلك تطبيقاً صارماً، ما أدى إلى كساد التجارة. وصار لازماً على التجار والسماسرة أن يغلقوا محالهم التجارية وحوانيتهم فور صدور النداء للحرب التي هم فيها زاهدون، وأن يعلقوا البنادق على أكتافهم أو يتمنطقوا بالسيوف التي ما عادوا يعرفون طريقة استعمالها، ليخرجوا في الحملات الوهابية المتتابعة إلى قتال أعداء الله والدين. والجدير بالذكر أن الأعداء المذكورين هم في أغلب الأحيان مواطنوهم الذين ما زالوا يتمتعون بالاستقلال. وعاد هؤلاء التجار بالخسران، فمنهم من خسر تجارته، ومنهم من خسر حياته ولقي حتفه في هذه المعارك. ولنا أن نجد في الأحساء مثلاً صارخاً على كساد التجارة جراء الحروب.

ويكمل بالجريف قائلاً:

> راح مهنا في هذا الوقت يشبع أطماعه الشخصية التي تتجاوز مشاعر الضغائن التي تعتمل في صدر مخدومه، وذلك بمصادرة الممتلكات واستحداث غرامات ومساهمات إلزامية غير مسبوقة. وكان مهنا يثق - في قرارة نفسه - بأن الحكومة تغضّ النظر عن الاختلاسات الطفيفة التي يقوم بها كل من له مركز رفيع فيها. ولذا فقد كدّس لنفسه ثروة أوفر من أي ثروة أخرى اجتمعت لأحد في القصيم في ذلك الوقت. وكان حرصه على ثروته كفيلاً بأن يجعله حريصاً على مركزه ووضعه الذي لا يريده أن يتعرض لخطر. تراه في بلدته محتضناً حقائب أمواله، لا يخرج في الحملات التي تُستباح فيها أرواح أهل القصيم من المشركين، "وهو النعت الذي يطلقه الغزاة على الخصوم"، رخيصة بينما يقوم الجند بجمع المال في مسارح العمليات الخطرة.

وجد الحجاج الشيعة أنفسهم تحت رحمة هذا الرجل "المؤمن حقيقة". فما هي المكرمات التي يمكن أن يتوقعوها منه؟ وإذا كانوا في مرية من معاملته إياهم فهناك حادثة لم يتجاوز عمرها عدّة سنوات لا تزال شاهدة على ما في جعبة مهنا للحجاج الفرس. وعلى الرغم من أن الحقيقة

المائلة "سوداء" يصعب تصديقها، لكن من المؤكد أنها صحيحة. ففي عام ١٨٥٦م وصلت قافلة فارسية كبيرة كانت في طريقها إلى مكة المكرّمة، وكانت الثروة المستبقاة للحجاج - بعد أن اقتطعت الرياض زوائدها وجزّتها جزّاً - لا تزال كبيرة. وتوقفت القافلة في بريدة في ظلّ حماية مهنا الذي راعه كثرة ما يحمل القوم معهم من متاع. قدّر في ذهنه أنه لا بد أن تكون مَحافظ من يحملون مثل هذا المتاع مترعة بالأموال، فاستضاف الحجاج ودعاهم إلى الإناخة عنده للتخفيف من عناء السفر، ثم أخذ يحذرهم من أخطار الطريق ويُجسدها لهم في صورة مرعبة، وأن هذه الثروة ستصبح لقمة سائغة لقاطعي الطريق والبدو إذا أصرّوا على أن يأخذوها معهم، واقترح عليهم أن يودعوا نفائسهم عنده، مهما غلا ثمنها، ووعدهم بأنها ستبقى في حرزه أمانة لن يمسّ شيئاً منها حتى عودتهم، كما وعدهم بأن ابنه سيتولى بنفسه قيادة قافلتهم إلى مكة، وذلك حتى يؤكد لهم نيّته الخيّرة، ويوطدوا حسن الثقة به. وانخدع الفرس، فوافقوا على ترك متاعهم الذي يزيد على الحاجات الملحة للرحلة، ووجدت فوائض أموالهم مكاناً لها في خزينة مهنا، وسار الحجاج إلى مبتغاهم تحت قيادة ابن مهنا البكر، ذلك الشاب الذي انحدر فعلاً من أصلاب أسلافه، الجدير حقاً بحمل صفاتهم. وبدلاً من أن يقود هذا الشاب الحجاج المخدوعين عبر الدروب السالكة، دخل صحراوات رملية وزجّ بهم في متاهات النفود عند سفح جبل طويق التي تخلو من الماء. وسرعان ما خارت قوى الحجاج تحت وطأة السير المتتابع ووهج الشمس المحرقة وانعدام الماء والضرورات الأخرى التي تستبقي على الحياة. وبينما كان الحجاج يعسكرون وسط ذلك التيه الرملي مجهدين يائسين قانطين، تسربل ابن مهنا ظلمة الليل، وانطلق بكل العرب الذين كانوا معه عبر دروب يعرفونها تاركين الحجاج بلا دليل ولا زاد ولا ماء ليواجهوا الموت في تلك الصحارى.

يتّسم صباح القصيم بالدفء عادة، غير أنه في هذا الوقت من الأيام الأواخر من شهر سبتمبر يكون منعشاً، فالسماء صافية والجو لا يكدره الضباب. الشمس تسطع هنا على سهل ممتد بلا نهاية، فتنطلق نسمات الصباح الأولى منعشة تبعث النشاط. والجدير بالذكر أن شبه الجزيرة العربية تتفرد بنحو كامل بهذه الميزة التي نفتقدها في مصر وفي الهند وفي الغرب كذلك... كنا في الساعات الأولى من الصباح عادة ما نخرج نجوب الشوارع، وننتهي إلى تلك التي كنا قد دخلنا منها إلى المدينة حين قدمنا إليها أول مرّة، كما كنا نذهب أحياناً إلى المعسكر الفارسي، حيث تمتاز المشاهد هناك بالحيوية والإثارة.

تجد في المعسكر الفارسي سلال التمر وأكوام الخبز وحزم الحطب وسلالاً مُلئت رملاً وضع فوقه البيض والدلاء المترعة بألبان الغنم والإبل. وترى وسط هذا الركام صفوفاً من نسوة الحضر البائعات اللائي يجتهدن في مساومة الفرس الذين يمتازون بطول القامة أو الخدم السمر الذين يعملون عند تاج جيهان. ورغم محاولة هؤلاء خفض أسعار السلع، كانوا ينتهون دائماً إلى دفع

ضعفي ما طلب إليهم دفعه أولاً. وترى في المعسكر سائقي الإبل من البغداديين بوجوههم المكتنزة التي يرتسم الزهو على مُحيّاها، كما تجد بعض الشباب الدميمي الخلقة الشاحبين وفدوا من مشهد "حيث كل ابن أنثى هناك حسن أو علي"، وهم يتحدثون بنزق، يسيئون إلى كل من يستطيعون التجرؤ عليه، ويتملقون كل من يفوقهم قوّة أو قدرة فيغدون كأنهم عبيد له. وهناك أيضاً الفرس من ذوي الأنوف المعقوفة بقبعاتهم الطويلة وأزيائهم المتعددة الأشكال، الزاهية الألوان، يقضون وقتهم في المعسكر متسكعين بلا هدف، يبثّون شكاياتهم أو يتشاجرون. والجدير بالذكر أن الفارسي لا يماثل العربي في سلوكه، فهو سرعان ما يظهر التذمر مما قد يعانيه، ولا يتورّع عن بثّ شكايته إلى من يصادفه، كائناً من كان، و"لا يدرك أن الصبر في التعامل مع العرب هو ميزة ضرورية لكل من أراد أن يلتزم حدود الأدب".

ترى في المعسكر بعض مواطني بريدة يقايضون بسلعهم، كما ترى أفواجاً من البدو يحمل كل منهم سوطه بيده، فإذا عنّ لك أن تسأل أياً منهم عن السبب الذي أتى به إلى هنا فسيكون جوابه بالتأكيد شيئاً مرتبطاً بكلمة جمل أو مرادفاتها. فلكلمة جمل عند البدو خمسة وعشرون مرادفاً تستعمل كلها للدلالة على هذا الحيوان، فتميِّز نوعه أو عمره أو غير هذه وتلك من أحواله. ويتعالى في المعسكر زعيق الباعة وهم ينادون على سلعهم من الملابس الفارسية وآنية الطبخ وأدوات الزينة، وما إلى ذلك من سلع يحملونها على أيديهم لعرضها للبيع، أو قد يعرج البعض بها إلى المدينة حيث يمكن أن تجلب لهم هناك أسعاراً أعلى.

وجد الفرس أنفسهم مستنزفين بين الاستغلال الذي يمارسه مهنا (حاكم البلدة) عليهم وبين متطلبات نفقات إقامتهم اليومية التي تتزايد يوماً بعد آخر خلال بياتهم الطويل في هذا المعسكر، فاضطروا إلى أن يعصروا محافظهم حتى جفّت، ثم لجأوا بعد ذلك إلى بيع ما تحتّم عليهم الضرورة المُلحّة بيعه بثمن بخس ليقابلوا نفقات شراء لبن أو حزمة حطب. وهكذا بدا مظهر هؤلاء الرجال يكشف عن خليط من الناس، المرتدين الملابس الجديدة الزاهية، والآخرين الذين يروحون في ثياب بالية، فيبرز التناقض بين مظاهر الثروة وعضّة الحاجة المُلحّة. ويمكن أن تلخّص الحال بالقول: إن مظهر هؤلاء الرجال يحدث عن أنهم أعزاء واجهتهم ظروف عصيبة. "على الرغم مما تحرّكه هذه المنطقة فينا من إثارة، إلا أنني وصاحبي بركات كنا نرى ألا يطول بنا المقام هنالك، وذلك خشية أن يكشف ما نتعرض له من أسئلة لها ما يبررها عن هويتنا، أو نصادف معارف يحسن بنا ألا نقابلهم في هذه الظروف".

يقول بالجريف إنه وجد أهل بغداد والكوفة وكذلك الشيعة جميعهم بصفة عامة الأكثرين إلحاحاً في إلقاء الأسئلة، وهم – "إذا جاز لي أن أستعمل اللفظ العربي – أخف دماً من غيرهم، ولا يميزهم ذلك التحفظ المعتاد الذي يميز العرب، فتراهم يلقون أسئلتهم على الأغراب". ويقول بالجريف إنه صادف مرّات عديدة أشخاصاً تطلعوا إلى معرفة كل شيء عنهم، ثم

تظاهروا بأنهم يعرفون عن شأنهم أكثر مما يعرفونه حقيقة.

ولما لم يكن من اليسير علينا أن نتخلص من أسئلة أمثال هؤلاء الأشخاص بردود عامة، آثرنا أن ننزوي عنهم ونبتعد عن سبيلهم. وقد حدث أن صادفنا في هذه القافلة تركياً داهية كان يتحرّق تطلعاً إلى معرفة أمرنا، ورغم أنه كان يلقي أسئلته بأسلوب مهذب، إلا أن أسئلته السهلة كانت في الحقيقة من الصعب الإجابة عنها تماماً من جانبنا. وعلى الرغم من ذلك، بات من المؤكد عندي أن هذا التركي عرف أكثر من ثلثي ما كنا نكتمه من أمرنا. ولو كنا قد قابلنا هذا الرجل في غير هذا المكان وغير هذه المناسبة، لكان علينا أن نتعامل مع زبون صعب لا يسهل التعامل معه أبداً. فالعصمنلي - بصفة عامة - يمكن أن يقرأ ما وراء السطور بنحو أعمق وأشمل مما يفعله الآخرون، فهو حصيف في تخميناته.

الدليل إلى الرياض

نعتقد أن أبو عيسى الذي يدّعي بالجريف أنه صادفه في بريدة في يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٦٢ وتعاقد معه دليلاً ليأخذه وزميله إلى الرياض وما وراءها، هو البطل الحقيقي لرواية بالجريف، وهو الرجل الذي روى الروايات في الشام لبالجريف، فعالجها الأخير بخياله الخصب وصاغ منها قصصه ورواياته وإبداعه. ولنترك بالجريف يعرفنا إلى ظروف لقائه بأبو عيسى والحظّ الذي ساقه إليه.
يقول هذا الرحالة إنهم كانوا يبحثون عن دليل بعد فترة من الانتظار في بريدة امتدّت لستة أيام ."... لقد أصبحنا الآن في حالة من الخواء لا نحير منها فكاكاً، ولا ندري كيف يمكن أن يكون خلاصنا منها. أحاطت بنا من كل جانب الأسباب التي اعتدنا أن نعتذر عن طبيعتها وندرك مدى قوتها، ولا ندري كيف نفعل. ومرت خمسة أيام من البحث المضني نتعقب فيها في المدينة وفي المعسكر ريح دليل يمكن أن يقودنا إلى الشرق، ولكن من دون جدوى. وتمثلنا المثل العربي من أننا نبحث عن بيضة العنقاء. ورغم ذلك فقد كنا مصممين على ألا نستسلم للهزيمة التي لاحت أمام سعينا، وكم كان ارتياحنا بالغاً من أن تلك المساعي الدائبة لم تُثر حولنا الريبة أو تحرك الشكوك أو تلقى اهتماماً شاملاً أو مراقبة لنا دقيقة من أي أحد، الأمر الذي لو حدث لكان مزعجاً لنا - كانت الحرب الدائرة تسترعي كل الانتباه. كذلك صرف عنا استعراضنا لمخزوننا من الدواء الأنظار... وتداركتنا العناية الإلهية أخيراً فأفضت بنا إلى أمر ما كنا لنتوقعه، توقيتاً ولا مدى. لقد هيّأت لنا العناية من الأسباب ما مكننا ليس فقط من زيارة نجد، ولكن من الوصول إلى

مناطق أبعد منها شرقاً. ومثلت هذه السانحة – في حقيقتها – نقطة التحول في رحلتنا برمتها. فقد أدى لقاء عرضي جرى صدفة وبلا ميعاد إلى تيسير صعوبات رحلتنا وتعديل مسارها، فامتدّت بنا الرحلة من بريدة إلى نجد ومنها إلى عمان ثم إلى بغداد. وقد حدث هذا التحول في اليوم السادس لوصولنا إلى بريدة. كنت في ظهر هذا اليوم أجلس في قهوتنا (غرفة تناول القهوة أو غرفة المجلس) وحيداً كئيباً أحاول أن أزجي وقت فراغي بكتاب لا يُضاهى وهو **ديوان ابن الفارض**، جليسي المفضل في أسفاري، وكان بركات قد خرج ينشد ضالتنا (الدليل) التي لم تكن فرص النجاح في العثور عليها إلا ضئيلة. خرج الرجل ليضرب في الأرض عاليها وسافلها وراء هدفه، ولكنني ما كنت أظنّه يعود إلي إلا كما خرج، خالي الوفاض. ولكن، ويا للعجب، فقد جاءني بعد ساعتين يسعى وقد انفرجت أساريره، ما حدثني بأنه سيزفّ لي أخباراً سارة. وفعلاً، فقد كانت أخباره سارة ما كنت أطمع في أن أسمع أحسن منها. قال لي محدثي إنه خرج يجول الشوارع ويجوب السوق على غير هدى، ثم انثنى إلى المعسكر الفارسي وراح يجوس خلال خيام المعسكر ككلب الحراسة، واسترعى انتباهه جماعة من الحجاج وقد اتخذوا لهم مكاناً قصيّاً جالسين على الرمال وأمتعتهم بقربهم. وكانت خيوط من الدخان تتعالى وتتلوى في الهواء في وسط تلك الحلقة، فاستدلّ بذلك على وجود نار في ذلك المكان، وأدرك أن مثل هذه النار لا توقد في هذا الوقت من النهار إلا لإعداد القهوة. وعلى الرغم من أن بركات رجل متحضر، إلا أنه عربي الانتماء والسلوك، ولا يمكنه أن يرقب قهوة تُعدّ ولا ينال حظّه منها، فالامتناع عن ذلك هو من قبيل إعمال ضبط النفس الذي لم يسمع به أحد من قبل. توجّه بركات نحو تلك الجماعة التي دعته – بالطبع – إلى أن يشاركها القهوة. إن هذا الأسلوب الهين السهل في التعارف ثم التآلف في أوساط العرب أمر لا يتوافق وقواعد أساليب المجتمع الأوروبي. ففي ذلك المجتمع لن يكون سهلاً أن ينادي المرء من ردهة منزله علي كل عابر متطفل ليشاركه مائدة إفطاره أو وجبة غدائه، بل إن عكس ذلك هو الصحيح! فليؤخذ إلى الشرطة بسبب تعديه وفق نصّ القانون لمعاقبته. وإن عبارة كلب من أنت؟ ستكون الرد على كل غريب متطفل، حتى ذلك الذي لا يضمر شرّاً ولا يبدو متطلعاً إلا لمجرد الأخذ والرد ولا شيء فوق ذلك. إن معالجة مثل هذه المشاعر بهذا الأسلوب الأوروبي ربما كانت أقل حكمة، بل من المؤكد أنها أقل إنسانية ونبلاً. فالعربي مستعد للترحيب بكل من يقترب منه، والتحدث مع أي رجل تلتقي نظراته معه... ومن حسن الحظ أننا هنا في شبه الجزيرة العربية.أخذ بركات مجلسه في وسط تلك الجماعة التي ضمّت فارسيين من أصحاب اليسار وثلاثة أو أربعة أنفار من أشباه الخدم أو أشباه المرافقين الذين يتعلقون بالمسافرين الذين يمرّون ببغداد أو ما يجاورها، كما ضمّت أيضاً خلاسياً من دم عربي أفريقي وسيده. وكان هذا الأخير هو المسؤول عن رعاية هذه الجماعة ومدّها بالطعام والمشروبات ذات الرائحة الطيبة. وقد استرعى هذا الرجل انتباه بركات.

"تميز هذا الرجل بوجه مضيء، وكان واضحاً أنه لا ينتمي إلى عرب شبه الجزيرة العربية، يميزه أيضاً شعره الطويل المعقوص الذي يتدلى على كتفيه. وكان يرتدي زيّاً اتخذه من حرير ناعم النسيج، وإن كان قد نال منه غبار الأسفار، ويضع علي رأسه كوفية ملوّنة من صناعة سورية. ويوحي مظهره كما يُنبئ أسلوب تعامله بأنه قد نال حظّاً من العلم أوفر بكثير مما يتطلبه رجل في مثل مهنته: سائق إبل. كانت كل هذه المفردات في حدّ ذاتها سبباً كافياً لجذب انتباه بركات، فأثارت في ذهنه بعض تخمينات، وتبادل الرجلان الحديث بلهجة أهل دمشق أو أهل حلب، بعد عبارات التحية والترحيب التي تمتاز بسيل متدفق من الألفاظ التي تدلّ على الأدب الجمّ الذي ينهال باسترسال لا هوادة فيه، "وهو أمر اشتهر به السوريون من رعايا الإمبراطورية العثمانية". عندها أدرك بركات من دون أن يخامره أدنى شك أنه التقى رجلاً من مواطنيه ورفاق جلدته، وأنه في حضرة رجل ليس بخامل الذكر."

كان أبو عيسى، وهذا هو الاسم الذي يُعرف به هذا الرجل في هذه الأرجاء، رغم أنه يحمل اسماً آخر في بلدته، مواطناً حلبياً. ولم يكن بالرجل الغمر ولا الخامل الذكر في تلك البلدة الجميلة. فقد أهّلته ظروف نشأته كما أهله التعليم الذي ناله في بداية نشأته وفي فجر شبابه لأن يكون متفاهماً مع الحضر، وكذلك مع الرعاة، ومع كافة المواطنين وسائر الحضر من العرب والآخرين وكذلك مع الأوروبيين.

ينحدر أبو عيسى من أصول بدوية، فجدّه لأبيه يرجع إلى المجادمة، وهم فرع من بني خالد، تلك القبيلة التي تعمر منطقة الأحساء والساحل الغربي للخليج. وقد حدث أن هاجر قسم كبير من هذه القبيلة في فترة زمنية سابقة ربما تعود إلى حوالى القرن الرابع أو الخامس إلى سورية. واستقرت بعض أسر من البدو هناك، ولكنهم ظلوا متمسكين باسم بطن القبيلة التي ينحدرون منها، كما يعرفهم كافة الملمّين بأخبار الصحراء في المنطقة الواقعة إلى الشمال من حمص وحلب ببني خالد، غير أن المجادمة قد زهدوا في هذه التسمية. ورغم أن أبو عيسى ينحدر من أصل بدوي، إلا أنه حلبي العادات والأفكار والأخلاق، فهو ينتمي إلى تلك البلدة التي سلخ فيها الشطر الأكبر من طفولته وصباه. وعندما قام ذلك العصيان المسلح ضدّ الحكومة العثمانية في ١٨٥٢ في تلك المناطق، كان أبوعيسى وقتها في الخامسة والعشرين من عمره و"اتهم، صواباً لا أدري أم افتراء"، بأنه كان ضالعاً في تلك المؤامرة الكبرى. وقد عالج الرجل هذا الأمر، شأنه شأن المتهمين الآخرين، بالهروب على عجل ليقضي بعد ذلك فترة بيات خارج الأسوار البيضاء لمدينته، ولكنه ما لبث أن تجرّأ وعاد إليها مرّة أخرى. وظهر أبو عيسى أمام مواطنيه بعد سنة قضاها في التجوال ومقارعة المغامرات. ولكنه وجد أن ممتلكاته إضافة إلى ممتلكات أسرته قد صُودرت جميعها أو نُهبت، وأنه بات مفلساً، وأن والده كان قد تُوفي بعد فترة وجيزة من اندلاع تلك الثورة.

يضيف بالجريف أن أبو عيسى عمل على معالجة خسائره بالعمل بالتجارة، ولقي دعماً من أحد اليهود في هذا الصدد، فأصبح وسيطاً تجارياً بين حلب وبغداد، وكان يقوم أحياناً بإبرام بعض الصفقات لحسابه، وامتدت بعدئذ معاملاته التجارية إلى البصرة. ونعتقد أن هذا اليهودي كان واسطة اللقاء بين بالجريف وأبو عيسى في الشام، وأن اللقاء بين الراوية أبو عيسى وهذا الرحالة لم يتمّ في القصيم إنما تمّ خارج نطاقها قبل وصوله إليها بعدّة سنوات. ويستطرد بالجريف فيقول: إن أبو عيسى تمكن من أن يربح من أنشطته التجارية مبلغاً مُقدّراً، فرأى أن يجرب حظه في تجارة الخيول بين الخليج والهند. وإن تلك الفكرة لم تراوده لمجرد أنه كان يريد أن يصيب ربحاً، ولكن ليحقق رغبة دفينة في نفسه لها شقّان، أوّلهما أنه يسعى لتحقيق أمنية تراود كل مجدمي عموماً، وهي تطلعه إلى زيارة الأحساء، مهد قبيلته، وثانيهما حبه للخيل التي يبقى كل من قضى سنوات طفولته الأولى على سروجها مولعاً بها أبداً. ولتحقيق هذا الأمل، جمع أبو عيسى ماله وغادر من البصرة إلى الكويت التي سافر منها برّاً إلى الأحساء، وهناك اجتمع له عدد معقول من الخيول التي تروج في السوق الهندية. وأبحر معهم من البحرين على سفينة كانت متجهة إلى بومباي... ولكن سرعان ما ذوت آماله الغضّة في الثراء والنماء جرّاء الخسائر التي قد تلحق بهذا النوع من النشاط. "ولقد سمعت ذات مرّة أن بعضهم طلب إلى رجل حكيم من أهل نورفولك أن يسهم في مثل هذه الأنشطة، فكانت إجابته تدلّ على حكمة تقصر دونها معرفته باللغة وقواعدها: الخيول تأكل، والخيول تموت، وأنا لا شأن لي بالأشياء الآكلة ولا الميتة". عانت خيول أبو عيسى من وباء نزل بتلك الشحنة من الخيل في السفينة التي ما إن بلغت مدينة أبولو (بلوراج) حتى كان أكثر من نصفها قد نفق، وألقي بها في البحر لتلتقمها حيتان بحر الهند. أما ما تبقى منها فقد أنزل إلى البرّ في حالة يُرثى لها وأودعت إسطبلات القلعة. وبما أن الخيول قد وصلت إلى هذه القلعة في موسم غير مناسب، وبما أنها كانت تحتاج إلى كمية من العلف الذي كان غير متوافر في هذا الوقت من السنة، وبما أن أسعار الخيل كانت متدنية، فقد مُني أبو عيسى بخسارة فادحة.

عاد أبو عيسى من رحلته خالي الوفاض، لا خيل عنده ولا مال إلا القليل، واستحسن أن يعود إلى الأحساء، فقد انتابه الخجل وتملّكه الوجل من أن يذهب إلى بغداد أو إلى حلب مفلساً. أما في الأحساء فيمكنه أن يقيم كما يحلو له فهي من المناطق التي يلجأ إليها الرجال الذين لا تفي مدخرات محافظ نقودهم بمتطلباتهم. وصادف أبو عيسى في الأحساء كرماً أصيلاً، ولقي الدعم من أصدقائه الذين أخذوا بيده. و لم يكن هذا بالأمر المستغرب، نظراً إلى الخصال الشخصية التي يتمتع بها هذا الرجل. فهو رجل لبق كيّس، ذو لسان عذب وعقل راجح في كل الأمور، إلا في ما يخصّ إدارة المال، كما أنه "يتمتع بدفء المشاعر، فما حدث لي أن عرفت إلا نادراً من هو أدفأ مشاعر منه".

لم تمضِ على أبو عيسى بضعة شهور من إقامته في الهفوف إلا وقد جمع مالاً مكّنه من التعامل في تجارة العباءات (العبي) الجميلة ذات الصيت، التي تمثّل الصناعة الرئيسة في تلك المدينة. وانبرى بماله يجرب به حظه في التجارة مرّة أخرى، ولكنه كان هنا أيضاً على موعد مع سوء الحظ وخيبة الأمل. كان أحد أقارب أبو عيسى قد لحق به في الأحساء، فأوكل إليه الأخير مهمة القيام بالسفر إلى البصرة لبيع العباءات هناك. وحين باع هذا الوكيل الموثوق به بضاعة أبو عيسى وجنى منها مبلغاً معتبراً من المال، قرر أن يعمل لحسابه الخاص، فركب البحر إلى كراتشي وبومباي وظلّ هناك لينفق تلك الثروة التي أصابها حراماً، و لم يرجع بعد ذلك أبداً. وبناءً على ذلك، فقد طوّق سوء الحظ أبو عيسى للمرّة الثالثة وردّه ردّاً إلى الفاقة المدقعة. وظلّ على هذا المنوال يعاني مشكلات كبيرة متفاقمة حتى تمكن أخيراً من أن يكسب مبلغاً زهيداً استثمره في تجارة السيوف وبعض أصناف السجاد الفارسي، وكان يسعى بهذه السلع إلى الرياض. وأهدى أبو عيسى بعض هذه السلع إلى محبوب، "رئيس وزراء فيصل"، كما أهدى بعضها إلى فيصل نفسه. وبعد أن قام أبو عيسى بهذه الخطوة التمهيدية، أتبعها بطلب إلى "الملك" يطلب فيه تخويله حق القيام بأمر وظيفة ثانوية، وهي أن يعترف به كأحد الأدلاء العاملين في قوافل الحجاج السنوية عبر نجد، وقد استجيب لطلبه. وبهذا دلف أبوعيسى إلى نمط جديد أكثر تجانساً وملاءمة لطبيعته. وحين قابل بالجريف أبو عيسى، كان لا يزال ممارساً لهذا النشاط الذي لازمه للسنة الثالثة على التوالي. "وكان أدبه الجمّ وأخلاقه الدمثة وأمانته التامة واستقامته المفرطة قد أكسبته سمعة حسنة في أوساط الحجيج الذين لم يخبروا من الأدلاء الوهابيين سوى الجشع والسلوك الذي لا ينمّ عن اللباقة". وكان لأبو عيسى، فوق كل هذا، ميزة قيمة كانت موضع تقدير المرافقين له من الشيعة بوجه خاص. فكل الأديان والمذاهب وكل الفرق وأفكارها لها في نفس أبو عيسى التقدير المتساوي والتوقير. أما هو ذاته فلا يبدو منتمياً إلى مدرسة تفكير معينة، و لم يرتبط أبداً بأي جماعة فكرية بذاتها. وعندما كان أبو عيسى صغيراً في مدينته، كان أكثر التصاقاً فيها بالنصارى وباليهود منهم بالمسلمين. و لم يكن أبو عيسى يهتم على الإطلاق بالتفريق بين مذهبي أهل السنّة والشيعة، فكلاهما على صواب وكلاهما على خطأ. وهذا التفكير ليس غريباً في المجتمعات العربية. ويمتد تسامح أبو عيسى ليغطي مساحات أخرى نادراً ما توجد عند الآخرين. فهو لا يضع اعتباراً للفروقات العرقية، كما شأنه مع الفروقات الدينية. فالفرس والعرب والشرقيون كلهم، كما الغربيون، يلقون من أبو عيسى احتفاءً متساوياً، وتراه يعترف بالخصال الطيبة في كل عرق من هذه الأعراق جميعها من دون تحامل على أي منها أو مفاضلة. وعلى ذلك تجد الفارسي الذي يكون في صحبته بمنجاة من مناقشة النزاع غير المبرر في ولاية الخلافة ومميزات كل من عثمان وعلي رضي الله عنهما، كما يمكن الفارسي أن يتبجّح أمام أبو عيسى – من دون أن يصادف أي

اعتراض - بروائع أصفهان وطهران وأمجاد حكامهما.

أهّلت هذه الصفات كلها أبو عيسى للقيام بمهمات وظيفته، فتهافت عليه عدد كبير من الحجاج لقيادتهم، ما أكسبه درجة ثراء أبلغ من تلك الذرجة التي كان قد بلغها في الهفوف حين قدومه إليها للمرة الأولى. كذلك تمكن أبو عيسى من خلال رحلاته جيئة وذهاباً عبر نجد أن يضاعف أعداد معارفه العديدين من الشيوخ المركزيين ومن الحضر والبدو أيضاً، وخاصة أن ما امتاز به من كرم رفعه إلى درجة القبول عند الجميع. كانت قهوته دائماً على النار، فيما كان جراب تبغه مفتوحاً للجميع، أما عشاؤه فمتاح لكل غاش. "ويبدو لي - وهنا أتحدث عن تجربة شخصية - أن الرجل كان يتعجّل إتلاف كل ما يملكه على أصدقائه، و لم يكن ما يملكه بالهيّن ولا باليسير".

حين يعود أبو عيسى من رحلاته يستقر في الهفوف، عاصمة الأحساء، "فهو مكان يفصل أبو عيسى بينه وبين الذين يسكنونه من الوهابيين الذين يكره منهم انغلاقهم ويسخر من تزمتهم، كما كانوا من جانبهم حين تقع أبصارهم عليه يفضحونه بما هو عليه من تدخين التبغ وارتداء الملابس الحريرية وتحرره الديني". وفي الحقيقة فإن الأكثر حماسة في أوساط الوهابيين "الأرثوذكس" في الرياض كانوا قد قالوا الفيصل: "كم هو مشين أن يُعترف بموظف حكومي مثل هذا وتُسبغ عليه الحماية الملكية وهو ليس بأفضل من الكافر إلا قليلاً".

كان أبو عيسى يدرك ما يُثار حوله، فعمل على تفادي أي إثارة لا مبرر لها، وحرص على ألا يشخص إلى الرياض إلا لماماً. ولكن حين لا يكون له مناص من ذلك، فإنه يشخص إلى هناك حاملاً هدية يُسوّي بها المصاعب ويشتري بها التوافق. وعلى هذا النهج تمكن أبو عيسى، لمدة ثلاث سنوات متتالية، أن يحافظ على موقعه الذي يتيح له هذا الثراء، رغم المؤامرات المتواترة التي تُحاك ضده. وعلى الرغم من أنه ظلّ أبداً يبحر بين الصخور، لم يرتطم بإحداها أبداً.

"ولنا أن نقول إن دماثة أخلاقه وسهولته المفرطة في التعامل هي التي أورثته المتاعب العديدة والمصاعب الجمّة، كما أورثته الخذلان في هذه الرحلة التي يقوم بها حالياً. لقد كانت قافلة الحجيج تسير تحت قيادة أبو بطين (البابطين)، وهو وهابي قُحّ، و لم يكن صديقاً لبطلنا الذي نروي عنه، وقد بذل أبو عيسى جهده في التجمل والتلطف أمامه. وكان أبو عيسى قد خرج مع جماعة من الحجاج الفرس من ساحل الخليج ووصل معهم إلى مكة المكرّمة، حيث طاف بالبيت في عزّة وفخار محاطاً بكوكبة من الخدم والرقيق وحوله الحجاج الفرس المرافقون له. وحين همّ أبو عيسى بمغادرة تلك المدينة المقدسة إلى المدينة المنورة، دهمه مرض خطير ألزمه السرير، فما عاد يستطيع حراكاً، ويئس الأطباء من علاجه. ووجد أبو بطين الفرصة سانحة لممارسة ضغينته ضد منافسه، فتمكن عن طريق أحد العاملين مع أبو عيسى من الغدر بهذا الرجل الذي كان غائباً عن الوعي، فنهب جميع منقولاته واستولى على كافة ما استطاع أن

يظفر به، كما اصطحب معه القسم الأكبر من الحجاج الفرس الذين كانوا برفقته. وحدث أن تماثل أبو عيسى للشفاء، ولكنه وجد أنه لا يملك سوى ستة من الإبل ومبلغاً زهيداً من المال، ولم يتبقَّ في صحبته من الحجاج الفرس سوى اثنين كان المرض قد أقعدهما عن الرحيل مع الآخرين. ومما يجدر ذكره أن المرض حدث عادي ينتاب زائري تهامة الحجاز الوخيمة الجوّ في موسم الصيف.

باع أبو عيسى اثنين من إبله المتبقية واستبقى أربعة منها: واحداً لركوبه، وآخر لخادمه، واثنين للحاجين المرافقين، وكرّ عائداً حتى وصل إلى بريدة حيث وجد قافلة الحجيج قد حطّت رحالها. وفي الحقيقة، فإن السبل تتفرق بالحجاج من بريدة، حيث يسلك الشيعة الطريق الشمالي الشرقي في رحلتهم إلى مشهد، أما أبو عيسى فإنه سيسلك الطريق الجنوبي الشرقي الذي ينتهي إلى الهفوف بعد أن يعبر نجداً، أو في الحقيقة بعد أن يمر عبر المنطقة التي كان بالجريف – كما يقول – حريصاً على التوغل فيها. وفي الهفوف كانت زوجة أبو عيسى الحبشية كما كان ابنه كلاهما يترقبان وصوله إليهما. وعلى ذلك فقد كان أمراً ممكناً بل يسيراً أن يطلب وليام جيفورد إلى أبو عيسى أن يكون دليله إلى نجد. وقد عضّد هذا الأمر أمر آخر جعل الرجل أكثر ميلاً إلى رفقته له. فهو ما إن لمح بركات حتى استبان هويته، فالرجل خبير بكل فصيلة من فصائل السوريين في المنطقة الواقعة ما بين غزة وحلب، فأدرك بداهة أنه التقى رجلاً كان قدره أرفع من مستوى العمل الذي وهب نفسه له. "وتلقاه بركات بأدب جمّ ثم أخبره بمقصدنا وبما نريد، فقد كان بركات مبتهجاً بهذا التيسير الذي برز عقب المصاعب التي بدت كأنها تعمل على إعاقة تقدمنا". طلب بركات إلى أبو عيسى أن يكون دليل ركبهم إلى الرياض، فأجاب الأخير بأن ليس ثمّة ما يمنع استجابته للطلب، خاصة أن مرافقيه الفارسيين سيفترقان عنه هنا، وسيتوافر له عدد كاف من الإبل يمكّنه من الاستجابة للطلب. "أما في ما يخصّ عدم ترحيب الوهابيين بدخول الأجانب إلى بلادهم وما قد نلقاه جراء شكوكهم وما قد نتعرض له من نقد، فقد قال أبو عيسى إنه ليس هناك ثمة شيء يستوجب التوجس ما دمنا في ركابه، لأنه معروف لديهم تماماً".

استفسر بركات عن أجر الإبل، فطلب أبو عيسى مبلغاً زهيداً لا يتجاوز نصف المبلغ الذي سبق لبالجريف وصاحبه أن دفعاه إيجاراً للرحلة من حايل إلى القصيم، رغم أن المسافة التي أزمعا قطعها في هذه المرحلة تفوق تلك التي كانا قد قطعاها بمقدار الثلث.

" في المساء وفد إلينا أبو عيسى تحيطه هالة من النبل وسهولة التعامل، وسرعان ما انسجم معنا وأخذنا في تبادل الأحاديث. انتابتني الحيرة بداية وأنا أحاول فكّ طلاسم هذه الشخصية التي أخذت من كل شيء بطرف، ولم يكن يميزها نمط بعينه. فهو في سلوكه ليس بالبدوي ولا بالحضري، ولا بالمسلم ولا النصراني، أما وجهه فرجولي تعلوه مسحة رقّة هي إلى الأنوثة أقرب،

وقد ذكّرني هذا الوجه بصورة بعض مشاهير رجال الغرب في القرن الثامن عشر. ينمّ حديث الرجل عن ذكاء غير مبرّأ من الجهل الذي كان يمكن أن يُصقل لو صادف تعليماً منظماً. وتدل ملابسه على التهاون والإهمال مما لا يتفق وهيئته، أما لهجته فهي في ظنّي لهجة أهل سوريا أحياناً ولهجة أهل نجد أحياناً أخرى، وأحياناً هي لهجة أهل البادية. ويمتاز هذا الرجل، فوق هذا وذاك، بأن حديثه متسلسل لا تقطعه تلك العبارات النمطية التي تعوزها الأصالة، والتي يملأ بها حتى أقل المسلمين تديناً فواصل بين الجمل في حديثه. تجمعت في دليلنا المرتقب كافة هذه الصفات المتقابلة، ما أصابني بالحيرة في أصله وشخصيته... تميز دليلنا بإخلاص طبيعي رغم أن الظروف التي تحيط به تحرض على عكس ذلك. فمن المؤكد أن حياة الرحلة والتجوال ليست المدرسة الملائمة لتعلم أمانة التعامل وانتهاج سلوك شخصي قويم، غير أن لأبي عيسى دليلنا من الأمانة والسلوك القويم ما جعله مثار إعجاب الكثير من الناس، ومكان سخرية البعض في آن واحد، ولكنه في كلتا الحالتين حديث الجميع. ولا تسمع من الرجل أبداً تلك الترّهات التي تتواتر حتى في حديث الطبقات الراقية من العرب يملأون بها وقت فراغهم. ويدل أسلوب حياة هذا الرجل المثالي السلوك على العفة والنزاهة. كان دوماً زوجاً مخلصاً رغم ثرائه، كما لم يُؤثر عنه في تعامله المادي إلا نظافة اليد، فلم يكن يُماري في الحقوق أو يُماطل في دين. وقد أجمع كل من تعامل معه على أمانته التي لم تشبها شائبة. أدت به ثقته إلى أن يدفع بأمواله ومهماته إلى بعض الوكلاء، ولكنه لم يفتح عينيه على تجارب الماضين إلا بعد فوات الأوان. ومع ذلك فإن خيانة ارتكبها صديق قديم في حقّه لم تجعله يشك في صديق حديث عهد بصداقته، بالرغم من أن كلا الصديقين الطارف والتليد غير جدير بالثقة والإخلاص. امتدّت معرفتي بالرجل شهوراً عديدة كان فيها من الإثارة ما مكنني من أن أتحقق من الصفات التي ميّزت هذه الشخصية وصبغت سلوكها. كنت - مثلي مثل بركات - قد اعتقدت أول وهلة أنه نصراني من أهل حمص أو حماة، وكنا نفكر في الظروف التي ألقت به إلى هذه الأرض، ولم يكن أبو عيسى أقل رغبة منا في أن يلتئم في صحبتنا، وأبلغنا أنه سيكون جاهزاً للرحيل في غضون يومين أو ثلاثة. وقبل أن يفارق بركات صاحبه الجديد، دعا أبو عيسى نفسه لتناول العشاء معنا في ذلك المساء."

".. بدأنا نعد العدّة لتجهيز وليمة، فاشترينا قطعة من اللحم طيبة، وهذا ما لم نكن نفعله إلا نادراً. وطها بركات اللحم بطريقة أقرب إلى أسلوب الطهو السوري منها إلى أسلوب طهو أهل شبه الجزيرة العربية. ولم يكن يعوزنا التمر ولا الزبد، فجهزناهما للتقديم في طبق واحد، وقد ازدانت مائدتنا بالخبز المخمّر، فنساء بريدة قد تعلّمن فن التخمير من الفرس. ويستطيع المرء أن يحكم بأن مائدتنا كانت غاية في الروعة قياساً بموائد القصيم. واضطررت إلى أن أدعو الفارسيين اللذين كانا في صحبة أبي عيسى، لأن دعوة الرجل من دون مجموعته من الأمور

التي تُعدّ غاية في الخسّة والدناءة. ولمّا كان مضيفنا أحمد قد أمدنا بآنية الطهو، فقد أصبح في المقابل أحد المدعوين إلى مائدتنا، كما دعونا اثنين من أعيان المدينة كانا قد شرّفانا بزيارتهما لنا في وقت سابق، وذلك لتتسع دائرة البهجة والمسرّة بتناول الطعام مع الأصدقاء. وكانت خلوتنا تكفي لاستضافة كل هذا الجمع من المدعوين."

مصاعب الرحلة إلى الرياض

يقول بالجريف إنه غادر حائل في ١٣ ربيع الأول ١٢٧٩/٨ سبتمبر ١٨٦٢ في طريقه إلى الرياض التي أزمع السفر إليها، بعد أن زوّده عبيد بن رشيد، – الذي كان بالجريف في ما يقول يتوجس منه – خطاب توصية إلى صديقه عبد الله بن فيصل، ويدّعي أن إحساسه بالريبة دفعه إلى فضّ تلك الرسالة فوجد فيها فقرة تتهمه بأنه ومرافقه يمارسان ما يمكن أن يُطلق عليه الشعوذة أو الدجل. وكان بالجريف – كما يدّعي – يدرك أن هذه جريمة عقوبتها الإعدام في الرياض، لذلك أخفى الرسالة عن سلطات الرياض تماماً، لأنها – كما يقول – تحمل حكماً بإعدامه. فالأمير عبد الله بن فيصل كان يحكم نيابة عن أبيه الذي أرهقته السنون. وشبّه بالجريف عبد الله – حين التقاه في الرياض لاحقاً – بهنري الثامن، فهو يماثله شكلاً ويشبهه في كثير من الملامح والسمات، فكلاهما إلى السمنة والبدانة أقرب. ووصف بالجريف عبد الله بالرجل البذيء الخؤون الجلف المتكبر المزهوّ بنفسه، القاسي الذي يدلّ مظهره على أنفة وصلافة بالغين، وهو مع ذلك سياسي بارع، وشجاع صارم، متمكن من فنون التكتيك الحربي.

إن العرب من كل ملّة، من مسلمين وغيرهم، من أهل شمّر أو من مواطني مكّة، من الجوف أو من اليمن، غير ميّالين – إلا القليل منهم – إلى الوصول إلى هضبة طويق وولوج دروب وادي حنيفة ما لم يكن هنالك دافع قوي يدفعهم إلى ذلك، فإذا كان هذا هو حال العرب، فكيف بالأجانب؟!

يقول بالجريف: هناك عقبات إضافية عاقت تقدمهم إلى هضاب نجد، منها أن الحرب التي كانت تجري على قدم وساق، وأعمال النهب والتخريب والحصار المصاحبة للحرب، رغم أنها كانت موجهة لعنيزة من دون غيرها، إلا أن الإقليم برمّته كان يناصر هذه المدينة الجريحة، إما علناً وإما تعاطفاً. وبريدة ذاتها – بالرغم من وجود مهنّا والدائرين في فلكه، وبالرغم من وجود حامية وهابية تعسكر تحت ظلال أسوار المدينة – ما كان لها أن تظلّ بعيدة عن الثورة إلا بالكاد، وكان كل قلب ينبض فيها وكل لسان مجنّداً لمصلحة زامل ضد فيصل، يبتهج بانتصارات الأول، ويبتئس لهزيمته وانكساره. ولم يكن هذا الأمر – بطبيعة الحال – بخافٍ

على الحاكم النجدي ومعاونيه، فقد كانوا يعرفون سرّ البعثات التي كانت ترسل إلى مكّة أحياناً وإلى جبل شمّر أحياناً أخرى، ولم تكن ترسل من قبل زامل وحامية عنيزة فقط، بل من مواطني الرسّ والخناكية أيضاً، بل من قبل مواطني بريدة أنفسهم، ولهذا فإن مواطني القصيم كلهم لم يكونوا في نظر الوهابي بعيدين عن الشبهات. فقد كانوا – وهنا نقتبس نصاً قرآنياً – "يسعون في الأرض فساداً" كأسوأ ما يكون الكفار والغاوون، لذلك نجد هؤلاء القوم غير راغبين – في هذا الوقت خاصة أكثر من أي وقت مضى – في عبور الحدود الشرقية لإقليمهم في اتجاه نجد.

يوالي بالجريف ذكر العوائق التي كان يمكن أن تعترض تقدمهم إلى الرياض فيقول:

> وهناك أسباب أخرى. فمهما كان رأينا في أنفسنا واعتبارنا لما نقوم به من أفعال، فإننا في النهاية أجانب أتينا من مناطق يمقتها الوهابيون ويكرهونها ويعدّونها مراتع للحمقى وأرضاً للشرك، ويعدّوننا أمّة كافرة سافرة العداء. وأجد أنهم إذا اعتبرونا جواسيس للعثمانيين، فإن ذلك أفضل لنا من اعتبارنا جواسيس للحكومات النصرانية الأوروبية. ونستطيع أن نتنصّل بسهولة من الاتهام الأخير، لكن يمكن أن نسقط بسهولة في الاتهام الأول. وباختصار، فإن الدليل الذي يمكنه أن يصحب أشخاصاً بغيضين أخلاقياً من أمثالنا إلى أراضي القديسين تلك سيدخل مثلنا في دائرة الخطر. فالخطر المحدق به لا يقل عن الخطر الذي يواجهنا إلا بالكاد، لأنهم سيعتبرونه مثل الطاووس الذي فتح باب الجنة للشيطان، وسمح له بدخولها، وما كان حظه ممّا لقيه من العقاب بالتافه ولا بالطفيف.

السيف وسيلة كسب العيش

يعتقد بالجريف أن مجريات الأمور في نجد قد هيّأت في تلك الفترة للنجديين وسيلة جديدة للكسب، أو ربما أمكن القول إن أبواب الرزق قد اتسعت في وجوههم بنحو لم يكن معهوداً في السابق. فالنجديون الذين جبلوا على الحرب والنزاع، والذين لا تُوحي شخصياتهم التي صوّرها لهم في السابق إلا بشعارهم: "إنك لن تريد إلا ما أريده"، والذين كانت أعمال نهبهم وسلبهم ضمن دائرة جبل طويق حيث لا يوجد الكثير مما يمكن لهم أن يكسبوه، وحيث الفقراء يسرقون، والشحاذون يسألون الشحاذين، ما إن دخلوا دائرة أسرة ابن سعود القوية

حتى اختلف أمرهم، فأصبح القتال منهجاً ناجحاً، ولم يعد القتال موجهاً ضدّ مواطنيهم النجديين المعدمين، ولكنه انتقل إلى سواحل الأحساء الغنية ضدّ تجار اللؤلؤ والعاملين فيه في عمان، وغدا المقاتلون يظفرون بسَلبِ مكة المكرّمة والمدينة المنورة ومشهد الحسين والزبير يجلبونه إلى خزائن الدرعية وتوابعها، إضافة إلى أن للحرب وأسلحتها بريقها الذي يميزها عن الفأس وفلاحة الأرض، كما تروي الحرب ظمأ التوتر والتعصب، والرغبة في السلب والنهب واكتساب الجديد، وتؤدي إلى تحقيق الشعور العام الذي يستحوذ على الفكر ويتملّك المشاعر ويقود – في الوقت ذاته – إلى تلبية الحاجات العامة. ومنذ أن انطلقت الحملات الأولى التي قادها سعود "حتى الوقت الراهن"، فإن كل رجل في العارض والأقاليم المناظرة لها ينظر إلى السيف وسيلة وحيدة يكسب بها عيشه لأسرته ومجموعته، ويحقق لها – بالقدر نفسه – الدخل العام للدولة. ولذلك فإن موجات الوهابيين كلها تضرب في اتجاه معاكس للازدهار التجاري، كما أنها لا تهيّئ ظروفاً مواتية للنهوض بالزراعة. إن ما تجنيه جيوش المسلمين (التيهي عبارة تعني جيوش الوهابيين) من انتصارات، وما تحققه من آمال، وما تحصده من تفوقٍ ضدّ الكفار (وتعني جيرانهم المستقرين)، هو ما يستحوذ على تفكيرهم. فالنغمة الأساس التي تُحرّضهم على الحرب ضد المجتمعات الأخرى الأوفر إنسانية، والأعم فائدة في مجالات كثيرة، والأكثر سلماً، هي التي أورثت الشخصية الوهابية "هذا التدني".

على تخوم الرياض

ينفتح جنوب المدينة على سهول اليمامة الخصبة التي تنتشر فيها القرى والنجوع، ومنها مدينة "منفوحة" التي هي مدينة كبيرة لا تصغر الرياض كثيراً. وخلف ذلك عدد من التلال الزرقاء المهشمة، تلال اليمامة التي وصفها الشاعر عمرو بن كلثوم الشمري (؟) قبل ألف وثلاثمئة عام، وشبّهها بسيوف مسلولة في حومة الوغى. أما في ما وراء ذلك فالدهناء، صحراء الجنوب، التي لم يسبق لأحد أن سبر أغوارها. وتقع الدرعية إلى الغرب من الرياض عند المنطقة التي يضيق فيها السهل. وتتميز منطقة الجنوب الغربي بوجود تلال الأفلاج المنخفضة التي تشكل فاصلاً بين الأفلاج ووادي الدواسر، أما إلى الشرق فتتصل تلك الأرض المشققة غير المستوية بوادي السلع (Soley؟) الطويل الممتد الذي يتوغل فرعه الشمالي في ما وراء سلسلة طويق الداخلية تحت جبال عطالة (Atalah؟) ويصل في نهايته الجنوبية إلى حيز عريض من الرمال يتناثر فوقه عدد غير كبير من القرى والنجوع التي يمكن – حين تجتازها – أن تصل إلى مدينة الحوطة التي كانت في ما مضى غريماً للرياض، ولكنها باتت الآن تابعة لها. وتجاور منطقة الحريق بنحو عام الصحراء، وتتطفل عليها في امتدادها الشرقي حتى تنتهي إلى تخوم قطر تقريباً

وحدود مناطق الحكم العماني. أما الشرق فينفتح على أفق أزرق يقوم شاهداً على النهايات القصوى لمرتفعات طويق التي تحجب الأنظار عن أراضي الأحساء المنخفضة وسواحل الخليج.

جبت أصقاعاً عديدة من الأرض، ولكن قلّ أن وقع بصري على قطعة أرض تضاهي هذه الأرض جمالاً. فهي تشبع النظر وتثري العقل، وهي ثرية بتاريخها. ويمكن القول بنحو عام: إنه إذا حدث أن وقف أحد قرائي على منطقة من الأرض مولّياً لبنان ظهره ناظراً تجاه دمشق، وتبدّت له الغوطة من المرتفعات الواقعة في أعلى مزية (Mazzeh?) فيمكن أن يستَشفّ صورة تقريبية لما عليه وادي الرياض حين ننظر إليه من الشمال مع فارق بارز، فهذا الوادي الأخير شديد الاتساع كثير التنوع. وتعانق دائرة البصر في هذه المنطقه أودية أكثر اتساعاً وجبالاً أكثر ارتفاعاً وتنوعاً، يحتضن فيه الجفاف الصحراوي الخضرة الريانة عند دروب صحراوية متخمة جنباتها بالسكان. ولا يمكن أن تعكس أي بقعة من الأرض – عدا أرض شبه الجزيرة العربية – مثل هذا المنظر، الذي تبدو مقارنته بما تعكسه الأرض السورية مقارنة متواضعة، أما مقارنة ذلك بالأرض الإيطالية فتبدو مملة. تخيّم على المدينة طبقة خفيفة من ضباب الصباح، وهذه هي المرّة الأولى التي لاح لنا فيها ضباب منذ عدّة أيام، وفي هذا ما يدل على أثر الرطوبة الكثيفة التي تبثها أنفاس الحدائق، غير أن الشمس المحرقة سرعان ما تهتك ستر هذه الغلالة الشفيفة. لقد أعلنتنا الحرارة التي أخذت تتصاعد أننا قد دخلنا منطقة تتجاوز خطوط عرضها مثيلاتها في أي بقعة من العالم سبق أن وقفنا عليها. ولا مندوحة من القول: إن هذه المنطقة تلفحها الرياح الملتهبة التي تنفثها الصحراء المجاورة لها وراء قلب اليمامة، تلك المنطقة التي تبدو كأنها تنور كبير يرسل سمومه حتى تبلغ سواحل المحيط الهندي.

"أوقفنا سوائمنا فوق هذا المرتفع من الأرض لبضع دقائق نرمق هذا المنظر المهيب، وتتمتع نفوسنا بسَنائه، ونتعلل به علّه يطرد عنا القلق الذي أخذ ينتابنا ونحن نقترب من عرين الأسد. وعلى الرغم من أن أبا عيسى قد خبر هذا المكان سابقاً، إلا أنه وقف مع عرفات يتأمله أيضاً، ويسمي لنا في حماسة بارزة السمات الرئيسة التي يعكسها المكان، ويشير لنا إلى موقع الطريق الذي سيأخذه إلى موطنه في الأحساء."

"هبطنا التل لنجد أنفسنا عند أسوار أبعد الحدائق عن مشارف المدينة. وراح بعض من صادفناهم هنا يُحيّون دليلنا بترحاب تعكس نغمته معرفة سابقة به. أما الأمر الذي استرعى انتباهنا أكثر من سواه فكان أمر ذلك الصبي الذي تولّاه أبو عيسى يافعاً معوزاً في هذه المنطقة، وتحمّل عبء نفقاته بسخاء غير معهود في شبه الجزيرة العربية التي لا تشابه في هذا الصدد مع مناطق أخرى من العالم. كان هذا الصبي يملأ قربة من بئر عند قارعة الطريق، وما إن أبصر أبا عيسى هرع إليه، وقبّل يده برهاناً على الوفاء الخالص وتعبيراً عن فرحته بلقائه مرّة أخرى. وفي الحقيقة، فإن الوفاء خصلة عربية بقدر ما هو خصلة أوروبية. أما الأجانب (غير العرب)

الذين ينكرون على العرب ذلك فمردّ إنكارهم إلى الجهل أو التعصب."

راح أبو عيسى مع بعض الرفاق يسير إلى جوارنا، وكانوا يتسامرون جهد طاقتهم ويقهقهون حتى وصلنا إلى منطقة يبدأ منها طريق تفصل جانبيه الإسطبلات الملكية والحدائق الشاسعة التي تعود ملكيتها إلى عبد اللطيف، قاضي المدينة. وتابعنا الطريق حتى انتهينا إلى الجبّانة الكبرى الممتدة مع السور الشمالي الشرقي للمدينة، والتي أوى إلى مقابرها الغابرون من حقب بعيدة. القبور هنا دوارس، إذ لا شواهد قائمة ولا أحجار تحدد طرفي القبر، ولن تجد هنا نقوشاً ولا تواريخ مكتوبة. يرقد في هذه المقابر تركي، والد الحاكم الحالي، إلى جوار منافسيه المذبوحين مشاري وابن ثنيان مع عدد كبير من الأعيان ممن كان لهم ذات يوم شأن كبير، ولكنهم غدوا الآن كأن لم يغنوا بالأمس، لا تمايز بين قبورهم وقبور أفقر مواطنيهم.

الطريق إلى قصر الحكم

تتفرّع من الجبانة عدّة طرق إلى بوابات المدينة المتعددة. سلكنا طريقاً منها إلى المعبر الشمالي الشرقي. هذا المدخل إلى المدينة واسع مرتفع، على جانبيه أبراج مرتفعة غير متناسقة البناء. جلس عند المدخل مجموعة من الرجال المسلحين بالسيوف. وبعد أن استجاب أبو عيسى لمتطلبات أسئلتهم، دلفنا معه إلى المدينة لنجد أنفسنا في شارع فسيح قادنا إلى القصر مباشرة. على جانبي الطريق بيوت كبيرة من طابقين في الغالب، ومساجد كبيرة وصغيرة، وآبار خُصّصت للطهارة، وأشجار فاكهة على الساحات هنا وهناك. و لم نبعد في هذا الطريق إلا بمقدار مئتي ياردة أو أكثر قليلاً حتى أصبح قصر عبد الله (ولي العهد) على ميمنتنا. ويسترعي النظر لأنه متناسق البناء مربع الشكل ازدانت أبوابه بمنحوتات جميلة الشكل. ويتميز هذا القصر الذي شُيّد حديثاً بثلاثة صفوف من النوافذ يعلو بعضها بعضاً. وقد رأينا ونحن نتأمل المشهد مجموعات من الخدم والزنوج يجلسون عند أبواب القصر خارج الأسوار أو على الدكاك يتفيّأون ظلّ الصباح البارد.

"مضينا في طريقنا فوصلنا إلى قصر جلوي، أخي فيصل، الذي كان في هذا الوقت خارج المدينة، فقد أوفد في مهمة إلى قلعة بيشة... وسار بنا الطريق حتى بلغنا الميدان المفتوح الذي تقع المتاجر والمخازن على ميمنته، ويبتلع المبنى الضخم الذي يأوي الملكية النجدية كافة الأرض التي إلى يساره."

يرتبط القصر مع المسجد الكبير بممرّ طويل يقوم سقفه على صفّ من الأعمدة غير المتناسقة البناء. ويؤمن هذا الارتباط بين المسجد والمنطقة الداخلية من القصر ممرّاً آمناً لفيصل لا تخترقه العيون ويقيه – وهو يعبر إلى مقصورته في المسجد لصلاة الجمعة – نظرات الفضوليين،

كما كان يتقي به غوائل الخيانة. فوالده كان قد خرّ صريعاً جرّاء مؤامرة، كما اغتال خنجر فارسي عمّه الأكبر (عم أبيه) وهو يؤدي الصلاة في جماعة، ما جعل فيصلاً شديد الحرص على نفسه دائماً، وليس في أوقات الصلاة فحسْب. وخلف هذا الممر متاجر ومخازن أخرى تشكل النهاية القصوى لهذا الميدان الذي يبلغ طوله الكلي نحو مئتي خطوة، أما عرضه فيبلغ أكثر من نصف طوله قليلاً. في منتصف هذه المنطقة، وتحت الأسوار العالية للقلعة، جلست نحو خمسين أو ستين امرأة يعرضن للبيع سلعهن من الخبز والتمر والخضر واللبن وحطب الوقود، وهنّ محاطات بمتسكعين وإبل وجوالات مكدّسة، وبكل المظاهر المألوفة في السوق العربي المنتظر. ولم يسترع هذا كله منا الوقوف لنلقي عليه نظرة عابرة، ولم نهتم له أبداً، فقد استحوذ لقاؤنا الأول بالحاكم والوضع الحرج الذي بتنا نستشرفه على تفكيرنا كله. ورحنا نتلمّس طريقنا ونحن نمضي محاذين للسور في المنطقة الوسطى، والذي بدا لنا كأنه جزء من جدار خارجي للقلعة وليس سكناً عادياً، حتى وصلنا إلى المدخل الوحيد للقصر، وهو باب ضيق منخفض على كتفيه باب ضخم مُقوّى بالحديد. وعلى الرغم من أن فرجة الباب كانت مفتوحة على اتساعها في هذه الفترة من النهار، إلا أن الممرّ إلى الداخل كان مظلماً حتى بدا كأنه الردهة التي تقود إلى غياهب السجن! يعجّ هذا الممرّ بالحراس من بيض وسود، كلّ يحمل سيفه، وقد ازدحموا حتى بدوا كأنهم يسدّون الطريق. ولا يمثل هذا المنظر شارة ترحيب خاصة للضيوف الوافدين من الخارج. وشُيّدت على طول الأسوار عند المدخل دكاك ترابية ممتدة لتكون مكان انتظار للزوار. وهنا، وعلى مسافة قريبة من باب القصر، اتخذنا مجلسنا، بينما دخل أبو عيسى من فوره ليعلن نبأ وصولنا.

لم تكن ساعات الصباح قد تقلصت بعد، إذ ربما لم يكن الوقت قد تجاوز الساعة الثامنة إلا قليلاً. كان المارة كثيرين، فالسوق المجاور كان مفتوحاً، وكان الجميع يذهب ويجيء وهو منصرف إلى عمله اليومي. وعلى الرغم من أن العديد من الأشخاص كانوا يُحدّقون إلينا، إلا أن أحداً منهم لم يتقدم للحديث معنا. وقد أدهشنا هذا السلوك الذي اتسم بعدم اللباقة، والذي لم نكن نعرف له سبباً، إلا أن الجليد قد ذاب بعد أكثر من ساعة ونصف من الانتظار بوصول عبد العزيز.

أشخاص من ذوي الاعتبار في الرياض

يدّعي بالجريف أنه التقى عدداً من المسؤولين والأعيان في الرياض، وأبدى هذا الرحالة رأيه فيهم، وغالباً ما كال لهم ولأهلهم السباب في مناسبة وفي غير مناسبة، وكان عبد العزيز أول من التقاه منهم. يقول إن لقبه الرسمي وزير الخارجية – "مع الاعتذار لداوننغ ستريت" – وتمتد

أعباء منصبه لتضمّ كل ما يمكن أن يكون له صلة بشؤون الإدارة الخارجية، فهو المسؤول عن كافة ما يتصل بهذا المجال سياسياً كان أو مالياً أو عسكرياً. يُنظّم مقابلات سفراء البلاطات الأجنبية، ويُوفد البعثات إلى تلك البلاطات من الرياض، ويُدير الشعبة الخاصة بالخطابات الحكومية والرسائل والشؤون غير ذات الخطر مع الحلفاء والجيران، خاصة ما يتصل منها بقبائل نجد. وتمتد مسؤولية الشعبة التي يرأسها لتشمل الملفّات الخاصّة بالمدن والمقاطعات، كما يُمارس إشرافاً شاملاً على رسوم الصادر والوارد، و"هذه الأخيرة تُعدّ مسؤولية مربحة، خاصة إذا كانت يد المسؤول عنها غير مقيّدة بضبط من ضمير أو كراهة كسب الربح غير المشروع...". أما مزاياه الخاصة فهي تماثل مزايا العديد من أفراد الأسر القديمة في الرياض، أو - في الحقيقة - هي المزايا التي اجتمعت لأهل العارض كافتهم." يدلّ مظهره على أنه متحفظ رزين، حلو اللسان، مجامل رغم سلوكه الحاد. ويكمن تحت هذا المظهر غطاء من الكراهية والحسد والتهتك والخلاعة، ما يجعل الاقتراب منه أمراً خطراً. فعداوه قاتل وصداقته مريبة. هذا هو الطابع العام لأهل العنصر الذي يستوطن العارض الذي يُمثل القلب النابض للحكومة الوهابية. لقد سبق لنا أن التقينا بهذا الصنف من الرجال في بريدة وعرفناه في مهنا (حاكمها)، ولكننا بتنا هنا في بلد مهنّيات (جمع مهنا) كُثر، كلهم كريهون، وكلهم يكره أحدهم الآخر. هذه هي الهواجس التي سيطرت على ذهني حينما نزلت بين ظهرانيهم".

يستطرد بالجريف ليكيل مزيداً من السباب لهذا المسؤول الذي يقول إنه جاء للترحيب به والعمل لاستضافته وتهيئة المسكن المريح له وإكرامه - سباباً تعدى الرجل إلى أهله الذين لم يرهم وإلى أهل العارض جميعهم. يضيف بالجريف:

> إن التواضع نادر في أوساطهم، أما المكر فهو الصفة السائدة التي ضربت أطنابها عليهم، يُضاف إلى هذه الصفات قوّة تحمل وثبات على تحقيق الهدف، مع عزم لا ينثني، وخديعة لا يقرّ بها قرار... مشاعر مختلطة تتضافر لتؤجل توقيت الضربة الحاسمة، ولكنها حين تقع فهي قاصمة لا تبقي ولا تذر.

يقول بالجريف عن جوهر وزير خزانة "الملك" فيصل، وكان أول رجل من ذوي الاعتبار يخضع لعلاج هذا الدعيّ، إنه كان عتيقاً "للأمير" تركي، ويصفه بالزنجي الفاحم السواد الفارع الطول. ويعتقد بالجريف أنه كان محظوظاً في أن يكون هذا الزنجي أول مراجعيه، ذلك لأن "العرق الأسود" أقل من "العرق العربي" في قوّته الذهنية وأقل حصافة منه، لا يعتريه ما يعتري العرب من الشكّ الشديد والحسد الموّصّل الكامن فيهم، والحقد الدفين الذي هو أسّ البلاء عندهم. ويدرك ذلك عن اقتناعٍ من كل من يعايشهم. "لم يسبق أن رأيت في حياتي في أي مكان وقفت عليه حسداً مؤصّلاً كما هي الحال في العارض". ويصف بالجريف جوهر

بالرجل المهندم الذي يرفل في ثياب فاخرة، وكان يحمل سيفاً مقبضه من الذهب، و لم يكن يعتقد أن تزيين الأسلحة بالذهب حرام كما هي الحال في تزيين أزياء الرجال.

يتناول بالجريف شخصية عبد الكريم بن إبراهيم الذي هو من نسل عريق في العارض، ومن مؤسسي جماعة المطاوعة في عام ١٨٥٥م بنقد عنيف. فهو وهابي متطرف تتجسد فيه "كل رذائل طائفته". دعا عبد الكريم الذي يسكن الحي الثالث في الرياض بالجريف إلى منزله، وقدّم له وجبة مشبعة ضمّت العديد من صنوف الطعام، بما في ذلك الجمبري الذي احتفى بالجريف به كثيراً، مع أنه لم يكن – بطبيعة الحال – طازجاً. ويحدثنا بالجريف عن أنه غسل يديه بالقالي الذي دخل اللغة الإنجليزية بلفظه Alklai وأعقب ذلك التطيب بالبخور. وينتهز بالجريف هذه المناسبة ليروي حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أورده – بحسب المنهج الذي يتبعه – مبتوراً، روى أنه صلى الله عليه وسلم "قالها صراحة" إنه يحب الطيب والنساء، "فلا ضير إن اقتدى أتباعه من بعده به في هذا الصدد". ووصف بالجريف صورة المبخر الفخاري ذي القاعدة التي تُشكل مقبض اليد، والتجويف في أعلاه الذي يضمّ ثقوباً يخرج منها الدخان، يُوضع في تجويف المبخر الفحم المتّقد وفوقه شيء من حطب الطيب أو اللبان الجاوي. وتتبادل أيدي الحاضرين المبخر الذي يدفع به كل منهم إلى جاره الذي ما يلبث أن يرفع طرف "غترته" ليسمح لدخان الطيب بالنفاذ إلى ملابسه فيعطرها، وقد يفتح بعضهم أحياناً صدر جلبابه ليتخلل الدخان ملابسه الداخلية، ثم يدفع بعد ذلك بالمبخر إلى من يجلس في جواره. ويلاحظ بالجريف أن عبق الطيب قد يستمرّ عالقاً بالجسد لساعتين كاملتين.

لم يلقَ عبد الرحمن، "مُطوّع القصر"، من بالجريف كثيراً من النقد اللاذع. فبيته مقصد طلاب العلم، وهو متحدث بارع التزم قواعد النحو، وهو يشرح للنطاسي علّته، كما يقول إنه يعرف الكثير من أخبار مسيلمة الكذاب، ويحفظ عن ظهر قلب شيئاً من "قرآنه" كثيراً ما كان "يُرتّله" متهكماً. ويقول بالجريف إنه استقى منه معرفته بمسيلمة وبالوهابيين كذلك.

يرى بالجريف في عبد الرحمن، أكبر أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب سناً، والذي كان يشغل منصب قاضي الرياض،" رجلاً بادي الوسامة، حسن السمعة، يعكس سلوكه مسحة لا بأس بها من الحضارة المصرية. فقد حُمل هذا الرجل طفلاً مع أسرته بأمر من "الباشا الغازي" إلى القاهرة، حيث قضى شطراً من عمره وتلقى تعليمه هناك من الفقهاء الأقل تشدّداً من النجديين، فأضحى لسانه مصرياً ولكن قلبه وعقله ظلّا نجديين. لن تجد في نجد كلها من هو أكثر خطراً منه في كراهيته للتطور، وقد تشبّع الرجل بهذا الشعور من بعض باشاوات مصر الذين عادوا إليها بعد أن شاهدوا أوروبا، وهم يحملون الحقد المتأصل للحضارة الأوروبية التي عرفوها هناك وأدركوا أنها متعذرة عليهم. فهم لأنهم لا يملكون قيادها، وهذا ما جعلهم ساخطين لتفوق الغير عليهم، عمدوا إلى إلحاق الضرّ بمن لا يستطيعون تقليدهم ومحاكاتهم".

كان عبد اللطيف الذي تبوّأ في الدولة المنصب التالي بعد "الملك" فيصل، وربما فاقه قوّة في بعض الجوانب، رجلاً ثرياً يسكن قصراً ويملك البساتين، وله العديد من العبيد، ويستمتع بكل ما أباحه القرآن الكريم بنصّ الآية (٥٧) من سورة المائدة: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم". وكعادته يورد بالجريف النص القرآني مبتوراً، فتكملة هذه الآية الكريمة في سورة المائدة (٨٧) وليس (٥٧) كما ذكر، هي على النحو الآتي: "ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين". وليس بخاف على من يعرف أدب الرحلة الغربية لماذا غيّب بالجريف هذا النص الذي يحضّ "الذين آمنوا" على عدم الاعتداء، أما الآية الكريمة (٥٧) من سورة المائدة التي كانت في ذهن بالجريف وأسند إليها نصّ الآية السابقة، فهي تشير صراحة إلى بالجريف ومن لفّ لفّه ونصّها: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين". ويذهب بالجريف ليسيء إلى إخوة عبد اللطيف، ويخصّ محمد، أصغرهم، بأقذعها. يقول إن محمد عاد لتوّه من مصر التي وفد إليها طالباً للطب في قصر العيني، وقضى هناك عامين، لكنه عاد إلى بلده "حماراً" كما كان شأنه حين فارقها إلى القاهرة، واعتذر محمد حين عاد بأنه عاف دراسة الطب لأنه لم يستسغ مقرّر التشريح. ويذهب بالجريف إلى الاعتقاد بأنه طُرد من قصر العيني لفرط غبائه، فهو خبّ ضيق الصدر والأفق، شحيح محبّ لاكتناز المال، شأن شيخ في الستين من عمره.

يُلقي القاضي مواعظه في مسجد جميل في جوار بيته في الحي الثالث في الرياض، كما يُلقي هذه المحاضرات في المسجد الكبير أحياناً، "ولم يحدث أبداً طيلة إقامتي في هذا البلد التي امتدت إلى شهر ونصف، أن سمعت في هذه المواعظ شيئاً من الدعوة إلى حسن الخلق ونقاء السريرة وطهارة اللسان والدعوة إلى التراحم والعدل والصدق والإحسان. فكل الخطب كانت تدور في محاور وجوب الصلاة ومجاهدة الكفار، وأنهار الجنة والحور العين، وحُفر النار والشياطين والأغلال، وأحكام الطلاق والتعدد، وتدخين التبغ الذي هو من الكبائر، وما سيلقاه مقترفه من العقاب في الدنيا قبل العذاب الذي سينتظره في القبر.

يرى بالجريف أن صنوف الخلاعة التي "تأنف لغة الكاتب" عن ذكرها، والتي تسود مدينة الرياض، كثيرة ومتعددة، وهي هنا أَضرط شأناً وأنكى وبالاً مما عليه الحال في دمشق أو في صيدا، وذلك رغم أن الناس في هذه البلدة لا يبدون فعل الموبقات جهاراً، بل تراهم يستمعون إلى القرآن، ولا تطغى أصوات الآلات الموسيقية في البلدة على أصوات الناس، ولا تُؤذي تصرفات جماعات اللهو تلك العيون اليقظة التي تراقب بحذق الأسواق والمنتديات العامة. أما محبوب بن جوهر فقد رماه بالجريف بكثير من النقائص وطعن في نسبته لأبيه، وخصّه - في الوقت نفسه - ببعض المدح الذي لا يكافئ القدح الذي ألصقه به. قال بالجريف إن محبوب ابن لجارية جورجية كان عباس باشا قد أهداها إلى فيصل لمناسبة اعتلائه العرش،

وإن أباه شرعاً هو جوهر "ذلك الرجل الأسود"، ولكن مظهر محبوب يُكذّب هذا الادعاء. فبشرته البيضاء وشعره المنساب وعيناه الزرقاوتان وأطرافه المتناسقة تنأى به عن العرق الأسود. ويُبدي بالجريف اعتقاده بأن محبوب "لا بُدّ أن يكون" ابناً لفيصل. ويرى بالجريف في محبوب ابن الخمس والعشرين سنة، رجلاً وسيماً بنحو لافت للنظر، جورجي السمات تماماً، جريء جسور ماهر ذكي مُحبّ للأدب والبحث، ويرجع ذلك إلى أصله القوقازي. وكان لمحبوب مكتبة في بيته يرى بالجريف أنها أثرى مكتبة وقعت عليها عيناه في شبه الجزيرة العربية، فيها العديد من دواوين الشعراء من قبيل أبي العتاهية والمتنبئ وأبي العلاء وديوان الحماسة والحريري وغيرهم، كما تضمّ هذه المكتبة عدداً من كتب الرحلة والجغرافية وبحوثاً في الشريعة. ويعود بالجريف ليسيء إلى الرجل، فيرى فيه صفاقة وتعالياً وقسوة واستبداداً، كما وجد فيه أيضاً طيشاً لا ينسجم مع روح الوقار الذي يسود مجتمع الرياض. ويعتقد بالجريف أن محبوب كان مقتنعاً بأنه وزميله غريغوري كانا جاسوسين للحكومة المصرية، ولكنه كان يحابيه لأنه يعتقد أنه ينتمي إلى العرق ذاته الذي ينتمي إليه، فهو يدرك "أنني مصري المولد من أصل جورجي أو ربما شركسي".

صيغة الإذن بممارسة العمل

"لقد وصلنا إلى الرياض ونحن نرجو فضل الله أولاً ثم فضل فيصل، ونطلب إلى الله ثم إلى فيصل أن يأذن لنا بممارسة مهنة الطب تحت رعاية الله أولاً ثم رعاية فيصل". ويعلّق بالجريف:

> على كل شخص أراد أن يسأل أمراً أو رغب في إمضائه أو سعى إلى طلبه، أن يقدم في حديثه الإله أولاً ثم يأتي باسم الحاكم بعدئذ، مع مراعاة عدم استعمال حرف العطف "و"، لأن هذا الحرف يعطف بين متساويين، وذلك عندهم كفر صراح إن تفوهت به أو فكرت فيه. عليك أن تستعمل "ثم" التي تعني في المرتبة الثانية.

القصر "الملكي"

قبل أن أخوض في تفاصيل الخمسين يوماً التي قضيتها في هذه المدينة الغريبة، وقبل أن أروي ما عرفته عنها، فإني أستثير مخزون الثقة والصدق عند قرائي الذين أثق بأني سأظفر به. فأنا

إنكليزي رغم كوني رحالة. وإني لأدرك تماماً أن الحوادث والشخصيات والمشاهد التي يجب عليّ أن أضعها أمامهم وأرويها لهم تبدو غير مقنعة، وذلك لسبب ذي شقين: فهي من ناحية ستبدو - للبعض على الأقل - رواية لا يمكن تصديقها إلا بالكاد، ومن ناحية أخرى فإني حين أرويها أدرك أني بطل روايتي، ما يضفي على الوقائع قدراً من الذاتية أكثر مما ينبغي. ولكني أجد أن المأخذين كليهما - مهما تناهيا - ينتهيان في نهاية الأمر إلى الصدق الذي توخّيته. فهكذا حدثت هذه الوقائع، وهكذا بدت لي. ودوري في هذا الصدد لن يتعدى دور القاصّ، وسأترك التعليق للآخرين، ولا يكمن هدفي إلا في تقديم أصدق صورة وأكملها عن الأرض والحكومة والسكان.

"دعانا عبد العزيز إلى الدار لنرتشف من قهوة جلالته، ونُصيب من كرمه، ووعدنا بأننا سنلتقي عاجلاً في سحابة يومنا هذا "الملك" نفسه. وسرنا في إثره عبر البوابة حتى انتهى بنا مسارنا الطويل الغامض إلى زقاق جانبي أو فرجة تقع مقصورات الملك وغرف استقباله الخاصة ومصلّاه الخاص على جانب منها، وتقع غرف حريمه وراء ذلك إلى جوار مسكن ابنته العازبة التي تقوم بأعباء سكرتاريته في المهمات الجسام، وهي فتاة في الخمسين من عمرها على أقل تقدير. وعلى الرغم من تعدد خاطبيها وإلحاحهم في خطبتها، إلا أن فيصل لم يكن راغباً في مفارقتها لما تؤدي له من جلائل الأعمال."

يمتاز هذا القسم من القصر بالفخامة والاتساع، ويصل ارتفاع طوابقه الثلاثة إلى حوالى خمسين أو ستين قدماً. وقد قام عبد الله (ابن رشيد) والد طلال الذي عرفناه سابقاً (في حايل) بقتل مشاري في هذه المنطقة. وتنفتح هذه الكتلة من البناء على يمين الممرّ المذكور الذي يقود إليها على مساحة مربعة مكشوفة غير مسقوفة على جنباتها العديد من المقاعد. ويلتقي فيصل في هذه المنطقة بعض خواصه. وتفتح هذه الساحة على باب آخر خاص ضيق مثله مثل الباب الآخر، وهو محروس تماماً، يقود إلى المقصورات المذكورة. ونستطيع القول: إن هذا قصر خاص منفصل ضمن دائرة القصر العام. ويتصل هذا القصر (الخاص) بالمبنى كله بممرّ آخر مسقوف، يتفرّع من الممرّ الآخر الذي نقف عنده الآن. أما الممر الثالث فيمرّ عبر صالة طويلة يصل طولها إلى مئة ياردة تقريباً، تقوم على أعمدة ويقود إلى المسجد. وعدا ما ذكرناه من ممرات، فليس هناك أي اتصال لهذا المبنى بأي مبانٍ أخرى. ويجدر بي أن أشير إلى أن فتحات النوافذ كلها جُهّزت بقضبان حديدية مستعرضة، أما الأبواب فكلها قوية صماء زوّدت بأقفال ضخمة ومزالج كبيرة. ويفتقر الطابق الأرضي كله إلى أي شكل من أشكال النوافذ التي تطلّ على الخارج، صغيرة كانت أو كبيرة. ويحيط بالمنطقة السفلى من الأسوار خندق يضيف بُعداً آخر إلى سمك الأسوار ويهيّئ لها نوعاً من أنواع الدفاع.

في مواجهة هذا الممرّ (الذي يقود إلى الفرجة المذكورة) الباب الذي يُؤدي إلى غرفة

القهوة عبر ردهة ملحقة بها. في هذه الردهة يترك الداخلون إلى "القهوة" نعالهم وسيوفهم، هذا لمن يملك منهم نعالاً أو سيوفاً. أما غرفة القهوة ذاتها فهي متسعة بما فيه الكفاية، يصل طولها إلى أربعين قدماً، وربما كان عرضها مساوياً لطولها أيضاً، ولكنها منخفضة السقف وسيّئة الإضاءة. وراء هذه القهوة باب آخر يقود إلى السجن. وقد زرت غرفتين من غرف الحبس الانفرادي (الزنزانات). ويقول بالجريف: إن غرف هذا السجن على قدر مقبول من الراحة لنزيلها. ويستطرد هذا الرحالة ليقول: إن "حبس الدم" – وهو السجن الخاص بسجناء الدولة – "من الطراز الأول". فهو سرداب تحت الأرض، "ولكني رأيت أن ليس ثمّة حكمة في أن أطلب إذناً لزيارته".

"وراء هذا السجن في مواجهة الساحة في الجانب المقابل، التي أشرنا إليها آنفاً، درج طويل يؤدي إلى الطابق الثاني حيث الغرفة التي يتناول فيها الضيوف الطعام. وتتسع هذه الغرفة لخمسين شخصاً في الدفعة الواحدة. وهي رطبة بنحو منعش". ويذكر بالجريف كوة "في ما يقال"، في فجوة مغطّاة من الحائط، يتنصّت فيصل عبرها على ضيوفه. ووراء هذه المنطقة عدد من الغرف خُصّصت لسكن بعض الخدم والأتباع.

يقول بالجريف:

> إن الممرّ المذكور سابقاً الذي يتفرّع إلى القصر الخاص وإلى القهوة يمتد تحت الطابق الثاني، ويتفرّع من ثمّ على الجانبين الأيمن والأيسر. يقود الممرّ الأيمن إلى المطبخ الكبير إلى جانب المصلى الرئيس لسكان هذا القصر، وينتهي وراء ذلك إلى ساحة ثانية متسعة على أحد جانبيها مخزن البارود والسلاح، وعلى الجانب الآخر منها عدّة "ورش" مختلفة تضمّ كذلك عدداً من صناع الساعات، وورشاً أخرى لخدمة الملك شخصياً. وتجاور المطبخ غرفة عبد الحميد الذي يصفه بالجريف بأنه شخصية ساذجة من أبناء بلخ، يفترض أنه منقطع تماماً للدراسة، لكن في الحقيقة له "مآرب أخرى". وفي هذا الجانب ذاته يسكن صديقنا عبد العزيز وزير الخارجية، ولكني لم أعمد إلى دخول مجلسه، فقد اكتفيت بمعرفة مكان مسكنه وبابه، وذلك للعلم فقط. أما الفرع الأيسر من الممرّ فيقود إلى مساكن أخرى يقطنها محبوب، رئيس وزارة الإمبراطورية. ويسكن في مواجهته تماماً مُطوّع القصر، كما يسكن في البيت التالي له مباشرة فقيه نجدي آخر، وكلا الرجلين متفرغ للدراسة، يدرجان كافة المذاهب المخالفة لمذهبهما في دائرة الكفر. وفي ما وراء ذلك حي اتّسع لمسكن جوهر، وهو وزير المال الذي يتسق عمله مع

اسمه (الجوهر)، ولعدد آخر من الغرف يسكنها ناصر، وهو من حجاب البلاط. وتضمّ هذه المنطقة أيضاً منزلاً لسعود، الابن الثاني لفيصل، يسكنه عندما يزور والده في الرياض. كما يسكن أبو شمس، قائد مدفعية الجيش هذه المنطقة من القصر أيضاً. وتجاور منازل هذه الصفوة منازل أخرى، خُصّصت لجمع من ستين أو سبعين تابعاً جلّهم من الزنوج، يقيم كل منهم في سكن خاص به وزوجاته، ويرجع الفضل في ذلك إلى بركات "الأرثوذكسية" التي هيّأت لكل منهم منزلاً قائماً بذاته! للقراء أن يتخيلوا كم هو واسع هذا المجمع وغير متناسق. وأخيراً يجب أن أشير إلى وجود ساحة طويلة على اليسار تماثل تلك التي أشرنا إليها على اليمين. وهنا باب السرّ الذي يستعمل مخرجاً - عند الطوارئ والحصار، ومقابلة كل طارق - من خيانة أو ما شاكلها. وأحيط كل هذا الحشد من الأبنية بسور مرتفع وأبراج دفاع مستديرة. وهنالك تأمين إضافي تمثّل بخندق عميق جاف لا تجري فيه مياه حالياً يطوّق ثلثي محيط هذا المبنى.

يستطرد بالجريف في وصف ما سمّاه "وكر اللصوص النجديين" فيقول:

إن القسم الملكي المخصص لفيصل "وملكاته يمثل مبنى رباعي الشكل في وسط باحة"، ولكن لم يسمح لي بدخوله، فهذه مقصورة الأسرة التي ينبغي ألا ترنو إليها عين متطفلة. وهنالك الديوان الذي أُعدّ للمقابلات الخاصة، وهو غرفة واسعة ومريحة يصل طولها إلى خمسين قدماً، ويبلغ عرضها عشرين قدماً أو أكثر، ويمكن القول: إن سقفها عالٍ نسبياً. وفي الباحة الأولى في المنطقة إلى الشمال حيث يسكن البطل الشهير أبو شمس عدّة أنواع من مدافع صدئة تُدخل الرعب في نفوس العرب، وقد أحصيت منها أكثر من اثني عشر مدفعاً ما زالت ستة منها صالحة للاستعمال. وقد قيل لي: يوجد عدد آخر من المدافع، ولكني لم أتحقق منها. ولفيصل في الأحساء والقطيف حوالى ثلاثين مدفعاً آخر، ما يرفع بطارية فيصل إلى حوالى ستين مدفعاً. وفي تقديري أن ربع هذا العدد فقط صالح للاستعمال، أما ما تبقى فلا يجدي فتيلاً...

يستغرب بالجريف أن الساقي الذي يقدم القهوة ليس بزنجي، ولا من أهل العارض، بل هو من منطقة الحريق، ويرى فيه رجلاً نشيطاً يدير أقداح القهوة بلا كللٍ أو ملل. ودارت الأحاديث

في المجلس تترى، غير أن كل الجالسين كانوا يتحدثون بتحفظ، فلن يأمن شخص في المدينة – خاصة عندما يكون في هذا القصر – أن يطلق للسانه العنان ويطمئن أن يبيت سالماً في بيته. وعلى ذلك نجد أن أخلاق أهل هذه البلدة "تماثل أخلاق التلاميذ في حضرة مدير المدرسة".

يمتدح بالجريف قهوة الرياض، ويرى أنها لا تُنافَس ولا تدانيها أي قهوة في أي بلدة أخرى، فهي ممتازة، كما لاحظ أن جو غرفة القهوة يعبق بالأريج الطيب، بينما كان وزميله ينتظران قدوم عبد العزيز أو أي مسؤول من رجال البلاط. وتأخر مجيء هؤلاء جميعهم، فقد شغلهم قدوم النائب الفارسي "فما عاد أمرنا يدور في خلد أي منهم. وبقينا على هذا المنوال لا يأبه لنا أحد حتى حان موعد الظهر، وكانت إبلنا في هذه الأثناء في الخارج إلى جانب متاعنا تغالب حرارة الشمس. وطلع علينا عبد زنجي دعانا باسم الملك لتناول طعام الغداء في غرفة الضيوف في الطابق الأعلى، وازدردنا الأرز مع لحم الضأن، كما تناولنا تمراً من أميز أنواع التمور. وحين فرغنا من الأكل، ذكّرنا ذلك الأسود بأن ندعو لفيصل مضيفنا بطول العمر."

كان أبو عيسى قد مضى في هذه الأثناء مع بعض عمال القصر للقاء النائب وصحبه واصطحابهم إلى الأماكن التي خُصّصت لاستقبالهم. وكم أدهش ذلك الفارسي أنه لم يجد في مستقبليه أحداً من الأسرة المالكة، ولا من أصحاب المناصب والوجاهة والأسماء اللامعة. وازداد دهشة حين أتى القصر و لم يجد فيصل في انتظاره ليبادله العناق الحار، وبدلاً من ذلك وجد نفسه وقد سيق إلى غرفة الضيوف ذاتها التي كنا فيها، ووُضع أمامه طعام الغداء الذي لم يزد صنفاً عمّا تناولناه، ثم طُلب إليه في برود أن يدعو لفيصل، وحُدّدت بعدئذ للنائب الساعة التي سينال فيها شرف لقاء فيصل. و لم أصادف في حياتي رجلاً أشدّ تذمّراً من ذلك الفارسي في ذلك الموقف، فقد انفجر ليفرغ في عربيّة دارجة كل ما في نفسه من حنق تجاه العرب والوهابيين والبدو والمدينة والقطر برمّته، وكل شيء رآه أو صادفه. وفهم رجال العارض من الذين سمعوا الرجل بعض ما قاله، فتملّكهم الغيظ وإن ألجمهم حسن الأدب عن الرد عليه، ولربما كان فيصل هناك خلف الفرجة يتسمّع.

يلاحظ بالجريف أن أبا عيسى كان يدرك أن عدم التعاطف بين العنصرين العربي والفارسي متبادل. "فإذا كان النائب يرى في الوهابيين وملكهم برابرة –كما يقول المثل الأوروبي – لا يرتقون إلى منزلة ماسحي حذائه، فإنهم بدورهم يرونه حقيراً غريباً كافراً من حطب جهنم. وبهذا تتعادل كفة ميزان المشاعر". وبعد أن يكيل هذا الرحالة للإمام فيصل سباباً لا حصر له يقول: إنه قد أصبح كالمجنون حين علم بوجود كل هؤلاء الأغراب: القائم بالأعمال الفارسي، ومجموعة من المكيين، وسوريان وُهم يطأون ثرى هذه العاصمة "الأرثوذكسية " المقدسة! إن وجود هؤلاء الشيعة والنصارى والكفار والهراطقة والمشركين كان كافياً لاستجلاب نار حارقة من السماء، أو لجعل الأرض تمور بركاناً من نار، وإن نزول الكوليرا وفتكها بالبلد

هو أقلّ ما يمكن توقّعه أن ينزل بهم من شرّ، كما يمكن توقع ما هو أسوأ من ذلك. ويخلص بالجريف إلى أن أمر المكّيين مقدور عليه، فهم طُلّاب حاجات ويمكن الفكاك منهم بإتحافهم ببعض الهدايا الصغيرة ليشتري خلاص العاصمة من التلوث الذي أحدثوه. أما أمر النائب الفارسي "المسنود ظهره إلى طهران وشاه فارس فمختلف، لأنه سيرفع إليه شكايات ضد أبي بطين ومهنا (من مسؤولي فيصل في القصيم)، يدرك سيدهما أنها صادقة ولا مرية فيها، هذا إضافة إلى أن فيصل يدرك أيضاً أن سلفه عبد العزيز بن سعود قد قضى نحبه، وسقط فريسة لخنجر فارسي بيد فارسي، ومن يدري لربما كان للنائب الفارسي أو أحد مرافقيه خنجر مشحوذ لشيخ الأرثوذكسية. أما السوريان فقد كان أمرهما أنكى وأضلّ، فهما نصرانيان في ما يبدو، وربما كانا من ممارسي الاغتيال، وهما بالتأكيد ساحران. وكان أقلّ ما يخشاه فيصل من شرّهما أن يرمقاه بعين الحسد التي يمكن أن تمسخه مسخاً. وعموماً، فإن الحقيقة الثابتة التي لا تُمارى عندهم في ما يخصّ كل هؤلاء الأغراب هي أنهم كلهم جواسيس. كان محبوب وعبد العزيز وكافة رجال البلاط بصفة عامة يشاطرون فيصل هذا الفزع! هذا ما لم نكن نعرفه أو نفكر فيه، ولكن ندرك أن لهم من الحكمة ما يجعلهم يرقصون على نغم سيدهم، وعليهم جميعاً أن يحسّوا بالخطر المحدق، ويتدبروا وسيلة للخروج من المأزق، والخلاص منه. تقول الحكمة: إن الرأي قبل شجاعة الشجعان، وعلى ذلك يجب على جلالته "المقدسة" أن يهجر عاصمة بلاده ويفرّ منها من دون أدنى تأخير، وينأى بذاته عن هذه المنطقة المشؤومة التي أوى إليها هذا الحشد من الكفار والسحرة والجواسيس والمقاتلين، ريثما تتخذ الإجراءات المناسبة للتحرّي عن نيّات هؤلاء القادمين، ومراقبة أحوال هؤلاء الأجانب المثيرين للريبة، والتدبر حوطةً لمنع أذاهم.

وعموماً ففي الفترة التي أوى فيها النائب إلى المسكن المخصص له، وجرى إسكاننا أيضاً، إضافة إلى المكيين الذين أُسكنوا قريباً منا، كان فيصل قد خرج من باب السرّ خلسة برفقة محبوب وعبد العزيز وبعض الرجال، واجتازوا المدينة في هدوء، تاركين خلفهم القلعة ليستقرّوا في حديقة خاصة بعبد الرحمن الوهابي، أحيطت بالحرس. وبعد خروج فيصل إلى هذه البقعة، واتخاذ هذه الإجراءات، تجدّد الأمل ببركة دعاء فقهاء الوهابية (الأرثوذكسية) وبسيوف الجند، في نجاة فيصل من تبعات الشرك وخطر الاغتيال، واتّقاء العين الحاسدة.

مؤسسة الدعاة – "المطوّعين"

يستطرد بالجريف في الحديث عن مؤسسة المطوعين فيقول: إنها لم تحقق إلا نجاحاً جزئياً، فقد واجهت ردّ فعل عنيفاً من مناطق مثل بريدة في القصيم وفي بعض قرى الأحساء. وجرت

مساومة بين الطرفين خلصت إلى السماح بلبس الملابس التي لا تزيد نسبة الحرير فيها على الثلث، ولربما أمكن التجاوز في ذلك لتصل إلى النصف، وسمح لمدخّني التبغ بالتدخين في خلواتهم من دون مساءلة، على ألا يجري شيء من هذا في العلن، ويحظر بيع التبغ في المتاجر، وجرى التجاوز عن قسْر الأفراد على أداء الصلاة في جماعة، وما عاد ذلك يحدث إلا نادراً. وعلى القراء أن يتخيلوا نظرة الشعب إلى هذه المؤسسة والعاملين عليها، إذ يجب أن يتمتع هؤلاء النفر بكل مظاهر التوقير والاحترام التي تقتضيها أصول هذه الوظيفة. وعلى الرغم من أن العامة يقابلون هذه الجماعة بما يدلّ على الاحترام علناً، إلا أنه احترام تغلّفه الكراهية. فإذا دخل أحد هؤلاء المطوّعين على مجموعة أصدقاء يتسامرون فإن أصواتهم سرعان ما تخفت حتى تنتهي إلى الصمت، ثم يستأنف الحديث مرّة أخرى، ولكنه سيكون حديثاً ملتزماً التزاماً لن تجد حتى "الملائكة المسجلون" فيه شيئاً! وإن كان طفيفاً، يمكن أن يُعدّلوه. أما إذا كانت هناك جماعة يمشون بنزق في الشارع وصادفهم المطوّع، فسرعان ما يعدلون في خطوهم، وتتجه نظراتهم من فورها إلى الأرض في تواضع جمّ. أما إذا كان هناك مصباح لا يزال موقداً في ساعة لا يُستحب فيها ذلك، وأحسَّ أهله بقدوم المطوّعين، فسرعان ما يخبو الضوء ويهجع الجميع في ظلام دامس. غير أن أسوأ ما في الأمر هو ما يخصّ المدخنين. فإذا طرق المطوّع باب جماعة منزوية في ركن من أركان منزل ما تدخن الغليون، فتراهم يهرعون لإفراغ ما في تلك الأداة النجسة في النار ثم يخبئونها تحت السجادة، ويسرع جميعهم للمضمضة وغسل شواربهم بعطر القرنفل والأعشاب الأخرى ذات الروائح الطيبة، لتعطر أنفاسهم برائحة الأرثوذكسية. وعلى العموم، يبدو النجديون في مثل هذه الحالات كأنهم التلاميذ وقد دهمهم مدير المدرسة وهم يمزحون ببذاءة، أو مثل السيدات الفاضلات حين يفاجئهن أحد وهنّ يقرأن آخر ما أنتجته المطابع الفرنسية، أو كالذين أعلنوا إقلاعهم عن تناول الخمور ووجدت في حوزتهم زجاجة سوداء نصف فارغة. لن يبدو أي من هؤلاء جميعاً أكثر ارتباكاً، ولا أبلغ بلاهة، ولا أوفر سخافة، ولا أكثر حذراً من النجديين حين يفاجئهم المطوّعون!

الحياة اليومية في الرياض

عند شروق الشمس تدبّ الحياة في الرياض بالنسبة إلى البسطاء من أمثالنا، إذ يستيقظ الجميع. أما الأشخاص ذوو الشأن من أمثال الملك وحاشيته، فيخلدون في مثل هذا الوقت إلى النوم بعد أن يكونوا قد أدّوا على ضوء النجوم بكل التقوى الوهابية صلاة الصبح في جماعة. يستيقظ هؤلاء بعد ساعتين من هذا الميقات ليؤدّوا صلاة الضحى، ثم ينصرفون لتصريف أعمالهم اليومية. أما الأشخاص "من أمثالنا" الذين هم أقل شأناً وأقل تقوى، فإنهم بعد أن يستيقظوا

في تلك الساعة الباكرة، يأخذون في أداء أعمالهم وهم مستمتعون بالهواء الرطب المختلط بالأشعة الأولى للشمس عند شروقها، وهي تبدّد الضباب الخفيف الذي يميز هذه الفترة التي يسودها الشتاء في النصف الأخير من العام.

نذهب إلى السوق لشراء التمر والبصل والزبد، وكل هذه الأصناف ممتازة في منطقة العارض التي يكثر فيها إنتاج صنوف التمر الأحمر الذي لا يُعلى عليه. أما التمر الأصفر اللون، فمنه نوع طويل بلا نواة، زكي الرائحة ورخيص الثمن بنحو ملحوظ. ويشهد بالجريف أن عينيه لم تقع على أميز من بصل العارض نوعاً، ولا أكبر حجماً، أما الزبد فلونه أبيض ويُباع في شكل أقراص صغيرة كما هي الحال في القصيم. ويسترسل بالجريف ليقول: إن من يقرأ له من شبه القارة الهندية يدرك ضرورة الاحتفاظ بالزبد مغموساً في الماء بصفة دائمة حتى لا يتميع، كما يشير هذا الرحالة إلى وفرة البوتاس (الصابون) في سوق الرياض.

يصف بالجريف هيئته ومرافقه وهما يسعيان إلى السوق فيقول:

> أرخينا الغطاء على رؤوسنا مثل العربي الحقّ، وأعفينا لِحانا، ولبسنا العباءة السوداء، وأخذنا نجتاز الشارع الذي يربط بين منزلنا والسوق بخطوات جنائزية وفي يد كل منا عصا طويلة، وكنا لا نتحدث إلا همساً، ورحنا نحيّي كل من يقابلنا أو نرد عليه السلام. إن للتحية قواعد تقتضي أن تُحيي الجماعة الأقل عدداً الأكثر منها عدداً، وأن يلقي الراكب التحية على الماشي، أما الأخير فيحيّي الواقف الذي يجب عليه بدوره أن يحيّي الجالس (؟!) وهكذا دواليك، ولكن يجب على الرجل ألا يسلم على المرأة. إن فرق السنّ والوجاهة والوظيفة لا يعني شيئاً بالنسبة إلى أولية من يبدأ بالسلام. وعلى المرء أن يردّ التحية بمثلها من دون النظر إلى كون المحيّين من معارفنا أو من الذين نقوم بعلاجهم، ولكن إذا شاء حظنا العاثر أن نقابل أياً من المنتمين إلى الطبقة الأرثوذكسية العليا الملتزمين، فإن ردّهم على تحيتنا سيكون بإلقاء "نصف نظرة" أو نظرة خفيفة من وجه "نصف مقطّب"، وعندها نبتسم مثل مالفوليوفح، ونمضي في طريقنا.

يصل بالجريف إلى السوق الذي يلاحظ تردد النساء عليه بكثرة، يبعن فيه اللحم والحطب واللبن وغير ذلك. ويتحلّق حول هؤلاء النسوة كل من جاء يسعى لشراء شيء من ذلك. "ونأخذ في المساومة مع تلك العجوز الشمطاء الجالسة أمام متجرها الذي يُؤمّن السلع الريفية للجمهور، ونجد أن الأسعار التي تطلبها مرتفعة، ولكنها – مع ذلك – تقسم بمن يحمي فيصل بأنها حين تبيعنا بذلك الثمن فإنها الخاسرة، ونجيب عليها بالقسم بمن يهب فيصل طول العمر بأننا لن

نستطيع الشراء بالسعر المطلوب، ثم ما نلبث أن نعجز عن المساومة، فنشتري أحياناً بالسعر المطلوب أو قد ننصرف."

يفتح أكثر من نصف متاجر السوق باكراً، خاصة البقالات ومحالّ الأغراض المنزلية، وكذلك محالّ السكافين والحدادين التي تنشط منذ الصباح. فمثل هذه الدولة المركزية تعجّ بالعديد من الأغراب الذين تجمّعوا فيها من كل صوب، كل يسعى للقيام بمهمته. أما محال القصابين فتشهد أكبر تجمع بشري لآكلي اللحوم. ويشهد بالجريف بأن النجديين يستهلكون اللحوم كثيراً، أو بحسب تعبيره "أكلة لحوم عظيمون"، ولا غرابة في ذلك، فأسعار اللحوم في هذه السوق زهيدة، إذ لا يتجاوز ثمن الخروف الممتلئ السمين أكثر من خمسة شلنات، وربما يكلف أقل من ذلك أحياناً، إضافة إلى أن النجديين يتمتعون "بشهية عظيمة". وتمنّى بالجريف لو وضعت شرطة المدينة لوائح تنظم أعمال النظافة لإزالة الفضلات التي تتراكم على مسافة غير بعيدة لا تتجاوز ياردتين من محل القصاب، ويرى أن جفاف الهواء إضافة إلى وجود عدد كبير من الكلاب يساعد على منع التلوث.

يستعرض هذا الرحالة سكان الرياض العديدين من غير أهل العارض، ويرى في هؤلاء الآخرين اختلافاً غير بارز عن أهل شمّر والقصيم، إلا أنهم في الغالب أقصر قامة من أولئك وأدكن لوناً. ويشير إلى وجود عدد من الرجال النحاف البنية الذين وفدوا من مشارف عمان وهم يرتدون ثياباً صبغت بالزعفران، وهي أضيق من تلك التي يرتديها النجديون، وبأيديهم عصيّ قصيرة. ويقول بالجريف: إن الوهابيين سيطروا على تلك المناطق، غير أن النزاع لا يزال كامناً. كما نجد أهل البحرين وهم في ثيابهم المزركشة على النمط الفارسي، إضافة إلى الوافدين من شبه الجزيرة الهندية. توافد هؤلاء وأولئك إلى هذه المنطقة للتجارة أو لقضاء بعض الأعمال الملحّة، فراحوا يعملون لجني "أفضل الأسوأ"! ويعودون أدراجهم بأقصى سرعة ممكنة. وترى في السوق "خدم صديقنا" النائب الفارسي بأجوائهم البغدادية الخليعة، إضافة إلى المكيين المتذمرين من ذوي الوجوه المجعّدة، كما يمكن أن ترى موكباً لرجل يكره الجميع ويكرهه الجميع، يرفل في ثياب حريرية مطرّزة، ربما جاء إلى الرياض من المدينة (المنوّرة) ليتوسّط، لكن من دون جدوى، نيابة عن أصدقائه في عنيزة، أو ربما جاء ليتفق مع الوهابي لإسقاط شريف مكة! كان الرجل يحدّق إلى هذا الجمع الذين كانوا بدورهم يحدّقون إليه. ولا أدري من الذي يتفوّق على الآخر كراهية وحقداً. وترى في هذا الجمع أيضاً ذلك الرجل الطويل النحيف، عبد المحسن السديري، في ملابسه البسيطة "المزينة". وهو رجل مشهود له بالشجاعة في الحرب والحصافة في السلم، ولكنه ينتمي إلى طبقة "الوطنيين جداً" في مقاطعة سدير، حيث يُشكّ في إخلاصه للأسرة الحاكمة في العارض التي تشك في نيّاته، وهذه الشكوك ربما لم تكن في غير موضعها. إن الشفاه غير المكتنزة لهذا الرجل لا بد أنها قد عرفت نكهة الدخان الأمريكي.

ويخلص بالجريف إلى أن عبد المحسن يتوق إلى استرجاع السلطة التي كانت لأسلافه في سدير. ويمرّ مسرعاً عبر الزحام شيخ بدوي من عتيبة أو عجمان وهو يجرّ في عفوية عباءته على الأرض جرّاً حتى اهترأت أطرافها السفلى، وعادت خيوطاً مُقطّعة في طرف غير مستوٍ. كان شيوخ عتيبة سادة القسم العربي من نجد، بينما ساد شيوخ عجمان القسم الغربي منها في فترة الفوضى التي أعقبت نهاية الحكم المصري. فقد كانت هذه القبائل هي الأولى التي نزل بها سيف عبد الله، فأودى بالمئات منهم، ونهب إبلهم فاستسلموا ثم أتوا إلى الرياض للقاء فيصل "الذي أترعهم حتى الثمالة كؤوس الكراهية والحقد. ولا يستدعي أصدقاؤنا البدو منا الشفقة، فما هم إلا لصوص كبار مدمرون، لاقوا حظّهم من لصوص كبار أمثالهم وطُغاة مُدمرين".

تفد إلى الرياض جماعات من سائقي الإبل من أهل الزلفى من الذين تربطهم صلات دائمة بالزبير والبصرة. فقد كانت المبادئ الوهابية والمثل النجدية قد قذفت بهم إلى تلك "الأقطار الشاذة نصف الشيعية ونصف الكافرة!". فالشاب غير منضبط السلوك، يخرج عن طوع والده أو طوع ما في الرياض، فيذهب إلى الكويت أو إلى تاروت ليكسب مالاً من التجارة، ولكنه حين يعود يرجع "بأخلاق تستدعي الخجل". ويلاحظ بالجريف وجود عدد من الحمالين الذين وفدوا إليها من اليمن عن طريق نجران أو وادي سدير، وهم يتنقلون في هدوء هنا وهناك، وكلهم يضحك ممّا يجري حوله. كما يصادف دراويش من البلوش أو من قندهار، شأنهم شأن نظرائهم الذين التقاهم في بريدة، ماكثون هنا ريثما يجدون صحبة يمضون معهم عبر الذراع الشرقية من الصحراء في طريقهم إلى الخليج. ويختلط مع هؤلاء الدراويش شحاذون من وادي الدواسر، وهم في تقديره أكثر إلحاحاً وأشد هوساً، وأبلغ من غيرهم سوء خلق، وأضيق صدوراً وأصغر إفهاماً من أهل العارض أنفسهم، وإن تردّوا أكثر من الآخرين في مهاوي الكسل والوضاعة والحقد. ويصادف أيضاً طلبة صغاراً نحافاً جنت عليهم عبقريتهم فجاؤوا إلى الرياض للدراسة، فأضحى كل منهم يسعى برأس مليء بالتعاليم "الأرثوذكسية" الحقّة وبمعدة خالية أو تكاد.

السكان في الدولة السعودية الوسطى ودخل الخزينة

قدّر بالجريف إجمالي عدد سكان العارض واليمامة والحريق والأفلاج ووادي الدواسر والسليل والوشم وسدير والقصيم والأحساء والقطيف بنحو ١٢١٩٠٠ نفس، يعيش منهم في العارض نحو ١١٠٠٠٠، ويعيش مثلهم عدداً في وادي الدواسر، وتضمّ القصيم ٣٠٠٠٠٠ فرد. أما عدد المدن والقرى في الدولة الوهابية التي تتبع فيصل مباشرة فيقدّرها بالجريف بحوالى ٣٦٠، منها حوالى ٣٢ في اليمامة، ويضمّ وادي الدواسر خمسين قرية ومدينة، وللأحساء

مثل هذا العدد من القرى والمدن أيضاً، أما القصيم فتضمّ حوالى ستين قرية ومدينة. ويقدّر بالجريف أعداد البدو، وهم العجمان وبنو هاجر وبنو خالد ومطير وعتيبة والدواسر وسبيع وقحطان وحرب وعنزة وآل مرّة وآخرون بنحو ٧٦٠٠٠ فرد، ويعتقد أن حرب التي تضمّ نحو ١٤٠٠٠ نفس هي الأوفر عدداً بين القبائل، تليها عتيبة التي تضمّ نحو ١٢٠٠٠ فرد، فيما تتساوى العجمان ومطير في عدد النفوس حيث تضمّ كل منهما نحو ٦٠٠٠ فرد. ويقدّر هذا الرحالة القوّة العسكرية التابعة لفيصل بنحو ٤٧٣٠٠ جندي، يأتي ١١٠٠٠ منهم من القصيم، ونحو ٦٠٠٠ من العارض، فيما يمدّه وادي السليل وكذلك الوشم بنحو ٤٠٠٠ جندي من كل منهما.

يقدّر بالجريف إجمالي الزكاة التي تدخل خزينة فيصل بحوالى ٣٦٣٠٠٠ ريال، تدفع القصيم منها حوالى ١٢٠٠٠ ريال، فيما تدفع القطيف حوالى ٥٠٠٠٠ ريال، وتدفع الأحساء حوالى ١٥٠٠٠ ريال، فيما تدفع الحريق حوالى ١٠٠٠٠ ريال. (الريال الإسباني في سوق نجد يساوي خمسة شلنات وستة بنسات)، ويضاف إلى دخل الخزينة مبلغ زكاة البحرين التي يُقدّرها بالجريف، وتقديره خاطئ، بحوالى ٨٠٠٠ ريال (٢٢٠٠ جنيه إنجليزي) وكذلك ٢٠٠٠٠ ريال تدفعها مناطق عمان (٥٥٠٠ جنيه إنجليزي).

يقدّر بالجريف عدد القرى والمدن التابعة لابن رشيد بحوالى ٨٦ قرية ومدينة، يبلغ العدد الكلي لسكانها نحو ٢٧٤٠٠٠، ويمكن هذه القرى أن تمدّ ابن رشيد بنحو ١٤٠٠٠ مقاتل، فيما يمكن باديته التي تضمّ قبائل شمّر والشرارات وبني عطية والحويطات وغيرهم الذين يصل عددهم الكلي إلى نحو ١٦٦٠٠٠ فرد أن تمدّه بنحو ١٦٠٠٠ مقاتل، ليصل العدد الإجمالي لقوّته العسكرية إلى ٣٠٠٠٠ مقاتل، أما دخل خزينة ابن رشيد من الزكاة وغيرها فيقدره بالجريف بحوالى ربع دخل خزينة فيصل.

أحياء الرياض

تضمّ الرياض أربعة أحياء: حي شمالي شرقي يضم قصور الأسرة الحاكمة ومنازل موظفي الدولة ورجال الحكم وأهل اليسار عموماً. وتفصل بين مساكن هذا الحي المرتفعة البناء شوارع فسيحة قليلاً ومستقيمة. غير أن هذا الحي يقع على بقعة منخفضة من الأرض لا تتمتع بالمزايا الصحية التي تميز الأحياء الأخرى. ويقع الحي الثاني الذي يقول بالجريف إنه سكن فيه في القسم الشمالي الغربي من المدينة، وهو تكتل لمنازل مختلفة المساحات والأحجام والأشكال، تكدّس بعضها إلى جانب بعض في غير تناسق أو انتظام. تتراوح منازل هذا الحي بين الممتاز والأسوأ، وفيه يسكن الأغراب الوافدون إلى المدينة، وكذلك الأشخاص المشبوهون الذين لا

تخلو منهم كافة المدن الكبرى مهما حاولت اللوائح ضبط هذا الأمر، ويقطنه أيضاً عدد من المشهود لهم برقّة الدين من الذين يدينون بمبادئ أخرى غير مبادئ ابن عبد الوهاب، ويولون أفكارهم شطر الممارسات العربية القديمة في شؤون الدين والدنيا، كما يضمّ هذا الحي بعض شيوخ الأقاليم، ويسكنه عدد من البدو وعدد من مواطني الزلفى الذي يقيمون على أطرافه. وتهمل في هذا الحي جزئياً مبادئ القرآن الكريم، ففيه من يبيع التبغ، وفيه من يدخنه. "ويجب ألا يعتقد قرائي أن جيراننا غير منضبطين"، فإلى هنا يأتي المطاوعة والمهوسون كأنهم الأنجم تلوح في الظلام، وسرعان ما يضرب أهل الحي المثل في الانضباط، وتراهم على هذه الحال كذلك حين يلتقون بعض الجواسيس من الذين لا يملكون الشجاعة لمجاراة المُثل التي تشبّعوا بها.

أما الحي الثالث "فعلينا حتى نزيل القذى من أعيننا بما في هذا الحي أن نجعلها تكتحل مسرورة حين تجول في الحي الجنوبي الغربي"، الحي الممثل "للرسميات والأرثوذكسية". ففي هذا الحي يقطن أكثر المطاوعة أصولية والمهوسون النشيطون والنجديون الذين لا يمكن مجاراتهم في أداء الصلوات الخمس يومياً ورعاية كافة أزهار التقوى الوهابية. وفي هذا الحي أيضاً تقطن ذريّة عبد الوهاب المباشرون الذين نجوا من وطأة سيوف المصريين، هؤلاء المطهرون من كل رجس ومن كافة شرور التلوث الأجنبي. تقوم في هذا الحي مساجد تتّسم بالبساطة وتمتاز بالسعة الكافية لتضمّ أهل العقيدة التي لا تقتصر حدودها على الرياض فقط، فهنا "نحن على الحقّ بنحو تام وكل من عدانا على الباطل" تُوثّق بنحو يومي، وهنا أولئك الذين يظنّون أن الفراديس كلها قد هيّئت لهم فقط وليس لأحد سواهم أن يجد ريحها.

نجد في هذا الحي أيضاً عدداً من المساجد الصغيرة وآباراً للطهارة، وترى المحاريب التي تشير إلى اتجاه القبلة تزين كل ركن، وتملأ ساحة كل حديقة أو باحة منزل. شوارع هذا الحي واسعة مستقيمة، والهواء فيه صحيّ نقيّ تطهّر بالبركات الخفية التي تؤازرها بركات أخرى مادية ظاهرة. ولا يظننّ القارئ هنا أني أجنح إلى السخرية أو أنحو إلى التهكم وأنا أتعاطى صناعة الكتابة، ولكنني أنقل هنا كلمة إثر أخرى مما يقوله الوهابيون الحقيقيون، وأثبت تعبيراتهم، فهذا هو عين ما يقولونه حين يتحدثون عن هذا الحي المثالي في هذه المدينة المثالية.

ويمتاز هذا الحي بالاتساع، وبكثرة السكان، وهو قبلة التعصب الوطني والديني، وفخر التقوى والإسلام الحقيقي الذي لا يخلو من سوء الأخلاق المباح المتمثل في تعدد الزوجات لهؤلاء النفر الذين يظنّون أن التمسك بأهداب الدين "الأرثوذكسية هي الفضيلة الوحيدة في هذا العالم، وأن الشرك بالله هو الجرم الأوحد والشرّ الوحيد فيه".

أما الحي الرابع في هذه المدينة فهو الحي الجنوبي الشرقي المسمى بالخازق (؟) Kazik. وهو

حي كبير أيضاً، وهو – فوق ذلك – أكثر أحياء الرياض كثافة سكانية، ومع ذلك لا يخلو من مساكن علية القوم وأصحاب الثروة. وتعمر هذا الحي غالباً الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع، والنازحون إلى المدينة من القرى المجاورة. ويعدّ هذا الحي الأسوأ بناءً، والأكثر اكتظاظاً، والأسوأ في مجال الرعاية الاجتماعية، فالأرض هنا منخفضة، والهواء وخيم. ويقال: إن وباء الكوليرا الذي نزل بهذا الحي في عامي ١٨٥٤ و١٨٥٥م كان وبيلاً، "ولا شك لدي في ذلك".

لا توجد فواصل بين أحياء الرياض الأربعة التي ذكرها بالجريف إلا شوارع عريضة تفصل بين الحيّ والآخر. ويلاحظ أن في الإمكان اعتبار كل حيّ من هذه الأحياء قائماً بذاته، ويشكل "بلدية" مستقلة، فلكل منها اسم بعينه. والجدير بالذكر أن لفظ خارق الذي يطلق على هذا الحيّ الأخير يعني في العربية القوي الصلب أو القاسي (؟).

"العبادة الوهابية"

يدّعي بالجريف أن هنالك فوارق طفيفة بين عامة المسلمين والوهابيين تُضفي على العبادة الوهابية نمطاً متفرداً، منها أن أصدقاءه النجديين لا يقدّرون الطهارة بالماء قبل الصلاة "الوضوء" عالياً، ولا يعدّونها ضرورة كما يراها المسلمون الآخرون. يكتفي النجديون بالتيمم الذي لا يستغرق منهم وقتاً، وليست ثمّة ذريعة يتذرعون بها في إغفال الوضوء، لكنه مجرد كسل، فالمياه متوافرة في الرياض التي تكثر فيها الآبار، وفيها عند كل بئر خزان صغير أُعدّ خصوصاً لأغراض الطهارة الكلية أو الجزئية، "الاغتسال أو الوضوء". وهنالك اختلاف ثان وهو أنهم يدخلون المسجد أو الجامع بنعالهم لأداء الصلاة. وهذا ما يراه عامة المسلمين مقززاً وغريباً. وحين يُسأل الوهابيون عن السند الشرعي لهذه الممارسة يردون بأن أرضنا طاهرة. "وأنا لا أؤمن بهذه الذريعة، ولكني أرى أن السبب الحقيقي في ذلك يعود إلى وجود أشواك صغيرة في الأرض، أو إلى ما يمكن أن تسببه الحصى من مضايقات للمصلي". وأياً كان السبب فإن شافعية دمشق (؟) ومالكية مصر (؟) لن يقنعهم ذلك، ولكن على العموم هنالك سابقة لمحمد صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد، إذ قيل: إنه كان أحياناً لا يخلع نعليه في الصلاة. وثالث هذه الاختلافات أن الأذان أو النداء للصلاة يُشكل نصف الأذان في البلاد الإسلامية الأخرى. فالمقاطع التي تتكرر في تلك البلاد أربع مرات يكررها الوهابيون مرتين فقط، أما المقاطع التي تكرر مرتين فلا تكرر عند الوهابيين ويذكرونها مرّة واحدة فقط. وهنا يقول الوهابيون: إنهم يتأسّون في هذا بالسلف. أما العبارات الأخرى المضافة والحواشي التي تُزين هذا النداء من وقت إلى آخر في البلاد الأخرى، والتي تشيد بالنبي صلى الله عليه وسلم أو

بالصحابة رضوان الله عليهم فهي مرفوضة من الوهابيين تماماً. أما رابع الفوارق الذي يرصده بالجريف فهو أنهم حين يدخلون في الصلاة يظلون أكثر حرصاً من عامة المسلمين على تجنب الحركات غير الضرورية.

وفد إلى العاصمة النجدية في خريف عام ١٨٦١ الشيخ محمد البكري، وهو وجيه دمشقي، وفقيه في مسائل الدين والشريعة، و"لا أدري أي رياح دفعت به إلى هنا". فلربما رأى أن يفارق الأرض التركية مؤقتاً بعد حوادث يونيو ١٨٦٠م قادماً من مكّة. كان الرجل – كما أشرنا – فقيهاً مشهوداً له، وحجّة في المذهب الشافعي على الأقل. تلقى فيصل هذا الرجل كما تلقاه أيضاً عبد اللطيف قاضي المدينة حفيد الوهابي الأول بالترحاب، فظن الضيف أن كل شيء يسير على ما يرام. وساد التأدب العربي التناقض المذهبي وحساسياته حتى كان يوم الجمعة، فلم يجد هذا الضيف في هذا اليوم أن من اللائق أن يرفض لمضيفه أداء صلاة الجماعة في الجامع، وخاصة أن الأخير كان خطيباً في هذه المناسبة. وبعد أن استعدّ الرجل لصلاة الجمعة استعداد المسلم الحقيقي، خرج إلى الصلاة واتخذ موقعه في الصفوف الأولى. وبدأ الإمام بعد تكبيرة الإحرام بقراءة الفاتحة، ولكنه بدلاً من أن يعقد يديه على صدره شُغل بهما في تعديل وضع "غترته" وياقة جلبابه. ولم يطق هذا المأموم خلف ذلك الإمام الذي لم يلتزم بالسكينة والوقار صبراً، ورأى أن من الواجب عليه أن يخرج من الصلاة بقوله: اللهم إني نويت الخروج من الصلاة. نادى الرجل بتلك العبارة بأعلى صوته، وانبرى في توتر بارز يأخذ طريقه إلى خارج الجامع. وبالطبع فقد مضى المصلون الآخرون على ما هم عليه حتى فرغوا من صلاتهم التي ما كان حتى لزلزال أن يخرجهم عنها. ولكن ما إن ختمت الصلاة بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته حتى هرع جميعهم، كبيراً وصغيراً، عظيماً وحقيراً، سيداً وصعلوكاً، إلى منزل عبد اللطيف حيث وجدوا محمداً البكري على سجادته، فعمدوا إلى محاسبته على سلوكه المشين. وغلى الدم في عروق الرجل وسبّهم بلغة عربية فصيحة قائلاً: إن صلاتهم ومذهبهم ومؤسستهم كلها شيطانية، وإنهم كلهم مشركون وكفار، وأضلّ من ذلك سبيلاً، فتدفق السباب على الرجل غزيراً من كل جانب، ولكن الرجل كان في نجد حيث سرعان ما تسكت فورة الغضب الأولى. وظنّ البكري أن العاصفة قد انقشعت، ولكنه – قبل أن يحلّ المساء – تسلم رسالة من فيصل تطلب إليه أن ينجو بنفسه في تلك الليلة، فالملك نفسه لن يضمن له سلامته في ضحى الغد. وفي الحقيقة فإن الغضب النجدي ليس كنار القصب يمكنها أن تخبو، ولكنها نار تستعر ويزداد توهجها في اليوم الثاني، أما في اليوم الثالث فيزداد أتونها اشتعالاً وتأجّجاً. واستمع البكري إلى النصيحة، وما إن بزغ فجر يوم السبت حتى كان على مسافة بعيدة من الرياض في طريقه إلى الأحساء.

يلاحظ بالجريف أن خطبة صلاة الجمعة في الرياض متفردة بذاتها، لا تحوي إشادة بأي

من الخلفاء والصحابة وأصحاب "التميز الموروث" رضي الله عنهم ولا يمجّد فيها (؟) سوى محمد صلى الله عليه وسلم، ويجعلون ذلك في عبارات وجيزة، مع حذف عبارات الإطراء التي ترافق اسمه – صلى الله عليه وسلم – في أقطار أخرى. أما اسم سلطان القسطنطينية فيُحذف من الخطبة، لأنهم حين يقولون سلطاننا يقصدون به فيصل. أما الدعاء لجيوش المسلمين فيعنون بها جيوش الوهابيين. فلفظ المسلمين عندهم يقصرونه على أنفسهم فقط، ويضنّون به على الآخرين. فالأتراك والمصريون ومن إليهم يُعدّون هنا كفاراً أو مشركين، كما أنهم في الرياض لا يسوقون تلك السلسلة الطويلة من الدعاء على غير المؤمنين، بل يكتفون بدعوة وحيدة: اللهم أذلّ الكفار، وتلك دعوة شاملة بما فيه الكفاية.

هناك أيضاً تناقض سلبي في ممارسة العبادة لدى الوهابيين. فمن المعتاد لدى المسلمين أن يرددوا بعد صلاتي الفجر والمغرب آيات طويلة من القرآن الكريم تُسبح الإله. وفي هذه الفترة يمسك المسلم بالمسبحة الشرقية يستعين بحباتها في إحصاء عدد تسبيحاته كي لا يخطئها. ويقول الوهابيون بنحو لا لبس فيه إنه لم يؤثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم استعمال هذه الوسيلة، ولذا فهم يرفضونها ويستعملون أصابعهم للقيام بهذه المهمة، يعدون عليها من دون الاستعانة بأي وسيلة أخرى، فتراهم يعقدون أصابعهم تباعاً الواحد تلو الآخر. وعلى العموم، فإن الوهابيين ينكرون استعمال المسبحة تماماً، وعلى الوافد الذي يحملها أن يهيّئ نفسه لسماع ألفاظ غير مستحبة عن البدع والخرافات.

يلاحظ بالجريف وجود حوالى ثلاثين جامعاً ومسجداً أو أكثر تتوزع في الأحياء المختلفة، إضافة إلى الجامع الكبير. ويرى أن بعض هذه الجوامع كبير يتّسع للجمع الغفير، خاصة ذلك المسجد الذي يؤم الصلاة فيه عادة القاضي عبد اللطيف، وكذلك الجامع الذي يُشرّفه الوجود الدائم لولي العهد "في أوقات الصلاة". ويضيف أن الجامع الأول يقع في الحيّ الأول للمدينة، بينما الآخر في الحيّ الثالث منها. وكلا الجامعين يثير الانتباه باتساعه وبأناقته، ولكنهما يماثلان المساجد الأخرى في عدم وجود الزينة.

روايات بالجريف في مسائل فقهية

لا يرعوي هذا الرحالة وغيره عند الخوض في مسائل فقهية أو أي مسائل أخرى تتصل بالعقيدة الإسلامية، ولا يخجل – مثله في هذا مثل العديد ممّن على شاكلته من الرحالة الغربيين الآخرين – من القول: إنه أخذ علماً بهذه المسائل من راوية مجالسه، ولم يستمدها من كتاب أو يجادل فيها فقيهاً. والطريف أن بالجريف – مثله مثل الآخرين من الرحالة الغربيين – يجنح في كثير من الأحيان إلى فلسفة ما يعدّه من الإسلام ويعمل على تبيان دوافعه انطلاقاً من

عنصرية بغيضة ترى في العقل الغربي تميزاً. ونرى من جانبنا أن في العنصرية عنهجية لا تتسق وعقل أي دارس لثقافات الشعوب، وإن كان ثمّة تميّز فهو في درجة الجهل الذي استمرأه هؤلاء الرحالة ولطّخوا به كتبهم التي تأثر بها كثير من الغربيين. ونحمد لبعض وسائل الإعلام الحديثة عرضها لكثير من العاملين في مراكز البحوث السياسية والإنسانية في الغرب وهم يتحدثون عن الإسلام، قادحين أو مادحين، فلا تكاد ترى في الحالين إلا بلاهة متدفقة وسيلاً من الإرث الذي خلّفه جهل هؤلاء الرحالة في الذهن الغربي عن العرب والمسلمين. ولنا أن ننقل عن بالجريف بعض ما ورد من سفه في هذا المجال، ولا نتوسع فيه توسعاً يفضي إلى الكفر - والعياذ بالله - ونكتفي بأن نورد بعض أقواله التي تشهد له بالبلاهة التي أسهم مع غيره من الآخرين في تركيزها في عقول كثير من المستشرقين المحدثين وصُنّاع السياسات في الغرب. ويغدو فحش بالجريف حين يتعرض للإسلام وأهله فحشاً صراحاً يتجاوز كل المبادئ والقيم الإنسانية التي تقتضي أبسط قواعدها احترام هوية الآخر، والنأي عن تناول عقيدته بالسباب المتعمد الذي يخرج إلى دائرة اللعن الصريح. اجتهد بالجريف في الإساءة إلى الإسلام وأهله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتجرأ بكل ما يتوافق وإرثه الصليبي البغيض على الذات الإلهية، تعالى الله عما يصفون. والمؤسف أن ترّهات بالجريف عن الإسلام وأهله قد أصابت في بعض معاهد الغرب رواجاً كبيراً، واعتمد عليها الكثير من المستشرقين، ما أورثهم وأورث العديد من ساسة بلادهم بلاهة نراها تتدفق من أفواههم حين يتحدثون عن الإسلام مهاجمين أو معتذرين، قادحين أو مادحين. ولعلنا لا نأسف حين نقول: إننا لا نستطيع أن نبادل سباب بالجريف للإسلام ومعتقداته بمثله، فكافة المعتقدات الكريمة تنهى عن السباب، فليس المؤمن بفاحش ولا لعّان، ولكن - في ما يبدو - إن الدخول في حوار مع سدنة بالجريف من الذين يتدثرون بدثار النصرانية لغايات لا صلة لها بالأديان والملل للوصول معهم إلى كلمة سواء هي أشبه ما تكون بالحرث في البحر. فنحن نلهث وراء التحاور معهم بتزلّف يأباه الخلق القويم ونحتجّ بأننا نحاور - كما يأمرنا الإسلام - بالتي هي أحسن وبالموعظة الحسنة، ولكننا نعتقد أن قاعدة الحوار غير موجودة أصلاً، ولن توجد أبداً. ففي الوقت الذي نعرف فيه أن التعرض بقدح لأي من الرسل والأنبياء السابقين للإسلام الذين لا يفرّق المسلمون بين أحد منهم يُخرج المسلم من الملة ويورثه الكفر البيّن، لا يجد هؤلاء الأفاقون من الغربيين حرجاً في أن يتناولوا رسولنا بالتجريح وكتابنا بالسبّ الصريح مما لا يصلح معه إلا القول: لكم دينكم ولي دين. وبناءً على ذلك لا نحتاج أساساً إلى الرد على تجنيات بالجريف على الإسلام ولا من تبعه من الجاهلين بكنه هذا الدين، لأنها - على أحسن الفروض - ترّهات من قبيل الجهل المطبق. فقد كان الرجل، مثله مثل من سبقه وجاء بعده من الضالين، يهرف بما لا يعرف، أو ربما كان ما يقترفه بالجريف ومن لفّ لفّه سياسة متعمدة لتشتيت ما تبقى للمسلمين من شعور بالعزّة

والكرامة والترابط الوجداني، ليتمكنوا بالغزو الثقافي من تحقيق ما نتمنى ألا يكونوا قد حققوه حتى الآن من غاياتهم في بلاد الإسلام والمسلمين. و لم يؤثر عن بالجريف أنه جالس الفقهاء أو جاور العلماء، أو قرأ كتاباً في أصول الفقه والعقيدة. وكانت مصادره وهو يكتب في هذا الموضوع الحيوي راوية أو أكثر من مُجالسيه أو مرافقيه، يخلطها ويضيف إليها من دواخله السقيمة، ثم يصوغها غرائب صادفت هوى عند العديد من الدوائر الغربية، لا لأنها تصور الفكر الإسلامي على ما هو عليه بل لأنها تؤكد في أذهانهم الصورة التي كانوا قد رسموها سلفاً للمسلمين وعقيدتهم.

بالجريف ينتقد الكبائر

يقول بالجريف إنه سأل مُحدّثه يوماً عن كبائر الذنوب وصغائرها في "الفقه الوهابي". ويشرح هذا الرحالة لقارئه معنى الكبائر والصغائر من الذنوب فيقول: إن للذنوب عند المسلمين درجتين، درجة كبرى يُعاقب مرتكبها في العالم الآخر، ودرجة صغرى يمكن أن ينال مرتكبها الغفران بسهولة، بل ويمكن أن تُغفر في الدنيا قبل الآخرة. وبهذا الفهم الخاطئ الذي يدل على جهل الكاتب - إذا أحسنّا الظن به، أو يدل على خداع قارئه ليسهل عليه إمرار ما يزمعه من زيف يعتمد على هذه المقولة الخاطئة - يدخل هذا الرحالة موضوعه فيقول: إن جميع المسلمين يعترفون بوجود الكبائر ولكنهم يختلفون في ماهيّتها. يقصر بعض المسلمين الكبائر - كما يقول بالجريف - على الكفر والشرك، ويعدّ ذلك فقط أمراً لا يغتفر، وبهذا الرأي قال، وهو الرأي الذي يدّعي بالجريف أن القرآن الكريم يقول به أيضاً. ويضيف بعض المسلمين - في ما يقول هذا الرحالة - إلى ذلك جريمتي القتل والربا فيجعلونهما من الكبائر، بينما يصل عدد الكبائر عند بعض المسلمين إلى سبع، "ولربما أرادوا بذلك أن يقلدوا النصارى الذين يحددون الذنوب التي لا تغتفر بسبعة". ويصل بعض المسلمين بالكبائر إلى خمسين، ويصل بها بعضهم إلى سبعين، "وقد راعني شخصياً أني رأيت في دمشق كتاباً ورد فيه ذكر ما لا يقل عن أربعمئة كبيرة. ويتملص بعض المسلمين حين يُسأل عن الكبائر فيجيب بأن الله وحده أعلم بالكبائر والصغائر، وأن مشيئة الله هي الأساس، وهي المقياس الذي يمكن أن يحدد وفقه العقاب".

يستطرد بالجريف فيقول: إن المسلمين يقصرون عذاب الآخرة على غير المسلمين، ويعتقدون أن المسلمين سيكونون في نهاية الأمر بمنجاة من النار. ويعتقد كثير منهم أن النجاة من النار تكون بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم، ويعتقد آخرون أن النجاة من أوزار الذنوب تحصل بتقادم الوقت ومرور الأيام أو برحمة من الله. وعلى أي حال، "فإن المسلمين جميعاً - عاجلاً أو آجلاً - سيخرجون من الجحيم التي لن يؤبّدوا فيها إلى الفردوس، مخلّفين وراءهم

الكفار والمشركين في أتون العذاب المقيم". وعموماً فإن المبدأ الديني السائد في الإسلام هو أن دخول الجنة مقصور على المسلمين، وأن النار هي نصيب كل من عداهم. وهناك عدد من التفسيرات الأخرى التي يوردها المسلمون على سبيل التعاطف فقط مع فئة ما أو غيرها أحياناً، ولكن من المؤكد أن النصارى واليهود والوثنيين وكل من على شاكلتهم مشركون أو كفار.

يقول بالجريف إنه يريد أن يعتذر عمّا يعتبره فهماً قاصراً لدى المسلمين بصفة عامة ولدى النجديين بنحو خاص. "فهذا الاعتقاد ليس همجياً كما يبدو من الوهلة الأولى، فالمسلمون كلهم يجهلون علم الجغرافيا ولا يعرفون علم الإحصاء". يعتقد هؤلاء أن الإسلام دين عالمي يمكنه أن يشمل العالم برمّته، وأن أتباع الأديان الأخرى لا يمثلون نسبة كبيرة من سكان العالم. فهم – على سبيل المثال – يعرفون أن أوروبا تدين بالنصرانية، ولكنهم يعتقدون أن أوروبا كلها لا تزيد على مدينة واحدة كبرى يحكم محيطها سبعة ملوك، وهم في حالة تحالف أو تعاهد أو حرب أو اتفاق في ما بينهم، بتوجيه من سلطان القسطنطينية أو بأمر منه.

وهذا الدرس في الجغرافيا السياسية قد تلقيته مراراً، ولم يُرْوَ لي مرّة واحدة فقط، بل أكثر من عشرين مرّة. فقد سمعته في حمص وبغداد والموصل، بل في دمشق ذاتها. وقد استهواني هذا الدرس كثيراً. أما في شبه الجزيرة العربية حيث التخلف أبلغ منه في المناطق الأخرى، فقد سئلت كثيراً وبنحو جدي: أما زال العالم يضم نصارى أو كفاراً (؟). ولكن على أي حال، ما من أحد منهم يشك في أن ثلاثة أرباع عدد بني آدم في العالم مسلمون.

عمد بالجريف بعدئذ إلى عرض "آراء المسلمين غير المتقيدين – من الذين اكتشفوا بالأسفار بعض مناطق العالم واكتسبوا بعض المعارف عن الأرض"، ثم يخوض بعدئذ في آراء ابن الفارض ويثبت منها شذرات بحسب فهمه، أو ربما بحسب ما يريد أن يحركه في ذهن قارئه، وينتهي إلى السؤال الذي بدأ به عن الكبائر لدى الوهابيين. فالإجابة عن هذا السؤال ستكشف للقارئ – كما يقول الرحالة – عن الشخصية الأخلاقية لهذه الطائفة.

يقول بالجريف إنه أعلن لصديقه الراوية، بعد أن وضع على وجهه قناعاً غليظاً من التظاهر بالقلق، أنه يخشى أن يرتكب كبيرة، وأن ضميره لا يزال يؤنّبه كلما ارتكب ذنباً يظنه صغيراً، ولكنه يخشى وزر ذلك، فلربما كان ذلك الذنب من الكبائر. وبعد أن يبدي بالجريف لمحدثه – كما يدّعي – عدم اقتناعه بصحة الكبائر التي يقول بها فقهاء الشمال الذين يختلفون في ما بينهم في كنْهها وتحديدها، يطلب إليه تعريفها. ويضيف أنه قد تصنّع التواضع وهو يقول لمحدِّثه: إنه الآن في نجد، أرض الأصولية والتقوى، وفي صحبة فقيه صديق يرجو منه أن يجود عليه بما يريح عقله وضميره ويسوّي إلى الأبد في ذهنه مسألة ذات أهمية قصوى تؤرق حياته.

يدّعي بالجريف أن مُحدّثه لم يشك أبداً في أنه أمام تلميذ شغوف بتلقّي المعرفة، لذا لن يرفض أن يمدّ يده لإنقاذ رجل يغرق في جهله. وأخذ الرجل الذي استشعر أهميته يتحدث

بصوت يجلله الوقار وينطق بالحكم، فأفتى بأن أشنع الذنوب هي إسباغ الصفات الإلهية على المخلوق. وهنا يجب أن نلاحظ أن الوهابيين يضعون المسلم العادي (؟) الذي يؤمن بشفاعة محمد أو علي – رضي الله عنه – في منزلة الوثنيين (!). ووافق بالجريف – كما يدّعي – هذا الفقيه في ما ذهب إليه من أن الشرك ذنب من أعظم الذنوب، فليس في ذلك شك، ولكن ما هي الكبيرة الأخرى، فأجاب الرجل: تدخين التبغ. ويدّعي بالجريف أنه سأل محدثه: ثم ماذا عن القتل والزنا وشهادة الزور (؟) فأجاب: إن الله غفور رحيم (!). وعلّق بالجريف على ذلك بأن الكبائر لدى الوهابيين تنحصر في اثنتين هما الشرك والتدخين، فأمّن محدثه على ذلك (!).

يعرض بالجريف معرفته الفجّة بالعقيدة الإسلامية فيقول:

> إن الوهابية – في نفيها للشرك – تمثل تجسيداً حياً للروح الحقيقية للقرآن الكريم. فالله هو الواحد الجبار، والخلق جميعهم عبيده، وكل شيء رهن بمشيئته. ويعني ذلك أن كل عمل يقوم به المخلوق من سرقة وغير ذلك من الموبقات لا يعني شيئاً عند الواحد الأحد (؟) ما دام العبد يعترف بالربوبية. ويتواءم التطبيق مع النظرية، إذ على الإنسان – كما يقول بالجريف – أن يعترف بالله وحده ولا يشرك به شيئاً ولا يوالي إلّاه، فهو خالقه، وحافظه، وسيده، وكل شيء في حياته. ولكي يعبر الإنسان عن هذا الارتباط فإنه يقوم بأداء واجباته بالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، يسجد فيها أربعاً وثلاثين سجدة (؟)، ويقرأ فيها سبع عشرة سورة من القرآن (؟)، ويركع فيها عدداً مماثلاً من الركعات، ولا ينسى قبل كل هذا وذاك أن يقوم بالطهارة الكبرى والصغرى، وأن يذكر دائماً أن لا إله إلا الله. وحين يؤدي المسلم هذه العبادة، فإنه يطلب إلى الإله أن يدعه يفعل أي شيء يريد فعله في ما تبقى له من الأربع والعشرين ساعة، وألا يسائله في سلوكه الشخصي، وأن يدخله الجنة، ويطعمه من لحم طير مما يشتهون، في ظلّ ظليل، وأن يهيّئ له أنهاراً من عسل وخمر مصفّى، وذلك بفضل دعائه وتقديسه له. ويطلب العبد إلى ربه – بموجب اعتقاده فيه، وفيه وحده – نطقه بشهادة ألا إله إلا الله وهو على سرير الموت، وأن يكون ذلك كافياً لحسن الجزاء.

ويضيف بالجريف: إن هذا تلخيص للإسلام الأصولي حين نترجمه إلى لغة إنجليزية واضحة.

في الحقيقة، إننا حين ننقل عن هذا الرحالة أو غيره هذا الفهم القاصر المستهتر بقواعد الإسلام الذي يجرّد المؤمنين بتوحيد الألوهية والربوبية من التقوى التي هي أساس التوحيد،

نكرر ما سبق أن قلناه: إن أدب الرحلة كله معاد للإسلام، صراحة كان ذلك أو تلميحاً، وإن روح هذا العداء أشد ما تكون استعاراً حين يكُون هذا الرحالة من العاملين بالتنصير ذريعة لتحقيق غايات سياسية وأهداف لا تمتّ إلى النصرانية بأي صلة.

بعد أن يشرح بالجريف أمر التوحيد يأخذنا ليشرح لنا أمر تحريم الوهابيين تدخين التبغ الذي يدافع عنه، إذ يقول: إنه يمثّل عادة اجتماعية وحضارية طيبة، ويرى أنه يزيد في قوّة روابط الصداقة، ويساعد على تبادل الأفكار، وأن له تأثيراً لطيفاً. وبالطبع لم يكن الغرب وقتها قد عرف مضارّ التدخين أو نادى بتحريمه، فاعتبر هذا الرحالة حظره تخلّفاً. وعموماً ننقل عن بالجريف – المدافع عن التدخين – أنه يحسّ بالأسف تجاه النساء المدخنات.

يقول هذا الرحالة: إن المسلم "العادي" يتفق مع الوهابيين على أن الشرك ذنب عظيم، ولكنه لا يشاطرهم الرأي في ما يخصّ التدخين. "ويجادل البعض منهم في أن كل ما يقوم به الإنسان يرجع إلى مشيئة الله. فإذا أراد الله للإنسان أن يكون مُدخناً فإنه في ذلك مسيّر لا مخيّر، تماماً مثلما هو مسيّر لا مخيّر في أن يقتل أو يسرق (!) فهذه هي إرادة الله، إن شاء فعل، فمن ذا الذي يعترض على مشيئة الله الواحد الأحد الذي يضع الذنب على رأس من يشاء، ويعاقب عليه – إذا أراد – بما يشاء (؟)."

في تواضع جمّ – كما يقول هذا الرحالة – طلب إلى محدثه أن يبيّن له الحكمة من تحريم التبغ، فأجابه بأن القرآن الكريم يحظر كافة المسكرات، والتبغ من ضمنها. "فانبريت لأقول له: إن التبغ ليس في عداد المسكرات. وكم أدهشني أن أعرف أن لمحدثي تجربة في هذا المجال. وقال: إنه عرف عدداً من الناس سقطوا سكارى بأول دخان نفثوه من التبغ، وعرف آخرين أدمنوا هذا المسكر".

ويشهد هذا الرحالة بأن ما قاله محدثه لم يكن زيفاً كله كما يحلو للبعض، فالصنف الوحيد من التبغ في جنوب نجد قوي جداً، وقد حدث أن تعاطاه في مقاهي البحرين وصحار، وأدرك قوّة تأثيره.

جادل بالجريف محدثه بأنهم في دمشق لا يدخلون التدخين في دائرة المسكرات، فأكد له محدثه أن التدخين مسكر، ولكن إذا حدث أن البعض لم يسكر من التدخين فذلك استثناء. وأضاف الرجل: إن هناك من يتعاطون الخمور ولا يسكرون، وإن الحكم الفقهي يُبنى على قاعدة التأثير الطبيعي، لا على الاستثناء. ويصل بنا بالجريف إلى ذروة الهراء حين يضع على لسان محدثه حديثاً شريفاً يستدلّ به على حرمة التدخين. وفي العادة إن أغلب هؤلاء الرحالة إذا تعمّدوا أن يأتوا ببهتان صريح، اتجهوا إلى اختراع الأحاديث. فالقرآن قد تُرجمت معانيه في هذا الوقت إلى الإنجليزية، وكانوا عادة ما يجدون حرجاً إذا نسبوا إليه شيئاً تعقّب صحته أحد آخر ودحضه. يقول الحديث الوهمي الذي أورده بالجريف إن محمداً قد قضى بتحريم أي

مادة حرقت بالنار أو أحدثت فيها النار أثراً مباشراً. وفي الحقيقة - كما يقول بالجريف - إن هذا الحديث ربما يفسر السبب في أن أهل نجد يأكلون اللحم مسلوقاً ولا يأكلونه مشوياً (!)، "هذا إذا استبعدنا أيضاً جهلهم بفنون الطبخ". ويضيف: إن تدخين التبغ يدخل تحت هذا الباب، "فالعرب يستعملون لفظ يشرب لمن يدخن التبغ ولا يقولون يُدخن".

يقدم بالجريف من وحي أفكاره السبب في اعتبار الوهابيين التدخين من الكبائر، ويأتي في تفسير ذلك برأي طريف، يقول: إن الوهابيين كانوا يسعون لتكوين إمبراطوريتهم بشنّ الحرب على جيرانهم من المسلمين، وكان عليهم أن يجدوا ذريعة لذلك باستحداث نوع من التمايز بينهم وبين المسلمين الآخرين. فهؤلاء الأخيرون قد يحتجّون على الوهابيين الغزاة بحجة دامغة حين يتساءلون قائلين: إننا مسلمون مثلهم تماماً نصلي كما يصلون، ونؤدي الفرائض كما يفعلون، فلماذا نُهاجم وتستباح أرضنا (؟). وهنا وجد الوهابيون التبغ ذريعة لشن الحروب، فقد كان استعمال التبغ سائداً في البلاد الإسلامية، هذا إضافة إلى أن "التدخين يجافي الروح الحقيقية للإسلام". وهنا نلاحظ توجهاً جديداً في أدب الرحلات الغربية. ففي الرحلات الأولى يقول لنا نيبور - على سبيل المثال - بظهور دين جديد في نجد، وفي رحلاته التالية لا نجد هذا الرأي بعينه، إذ يقول كثير من الرحالة عن ظهور إسلام من نوع آخر يوغل في التوحيد، ويدين دور السنة المطهّرة، ويلغي دور الرسول تماماً! ويتدرج فكر أدب الرحلات الغربية حتى نصل مع هذا الرحالة ومع كثير ممن جاء بعده إلى أن عبادة الوهابيين متطابقة تماماً مع المسلمين الآخرين، وعلى هذا سعوا للتمايز بتحريم التدخين وبالبساطة في الملبس، إضافة إلى الأصولية التي لا يزال الغربيون يرونها في الوهابيين. والأصولية والتمسك بالأصول في تقديرنا ميزة كبرى يهفو إلى التمسك بها كل أهل القبلة في زمننا هذا، بمن فيهم الوهابيون.

لعل بالجريف لم يذهب بعيداً في تفسيره المادي لسبب الخلاف الذي ادعى أنه يفرق بين الوهابيين وغيرهم من طوائف المسلمين. فقد نقدم نحن في نجد وغيرها من بلاد الإسلام لهؤلاء الرحالة الأجانب الذين لا يحترمون ثقافاتنا التي نراها المتراس الوحيد الذي يحفظ لنا الهوية حتى لا تذوب في تيارات الغرب المادية العنصرية العلمانية، مثلاً ينسجون على منواله حين يهزأ بعضنا من البعض الآخر. ولربما تفيدنا ترجمة القصة الآتية التي قد تكون حقيقية وقعت في نجد فعلاً، إن حدث أن زار هذا الرحالة نجداً، أو قد لا تكون واقعة حقيقية، ولكنها على أي حال تسيء إلى الشخصية العربية التي تروي عن طيب خاطر نقائصها لمن هم على غير ثقافتهم فيتخذونهم هزواً. يقول بالجريف: إنه بينما كان مختلياً بنفسه في غرفته بعد ظهر الجمعة يكتب مذكراته سمع طرقاً على الباب، فخبّأ دواته وأوراقه ثم فتح الباب، فإذا بعدد من أصدقائه يتضاحكون ويتغامزون. وما إن جلسوا حتى راحوا يحدثونه بما بدر من عبد الكريم، ذلك الرجل الذي يدّعي بالجريف أنه استمد معلوماته عن الكبائر منه. قال هؤلاء الرهط لصديقهم الرحالة: إنهم عائدون لتوّهم من

صلاة الجمعة التي أقيمت في الجامع الكبير. هنا يلاحظ هذا الرحالة الذكي أن صلاة الجمعة في الرياض تُؤدّى على نفس النمط الذي تؤدى به في حائل، لا فرق بين الاثنتين، إلا أن عدد المصلين في جامع الرياض أكبر، والخطبة في الرياض أطول (!). قال له جلساؤه: إن عبد الكريم تحدث بعد صلاة الجمعة إلى المصلين عن فوائد الوسائل الحديثة، وحثّ الناس على أن يثقوا بالله وحده من دون خلقه وما يبتدعون، فالمخلوقات لا تضرّ ولا تنفع، وهاجم من يثقون بالفيزيائيين وعلوم الفيزياء من دون الله، ورأى أن الثقة بهذه المُحْدَثات كفر، فالموت والحياة والصحّة والمرض كلها رهن بمشيئة الله وحده، وأن العلاج والمعالجين لا يملكون من أمر الإنسان شيئاً. ووصل الرجل في خطبته إلى نتيجة شرعية قانونية، كما يسميها بالجريف، فحواها أن المعالج لا يستحق من المؤمن الحقّ أجراً أو شكراً، حتى وإن أصبح العليل بعد العلاج صحيحاً بأساليب الطبيب ودوائه، فالشفاء من عند الله، وله الشكر على ذلك والحمد، و... لا إله إلا الله. ويسترسل هذا الرحالة فيقول: إن الجميع كان يعرف تاريخ مرض عبد الكريم وما ناله من علاج من الأدوية التي كان يحملها بالجريف حتى تمّ له الشفاء، ولهذا فسّروا أن خطبته "رغم أنها في دائرة الأصولية"، هي في منفعته الشخصية، فقد أدركوا أن الغرض منها يدور حول إحكام إغلاق محفظة نقوده أكثر مما يدور حول حلّ معضلة فقهية، فأخذوا يتغامزون عليه ويتلامزون. وقد راقت هذه النكتة – كما يقول بالجريف – أصدقاءه الذين نقلوها بدورهم له، ووعدوه بأنهم سيستخلصون له مستحقاته من عبد الكريم، وقد وفوا بوعدهم له.

الوهابية وكلمة التوحيد

يقول بالجريف: إن ابن عبد الوهاب (الشيخ محمد) أراد أن يعيد إلى الإسلام سيرته الأولى التي كانت على عهد الرسول وصحابته. ويرى هذا الرحالة أن ابن عبد الوهاب عمل على تخليص الإسلام مما لحق به خلال اثني عشر قرناً من بدع أورثته طبقات متراكمة من صنوف التبديل الذي لحقه بفعل الجماعات المختلفة من شُرّاح وغيرهم، والذي أصابه بتقادم الزمن أيضاً، وباختلاف عناصر المؤمنين فيه. "ولم يكن هذا العمل بالهيّن ولا باليسير، ولا تستطيع العين المجرّدة سبر غوره ولا التمكن من إدراكه، فهو عمل يتطلب قوّة في التحليل وتمكناً، وقدرات خلّاقة لا تتاح إلا للقليل من البشر، ويتطلب العوامل الأساسية التي تقوم عليها قاعدة ما يطلق عليه في كل علم وفن لفظ: العبقرية."

تمكن ابن عبد الوهاب – فيما يرى بالجريف – من أن يجمع بنحو جدي هذه الصفات، وله الفضل – إن كان ثمّة فضل يُذكر ليُحمد – في أن يستكشف وسط هذا الركام في الكومة الإسلامية تلك النغمة الأساسية التي أُهملت زمناً طويلاً، وكان عليه أيضاً – كما

يقول بالجريف – أن يعمل على وضعها موضع التطبيق، ليتمكن بالعمل بها وعن طريقها من أن يرتق نسيج الإسلام، وكان جهد العمل على تطبيقها أصعب من العمل على اكتشافها. ويستطرد فيقول إن هذه النغمة المستكشفة هي الفكرة الأساس أو الفكرة الأصلية التي يُعدّ كل ما عداها استنتاجات ضرورية ملازمة لهذا اللفظ الذي يتكرر عند المسلمين بنحو دائم. لفظ يفوق تواتره على ألسنة المسلمين فَهْمَ أذهانهم له. هذا اللفظ هو: لا إله إلا الله. وهذه هي الترجمة الحرفية المجردة للفظ: لا إله سوى الله، "ولكنه لفظ يتعذر تماماً على الترجمة أن تصور ما يفهمه العربي منه. فهذه الترجمة: لا إله سواه غير وافية أبداً في التعبير عمّا يحمله اللفظ من قوّة حقيقية حين ينطق به العربي أو حين يتصوره".

لا إله إلا الله

كلمات تعني في الإنجليزية ببساطة نفي الألوهية عن غيره – سبحانه – وقصرها عليه – جلّ شأنه – وحده بينما هي في العربية – يقول بالجريف – تعني أكثر من ذلك بكثير (!) وتوحي في الوقت ذاته بعدّة أشياء. فهذه الكلمات في منطقها النهائي لا تقف عند التنزيه الكامل للذات المطلقة التي لا يشاركها غيرها في الوحدانية، مهما كان شأن هذا الغير طبيعة، كائناً أو إنساناً. فاللفظ يؤكد أيضاً أن هذا الإله الفرد الصمد هو الفاعل الوحيد، وهو القوّة الوحيدة، وهو الوحيد صاحب المشيئة في هذا العالم بأسره، أما كل ذات أخرى ما عداه (تنزّه عن الشريك) من كافة الموجودات، جمادات كانت أو ذات روح، غريزية كانت أو ذات وعي، طبيعية كانت أو أخلاقية، فهي كلها لا شيء، فكلها سواسية، وكلها مسلوبة الإرادة، وكلها غير فاعلة وغير قادرة، سواء كانت متحركة أو هامدة. كل هذه الأشياء متساوية في الفعل، متساوية في المقدرة. فالله (جلّ جلاله) هو القوّة الوحيدة، وهو الدافع الوحيد، وهو المحرك الوحيد، وهو الطاقة والعمل، أما ما عداه (جلّ شأنه) فهم اعتباراً من أعلى رئيس للملائكة (؟) إلى أدنى ذرّة في الخلق آلية لمشيئته.

يستطرد بالجريف فيقول:

> على ضوء ذلك يمكن أن نلخِّص هذا الفهم التوحيدي بأن لفظ لا إله إلا الله يعني قوّة وحدة الوجود (؟)، ولا أستطيع أن أجد تعبيراً يدلّ على هذا المعنى أقرب من التعبير الذي ذكرته. فوحدة الفعل هي شأن من شؤون الله (جلّ جلاله) وقصر عليه بنحو تام، فهو (سبحانه) الذي يضمّ الكل، وهو الممارس للكل، فهو وحده (تنزّه عن الشريك) الذي يحفظ، وهو وحده الذي يدمر، وبيده (سبحانه) الخير

النسبي والشر النسبي. ويجب أن أشير إلى أني قد استعملت كلمة النسبية هنا لأنه لا يوجد في هذه العقيدة الإسلامية مكان للخير المطلق أو الشرّ المطلق، ولا مكان للعقل، ولا للانطلاق. فالكل يدور في دائرة أوتوقراطية الفاعل الوحيد، العظيم، المعبر عنه بالعربية – كما ورد في القرآن الكريم – بلفظ المشيئة.فالله هو الأزلي الذي لا شبيه له، وهو المتعالي على الكل، الذي ليس كمثله شيء من المخلوقات التي جمعت له كلها لتحقيق مشيئته فيها (؟) فالله هو الواحد من دون الكل، وهو الرحمن الذي لا يعترف بأي قانون ولا يتقيد بأي مقياس موضوع (؟) وهو (سبحانه) لا تحدّه الحدود، فلا شيء مطلق إلا ذاته، وليس ثمّة شيء غير مشيئته التامة. فالله لا يهب لخلقه شيئاً اعتباراً لما لهم من قوّة، فهو وحده صاحب الأمر. وفي مقابل ذلك فإنه (تعالى) لا ينتظر من خلقه ثواباً فهم – مهما تناهى شأنهم – وما ملكوا له وبه ومنه وفيه فقط. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا يجوز لأيٍّ من خلقه أن يدّعي امتيازاً أو تفوقاً على آخر، فالكل سواء في أخطائهم (؟) وفي عبوديتهم، فهم كلهم جميعاً متساوون بنحو كامل لا يستثنى منهم أحد. فكل هذه المخلوقات ليست إلا أدوات في يد قوّة مهيمنة تستخدمهم لتحقيق الضرر أو لجلب المنفعة، وتستغلهم في الخطأ أو الصواب، وتؤهلهم للشرف أو للعار، تمنحهم السعادة أو ترميهم بالتعاسة، وذلك وفق استقلالية إرادة تامة لا تضع في اعتبارها الاستحقاق أو الأهلية أو التمايز. فهو ببساطة قد شاء كيف يشاء.فالإنسان لا يملك من مصيره شيئاً، فهو إما إلى الجنة وإما إلى النار، فقد رسمت المشيئة الإلهية له طريقه.

يستطرد هذا الرحالة الشقي في الإساءة إلى معتقدات المسلمين الذين استضافوه، وهم يدركون أنه غير مسلم، بسماحة إسلامهم وبتقاليدهم وأعرافهم، وأكرموه في بلادهم وحفظوا له أمنه وحياته. ولنا أن نقتبس من سوء أدبه بعض المقاطع التافهة، راجياً بدوري من الغفور الرحيم أن يثيبني مغفرة منه ورضواناً، فالأعمال بالنيات، والنية هنا أن نكشف الزيف لمن قد يقرأ عن رافد مهم من روافد الثقافة الغربية تمثل في أدب الرحلة الأجنبية، غذّى في أذهان العديد من الغربيين الصورة المشوّهة عن الإسلام، التي عمل كثير من المستشرقين وكثير من ساسة الغرب على الترويج لها. فحيثما كان الإسلام كان التناقض بينه وبين استعباد الإنسان لأخيه الإنسان واستعمار أرضه، وظل الإسلام القوة التي تكافح المستعمر وتحافظ على الهوية، لا يرضخ لقوة الغاصبين إلا اضطراراً وإلى حين، ثم ينتفض المسلم حينما يذكر عبارة لا إله إلا

الله، فلا عبودية إلا له جلّ شأنه، ولا معبود في الأرض والسماء سواه، وفي ذلك انعتاق كامل من العبودية لمخلوقاته ورغباتهم وتطلعهم إلى استعباد خلق لم يخلقوهم.

يضيف بالجريف:

> قد يعتقد المرء منذ الوهلة الأولى أن هذا الأوتوقراطي المهيب، وهذه القوّة غير المتسامحة (وهو الغفور الرحمن الرحيم) التي لا يمكن السيطرة عليها، ترتفع فوق العواطف والأهواء والرغبات وفوق كل شيء، ولكن واقع الحال ليس كذلك. فهو يتملكه شعور واحد يوجه أعماله تجاه مخلوقاته وهو غيرته (؟) منهم خشية أن ينسبوا إلى ذواتهم شيئاً مما اختصّ به فيتغوّلون بذلك على مملكته (؟)، ويستحوذون من دونه على الانتباه ويهيمنون من دونه على الفكر (؟)، ولذا نجده (جلّ شأنه) أكثر ميلاً إلى العقاب منه إلى الثواب (كذب الفاجر) فهو ينزل بهم من الآلام والعقاب أكثر مما يهبهم من السعادة، وهو يُحطم أكثر مما يبني، ويجد رضاه الأوحد في أن يجعل مخلوقاته يشعرون أبداً بأنهم لا يساوون شيئاً إلا أنهم عبيده، وأنهم آلاته وأدواته الوضيعة التي لا تستحق إلا الازدراء (ولقد كرمنا بني آدم...)، وأن عليهم أن يعترفوا له بالسموّ الذي لا يُدانى، وأن يدركوا أن قوته فوق قوتهم، وأن مَكْره فوق مَكْرهم، وأن مشيئته فوق مشيئتهم، وأن عزّته فوق عزّتهم. وربما يصحّ أن نقول بتعبير آخر: لا حول ولا طول ولا مشيئة ولا عزّة إلا له وحده (ولعباده المؤمنين)، وهو مع ذلك في عليائه مُنزّه عن حب أي شيء، فليس له صاحبة ولا ولد ولا مستشار (؟)، وإنه ليس أقل حرماناً وعقماً (؟) من مخلوقاته.

هذه النظرة العنيفة الكافرة (كما يقول هذا الفاجر) هي بالضبط تلك التي يقررها القرآن الكريم، أو ما يحاول أن يقررها، وهي ما تؤكده السُنّة (المطهرة)، فالإنسان مُسيّر جرى الحكم عليه سلفاً في كل أعماله، الصالحة منها والطالحة، المميزة منها وغير المميزة. وكل سلوك الإنسان الخيّر منه والشرير، وكل أعماله سواء اقترف خطيئة أو التزم التقوى، فكل ذلك عند الله سواء (؟). فالله وحده هو الذي يقرر في شأن مخلوقاته، فيُدخل الجنة من يشاء ويُدخل النار من يشاء، أي إنه يزجّ بمن يشاء إلى النار بعد أن يقيده بسلاسل محمرّة في بِحار من النار التي تذيبهم وتحرقهم إلى الأبد، وهو الذي يدخل آخرين السعادة الأبدية، ليس فيها ما يعكر الصفو، لاهين مع أربعين من الحوريات الحسان، وكل ذلك لا يكون إلا وفق ما يراه

وحسب مشيئته. فالناس جميعهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة – مهما تفاوتت أقدارهم ومهما تناهت طبقاتهم، ومهما تباعدت درجاتهم الاجتماعية – عبيد لسيد واحد (سبحانه جلّ شأنه) وهم جميعهم آلات في يد فاعل كوني واحد.

يستطرد اللعين فيقول:

> لا تقف المساواة في الإسلام عند هذا الحدّ، بل تتعدى إلى ما دون ذلك، فهي تضع الوحوش والطيور والأسماك والحشرات هذا الموضع أيضاً. فكل هذه المخلوقات – مثلها مثل الإنسان – عبيد لله وآلات لتحقيق مشيئته. يقول محمد (صلى الله عليه وسلم) لأتباعه في القرآن (كذب المأفون): إن هذه المخلوقات أمم أمثالكم، لا فرق بين أجناسها وأجناس الإنسان إلا بمشيئة الملك القدير الكبير. "ولكن مع ذلك – كما يقول هذا الأحمق" – فإن المرء إذا أحسّ غبْناً بمساواته بسائر الحيوان فسيجد العزاء في الجانب الآخر، فالملائكة ورؤساؤهم، والجنّ والشياطين، وسائر الأرواح الأخرى لا تزيد عنه، فهي في مستواه. فإذا كان الإنسان ليس بأفضل من الجمل، فإنه مع ذلك ليس بأقل منزلة من جبريل، ولا إله إلا الله فوق الجميع.

وهنا نجد بالجريف الذي ينتقد آية من القرآن الكريم تشير إلى أن كل الأجناس متساوية في الخلق، يتجاهل عن قصد أو عن جهل، التكريم الذي خصّ به القرآن بني آدم، مهما كان جنسه أو لونه أو معتقده على سائر المخلوقات، كما تجاهل الوظيفة التي ميز الله بها الإنسان من دون غيره من المخلوقات حين حمّله وظيفة التكليف الإلهي. ويستطرد بالجريف ليضيف: "في الحقيقة، إن الأشجار لا تُعرف إلا بثمارها، فإذا تردد أيٌّ من القراء في قبول ما سردته في هذا الصدد من هذا الاعتقاد القرآني أو أنكره، فإن النتائج العملية لحصاد إقامتي في العاصمة الوهابية ستساعده في التثبت مما قلت".

> إن الكثير ممن كتبوا في الوهابية نعتوها بالمحمدية البروتستانتية، وقارنوا بينها وبين حركتنا النصرانية في القرن السادس عشر والمعروفة باسم الإصلاح. ولكني في الحقيقة لا أجد أي تطابق حقيقي يربط بين الحركة الوهابية في الإسلام وبين حركة الإصلاح النصرانية في أوروبا، فما تقوم به الحركة الوهابية لا يعدو كونه إرجاع عقارب الساعة إلى نقطة البداية. فالإسلام ليس بالدين الحي، بل هو مجدب عقيم.

يسوق بالجريف جهله بالإسلام ليوازن بين إله المسلمين وإله النصارى، ويفاضل بينهما كما يتخيلهما، وهذا أمر لا يجرؤ أي مسلم على مجرد التفكير فيه. فالله في الدين واحد، لا إله إلا هو. يحدثنا بالجريف عن فكر نصراني لبعض فلاسفة طوائف نصرانية لا تعرفه ولا تقرّه العديد من كنائسنا في الشرق ولا تعترف به. فإله النصارى – كما يراه بالجريف – "هو الإله المحب، الوالد المولود، والذي هو الروح والحركة، بل أكثر من ذلك فهو خالق ومخلوق، وصانع ومصنوع، الإله الخالق الذي ضمّ الوجود في واحد، الذي لا يُسمي خلقه عبيداً ولا خدماً ولكن أصدقاء بل آلهة (؟)". ويضيف:

> إن النصرانية دين التقدم والتطور، ودين الحياة، وسنّة الحياة الحركة والنموّ وكلاهما يعني التغيير. وإن المرء حين يعترض سبيل الحركة والنمو ويحجبها عن شيء ما فإنه بفعله هذا سيقتله. فالنصرانية حيّة، وآية حياتها أنها تنمو، وهي بهذا النمو تستجيب للتقدم ولحتمية التغيير، فقد وُجدت أساساً لتكون متغيرة على هذا النحو (!). فالتقدم إلى الأمام، وإلى الأمام دائماً، هو جوهر النصرانية وأساس وجودها، وأما الذين يعترضون على ذلك فإنهم يعكسون جهلهم بالطبيعة الحقيقية لهذا الدين (؟). ومن ناحية أخرى فإن الإسلام دين بلا حياة، فهو لا يستطيع النموّ ولا التقدم، ولا يستجيب للتغيير ولا يرمي إليه، فهو جامد في شعاره، وفي ذاتيته، وفي معظم خصائص أحواله.

المطاوعة

يتحدث بالجريف عن وباء الطاعون الذي ضرب نجداً كالصاعقة، و لم تنجُ منه إلا منطقة سدير الجبلية المرتفعة فقط، أما المناطق الأخرى المنخفضة في مقاطعات اليمامة والحريق والوشم والدواسر فقد أناخ عليها الداء وأقام فيها، وكان الداء وبالاً على العارض التي عانت ضراوته حتى كادت الرياض العاصمة تخلو من السكان، فأكثر من ثلثهم قد لاقوا حتفهم في غضون أسابيع قليلة. وكان بعض أعضاء الأسرة المالكة ضمن الضحايا، كما كان منهم العديد من أفراد الأسر النبيلة. ويعزو بالجريف ضراوة الداء في الرياض إلى أن هذه المدينة ذات المنازل المتلاصقة بعضها ببعض في واد رطب، "وعلى قرائي أن يتخيلوا حجم المأساة في منطقة لا تعرف الإجراءات الوقائية والعلاّجية". ولمّا كانت السنوات الأخيرة قد شهدت في نجد انفلاتاً وتراخياً في المجال الديني، والاختلاط المتصل برجالات حكومة القاهرة الذي بدأ منذ عهد

محمد علي باشا و لم يتوقف في عهد سعيد باشا قد زاد في حدّة هذا التراخي، فقد نزل البلاء بنجد التي تسمّمت أفكار رجالها، وأصبحوا يروحون في ملابسهم الموشاة بخيوط الذهب وفتلات الحرير، و لم يعد هناك عقل يتدبر يشكّ في أن الكوليرا جاءت عقاباً عادلاً لجرائم شنيعة، وأن العلاج هو الإصلاح والعودة إلى دروب التقوى.

جمع فيصل مجلساً من أعيان المدينة، ولما انتظم عقدهم ألقى فيهم كلمة "أريد أن ينفد صبر قرائي بنقلها لهم مع أن صبري كان قد اتسع لها". أما جماع خطبته وذروة سنامها فهما أن أهل نجد قد ارتكبوا آثاماً كبيرة وولجوا دروب المعاصي وتغاضوا عن التناصح، وليس ثمّة أمل في الخلاص إلا بالتوبة والعودة إلى الله والقيام بالإصلاح. واعتذر فيصل بأنه قد غدا مسنّاً لا يستطيع أن يتخذ بمفرده من دون معاونة منهم ما تتطلبه خطورة الوضع من إجراءات مناسبة، وعليه فهو يُحمّل هذا الجمع مسؤولية أمام الله لدرء خطر هذا الوباء، وكل طارق آخر ينزل بالبلاد إن هم تجاهلوا نصحه وتحذيره.

خرج وجهاء المدينة من ذلك المجلس وتدبروا أمرهم، ثم عادوا بعد حين وقدّموا مشروعاً وافق عليه الملك. يقضي المشروع باختيار اثنين وعشرين رجلاً من الأكثرين ورعاً وتقوى يطلق عليهم اسم "المدّعية" للقيام بالمهمات المرجوة. وجرت تسمية العدد المطلوب، وأناط بهم فيصل السلطة الكاملة للعمل على اجتثاث كل ما يتعارض مع المبادئ والممارسات الوهابية، ويتنافى والأخلاق القويمة بوجه عام. وقد بدأ هذا التنظيم نشاطه في العاصمة، ثم شمل جميع "الإمبراطورية" كما يقول بالجريف، وغدت سلطات هذه الجماعة تفوق أي سلطات كانت تمارسها أي من تنظيمات العصر الروماني في أشد أيامها جبروتاً وسطوة. أصبح لهذه الجماعة حقّ توقيف الجُناة ومعاقبتهم، يجلدونهم أو يغرّمونهم كما يشاؤون، وليس لأحد حقّ النقض أو الاعتراض. وازدادت قائمة الجرائم شمولاً حين أصبح لهؤلاء المدعية حقّ معاقبة من يتخلّف عن الجماعة خمس مرّات في اليوم، أو يتقاعس عن أداء الفروض، كما دخل تدخين التبغ وتعاطي النشوق ومضغ القات في هذه الجرائم، التي كان قد أدخلها إلى المجتمع النجدي أهل الكويت والموانئ المماثلة في الخليج، والتي شملت في ما شملت لبس الحرير، والتحلي بالذهب، والسمر وإضاءة النور بعد صلاة العشاء، والغناء وكذلك العزف على الآلات الموسيقية. وامتدت القائمة لتشمل الألعاب التي يمارسها الأطفال في الشوارع، أو البالغين الذين يتصرفون بطيش طفولي. ومن الجرائم التي تعاقب عليها هذه الهيئة كذلك القَسَم بغير الله، أو التوسل بغيره، أو الاستعانة بمن هم دونه، أو أي فعل أو قول آخر يناقض التوحيد. وعلى الجملة، فإن أي كلمة أو إشارة أو فعل أو سلوك ينحرف عن النصوص "الأرثوذكسية" للإسلام، أو يجافي المبادئ الوهابية يُعدّ مرفوضاً، ويجري إجراء العقاب على مرتكب الجريرة فوراً. وما لبثت مهمات هذه الجماعة أن اتسعت دائرتها، فضمّت كل

عمل من شأنه أن يثير الريبة، أو قد يؤدي إلى سلوك غير سوي. فالتسكع في الشوارع ليلاً، وزيارة منزل الجار بنحو متكرر في الأوقات التي يفترض فيها عدم وجوده في تلك الساعة في المنزل، وممارسة أي ضرب من ضروب السحر، وخرق قواعد اللياقة والتهذيب وما إليها، تتطلب كلها إجراءات تصحيحية فوّرية.

" ولعل من السهل علينا أن نتخيل أثر مثل هذه السلطات الشاملة حين توكل إلى أصحاب الغرض والهوى. ولكن – على العموم – التزام هؤلاء "المتعصبين" بالغلظة التي تميزهم، وطبيعة الشخصية العربية ذاتها التي تنحو إلى المقاومة، قد حدّا قليلاً من النتائج السيئة التي يمكن توقع حدوثها جراء ممارسة هذه السلطة فوق العادية والأكثر من المطلقة، وغير المحدّدة بدقّة. وهذا على الرغم من أنه قد ترامى إلى مسمعي حدوث تجاوز واستغلال لاستعمال السلطة."

يلتزم هؤلاء "المتعصبون" بارتداء زي بسيط يخلو من مظاهر الزينة والتكلف – كما يقول بالجريف – ولا يحملون السيوف، لأن في حملها إشارة إلى السلطة الزمنية، فهي رمز من رموز الجندية، ولكنهم يستعيضون عن ذلك بعصا طويلة يحملها كل منهم، وترمز هذه العصا إلى الصبغة الرسمية للوظيفة التي يؤدونها. يضاف إلى كل ذلك أنهم يجوبون الشوارع في خطى وئيدة، تميزهم عيونهم التي تنظر إلى الأسفل وأصواتهم الخفيضة، ولباس الرأس الذي يتدلى حتى يغطي الجبهة من دون أن يكون له رباط رأس (عقال)، وجاذبية سلوك، وسائر هذه الصفات التي يمكن أن تدُلّك منذ الوهلة الأولى على تميزهم عن عامة الناس. أما أحاديثهم فهي خليط من تلاوة الآيات التي تدلّ على التقوى، تجدهم يرفعون أصواتهم كل نصف دقيقة على الأقل في مناسبة أو من دون مناسبة بكلمات تدلّ على وحدة الإله. ونجد انتشار هذه الظاهرة الأخيرة في أوساط المثقفين أكثر مما نجدها في أوساط العامة.

يذرع هؤلاء "المدعية" البلدة من شارع إلى شارع، أو قد يدخلون البيوت خلسة للتأكد مما يحدث فيها، ولا يتورّعون عن فرض عقوبة الجَلْد في الحال على كل متلبّس مهما كان شأنه. وإذا هجس الواحد منهم بأن قوّته غير كافية لتنفيذ العقاب، فسرعان ما ينادي على المارة أو العبيد الذين يهرعون لمساندته، فيُلقون بالمذنب أرضاً ليؤدبه "المتعصب" كيف يشاء. وأكثر ما تمارس عقوبة الجلد على المتقاعسين عن أداء الصلاة جماعة، إذ يقوم مسؤول الحي برفقة عصابة من الأتقياء بدَهْم منزل المتخلف عن الجماعة، ولا يجرؤ أحد على منعهم، فيعظونه ثم يجلدونه. أما إذا صادف أن كان ربّ البيت المعني غائباً عنه أو غير موجود، فإنهم يصادرون عباءة تخصّه أو سيفاً أو غير ذلك من ممتلكاته، ولا يرد إليه إلا بعد أن يبرهن بعد عدّة أيام على أنه واظب على أداء الصلاة جماعة.

يذهب بالجريف إلى القول: إن من يحاول معارضة هذه الجماعة بالقوّة، أو إذا عنّ له

أن يرفع يده في وجه هذا الشخص "المقدس"، فإنه سيلقى عَنَتاً في المعاملة. ويستطرد هذا الرحالة فيقول: إن الجرائم العظمى مثل الشرك أو الكفر المعلن أو الجرائم التي تستدعي عقوبتها "البتر المباشر" فإنها تحال على مجلس فيصل القضائي الذي يعاقب الجاني بأقصى العقوبة.

يفترض أن تؤدي هذه السلطة القوية الممنوحة لهذه الجماعة المؤيدة بالدعم الكامل من الحكومة ذاتها، إلى تنظيف المجتمع وتطهيره من الموبقات، وخاصة أنه قد أصبح لهذه الجماعة التي أُسست في الرياض جذور وفروع، وقويت واشتدّ أمرها. فالوظيفة العامة لم تعد تحمي صاحبها من العقاب، ولا نبل النسب يمكن أن ينأى به عنه، ولذا فقد أصبحت هذه المؤسسة تعالج الخصومات السياسية والخاصة، وتحكم فيها بجلد جلوي، أخي فيصل ذاته، عند باب القصر، لأنه نفث نفثة واحدة من دخان التبغ، و لم يستطع فيصل أن يتدخل في الأمر، أو لعله لم يشأ أن يتدخل لإنقاذ أخيه من تلقّي خمسين جلدة في جريمة لا تكاد تزيد عقوبتها على خمس عشرة جلدة. أما سويلم، رئيس الوزراء السابق لمحبوب، فقد تعرّض لعقوبة مماثلة بذريعة مماثلة، ولكن بعض الشائعات السائدة تروّج أن منافسه على المنصب كان وراء هذا الأمر. قبض على هذا الرجل حين خرج من القلعة قاصداً منزله وطرح أرضاً، وأنزل به عقاب قاس أدى إلى وفاته في اليوم التالي. ويتساءل بالجريف: إذا كان هذا هو العقاب الذي يمكن أن ينزلَ بالشخصيات البارزة في إدارة الدولة، فماذا يمكن الجناة من العوام توقعه (؟). إن الضحايا كثر، والأطراف التي بُترت أو كُسرت أكثر من أن تُحصى. ويمضي بالجريف فيقول: إن التدخين ما عاد يمارس في الشوارع، وإن المساجد قد غصّت بزوّارها، فقد برهنت الممارسات التي جرت في غضون عدّة أسابيع أنها ناجعة، حتى إنها نالت إعجاب "الوهابي الأول". وقام هؤلاء الشيوخ، مسلحين "بالعصي وبالقرآن"، إلى الأقاليم، وحققوا أميز النتائج في القرى والمدن، وساد الإصلاح العارض وسديراً والوشم واليمامة بسرعة فائقة، وانتظمت كلها على شاكلة الرياض.

رأى بالجريف أن هذه المؤسسة قد خففت من غلوائها في الأيام الأخيرة، وأخذت تتغاضى هوناً ما، كما أشار إلى اجتماعهم الدوري مع الإمام فيصل في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع عند شروق الشمس أو بعد ذلك بقليل، وقال: إنهم أصبحوا بذلك يؤلفون مجلس الدولة الحقيقي، فهم يقترحون كافة المسائل المتعلقة بالسلم والحرب والتحالف وما إلى ذلك، أو قد تعرض عليهم كافة هذه المسائل لتعديلها وإقرارها. وعلى الجملة، فإن بالجريف الذي توسع في الحديث عن هؤلاء الجماعة، خلص إلى أنهم يظفرون في قسم من المجتمع بالإجلال، ويرجعون في قسم منه بالكراهية.

أحاجي بالجريف وهو يسرد التاريخ السعودي

كتب بالجريف عن تاريخ المناطق التي زارها في شبه الجزيرة العربية أو ادّعى زيارتها، فخلط الحق بالباطل، ومزج الواقع بالخيال. وكان عادة ما يبرّئ نفسه من الزيف بأن يقول إنه تلقى معلوماته في هذا الصدد من الرواة العرب، ويضيف في خبث ويكرر من دون أن يمل التكرار إنه يقف من قارئه موقف من يسجل أقوال الرواة الثقات. وعلى الرغم من أننا نرى في الرواية الشفهية مصدراً أصيلاً للتاريخ في المناطق التي لا تكتب، نرفض الاعتماد على ذاكرة فرد واحد عن الحادثة الواحدة، فمثل هذا الشخص يمكن أن يكون - لسبب أو لآخر - متحيزاً، سلباً أو إيجاباً، أو طامعاً في عطاء مادي، أو خائفاً من انقطاعه، أو ربما كان ذلك الراوي جاهلاً يهرف بما لا يعرف، ولا يدرك عواقب الثرثرة. ولا يثبت لنا بالجريف إلا في أحيان نادرة اسم محدثه، أو المنطقة التي ينتمي إليها، ولا يحدثنا عن موقع روايته من الحوادث التي يروي عنها. ولعل بالجريف يخرج بذلك عن الرواية المعتمدة لدى المؤرخين إلى نوع من الثرثرة التي يمكن أن نستخلص منها ما بعد النقد جانباً من الحقيقة. فالتاريخ الشفهي لا يؤخذ عن فرد واحد، وإن كان معروف الهوية والهوى، بل يعتمد المؤرخ الذاكرة الجمعية للعديد من الأفراد الذين أدلوا بشهاداتهم في الموضوع ذاته مصدراً للتاريخ بعد النقد والتحليل. ويزيد رفضنا الاعتماد على بالجريف مصدراً أكيداً لمعرفتنا التاريخية، وإن كان الرجل بريئاً من تهمة إدخال الحذف والإضافة على الرواية التي سمعها، أنه لم يكن يسجل الروايات التي يسمعها في حينها، بل كان يجترّها من الذاكرة ويسجلها حين يعود إلى مخدعه بعد أن يغلق عليه بابه - كما يقول - ليبدأ بعدئذ بالكتابة والتسجيل. ولنا - في نهاية الأمر - أن نرفض تماماً الاعتماد على بالجريف مصدراً للتاريخ لإدراكنا بشهادات من هم على شاكلته وشهادات غيرهم بأن الرجل كذّاب أشِر لا تهمّه الحقيقة، أو هو في أحسن حالاته مبدع حلّق في غياهب الخيال و لم يسعَ إلى أفق الحقيقة. والرواية عند المؤرخين لا تؤخذ عن كاذب ولا فاجر ولا سفيه ولا منافق. وما هذه النعوت إلا بعض الصفات التي اجتمعت في شخص بالجريف.

نسرد هنا طرفاً من بالجريف من دون محاولة منا لفضح الأخطاء الواردة أو العمل على ردها إلى صحتها، لأننا إذا فعلنا ذلك فستنتفخ هذه الأوراق ويتضاعف عددها في ما لا طائل فيه، فالكثير مما أورده هذا الرجل هراء وغثّ لا يمتّ إلى التاريخ بصلة، وهذا أمر يدركه كل من له اهتمام بالتاريخ في شبه الجزيرة العربية. وعلينا هنا أن نشير إلى التخبط الذي وقع فيه بالجريف في رواياته عن هذه الحقبة الزمنية، ذلك التخبط الذي يتّسع أحياناً للحقيقة أو لظلّ الحقيقة، ويمكن مثل هذا الخلط أن يخدم المؤرخين الانتقائيين الذين يسارعون إلى التقاط ما يمليه الهوى من زيْن أو شيْن، ويعتمدون عليه مصدراً، يسارعون بطبيعة الحال إلى مصدر غربي، وهم

مطمئنون إلى أن بعض القراء قد يصدقون المصدر الغربي ويأنسون إليه أكثر من غيره.

يبدأ بالجريف روايته لبداية التاريخ السعودي بمعلومات خاطئة لا تجد لها سنداً إلا في الخيال فيقول: كانت الرياض عاصمة لمنطقة العارض منذ أيام مسيلمة، وظلّت تقوم بهذا الدور لمن تلاه من الحكام حتى ورثته عنها العيينة تحت حكم أسرة آل مُعمّر، بينما غدت منفوحة القصبة الرئيسة لليمامة (!). وينتقل هذا الرحالة من هذه الأخطاء المتراكمة إلى أخرى فيقول:

> إن سعود، وهو شيخ من مشايخ عنزة، تجمعه صلة الدم بوائل بن تغلب وشمر (؟) قد تمكن من أن يظفر بالرئاسة في إحدى قرى نجد، كان يحكمها نيابة عن ابن مُعمّر (!) ثم قُدِّر أن يحكم كافة أمصار شبه الجزيرة العربية. وقد وقع هذا الحدث قبل خمسين سنة من اعتلاء أحد أحفاده سُدّة الحكم ليتخذ لنفسه لقب ملك (!)، بالرغم من أن النجديين يعدّون سعود الأول مؤسس هذه العائلة.

يستطرد بالجريف في رواياته التي تجافي كافة الحقائق التاريخية فيقول:

> إن عبد العزيز بن سعود (؟) قد خلف والده سعود الأول، فيما خلَف سعود الثاني (؟) الذي هو تلميذ محمد بن عبد الوهاب وأحد حوارييه والدَه. وقد تحوّل هذا الأمير إلى الوهابية (!) وامتد عهده خمسين سنة كاملة، دانت له فيها أراضي شبه الجزيرة العربية الممتدة من سواحل الخليج حتى مكّة (المكرّمة). وانتهت في عهده سلطة ابن طاهر (؟) في الأحساء، وسلطة دواس في اليمامة (!)، وسلطة داريم (؟) في القصيم. ويضيف بالجريف: إن سعود كان حريصاً على عدم التعدي على حدود القوى الكبرى المتاخمة لإمبراطوريته (؟)، فقد أبدى احترامه لسيادة فارس على البحرين (!)، وكذلك حمايتها على القطيف (!) كما لم يشْتكِ ابن سعيد (؟) سلطان عمان، من أي اعتداء نجدي على حدوده. ولم يعمد سعود أبداً إلى التغول على الحدود المقدسة للحرم المكي (!)، ولم يغامر باستثارة عداء الأتراك أو المصريين بالتعدي على حدودهم (!).

رفرفت رايات سعود مُظفّرة منتصرة على أعدائه، في داخل حدوده، وملك سعود قلوب شعبه، فقد كان راعياً للعلم وفق الحدود التي تسمح له بها مبادئ معتقداته (؟). وعلى الرغم من تفاعله بقوّة مع التعاليم الوهابية، لم يهمل تزيين عاصمته بنصب دينية وقومية (؟) غذى بها روح الفخار والشعور بالامتياز في أوساط أتباعه. ولا تزال خرائب الدرعية التي تضم آثار

مسجد كبير وقصر ضخم تحدث عن عظمة الحاكم الذي شيّدهما. ويمكن الدرعية العاصمة القديمة للدولة أن تُفاخر الرياض، العاصمة الحالية، بدقّة تنظيمها وروعة زينتها، فقد قصرت العاصمة الحديثة عن بلوغ شأو القديمة في هذا الصدد.

يقول بالجريف:

> إن سعود قد امتاز بروح إنسانية في تعامله حتى مع أعدائه، فقد كان الرجل يكره سفك الدماء في غير ما ضرورة، وقد عرفت حملاته بأنها مينارفية (إلهة الذكاء) Minerva التنظيم أكثر مما هي بللونية (إلهة الحرب) Bellona الأداء، فقد كان تحقيق السلم هو الحدّ الذي ينبو عنده سيفه فيتوقف عن إعماله. ويستطرد بالجريف ليقول: إنه لم يجد في الحوليات النجدية (؟) ذكراً لمذابح وقعت بلا سبب، أو لتخريب وقع على أي منطقة من المناطق التي أصاخت لسعود وأطاعته. و لم يحدث شيء من ذلك حتى في القصيم "حيث يمكن توقع الأسوأ". وهنا يجب التنبيه إلى أن بالجريف يريد أن يوهم القارئ بأنه قد اطّلع على حوليات نجدية، ونشهد بدورنا أن الرجل افترى كذباً، وخاصة أننا لا نعرف من هو سعود الذي يتحدث بالجريف عنه.

ويستطرد بالجريف فيقول:

> إن سعود لم يصادف مقاومة كبيرة في مدّ حدود دولته وامتداد سلطته إلا من بني خالد الذين أعوز شيوخَهم السَّنَدُ الشعبي، فقعدوا عن المقاومة، وسرعان ما استسلموا. ويضيف بالجريف فيقول: إنه حين حضرت سعود الوفاة استدعى – وهو على سرير الموت – إليه ابنيه عبد العزيز، وهو البكر، وعبد الله، فسمّى الأول خليفة له وأناط بالثاني منصباً شرفياً في حكومته. وبذل سعود النصح لابنيه وطلب منهما أن يسيرا على نهج السياسة التي اختطّها. وجاء عنه في المتواترات أنه قال لهما: لا تناطحا الصخر. والعبارة – في ما يقول بالجريف – تترجم عظم الخطر الذي يمكن أن يقعا تحت طائلته لو عملا على استثارة عداء القوى الكبرى المتاخمة لحدود الدولة، خاصة الحكومة العثمانية التي قد تبدو ضعيفة بينما هي في حقيقة الأمر قوّة طاغية بما تمتلكه من إمكانيات هائلة، "رغم أنها إمكانيات كامنة كمون الموت".

تبوّأ عبد العزيز العرش (؟) في حوالى ١٨٠٠ أو نحو ذلك. وعلى الرغم من أن عهده كان قصيراً، كان متخماً بالأحداث الجسام. وقد امتاز عبد العزيز بالهمة والنشاط، وكان رجلاً شجاعاً، ولكنه لم يرث الحكمة عن والده. ساق عبد العزيز أسلحته إلى الشرق، فأمطرت في القطيف صيّباً من الدماء، فقد أوقع في سكان تلك المنطقة مجزرة كبرى (!) وتوجه بعد ذلك إلى البحرين والجزر المجاورة لها في الخليج فاحتلها (؟)، ثم هاجم السواحل الفارسية "برّ فارس" وتمكن منها وضمّها بعد أن انتزعها من الحكم الفارسي (!). وانبرى بعد ذلك متجهاً إلى سلطنة عمان، فساق عليها الحملات التي كانت آخرها بقيادة أخيه عبد الله. وقد حقق الوهابيون عدّة انتصارات في المعارك ضدّ عمان، تُوّجت باعتلاء جنود عبد العزيز المرتفعات التي تشرف على مدينة مسقط، وتمكنوا من تحويل مدافع تلك المدينة تجاه المدينة ذاتها. وانحنى السيد سعيد في وجه العاصفة، ووافق على أن يؤدي ضريبة سنوية لعبد العزيز، كما وافق أيضاً على أن تقيم قوات وهابية في مناطق تُعدّ ذات أهمية قصوى له، هذا إضافة إلى موافقته على إقامة مساجد أصولية البناء والتصاميم (؟) في مسقط وفي مناطق أخرى من سلطنته (؟).

يدّعي بالجريف أن حملات عبد العزيز كانت في محصّلتها النهائية وبالاً عليه، فقد دخل بها في دائرة عداء قوّة هي الأكثر خطراً مما عداها. ويذهب الرجل في هذا الادعاء إلى أن القطيف والبحرين كانتا من ملحقات فارس، وكانت ارتباطاتهما الدينية – ربما قصد المذهبية – بتلك الدولة أبلغ من الارتباطات المدنية. ويضيف هذا الرحالة: إنه كانت لعمان في هذه الفترة ارتباطات حميمة مع فارس، فباتت القوّة الفارسية أكثر تصميماً على الثأر لحلفائها في أطراف شبه الجزيرة العربية.

لم تعمد فارس – كما يقول بالجريف – إلى إرسال جيش ليشقّ ذلك التيه المترامي للوصول إلى قلب الدولة الوهابية، فالأمر – فوق أنه كان غير مجد – يبدو خطيراً. وقد وجدت فارس طريقاً أنجح وأسهل إلى غاياتها، وذلك "بالاغتيال بالخنجر، وهو سلاح طالما لجأ إليه الشيعة في كل عصر ومصر. وتطوع مواطن متهوس من جيلان، وهي منطقة حوّلها عبد القادر الجيلاني قبل ستة قرون بجهود حواريّيه إلى قاعدة للفَخَار الديني، للقيام بهذا العمل الدموي".

تسلم ذلك الرجل – كما يقول بالجريف – التعليمات من طهران، ثم سافر إلى مشهد الحسين كعبة الأتقياء الشيعة (؟)، وحصل هناك على غفران شامل لذنوبه السابقة واللاحقة (!)، وجرى توثيق ذلك في ورقة أكدوا له فيها كتابة خلوده في الجنة والتقلب في نعيمها إذا تيسّر له أن يُخلّص الأرض من "ذلك الطاغية النجدي".

طوى ذلك الرجل – كما يقول بالجريف – تلك الورقة، وجعل منها رُقْيَةً حول ذراعه، ثم قصد الدرعية في زيّ التجار. ولبث في تلك البلدة فترة يتحيّن الفرصة لتحقيق ما أزمعه من الغدر "حتى يفوز بما بُشّر به، ويظفر بالنعيم المقيم".

كان عبد العزيز "وهابياً حقيقياً" لا يتخلّف أبداً عن صلاة الجماعة في المسجد الكبير. واستبان لذلك الرجل أن الفرصة ستكون مواتية له حينما يستغرق عبد العزيز في صلاته، فيصبح عندها فريسة سهلة لهذه الجريمة المدبّرة، ففي الصلاة لا يجوز للناس حمل الأسلحة، كما لا يجوز للمصلي أن يسترق النظر إلى الخلف، أو يختلس أي نظرات جانبية. مكث ذلك الفارسي في الدرعية عدّة أسابيع أكسبته ثقة أهل المدينة، وخاصة أنه كان يتظاهر بالأصولية (!) ويتقنّع بقناعها، واتخذ ذات يوم في صلاة المساء (؟) موقعه وراء عبد العزيز تماماً. وأكمل عبد العزيز الركعتين الأوليَيْن في الصلاة التي يدلّ أداؤهما على تقوى المسلم وورعه. وحين انحنى وهو يؤدي الركعة الثالثة، بدا ذلك الركوع للرجل كأنه دعوة لالتهام الفريسة فانهال بالخنجر الخراساني وأعمله في جسد السلطان، حتى غاص في منطقة ما بين الكتفين وبرز عند الصدر. وهكذا توفي عبد العزيز من دون إبداء أي مقاومة، بل من دون أن يتمكن من إطلاق صرخة ألم واحدة.

أسرع الملازمون لعبد العزيز - كما يقول بالجريف - إلى سيوفهم التي كانوا قد تركوها في أغمادها حين دخلوا في الصلاة فشهروها في وجه ذلك القاتل. وقد اكتسب ذلك الفارسي شجاعة إضافية بما أصابه من شعور باليأس والقنوط، فانبرى يدافع عن نفسه بسلاحه ذاته الذي كان لا يزال يقطر دماً ملكياً. وأخيراً سقط القاتل صريعاً وتناثر جسده أشلاءً على أرض الجامع، ولكنه كان قد أفلح قبل أن يلقى حتفه في أن يرسل ثلاثة من منازليه في إثر سيدهم قتلى ليقاسموه مصيره. ووجد أهل الدرعية في جثّة القاتل تلك اللفافة التي تحمل العهد الذي كتبه حاكم مشهد الحسين، ما دعا عبد الله الذي أصبح سلطاناً على نجد بعد أخيه أن يُقْسِم على الأخذ بالثأر من تلك المدينة.

يستطرد بالجريف فيقول: إن هذه الحادثة قد وقعت - كما يقول محدثه - في عام ١٨٠٥ أو ١٨٠٦ حين بدأ حكم عبد الله الذي أصبح حاكماً فرداً غير منازع في نجد، فلم يشرك في الحكم معه أخاه الصغير خالد ولا ثويني بن عبد العزيز (؟)، ولا أي فرد آخر من أفراد الأسرة السعودية. ويضيف هذا الرحالة: إن خالد قد خلف ابناً اسمه مشاري، وأن الأخير هو الذي اغتال تركي في ما بعد.

يقول بالجريف في تقويمه لشخصية الإمام عبد الله: إنه ورث عن أبيه مقدرته وقوّة شخصيته، ولكنه أضاف إلى هاتين الميزتين "مساوئ الشخص الذي قُيِّض له أن يُولد على مهد قرمزي، أو بعبارة أخرى، أن يُولد وفي فمه ملعقة من ذهب. فقد كان الرجل طاغية قاسياً متبجّحاً إلى حدّ كبير، حتى إذا قسنا سلوكه بمقاييس الشرقيين (!). كان متعصباً إلى حدٍّ يجلّ عن الوصف في تمسكه بالوهابية التي نشأ في أكنافها".

ما إن تمّ لعبد الله دفن جثمان أخيه - كما يقول بالجريف - حتى أخذ يعدّ العدّة ليتمكن

من أن يبرّ بقَسَمه للثأر من مشهد الحسين والانتقام من الشيعة على الحدود الفارسية، فركب على رأس جيشه متجهاً نحو الضفة الغربية لوادي الفرات، وأوشك أن يطبق على الكويت، تلك الحاضرة الصغيرة التي أخذت تكتسب أهمية تجارية، ولكنه جانبها حين اشترت منه النجاة بالولاء الوقتي وبذل المال، فقصد الزبير ثم سوق الشيوخ، وعبر السماوة، ووصل إلى مشهد علي، تلك المدينة الكبيرة، فأحكم عليها الحصار.

"وظهرت معجزة لابن بنت محمد (صلى الله عليه وسلم) اضطربت لها صفوف الوهابيين، كما يقول الشيعة الذين لا يزالون يرددون هذا القول إلى الآن". ويتساءل بالجريف: هل صدق هؤلاء الشيعة في أقوالهم عن المعجزة، أم أن المهاجمين كانت تعوزهم القوّة اللازمة لهدم تحصينات تلك البلدة (؟). وبعد أن يطلق بالجريف هذا التساؤل يخبرنا أن عبد الله قد مُني بخسائر فادحة، ما اضطره إلى التخلي عن خططه التي أزمع تنفيذها ضد مشهد الحسين، وطفق يشقّ طريقه من مشهد الحسين إلى كربلاء تلك البلدة التي أراد أن يصبّ عليها "جامّ كراهيته".

تمّ لعبد الله تدمير كافة القبور والمشاهد الخاصة بابن فاطمة رضي الله عنهما، كما نهب مسجده وجرّده من مقتنياته. ويدّعي بالجريف أنه رأى بأم عينيه في الرياض عدداً من الأشياء التي جُلبت إلى تلك المدينة من ذلك المكان الذي يقدسه الفرس، ويستطرد قائلاً: إن سكان البلدة قد عانوا إثر تلك الحملة أيّما معاناة، ويتهم عبد الله بأنه قد رمى بوصية والده المتوفى خلف ظهره، فعمل على أن يتوّج هذه الانتصارات في العراق بأخرى في أراضي مكة الواقعة على التخوم الغربية لأرضه، فجمع قوّة نجد كافة وخرج لا يلوي على شيء، حتى ظهر أمام تلك المدينة بعد مسيرة استغرقت عدّة أيام. وتمكن عبد الله من مكة المكرّمة بعد أن ذبح رجال حاميتها، وسقط العديد من أشرافها صرعى مذبوحين بحدّ السيف. جُرّدت تلك المدينة بعد ذلك من كافة مظاهر الزينة، وأزيلت كل الشارات التي لا تتفق مع روح التقوى العربية (؟) وضروب السحر. وأصبحت مكة المكرّمة حكراً على هذه الطائفة الأصولية، لا يتمكن أحد من خارج دائرتهم من أن يطرق أبوابها. وقد حدث بعض الانفراج بعدئذ في هذا الحظر الشامل الذي أحدثوه، فسمح بالحجّ لمن يستطيع أن يدفع رسوماً لم تكن باهظة، ولمن يستطيع تقديم نوع من أنواع العطاء المادي، وذلك باعتبار أن أفكار الزوار الدينية قد غدت ببذل المال صحيحة. و لم يعد يمكن أي مسلم من السُّنة أو من الشيعة أن يسلك دروب مكّة لتفتح له تلك المدينة أبوابها إلا وفق هذا المسعى. ويستطرد بالجريف فيقول: كان الوهابيون يتصدون لكافة الحجاج ويعيدونهم أدراجهم من حيث أتوا من دون أن يبلغوا مكة. يضيف بالجريف: إن الوهابيين تصدوا لأخت السلطان ذاته وأعادوها من حيث أتت من دون أن تتمكن من تقبيل الحجر الأسود أو من أن ترمي جمرة واحدة في مِنى. وراح الوهابيون يتعرضون لقوافل

الحجيج وينهبونها وهم على اقتناع بالتزاوج السعيد بين ما تُمليه المبادئ الوهابية وما تقتضيه الفرص السانحة لهم للحصول على المكاسب.

يرد بالجريف دخول المدينة المنوّرة حظيرة الدولة السعودية القديمة إلى مؤامرة يسند خبرها إلى المأثورات المكية، ويقول: إن أهل مكة المكرّمة من السادة والأشراف بعد أن راعهم أن الله لم يدافع عن حرمه وعباده كما ينبغي (؟)، تطلعوا إلى إشراك الرسول صلى الله عليه وسلّم في هذا الأمر، فعملوا على تحريض عبد الله على غزو المدينة المنوّرة (؟!). واجتمع وجهاء مكّة من ذوي اللحى البيضاء في الحرم ذات يوم، وتضرّعوا إلى الله أن يقوم الملك الوهابي بغزو المدينة حيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يدخل عبد الله بذلك في دائرة غضب الرسول. وسرعان ما سقطت تلك المدينة فريسة سهلة، فأعمل فيها الوهابي شعار طائفته: خير القبور الدوارس.

يروي بالجريف كل هذا الهراء الذي يزدري المعتقدات الدينية، ويتبرّأ مع ذلك من وزر الجهل بأن يقول ويكرر: إنه مجرد رواية لشخص آخر، وإنه ليس مؤرخاً. ولكننا لا نعتقد أن هناك من مؤرخي العرب من بلغ به السفه ليروي مثل تلك الترّهات التي هي من بنات أفكار بالجريف التي أوغلت في الخيال السادر في أسداف بعض الموروثات التراثية التي وصفت في السرد في غير موضعها. ويختتم بالجريف هذا القصص برواية تسدل الستار على الدولة السعودية القديمة، فيحدثنا عن قيام عبد الله بحملة على المناطق الجنوبية من العارض في نواحي الحوطة والحريق، قوامها رجال من العارض وسدير لضرب تمرّد في تلك المناطق. هاجم عبد الله – في ما يقول هذا الرحالة – اليمامة وصبّ جام غضبه على الحوطة والحريق، ولم ينجُ من حدّ سيفه إلا القليل من السكان. "ونادته في الحوطة امرأة كانت قد ثكلت زوجها وأبناءها قائلة: عبد الله! وحين التفت عبد الله تجاهها أردفت قائلة: اذكر الله. قال الأمير: يا الله، فأكملت المرأة حديثها: يا الله إني أسالك بأن تُجازي عبد الله بما فعله، فأحسن إليه إن أحسن صنعاً، وعامله بما هو أهل له إذا قام بما قام به ظلماً وعدواناً. ولم يُجب عبد الله على هذه الدعوة التي مسّتْ شغاف قلبه، لكنه رمى تلك المرأة التي لاحقته لعنتها بنظرة عجلى."

لعلنا نختتم موضوع السرد التاريخي الذي أعدّه بالجريف لمسيرة الدولة السعودية القديمة بالقول: إن الشخص غير المتمرس الذي يعتمد كتاب هذا الرحالة مصدراً قد يقع في الخطأ، إذ يمكن أن يلتقط منه العديد من الأقوال التي تشيد بهذا العاهل أو ذاك، أو تسيء إلى أفعال هذا العاهل أو الآخر، ويغمض العين على الجهل الذي يتسرّب سافراً ويلفّ في هدوء بعض الوقائع المتناثرة. وفي اعتقادنا، إن على من يأخذ عن بالجريف في هذا الموضوع بالذات توسيع دائرة مصادره، وأن يعمل على تصحيحه أولاً ثم يأخذ عنه مما يثبت أنه صحيح بعد أن يخضعه لنقد الرواية الشفهية. أما نحن فنعتقد أن الأخذ عن هذا الرحالة في هذا الموضوع لا يعدو

أن يدخل باب لزوم ما لا يلزم، ونعتقد أيضاً أن ما كتبه عن تاريخ حملة محمد علي باشا على شبه الجزيرة العربية التي طوت صفحة الدولة السعودية القديمة لا يعدو في أحسن حالاته أن يكون حديث خرافة، وأن كل باحث يتمكن من الاطلاع على وثائق عابدين - أهم مصدر عن تلك الحملة - يدرك أن كافة الحوادث التي وقعت خلال تلك الحملة قد أحصيت بنحو شامل ودقيق. ونستطيع أن نردّ شمول هذه الوثائق في تسجيلها للأحداث إلى شخصية محمد علي باشا نفسه، فهو رجل أوتوقراطي، كان يرى نفسه محوراً لكل الحوادث المتصلة بمصر في عهده، و لم يكن يعترف بتخطيط أحد سواه لأي عمل متصل بالدولة مهما كان الأمر صغيراً، و لم يكن يثق بقيام أحد سواه مهما عظم شأنه في دولته، بأي عمل مُستقلّ ما لم يراجعه بنفسه ويعتمده. و لم تمتدّ ثقة الرجل حين تزايدت عليه المسؤوليات إلا لتشمل أولاده وأحفاده وبعض ذوي قرباه فقط. وكان هؤلاء كلهم يدركون أن عليهم بذل الطاعة لأبيهم وولي نعمتهم، فهم مجرد أبناء يأتمرون بأمر والدهم، لا يحدثون أمراً إلا بعد مشاورته أو تنفيذ أمر أصدره، أما الآخرون من الموظفين في دولة محمد علي - كبارهم وصغارهم - فهم مجرد خَوَل يفعلون ما يؤمرون.

كانت إرادات محمد علي باشا ترسل بانتظام إلى ميادين القتال في شبه الجزيرة العربية، كما كانت أخبار الانتصارات والهزائم تصله تباعاً فور وقوعها، وكان يرسل بأخبار انتصاراته أولاً بأول إلى السلطان والباب العالي وكبار الموظفين في الآستانة. و لم يهمل محمد علي في دأبه لتحقيق طموحه أن يراسل حريم القصر السلطاني، والجوخدار، والقهوجي باشا، وكل شخص له صلة رسمية أو شبه رسمية بالسلطان ليظفر بزيادة الثقة من السلطان وبمناصرة الباب العالي له ضد منافسيه في مصر وخارجها، وكثيراً ما كتب إلى الآستانة باندحار قواته في هذا الموقع أو ذاك، وعادة ما كان يعلن تصميمه على الثبات حتى النصر بزيادة الدعم البشري والمادي لقواته المقاتلة في شبه الجزيرة العربية. وكان محمد علي باشا يستهدف من ذلك أن يتملص من أداء حقوق مالية واجبة الأداء إلى الأستانة أو تأجيلها، أو أن يتخلص من الطلبات المتواترة التي ترد من الباب العالي تطلب منه زيادة حصته في دعم خزينة الدولة، وتقديم تبرعات مالية وعينية لها تعينها في حروبها الخارجية. يضاف إلى كل هذا أن ذلك العسكري الألباني الطموح كان يتمتع بحسّ وثائقي عميق، وكان من أول حكام الشرق في العصر الحديث إدراكاً لقيمة المحفوظات، فقد أنشأ إدارة خاصة للمحفوظات في مصر، كما قضت تعليماته الصادرة إلى مسؤوليه في شبه الجزيرة العربية بالاحتفاظ بدفاتر للصادر والوارد، وكان كثيراً ما يتابع هذا الأمر بنفسه، ويطلب تلك الدفاتر لمراجعتها. أدى كل هذا إلى تسجيل أحداث الوجود المصري الرسمي بنحو كبير، كما أدى، بطبيعة الحال، إلى بيان وجهات نظر محمد علي ومسؤوليه تجاه تلك الأحداث وأهدافهم منها ومواقفهم من معارضيهم، حتى لنجد أن هذه السجلات لا

تحتاج في هذا الصدد إلى مزيد، ولا تنقصها إلا وجهات النظر المعارضة التي يمثلها السعوديون، والأخرى التي تمثلها القوّة الدولية أو بريطانيا على وجه التحديد. ولذلك فإن هذه الأقوال التي يسجلها مثل هذا الرحالة قد لا تعين في إضافة شيء مفيد في هذا الصدد. ويمكن أن نثبت هنا طرفاً مما سجله بالجريف وأسنده إلى الرواة لنستبين زيفه، ولندرك كيف يمكن بعض الرحالة أن ينسجوا قصصاً طريفة على ظلال من الحقائق، يمكن المرء أن يقرأها ليتسلى بها في أوقات فراغه، ولكنها لن تفيد بحال كتابة تاريخ الوقائع.

يورد بالجريف، اعتماداً - كما يقول - على رواية محدّثه النجدي، أن محمد علي دعا قادته ورجال دولته إلى اجتماع للتداول في أمر غزو نجد. وحين التأم الجمع، أشار إلى تفاحة في منتصف سجادة كبيرة بسطت أمام ذلك المجلس، وأخبر رجاله بأن الشخص الذي يستطيع التقاط تلك التفاحة من دون أن تطأ أقدامه أي جزء من البساط سيتأهل لقيادة حملة نجد المزمعة. وراح كل من "البهوات" المتهافتين يمد يده غاية امتدادها للوصول إلى التفاحة، ولكنهم مُنُوا جميعاً بالفشل الذريع. واحتال كل منهم بعدّة طرق للوصول إلى تلك الثمرة ولكن من دون جدوى. وأخيراً تقدم إبراهيم باشا، ذلك الفتى البدين القصير، وانحنى تحية أمام أبيه واستأذنه في القيام بتلك المهمة الصعبة. وضحك الجميع من ذلك الفتى الذي يحاول أن يقوم بأمر عجزوا عنه جميعاً، غير أن بسمات الازدراء ما لبثت أن تحولت في شفاههم إلى أخرى تَنِمُّ عن الإعجابَ حين راح ذلك الشاب يطوي السجادة مرّة بعد أخرى في اتجاه التفاحة التي باتت بعدئذ في متناول يده، فالتقطها وقدمها لوالده الذي عيّنه قائداً لجيش نجد (!).

بعد أن نعيش مع بالجريف هذه الأحجية يقول لنا: إنه لا يدري أَكانت القصة حقيقية أم غير ذلك؟ ومع ذلك نجده يأخذ في شرح مغزاها. فالمشكلة الحقيقية في غزو نجد تتمثل في أنجع الطرق التي يمكن الجيش أن يتبعها حتى يتمكن من الدرعية (!). ويضيف: إن كل محاولات الجيوش السابقة لعبور جيش نظامي تلك الصحراء الشاسعة المترامية وصولاً إلى الهضبة الوسطى في نجد برهنت على فشلها، ولكن إذا تمكن هذا الجيش من دخول نجد فإنه لن يصادف أي مقاومة، وسيكون حالها كحال التفاحة في أصابع من يقبض عليها. ورغم جهد الرحالة في صياغة هذه القصة لتقريب الصورة إلى ذهن القارئ، لا يزيد ما أورده عن سقط المتاع، لأنه لم يقل لنا شيئاً عن الجيوش السابقة التي عبرت من الحجاز إلى نجد، فليس ثمّة جيش سابق - حسب علمنا - عبر إلى ذلك الاتجاه في تاريخنا الحديث.

يستطرد هذا الرحالة في صياغة القصص الكوميدية ويحكي لنا قصّة أخرى تراهن كافة الوثائق التي نعرفها على أنها قصة من نسج الخيال، ولا تمت إلى تاريخ الحملة بأيّ صلة. تقول قصة بالجريف: إن عبد الله عمل على تثبيط همّة إبراهيم في الغزو، فعمد إلى مخاطبته في ذلك عبر رسالة أراد أن يرسلها إليه مع مبعوث خاص. والتقط عبد الله ورقة صغيرة صفراء

متسخة، وكتب في تلك الرقعة بأسلوب وهابي (؟) كلمات لإبراهيم باشا تخلو من أي تعبير ينمّ عن المجاملةَ. جاء في ذلك الخطاب بعد البسملة: "نحن عبد الله نبعث لك يا إبراهيم باشا بالتحية". وبعد أن أورد عبد الله بعض الآيات الكريمة، انتهى بأن عرض على الباشا قبول صداقته على أن يظلّ في موقعه حاكماً على مناطقه. ويضيف بالجريف: إن روح الاستعلاء التي جُبل عليها الوهابيون منعت عبد الله من دعوة الباشا إلى اجتماع للتداول والتفاوض معه.

لم يجد عبد الله من رجاله أحداً يحمل تلك الرسالة إلى الباشا، وما زال يحثّهم حتى تقدم له أحدهم وأبدى موافقته على أن يكون مبعوثه إلى الباشا بشرط أن يترك له أمر صياغة تلك الرسالة التي سيحملها، والتي لن يكون فيها دور لعبد الله إلا أن يمهرها بختمه. ولما كان عبد الله يدرك أنه لن يجد أي شخص آخر يحمل تلك الرسالة إلى الباشا، فقد أذعن لأمر الرجل وطلب إليه أن يكتب ما يريد كتابته. و لم يعمد ذلك الرجل إلى كتابة الرسالة إلا بعد أن أخذ من عبد الله ميثاقاً غليظاً بأن يبذل له الأمان، وألا يؤاخذه بما يكتب (!).

يسترسل بالجريف فيقول: إن ذلك النجدي كان من الرجال الذين امتدت بهم دروب الأسفار وأدركوا شيئاً من أحوال العالم، فشأنه مختلف عن شأن عبد الله الذي ترعرع وشبّ في القصر، و لم يكن يدرك من شؤون العالم شيئاً. طلب ذلك الرجل ورقة بيضاء كبيرة وقلماً أحسن بَرْيه وراح يسطر الخطاب وينمّقه على نمط ما يُكتب في الخطابات الرسمية المعتادة في الشرق ووفق الأسلوب الشرقي. وردت في الخطاب عبارات: سيدي ومولاي الحاكم، وعبارات أخرى مماثلة لا تدلّ في المعتقد الوهابي إلا على كفر صراح. فمثل هذه الكلمات لا يجوز لشخص أن يخاطب بها مخلوقاً، فهي قصر على الخالق المنزه من دون سواه. "ولكن هذا الرجل أسبغ كافة تلك الألفاظ على هذا المصري الكافر(!)"، وأتبع المبعوث المرتجى مقدمته تلك بعرض من الوهابيين ببذل الصداقة لإبراهيم باشا والدعوة لقيام علاقة تحالف بين القوتين. وقد التزم الرجل في صياغته للعرض بعبارات مُنمّقة سليمة أبرزت تواضع المرسل أكثر من إبرازها بالتعادل والمساواة في المنزلة بين الطرفين، وختم الخطاب بعبارة: إلى سيدنا إبراهيم باشا، برجاء أن تقبل الهدايا التي تصلك مع حامل هذا الخطاب.

دفع الرجل بما كتبه إلى "الملك" عبد الله فطالعه ثم قال للرجل: والله لولا أني أقسمت سابقاً بأن أبقي عليك لكنت الآن قد فقدت حياتك على هذه البدع التي أحدثتها في الدين. ومع ذلك لم يكن ثمة بدّ إلا أن يقبل عبد الله الخطاب بصيغته التي وردت، فمهرها بخاتمه على مضض، وأرسل مع حاملها ستة من الخيل النجدية الجديدة هدية للباشا.

سار ذلك المبعوث في اتجاه الغرب حتى بلغ جدّة التي ركب منها إلى القصير في مصر حيث صادف إبراهيم باشا على رأس جيشه المتجه لتحقيق أهدافه. وانتظر المبعوث ثلاثة أيام كاملة حتى سُمح له بلقاء الباشا في اليوم الرابع. وبادر إبراهيم باشا إلى سؤال ذلك المبعوث، بلهجة

قاهرية دارجة ظلّ الباشا يستعملها طيلة حياته، عن مهمته، فناوله المبعوث الخطاب الذي كان يحمله له. ألقى الباشا على الخطاب نظرة عاجلة، وطفق يضحك بصوت بدا كأنه صهيل حصان وهو يردد عبارات من الخطاب؛ سيدي... ومولاي... وخادمكم المطيع. ونادى الباشا أحد مرافقيه وطلب إليه أن يأتيه بالخطاب الذي ورده من سعدون (؟) من عسير. وقد وردت في هذا الخطاب الأخير الذي أرسله الشيخ العسيري لإبراهيم بعض العبارات التي تؤكد ولاء هذا الشيخ، كما وردت فيه أخبار خاصة بعبد الله دعمها ذلك الشيخ بخطاب كان قد ورده من عبد الله جاء في جزء منه: "نحن عبد الله بن سعود نبعث بالتحية لابن سعدون، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فبعد، فإننا نربأ بك من أن يخدعك النهيق العالي لذلك الجحش المصري، فهو لن يتمكن من الوصول إليكم، ولن يستطيع أن يسبب لكم أدنى أذى، فنحن الفرقة المنتصرة بإذن الله. وأحذركم من تطاول الكفار، ولا يغرّنّك استعراضهم للقوّة فالله خاذلهم، ومن المؤكد فإنهم خاسرون في النهاية. ونحن على استعداد لنصرتك بمشاتنا وبفرسانا، وما النصر إلا من عند الله، ألا إن نصر الله قريب، والسلام عليكم."

قال إبراهيم للمبعوث النجدي وهو ينظر إلى رسالته التي ألقاها الباشا على الأرض: أخبر سيدك بأنه سيتلقى ردّي على خطابه في الدرعية. وطلب إلى ذلك المبعوث أن يغرب عن وجهه حالاً وينصرف فوراً بهداياه، وهدده بأنه كان من الواجب عليه أن يقتله لو لم يكن مبعوثاً. وبُهت ذلك المبعوث وأُسقط في يده، وضاقت أمامه مجالات الاعتذار والدبلوماسية، فانصرف عن معسكر الباشا يسوق خيوله عبر البحر ووصل إلى جدّة، وهناك أخذ يتدبر أمره كيف يمكنه أن يواجه سيده في الدرعية (؟). وأخيراً تمكن الرجل من بيع الخيول بسعر مجزٍ، واشترى بثمنها عدداً من العبيد النوبيين ألبسهم أحدث الأزياء وهندمهم بما تقضيه موجبات الموضة، ودفعهم أمامه في مسالك نجد، وهو يبلّغ كل من يصادفه في الطريق بأن العبيد المصاحبين له هم هدية من الباشا لسلطان نجد تعبيراً منه عن علاقات الصداقة والتحالف. "ولربما لمّح الرجل إلى أن تلك الهدية تدل على خوف الباشا من عبد الله".

دلف المبعوث إلى الدرعية خلسة بعد الظهيرة في الوقت الذي كان المؤذن ينادي لصلاة العصر، وقصد الجامع الكبير الذي كان مكتظاً بالمصلين وهو يسوق أولئك العبيد الذين كانوا في أبهى حللهم، بينما كان عبد الله قائماً في الصف الأول يستعد لإقامة الصلاة. واتجهت كافة الأنظار نحو الرجل ومرافقيه السمر، وسرت في ذلك الجمع همهمة ما لبثت أن تنامت حتى غدت كهدير البحر: لا إله إلا الله، إن الله مع المسلمين، الله أكبر والحمد لله. وأشار عبد الله إليهم بإقامة الصلاة التي ما إن انتهت حتى نادى المبعوث، وطلب إليه أن يسرد أمام هذا الحشد ما وجده من الباشا.

تحدث المبعوث فقال: إنه وجد من الباشا معاملة كريمة وحسن استقبال. فالباشا يخشى

شجاعة النجديين، وأضاف: إنه قبل الهدية المرسلة إليه وسُرّ بها، وأرسل لعبد الله هؤلاء العبيد هدية مع رجاء أن تقوم بين الحكومتين علاقات صداقة وتحالف. واستحسن عبد الله ما أدلى به المبعوث وطلب إليه أن يبرز الخطاب الذي أرسله ذلك الكافر (!) ليُقرأ أمام الملأ. وارتفعت في هذه اللحظات الهتافات المدوية التي اهتزت لها جنبات المسجد: الله أكبر. واعتذر المبعوث بأن الخطاب يحوي من الأسرار ما لا يجوز الإفصاح عنه علناً. وخرج عبد الله من المسجد مبتهجاً في زمرة من مستشاريه ووزرائه مصطحباً مبعوثه، بينما سار العبيد في إثر تلك المجموعة التي انتهت إلى المجلس الخاص. وهنا طلب عبد الله الخطاب من المبعوث، فاعتذر ذلك المخادع مرّة أخرى بأن طبيعة الكتاب خاصة جداً، ويجب ألا تقع عليه أي عين أخرى أو تسمعه أذن غير أذنه. وصرف عبد الله في غمرة دهشته مرافقيه، فأبلغه المبعوث حينها أنه رجع خاوي الوفاض، وأنه لا يحمل رداً مكتوباً من الباشا الذي هدد بأنه سيبلغ عبد الله رسالته حين يصل بنفسه إلى الدرعية. وأضاف المبعوث قائلاً لعبد الله: إذا كان رجلاً حقاً، فعليه أن يُعدّ للحرب عدتها، ويوطّن نفسه على أن يمسك بالثور من قرونه. وحكى المبعوث لسيده كل ما سمعه ورآه، واعتذر عن خداعه له أمام الملأ في المسجد بأنه اضطرّ إلى ذلك حتى لا ينشر الرعب في أوساط المواطنين، فتتدنّى الروح المعنوية. واختتم الرجل حديثه لعبد الله بأن الخطر قد بات ماثلاً، وعليه أن يتوقع وصول الحملة إلى نجد في المستقبل القريب. وشكر عبد الله للرجل حيلته، واستحسن تصرفه وتركه يغادر المجلس سليماً، "فرأسه كان لم يزل يعلو كتفيه".

نجد – في ما روينا على لسان بالجريف – قصة درامية غير جيدة السبك، جادت بها قريحة هذا الرحالة على الأرجح، أو ربما وردت على لسان راويته، ولكنها قصة خيالية لن تجد لها مكاناً في أي كتاب تاريخ رصين يتحرى عن الحقيقة وينفر من الزيف. ويصل هذا الرحالة إلى قمة الافتراء على التاريخ حين يقول إن إبراهيم باشا لم يفد إلى شبه الجزيرة العربية غازياً، فقد برهن أنه كان صديقاً للجميع (!)، فكل دلو ماء أخرجه البدو من الآبار للجيش نالوا أجرهم عليه، وكل تمر أخذه الجنود، وكل عود أوقدوه كان الباشا يدفع ثمنه بسخاء للعرب فور تلقّيه تلك الخدمات. وأفاد بالجريف بأن الباشا حظر على ضباطه ورجاله أن تبدر منهم أي بادرة – مهما كانت طفيفة – تحمل في طيّاتها أدنى إساءة للعرب، كما حذرهم من أن تصدر منهم أي إشارة تَنِمُّ عن غضب أو استفزاز تجاه الأشخاص العزّل من السلاح الذين لا يبدون مقاومة للجيش.

يشير بالجريف إلى أن القرى في شبه الجزيرة العربية تدافعت قرية إثر أخرى تُرحب بمقدم الباشا، وخرجت القبائل الواحدة تلو الأخرى في مسيرات عسكرية مؤازرة لجيش الباشا، فقد كان أولئك الرجال يأملون أن يصيبوا من الباشا ربحاً. ولم تغب عن أذهان هؤلاء القوم الذين رحّبوا بمقدم الباشا المقارنة بين هذا النظام المتحضر والحماية التي يجدونها من هذا الجيش،

والعنف الذي كانوا يلقونه من النظام الوهابي، فاختاروا الحكم المصري لإدانتهم أساليب الحكم النجدي. ومع ذلك – يقول بالجريف – فقد ظلت أقلية ثابتة الولاء للوهابيين "أبت أن تستبدل بالحكم الإسلامي الولاء لجحش مصر (!)". وقد عامل الباشا هذه الفئة الأخيرة معاملة طيبة، و لم يستخدم العنف ضدّهم بنحو مباشر، فاستعاض عنه بالرأفة المحسوبة النتائج، و لم يزد في معاملته لهؤلاء المعارضين له على أن اضطرهم إلى هجر ديارهم والفرار إلى نجد الوسطى ليزداد بهم حجم جيش أولئك المؤمنين، وليرهق عدوّه بتحمل وطأة هجرة أخلاط من الناس لا فائدة فيهم، فيستنزف بذلك مصادر عبد الله، ويحطّ أيضاً من روحه المعنوية. وراح جيش إبراهيم باشا يطوي أرض نجد طيّاً، تعاضده جهود القبائل البدوية التي أمدّت جيشه بالإبل تحمل أثقاله، وبالأدلّاء يعينونه على مسالك الدروب. وهكذا تمكن الباشا من أن يواصل مسيرته في مرتفعات نجد الوسطى بجيش لم يصادف رهقاً، و لم يعانِ نقصاً في المؤن والإمدادات، وبسيوف نظيفة لم تدنّسها قطرة دم واحدة (!)، كما كانت دروب الباشا في اتجاه الساحل مفتوحة مؤمّنة بجهود أصدقائه وحلفائه الذين تركهم وراء خطوطه، بينما كانت المجاعة تتقدم ركبه وترهق تلك القوّة المختلطة، وتثير فيها الرهبة والذعر.

في الحقيقة لا يستطيع أي مؤرخ أن يروي اعتماداً على بالجريف أو غيره رواية مثل هذه الرواية المصنوعة، لأنها لن تقبل منه وإن أقسم بالله العظيم ثلاثاً. فمثل هذه الحرب المُثلى أو السلمية إذا جاز التعبير، ليس لها وجود في التاريخ. ليس ذلك فحسب، ولكن كل من له أدنى معرفة بتاريخ هذه المنطقة في تلك الفترة لا يستطيع إلا أن يقطع ببشاعة الأعمال التي قام بها إبراهيم باشا في تلك المعارك. فما كان هذا القائد الطاغية الشجاع الغشوم يكتفي بإهراق دم أعدائه غزيراً متدفقاً، بل عمد إلى قذف من حالفه من العرب الذين كانوا غالباً ما يجعلهم في طليعة جيشه في أتون النار، ليتلقّوا الموت بصدور عارية جراء قذف مدافع المدن المحاصرة. وإذا أحسّ منهم نكوصاً أو تراجعاً أرسل عليهم طلقات مدافعه تحصدهم حصداً. و لم تكن حال جنده بأحسن من حال حلفائه العرب، فقد ظلوا بدورهم يلقون الموت بسيوف أعدائهم حين يتقدمون، وبمدافع الباشا حين يتقهقرون. وإذا كان بعض الذين انتقدوا بالجريف وأنكروا وصوله إلى وسط شبه الجزيرة العربية اعتماداً على المعلومات الجغرافية والطوبوغرافية الخاطئة التي أوردها عن أرض نجد، فإننا ننكر وصوله إلى هذه المناطق اعتماداً على هذه الرواية التاريخية وما شابهها. فقسوة إبراهيم باشا، التي سجلها بنفسه عن نفسه، لا تزال تقشعرّ لها الأبدان حين نقرأ عنها في مصادرها. و لم يصل إبراهيم باشا – في حقيقة الأمر – إلى الدرعية إلا بعد أن أمطر كافة المدن والقرى في طريقه بقذائف مدافعه. ولا بد أن بالجريف – إذا حدث أن زار نجداً – قد رأى الدمار الذي كان يقف شاهداً على عنف المقاومة وقسوة الرد عليها. وإذا ارتضينا جدلاً أن الرجل كان أعمى لم يرَ خرائب تلك المدن والقرى، فإننا نعتقد أن الأربعة

عقود ونيفاً التي فصلت بين سقوط الدرعية وما يدّعيه بالجريف من وصوله إلى الرياض ما كان يمكن لها أبداً أن تمحو من ذاكرة أهل المنطقة المشاهد الدموية البشعة التي يجب أن تكون قد بلغت مسامع هذا الرحالة. فقد كان – ولا بد – لبالجريف – إن وفد إلى نجد فعلاً – أن يقابل بعض الذين خاضوا غمار تلك الحروب، أو عاشوها أطفالاً، أو سمعوا من آبائهم عن أهوالها. وما كان لبالجريف أبداً أن يكتب – والحالة هذه – ما كتب من كذب وافتراء.

ندحض من جانبنا كل ما سطّره بالجريف عن التاريخ الذي سجله عن المنطقة اعتماداً على رواية جاهل أو مغرض رواها له، أو على إعمال خيال يلوّن قشور بعض الحقائق التاريخية ليقيم منها تاريخاً. ولكننا مع ذلك قد نقبل منه – على ما نعرفه عنه من كذب وتدليس – بعض الحقائق التي عاصر فترتها أو تلك التي عاصر راويته فترتها ثم أوردها لنا، بعد أن نخضعها لمنهج نقد دقيق يقوم على الشك والتحرز من قبول شهادة كذاب مدلّس.

رواية بالجريف عن قيام الدولة السعودية الوسطى

يقول بالجريف إن إبراهيم باشا غادر نجداً إلى القاهرة وفي ركابه أكثر أفراد عائلة سعود وعدد من أعيان نجد الكبار. ويعتقد أن إبراهيم باشا كان يهدف من ذلك إلى العمل على تدريب عدد من هؤلاء الأعيان وإعدادهم إعداداً حسناً ليتمكنوا من اكتساب بُعْدِ أفق لن يتسنى لهم اكتسابه في بلادهم، وذلك لتهيئة الطريق في نجد أمام تقدم حقيقي مقيم. ويضيف أن الباشا لم يفلح في تحقيق آماله بإقامة إدارة جيدة في نجد، ولا يعزو السبب في ذلك إلى أعمال المقاومة التي انتظمت في المنطقة فحسب، ولكنه يعزوه إلى عدم كفاءة الذين أوكل إليهم الأمر في نجد.

ترك إبراهيم باشا ضابطاً هو إسماعيلِ باشا لينوب عنه في حكم المنطقة، وقضى هذا الباشا سنتين في منصبه مقيماً في الأحساء، نائياً بنفسه عن رِبقة الوهابيين، كما زار اليمامة والحريق والقصيم، وأقام حاميات مصرية في تلك المناطق. ومع ذلك فقد "تنامى الطغيان" ليحيي ما اندثر من المشاعر الوطنية القديمة. وحين غادر إسماعيل باشا بعد انقضاء مدة السنتين إلى القاهرة، أوكل الحكم في المنطقة إلى خالد باشا نائباً عنه، وكان هذا الأخير عنيفاً لا يعرف التسامح، شأنه شأن سابقيه، وقد أحرق بعض الناس أحياءً. ويضيف بالجريف: كان تركي بن عبد الله قد هرب من الدرعية عند سقوطها وانحاز إلى سدير التي واصل مسيرتهِ منها إلى البصرة، وظلّ هناك فترة طويلة. أما والده، فبعد أن قضى فترة أسيراً في القاهرة، أُرسل إلى القسطنطينية حيث أُعدم على الفور، بينما ثوى الأسرى الآخرون في سجون القاهرة نزولاً عند أمر السلطان. وظلت الثورة الصامتة تعتمل في صدور النجديين وتمور موراً انتظاراً لقائد يفجّرها. وجاء الوريث الشرعي للعرش – ابن الزعيم القتيل – إلى سدير، وبقي فيها فترة عاش

فيها حُرّاً طليقاً في منفاه، فأرسل إليه أبناء شعبه يستدعونه فأسرع يلبي النداء. وفجأة انفجرت الاضطرابات ضدّ المصريين في منطقة جبل طويق، معلنة وصول تركي إلى مشارف وادي حنيفة. وماجت المنطقة بحرب العصابات التي أعيت قوى خالد واستنزفتها، وانداحت دائرة الثورة واتسع محيطها يوماً بعد آخر لتغطي نجداً برمّتها، فهبّت المنطقة هبّة رجل واحد من القصيم حتى الخليج، وذُبح أفراد الحاميات المصرية في اليمامة والحريق، و لم ينجُ منهم إلا من استطاع أن يفرّ بجلده. ووجد خالد نفسه قد أصبح معزولاً محاصراً في وادي حنيفة، فاضطر إلى التراجع مع الحاميات التي كانت تحت إمرته إلى القصيم. أما تركي فقد أُعلن سلطاناً لنجد ومؤسساً للإمبراطورية الوهابية، واختار الرياض عاصمة له دون الدرعية، وبدأ بتشييد قصره "الذي يعيش فيه اليوم"، والذي اتخذه مقرّاً لحكومته، وبنى تحصينات الرياض والجامع أيضاً.

ويستطرد بالجريف فيقول إن مقاطعات العارض والوشم وسدير والأفلاج واليمامة والحريق والدواسر ما لبثت أن اعترفت بتركي سلطاناً عليها. وبهذا يمكن القول: إن كافة المقاطعات الوسطى قد ارتضت تركي سلطاناً لها. وظلت القصيم بيد خالد، بينما تساقطت كافة المناطق الأخرى في الشمال وفي الغرب للوهابيين. وطردت الأحساء والقطيف الحاميات المصرية، ولكنهما لم تستبدلا بالمصريين النجديين، و لم تدخلا في طاعة النجديين، بل استعاد الشيوخ المحليون ما كان لأسلافهم من سلطة هناك، واستعاد السيد سعيد بن سلطان منطقة عمان. أما محمد علي باشا فقد دفع بحسين باشا على رأس جيش عرمرم ليستردّ المنطقة لمصر مرّة أخرى، فهرب تركي ومؤيدوه واستعصموا بتلال طويق فيما وراء حريملاء. وفتحت القرى والمدن أبوابها أمام حسين باشا، بينما راح نفر من أتباع تركي يتجمعون في الحريق التي "كانت تُكنّ بُغضاً للمصريين".

تمكن حسين باشا من الاستيلاء على الرياض وعلى كافة مناطق وادي حنيفة، ثم اتجه إلى الحريق تاركاً تركي في منطقة سدير التي قرر أن يعالج أمرها بعد عودته من هناك. غير أن الأدلاء في جيش حسين باشا أوردوهم حتوفهم حين قادوهم ليتوهوا في مناطق التلال الرملية إلى الجنوب الغربي، ثم تركوهم ليهلكوا عطشاً تحت وهج تلك الشمس المحرقة. وروى أحد الشهود العيان أن أهل القرى الذين لم تكن تفصلهم سوى مسيرة ساعات فقط من مكان ذلك المشهد، هرعوا ليستطلعوا الأمر، فما وجدوا سوى بعض جنود يعانون الموت عطشاً ويأساً، أما عدد القتلى فقد تجاوز الأربعة آلاف. وقد روى البعض أن حسين باشا نفسه كان ضمن أولئك الضحايا، بينما تقول مصادر أخرى إنه كان قد تراجع بالجيش الاحتياطي الذي كان قد تركه في اليمامة، وأنه انسحب من تلك المنطقة ثم لحق بمصر.

هرع تركي إلى الرياض فاستعاد مملكته مرّة أخرى، وأدارها فترة من الزمن لم تعمل مصر فيها على التدخل في شؤونه، ثم اغتيل تركي فخلفه على الحكم ابنه فيصل الذي كان في الثالثة

والثلاثين أو الرابعة والثلاثين من عمره. واجتمعت لفيصل من المزايا ما أهّله لمعالجة ما جابهه من صعوبات. وكان في مزاياه الشخصية أكثر شبهاً بأبيه من جدّه عبد الله، فهو رجل معتدل، ارتقى أقصى مدارج الحكمة، ماكر هوناً ما، ثاقب النظر، ذو لسان فصيح ذلق. وعلى الجملة، فقد اجتمعت له الكثير من الصفات التي جمعت له ولاء أتباعه "الوراثيين" الذين وعدهم فيصل بأن يحكم فيهم حكماً جيداً وقوياً، غير أن التعاليم الوهابية إضافة إلى التعصب الديني والنفوذ الذي تتمتع به الطائفة النجدية عصفت بذلك الأمل. ومع تقدم فيصل في العمر، أخذت المؤثرات الوهابية تزداد شيئاً فشيئاً، حتى انتهى به الأمر إلى أن يصبح "مجرد آلة في أيدي مستشاريه من ذوي العقول الضعيفة وفي يد ابنه كذلك، "ذلك الرجل العنيف الذي غدا يدير الدولة باسم والده".

حين أُعلن فيصل سلطاناً بعد اغتيال والده بيد مشاري، أعاد الأمن إلى نصابه في الأقاليم الوسطى التي كان قد انفرط عقد الأمن فيها ولفّتها الفوضى بعد هذا الحادث. و لم تمهله مصر لتحقيق المزيد من الأمن، فقد أرسلت عليه حملة كبيرة بقيادة خورشيد باشا الذي وضع خالد على عرش نجد، ثم عاد ليستقر في القصيم التي ظلت في أيدي المصريين، بينما هرب فيصل من عاصمته متنكراً، فأدّى فريضة الحجّ ثم غادر إلى دمشق، كما زار المسجد الأقصى في القدس الشريف، وتنقل في عدد من المدن السورية. أما خالد، فلكونه من آل سعود، لم يقبل بأن يكون أداة في أيدي المصريين، فتنكّر لهم. وعاد فيصل إلى نجد، ما اضطر خالد إلى أن يتراجع إلى القصيم، ثم عاد بعدئذ إلى مصر ثم إلى مكة المكرّمة التي استقرّ فيها حتى وفاته عام ١٨٦١م، واستطاع فيصل أن يؤثل حينئذ سلطته في الرياض. وانبرى خورشيد بعدئذ فهاجم العارض وتمكن منها، وأخذ فيصل أسيراً إلى مصر، حيث ظلّ حبيس القلعة حتى توفي محمد علي. ووضع خورشيد بن ثنيان – ابن عمّ خالد – على نيابة نجد. كان ابن ثنيان رجلا وسيماً شجاعاً جريئاً، فحاول أن يستقل بنفسه في الحكم، فحارب عربان مطير وعتيبة، أقوى قبيلتين في المنطقة، فانتظموا في طاعته، كما حارب بدو وادي الدواسر.

أما في الرياض فقد زاد ابن ثنيان في مساحة القصر وألحق به مخزناً للبارود والسلاح، وداخله الكبر وظلّ تيّاهاً فخوراً، وقام على هذا النحو في إدارة نجد خمس سنوات، ولكن ما إن توفي محمد علي وخلفه عباس على حكم مصر – "وهو رجل نصف معتوه" – حتى أطلق سراح فيصل وجماعته. ولما لم يكن لعباس أن يتجرأ فيقدم على أمر كهذا من دون أن يحصل على موافقة من القسطنطينية، فقد أنفذ الأمر سرّاً. أصدر عباس أمره بخفض عدد حراس القلعة وتخفيف الحراسة عليها، كما أمدّ من بداخلها بالحبال وهيّأ لهم وسائل لتأمين هروبهم.

هرب هؤلاء النفر إلى القصير، وأرسل فيصل من هناك يبثّ عيونه في نجد. أما خورشيد الذي أخذت إمداداته تنقص وأسلحته تقلّ، فقد غادر القصيم إلى القاهرة، منهياً بذلك حكماً

للمصريين في شبه الجزيرة العربية دام بنحو متقطع مدّة سبعة وعشرين عاماً. وأرسل أهل القصيم إلى فيصل يستدعونه، فخرج من القصير وعبر إلى ينبع ليظهر فجأة في القصيم. وهناك جمع جيشاً خرج به إلى شقرا، وأرسل من هناك إلى ابن ثنيان يطلب إليه أن يسلّمه الرياض، لأنه حاكمها الشرعي. وترك ابن ثنيان القلعة وقصد دار ابن سويلم، ثم عاد ليلتقي بفيصل في القلعة، ولما سأله الأخير عما إذا جاء طالباً الحماية فأنكر ابن ثنيان ذلك. أودع ابن ثنيان السجن وظلّ حبيساً فيه حتى وفاته، وقُبر في المقبرة الكبيرة إلى جوار تركي. و"لا يزال أبناء ثنيان يعيشون في الأفلاج".

يتحدث بالجريف عن حادثة فيقول: إنه شهد أحداثها، وهي قدوم سعود بن فيصل على رأس جيش من الحريق إلى الرياض ليضمّ رجاله إلى جيش أخيه عبد الله المتوجه لرد عنيزة إلى الطاعة. وإذا كانت الشواهد كلها تكذب ادّعاء بالجريف أنه زار الرياض، فإننا يمكن أن نقبل أن راويته كان يعرف الرياض، وأنه نقل لبالجريف بعض ما كان يجري في تلك المدينة، فبنى عليه الرحالة روايته التي يمكن لنا أن نستخلص بالنقد من زيفها حقائق تؤيدها شواهد من مصادر أخرى. يروي بالجريف دخول سعود الذي قدم بجنده نتيجة دعوة والده له، إلى الرياض فيقول: إن سعود قد وصل تلك البلدة على رأس جيش ضمّ نحو مئتي فارس وأكثر من ألفي راكب على الهجن. وبرز فيصل أول مرّة منذ وصول بالجريف إلى الرياض - كما يقول - إلى الملأ، وكان مظهره عند مدخل القصر فريداً، يحتاج إلى ريشة فنان لتصويره تصويراً يظهره بما هو عليه.

جلس ذلك الحاكم الفرد العجوز - الذي كان قد فقد بصره - أمام القصر، تميزه لحيته البيضاء وجبهته العريضة الضخمة، وكان سيفه المطعم بالذهب يرقد إلى جواره. وقد مثّل هذا السيف شارة الأبهة الوحيدة لدى ذلك الحاكم الذي ارتدى ثوباً بسيطاً كما تقضي بساطة الوهابيين. وجلس إلى جوار فيصل عدد من وزرائه وضباط قصره وجمع من أعيان مدينة الرياض وأثريائها. و لم يتغيب من كبراء هذا المجلس سوى عبد الله، ولي العهد. وجاء سعود يرتدي ملابس فخمة وشالاً كشميرياً وعباءة مطرزة بفتلات الذهب. وسار فرسانه في أثره في صف يتلو فيه الواحد منهم الآخر وهم في بزاتهم الحمراء، يحمل كل منهم حربته على كتفه، ويتدلى سيفه عند وسطه، بينما برزت بنادقهم متدلية من خلف سروج خيولهم. أما خناجر بلدة الحريق الحادة فقد كانت تتلألأ عند خصر كل منهم. وأخذ الموكب يتتابع، وجاء دور الجنود من راكبي الهجن الأصيلة يحمل بعضهم الحراب فقط، بينما حمل البعض الآخر منهم البنادق إلى جانب الحراب. وما لبث ذلك الميدان المربع الشكل أن غصّ بأولئك الرجال المسلحين، بينما وقف المارة يحملقون في تلك الحشود المسلحة وهي تمرّ أمام ذلك الحاكم الفرد. وترجّل سعود عن فرسه واستلم يد والده فقبّلها قائلاً: أطال الله عمر فيصل

لنصرة المسلمين. ودوّى هتاف الحاضرين -بمن فيهم بالجريف، كما يدّعي - من كل جانب بالدعاء لفيصل، بينما اكتست تلك الوجوه التي فاضت بالحماسة المركزة والقوّة الواعية بسمات "مخيفة". ووقف فيصل لتحية ابنه ثم أجلسه إلى جانبه للحظات قبل أن ينصرفا معاً ليدخلا القلعة، بينما أخذت تلك القوّة العسكرية تتفرق لتأوي إلى معسكراتها.

يقول بالجريف: إن عبد الله الذي تغيّب عن حضور هذا الاحتفال كان مسروراً لوصول هذا الدعم الحربي الذي سيمكّنه من تحقيق أهدافه، ولكنه لم يكن يطمئن إلى أخيه سعود للغيرة التي يحملها له. ويدّعي هذا الرحالة أن فيصل سأل سعود في اليوم التالي لوصوله وهما يجلسان في الديوان عما إذا كان قد أتحف أخاه عبد الله بزيارة فأجاب بالنفي. واعترض سعود على رأي أبيه بأن يكون البادئ بزيارة أخيه، محتجاً بأن على أخيه أن يزوره أولاً، لأنه القادم من سفره إلى رحاب أخيه. و لم يقبل الوالد هذه الحجّة من ابنه ولا هذا الاعتراض، فأصرّ عليه بأن يقوم بواجب زيارة أخيه الأكبر، وثبت سعود على رفضه، ما أثار حفيظة الوالد العجوز الذي كان يتوكأ على عبد له زنجي، فصفع ابنه الذي انحنى وهو يتلقى الصفعة ويقول لوالده: اضرب كما يحلو لك، ولكني لن أكون البادئ بزيارة أخي. وتدخل العبيد الزنوج لتهدئة الوضع، وأخذ فيصل يستعيد هدوء أعصابه، ما مكن سعود من الانصراف من ذلك المجلس من دون أن ينبس ببنت شفة.

لم تمضِ إلا ساعات قلائل على ذلك اللقاء حتى كان فيصل على صهوة فرسه، التي يقودها مرافقوه، يعبر الشارع إلى قصر عبد الله. وأطلع الوالد بكره على ما وقع بينه وبين ابنه سعود، طالباً إلى عبد الله أن يسير لزيارة أخيه. و لم يكن عبد الله بأقل رفضاً من أخيه الأصغر في عدم الإذعان لرغبة والده، و لم يتزحزح عن موقفه الرافض حتى بعد أن جادله الوالد بأن سعود يُعدّ في الرياض ضيفاً في رحابه. واعترف الوالد أمام ابنه الأكبر بأنه أخطأ في حقّ سعود وعامله بطريقة غير لائقة رغم صواب موقفه، وأنه يجب عليه أن يعالج هذا الخطأ بنحو أو بآخر. وأخيراً تمكن فيصل من إقناع ابنه عبد الله بأن يسير في صحبته إلى القصر حيث يقيم سعود ويلتقي به هناك في ديوان الوالد. وتمت تسوية المسألة على هذا النحو الوسط، بحيث لا تُؤذي مشاعر عبد الله، فسار مع أبيه إلى بيته، وقابل هناك أخاه برفقة أبيه في ديوانه. وتصافح الأخوان، وجرت على هذا النحو معالجة "الفضيحة العامة". ويقول بالجريف: إن محبوب حينما وقف على ما جرى قال لفيصل: "هل لك أن تعرف مغزى هذا الحدث (؟). والله ما إن يضمك القبر حتى تقعقع السيوف في المنطقة الممتدة من العارض إلى سدير". و لم يسعْ فيصلاً إلا أن يتنهد عميقاً.

نجد في ما سردنا مما كتبه بالجريف في التاريخ السعودي كثيراً من التفاصيل الدرامية والحبكات الروائية. فالمغزى العام لهذه الرواية الأخيرة صادق في مضمونه، ولا يمكن أن

يكون من وحي خيال هذا الرحالة الذي كان عادة ما يعيد تركيب روايات الرواة النجديين الذين يقابلهم، ثم يضيف إليها من خياله ليضفي عليها شكل الرواية. فهذه القصة الأخيرة التي قد لا تكون صادقة في تفاصيلها - ما لم يكن لبالجريف مندوب مرافق لفيصل يخبره بحركاته وسكناته وينقل كلماته - في مجملها صادقة عبّرت عن واقع حال التاريخ السعودي في تلك الفترة. فقد أدى الخلاف الذي نشب بين عبد الله وأخيه سعود بعد وفاة والدهما إلى حروب أهلية متعددة عصفت بريح الدولة السعودية الوسطى. وكانت رواية بالجريف - حين نجردها من التفاصيل - صادقة، ما يدلّ على أن راويته كان على علم بمجريات الأمور في العاصمة السعودية، فأخذ هذا الرحالة الخبر من الراوية وأضاف إليه من خياله وابتدع له سيناريو، وأدار حواره ووضعه على ألسنة محبوب وفيصل وعبد الله وسعود، وحكى عن الجميع وكأنه كان ملازماً لهم.

تضخم الذات عند بالجريف

لم يكتفِ بالجريف بابتداع القصص الملفقة في التاريخ، فنسج عدداً من القصص الأخرى جعل من نفسه بطلها. ورغم أن تلك القصص فجّة لا تعبّر إلا عن تضخم الذات - هذا الداء الذي لم يسلم منه أي من الرحالة الأوروبيين - كانت لغرابتها تثير في القارئ الأوروبي روح الشعور بالفخر حين يجد أحد أبناء جلدته يتحدى وهو أعزل - بكل جرأة - الثقافة المغايرة التي تعيشها شبه الجزيرة العربية. ومن هذه القصص التي لا يجوز عقلاً قبولها أن عبد الله بن فيصل - وهو الرجل الأول في الرياض القائم على إدارة والده الإمام المُسِّن - هدده في الرياض بالقتل، فتحداه بالجريف أن يفعل، فلم يكن لعبد الله إلا التراجع عن تهديده، و لم يتجرأ على ذلك (؟). فهل كان عبد الله يحتاج إلى أن يهدد رجلاً لا يتمتع بأي نوع من أنواع الحماية، في فترة لم يكن لفرنسا التي كان هذا الرحالة الإنجليزي يقوم بخدمة أهدافها، أي وجود في شبه الجزيرة العربية كلها، كما لم يكن لبريطانيا التي ينتمي إليها بالجريف هوية، والتي كانت تحكم ساحل الخليج، أي حول أو طول في الداخل الصحراوي، بل إن لويس بيلي - مقيم الخليج أو الملك غير المتوّج فيه - لم يتجرأ بعد تاريخ زيارة بالجريف بما يقارب سنتين على دخول الأرض السعودية من الكويت إلا بعد أن حصل على إذن من الإمام فيصل؟

يروي هذا الرجل أن الأمير عبد الله راح يتودد إليه، وأغراه بأنه سيهبه في الرياض بيتاً وزوجة ليستقرّ في البلدة التي تحتاج إلى خدمات هذا الطبيب الحاذق، ولن تُفرّط فيه أبداً. ويضيف بالجريف أنه اعتذر بلطف عن قبول هذا التكريم. وانتهز عبد الله هذه الفرصة ليطلب إليه أن يعطيه شيئاً من الإستركينين، وكان عبد الله - في ما يقول بالجريف - يعرف تماماً

الخواص السامة لهذا الدواء، وأدرك الرحالة أن الأمير يريد أن يدسّ السمّ لأخيه سعود. ادّعى الرحالة أنه اعتذر للأمير بحزم مشوب باللطف. وكرر عبد الله طلبه فكرر الطبيب رفضه. و"اتجهت إليه ورفعت طرف غترته وهمست في أذنه: يا عبد الله، أنا أدرك تماماً لماذا تريد هذا السمّ ولكني أربأ بنفسي أن أكون شريك سوء لك في تنفيذ جريمتك، إني لن أعطيك هذا الدواء أبداً". احتقن وجه عبد الله ولكنه احتفظ بهدوئه، وغادر القهوة إلى مكان آخر في القصر. يقول الرحالة إنه أدرك أن إقامته في الرياض غدت بعد هذا الحادث غير آمنة، وطفق يتدبر مع جريجوري خطّة للخروج من الرياض بأسرع ما يمكنهما. وفي مساء اليوم ذاته،، استدعي بالجريف إلى القصر واقتيد إلى غرفة جلس فيها عبد الله في نفر من أعيان المدينة والمطاوعة إضافة إلى مجبوب والقاضي. ألقى بالجريف على الجمع السلام فلم يجبه أحد من الحاضرين، وطُلب إليه أن يجلس. وبعد فترة ساد فيها الصمت المكان خرج صوت عبد الله في نبرة عميقة ليقول له: تأكد لي الآن من دون أي لبس أنك وزميلك لستما طبيبين، بل أنتما نصرانيان وجاسوسان مفسدان، وقدمتما إلى بلدنا لتخرّبا علينا ديننا ودولتنا خدمة لمصالح من أرسلكما للقيام بهذا العمل، إن عقوبة هذا العمل التي يجب عليك أن تعرفها هي الإعدام الذي سيُنفّذ فيكما من دون إبطاء. يدّعي بالجريف أنه ظلّ محافظاً على رباطة جأشه، وظلّ يرمق عبد الله بعين غير هيّابة ويتفرّس في وجهه، وأنكر التهمة الموجهة إليه قائلاً: أستغفر الله، والتعبير – كما يقول بالجريف – يُخاطب به الشخص الذي يأتي بشيء خارج عن سياقه. ويستطرد: أما أنني نصراني فهذا صحيح، ولكن أن نكون جاسوسين مفسدين فذلك غير صحيح، فكل شخص في هذا البلد كلها يشهد لنا بأننا طبيبان، ليس أكثر من ذلك ولا أقلّ. وأضاف أنه قضى الآن أكثر من شهر في ضيافة فيصل، وأن الأعراف العربية تحظر الإضرار بالضيف. واعتماداً على ذلك، فإن عبد الله لن يستطيع أن يسبب له أدنى أذى! وابتدره عبد الله قائلاً إنه يستطيع أن يغتاله سرّاً ولن يعرف بذلك أحد من الناس! وهنا وجد بالجريف – في ما يقول – فرصته ليرفع صوته عالياً ليسمع كل الجالسين ويطلب إليهم أن يشهدوا على ما قاله عبد الله، وأن أي غرم قد يصيبه في هذا البلد فهو بلا شك من تدبيره. وران على الغرفة بعد ذلك صمت عميق، قطعه فجأة صوت عبد الله وهو ينادي على حامل القهوة. ودخل الخادم إلى الغرفة وهو لا يحمل في يمينه سوى فنجان واحد صبّ فيه لبالجريف الذي يقول إنه تردد لحظة خشية أن يكون في القهوة سُمّ، ولكنه استدرك فوراً أن عبد الله لو كان يملك سُمّاً لما طلب منه الإستركينين، عندها مدّ يده وهو ينظر إلى عبد الله في تحدٍّ وتناول الفنجان وأتى على ما فيه، وطلب إلى الخادم أن يتحفه بالمزيد. وهنا تنتهي هذه القصة التي سوّد بها بالجريف صفحتين من كتابه ولا ندري لها مغزى، إلا إذا أردنا أن نثبت له شجاعته المتهورة في مواجهة أمير عربي قوي ومتآمر أفسدت عليه القيم الغربية خطته لقتل أخيه بسم غير موجود في شبه الجزيرة العربية

كلها، ولا سبيل لحصول عبد الله عليه إلا من عند هذا الرحالة الجسور.

كثيرة هي قصص بالجريف التي تكشف عن كذب فاضح لمن يعرف تاريخ هذه المنطقة ويدرك أبعاد ثقافتها. ونرى من جانبنا أنها صيغت لترسم الابتسامة على وجه القارئ الغربي. جاء من بين هذه القصص أن عبد الله بن فيصل كان كثير الاهتمام بخيوله وأفراسه، يراقبها ويعمل على رعايتها وعلاجها. أرسل عبد الله – كما يقول بالجريف – ذات مرّة له عدداً من الخيول لعلاجها فردّها بالجريف من دون علاج، لأنه – كما يقول – ليس بيطرياً. ورغم ذلك كان عبد الله يوالي طلب علاج خيوله ويرسلها إلى بالجريف، وأخيراً قرر هذا الكاذب – في تقديرنا – أن يحسم الأمر تماماً "ويواجهه بنحو مباشر. فقال لعبد الله – كما يدّعي –: "على سموّك أن يضع في اعتباره أنني أقوم في عاصمتك بمهمات طبيب الحمير وليس الخيول". ويزعم بالجريف أن "وليّ العهد فهم ما رميت إليه، فابتسم بمرارة وغيّر مجرى الحديث".

جاء في مناسبة أخرى عن هذا الرحالة أن عبد الله بن فيصل كان يعاني ألماً في ضرسه وعجز بالجريف عن علاجه، فنصحه بعلاج "على أن يبقى بيننا سرّاً مكتوماً. وكانت الوصفة العلاجية أن يقوم ولي العهد بمضغ التبغ ثم حشوه في ضرسه الذي يؤلمه، على أن يأخذ – في الوقت نفسه – بتدخين غليون ليسرع بالتأثير العلاجي. ويضيف بالجريف "لمّا كان الوهابيون يعدّون التدخين من الكبائر" فقد شعر بأنه تجاوز بهذه النصيحة حدّه كثيراً. أما ثالثة الأثافي في أكاذيب بالجريف وهو في حضرة عبد الله، فقد جاء منها أن ولي العهد كان كثيراً ما يستبقيه في حضرته إلى وقت متأخر من الليل وهو يسأله في الطب والعلوم، ويتلقى منه "محاضرات في الصيدلة بنحو منتظم من دون أن يؤدي أتعاباً". وذات ليلة امتد السهر وراح بالجريف يغالب النعاس ويُمنّي نفسه بالنوم بينما كان عبد الله يلاحقه بالأسئلة. ويدّعي بالجريف أنه صمت وتجاهل تماماً الإجابة عن استفساراته، ما دعا الأول إلى سؤاله: فيمَ تفكر (؟) فلم يجب، وحين كرّر عبد الله السؤال قرر بالجريف "أن يصل بالأمر إلى نهايته"، فقال له: إنه يفكر في قصة جرت بين هارون الرشيد وجليسه المهرج أبي نواس "وكان عبد الله – شأنه شأن كافة العرب – لا يهوى شيئاً أكثر من سماع قصص الملوك والخلفاء، فطفق يسأل في شغف: وما هي تلك القصة (؟)"، فأجاب بالجريف بأن ذلك الخليفة الشهير كان يدمن السهر، وتلك عادة سيئة، وكان يستبقي أبا نواس جليساً له. وذات ليلة كان أبو نواس يعالج النعاس ويتمنى لو تمكن من مغادرة مجلس الخليفة ليأوي إلى منزله فيأخذ قسطاً من الراحة. والتزم أبو نواس الصمت وما عاد يرد على أسئلة الخليفة، فسأله الأخير عمّا يفكر فيه، فأنكر في البداية أنه يفكر في شيء بعينه. وألحّ الخليفة في السؤال وكرّره للمرّة الثالثة، فرفع أبو نواس رأسه وأطال النظر في وجه الخليفة ثم قال: أفكر في هذا الـ... (كلمة جنسية فاضحة) الذي لا يريد أن يذهب للنوم ولا يريدني أن أنام.

ويدّعي بالجريف أن عبد الله قد فوجئ بهذه القصة، وتجاذبته مشاعر الغضب والشعور بالضحك. "وفي النهاية تغلّب الشعور على المشاعر" فصرف الأمير بالجريف الذي هرع إلى منزله.

بنو تميم

هو الاسم الذي يتكرر في آذان العرب وشعرهم ونثرهم، في المنطقة الممتدة بين حدود العارض الشمالية والصحراء الكبرى. يرى بالجريف أن تميم هي القبيلة الأوفر عدداً، وربما كانت الأكثر ميلاً إلى الحرب من القبائل النزارية. ويعتقد أهل العارض واليمامة والأفلاج والحريق، وكذلك قسم من الدواسر، أنهم ينحدرون من تميم ذات السمات المميزة. امتازت تميم عبر التاريخ في أوساط العرب بخطوط بارزة حددت شخصية أبنائها، وعبّرت عن نفسها بالفخر بهم بنحو مبالغ فيه، وبما جُبل عليه شعراؤها الوطنيون من سخرية مُرّة من الآخرين. وأياً كانت دلالة هذه الصفات، طيبة أو غير ذلك، فهي صفات متوارثة منذ آلاف السنين. ولا تزال هي الصورة ذاتها التي تدلّ على هؤلاء العرب الذين ينحدرون منها أو يدّعون أنهم منها. نجد هؤلاء القوم أقل حيوية من الآخرين، وأقل جرأة في مقابلة المهمات الجسام، كما أنهم أقل طيبة وانفتاحاً من القبائل العربية الأخرى. يدرك هؤلاء أنهم متحفظون، ويدركون أيضاً أنهم أبلغ ترابطاً وأكثر حكمة، وأقل حديثاً من الآخرين. فهم لا يستثارون بسهولة، ولا يتعجلون التعبير عن مشاعرهم، ولكنهم سريعون في إدراك هدفهم الذي حددوه بدقة. وهم مزعجون لا ينسون ثأرهم، تمتلئ دواخلهم كراهية عنيفة للآخرين، وصداقتهم مشكوك فيها، فهم لا يبذلونها إلا لأقرب أقربائهم. أما الميزات الثابتة التي تميزهم فهي أنهم متحفظون ومتوجسون، وربما امتازوا في أحسن حالاتهم بالجدية والصرامة.

يستطرد بالجريف فيقول إن صفات تميم تتعارض مع صفات القبائل الشمالية ذات الوجوه النيّرة الصريحة التي تنبئ عن طاقة أكبر للتعامل مع وسائل التنظيم والإدارة. وعلى الرغم من أن بني تميم أقل فهماً، إلا أنهم أكثر إدراكاً وعزماً وتصميماً، ما يجعلهم في النهاية يظفرون على جيرانهم غير المتحدين حول هدف بعينه. ويرى بالجريف أن الإمبراطورية النجدية تتجه إلى استقطاب هؤلاء الجيران وامتصاص القسم الأكبر منهم في فترة وجيزة.

ويضيف أن الصفات التي ذكرها في بني تميم تمثل الطابع الذي يسم حياتهم كلها وتصبغ حديثهم، سواء كان ذلك في معاملاتهم التجارية أو في حياتهم الأسرية. ويوصي بالجريف من يريد التحدث معهم بأن ينتقي عباراته ويتحكم في خلجاته وسكناته، وعليه ألا يفتح قلبه لهم، بل لا يفتح فمه إلا وهو يدرك أنه يتحدث مع رجال يفكرون عشرين مرّة، لا بل مئتي مرّة قبل

أن يفتحوا قلوبهم أو أفواههم، لذلك عليه - "وهو يتحدث إلى هؤلاء الحاقدين، لهذا الجنس الذي يتساوى عنده الوفاء والغدر - ألا يقول الكثير وألا يعبر إلا بإيجاز". إنهم حين يكذبون لن يكذبوا بكلمة تخرج من شفاههم، ولكنهم يكذبون عملياً. والفن المألوف الذي يمارس بنحو دائم في طول العارض وعرضه هو ألا تتفوّه بشيء ومع ذلك تمارس الكذب! وتسير جنباً إلى جنب مع هذا التوجه الفكري والأخلاقي بساطة متناهية في تهيئة المنازل، حتى إنهم يبدون كأنهم زاهدون في استغلال الثروة واقتناء السلع. وهذه سمة طبيعية في أهل العارض، ولا تتصل بالتزمّت الوهابي أو مراعاة قوانينه الصارمة، غير أن هذا الالتزام الشرعي والطبيعي لا يثبت كثيراً أمام الزينة الفخمة لألجمة أحصنتهم واقتناء أشكال من الأثاث حين يحسّون أنهم في مأمن من سطوة تلك القوّة المطلقة المستبدة. ومن حسن حظهم أن الأشخاص الذين يمكن أن يستمتعوا بهذا الاستثناء، والذين يمكنهم الإفلات من هذا النمط العام الذي سمته التواضع الذي يصل إلى التقشف، نفر قليل.

البحرين بنت البحر

يقول بالجريف إن الجزيرة التي يُطلق عليها اسم البحرين غالباً هي الجزيرة الجنوبية الأكبر مساحة والتي تضم العاصمة، أما الجزيرة الشمالية فتُعرف بالمحرّق. ويفصل بين الجزيرتين المذكورتين شريط بحري ضيق ضحل تماماً، ويقل اتساع هذه الذراع البحرية التي يخوضها المشاة وتعبرها الخيل في فترات الجزر عن الميل الواحد.

تقع مدينة المحرّق على الجانب الأيمن من الجزيرة التي تحمل اسمها، وتبدو كأنها شريط أبيض طويل يمتد على ساحل القناة التي تفصل بين مدينتي المحرّق والمنامة. أما المنامة فتشغل حيّزاً وسطاً على الحافة الشمالية للجزيرة الكبيرة، ما جعل هذين المرفأين يواجه أحدهما الآخر، كما هي حال دوفر وكاليه. ويعد بالجريف المحرّق أجمل من المنامة، فهي تعكس للعين بمنازلها البيضاء التي تبرز بين أكواخ النخيل داكنة اللون تهدي للعين جمالاً، وهنا تنتشر منازل آل خليفة التي شيّدت على النمط الهندي في ملبار وكاندي، إضافة إلى قلعتين أو ثلاث على مقربة من الساحل. أما المنامة التي هي أكثر اتساعاً من المحرّق فشكلها غير لافت للنظر، رغم أنها مركز التجارة ومقرّ الحكومة. وتفتقر هذه المدينة إلى المظاهر المعمارية والتحصينات، إلا ما كان من بناية كبيرة بيضاء مربعة في الطرف الغربي منها، نُصبت أمامها بعض المدافع في شكل بطارية، ما يدلّ على أنها مقرّ إقامة علي بن خليفة شقيق محمد الذي ينوب عن أخيه في حكم المنامة. يوحي المنظر العام للمنامة بالقذارة، لأن أكواخ البحارة والصيادين التي تفتقر إلى السمات الجمالية تشغل ثلاثة أرباع ساحلها الحصوي القذر. وتظهر في الناحية الجنوبية

والجنوبية الغربية حياة نباتية شديدة الاخضرار، ما يحدّث عن خصوبة التربة.

استقرّ بالجريف – كما يقول – في المنامة التي عاد ليصف أكواخها بالحقيرة، ولكنه أضاف أن للأثرياء من الأعيان والتجار والعاملين في الحكومة منازل فسيحة أنيقة بُنيت من الحجر والآجر على نمط المعمار الفارسي، يُظهر معمارها أقواساً قوطية وشرفات وأروقة ذات عمد ونوافذ شبكية ولكنها متهالكة، فنصفها أصبح آيلاً إلى السقوط والانهيار. أما السوق الذي يشغل قلب المدينة فهو عبارة عن أزقة تقوم عندها محال ضيقة متداخلة، وتحميها من وهج الشمس سقوف من القش. ويقع في منتصف هذه المتاهة عريش مربع هو المقهى الرئيس في المدينة التي يوجد فيها أيضاً ما لا يقل عن عشرين مقهى آخر عند الساحل القريب من السوق. وتوجد العديد من المساجد في هذه البلدة، أغلبها لأتباع المذهب الشيعي. أما القرى على أطراف المنامة فهي ليست سوى مجموعات من أكواخ من القش لكنها كثيفة السكان.

يقع خلف المنامة سهل ملحي التربة متسع كثير السبخات، تقع على أطرافه قلعة كبيرة مستديرة يبدو أنها كانت تستعمل قديماً معقلاً يقوم بالدفاع عن المدينة، ولكنها باتت خربة متشققة الجدران. ويروي السكان كثيراً من الأساطير عن هذه القلعة التي يقال إنها بنيت في فترة حكم القرامطة.

يستطرد بالجريف فيقول إن سكان المنامة خليط يجمع بين العرب والجيوجيراتيين، وينمّ مظهرهم عن البرود الطبيعي المميز "للمخلوقات البحرية التي تحدث سيماؤها عن الهدوء التام". فهم بين بين، ليسوا بالأصحاء ولا بالمرضى، وليسوا بالبيض ولا بالسود، ولا هم طوال القامة، كما لا تدلّ أطرافهم على القوّة، ولكنهم، بعد كل هذا، يمتازون كما يدل مظهرهم بالرشاقة وسرعة البديهة وحسن الطبع، يصلحون للقيام بالمهمات السلمية أكثر من العمل بالمهمات القتالية، ويناسبهم العمل بالتجارة أكثر من العمل بالفلاحة، والعمل في البحر أكثر من العمل في البر. ويلاحظ أن أهل السنّة في البحرين موالك، شأن أهل مصر وشمال أفريقيا، مع عدم وجود تداخل عرقي بينهم وبين أهل تونس، وهم في ذلك يختلفون عن محيطهم؛ فجيرانهم أهل شبه الجزيرة العربية حنابلة، وأهل البصرة وبغداد شافعية، والأفغان عبر الخليج أحناف: أما الشيعة الذين يمثلون أغلبية السكان فهم على المذهب الايراني. ويلاحظ أنه قصد أن يقول إنهم على المذهب الجعفري، كما نلاحظ أنه أخطأ حين أدخل مصر ضمن دائرة المذهب المالكي الأكثر انتشاراً في شمال أفريقيا وفي السودان، فالمذهب الشافعي هو الأكثر انتشاراً في مصر. ويستطرد بالجريف في الحديث عن السكان فيقول إن هناك شريحة معتبرة منهم كانوا غرباء وفدوا إلى الجزيرة سعياً وراء جني الأرباح التجارية، أو للعمل في صيد اللؤلؤ، تعرفهم بملابسهم التي تمثل الأزياء الوطنية للمناطق التي وفدوا منها. فهناك الثياب القصيرة ذات الألوان الزاهية التي تُلبس في جنوب إيران، وهناك الصديرية العمانية المزركشة باللون

الأصفر بدرجة تميل إلى البرتقالي، إضافة إلى الثوب النجدي الأبيض والزي البغدادي ذي الخطوط، إلى جانب لباس البحرين المميز الذي يتكوّن من مئزر ذي شراشيف حريرية وسروال شديد الشبه برداء الرهبان والعمامة ذات اللونين الأزرق والأحمر. وأشار بالجريف إلى وجود جماعة من الهنود قدموا إلى البحرين من مناطق مختلفة عملوا على الحفاظ على أزيائهم القومية ومارسوا سلوكياتهم و لم يخالطوا الآخرين، فهم لا يعيشون مع هذه الجماعة بل يعايشونهم.

يسرد بالجريف تاريخ البحرين وعلاقاتها بفارس، ويصل إلى حكم أسرة آل خليفة وعلاقاتهم بمسقط ونجد وتقلّبهم بين القوى الفارسية والتركية والوهابية، ودور الخلافات الأسرية في تلك التقلبات حتى يصل إلى هيمنة بريطانيا على الوضع السياسي في الجزيرة، ويرى أن تلك الهيمنة قد أضرّت، من دون قصد، بمصلحة السكان. أما النشاط الاقتصادي الذي يضطلع به أكثر من نصف أهل البحرين المتمثل في صيد اللؤلؤ، فإن أعداد العاملين في هذا المجال تفوق عدد اللآلئ المستخرجة.

يعمل في هذا المجال الغني والفقير، حيث تقوم الفئة الأولى بالتجارة في اللؤلؤ فيما تمتهن الثانية، بمن فيهم الرقيق، صيده. ويرى بالجريف أن البحرانيين لا يرتقون إلى مستوى العمانيين والهنود في الأعمال الحسابية وإدارة الأموال، ولكنهم يتمتعون بدربة كبيرة في إجادة الحِرف اليدوية من نسيج وحياكة ودباغة وصباغة، لا ينافسهم في الشرق فيها منافس. ويختم بالقول إن البحر هو الأم الحانية على البحرين، وإن أسماكه المتعددة الأشكال والألوان التي ربما لا يوجد لوفرتها في هذه المياه مثيل في العالم، تمثّل الغذاء الرئيس لأهل البحرين، وإن أسعارها لا تتجاوز واحداً على عشرين إذا قيست بأسعارها في سوريا على سواحل البحر المتوسط. ولعل وفرة الأسماك هي التي أدت إلى عدم اكتراث الأهلين بتربية الماشية. وينتقل بالجريف إلى الحديث عن الثروة الحيوانية في البحرين، فيذكر الإبل التي جلبت من الساحل العربي، وهي مخلوقات ضخمة جُبلت على العيش في بيئة جافة، فباتت في البحرين كئيبة المنظر غير سعيدة بجوّ البحرين الرطب وأرضها الرطبة كذلك. أما الثيران والأبقار فهي موجودة في البحرين ولكنها ضعيفة بادية الهزال، ولا يوجد إلا القليل من الضأن في البحرين. أما الزراعة فلا تظفر باهتمام كبير، فالأرض غير خصبة رغم أن رطوبة الجوّ - من جانب آخر - تساعد على نمو النبات. ويشير بالجريف إلى وجود ثمار حمضيات ذات حجم كبير، وبعض أنواع الخضر، ونخيل كثير في مناطق متعددة من الجزيرة، إلا أن تمورها رديئة جداً.

ينتقل بالجريف فيحدثنا عن نظام الحكم في البحرين، ويكيل لشيخها محمد بن خليفة العديد من الاتهامات، ثم يحدثنا عن ضعف أهالي البحرين الذين لم يقاوموا الطغيان إلا بالشكوى أو الهجرة من البحرين. ويرى هذا الرحالة في الآسيويين عموماً ضعفاً أورثهم الهوان على أيدي حكامهم، وهم في هذا المجال غير الأوروبيين المعتادين الهبّات الشعبية. ويخلص إلى

أن حكومات الشرق بيدها أن تجرح وبيدها أن تداوي، وبيدها أن تتولى الجرح والدواء معاً في آن واحد، وكل ذلك دونما اكتراث للفرد العادي من عامة مواطنيها. ويعود فيقول إن رواد المقاهي في البحرين يناقشون في كثير من الأحيان السياسات التي تنتهجها الرياض وطهران وإستانبول، ويتداولون في بعض أخبار العالم المعروف لديهم، كما يتناول أولئك الرواد موضوعات الأدب أحياناً، ويتحدثون في أخبار التجارة والمال والإبحار. ويروي بالجريف نقلاً عن صوفي تابع للطريقة القادرية قصيدة نسبها لأبي حامد الغزالي، يستنكر فيها فكرة الموت، فقد انفكت الروح عن الجسد وغادرته كالطائر الحبيس حين يهجر القفص، أو كاللؤلؤة التي خرجت عن محارتها وغادرت إلى مسكنها الأبدي حيث وجه الله، فالموت هو حياة الحيوات ينقل الإنسان إلى صرح الحب الحقيقي، حبّ الله. ويقرر بالجريف – تبعاً لما أورده – أن أفكار الغزالي معادية للإسلام. والجدير بالذكر أن المنصّر الأمريكي زويمر قال شيئاً من هذا القبيل في الإمام الغزالي أيضاً، وربما استوحى هذه الفكرة من بالجريف وعمل على توثيقها. ويقول بالجريف إن ذلك الصوفي الذي التقاه كان يكره الوهابيين الذين كانوا بدورهم يعدّونه مهرطقاً. وحين ودّع بالجريف ذلك الصوفي في ٦ شعبان ١٢٧٩/٢٦ يناير ١٨٦٣ في طريقه إلى قطر تمنى أن يقابله مرّة أخرى، فأجابه المتصوف بأنه يتطلع إلى لقائه في العالم الآخر، فالديمومة هناك أكبر. وبالطبع يمكن أن نلاحظ التجاوزات التي لا يقبلها المنطق في أحاديث هذا الرجل الذي حاك حول القصص الحقيقية غلالة وهمية من نسج الخيال.

قطر

مضى المركب الذي نقل بالجريف مع عدد آخر من المسافرين وقطيع من الأغنام في اتجاه قطر، وراح يشق عباب الماء مجتازاً ضحضاحات وحيوداً بحرية لا يمكن أن تستبان إلا بتغير لون صفحة الماء أو من خلال حركة الدوائر المائية المسترسلة. وحين أوشك الليل أن يرخي سدوله تبدّى لهم الركن الغربي من قطر، الذي يقول إنه يظهر في الخرائط تحت اسم البحران. ويستغرب بالجريف هذه التسمية التي لم يسمع بها أهل المنطقة. ويضيف مُفسّراً إن البحران صيغة الرفع في مثنى البحرين، فيما البحرين هي صيغة الإضافة أو المفعول به. ويخلص إلى أن الجغرافيين الأوروبيين ربما اختلط عليهم الأمر حين اعتمدوا لفظ البحران، وذلك لعدم تمكنهم من قواعد النحو في اللغة العربية.

يبدو ساحل قطر الصحراوي الخفيض مجدباً تماماً، لا تطالعك فيه إلا أبراج مراقبة صغيرة بين الفينة والأخرى، تماثل تلك التي تقوم على مناطق متعددة على الساحل السوري التي تعزوها المتواترات الشعبية إلى الإمبراطورة هيلانة، زوجة قسطنطين العظيم. وراع بالجريف في

هجعة الليل ارتطام قعر السفينة بصخرة مرجانية ما أيقظ الركاب من غفوتهم، فتعالى صراخهم وازداد توترهم في ردّ فعل لا يدرك كنهه إلا من خبر ركوب البحر، ولكنهم اجتازوا الخطر بما تهيّأ لهم من الحظ الطيب وليس بفضل جهود الملاحين. وفي الصباح التالي، بينما كان مركبهم يشقّ طريقه على مهل تحت رأس ركن، أقصى الرؤوس في الساحل الشمالي لقطر، واجهتهم ريح عاتية وتساقط عليهم رذاذ لم يكن لهم ما يتّقونه به. يقول بالجريف إن ارتفاع ذلك الرأس الصخري الذي يمتد لساناً غليظاً يتحدى الماء متوغلاً فيه يصل إلى ثلاثين أو أربعين قدماً، وقد استغرق المركب وقتاً طويلاً لاجتيازه. ويضيف أنه لاحظ وجود قلعة ضخمة فوق تلك الصخور المرتفعة، تقوم على قرية تقع على إحدى تلك الكتل الصخرية التي تسدّ المجرى. وتواصل بهم الإبحار في يوم ٢٨ يناير واستدار المركب، وهو يسابق العاصفة، مفارقاً راس ركن في اتجاه الجنوب صوب البدع، التي اجتاز إليها خمس أو ست قرى لصائدي الأسماك، تقف على ذلك الساحل المنحدر ذي الارتفاعات غير المتساوية.

وصل بالجريف إلى البدع مساءً، ففضّل أن يقضي الليل في المركب ويرسل مرافقه ابن خميس إلى الشيخ ليبلغه التحية، وليعدّ لهم مسكناً يأويان إليه في تلك المدينة. وعندما عاد ابن خميس صباحاً، نزل بالجريف معه وخاضا لجّة رملية إلى البدع، المدينة الرئيسة في قطر، التي عدّها بالجريف عاصمة بائسة لمقاطعة بائسة. ويُصوّر بالجريف قطر سلسلة من الكثبان الرملية الكئيبة الجرداء التي أحرقتها الشمس، فلا تكاد تجد فيها شجرة واحدة تكسر حدّة رتابة هذا المشهد الموحش. ويمتد وراء هذا المشهد ساحل طيني يمتد إلى مسافة ربع ميل في اتجاه البحر، تكوّنت حوافه من الوحل المختلط بالطحالب والنباتات البحرية، أما إذا نظرت في الاتجاه الآخر في ما وراء هذه التلال فيمكن أن ترى ما يمكن أن يُطلق عليه تجوزاً اسم المراعي. تتكوّن هذه المراعي من عدد من المنخفضات الجرداء التي يضمّ كل منها حوالى عشرين حصاة ونبتة من الحشيش.

تنتشر بنحو متقطع فوق هذه الأرض الكئيبة مجموعات صغيرة من الأكواخ الطينية المتناهية الكآبة إلى جانب أكواخ من سعف النخيل قبيحة ضيّقة خفيضة الارتفاع. ويعرف السكان المحليون هذه التجمعات بقرى قطر، أو في الحقيقة، بمدن قطر. وعلى الرغم من أن أرض قطر عارية تماماً ومجدبة بادية الفقر، هناك أرض في ما وراءها أشدّ قحطاً وأبلغ فقراً لا يحصد سكانها من مصادر الساحل شيئاً، فتراهم ينزعون إلى العنف للحصول على لقمة عيشهم. وتحسّباً لصدّ هذه الجماعات، نجد أن قرى قطر قد سُوّرت كل منها بعناية، كما عمرت المنخفضات التي تقع في ما وراء هذه القرى بالأبراج، فيما تطالعك بين الفينة والأخرى قلعة مربعة ضخمة تعكس بنوافذها الصغيرة ومداخلها الضيقة من القوّة التي تتضاءل إزاءها قوّة برج لندن في القرن التاسع عشر. لم تُبنَ هذه القلاع عبثاً ولا ترفاً، بل اقتضتها الضرورة، لأن

قطر تمتلك ثروة كبيرة لا بد لها أن تحميها من اللصوص. ولكن من أين تأتي الثروة وسط هذا الفقر المدقع الضارب أطنابه في كل مكان وممّا تتكون؟ فما أثبته من وصف - يقول بالجريف - لا يتعدى هذه الأكوام من القمامة والأكواخ الأكثر قذارة التي تطلّ من المرتفعات على هذا المنجم الثري الذي لا ينضب، ذلك المنجم المتمثل في البحر، ولا شيء سواه. فليس هنالك جار في قطر أكثر حنوّاً على سكانها من البحر الذي لا يقارن عطاؤه بنتاج أرضها الجرداء البخيلة. توجد في هذا الخليج أفضل مصائد اللؤلؤ الأغزر إنتاجاً في الخليج الفارسي كله، إضافة إلى وفرة تفوق التصور من العطاء الذي يفيض به هذا البحر عليهم. فعلى البحر، لا على البر، يعتمد أهل قطر في معاشهم. ويمكن القول إن الأهلين يسكنون البحر، يركبون مياهه نصف السنة عاملين في صيد اللؤلؤ، ويقضون نصف السنة الآخر بين أمواجه يصطادون الأسماك أو يبحرون فيه وراء التجارة. إن بيوت أهل قطر الحقيقية هي قواربهم التي لا حصر لها والتي تنتظم في هذا الساحل الهادئ، وتلك التي تقف مصطفّة على طول امتداده، ولذلك تراهم لا يأبهون لتزيين منازلهم التي تُشاد على الأرض، فهي لا تزيد - في أحسن الأحوال - عن كونها مقارّ تؤوي أطفالهم وزوجاتهم وصناديقهم المتينة التي تضمّ مدّخراتهم التي جمعوها. "إننا كلنا من أرفعنا عماداً إلى أدنانا منزلة عبيد لسيد واحد: اللؤلؤ". هذا ما حدثني به ذات ليلة محمد بن ثاني، شيخ البدع، وهو حديث صادق في مضمونه ومُعبّر عن الواقع. فكل فكرة تطرأ في هذه البلدة، وكل حديث فيها، وكل عمل لا بد أن يدور حول هذا الموضوع الفرد، وكل أمر آخر - في ما عداه - يُعدّ سانحة عابرة لا تسترعي أدنى اهتمام.

يعود بالجريف إلى ما ذكره عمّا يمكن أن يرتكبه اللصوص في قرى قطر من سلب ونهب، ويبرّئ أهل قطر من ممارسة السلوكيات الفظّة، فليس لديهم ما يخشاه بعضهم من البعض الآخر، فهم مشغولون جداً وغير ميّالين إلى الحرب، تراهم متوافقين في تناغم سلبي يغنيهم عن الآلية المعتادة للحكومة؛ فابن ثاني، حاكم البدع الذي جرى الاعتراف به حاكماً للمقاطعة كلها، لا يمارس من السلطة في القرى الأخرى خارج البدع إلا النزر اليسير. فكل فرد في أي قرية من تلك القرى يقوم بتسوية ما يخصّ شؤونه مع الشيخ المحلي. ويذكر بالجريف أن قطر كانت في هذا الوقت من ملحقات سلطان عمان. علينا أن نشير إلى هذا الخطأ الصريح الذي وقع فيه هذا الرحالة، ما يُقوّي شكوكنا في أنه لم يزر قطر، وأن من روى له ذلك لم يكن على إلمام بالحالة السياسية في المنطقة في تلك الفترة. ويضيف بالجريف أن أهل القرى المحيطة بالبدع ينظرون إلى ابن ثاني كجامع للضريبة السنوية المفروضة على صيد اللؤلؤ. ويعود بالجريف فيذكر أن لمحمد بن خليفة، حاكم البحرين، نوعاً من أنواع السيطرة أو السلطة الرئاسية على قطر، ولكن - في ما يبدو - فإن مظهرها الوحيد يتجلّى في أنه يختار بين الفينة والأخرى فتاة قطرية جميلة، فلنساء قطر نصيبهن من جمال العمانيات، وإن كان بدرجة أقل. يتفضل ابن خليفة

بأن يعقد على الفتاة لزواج قصير الأمد يمتد لفترة أسبوعين أو ربما لشهر على الأكثر قبل أن يفارقها ويمنحها معاشاً بعد ذلك. ويضيف بالجريف أن محمد بن خليفة تزوج من حورية من ضواحي الدوحة في الفترة التي كان فيها في قطر، ويقرر بالجريف أنه حين عاد بعد زيارته لعمان وجده قد طلّقها. وكان محمد قد دفع مهر تلك الفتاة علانية وأقيمت الاحتفالات بتلك المناسبة وسادتها أجواء من المرح. ويذهب بالجريف إلى أن القضاة يقولون بجواز هذا الزواج القصير الأمد الذي يعقبه الطلاق، ويصف الرحالة هذا العمل بالرذيلة التي أتلف بها محمد بن خليفة ثروة المنامة والمحرّق التي جُمعت بالكدّ والضنى.

يحدثنا بالجريف عن الزبارة التي هي أكبر مدن شبه الجزيرة القطرية، ويرى أنها المدينة الوحيدة ذات الأهمية الإقليمية. ويسكن الزبارة أحد شيوخ آل خليفة، إلا أن البلدة – في ما يقول هذا الرحالة – لا تدّعي أي تفوق أو امتياز بعينه على أي من المحليات الأخرى. ويسود أوساط أهل قطر كلهم السلام الذي يفتقرون إلي تحقيقه مع جيرانهم من بدو المناصير وآل مرّة. وتُعدّ المناصير قبيلة كبيرة، وهي قبيلة محبّة للحرب ترعى المنطقة من تخوم الأحساء إلى تخوم عمان الأصلية عند الشارقة. ويسبّب عدد من هذه القبائل المتبدية المعاناة التي تعيشها المناطق المأهولة، ويوجد عدد قليل منها، إذا صحت التقديرات – وقد أصاب ثروة طائلة من التعدي والسلب وسفك الدماء.

تمتلك هذه العشائر المتجوّلة قطعاناً من الإبل والأغنام تزداد بنحو كبير بما يسلبونه من أهل القرى. وعندما يواجهون خطر ملاحقتهم في الصحراء الجرداء التي تقع على مقربة من تلك القرى، فإنهم يتراجعون لاجئين إلى الشريط الضيق من تلك الأرض المرتفعة التي تقع بين التلال الساحلية والدهناء. وقد دعت الضرورة أهل القرى القطرية إلى إقامة العديد من الأبراج فوق المرتفعات ليلجأوا إليها عند الضرورة. وهذه الأبراج هي مبانٍ مستديرة صغيرة يتراوح ارتفاعها بين خمس وعشرين قدماً وثلاثين قدماً. ويفتح في منتصف ذلك الارتفاع باب صغير يتدلى منه حبل، وعندما يحسّ رعاة قطر بهجوم وشيك فإنهم يتسلّقون بواسطة هذا الحبل السلم إلى داخل البرج ويسحبون الحبل خلفهم، وبهذا يبلغون السلامة ويحافظون على حياتهم بغضّ النظر عمّا يحدث لماشيتهم، فمسألة تسلق حائط يبلغ ارتفاعه خمس عشرة قدماً مجازفة يعجز عن القيام بها أكثر البدو حصافة وتفوّقاً. ويمكن أن يقوم المناصير في بعض الأحيان بمهاجمة القرى الرئيسة في قطر التي لا يدّعى أهلها سمعة قتالية، ويعودون من هناك بسلب كثير من الماشية والخراف. ومن هنا ولدت فكرة إنشاء هذه المواقع الحصينة أو المعاقل التي تنتشر في داخل البلدة ذاتها، إضافة إلى الأسوار التي تحيط بتلك المدن.

حين ننحدر مع ساحل قطر في اتجاه الشرق نجد مستقرات بني ياس وهي قبيلة سيئة السمعة نصف بدوية ونصف متحضرة، وكلهم من القراصنة، وهم الذين أسبغت مراكبهم في سالف

الأزمان على ذلك الساحل اسمه الكريه: ساحل القراصنة. ويمكننا أن نعلّق على ذلك بأن بالجريف قد أخطأ حين نسب ما سمّاه القرصنة إلى بني ياس، فذلك الشرف في تعقب سفن الغزاة البريطانيين فاز به القواسم وإن شارك فيه بنو ياس - كما يحفظ التاريخ لهم - ربما بحملة واحدة فقط في فترة ما، إضافة إلى أن اسم ساحل القراصنة الذي ألصقه البريطانيون بذلك الساحل، والذي استبدلوه بعد حملة عام ١٨١٩-١٨٢٠م باسم ساحل الهدنة البحرية، كان ينتهي عند أبو ظبي التي لم تقم تلك الحملة فيها بعمليات قتالية. ويخطئ بالجريف مرّة أخرى حين يجعل بني ياس قبيلة من أصل واحد، ويُرجع أصولها إلى صور العمانية التي هي "مجرد تكتل أكواخ اجتمعت عند قلعة قديمة متهالكة غدت عريناً لهؤلاء اللصوص". ويستطرد بالجريف في حديثه عن بني ياس فيقول: بالرغم من أنهم عمانيون أقحاح، لا يسبغون على أنفسهم الهوية العمانية، ولكنهم يشاركون العمانيين كافة المشاعر السياسية والوطنية، "فهم ليسوا كارهين للمسلمين والوهابيين فقط، بل إنهم أعداء ألدّاء لهم وغزاة عُتاة كلما سنحت لهم فرصة!". ويستمر بالجريف بتقديم معلومات مشوّشة لا تمت إلى واقع القبيلة بصلة حين يجعل صلة بني ياس بالمسلمين - وهم منهم - صلة كراهية. ويستطرد بالجريف ليحدثنا عن علاقة بني ياس بالمناصير فيقول إن الأولى تتعاون مع الثانية في النهب والسلب، رغم أن بني ياس بعيدة بعداً بيّناً من المناصير أصلاً ومظهراً. فالمناصير، تبعاً للموروثات وحكماً بالبنية الجسدية ونظراً إلى اللهجة السائدة في أوساطهم، هم من فصيل من بني عبس التي منها عنترة بن شداد. وعلى ذلك فهم عنصر نجدي يرجع إلى قيس عيلان، فيما يعود بني ياس بأصولهم إلى مذحج القحطانية الذين رحلوا من حضرموت شمالاً كما تقول الروايات. وفي تعليقه على التعاون بين القبيلتين يقول إن الثراء مثله مثل الفقر، يمكن أن يُؤلف بين غريبين في مضجع واحد. ويشير بالجريف إلى أن أحمد السديري، المقيم السعودي في البريمي، أخا عبد المحسن الذي استضافه - كما يقول - في المجمعة، كسر شوكة هاتين القبيلتين "فيما بهت - من ناحية أخرى - لون العلم العماني الأحمر الذي كان يرفعه القراصنة، واصفرّ لونه مقابل علم صليب سان جورج الأكثر توهجاً باحمراره، وبات الغاصة والسمّاكون لا يخشون معه ضيراً في هذه الرقعة من الخليج الفارسي في الوقت الراهن".

أما آل مرّة، القبيلة الكبيرة الثالثة - في ما يقول بالجريف - فهي التي تعمر قلب الدهناء، وهم الأكثرون عدداً والأوسع انتشاراً، ولكن "لحسن الحظ" هم أقل مشاكسة من المناصير. ويضيف أن بدو بني مرّة يزورون قطر وعمان للمسابلة أحياناً وللنهب والسلب أحياناً أخرى، وأردف أنهم لا يعترفون للوهابيين بسيادة عليهم، وهم في تفرّق وعدم انضباط، تجد طائفة منهم توالي سلطان عمان، وترتبط طوائف أخرى منهم في الأمر والنهي برؤسائها المحليين لا تلتفت إلى سواهم.

ينتقل بالجريف ليحدثنا عن جوّ قطر الذي يعده جافاً بنحو عام، فالرطوبة التي يرسلها البحر سرعان ما تختفي على بعد أميال قليلة من الساحل تحت أنفاس هواء الصحراء الجافة الذي يقضي على أي أثر للرطوبة. أما الأرض فهي فقيرة جافة تكوّنت من الحصباء والحجر الجيري المختلط بالرمل، أما العيون التي تنتشر هنا وهناك، والتي يجري حفرها بمشقّة كبيرة عبر قشرة طبقات الأرض العليا الصلدة فهي التي تزوّد المنطقة بمياهها. و لم يلاحظ بالجريف وجود مزارع للقمح في قطر أو نجوع تعمر بالنخيل، فكل ما هناك حدائق صغيرة المساحة غير منتجة. ويعود بالجريف ليذكر أن هواء قطر – في ما قيل – غير نقي، فقد لوّثه التعفن الذي تنشره البرك الراكدة المليئة بماء البحر الراقدة عند الساحل.

يقول بالجريف إنهم ما إن نزلوا في قطر حتى ذهبوا مباشرة إلى قلعة الشيخ التي هي إلى البرج أو الحصن أقرب منها إلى القلعة. يحيط بأسفل القلعة عدد من البيوت. وعندما دلف بالجريف إلى القلعة التي قال إن فيها من السلع أكثر مما فيها من الرجال، أبصر الشيخ محمد بن ثاني، وهو شيخ مسن، بدين نسبياً، حذر ذو دهاء، يجلس في فناء القلعة فوق حصير من السعف المجدول. ويستطرد بالجريف ليقول إن هذا الشيخ مشهود له بالحكمة والسماحة وحسن الخلق، وبالبساطة التي تدلّ على خفّة الظلّ. ولكن من المعروف عنه أيضاً حرصه، فهو مساوم لا يُنال منه. ويحدث الجوّ المحيط بهذا الشيخ بأنه تاجر لؤلؤ مثابر نهم، "وهو في الحقيقة كذلك أكثر من كونه حاكماً عربياً". التفّ حول الشيخ عدد من الأفراد الشاحبي الوجوه، وقد تغضّنت جلودهم من أثر الغطس المتواصل في الماء، وتجعّدت وجوههم من أثر ما يقومون به من تقديرات وعمليات حسابية. وينعت بالجريف ابن ثاني بالرجل العملي، ويرى أنه استثمر مجلسه للوصول إلى مهارات ذهنية وفكرية، بعد أن جعل من نفسه بدراساته خبيراً يُشار إليه في مجالات الشعر والأدب. فهو يستمتع كثيراً بإثارة مفردات من هذه الفنون في مجلسه، كما يستمتع أيضاً بالنكتة يرويها ويستمع إليها من دون حرج. ويتظاهر الشيخ بقدر من المعرفة الطبية التي يشهد بالجريف له بشيء منها.

استفسر ابن ثاني ضيفه عن السبب الذي حمله على زيارة قطر، فأجاب بأنه مجرد عابر سبيل مرّ بقطر في طريقه إلى مسقط جرياً وراء الحصول على أعشاب وعقاقير طبية. وكان ابن خميس، مرافق بالجريف، يجلس مزهوّاً بقرب الشيخ، بعد أن تحول إلى شخصية مرموقة بفعل الهدايا التي حملها له – متدثراً عباءته الجديدة السوداء اللون و"غترة" حريرية كان قد أهداهما إليه أبو عيسى. أما ابن ثاني فكان غير آبه لمظهره، زاهداً في ملبسه. واعتذر ابن ثاني عن استضافة بالجريف في "القصر" لضيق المكان، واقتنع بالجريف بالاعتذار حينما ألقى نظرة على ردهات القصر الضيقة. وقام الشيخ بإخلاء مخزن من المخازن القريبة من

ذلك المكان من محتوياته وأعدّه بالأسلوب القطري لاستقبال الضيوف، أي إنه فرش فوق أرضه حصيراً و لم يزد على ذلك. وبعد أن تناول الضيف القهوة وخاض مع مضيفه في حديث لبعض الوقت، شكر لمضيفه كرمه الذي اعتبره "وافياً بكل المقاييس المتبعة" ثم خلد إلى النوم.

قدّم ابن خميس الهدية التي حملها للشيخ، وظلّ بالجريف ضيفاً في قطر وهو يترقب الهدية التي يمكن أن تقدم له ردّاً على هديته. و لم تصل هدية الشيخ إلى الرحالة إلا بعد ثمانية أيام، فيما كان بالجريف يرى أن إقامته في قطر ما كان ينبغي لها أن تستغرق أكثر من أربعة أيام لمعرفة ما يريد معرفته في هذا البلد "الممل"، خاصة مع ظروف السكنى غير المريحة. ويدّعي بالجريف أنه استثمر فترة وجوده – التي امتدت رجاء الحصول على هدية بديلة لما قدّمه خميس – في استكشاف المنطقة. كتب بالجريف عن سوق البدع الذي يمتد في حيّز طويل ضيق قذر. يعمل في السوق بعض التجار وبعض الحرفيين البحرانيين الذين يجرون أنشطتهم الاقتصادية على نحو ضئيل. وتتكون البدع من مجموعة متراصّة من المنازل الضيقة الحقيرة التي يفصل بعضها عن بعض أزقة ضيقة غير منتظمة. ويقدر بالجريف عدد نفوس أهل البدع حينما لا يكونون في البحر، الأمر النادر الحدوث، بنحو ستة آلاف، كما يفد إلى البدع بعض أهل الأحساء لتجربة حظوظهم في هذا البلد، ولكنهم يبدون غير سعيدين بإقامتهم فيه. ويسترسل بالجريف فيقول إن المرء يرى – حيثما ألقى بصره – زوجات صائدي الأسماك هنّ وأطفالهن الأكثر قذارة والأكثر صخباً من أهل ضاحية جراب (في إنجلترا). ويقع البصر أيضاً على الرجال غير المهندمين الحريصين على أن يكونوا اجتماعيين وهم في أطمارهم البالية. أما إذا اتجهت صوب الساحل، فيمكن أن ترى صفوفاً تليها أخرى من القوارب السوداء الكبيرة ذات الحزوز في جنباتها التي أحدثتها الحبال التي كانت تُربط إلى خصور الغواصين، فيما تنتهي أطرافها الأخرى إلى أيدي زملاء الغواص الذين يسحبونه بها خارج الماء. ويعتقد بالجريف أنه قدّم صورة واضحة لما لا يمكنه أن يبهج العين ولا يعجب ما يمكن أن يشمّه الأنف في البدع التي هي ميناء، شأنها في هذا الصدد شأن أغلب الموانئ الأخرى. ومع ذلك لا ترى السكان إلا قانعين بطبعهم، فهم كرماء بالسليقة، ولكنهم مشغولون بأعمالهم أكثر مما ينبغي، يضاف إلى ذلك أن طول فترات الغوص وما يلقاه الرجال فيها من مشاقّ على مدى أسابيع وشهور يقضونها على متون القوارب المكشوفة يظهرهم بمظهر المدحورين تماماً.

لم تكن البدع تعرف مسجداً ولا مكاناً آخر يجتمع فيه الناس لأداء الشعائر، وتمنى بالجريف لو أن كل فرد من أهل البدع كان يعمل على إشباع واجباته الروحية على انفراد، "ولكن منذ الغزو النجدي واستقرار أحمد السديري في البريمي انتظمت في البدع صحوة إسلامية عمّت بعض نواحي قطر". وازدانت البدع بمسجدين أحدهما فسيح متسع ولكنه غير مزيّن،

ما يوافق "هوى الوهابيين"، فيما يقف المسجد الآخر الأصغر والأكثر أناقة في الطرف المقابل من المدينة، ويزدان هذا المسجد الأخير ببهو مقوّس شُيّد على الطراز الفارسي. ويقوم محمد بن ثاني في أغلب الأوقات إماماً في المسجد الكبير، وهو رجل تقي جداً ولكني "لا أعرف إن كان ذلك لدوافع سياسية أو عن اقتناع ذاتي أو خليطاً بين هذا وذاك"، فالبلدة تفتقر إلى وجود من يتّسم بالحكمة لعدم توافر الفقهاء فيها. أما المسجد الصغير فيؤمّ المصلّين فيه قاسم، ابنه الأكبر ووريثه الذي هو "أكثر تهوّراً من أبيه، ولكنه يماثله تماماً في حرصه". وتقع قلعة قاسم أو مسكنه – الذي هو عبارة عن مبنى مربع أبيض اللون ذي شرفات قليلة ونوافذ مدببة على نمط النوافذ القوطية – في النهاية الجنوبية القصوى من البدع، وتبدو خلف قلعته صخور قليلة الارتفاع تغطيها مياه الخليج.

يشكو بالجريف من أنه سئم شراب القهوة الرديئة المذاق في البدع، فمن اعتاد مذاق بُنّ المخا لا يستسيغ مذاق بُنّ الهند الذي لا مذاق له والذي يُقدّم في البدع، كما يدّعي أنه سئم أيضاً سماع الروايات التي تؤلف أو تروى في ديوان ابن ثاني، وأرهقه استنشاق الهواء الفاسد المنبعث من طين الساحل القذر. ونتيجة لذلك قرر بالجريف أن يغادر البدع لفترات يقوم فيها بزيارات قصيرة إلى المناطق المجاورة لها. بدأ بزيارة الدوحة " تلك القرية التي تقع إلى الشمال من البدع والتي تبلغ مساحتها نصف مساحة البدع تقريباً. وتقع الدوحة، كما يدل اسمها، على خليج صغير أو على خور في خليج صغير بعيد الغور. ويتراوح ارتفاع الصخور التي تقوم خلفها وتسبغ عليها منظراً جذاباً ما بين ستين إلى ثمانين قدماً. وبيوت الدوحة حقيرة وأقل ارتفاعاً من بيوت البدع، أما سوقها فأكثر ضيقاً من سوق البدع وأكثر قذارة منه".

يلاحظ بالجريف وجود قلعتين تتبادلان حراسة المكان، تقوم إحداهما على الصخرة التي تقف في مجاورة المدينة، أما الأخرى فقد شيّدت داخل المدينة ذاتها. ويُعد رئيس البلدة جابي أموال لابن ثاني.

خصّ بالجريف الوكرة بزيارته الثانية لمدن قطر، ووصف البلدة بأنها تساوي البدع في امتدادها، ولكنها تقع على أرض أكثر ارتفاعاً فوق مستوى الساحل، وأضاف أنها تعكس طبيعة أكثر بهجة من البدع. وينعت بالجريف شيخها محمد، الصغير السن، بالرجل الذكي المهذب الأوفر كرماً من سميّه في البدع. ويضيف أن حاكم الوكرة ليس من أسرة آل ثاني، وهو مستقل بحكومته وشرطته عن مدن قطر الأخرى. وقد وفد العديد من تجار البحرين وحرفييها الذين ظفروا برعاية هذا الحاكم للعمل في هذا البلد الذي يبدو واعداً بالثراء والازدهار.

يصف بالجريف الطريق الذي يربط البدع بالوكرة، والذي يسير بمحاذاة الساحل لحوالى عشرة أميال، بالكئيب المجدب. وقد قطع الرحالة هذه المسافة على ظهر حمار مستأجر، فالحمير هنا هي وسيلة التنقل الرئيسة للمسافات القصيرة. ويستطرد فيقول إن حماره زُوّد

بسرج جانبي ما جعله شبيهاً "بالجنتلمان أو على أقل تقدير مثل السيدة"، فيما كان ثوبه العربي الجرار يوحي بأنه كان يألف مثل هذا الركوب. ولم يكن مع الرحالة في رحلته إلى الوكرة رفيق درب من المواطنين، فالطريق الساحلية آمنة مأهولة بالغادين والرائحين في هذه البلدة التي تعلو فيها أنشطة العمل فتنفي مستوجبات الشرّ.

ذهب بالجريف مع مرافقه ابن خميس "الذي يعلو حسّ الربح لديه على حسّ المتعة" إلى لقاء جاسم بن محمد آل ثاني، وهو يحمل بناءً على اقتراح من مرافقه زنابيل من التمر هدية لذلك "النبيل". وكان جاسم يُخيّم على مسافة تتراوح بين اثني عشر إلى أربعة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي من البدع في رحلة صيد بالصقور. وركب الرجلان بعيرين قطعا بهما أرضاً صحراوية مرتفعة وعبرا بهما طرقاً حصوية. وصادف ركبهما جماعات من النساء وهنّ يجلبن الماء من الآبار التي تقع على مسافات بعيدة، وقطعاناً من الخراف أو ربما من الماعز، حيث اختلطت على بالجريف السلالة – فالنسل لهذه الحيوانات هنا غامض غير مألوف. كانت تلك السوائم ترعى في حراسة قوية من عدد من الرعاة. وظلّ ركبهما الذي واجهته ريح قوية هبّت من اتجاه الشمال يلتقي بين الفينة والأخرى بمسافر يحمل حربته على كتفه يتقي بها مخاطر البدو الذين يسكنون الحدود. ويلاحظ بالجريف خلوّ المنطقة من أي غطاء نباتي، باستثناء بعض الأعشاب التي تنمو متفرقة هنا وهناك. وأخيراً وصل الرجلان إلى مخيم الشيخ قاسم المقام في وادٍ معشوشب، وسط أمواج من الرمال تكوّن كثباناً متتابعة في تيه خلاء لا تكاد تسمع فيه غير عواء الريح. أقام الشيخ الصغير في هذا المخيم الذي رحل إليه مع مجموعة من رجاله لقنص الحبارى و"السمان"، ولكنهم لم يظفروا من صيدهم لهذه الطيور إلا بالقليل، كما كانوا يصطادون أيضاً نوعاً من الأرانب البرية، أو طرائد شبيهة بها تشابه الأرنب البري المهجّن بالأرنب المنزلي. ويلاحظ بالجريف وجود هذه السلالة بأعداد وافرة داخل شبه الجزيرة العربية.

كان برفقة جاسم نحو عشرين خيّالاً وصقّاراً لديهم حوالى ستة صقور وكلبان سلوقيان، وكانت تلك وسائل صيد كافية، ولم تكن لديهم أي بندقية. قضى بالجريف وصاحبه خميس "في رفقة سموّه" نصف يوم استمتعا فيه بأكل خبز عربي زاده لحم الصيد متعة. وأحال بالجريف القارئ الغربي إلى كتاب يراه وافياً بإعطاء فكرة عن هواية القنص في الشرق. وقابل بالجريف في مخيم قاسم بدويّين، منصوري ومرّي، عرف منهما أنهما اجتازا الصحراء الكبرى (الربع الخالي) إلى اليمن، ما أورثهما، حتى في أوساط قومهما، السمعة بأنهما أسدان. وقد ادعى الرجلان أنهما لم يخطّطا للقيام بتلك الرحلة، فقد كانا يقصدان الأحقاف التي تتكوّن أرضها من سلسلة من التلال الجيرية التي تتخلّلها أودية معشوشبة، وتقع إلى جنوب اليمامة – وهي المعروفة في الخرائط باسم وادي يبرين – لتسوية بعض شؤون القبيلة في ما يخصّ مسائل تتعلق

بالإبل، ولكنهما ضلّا الطريق، فقد توغّلا إلى الجنوب كثيراً. وراح الرجلان يتنقلان من كثيب إلى آخر، ومن واد إلى آخر، يسوقهما حظهما الحسن إلى موقع بئر مرّة المياه يملآن منها القرب، ويعثران أحياناً على شجرة نخيل قزمية فتمدهما بشيء لم يكن يستعصي تماماً على الأكل. وظلّا على تلك الحال حوالى شهرين، بتقدير حسابهما، وعيونهما معلّقة أبداً باتجاه الجنوب حتى بلغا مأرب على حدود اليمن. وسلك الرجلان في طريق العودة إلى قطر سبلاً أخرى أوفر أمناً ولكنها أطول مسافة. فقد انطلقا عبر أراضي حضرموت الآهلة بالسكان نسبياً، متخذين طريق الساحل حتى انتهيا إلى عمان. ويعرض بالجريف معلومات تاريخية قرأها عن حمير وعلاقة اليمن بالساحل الأفريقي وبفارس، وادّعاء الفرس أن الإسكندر المقدوني من سلالة ملوكهم. وينتهي بالجريف إلى أنه رفض الدعوة التي قدمها إليه ذلك المنصوري بأن يصحبه في رحلة إلى ظفار فحضرموت، معتذراً بما وجده من الرهق الذي لقيه في الصحراء حين اجتاز الدهناء والنفود. ويرى بالجريف أنه يمكن أن يفكر "مستقبلاً" في مثل هذه الرحلة، فهي رغم ما تنطوي عليه من متاعب وأخطار، ليست مستحيلة، وقد تقود إلى اكتشافات مهمة.

قدّم خميس زنابيل التمر إلى جاسم و لم يتلقّ الرحالة منه نظير ذلك إلا بعض كلمات طيبة، و لم يظفر فوق ذلك إلا بالنزر اليسير. ويبدو أن بالجريف حنق على الشيخ قاسم فوصفه بأنه " أقلّ وداعة من أبيه، فهو ضيق الأفق وأقل علماً من ذلك الرجل العجوز. ومع ذلك فهو نزق معجب تيّاه بنفسه، يؤثر الزي النجدي والسلوك النجدي، ولكنه في حبه للمال يُكنّ له ولاءً أكثر مما يُكنّه لأحكام القرآن الكريم. أما رفاقه فهم شأنهم شأن من يتمسك بالعدالة الضحلة، فيوافقون مزاج سيدهم، ما يجعل مجتمعه جافاً بلا فائدة ولا معنى".

ومن جانبنا نرى أن الرجل – إذا كان قد صدق فعلاً في أنه قد قام بالرحلة إلى قطر – فقد كذب في نعوته التي رمى بها هذا الشيخ. فالثابت من دراستنا لسيرة هذا الشيخ أن كرمه كان لا يُجارى، أما أحكام القرآن فهي، كما تدل شواهد ورعة وتقواه وسلامة دينه فقد كانت أعزّ عليه من النفس والمال والولد، ولكن بالجريف حين لم يظفر منه بشيء مادي ولا بما يوافق مظاهر الهيبة التي يألفها الغربيون عادة من العديد من شيوخ الشرق وحكامه، انصرف إلى السباب والطعن في عقيدة هذا الشيخ السليمة التي تؤيدها شواهد تاريخية عدّة لا سبيل له للطعن فيها.

عاد بالجريف ورفيقه في صبيحة اليوم التالي إلى البدع من الطريق الذي سلكاه في ذهابهما ليأكلا مع الشيخ محمد بن ثاني "السمك ويشربا القهوة الرديئة" ليومين آخرين في انتظار رياح مواتية تمكنهما من القيام برحلتهما إلى عمان عبر الخليج. فالرحلة برّاً قد تستغرق أسبوعين على الأقل أو ربما أكثر من ذلك، إضافة إلى أن الأخبار الرائجة في قطر عن "جشع بني ياس وخيانتهم وخصالهم السيئة الأخرى وما يقومون به من سلب ونهب، لم تترك لنا فرصة لنحاول اختبار كرمهم، خاصة ونحن نحمل معنا الهدايا التي تخصّ يوسف وهدايا أخرى".

ويرى بالجريف أن القيام بهذه الرحلة البرية لن يفيدهم في شيء يمكنه أن يعادل الجهد المبذول عبر هذه المهامه التي تصل رمالها إلى حافة الساحل. واستصوب بالجريف عدم المغامرة والقيام بالسفر برّاً، وقرر أن يأخذ الطريق البحري الذي "ينثني في شبه دائرة ليأخذهم إلى الشارقة أول مدينة ذات اعتبار في عمان الأصلية". وفي مساء يوم ٦ فبراير الذي بشّر بغد واعد ورياح غربية خفيفة تبدو كأنها ستسوق مركبهم بنحو جيد وسريع إلى الشارقة، استأذن بالجريف الشيخ محمد بن ثاني في الرحيل، وودّع بعض معارفه في البدع، وانطلق في رحلة من قطر إلى الشارقة عبر الساحل الفارسي.

الساحل العماني

في يوم ٢٧ شعبان ١٢٧٩هـ/١٦ فبراير ١٨٦٣م تبدّى لنا الساحل العماني الواقع بين أبو ظبي ودبي، "وهو ساحل طويل رملي منخفض ترصّعه هنا وهناك أشجار النخيل وتتشتت فيه القرى. تقع الشارقة في هذا الساحل في ما وراء الخور. ويلاحظ بالجريف أن هناك من يسيء نطق الاسم: الشارقة، فيبدِّل القاف جيماً فيقول: الشارجة. يحيط بالمدينة من جانب البرّ سور مهترئ، أما من ناحية البحر فهي مفتوحة تماماً... تقف عند حاجز الميناء قلعة متماسكة اتخذ خالد (حاكم الشارقة) مسكنه فيها.

تضم المدينة القديمة أو ما يمكن أن يطلق عليه وسط المدينة بيوتاً بُني أكثرها بالطوب والحجارة، بينما تقوم على الساحل بصفة خاصة صفوف مترامية من أكواخ الخشب والسعف يسكنها صيادو الأسماك والبحارة ومن لفّ لفّهم. وتشغل هذه الأكواخ حين تضم إليها المدينة ذاتها ما يساوي مدينة لنجه مرّة وثلثاً. وفي ما يبدو فإن العدد الكلي للسكان يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف نسمة.

دلف المركب ببالجريف ورفاقه عبر حاجز الميناء إلى الخور، فاستقبلتهم مجموعة من معارف عباس (أحد رفاق رحلة بالجريف) في قارب صغير. "وكنا قد أبصرناهم قادمين تجاهنا فلوّحنا لهم من على متن السفينة بالتحية، ورأينا في هذه الأثناء يختاً إنجليزي الصنع ينزلق بسرعة فوق المياه بقرب مركبنا، يتهادى راقصاً عبر الكواسر عند مدخل الميناء إلى الشمال. ورمقنا على اليخت شخصاً سميناً يرتدي زي أهل بغداد، ويعلو وجهه خط يمر ليصل قريباً إلى تحت حاجبيه. وأدركت أن هذا الرجل ينحدر من الجنس الأرمني الذي أعرف سماته تماماً. فاستفسرت عن هذه الشخصية التي لا تشابه أي شيء من حولها فقيل لي: إنه يعقوب الوكيل البريطاني في الشارقة، المعين للعمل على حظر تجارة الرقيق، وإنه ربما كان الآن في طريقه لزيارة إحدى زوجاته العديدات، تقطن قرية المفرز الساحلية التي على بعد أميال قليلة من هذه المدينة.

ويستمتع يعقوب بدفء منزلي جمّ متنوع، فإحدى زوجاته تسكن الشارقة والأخرى المفرز، وله – إذا شاء – أن يختار زوجة أخرى في أي مكان. وخطر في بالي في هذه اللحظة سؤال: ألا يمكن لأهل بلدي أن يجدوا مصارف لأموالهم تعود عليهم بفائدة أجدى من أن يبطنوا بها جيوب هذا السيد. وعموماً فقد سعدت كثيراً للحظ الطيّب الذي حمل يعقوب بعيداً عن الشارقة في اللحظة ذاتها التي كنت أدخل فيها تلك البلدة، فعين فاحصة كعين يعقوب لن تفشل إلا بالكاد في فضح أمري في يوم أو اثنين على الأكثر من وصولي، فيما كنت أرغب في أن أعيش هنا باسمي المستعار بحرية كاملة. ولا تعود خشيتي من أن يُفتضح أمري ويعرف أهل عمان حقيقتي لخوفي من أن أقابل أي صعاب عصيبة، ولكن ذلك كان كافياً ليسلبني حرية التواصل ويقيد حرية الحركة التي أتمتع بها حالياً."

يستطرد بالجريف فيقول إنه سمع الكثير عن يعقوب الذي شغلته – لحسن الحظ – أعباؤه العائلية، واستبقته في المفرز حتى غادر الشارقة. "لقد بتّ على اقتناع تام لا يداخله شك بأن الرجل أرمني من أصل نصراني، رغم أنه هنا يُعدّ مسلماً. وقد برهن الرجل من جانبه على إسلامه بممارسته تعدد الزوجات، رغم أن وجهه واسمه وسلوكه كلها إشارات تدل على هويته الأرمنية وعلى نصرانيته. ولقد نما إلى علمي أنه مولود في البصرة، وأن وظيفته الرئيسة هي حظر استيراد الرقيق وبيعه. ومع ذلك نجد أن يعقوب، وقد امتلأ جيبه بالعملة الإنجليزية التي يجودون بها عليه لتنفيذ هذه الأهداف الخيرية، يرى – لأسباب عديدة – أن يظلّ صديقاً لجميع الأطراف. يقول يعقوب للمتعاملين في الرقيق بعبارات لا يشوبها الغموض "بالعربي الفصيح": عليه أن يتدخل ضدهم إن هم مارسوا بيع وشراء الرقيق في السوق العام، وإلا فإن الذين يستخدمونه لحظر هذه التجارة سيتدخلون ضده. أما إذا مارس النخّاسون أنشطتهم في أمكنة أخرى بعيدة عن المراقبة، في المنازل على سبيل المثال، فإنه لن يكون من واجبه أن يراقبهم، وعليهم أن يعتمدوا على أنه لا يعرف شيئاً مما يجري، وألا يخشوا تدخلاً من جانبه أبداً. وبالطبع فإن سلوكه هذا يستوجب منهم العرفان ويتطلب التعبير المناسب عن الشكر الذي يؤكد بنحو مضاعف عدم تدخل يعقوب، ويعود عليه بكسب مزدوج، وتروّج بالتالي بنحو مستمر أنشطة النخاسين، وتعود عليهم بالربح رغم هذا التمثيل المزيف لبريطانيا. وتقديراً مني لهذا الدور الذي تقوم به بريطانيا، فإني أقترح أن تنفض يدها عنه تماماً، أو أن تتبنى طريقة ناجعة لتحقيق أهدافها. إنني أدرك أن هذه السطور لن تؤثر في يعقوب أدنى تأثير، فهو ليس المقصود بشخصه، ولكني أقولها: إن يعقوب ما هو إلا رمز لشركة كبيرة ليعقوبين كُثر ربما بلغ عددهم خمسمئة أو خمسة آلاف اجتمعوا في الشرق حول العلم البريطاني، يجنون حصاده الذهبي ثم يهزأون من تلك الشجرة التي تعود عليهم بهذا الحصاد."

يقول بالجريف: إنه حين يتدبر الوضع البريطاني في الخليج، بعد أن أخمدت بريطانيا

"القرصنة" فيه، يرى أنه قد أصبحت في هذه المنطقة مهابة ومحترمة، ليس نتيجة لسلطتها المهيمنة فقط بل للتقدير الذي وجدته في هذا الصدد أيضاً، ويضيف أنه يرى أن عدداً من البوارج الحربية قد يحقق بالرصاص ما يعجز ستون يعقوباً مجتمعين عن تحقيقه في ما يخصّ تجارة الرقيق، وأن دويّ الطلقات يحقق هذا الهدف بنحو أفضل من بريق الجنيهات. ويستطرد بالجريف فيقول: " .. وبينما كانت هذه الخواطر تعتمل في ذهني، خرج مركب يعقوب من الخور تماماً ووصل مركبنا إلى مرساه... ولقد أصبحنا الآن في عمان الحقيقية أول مرّة، تماماً مثل حال المرء وهو يدخل حدود القصيم، ليجد نفسه وقد دلف إلى إقليم نجد تحديداً... وما إن وطئت قدماي الساحل حتى طاف بخاطري طيف الهند، وتملّكتني ذكراها إلى حد بعيد. فهناك الكثير من أوجه التشابه في العديد من النواحي؛ فالطقس هنا لطيف لا يعرف هواءً مثل هواء نجد النشيط الذي يهبّ في مناطق طويق وجبل شمّر، كما أنه يختلف أيضاً عن جو الأحساء والقطيف الثقيل (المشبع بالرطوبة؟). أما نمط بناء المساكن فهو شديد الشبه بنمط منازل بارودا أو كامبي...".

يتكوّن زي أهل الشارقة من خرقة بيضاء بكاملها أو ملونة الطرف يلفّونها حول أصلابهم وتتدلى إلى أقدامهم، أما رؤوسهم فيلفّونها بعمائم بيض أو قد يربطونها بمنديل هندي مطرز... الأهلون في الشارقة من ذوي البشرة الداكنة والأجسام النحيلة يمشون في خطوات هادئة انسيابية ولكنها أقل سرعة، وتعبر عن تواضع لا تعرفه خُطى بني طي أو بني تميم... كل هذه المظاهر – إضافة إلى ما يمكن أن تبوح لك به مظاهر الطبيعة وتوحي لك به الفنون التي قد تكون في ذاتها دقيقة جداً تستعصي على الوصف – تشير إلى جويجرات (كوجرات) أو إلى الدخلاء أكثر مما تشير إلى شبه الجزيرة العربية.

يقع منزل مضيفهم عباس – تاجر الأغنام – في قلب تيه من الأزقة والمسالك الفرعية. وعلى رغم أنه ضمن دائرة المدينة، فقد شيّد من الأخشاب والسعف. ويرى بالجريف أن البيت من الداخل جيد الأثاث، ويُشعر المرء بالبهجة، أما الكرم الوفير الذي حظي به فقد غطى على أي قصور – في ما يقول – يمكن أن يستشعره المرء. ويعتقد أنه لو قيّض لنيبور أن يستمتع بما استمتع به من كرم لما وصم الإباضية بالزهد والتقشف والامتناع عن التدخين وتناول القهوة. فقد ظلّت أقداح الشاي والقهوة تدار عليهم تباعاً بتواتر، في الأيام الثلاثة التي قضوها في الشارقة. ولن تصادف هنا لفظ "سمّ" ذلك اللفظ الوهابي الذي يدل على التقوى تعبيراً عن "قل: بسم الله"، وهو اللفظ المصاحب لتقديم القهوة عند النجديين، بل تسمع عوضاً عن ذلك لفظ "دوك، أو دووك"، وهذا اللفظ العادي المبتذل هو اختراع للفظ "دونك، أو في خدمتك". أما حين يطرق أحدهم الباب فيقولون له "هود"، والكلمة مقابلة للفظ ادخل، "غير أني أجهل تماماً اللفظ الذي اشتُقّت منه هذه الكلمة".

ويستطرد بالجريف فيقول:

> ... ربما كان خالد بن صقر - الحاكم الحالي للشارقة - يعتنق العقيدة الأصولية الكاثوليكية (يقصد الفكر الوهابي). فقد بنى في الشارقة على مشارف سوقها مسجداً كبيراً ولكنه غير متماسك البناء. وعلى الرغم من إدراكي أن هذا البناء قد شيد لممارسة العبادات إلا أن الهدوء الذي ران على باحته المهجورة لا يقطعه في مواقيت الصلاة وقع أقدام غادية أو رائحة. وكم من مرّة طرقت أبواب هذا المسجد في الوقت الذي كان الإمام يرفع فيه الأذان وذلك كي أحصي أعداد من يؤمه، ولكني كنت أهرول في كل مرّة مسرعاً إلى الخارج حتى لا أقوم بتلك المهمة المزدوجة، مهمة الإمامة وأداء الصلاة. والسبب في ذلك واضح، فخالد وعشيرته من القواسم بغيضون في أوساط الأهالي العمانيين الذي يشكلون تسعة أعشار سكان هذه المدينة. إن هؤلاء الأهالي غرباء روحاً وبدناً عن الإسلام وبيوته مزورّين أبداً عن الانتظام في سلك المتحمسين له.

ونرى هذا الرحالة يرسل الأحكام جزافاً. فلربما كان من استضافه في الشارقة غير ملتزم دينياً فعمّم الحكم على تلك المدينة وأهلها.

تمثّل الشارقة لمنطقة غرب عمان ما تمثّله تماماً لنجه في السنوات الأخيرة للساحل الفارسي المقابل. هي مركز للتصدير والاستيراد تتجمع عنده عدّة طرق برية وبحرية، وتتفرع منه إلى عدّة اتجاهات تغطي المنطقة كلها من البدع إلى رأس مسندم وإلى ما وراء ذلك عبر دبي. وهي منطقة لا يوجد فيها ميناء له أهمية تذكر، ولا سوق عام، ولا مخزن للتجارة ما عدا الشارقة التي تجلب إليها كل منتجات عمان الغربية من صوف وقطنٍ وحديد. هذا إضافة إلى أن الشارقة تمثل سوقاً رئيساً للإبل العربية والحمير، كما تُعد أيضاً السوق الرئيسة للنخاسة في المناطق الداخلية من الخليج. تفد إلى هذا الميناء سلع فارس والهند، وتنتشر منه إلى دائرة كبيرة من المناطق المجاورة له. وقد أضفى هذا التيار التجاري الدائم التدفق على الشارقة نوعاً من الثراء، وأسبغ عليها نمطاً من النشاط لا ينازعهما فيه أي ميناء عربي آخر في القسم الجنوبي من الخليج. وتفد إلى الشارقة مجموعات من البشر متعددة الأعراق، بينما تبقى الشخصية العمانية هي الطاغية في هذه الأرجاء، وهي الشريحة الأبلغ أهمية، والتي تظفر بالأولوية غير المتنازع عليها. "وأعتقد أنه إذا جرى تنظيف هذا الميناء، وإذا انتقلت مسؤولية الحكومة إلى يد شخص آخر غير خالد فإن أهمية الشارقة ستزداد إلى حد بعيد".

أهل الشارقة في معظمهم أمناء ومهذبون يمتازون بالكرم ويتمتعون بالحيوية. ولا يروّعنّك

ذلك الخنجر الذي يتمنطق به كل شخص حرّ في هذه المنطقة وفي المناطق الأخرى من عمان الممتدة إلى رأس الحد، فهم يتخذونه للمظهر أكثر مما يعدونه للاستعمال. وقد رأى بالجريف في الشارقة أنواعاً جيدة من هذه الخناجر طعّمت بالذهب والفضة التي توجد في عمان. ولعمان شهرة خاصة بتزيين هذه الآلات والآلات الأخرى التي تستعمل في الأغراض السلمية مثل الأحزمة والغلايين والأكواب، فهذه كلها تحلّى على هذا النمط بحذق قلّ أن نصادفه في أي منطقة أخرى. وتهيّئ هذه الحرفة سبل كسب العيش للعديد من سكان المدينة. أما الذهب المستعمل في التطعيم فيأتي جُلّه - إن لم يكن كله - من الهند، أو بالأحرى عن طريق الهند. ويقال: إن هذا المعدن النفيس موجود في عمان في منطقة الجبل الأخضر في ما وراء بهلا بنحو خاص، "ولكني لم أصادف أحداً يخبرني بنحو دقيق عن مكان وجوده أو حجم الكميات التي يمكن أن تستخلص منه".

قال بالجريف: إن معدن النحاس متوافر في عمان، ويُستغل بنحو منظم، وكذلك معدن القصدير الذي يوجد في مجاورة رأس الحد، ويضيف: إنه قد تيسّر له أن يلاحظ وجود معدن الحديد في العديد من المناطق العمانية، أما المعادن الأخرى فإنه - كما يقول - لم يقف بنفسه على حقيقة وجود أي منها. ويحدثنا بالجريف بأنه لاحظ وجود عدد كبير من الملّاحات التي يُستغل إنتاجها في الاستهلاك المحلي، كما يستفاد منه في التصدير كذلك. ويرمي البحر بكميات وفيرة من العنبر الذي يمثّل مصدراً لا ينضب للخزينة الملكية، وتشكل هذه المادة - إضافة إلى اللؤلؤ والملح - الاحتكارات الأساسية لحكومة عمان ذات السياسة "التي تتطابق والسياسة الرومانية القديمة التي لم تتطور، ولم تكن تدرك الحاجة إلى التطور". يضاف الذهب - إذا صحّ خبر وجوده - إلى هذه المواد، مع أنه - كما يقول - لا يجزم بوجوده، ولكنه أورد خبره اعتماداً على ما رواه الآخرون. ويعتذر بالجريف عن أنه استطرد في الحديث عن عمان فخرج عن الموضوع الذي يتحدث فيه وهو الشارقة "التي نحن بصددها، فقد مرّت بنا الساعات التي عشناها في الشارقة في جوّ من الصداقة التي تمثلت بصفة خاصة بالدعوات التي تلقيناها لتناول وجبات الغداء والعشاء. وبدا لنا أهل الشارقة شغوفين بأن نعيش حقيقة صدق ميولهم الاجتماعية التي سمعنا عنها في مناطق أخرى". يجد الضيف في هذه المدينة تنوعاً في الأطباق التي تقدم له تفوق كثيراً ما يمكن أن يجده المسافر في مناطق أخرى، وهي تبزّ ما يمكن أن يتناوله من طعام في أي منطقة أخرى من شبه الجزيرة العربية وفي أوساط العرب عموماً، فهنا يمكن أن نجد اللحم والسمك والقريدس والبيض وكذلك الأرز والشعيرية، إضافة إلى الأطباق الأخرى التي تحوي جميع الأصناف الحلوة من عسل وزبد وتمر، وكذلك الخبز الخمير الجيد الطعم.

توضع هذه الأصناف كافة أمام الضيف، وتقدم في أطباق لكل ضيف على حدة، فهم لا

يكوّمونها أمامه بعضها فوق بعض كما يفعل النجديون. وكانت الدعوات المتواترة للضيافة أمراً فوق العادة حتى للشخص الجوعان (؟)، يضاف إلى ذلك أنك في الشارقة – كما هو الأمر في عمان طولاً وعرضاً – لا تحتاج إلى تعريف خاص يؤهلك لحقوق الضيافة، فنظام البيت المفتوح هو النظام المتبع ، فأي بادرة طفيفة منك أو أي نظرة عابرة أو أي استفسار عن هذا الطريق أو ذاك، إلى أين يمر أو إلى أين ينتهي، هي ذريعة كافية لتلقّي الدعوة المشفوعة بالكرم الذي يتوافق مع ذلك الوقت من اليوم من موعد غداء أو عشاء أو تناول كوب من الشاي. "أقول هذا عن الأوساط الاجتماعية في مدينة الشارقة، لكنني لم أتعرف إلى خالد حاكماً إلا بنظرة عابرة رمقته بها عندما كان في مجلسه الصباحي الذي يعقد عند باب القلعة، وقد ردّ عليها". "...من ممارسات خالد أنه يضع ليمونة على رأس أحد أتباعه أو على ذراعه الممدودة ويقوم بالتدريب على التصويب بالطلقات النارية على ذلك الرأس أو الذراع. إنه رجل قاس ونزواته تجعله أكثر خطراً على أصدقائه منه على أعدائه. وعلى العموم فإنه يحكم بالوكالة عن السلطان ثويني، ولذا فهو تحت ضغط التزام لا يسمح له بتعديل شروط التجارة والضرائب ورسوم الجمارك والامتيازات في هذه المقاطعة. وقد جرت بالفعل محاولات عدّة لإقصائه عن منصبه، إلا أن أصدقاءه النجديين ساعدوه في الاحتفاظ به، رغم المقت العام الذي يلقاه."

في الجانب الجنوبي من المدينة باحة سوق كبيرة قُسّمت إلى عدّة أسواق بعضها منفصل عن بعض وفق النمط الشرقي السائد المنطقة، وتقف القيصرية وسط باحة السوق. والقيصرية مبنى ذو أقواس طويل ضخم متين البناء، له بوابات بأحزمة من حديد تغلق عند منتصف الليل حفاظاً على الثروة التي يضمها هذا المبنى. ومما يجدر ذكره أن الحكومة تحتفظ بخزينتها في برج حجري قوي ضمن مشارف القيصرية. ويذكر بالجريف أن المحال التجارية في السوق أنيقة حسنة البناء، أما شكلها العام فيعكس فخامة، ويحدث عن الثراء، فهنا محال تجارية قد بُنيت بانتظام، وفيها مناضد عالية وطاولات ومساطب وكراس ورفوف على النمط ذاته الذي نجده في بومباي أو مدراس، كما عرفت هذه المحال التجارية دفاتر مسك الحسابات التي تتوافق من حيث الشكل العام مع المحل التجاري ومحتوياته، وكذلك صندوقاً قوياً لحفظ النقود. ولا تشابه هذه المحال التجارية تلك المحال التي في شبه الجزيرة العربية التي تتكدس فيها السلع مع أصحابها فوق أرض المكان أو ربما تحت مستوى الأرض أحياناً. أما أهم التجار في سوق الشارقة فهم من الهندوس أو اللوتية (طائفة من مسلمي شبه القارة الهندية) بصفة عامة. ويعرض هؤلاء التجار عدداً كبيراً من الشالات الكشميرية وأقمشة من صناعات البنغال المختلفة، كما توجد أيضاً أسلحة فارسية، أما المجوهرات فهي متنوعة حوت كل صنف، ويفوق تنوّعها ما كان بالجريف يتخيل وجوده في شبه الجزيرة العربية. أما الزبائن فهم كُثر. ويعمل عدد قليل من التجار في النخاسة التي لم تتوقف في هذه المنطقة، لكنها تجري وراء

الأبواب المغلقة، "عملاً بالتوصيات الحكيمة التي قدمها يعقوب".

شوارع الشارقة نظيفة ولكنها غير منتظمة المسالك، أما الأزقة فضيقة مخيفة. وقد شيّدت أغلب المنازل التي على جانبي الشوارع من السعف، أما المنطقة الضيقة الفاصلة بين رصيف الميناء والمنازل المشيدة عند الخور فقد انتشرت فيها المراكب الصغيرة والقوارب، ما يدل على أن المنطقة يشغلها صائدو اللؤلؤ. ومما يجدر ذكره أن هذه المنطقة تمثّل الحد الشرقي النهائي لسواحل اللؤلؤ الممتدة بين أبو ظبي والشارقة، وهي منطقة يقل نتاجها إلى حد كبير عن السواحل الأخرى الأبعد مدى.

هناك برج حجري مثمّن الأضلاع عند أسوار المدينة بالقرب من إحدى القلاع. "والجدير بالذكر أن عبارة برج الشارقة التي تظهر على الخرائط بدلاً من لفظ الشارقة هي دلالة على القلعة في ما أعتقد. ويشبه هذا المبنى – إن لم تخنّي الذاكرة – آخر كنت قد رأيته في هرمز التي لا تبعد كثيراً عن هنا". في هذا البرج المتأنق البناء، والمزين بأشكال رسوم سمك السردين، عدد من الكوّات في أماكن متفرقة منه، ويصل ارتفاعه إلى سبعين قدماً. أما القلعة المجاورة له فهي أشد شبهاً بالمعسكر (المفتوح) منها بقاعدة محصّنة. و لم يجد بالجريف من يعرّفه بتاريخ بناء هذه القلعة ولا البرج. هذا إضافة إلى أن المكانين المذكورين يستعملان لتخزين الذخيرة، فلم يتمكن من أن يدخل أياً منهما، فقد كانت أبوابهما موصدة بعناية فائقة.

بُنيت الأسوار الخارجية لمدينة الشارقة من حجر رملي أحمر يميل إلى الاصفرار، جُلب من مكان قريب في جوار المدينة، و لم يستعمل في البناء حجر الغرانيت ولا الحجر الجيري. هذه الأسوار متهدمة في الوقت الراهن، ترى الأطفال الأشقياء ينفذون من خلالها جيئة وذهاباً، أما الأكتاف التي تسند البناء فقد طمرها الرمل. وترتفع الرمال في ما وراء هذا السور بالتدريج في اتجاه الداخل، وتنتشر فيها أشجار النخيل، وتُحاط البساتين المنعزلة أو الآبار بسياج من الصبار، ولكن التربة هنا لا تفي بإنتاج زراعي، كما تظهر هنا وهناك شجيرات متشابكة ذات عقد خضراء، تشابه تلك التي تنمو في الغابة الهندية.

"المناخ هنا مداري، وبالتأكيد فإن درجة الحرارة هنا تصل إلى ٨٠ درجة فهرنهايت في الظلّ في هذا اليوم الموافق للسابع عشر من فبراير. ولو كنت أملك مقياساً لقياس درجة الحرارة لأكد قولي الذي ذكرت". ويلاحظ بالجريف وجود بعض المضارب لبدو العوامر في الشارقة.

الحمير المعروضة للإيجار في الشارقة كثيرة، وقد أثبتت الحمير لهذا الرحالة نجاحها في قطع المسافات غير البعيدة. فقد اكترى ويوسف حمارين في اليوم الثالث من وجوده في الشارقة، ومضى في رحلة مسحية لاستكشاف المنطقة. "وفي تقديري أن سلالة هذه الحمير أدنى درجة من السلالة المصرية، ولكنها تمتاز بقوّة تمكنها من مغالبة الإرهاق".

يتحدث بالجريف عن رحلة قطعها على أحد هذه الحمير إلى دبي التي ذكر أنه شاهد في

طريقه إليها بعض مضارب المناصير، ويصف خور دبي الذي يقول: إنه شبيه بخور الشارقة، ولكنه متسع جداً حتى يبدو كأنه بحيرة كبيرة يفصلها عن الخليج حزام من الرمل الأبيض. أما قرية دبي فهي غاصة بالسكان ولكنها غير محصنة، كما أنها تملك أسطولاً من القوارب التي لم تصمّم تماماً لتعمل في صيد اللؤلؤ الذي هو صناعة شحيحة في هذه المنطقة في الخليج الجنوبي الغربي الصغير الذي وراء أبو ظبي. "وترجّلنا عن حمارينا عند مجموعة من أشجار النخيل تظلّل بعض المنازل التي عند مدخل تلك القرية لنتمكن من التقاط أنفاسنا ولإراحة دوابنا، وقام بعض السكان بإمتاعنا بحكايات عن بني ياس وممارساتهم".

يقول بالجريف إن بني ياس عشيرة نصف متحضرة، ويدّعي أنه صادف جماعة من بني ياس "مسلحين حتى أطراف سنونهم" بالبنادق والخناجر، ويقول إن ألوانهم داكنة وإنهم يمتازون بالأناقة وبالشعر الكثّ الفاحم المسترخي على أكتافهم، ما يسبغ عليهم مظهراً همجياً رومانسياً مثيراً. وكما يقال فإن الياسيين هم الأكثر حقداً والأبلغ عداءً للنجديين، حيث تكشف العمليات التي يقومون بها في الخليج عن حقد دفين تجاه النجديين توّججه مشاعر الكراهية أكثر من رغبتهم في الحصول على الأسلاب والرجوع بالغنائم. وروى بالجريف رواية يؤيد بها هذه الاتهامات؛ فقال إن ستة من التجار النجديين استقلوا من ساحل قطر مركباً في طريقهم إلى رأس الخيمة كان بحارته من بني ياس. لم يكن النجديون مسلحين، و لم يكن ما يحملونه من تجارة يمثّل مغنماً، ولكن البحارة كانوا يضمرون لهم شرّاً، يريدون أن ينتهزوا السانحة للتعبير عن "عدائهم للمسلمين". وعندما بات المركب في عرض البحر على مسافة من رأس مسندم هجم البحارة على النجديين الستة فأوثقوا خمسة منهم بالحبال وألقوا بهم في اليم، أما سادسهم فقد كان يافعاً، فألقوه في البحر من دون أن يشدوا وثاقه ظناً منهم أنه لن يستطيع النجاة سباحة أو ربما أحسّوا تجاهه بالشفقة، فهو لم يزل حدثاً صغير السن. جمع هؤلاء البحارة كل سلع النجديين وأسلحتهم ومتاعهم وألحقوها بهم إلى قاع البحر حتى لا يبقى منها أثر يدل على الجريمة، ثم عادوا إلى موطنهم في صور. ويتابع بالجريف بعد ذلك رحلة الصبي الذي راح يسبح جهد طاقته مدفوعاً بغريزة حب البقاء أكثر من الأمل في النجاة، حيث لا أمل ولا أثر لسفينة مبحرة إلا سفينة القراصنة التي أخذت تتهادى وتبتعد عن ناظريه حتى غابت عنه في الأفق البعيد. وبما أن أجساد الأطفال خفيفة الوزن فقد ظلّ الصبي طافياً على سطح البحر نهاره كله والنهار الذي يليه حتى العصر، فقد كان البحر هادئاً ومياهه دافئة. وعندها مرّ مركب تابع للشارقة فأبصر من فيه الصبي، فالتقطه البحارة وما زالوا به حتى استردّ أنفاسه ووعيه وحركة لسانه بعد فترة طويلة، ومضوا به إلى بلدتهم، وتولّى أمره أحد أثرياء المدينة. ويشهد بالجريف على وقوع هذه القصة، ويدّعي أنه قد قابل مصادفة في الطريق الشخص الذي حكيت له قصته في اليوم ذاته الذي سمعها فيه. وصف بالجريف الرجل بأنه

بهيّ الطلعة يبلغ الرابعة والعشرين، وأضاف بأن عمر ذلك الفتى حين ألقي في البحر كان اثنتي عشرة سنة. ويدّعي أن الشاب قد سرد له بنفسه الحادث الذي تعرض له وسمع منه القصة مرّة أخرى، وقال إن الشعور الوحيد الذي كان يتملّك الصبي في تلك اللحظات هو الشعور بالخوف البالغ من أن يهيج البحر، وأنه لم يفكر في ما سوى ذلك البتّة، إذ كان يدرك أن لا أمل أو طريقة للخلاص.

عمان

يُعرّف بالجريف عمان - بحسب ما ورد في خرائط عصره - بالمنطقة الممتدة من رأس مسندم إلى رأس الحد، أو هي المنطقة التي تضم الكتف الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة العربية. ويضيف أن حدود عمان في المفهوم العربي تختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً، فهي تمتد من أبو ظبي، قرية بني ياس، إلى حدود ظفار، وتشمل المنطقة الداخلية في ما بين هذين الموقعين، ما يجعل حدودها تلامس حدود كل من قطر وحضرموت. أما حدود عمان السياسية فهي أبعد من ذلك كثيراً، لأنها تُدخل في تعريفها قطر ومنطقة بني ياس، وتمتد من هنالك إلى الأقحاف براً، وتتصل بحراً بالساحل الفارسي في المنطقة من رأس بستانة إلى الجاسك، وتضم كافة جزر الخليج شرقي البحرين، والتي منها جشم وهرمز وشارك وعدد من الجزر الأخرى الأقل أهمية، إضافة إلى زنجبار والساحل الأفريقي المواجه لها، كما تشمل جزيرة سقطرة كذلك.

يخوض بالجريف بعد ذلك في التعريف بقبائل عمان وأنسابها فيخلط ويأتي بالعجب العجاب. ويحدثنا عن قبائل غير معروفة ولا مذكورة، ليس في عمان فقط، بل لا نجد لها أثراً في ما يعرفه التاريخ العربي كله من قبائل، ولا يزيد الأمر عن أن الكاتب جاء بتلك الأسماء من مخيلته ليقدمها لقارئ جالس عند المدفأة، لا يعنيه من أسماء تلك القبائل العربية إلا غريب أفعالها وأقوالها. فالقبائل الغافرية هي عنده هناوية أو العكس، وجماعة القواسم هم في هذا الكتاب قبيلة نجدية ترجع بأصولها إلى مطير، وأن العداء بينهم وبين جيرانهم من القبائل الأخرى "فطري" يقاومونه بتوثيق علاقاتهم مع الوهابيين وبطبيعة أرضهم الصخرية التي يصعب اختراقها. ويتحدث عن انتشار الوهابية في هذه المنطقة من الأرض العمانية من أبو ظبي إلى رأس الحد، فيرى أنها عبارة عن "رقعة جديدة في ثوب قديم". ويأخذ في سرد تاريخ عمان منذ أن دخلت في الإسلام، وينتهي إلى إخراج عمان من الإسلام تماماً، وهو في ذلك لم يقصد الإساءة إلى العمانيين، بل قصد - كما جاء عنه - تقريظهم. ويمكن أن ننقل عنه في هذا المجال بعض ما صوّره له خياله السقيم من أحداث تبرأ صفحات تاريخ عمان المكتوب أو المروي من القول بها. يقول:

> ... عندما شبّ نزاع بين علي وعثمان (رضي الله عنهما) أرسل كلاهما رسلاً إلى عمان اجتمعوا مع سادتها في بهلا. و لم يستجب السادة العمانيون لأي من الحزبين و"لعناهما". وردّ علي (رضي الله عنه) بإرسال حملة إلى عمان أورثته الكراهية هناك، فيما لم يتمكن عثمان (رضي الله عنه) من القيام بشيء ضدّ عمان لبعد مركزه عنها.

وهكذا انقطعت مع الأمويين صلة عمان بالعالم الإسلامي، و"نعمت بفترة من الهدوء. ونتيجة لذلك فقد ألغى العمانيون في هذه الفترة الحجّ وأوقفوا العمل بالشريعة". ويستطرد هذا المخادع ليكتب في صلة العمانيين بالقرامطة، ويدّعي أن أحد الخلفاء العباسيين "لا أذكر اسمه حالياً" أمر بتدمير قرى قطر والشارقة وجبل أكدا (ربما قصد جبل حفيت، وقد أشار إليه بهذا الاسم في سرده عدّة مرات) ولكن الجيش لم يفلح في الدخول إلى عمان. وعمل العمانيون "الذين انشقّوا عن الإسلام" في هذه الفترة على اتخاذ شعار شعبي يكون عنواناً لهم، فاختاروا العمامة البيضاء مخالفة منهم للعمامة الخضراء التي يلبسها الفاطميون، والسوداء التي يلبسها العباسيون، وعُرفوا بعد ذلك "بالبياضية". وكان هذا التعريف ينطبق على القرامطة فقط في بادئ الأمر، ولكنه شاع بعد ذلك ليشمل العمانيين جميعهم ! ويبدو أن بالجريف قصد الإباضية التي عرفت بذلك نسبة إلى عبد الله بن إباض، وذلك في إشارته إلى البياضية التي اخترعها ثم نسبها إلى بياض العمامة. وبثقة الواثق من معلوماته يكذب بالجريف ويأتي ببعض ما نسبه زوراً إلى بعض المصادر الإسلامية من أن البياضية هم أتباع بيدان "المهرطق الفارسي الذي عاش في القرن الثالث الهجري". ويستند في نفيه إلى أن بيدان لم يحدث له أن زار شبه الجزيرة العربية، وأن دعوته لم تلق رواجاً يبلغها إلى هناك، إضافة إلى أن "الدال الواردة في الاسم الفارسي تختلف عن الضاد التي ترد في لفظ البياضية". ويسترسل المأفون في كذبه ويوغل في افترائه ليخرج العمانيين من الملّة تماماً، فيقول إنهم كانوا قبل الإسلام على دين السبئيين فأدخلوا عليه بعد ذلك بعض شرائع الإسلام وخلطوها بالقرمطية. واستحدث العمانيون من هذا الخليط ديناً اتخذت مظاهره شكل الهمهمة بصوت خفيض في صلاتهم، وعادة ما تكون الهمهمات مصحوبة بتغيير في مقام الصوت. أما الركوع والسجود عند العمانيين فهو مختلف، كما تختلف قبلتهم عن قبلة المسلمين، فهم قد ورثوا من السبئية عبادة نجم يسمونه ياه أو ياهي، وهو النجم القطبي الذي يسميه العرب الجدي، و"هي مفردة تعني ذكر الماعز". ويأخذ هذا الكاذب غيّه فيعرض للقارئ الغربي معرفته بأسماء الكواكب والأفلاك وموقعها من المجرّة ليخلص إلى القول إن العرب يخلطون في هذه الأمور "فهم – كما هو شأنهم دائماً – يتّسمون بعدم الدقّة في كل شيء". ويمضي هذا الكذاب الأشر في

حديثه عن الدين الذي يدّعي أن العمانيين قد استحدثوه، فيقول إن صيام العمانيين يختلف عن صيام المسلمين، فمدة الصيام يحددها لهم الحاكم. ويستطرد فيقول إن الحاكم هو الذي يمثل السلطة الدينية المطلقة، وإن الأوروبيين يطلقون عليه لقب الإمام عن طريق الخطأ (؟). ويوغل الرجل في غيّه حين يقول إن حقّ إقامة الصلوات العامة في عمان مقصور على ثلاث مدن فقط هي صحار ونزوى بهلا، وأن مسقط لا تظفر بهذا الامتياز "فأهميتها ترجع إلى عهد قريب نسبياً". ويدّعي بالجريف أن تعدد الزوجات في عمان يأخذ اسماً آخر، فواحدة فقط منهن تحمل اسم الزوجة أما الأخريات، "كثر عددهن أم قلّ"، فهن في عرف العمانيين خليلات. كذلك يختلف الميراث في عمان عنه عند المسلمين، إذ يتساوى نصيب المرأة فيه مع نصيب الرجل، إضافة إلى أن المرأة تتساوى اجتماعياً مع الرجل.

وهي لا تستعمل الحجاب وتلك ميزة حقيقية. فجمال العمانيات لا مثيل له في نساء شبه الجزيرة العربية كافة، لا بل ربما في آسيا كلها... لم يحدث لي أن رأيت قط في بلاد الشرق برمّتها أشكالاً تتمتع بتلك الرشاقة والملاحة والملامح المتناسقة المتناغمة. ويقيناً إن من يعشق العيون السود الواسعة الحدق والحواجب التي تحاكي الهلال اتساقاً والشعر الناعم كالحرير والقد الممشوق والخصر النحيل وانسيابية حركة الأعضاء والسلوك الحسن، يمكن أن يجد كل هذا في عمان أكثر مما يتوافر له في أي قطر آخر، نجداً كان أو سورية أو مصر، ولا ينتابني شك في ما أقول إذا أضفت بلاد فارس إلى هذه الأقطار. أما الرجال في عمان فتبدو عليهم الأناقة بنحو عام، رغم بشرتهم الداكنة، وخطواتهم مفعمة بالحيوية والنشاط، وتنمّ ملامحهم عن الذكاء.

ويشير إلى أن الناس في عمان يتناولون النبيذ بحرّية، وتُزرع الكروم في الجبل الأخضر. وينتهي هذا الأفاك إلى نعت ما سمّاه الدين العماني الناتج من اختلاط الملل والنحل التي جاءت بها التجارة إلى عمان وهو دين خليط مازج بين مبادئ السنة والوهابيين والشيعة وأهل اليمن وأهل مكّة أيضاً، ما جعل البياضية الذين هم خليط من السبئية والباطنية والقرامطة وأتباع المقنع وأبو طاهر يتصرفون كما لو كانوا من أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) المتسامحين. ولكن من يحاول أن يعرف هؤلاء القوم عن قرب يجدهم في زمرة الكفار، ويعُدّهم جيرانهم من الوهابيين وأهل السنّة والشيعة أضرط من ذلك.

ويدّعي بالجريف أن مسقط التي تضمّ ثلاثة أو أربعة مساجد يقيم فيها الصلاة جماعة النجديون "ولكن يندر أن تجد فيها بياضياً واحداً". وذهب هذا الشقي إلى استنكار ما شهد به نيبور من إسلام أهل عمان، وعلّل ذلك بأن نيبور كان يرتدي في عمان ثياباً تركية، وأنه ادّعى أنه قادم من إستانبول، وأن من يأتي بهذه الهيئة ومن تلك الوجهة "كفيل بأن يجد الدين الإسلامي حتى في أوساط من يعادون هذا الدين". ويشيد بالجريف بالتسامح الديني المطلق في عمان مقارنة بالتسامح الديني المحدود في أوروبا. وينطلق من هنا ليقول إن عمان: "بلاد

للتسلية واللهو والرقص والغناء والاستعراض والحياة الهانئة، وما إلى ذلك من انفلات أخلاقي حفّزه جمال العمانيات وخفّة ظلّ رجالهن". وينتقل بالجريف بعد ذلك ليحدثنا عن انتشار السحر والشعوذة في عمان ومقدرات السحرة الهائلة. فهم يستطيعون أن يمسخوا الإنسان إلى حمار جسداً وعقلاً. ويرُد انتشار هذا الفكر تاريخياً في عمان إلى ارتباطاتها الوثيقة بالأفارقة الزنوج الذين وفدوا إليها "من مهد الخرافات والتسيب الأخلاقي، واختلط ذلك بالضلال القديم الذي كان منتشراً في شرق شبه الجزيرة العربية في الأزمان السابقة، وتولّد عن هذا النمو الطبيعي لهذه المؤثرات الخرافات والتفسخ الأخلاقي في عمان".

غادر بالجريف الشارقة - في ما يقول - إلى عمان في ظهر اليوم الأول من رمضان/ ٢٠ فبراير. إن ما ننقله عن هذا الرجل عن عمان من كذب افتراه إضافة إلى الإفك الكثير الذي لم ننقله عنه، يجعلنا نشك تماماً حتى لنكاد نجزم بأنه لم يزرْ ذلك البلد، وأن الراوية الذي أفاد بالجريف ببعض القول عن عمان وأهلها كان يجهل ذلك البلد تماماً، وكان متحاملاً على أهله، فحدثّه حديث خرافة نسج بالجريف على منواله وأضاف إليه من سقيم خياله، فأنتج هذراً من القول وسخفاً رمى به للإساءة إلى العمانيين وإلى المسلمين الآخرين على حدّ سواء، ليرسي في روع القارئ الجالس إلى جوار المدفأة كم هو الشرق، نجده وعمانه، مصره وفارسه، بدائي غريب، منافق كاذب مخاتل.

مرّ المركب بساحل المفرز، فعجمان التي قال إنها مدينة صغيرة من مدن القواسم قضوا الليل عندها واستأنفوا في الصباح التالي إبحارهم، فاجتازوا الحمرية وأم القيوين التي قال إن البعض ينطقونها خطأً أم الأخوين. وكتب بالجريف أن أهل هذا الساحل يمتهنون صيد السمك بعد أن حرّمت عليهم بريطانيا الارتزاق من القرصنة. ومرّ المركب بعد ذلك برأس الخيمة "أكبر المستوطنات الوهابية وأسوأها سمعة ولكنها - لحسن الحظ - تمثّل نهاية المستوطنات الوهابية على هذا الساحل". ويقدر سكان رأس الخيمة بنحو خمسة الآف شخص، "ولكنهم يعوّضون النقص عن قلّة عددهم بشجاعة يبالغ الناس في قسوتها ووحشيتها". ويبحر مركبهم بعد ذلك إلى شعم، وعند دخولهم أحد مرافئها راح البحارة يتغنون بأهازيج تتوافق أنغامها مع ضربات المجاذيف على سطح الماء، وذلك تشجيعاً لزملائهم لبذل مزيد من الجهد في التجذيف. وتحمل تلك الأهازيج - كما يقول بالجريف - تصويراً كاريكاتورياً لكل من في المركب، اعتباراً من الربان نفسه الذي يقبلها على سبيل المزاح ويحملها على المحمل الحسن، ثم يأتي الدور على المسافرين أحدهم بعد الآخر فتصورهم تصويراً هزلياً: "وعندما جاء دوري أكرموني بمقطعين، وكان الوغد الذي يشدو بهما يكشر عن أنيابه وهو ينظر ناحيتي".

ويحدثنا بالجريف عن "لغة" أهل شعم ورؤوس الجبال، ويرى فيها لهجة عربية، ولكن العزلة التي تعيشها المنطقة جعلت هذه اللغة تتسم بالهمجية والبدائية. وينقل عن مرافقه أنها "لغة

الطير". وبعد أن يصف هذه المنطقة بأنها أبلغ أقسام عمان فقراً وبواراً، ينفي ما اشتهر به سكانها من أنهم بدائيون، ففيهم أمهر بحارة عمان وهم مقاتلون أشداء. تحرك بهم المركب فصادف عاصفة هوجاء رمت بهم إلى هرمز التي قيل فيها - كما يذكر - إذا كان العالم خاتماً فهرمز لؤلؤته. يأخذ بالجريف في الحديث عن شكل هذه الجزيرة البيضاوي وسواحلها ذات الصخور المشقّقة الشديدة الانحدار التي تغوص أجزاء منها في البحر، فيما ترتفع أقسام أخرى منها في شكل قمم عالية تتخللها ثلمات ذات ألوان متعددة شبيهة بتلك التي تتشكل من الحمم البركانية بعد أن تبرد، ويظهر في ما بين الشمال والغرب رأس مستوٍ ومنخفض مثلث الشكل، يمتد إلى مسافة طويلة داخل البحر قبل أن يضيق ليتصل باليابسة حيث تقوم هناك قلعة بناها البرتغاليون على النمط الروماني، لا تزال جدرانها الصلبة تقاوم، على مدى هذه القرون الثلاثة التي مضت عليها منذ أن أحكم بناؤها، عواصف البحر التي تتكسر فوقها من دون أن تعود عليها بأذى. وينتشر فوق الحيز الأكبر من هذا الرأس ركام مبعثر لما كان في يوم ما منازل فخمة وحمامات وكنيسة كبيرة ومنارة مثمنة الأضلاع شبيهة ببرج الشارقة ترتفع إلى حولى مئة ياردة فوق مستوى البحر، ما يُحدث أن هذه الأطلال الدارسة كانت ذات يوم مدينة مزدهرة. يقود سلم حلزوني متهدم إلى قمة هذا البرج المثمن الذي يبلغ ارتفاعه اثنتي عشرة قدماً أو ربما أربع عشرة، ما يشير إلى أن البرج كان مئذنة لمسجد قام على النمط الفارسي وحوّله البرتغاليون إلى منارة. وتقف بالقرب من القلعة مجموعة من الأكواخ تبلغ مئة يسكنها الصيادون والرعاة الذين ترعى أغنامهم حشائش فوهة البركان. ويدخل بنا بالجريف إلى دهاليز خياله حين يعمل على صياغة تاريخ ازدهار هرمز التجاري، ويردّ ذلك إلى البرتغاليين الذين يقول إنهم من رواد التجارة والإبحار في العالم. ولا نجد مثل هذا الرأي إلا عند هذا الرحالة، فرواج هرمز التجاري قد انتهى - كما يقول التاريخ - بوصول البرتغاليين رواد القرصنة والاستعمار الغربي للشرق. وينتقل بنا بالجريف إلى حاضر مسقط في زمانه ويقول إن عليها حاكماً عمانياً يقيم في قسم من القلعة التي يحيط بها خندق من ناحية البر، والتي ما زالت بواباتها المجلدة بالحديد لحماية القلعة ،على متانتها. يستخدم الحاكم المبنى الداخلي للكنيسة غرفة استقبال. ويضيف أن دخل هرمز يتمثل في مناجم الملح التي تقع في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة، ويستطيع من يشاء أن يقطع منها القدر الذي يشاء بعد دفع رسم تافه يعود إلى الخزينة العمانية.

استضاف الحاكم بالجريف الذي لاحظ أن لحم الضأن يبدو على مائدة حاكم الجزيرة نوعاً من الترف، فقد اعتاد أن يقدم لضيوفه سمك القرش المتوافر بكثرة في مياه الخليج. "ورغم أن لحوم هذه الأسماك مغذية، إلا أنها - على أفضل الأحوال - بلا طعم ولا نكهة...". ويرى أن العرب يطلقون على سمكة القرش المعروفة لدى الهنود باسم أوال اسم كلب البحر. وهنا

يستعرض بالجريف معارفه الفجّة، فيرى أن الرحالة نيبور اعتقد أن أوال اسم لموضع "كما هو الشائع. فالبحرين يطلق عليها اسم أوال أو ما يعني سمكة القرش. ويتماثل ذلك تماماً مع حال أجنبي يزور الساحل الشرقي لإنجلترا فيدوّنه في ملاحظاته تحت اسم الرنجة أو الماكريل!". ويمضي هذا الرجل في تبجّحه لينفي نفياً قاطعاً وجود جزيرة في الخليج، كبيرة أو صغيرة تحمل اسم أوال، فالرحالة الغربيون – كما يقول – يخلطون في الأسماء والمفاهيم ولا يتحرّون عن دقّة التدوين. والربابنة والبحارة في عمان والساحل الفارسي يتحدثون خليطاً من العربية والفارسية والهندوستانية واللغات الأفريقية المختلفة، إلى جانب نوع من الإنجليزية المشوّهة يستكملون بها نواقص مفرداتهم حين يتعلق الأمر بالوفرة والثراء. فتقلّب هؤلاء البحارة بين موانئ الهند وزنجبار والسواحل حتّم عليهم ذلك، كما أن البحارة أنفسهم هم خليط عجيب من رجال تلك المناطق.

تحرك المركب ببالجريف ورفاقه من هرمز بعد أن هدأت العاصفة ليتوقف عند قرية في رأس مسندم. وحاول بالجريف – في ما يزعم – معرفة رأي المواطنين في البريطانيين، فوجد أنه "على الرغم مما تحقق من مزايا تجارية وحضارية وحماية (من قبل بريطانيا) وغير ذلك من مزايا أخرى، إلا أن العداء الوطني يتعمق ويزداد عمقاً خوفاً من الاحتلال...". وبعد أن يعرض حروب بريطانيا في الهند والصين، يخلص إلى أن صدام أوروبا بآسيا دونه "صدام الحديد بالصلصال". وفي تقديره أن كراهية المواطنين للبريطانيين لا تعني شيئاً، وينشد مع تاكيتوس: "دعهم يكرهوني ما داموا يرهبونني". ويصور حال أهل المنطقة ويسخر منه، "فالمواطنون مذعورون يخشون إن عرف الإنجليز خيرات رؤوس الجبال فلربما يتركون جزيرتهم ويهاجرون جميعهم بمن فيهم الملك والملكة ليستعمروا رأس مسندم". ويذهب بالجريف في سخريته إلى القول "إن قلوب أهل هذه القرية ترتجف من فكرة رؤية قصر بكنجهام ووستمنستر ينتقلان إلى رؤوس الجبال".

أخيراً وصل بالجريف إلى صحار، ولعله أخطأ حين عمّم القول إن الخصوصية لا مكان لها في المعمار العماني. "أعني أن النساء ليس لهن خصوصية، فلا توجد هنا الغيرة أو عدم السماح للضيف بالاضطلاع على الحياة العائلية أو حتى الاطلاع بطريقة عابرة على الأسرار الخاصة بالأسرة كما هي الحال في نجد وغيرها من الأقطار". وبعد أن أخرج هذا المتهوس العمانيين من الملة وهوْ يذمّهم بما يشبه المدح، يعمل هنا على إخراجهم من العروبة أيضاً وذلك حيث يقول "إن العرب بطبعهم غيورون، وإن الشريعة الإسلامية أضافت إلى هذا السوء سوءاً!". ويضيف أن الضيف في عمان يندر أن يُمنع من زيارة الحريم، في حين أن النسوة يتحركن في بيوتهن من دون قيود، ويكشفن عن أنفسهن من دون حرج، فهن غير :" تماثيل نجد والرياض الصامتة المقنّعة... إن منزل العماني يختلف عن بيت الشخص المسلم والشخص العربي! فالغرف كلها

تقوم في صف واحد غير معزول بعضها عن بعض بأحواش مستقلة، والقهوة العمانية لا تقع قرب البوابة الخارجية بل تحتل مكانها في القسم الداخلي من وسط المنزل تماماً".

يشيد بالجريف بأسلوب الضيافة في عمان مقارنة بشمّر والرياض، حيث يعدّ رفع المائدة إيذاناً للضيوف بالانصراف، "وكأنهم جاؤوا لتناول الأكل فقط". أما في عمان فالعكس هو الصحيح، إذ يجري تناول الطعام أولاً ثم يبدأ السمر حتى ينتصف الليل أو ربما حتى الساعات الأولى من الصباح. ويُزاد السمر بهجة بالغناء الذي يلازم الحفلات العربية. ويعتقد بالجريف أن الأصوات العربية جيدة عموماً، إلا أن مساحتها ليست كبيرة، ولكن الوزن النبطي الذي يسود النغم يسمح بتناغم التوزيع الموسيقي. يجري خلال هذه الجلسات توزيع الكعك والمكسرات وكثير من الحلوى التي يتباهى أهل صحار بصناعتها، يديرونها على الضيوف الفينة بعد الأخرى تحسّباً منهم لئلا يكون استرضاء الأذن بالأنغام غير كاف. ويقول إن العمانيين يكنّون تقديراً كبيراً للأسرة الحاكمة ومقتاً للوهابيين والأتراك كذلك، ولكنهم في ولائهم يفضل كل تسعة من عشرة منهم ماجد على أخيه ثويني، الحاكم الفعلي. ويحدثنا بالجريف فيقول إن العديد من تجار صحار زاروا الهند ووقفوا على الإدارة البريطانية فيها، "... سعدت حين سمعت رجلاً من صحار في لحظة ودّ وصفاء يقول إذا وصل الأمر حتماً إلى المفاضلة في أن نختار لحكم بلادنا بين المسلمين والإنجليز فإننا نفضل - بلا قيد ولا شرط -أن يحكمنا الشيطان نفسه ولا يحكمنا المسلمون". ويقيناً فإن مثل هذا الحديث لن يصدر من مواطن عماني مسلم، ونرى أننا يمكن أن ننسبه إلى غيره من التجار الأجانب المقيمين في البلاد، هذا إذا صدق بالجريف في نقله هذا اللغو ولم يكن من نتاج مخيلته وهو يجلس في مكتبه في سوريا أو لبنان.

لا يحسن بنا أن ننقل عن بالجريف شيئاً كثيراً في ما يخصّ عمان، فالراوية النجدي - في ما نعتقد - الذي نقل بالجريف عنه وأضاف إليه لم يكن - في ما نعتقد - يعرف شيئاً كثيراً عن عمان، ولا يحمل إلا الضغينة لأهلها والمقت، فكال لصاحبه الرحالة من حديث خرافة. ومع ذلك يجدر بنا أن نشير إلى تضخم الذات الذي ظلّ يلازم سرد كل من هؤلاء الرحالة، حيث يسند الفرد منهم إلى نفسه الشجاعة وحضور الذهن في مقابلة الصعاب مقارنة بمن معه من العرب. يدّعي بالجريف أن المركب الذي أزمعوا الإبحار به من صحار إلى مسقط صادف عاصفة هوجاء تحطم على أثرها، واستعان بعض الناجين - ومنهم رحالتنا بطبيعة الحال - بقارب صغير. وأوكل إليّ من كانوا في القارب تحديد مساره، وذلك لأن رجلاً مثلي - في نظر العربي - يمتلك من العلم والمعارف المكتسبة الأخرى ما يجعله على دراية بالاتجاهات الجغرافية أكثر من أي إنسان آخر، أو ربما جاءت هذه الوكالة من منطلق أني لم أفقد صوابي مثل السواد الأعظم من المسافرين الآخرين... ومن حسن حظ يوسف (رفيق سفره) أنه

كان يرقد جثة هامدة لا يستشعر خوفاً ولا يحرك ساكناً... . وهكذا تمكن بالجريف - كما يدّعي - من أن يصل بمن في القارب، وفيهم الربان نفسه، إلى برّ الأمان، ليرسو بالقرب من السويق. وكان يمكن أن تكون هذه القصة جيدة السبك لو قال لنا بالجريف إنه تولى توجيه القارب بعد أن غرق ذلك الربان الذي تمرّس في الإبحار وسط زوابع المنطقة وعواصفها وخبر دروبها ومسالكها. وتذهب الرواية إلى أنهم صادفوا في السويق ثويني بن سعيد يجلس عند أحد مداخل قصره وسط حاشيته يستعرض فرسانه. ويصف بالجريف ثويني بالرجل الممتلئ الجسم هوناً ما، تبدو عليه مخايل الحصافة وحسن الطبع، وتحمل قسمات وجهه دلالات على الحذق والمهارة، ولكنها تنبئ أيضاً بالتشتت، بينما يوحي مظهره بأنه من أتباع أبيقور (أحد فلاسفة الإغريق الذي يرى أن الخير الأسمى للإنسان يكمن في استغراقه في الملذات الحسية). فحبّه للمتعة يكوّن طابع شخصيته ويبدو واضحاً على وجهه (؟) وفي سلوكياته. ارتدى ثويني حلة بيضاء اللون مطرّزة تطريزاً خفيفاً بأشكال تحاكي الورود، ما يدل على أناقة فائقة، ووضع على رأسه عمامة كشميرية بيضاء ضخمة تعلوها ماسة، بينما تدلّى من حزامه الذهبي خنجر مذهب رائع. وقد لقيت المجموعة من العاهل العماني كرماً وفيراً، حيث أصدر أوامره بتعويض صاحب المركب عن مركبه، كما لقي بالجريف من كرم أحد الحراس ثياباً جديدة وتناول مع رفاقه وجبة طعام شهية تكوّنت من الأرز واللحم الملوّن بالزعفران والزبيب والتمر. وانطلق بالجريف ومرافقه في طريقهما إلى مسقط، ووصلا مساءً إلى تخوم مطرح، وقرّرا قضاء الليل هنالك، فطرقا باب أحد المنازل فاستضافهم صاحبه وأو لم لهما.

قدّر بالجريف سكان مطرح بنحو خمسة وعشرين ألف نسمة على الأقل، وقال إنها مدينة أكبر مساحة من مسقط، وإليها تفد كل مصنوعات الداخل من مشالح وخناجر وسجاجيد، وتعقد فيها سوق عامة في يوم الاثنين من كل أسبوع. وتتفوق مسقط على مطرح في عدد السكان الذين يبلغون نحو ستين ألفاً، أربعون ألفاً منهم يقطنون المدينة ذاتها، وكذلك في كونها مخزناً للمنسوجات الهندية والأرز الهندي. ويترك بالجريف مسقط، التي لا تقل محال القيصرية فيها عن مثيلاتها في بومباي ومدراس، في ٣ شوال ١٢٩٧/٢٣ مارس ١٨٦٣ في طريقه إلى البصرة وبغداد ثم حلب. وعلينا أن نشير إلى أننا لم ننقل عمّا كتبه في تاريخ عمان المعاصر له شيئاً، فما سجّله في هذا المضمار عبارة عن تراجيديا لا يتسع لها كتاب التاريخ الذي يتحرّى عن الدقّة ويعتمد صدق المصدر. ومن عجب أن أخبار رحلة بالجريف لا يجد لها المؤرخ ذكراً إلا في كتاب بالجريف فقط دون غيره، وهذه خاصية تنفرد بها من دون أخبار أي رحلة غربية أخرى. فهل ترانا بعد ذلك نقبل شهادة كتاب نسيج وحده عن رحلة لم يشهد بها لكاتبها أي معاصر له ولا نجد لها خبراً في أي من الأرشيفات المعتمدة؟.

ألف ليلة وليلتين عنوان اكتسبه كتاب بالجريف المُسمّى **رحلة سنة عبر وسط وشرق شبه**

الجزيرة العربية بجدارة اعترف له بها رئيس أكثر الجمعيات الجغرافية العالمية شهرة وأبلغها أثراً في خدمة الاستراتيجيات الاستعمارية لأعتى الإمبراطوريات آنذاك. ونحن حين نعذر تلك العروس الجميلة التي راحت تؤنس عريسها، ذلك الملك الغشوم، ليلة بعد أخرى بقصص خرافية حفاظاً على حياتها، فلنا أن نتساءل ما الذي جعل بالجريف يأخذ دور شهرزاد ويصوغ قصصاً خرافية عن شبه الجزيرة العربية. وربما لا تعوزنا الإجابة، فهناك شخصية الرجل غير السوية، الذي وصفه معاصروه بأنه كذّاب. فإذا اجتمع هذا الكذب مع الخيال الجامح والأسلوب المثير والقلم السيّال لبالجريف مع شيء من الحقيقة التي سمعها من رُواته، وصيغ كل ذلك في القالب النمطي الموروث للفكر الأوروبي الذي يرمي الشرق بالبدائي والغريب، لاستبان عنصر التشويق في قصص بالجريف التي وجدت رواجاً في الغرب حتى برّزت أدب عصرها. لم تجنِ المخططات الاستعمارية لفرنسا من هذا الجاسوس الذي طلبت إليه التحرّي عن أحوال شبه الجزيرة العربية شيئاً يذكر، كما لم تأخذ الدوائر الاستعمارية البريطانية قصص بالجريف مأخذ الجد، ولكنها أدّت إلى نتائج بعيدة الأثر في السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية والخليج. سمحت الحكومة البريطانية لبيلي، مقيمها في الخليج، بأن يدلف إلى نجد في شبه الجزيرة العربية ويلقى شيخها فيصل بن تركي، ويستبق كل مخطط استعماري لفرنسا في تلك المنطقة. وقد ذهب بيلي إلى هناك في عام ١٨٦٥م. والمثير للانتباه أننا لا نجد في مذكرات رحلة هذا المسؤول البريطاني أي إشارة إلى بالجريف ورحلته، فهل يعني ذلك أن بالجريف لم يأت إلى الرياض، وأنه صاغ مذكراته اعتماداً على الرواة، أم أنه دخل الرياض فعلاً وعاش هناك متنكراً في زي طبيب ولم يُثر وجوده انتباه أي من الساسة السعوديين، ولم يقدم شيئاً ذا بال لمخططات الاستعمار الفرنسي تستوجب قلق منافسيهم البريطانيين؟

الفصل الثالث

المقيم البريطاني في الخليج لويس بيلي
في زيارة لعاصمة الوهابيين

ولد لويس بيلي في عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م، والتحق بجيش بومباي برتبة ملازم ثان في عام ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، ورُقّي إلى درجة الملازم في عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٣م، ونقل إلى السلك السياسي لحكومة الهند حتى رُفّع في عام ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م ليعمل قائماً بأعمال المساعد الخاص ليوحنا يعقوب الذي تأثر بيلي كثيراً بأفكاره وبنى شهرته بعدئذ في المجالين الإداري والعسكري على نظريات هذا الرجل العنصرية البغيضة. شارك لويس في الحرب البريطانية الفارسية في عام ١٨٥٧م/١٢٧٣هـ. وعمل بعد ذلك في عام ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م مرّة أخرى في السلك السياسي لحكومة الهند، وشغل لفترة منصب سكرتير البعثة البريطانية في طهران. وقام في هذه السنة برحلة على صهوة جواد من طهران إلى الهند عبر هيرات وقندهار، ما أكسبه صيتاً إضافياً في الفروسية والشجاعة. وكان لويس بيلي يرى أن العمل المكتبي لن يحقق للإداريين البريطانيين أهدافهم في خدمة استراتيجية الاستعمار البريطاني للهند، بل يجب أن يأتي ذلك تالياً للعمل الميداني. فالرحلات الميدانية تكشف للمسؤول الإداري شخصية الأرض، حتى إذا استدعى الأمر من حكومته تدخلاً عسكرياً كانت على دراية بالدروب والمسالك، كما تكشف اللقاءات المباشرة مع زعماء المناطق ورؤساء القبائل عن أفكارهم واتجاهاتهم وطموحاتهم ومواطن القوّة والضعف في شخصياتهم، وتؤدي إلى استجلاء العلاقات بينهم وبين رعاياهم، ما يُمكن الإداري من التعامل معهم بما يحقق استراتجية الاستعمار البريطاني في تلك المناطق التي تمثل الحدود الأمنية للهند البريطانية.

عيّنت حكومة الهند لويس بيلي بعد ذلك وكيلاً سياسياً لها في زنجبار، ثم نقل من هناك في ١٨٦٢م/١٢٧٢هـ مقيماً سياسياً في الخليج الفارسي. واستنّ بيلي سياسة هندوبريطانية تعمل

على التدخل بنحو نشط في الشؤون التي تتصل مباشرة بإدارة شيوخ عرب الخليج في إدارة مناطقهم. وقد أثبت بيلي الذي تجانست أفكاره مع أفكار حكومة بومباي التي أتت به إلى هذا المنصب وتعارضت في الكثير من المواقف مع آراء حكومة الهند، نجاعة أهليّته ليبقى في هذا المنصب لمدة عشر سنوات، حتى عام ١٨٧٢م/١٢٩٠هـ، حيث نُقل بعدها إلى الهند وتقلّب هناك في عدد من المناصب الإدارية الرفيعة. ورشح ملك بلجيكا في عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م لويس بيلي حاكماً عاماً للكنغو البلجيكي، ولكنه رفض العرض واختار بدلاً من ذلك أن يصبح نائباً في البرلمان البريطاني. وظلّ بيلي يعمل في السياسة حتى مات في ١٣١٣هـ/١٨٩٥م.

نعتقد من جانبنا أن زيارة بالجريف للرياض، إذا كان قد زارها حقاً، أو ربما ما رشح من أخبار عنها، حقيقية أو غير ذلك، مثلت الدافع الأساس الذي ساق بيلي إلى الرياض. فإذا كان إبعاد الخطر الدولي المتمثل في مزاحمة النشاط الاستعماري الفرنسي للنشاط الاستعماري لبريطانيا في الخليج هو من مهمات حكومة لندن، فإن مكافحة الأثر الذي خلفته زيارة بالجريف، حصلت أو لم تحصل، حقيقة كانت أو شائعة، هي من واجب السلطات السياسية للمستعمر البريطاني في الهند، ويقع تنفيذها على المقيم في بوشهر. يقول بيلي في رسالة له إلى حكومة الهند عن زيارة بالجريف للرياض، من دون أن يسمّي الرجل: "أعتقد أن هذا لا يمكن أن يحدث في منطقة آسيوية مجاورة لمنطقة نفوذي. وأرى أن من واجب الموظف الإنجليزي أن يذهب إلى أي منطقة يقتضي واجبه الذهاب إليها". وأضاف بيلي أن زيارته قد تؤدي إلى تحسن في علاقة حكومة الهند مع السعوديين، وأنه ربما يستطيع من خلال اتصاله المباشر بهم أن يخفف من الاحتكاك بين السعوديين وسلطان مسقط.

كان بيلي مدفوعاً في كل هذا بأفكاره الكولونيالية أكثر مما قد تمليه عليه واجبات وظيفته. فقد جاء توقيت هذه الزيارة بمبادرة منه، ولم يتلقّ أي تعليمات بهذا الخصوص من بومباي التي تركزت استراتيجيتها في شبه الجزيرة العربية على التعامل مع أطراف تلك المنطقة في الجانب العربي من ساحل الخليج، وعلى ألا تقيم أي اتصالات في ما وراء ذلك، ولكنّ بيلي لم يكن من مؤيدي هذا الاتجاه. فرغم تقيده بتنفيذ تلك السياسة حاول كثيراً أن يجد لنفسه هامشاً للمناورة، وكثيراً ما لقي من بومباي في هذا الجانب لوماً يصل أحياناً إلى حدّ التقريع.

كان لويس بيلي تلميذاً مخلصاً للجنرال يوحنا يعقوب، مؤمناً بأفكاره العنصرية التي تحتقر صراحة ومن دون مواربة العناصر البشرية في الشرق كافة. وقد عمل لويس بيلي تحت إمرة هذا المتهوس في الهند وتشرّب أفكاره ودافع عنها وعمل على نشرها. آمن لويس بما نادى به أستاذه من مسؤولية الرجل الأبيض في تحديث العناصر البشرية الأخرى وترقيتها. وربما لم يكن في ذلك خروج عمّا يؤمن به المسؤولون في الغرب بصفة عامة على امتداد تاريخنا الحديث، ولكنهم قلّما يعلنونه صراحة، ونادراً ما يحدثوننا به بنحو فاضح. ومع ذلك لا تتورّع

الحكومات الغربية حتى اليوم عن أن تذكرنا بمسؤليتها عن تحديثنا وترقيتنا وهدايتنا إلى سبل الحكم الرشيد، وتنصحنا بأن نسير في طريقها . وقد حاول الكولونياليون أن يجدوا هدفاً أخلاقياً للاستعمار، أو بالأحرى للاستخراب، فدافعوا عنه بأنه يسعى إلى الإعمار ومساعدة الشعوب المتخلفة للّحاق بركب المدنية والتحديث! والشاهد على ذلك أن الحروف (أ – س – ت) تفيد الطلب في العربية. وحين تدخل هذه الحروف الثلاثة على كلمة إعمار فلا يعني هذا إلا أن الغرب قد "استعمرنا" سعياً لإعمار بلادنا الخربة وإدارة مواردنا التي لا نحسن تصريفها. ويصبح لذلك كل من يعارض الاستعمار منا إرهابياً معتوهاً، مجانباً للعقل، مجافياً للإعمار، مناهضاً للتحديث.

دعا يعقوب وتابعه بيلي إلى ضرورة وضع حدود أمنية تتجاوز الحدود السياسية للمستعمرات. وقد غدت هذه الفكرة إحدى الاستراتيجيات الكولونيالية المعتمدة على امتداد التاريخ العربي الحديث. رأى بيلي ما يراه أستاذه من أن تقام وراء حدود الهند السياسية نقاط تنطلق منها دوريات لتأديب الآسيويين وراء الحدود كلما جنحوا إلى الشغب أو التمرد. فالثورة – في فكر يعقوب – ليست حقاً طبيعياً للآسيويين كما هي للأوروبين، فالعنصر مختلف. وفي الحقيقة لا يمكننا أن نفهم ما أورده بيلي في رحلته هذه أو في غيرها ما لم ندرس ما كتبه بيلي عن حياة أستاذه يعقوب يوحنا في كتابه:

Pelly Lewis (Captain), The Views and opinions of Brigadier General Jhon Jacob C.B.,London 1857 . ومما يقوله بيلي في هذا الكتاب (ص ١–٣) إن الجنرال يعقوب يرى أن: الحقّ الطبيعي في أن تحكم الشعوب نفسها هو حقٌ أنجلو ساكسوني. وإننا حين نرغم هؤلاء الشرقيين على حكم أنفسهم بأنفسهم فإن هذا لن يثمر إلا الفوضى ولا يتمخض إلا عن سوء الحكم. فالرجل من الطائفة الأولى يرى التدخل في حقه في حكم نفسه وتقييد حريته أمراً بالغ الخطورة، في حين أن الآخر حين يجبر على أن يحكم نفسه بنفسه يرى أنه قد كلف بما لا يستطيع وأن حيفاً قد وقع عليه، وأن الطغيان سيفيض نتيجة لذلك حتى يبلغ مداه. إن النظرية التي تنادي أن للجميع حقوقاً متساوية والتي يتمسك بها الأنجلوساكسون هي قاعدة خاطئة يجب ألا تطبق في الشرق. فالشرقي لا يتوقع إلا أن يكون محكوماً، ويتطلع إلى أن تحسن الحكومة التي تحكمه الحكم، وإلا فإنه سيتمرد على تلك الحكومة وينقلب عليها بغية أن يستبدل بها غيرها، ولكنه في كل الظروف لن يتطلع أبداً إلى الحرية ولا يعمل لبلوغها. يجب ألا نضع هاتين الفئتين اللتين تحركهما مبادئ مغايرة وأحاسيس مختلفة متباينة في قالب واحد، وأن نساوي بينهما. فمواطنو الهند الذين هم غير مؤهلين للحكم الذاتي ولا جديرين به، مثلهم مثل كافة الخلق، يشعرون بالامتنان ويبذلون الولاء لمن يعمل على رفع معنوياتهم والارتقاء بثقافتهم وأوضاعهم الاجتماعية. وستحركهم الرغبة الجادة كي

يظهروا بأنهم جديرون بالوضع المحترم الذي آلوا إليه. إنهم لا يثقون بمواطنيهم، ولا يرون أنهم جديرون بارتقاء سدة حكمهم، ولا يرضخون لأي من بني جلدتهم، لكنهم يرضخون للسيد الإنجليزي الذي يعترفون بتفوقه، ويدركون أنه الأرقى عنصراً. إننا نحكم الهند لأننا بحكم ما عُرفنا به وبحكم الحقيقة الواضحة نمثل العنصر الأرقى درجة من الآسويين، ولولا هذا الرقي الطبيعي فإنه ما كان لنا ولن يكون لنا أن نحكم الهند ولو لأسبوع واحد. استبعدوا ما يشاع عن المساواة بين العنصرين، ودعونا نواجه قدرنا الحقيقي كعنصر قدره السيطرة فنضرب لهم بذلك المثل الأعلى، ونجعلهم يدركون معنى الحقيقة والأمانة ونُبيّن لهم قيمتهما. فنحن بحكم رقيّنا الأخلاقي النابع من المثل العليا والمؤسس على القيم سنزيد في قدرات هؤلاء على الفهم، وسيصبح حينئذ حكمنا لهم أكثر رسوخاً. يستمر بيلي في كتابه بعرض هذه النظريات العنصرية الفوضوية المقذعة التي يدعو إليها أستاذه. ولمن يريد أن يستزيد من هذا الهراء الغث فليراجع الكتاب المذكور.

دواعي الرحلة

"في العام الماضي لفت السيد فريري، رئيس جمعية بومباي الجغرافية، الانتباه إلى المداولات الصادرة عن الجمعية الجغرافية الملكية بتاريخ ٢١ ذي القعدة ١٢٨٠/٢٨ إبريل ١٨٦٤، والتساؤلات التي أثيرت في لندن عن جغرافية المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية، والرغبة في التحقق بنحو علمي دقيق من موقع الرياض، عاصمة نجد، وموقع الهفوف أيضاً، إضافة إلى دراسة الشخصية الطبيعية للطريق الذي يربط بين الرياض وخط الساحل عند الخليج."

وهنا يمكن أن نشير إلى أن محاضرة بالجريف التي ألقاها في تلك الجمعية التي استنكر رئيسها ما ورد فيها من معلومات، وهي للخيال أقرب منها إلى الحقيقة، ربما كانت السبب الأساس الذي دفع هذه الجمعية إلى محاولة التحقق من تلك المعلومات.

يقول بيلي إن ذلك تصادف في وقت كان يتطلع فيه إلى لقاء غير رسمي مع شيخ نجد تحقيقاً لمهمة تتعلق بالمصلحة العامة. وعلى ذلك فقد قرّر أن يشدّ الرحال إلى الرياض، على أن يسلك إليها في رحلة الذهاب طريقاً مغايراً للطريق الذي يزمع أن يقطعه في رحلة الإياب. "وقد تطوّع كل من الدكتور كلوفيل والضابط داويس، الموظفين في الإدارة التي أتولى رئاستها، بمرافقتي في هذه الرحلة. وأشهد لهما بأنهما قد تحمّلا مشاق الرحلة بنفس راضية، ويجب عليّ أن أشيد بالمساعدة القيّمة التي لقيتها منهما".

الوصول إلى الكويت

"وصلنا إلى ميناء الكويت الذي يقع على الزاوية الشمالية الغربية من الخليج، حيث مكثنا بعض الوقت ريثما نعدّ عدتنا لهذه الرحلة وندبر بعض مستلزماتها ونذلّل بعض العوائق الصغيرة. وجاء شيخ الكويت لوداعنا، خذ الإبل والله معك". و لم يوافقه الشيخ يوسف بن بدر، وهو من التجار المعروفين في أسواق بومباي، فقد كان يرى ضرورة أن يحصل بيلي على رد من فيصل يفيد بالموافقة على قيامه بزيارته. وأيّد شيوخ الكويت الآخرون رأي يوسف. ويبدو أن فيصل كان قد وعد بيلي بأن يجد في الكويت مندوباً من قبله ليرافقه إلى الرياض، ولكنه – كما يتضح من الخطاب التالي – لم يجده. كتب بيلي من الكويت إلى فيصل:

> "للأمير" فيصل في **١٧** شعبان **١٢٨١** مطابق **١٦** جانوري **١٨٦٥**. ثم لا يخفى هو أنه بموجب الموعد الذي صار من المكرم رجالكم سعود بن عبد الرحمن بن زبن قد وردنا الى الكويت ولا وجدناه حاضراً صار متوجهاً إلى طرفكم ولا احبينا الاقدام في الطريق دون ورقة أم رجال من جنابكم فلأجل ذلك تأخرنا في الكويت وحررنا هذه الأحرف فسبيل الاستعجال وأرسلناها مع طارش مخصوص غاية الأمل عند ورودها لديكم تفضلوا بإرسال رجال أم ورقة من جنابكم لنتقدم لملاقاتكم إن شاء الله هي على خير وسلامة فحصا للأنس والصحبة فإن شاء الله ما تقصرون في ذلك.

راجع نصّ الخطاب في: **(IOR) Rl 15/1/181**.

أشار بيلي إلى أنه كان قد كتب إلى الإمام فيصل بن تركي خطاباً مهذباً، كما يصفه، يبدي فيه الرغبة في قيام صداقة بينهما يوثقها بزيارة للرياض "إذا لم يكن لديه اعتراض على ذلك"، ويضيف بيلي أن ردّ فيصل لم يكن مشجعاً فكتب إليه ثانية، ولكنه لم يتلقّ منه رداً. ويضيف بيلي أنه علم – بعد ذلك – من بعض القادمين من الرياض أن الإمام بدأ يقتنع بأن بيلي يقصد من زيارته "تحقيق المصلحة العامة". وشجعت هذه الأخبار بيلي على الإعداد لهذه الرحلة من الكويت التي وصلها في **١٦** شعبان **١٢٨١/١٥** يناير **١٨٦٥** للتشاور مع شيوخها في بعض ما عنّ له من استفسارات عن أمثل الطرق من بلدهم إلى الرياض، وكذلك طرق العودة من هناك عبر الأحساء أو العقير وغير ذلك. ومن الكويت أرسل بيلي رسولاً إلى فيصل يخبره أنه في طريقه إليه لزيارته. وقد أزمع بيلي أن يسير بركبه في تؤدة في إثر رسوله ريثما يرجع

له برد في مرحلة ما من مراحل الطريق. واعترض يوسف بن بدر على هذا الرأي، ونصح بيلي بالتريّث، واجتمع رأي شيوخ الكويت الآخرين على ذلك أيضاً. واستقر بيلي ضيفاً عند يوسف بن بدر، ذلك الشيخ المسن الذي بلغ الثانية والسبعين من عمره، الموسر الذي تزوج في حياته أكثر من ست وعشرين امرأة، له منهن أبناء كُثر يجلّونه ويوقّرونه كثيراً. "وقد كان هؤلاء جميعاً في خدمتي".

عاد موفد بيلي إلى الرياض بموافقة فيصل على زيارته له، ولكن الأخير لم يمدّ بيلي بدليل للطريق ولا بمرافق ليكون مسؤولاً عن سلامة الركب. ويقول بيلي إن وجوده في ضيافة بدر قد أثرى معرفته بالكثير عن حياة البدو وغزواتهم، وبالبادية وأعرافها وشروط الخوّة والرفيق في مسالك شبه الجزيرة العربية. وقد استمتع بيلي في ضيافة يوسف بالجلسات المسائية التي تُدار فيها القهوة والشيشة وتدور فيها كثير من الأحاديث. وخاضت مذكرات بيلي في العديد من الشؤون الكويتية حيث كتب في تاريخها، وقال إن الكويت لفظة تدل على تصغير كلمة كوت، والكلمة علم على قلعة بُنيت قبل حوالى قرن من الزمان، وكانت المنطقة تُعرف قبل ذلك بالقرين التي هي تصغير لكلمة قرن، وذلك لأن الكويت تقع على خليج معقوف يشابه قرن الحيوان. وكتب بيلي في تجارة التصدير والاستيراد في الكويت مع الهند وفي المنتجات التي ترد الكويت من الأصقاع المختلفة، ورأى في الكويتيين الذين يحملون تلك التجارة أمهر بحارة الخليج. وتناول علاقات الكويت التجارية مع البادية، وأفاد بأن الكويت تسمح للبدو بالامتيار شريطة أن يودعوا أسلحتهم بوابة المدينة عند مجلس الشيخ، حيث تقام كل مساء وليمة عشاء يحضرها كل من يقصد ذلك المجلس. ويُفصّل بيلي القول في أطعمة الموسرين والفقراء من أهل الكويت في الحضر والمدر، ويضيف أن الجراد يُعدّ وجبة شهية في البادية، وفي المدينة كذلك. ويشير إلى أن العلاج المأثور في الكويت يتمثل في الكي والصدقات، وذكر أن مضيفه يوسف مرض بالكوليرا فتصّدق بألف ريال وشُفي، مضيفاً أن الرجل كان مُحسناً، وعادة ما يقصده الفقراء في يوم الجمعة من كل أسبوع ويرجعون بإحسانه. ونرى بيلي منصفاً حين ذكر أن ما يتمتع به يوسف بن بدر من صحة نفسية وجسدية يعود إلى بذله الصدقة لمن يقصده.

بداية الرحلة

دلف ركب المقيم في يوم السبت ٢١ رمضان ١٢٨١/١٨ فبراير إلى الصحراء في وقت تدثرت

فيه أبهى حللها – كما يقول بيلي – وازدهت برونق نوّار فصل الربيع. " ولامست قدماي تلك السهوب التي لم يطمسها قبلي في هذا الوقت من العام، إلا حديثاً، البدو الذين ضربوا خيامهم فيها وانتشروا في ربوعها في سعيهم وراء الكلأ. وراحت الطيور تغرّد فرحة بمقدمي. وكم شاقني أن أرى القُبّرة ترتفع من على الأرض في دلال لترفرف عند حافة لجام حصاني ثم تنثني لتحطّ عليها مرّة أخرى، وهي في صعودها وهبوطها تشدو بلحن شجي تهدهد به صمت الصحراء العميق، ذلك الصمت الذي خُيّل إلي أنه قد كسا الوجود بأسره. يا إلهي، ما هذه؟! إنها أنثى طائر البرغش، بضّة غضّة ترافق ركبنا في نزهة لبرهة ثم تنثني مزهوّة فرحة تيّاهة تصدح في حبور، وكأني بها تُزمع أن تزفّ لي أخباراً سارة، ولكن يا لمأساتي فإني عييّ لا أفقه ما أرادت أن تبوح به إلي!"

يقول بيلي إنهم لم يعمدوا خلال هذه الرحلة إلى ستر هوياتهم، وكانوا طوال هذه الفترة معروفين بما هم عليه. ومع ذلك فقد وجد أن الحكمة تقتضي تجنب إثارة الانتباه وعدم الدخول في الريبة. وللخروج من الشبهات قرر أن يرتدي والمجموعة المرافقة له العباءات والكوفيات التي هي الزي المألوف في هذا الإقليم، وكانوا يتلفعون بها ويجعلونها فوق ملابسهم المعتادة. وكانت المجموعة تضمّ إضافة إلى بيلي والضابط دواس والجراح كولفيل مترجماً هو جورج لوكاس، واثنين من الجنود من مسلمي المقاطعات الشمالية في الهند البريطانية، واثنين من مواطني كلكتا، وخادماً فارسياً، ودليلاً للطريق من قبيلة الصليب.

قطع ركب المقيم الشوط الأكبر من الرحلة إلى الرياض فوق أكوار الإبل، وكانوا يبدأون بالسير قبل شروق الشمس ويتابعونه حتى مغيبها ثم يهجعون. وكانت إبلهم – طوال الرحلة – تقرطم ما قد يصادفها في طريقها من عشب وهم على ظهورها يواصلون المسير. وحين يترجلون عنها مساءً، يتركونها وشأنها تناضل للظفر بوجبتها المسائية التي لا تكاد تجد منها ما يسدّ رمقها، ثم لا يلبثون أن يجمعوا شتاتها ويعقلونها لقضاء الليل.

ولا مندوحة من القول إني قد استبنت في هذه الرحلة عدم جدوى ركوب الخيل المثقلة بأحمالها عبر هذه الأرض. حملتنا هذه الإبل وأمتعتنا مسافة بين ثمانمئة إلى تسعمئة ميل في مدى ستة وعشرين يوماً تواصل فيها مسيرنا تباعاً، لم ينقطع إلا في ثلاثة أيام فقط. و لم ترد إبلنا الماء خلال الأيام العشرة الأولى من المسير سوى مرّة واحدة فقط. وكنت من جانبي حريصاً وأنا أطرق مسالك أراضٍ جافة لا أثر فيها للمياه أن أضمّ إلى ركابي ناقة حلوب حيث يمكن الاعتماد على لبنها بنحوٍ تام، وكفى بذلك قوتاً من دون إضافات أخرى. يمكن البشر الاكتفاء بلبن النوق من دون غيره من الطعام، سائلاً كان أو جافاً، وذلك في خلال فصل الربيع حين

ترتع تلك النوق وترعى الكلأ الذي يتوافر لها. ومما لا مراء فيه أيضاً أن الخيل يمكنها أن تعيش على ذلك اللبن.

انتهى الركب في مسيرة اليوم الأول بعد خروجه من الكويت إلى جوار قلعة ملح التي تكوّن الحدود البرية لمشيخة الكويت الصغيرة. وعند ملح ينتهي كل أثر يمكن أن يدلّ على طريق، فتدخل من ثمّ إلى أرض الوهابيين عبر هذه السهوب المتموجة الشاسعة الامتداد التي تزدهر فيها في موسم الربيع الحياة النباتية البرية فتهدي العيون خضرة يانعة وبهجة وبهاءً. يقع على ميمنة الركب تلّ وارة المخروطي الشكل يليه بمسافة قصيرة تل الصباحية. و لم يصادف الركب منذ أن ولج هذه المنطقة حتى دخوله إقليم نجد أي أثر يدلّ على وجود مستقرّات بشرية، فلا كوخ ولا أي موارد للمياه في كل هذه الأرض على امتدادها، إلا مجموعة واحدة تقف إلى جوارها شجرة واحدة يتيمة. وعلى الرغم من ذلك، فقد جاد الربيع على هذه السباسب المتموجة في امتداد بغلالة شفيفة من نضرة يانعة خضراء، وكساها من الأعشاب والزهور البرّية أبهى الحلل. فوق هذه الأرض كان بيلي ورفاقه يضربون خيمتهم الصغيرة ويجعلون مدخلها في اتجاه الشمال، ويستبينون اتجاههم برصد مواقع النجوم في هجعة الليل البهيم.

مرّ ركب بيلي في يوم ٢٢ رمضان/١٩ فبراير بمنزل غير مأهول يدعى لقيت (؟) الغيط (؟) تتفرع منه الطرق إلى عدّة اتجاهات، منها الاتجاه الذي يقود إلى الزلفي والذي يقع على ميمنة الركب. وقطع الركب في يوم ٢٠ فبراير خور القرين الواقع في القسم الساحلي من العدان، ذلك الجزء الذي يظهر في الخرائط منطقة ممتدة من الكويت إلى القطيف ولا يبعد عن الموقع الأول سوى مسيرة يوم واحد فقط في اتجاه الجنوب مباشرة. ويجمع هذه المنطقة اسم عام تعرف به وهو أم جنيب. وفي يوم ٢١ وصل الركب إلى منطقة تلال شبه دائرية تدعى دلا الكبريت، والتي تعرف أيضاً باسم شق بعد أن اجتاز إليها سلسلة تلال منخفضة. ويقول بيلي إن الطريق يتجه من هذا الموقع شمالاً إلى صفوان، وهو تلّ مشهور في مجاورة الزبير التي تقع بدورها في جوار البصرة. ويضيف: ويقال إن طبقات سطح أرض منطقة شق تشكل قوساً يتطابق مع انحناء سلسلة التلال التي تُعين حدود المنطقة. وقد أخبرهم الدليل الصليبي أن المواطنين إذا حدث لهم أن ضلوا طريقهم في هذه المنطقة فإنهم يحفرون الأرض فيهتدون من خلال اتجاهات طبقاتها. ويلاحظ بيلي أن هذه المنطقة ترتفع بنحو طفيف عن مستوى سطح البحر. أما في يوم ٢٢ فبراير فقد وصل الركب بعد مسيره على أرض أقل انتظاماً في تموجها عن سابقتها عبر هذه المنطقة التي تفرقت تلالها وتبعثرت وفُصل بعضها عن بعض

بمناطق انتشرت فوقها طبقة رقيقة من الحصى والحصباء، فيما تبرز فوق سطح الأرض في موقع أو اثنين حُويصلات شكّلها الحجر الرملي. ويلاحظ أن سطح الأرض يشهد في هذه المنطقة ارتفاعاً يتنامى في اتجاه شمالي غربي كلما توجه الركب إلى الداخل، كما يلاحظ أن الجوّ غدا أكثر برودة. وبعد أن فارق الركب منطقة شقّ وصل إلى منطقة مسكونة بالتلال الرملية تسمى رديف، ثم بلغ الركب ورية وغادرها في **٢٣** فبراير.

لعلنا – من جانبنا – نلاحظ أن لوريمر (**الدليل، الجغرافي**، ج ٧، ص **٢٣٦٤**) ذكر شقّ وعرّفها بأنها منطقة في إمارة الكويت، تقع بين الباطن في الشمال وتلال مهزول في الغرب ودبدبة في الجنوب وأم الخيلان والباطح في الشرق، ويبعد وسطها خمسين ميلاً شمالي غربي الجهراء. ويبدو أنها اكتسبت اسمها من الانخفاضات والتشققات التي يتجه واحد منها نحو الشمال الشرقي، فيما يتجه اثنان آخران منها نحو الجنوب الغربي. ويلاحظ لوريمر أن الشقّ تشبه في طوبوغرافيتها ومظاهرها التضاريسية مناطق الباطن ورماح. أما عبد الله بن خميس (**معجم اليمامة**، ج ٢، ص **٥٠**) فيرى أن الطريق من الكويت إلى نجد يمر بشط متجاوزاً شقّ. فهل خلط بيلي، كما هي حاله غالباً في الأسماء التي أوردها في رحلته هذه، فاستبدل شطّ بشقّ؟ وفي تعريف ابن خميس لشطّ أنها قرية في حجر اليمامة قبلتها بين الوتر والعارض. وقد ورد ذكر هذه القرية في شعر الأعشى:

شاقتك من قتلة أطلالها	بالشطّ فالوتر إلى حاجر
فركن مهراس إلى مارد	فقاع منفوحة ذي الحائر

فهل سلك بيلي طريق الأعشى؟

اشتغل الجراح كلوفيل طوال الرحلة من دون كلل أو ملل بجمع عيّنات من الصخور والنباتات، وكان يقوم بعمله خلسة لئلّا يشعر به أحد حتى لا يحرك كوامن الهواجس أو يثير الريب. أما بيلي فكان يدوّن في إيجاز مراحل الطريق من النقطة التي يبدأ الركب منها مسيره إلى النقطة التي ينتهي إليها، وعدد ساعات ما بين المنزلين، والاتجاه الذي سلكوه، وتوصيفاً لطبيعة الأرض التي قطعوها. وقد خلص بيلي حين قارن ما جمعه من معلومات عن طبيعة الأرض ومن رصده لمواقع النجوم واتجاهاتها، إضافة إلى المعلومات التفصيلية الأخرى، إلى رسم الطريق الذي سلكوه بقدر كبير من الدقة التي لا تهمل التفاصيل.

" ويمكنني القول إن ما رصدناه من تغيرات في طبيعة شخصية الأرض على امتداد طريقنا كان واضحاً تماماً. شكّلت هذه الأرض في امتدادها الطولي شرائح عريضة متموّجة تتوازى بشكل عام مع سيف ساحل الخليج، وتمتد مترامية فتضم حيّزاً شاسعاً طولاً وعرضاً."

منطقة الصمان

اجتاز الركب وبرة التي يمكن أن توصف بأنها عتبة الصمان أو سطح الكتف الصخرية التي ترقد عليها منطقة وسط شبه الجزيرة العربية. وما تلبث أرض وبرة أن يداخلها التغيير التدريجي شيئاً فشيئاً حتى تصبح مكسرة مبعثرة في شكل كومات ترابية وأكوام حجر جيري تتبعثر فوقها الحصى والحصباء، ويأخذ سطح الأرض هذه الصورة حتى يتصل بالخط المعروف بالصمان.

لعلنا – من جانبنا – نلاحظ أن وبرة قد تردد ذكرها كثيراً في شعر ذي الرمة الذي أكثر من ذكر أعلام الصمان. يعرّف عبد الله بن خميس (**معجم اليمامة**، ج ٢، ص ٨٣–٨٧) الصمان فيقول: إنه منطقة تقع شرقي الدهناء وجنوبي وادي الباطن وجنوبي وادي المياه وشمالي طريق المنطقة الشرقية. في المفصل ما بين الدهناء والفروق بتداخل مع منطقة الصلب في ما أدخلته هذه الحدود حتى لا يكاد عارف أن يفرق بينهما. ويضيف ابن خميس أن بعضهم يرى أن الصمان هو الصلب. وتتكوّن هذه المنطقة من حزون متداخلة وحقاف وحتائب تتخللها رياض ومستقرات.

يقول بيلي إن إقليم الصمان يتكوّن من مجموعة كومات ترابية مبعثرة في غير انتظام، تتبادل مع تلال من الأحجار الرملية مسطحة القمم التي تعلوها آثار حزوز أحدثتها التعرية الناجمة عن أمطار الشتاء التي انسابت أودية متعرجة انتهت إلى قيعان مفلطحة. وتصبح تلال الأحجار الرملية أكثر ارتفاعاً وأبلغ تشابكاً كلما توغل ركبه في اتجاه الداخل إلى الرياض. ويضيف أنه عرف من تحرياته أن حزام الصمان يمتد في اتجاه شمالي لمسيرة ثمانية أيام، ينتهي نطاقه بعدها لتبدأ من ثم منطقة حجر التي تمتد من هنالك حتى تتصل بمنطقة سوق الشيوخ. وفي الحقيقة، إن منطقة حجر تكوّن مع الصمان حزاماً واحداً يطلق فيها اسم الصمان على المنطقة التي تعجّ بالصخور المهشمة، بينما يطلق اسم حجر على المنطقة التي تكسوها الجلاميد ذات اللون الداكن.

توقف الركب في يوم ٢٧ رمضان/٢٤ فبراير عند منخفض وبرة في تلال الصمان الذي يضم أكثر من مئة بئر في حيّز لا يتجاوز أربعمئة ياردة مربعة، ولكنهم وجدوا أن القليل منها فقط كان في حالة جيدة، وأن مياه هذه الآبار كلها، ما خلا واحدة منها فقط، مرّة المذاق. تستضيف هذه المنطقة في بعض مواسم السنة أعداداً غفيرة من الوهابيين يقيمون فيها بعد أن يصلحوا آبارها التي حفرت في الصخر الأصم إلى أعماق تتراوح بين ثلاث وأربع قامات. وقد قيل إن حفر هذه الآبار يعود إلى أزمان غابرة. ويمثّل منخفض وبرة نقطة تقاطع تلتقي عندها الطرق الخارجة من الكويت ثم تتفرع إلى عدّة مناطق في شبه الجزيرة العربية. يسير أحد هذه الطرق المتفرع من مجاورة هذه الآبار في اتجاه جنوبي غربي إلى غربي، فيصل إلى

المجمعة في سدير في ستة أيام. وكم كان بيلي توّاقاً إلى أن يسلك ذلك الطريق ليقف على بعض المخربشات في منطقة جريف بالقرب من جلاجل، ولكن صدّه عن ذلك نقص المياه في القرب وكذلك التردد الذي أبداه الدليل الذي كان يخشى مخاطر قطع تلك التلال الرملية.

وفي مجال اهتمام بيلي بالآثار أيضاً يذكر أنه رأى عند آبار وبرة قلعة صغيرة قيل له إنها قديمة جداً، ولكنه أبدى تشككه في ذلك.

الدهناء

يلاحظ لويس أن منطقة الصمان تأخذ في الانفتاح اعتباراً من منخفض وبرة، فتبدو الأودية أكثر اتساعاً، فيما تصبح التلال القليلة الارتفاع التي تتميز سفوحها بلون كلون الطوب الأحمر أكثر تواتراً. تأخذ هذه التلال الأخيرة، التي لا يتميز لون سفوحها عن سابقه، شكلاً مخروطياً في الغالب. وتنمو في هذه المنطقة نباتات برية يأكلها البدو، منها بصيلة شبيهة بالفول البرازيلي شكلاً وتماثله طعماً يقلفونها ويأكلون الثمرة التي بداخلها، ومنها كذلك صنوف من ثمار الحماض اللاذع الذي يأكله البدو ويستسيغون طعمه، وقيل إنه قد جُلب في فترة سابقة من مصر.

خرج ركب المقيم في يوم ٢٦ فبراير من الصمان الذي راحت تلاله تنخفض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت تدريجاً لتنتهي إلى شكل متموج من الحجارة الرملية المختلطة بصفائح من تلك الحجارة ذاتها. وهكذا فارق الركب منطقة التلال ليدخل أرضاً ثابتة هوناً ما قوامها الحصى والحصباء. وتبدّت لبيلي في الأفق البعيد تلال الدهناء الرملية التي ارتفعت أمام ناظريه في حدة وشموخ، وبدت له - في ما يقول - كأن ظاهرها يمثل سوراً متجهماً لا يفصح عمّا خلفه. يرتفع أول عرق من عروق الدهناء إلى حوالى مئة قدم، فيما يصل امتداد عرضه الذي تناثرت فوقه الحشائش إلى مئات الياردات. وتفصل بين كل عرق رملي في الدهناء والعرق الآخر أرض صلبة تمتد إلى بضعة أميال ليرتفع بعدها عرق آخر، وهكذا دواليك تتوالى العروق الرملية التي كُسيت خضرة طفيفة في هذا الموسم من السنة مع الأرض الصلبة، فتبدو كأنها مرتفعات صخرية قد افترشت الركام واتخذت منه مرقداً. **يطلق المواطنون اسم الدهناء على هذا الحزام الرملي العظيم في شبه الجزيرة العربية**، ويقصرونه فقط على هذه المنطقة. تتقاسم حيّز المنطقة العروق الرملية المتوازية التي يسودها هذا الحزام الرملي الكثيف الذي يموج بعضه فوق بعض كأنه الموجات الطويلة المتتابعة على سطح البحر.

تقع إلى الشمال من هذا الحزام الرملي وكذلك إلى الجنوب منه، منطقة على تخوم الدهناء

الخارجية، تسودها التلال الرملية المبعثرة التي تأخذ شكل الكثبان أحياناً، تسمى النفود، كما جاء عند بيلي. وهو قول يؤيده ما جاء عند حمد الجاسر (**المعجم الجغرافي للبلاد السعودية: شمال المملكة**، القسم الثالث، ص **١٣٢٢**) حيث قال إن النفود لفظ يطلق على الرمال العظيمة المستطيلة الشكل. ويتفق الجاسر مع بيلي في أن النفود تطلق على بعض أقسام الدهناء.

يستطرد بيلي فيقول إن ركبهم قطع عبر الدهناء سبعة عروق واضحة المعالم، يشغل عرض بعضها عدّة أميال، ولا يرتفع أي منها عن السطح الذي يفصله عن العرق التالي له بأكثر من مئتين إلى ثلاثمئة قدم. ويتراوح طول كل سهل من هذه السهول الفاصلة بين عشرة واثني عشر ميلاً. وقد توقف الركب في مساء يوم **٢٨** فبراير فوق قمة العرق الرملي الأخير، واستشرف سهلاً متسعاً لا يحده إلا الأفق. ويمكن المرء – كما يقول بيلي – أن يتخيل أنه يقف على ذروة ربوة عالية يطالع البحر من علٍ. يتميز هذا السهل بكثافة رماله التي تبدو كأنها السحب المتراكمة يخالطها هشيم متناثر شذر مذر تلفع بلون الرمل أيضاً. ويبدو لك من هذا الموقف الاختلاف البيّن والانقلاب الواضح في شخصية الأرض التي بات الركب على أعتابها.

يلاحظ بيلي أن مظاهر الحياة النباتية في الدهناء تختلف عنها في المناطق المجاورة في عدّة أشكال. فالحياة الحيوانية في هذه المنطقة فقيرة، إذ لم يصادفوا في هذه الأرض سوى أنماط قليلة منها فقط. قد تقع العين على ظبي أو أرنب بريّ أحياناً، ولربما تصادف بعض الأوابد الأخرى، ولكن الثعابين والضباب كثيرة متعددة الفصائل، كما تزخر هذه الأرض بالجُعل المتنوع الأشكال والألوان. وقد ظلّ مرافقو بيلي يقتلون في كل يوم عدداً من الثعابين يربو على عشرة، ولكنه زهد في الاحتفاظ بأي من أنواعها حتى لا يثير شكوك "الوهابيين".

العرمة

عبر الركب في اليوم الثالث من شوال/الأول من مارس السهل الواقع أسفل الحدود الغربية للدهناء مباشرة، فدلف إلى العرمة التي تضمّ مجموعة آبار تحمل الاسم ذاته، أو يمكن – تحرّياً للدقّة – أن نقول إنها تعرف بالعرمية تمييزاً لها عن آبار أخرى تقع إلى الشرق منها بمسافة قصيرة. تطل هاتان المجموعتان من الآبار على مجرى وادٍ جاف يجري من الجنوب الغربي في اتجاه الشرق مع انحدار طفيف في اتجاه الشمال. يبدأ هذا المجرى من خط توزيع المياه في منطقة العرمة في حدودها الجنوبية ثم ينحدر شرقاً حتى يتلاشى ويغوص في الدهناء. وتعمر حوافّ هذا المجرى شجيرات سلم يمكن القول إنها الشجيرات الأولى التي وقعت عليها أعين الركب منذ أن بارح الكويت، ربما مع استثناء واحد فقط. وقد تيسر لإبلهم أن ترد الماء للمرّة

الثانية منذ خروجهم من الكويت من هذه الآبار. وفي اعتقادنا أن تعريف عبد الله بن خميس للعرمة يظل أكثر تحديداً من تعريف بيلي لها. يقول ابن خميس (سبق ذكره، ص ١٥٤ وكذلك ص ٢٤٧) العرمة عارض مستطيل يجري من الشمال إلى الجنوب، جباله صوانية في الغالب، تنحدر جبالها من الناحية الغربية انحداراً شديداً. أما من الناحية الشرقية فتأخذ في الانحدار التدريجي حتى تلامس السهول الشرقية بينه وبين الدهناء. وتنحدر من جبال العرمة أودية كثيرة تمرّ بهذه السهول... وفي العرمة مناطق مأهولة بنحو دائم أو موسمي، منها الثمامة والرميحية. ويرى ابن خميس أن أكثر أودية العرمة وأكبرها تنحدر بحكم تكوينها نحو الشرق وتصبّ في حضن الدهناء وتستقرّ هناك، وقليل من أوديتها يصبّ غرباً.

يستطرد بيلي فيقول: تعد العرمة بنحو عام بداية إقليم نجد، هذا على الرغم من أن نجد تعني - كما يفيد معنى اللفظ - المرتفع من الأرض، أو كما يفيد مبناه، الهضبة الوسطى لشبه الجزيرة العربية. بدت له الأرض التي اجتازوها في هذه المنطقة أكثر تفككاً من سابقتها، وهي أشبه بمنطقة الصمان لا تختلف عنها إلا بوجود الشجيرات والأشجار، كما أن أوديتها بدت أكثر تعرجاً من سابقتها. ويلاحظ بيلي أن الإبل قد تنسمت منذ هذا الصباح طريقها الصحيح بنحو أو بآخر، وإن ظلّ واحد منها مكتف الخطى، وكان إذا لم يعقل حين يراح، جاداً في أن ينفلت ليلحق بموطنه.

تابع رتل المقيم مسيره في يوم ٤ شوال/٢ مارس عبر مجرى السيل حتى انتهى إلى منبعه في حزام سلسلة التلال التي تمثّل المتراس الغربي للعرمة. "طوقتنا هذه السلسلة وأحاطت بنا من ميمنتنا وميسرتنا ومن أمامنا، وبدت لنا كالمسرح المدرج المفتوح". شكّلت هذه التلال شبه دائرة تكاد تكون متصلة إلا من انكسار شديد الانحدار يفصل بين ذراعي هذه السلسلة التلّية. وتكوّن هذه السلسلة من التلال خط توزيع المياه في العرمة، تنحدر منه خيران المياه شرقاً وتسقي العرمة، أما الخيران التي تجري منه غرباً فوق منحدرات حادة فتغوص في عرق رملي طويل يمثل الحد الغربي الأدنى لمنطقة العرمة. وتقع الثمامة مباشرة وراء هذه التلال. والثمامة التي أوردها بيلي هنا هي الوادي الذي كان يعرف قديماً بوادي غيلانة، كما يذكر عبد الله بن خميس (ج١، ص ٢٣٩-٢٤٠).

يستطرد بيلي: "يمرّ طريقنا عبر تلك الفرجة" التي يصفها بأنها أبلغ ما رأى جمالاً وأروع ما شاهد بهاءً. وعبر ركبه بعدئذ ممراً شديد الانحدار أفضى بهم إلى حزام سهلي ضيق يحدّه عرق رملي يتوسط منحدرات الثمامة، والعرق الرملي الآخر المحاذي لنهاياتها. ترجّلوا وأراحوا إبلهم عند الجانب الأقصى من هذا العرق الذي يصل عرضه إلى أربعة أميال، والذي يقع مباشرة تحت كثيب عظيم الحجم هرمي الشكل.

في اليوم الثالث من مارس وصل المقيم البريطاني إلى منطقة شعب (لعلها شعيب في تقديرنا)

التي هي عبارة عن سهل مرتفع في تدرج يتنامى ارتفاعه ويصل عرضه إلى عدّة أميال. ويُعدّ هذا السهل الحدّ الفاصل بين سلسلة المرتفعات الفرعية وبين منحدرات تلال العارض التي تكوّن الكتلة الشرقية لمرتفعات نجد. وفي هذا الصدد يرى عبد الله بن خميس أن للعارض مفهوماً قديماً وآخر حديثاً. كان اللفظ قديماً يفيد منطقة جبل اليمامة من الشمال إلى الجنوب، ولكنها في مفهومها الأحدث الذي يمتد إلى حوالى ثلاثة قرون، تعني القسم المحصور بين منطقة شعيب إلى منطقة الخرج، أي إنه يشمل الرياض وملحقاتها.

تستطيع حين تنظر من سهل شعب – كما يقول بيلي – أن ترى سلسلة الثمامة تمتد في اتجاه شمالي غربي. ويمتد سهل شعب مسيرة يوم إلى الشمال من المنطقة التي قطعناها، كما يوجد في النهاية الشمالية القصوى من تلال العارض سهل براح يفصل بينها وبين تلال طويق إلى الغرب منها. وتعرف هذه الفرجة السهلية باسم المحمل، واللفظ يعني المطمئن من الأرض. يضم هذا السهل حريملاء والبير وثادق. أما المنطقة السهلية الممتدة إلى الشمال من تلال العارض التي تقع بين سلسلة طويق ومنطقة العرمة فتُعرف بالباطن. ويجري على امتداد الحدود الغربية للباطن تحت تلال طويق مباشرة شريط زراعي يُعرف باسم سدير. وتقع مدن العودة وعطار والحوطة والرويضة وتويم وجريفة وجلاجل والمجمعة والغاط في سدير. أما الزلفي التي تقع على مسيرة اثني عشر يوماً من الكويت وعلى بعد خمسة أيام تقريباً من الرياض، فهي أقصى مدينة في شمال سدير.

كان يتحتّم على المقيم بيلي – كما يقول – إذا أراد أن يتجه من موقع معسكره في الشعب مباشرة إلى الرياض أن يسير في اتجاه الجنوب عموماً. ولكن بما أنه كان يرغب في أن يزور سدوس ليتفحص عموداً أثرياً في تلك المدينة، وبما أنه كان يرغب أيضاً في أن يتقصى خط مجرى وادي حنيفة، فقد اتخذ ركبه عبر سهل الشعب اتجاهاً جنوبياً شرقياً، فاخترق من ثَمّ سلسلة تلال العارض عبر وادي الوتر فدخل سدوس من مدخلها الغربي، وكان الركب قد استشرف في طريقه سهل المحمل عبر سلسلة طويق التي تبعد عن سدوس مسافة خمسة عشر ميلاً. وشاهد المقيم في طريقه قلعة صغيرة في وادي الوتر شيّدت عند نبع ماء وتقوم بجانبها بعض الزراعة.

يرى بيلي أن منطقة سدوس مبهجة، أما المدينة فيصفها بالأنيقة تطوّقها حدائق النخيل التي تُروى من عدد وفير من الآبار. وقف المقيم عند العمود الذي جاء لتفحصه، و"هو متناسق وأنيق ولا يعرف العرب من تاريخه إلا أنه يعود إلى عصور الجاهلية، وقد تفضل الملازم دويس برسمه".

في الحقيقة لم يكن بيلي هو أول من أشار إلى هذا العمود، فقد ورد ذكره عند الكتاب المسلمين الكلاسكيين وغيرهم. ففي حديث الهمداني عن قرية بني سدوس بن ذهل بن ثعلبة،

يروي أن فيها قصراً لسليمان بن داوُد عليه السلام بُني بصخر منحوت عجيب، خراب. كما ذكر ياقوت أيضاً أن في سدوس منبراً وقصراً من بناء سليمان بن داوُد عليه السلام، بناه من حجر واحد من أوله إلى آخره. ويقول الحفصي إن قرية بني سدوس في اليمامة فيها قصر بناه الجن لسليمان بن داوُد، وهو من الصخر كله... ويذكر عبد الله بن خميس (نفسه، ج ٢، ص ١٨) أن القصر الكائن في سدوس المنسوب إلى سليمان قد أبيد مع قصبته وأخفيت معالمه. ونعتقد من جانبنا أن عهد سليمان (٩٧١-٩٣٩ ق. م.) الذي تميز بالثراء ونشطت فيه التجارة والصناعة، ربما وصلت تجارته إلى هذه المنطقة من أعالي الخليج. فقد كانت له تجارة بحرية واسعة عبر البحر الأحمر مع شبه الجزيرة العربية، امتدت إلى شرق أفريقيا التي كانت تجارتها تمتد إلى الخليج (عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، **أصول الحضارات**: الكتاب الأول، ص ١٨٠-١٨١). ولا يتعارض هذا الرأي مع ما ذكره بيلي من وجود صليبيين إغريقيين في أعلى العمود، إذ ربما كان ذلك من فعل التجار الإغريق الذين دخلوا الجزيرة العربية من خلال هذا المنفذ.

يستطرد بيلي فيقول إنهم تمكنوا في سدوس للمرّة الأولى منذ أن غادروا الكويت من الحصول على بعض المؤن، كما تلقى في هذه البلدة أيضاً أولى الدعوات الحميمة للدخول في الإسلام والاستقرار في تلك الأرض بين ظهرانيهم. "وأكد لي هؤلاء القوم أنني إذا اعتنقت الإسلام فسأمتلك مئات الإبل وآلاف الأغنام، كما سأظفر أيضاً بعدد من الزوجات أتخذهن من أسرة الشيخ ذاتها". وإن جاز لنا أن نعلق على ما أورده هذا الأرعن المستخف بهذا العرض العربي السخي الذي ادّعاه نقول إن سدوس لم تكن تملك هذا القدر من الإبل والغنم الذي وُعد به، ولا يمكن أن يكون في أسرة فيها من العوانس هذا القدر الذي يمكن بيلي من أن يرتبط بعدد منهن. ولا يزيد الأمر عن غرائب حكايات الرحالة التي تغمز في الثقافة العربية وتسخر من الممارسات التي يبيحها الإسلام من تعدد الزوجات وغير ذلك. وكثيراً ما تندّر الرحالة بهذه الشوارد التي يصيغونها من عوا لم خيالاتهم ليكسروا بها حدّة السرد الجاف حتى لا يملهم القارئ الغربي الذي اعتاد قراءة كل ما هو غريب أو طريف عن الشرق عامة وعن المسلمين خاصة. فحين يتوغل غربي انجلوساكسوني في قلب الجزيرة العربية ليقابل أميرها فلا شيء سوى المبالغة يمكنه أن يرضي مزاج ذلك القارئ! ويضيف بيلي أيضاً أنه عرف في سدوس أن أكبر أبناء الشيخ يزمع القيام بغزو قبيلة قحطان على طريق مكة المكرّمة، ويدعي أنه تلقى دعوة لمرافقته.

العيينة

غادر رتل المقيم سدوس واعتلى تلال العارض في مسيرته جنوباً حتى إذا اجتازها تدرج

منحدراً إلى فرع من فروع وادي حنيفة فوصل إلى "الايمان" عند أقصى شمال ذلك الوادي. والايمان - في ما يذكر بيلي - هي مسقط رأس مؤسس الطائفة الوهابية، وهي أيضاً عاصمته القديمة. والمدينة رغم أنها كانت مهجورة، ليست أطلالاً دارسة. فقد أناخ بها البلى ولكنه لم ينزل عليها بوطأة كلكله تماماً، ما يجعل العابر قربها يظُنّ أنها لم تزل مأهولة. وفي الحقيقة لا نعرف غير بيلي مصدراً آخر ذكر أن العيينة تُعرف بالايمان. ونعتقد أن هذا القول يحتاج إلى تمحيص، فلربما دلّ الاسم على تقدير خاص لها من بعض أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. غير أن تعاليم هذا الشيخ في كمال التوحيد ومحاربة الشرك الخفي تُضعف هذا القول. ولكن ربما كان نقيض ذلك تماماً هو الصحيح، فبعد أن دمرت البلدة في ١١٧٢هـ/١٧٥٧م ربما عرفها بعض أهلها من معارضي الشيخ بهذا الاسم تأكيداً على أنها كانت على النهج الأقوم. ويستطرد بيلي فيقول إن أطلال العيينة تنتشر على منطقة مترامية من الأرض تمتدّ إلى قعر الوادي من على جانبي المجرى. وتبدو واضحة في هذه البلدة الجهود التي بُذلت في الماضي لضبط مياه السيول، حيث يمكن أن نرى الأرصفة الحجرية على جانبي مجرى الوادي تربط بينها أسوار فتكوّن سدوداً لحجز المياه. وتتراوح ارتفاعات تلك الحواجز التي تربط بين جانبي الوادي بين سبع وتسع أقدام. وقد أكد بعضهم لبيلي أن المياه التي تجري في هذا الوادي عند هطل الأمطار تتجاوز قمم هذه السدود. أما المنازل الرئيسة في البلدة فتقع على امتداد الأرصفة التي شيّدت على جانبي هذا الوادي.

يرى بيلي أن وادي حنيفة شعب أكثر من كونه وادياً، إذ يتراوح عرضه بين مئتي ياردة وثلاثمئة، وتكتنف قاعه حزم من الأرض المستوية التي تتبادل مع قيعان منخفضة. ولا ترتفع أي من تلك الحزم عن أي من المناطق المنخفضة فيه بأكثر من مئة إلى مئتي قدم تقريباً. ويتصل بكلا جانبي هذا الشعب عدد كبير من الروافد التي ينحدر أكبرها من سلسلة طويق. و"يمكن أن نقطع من دون أن يساورنا أدنى شك بأن وادي حنيفة هو الفاصل بين سلسلة طويق وتلال العارض. فالمنطقة التي تقع على يسار طريقنا هي العارض، أما تلك التي تقع إلى الغرب وإلى الجنوب كذلك أو قل التي تقع على يمين طريقنا فهي طويق". أما السلاسل الأقرب والأكثر انخفاضاً الواقعة إلى الشمال فهي التي تعرف أحياناً بالعارض أو المتضمنة فيه، فيما تكوّن السلاسل الأعلى والأبعد منطقة طويق. ويمكن القول تجاوزاً إن طويق تمثل نجد الأساسية أو الإقليم الذي يشمل وسط شبه الجزيرة العربية، أو ذلك الذي يضمّ العارض وسدير والمحمل والحريق والوشم والحوطة. "واعتماداً على ما ذكرنا يمكن تعريف طويق بأنها المنطقة الممتدة من الزلفي في الشمال إلى مجاورة الحوطة والتي يستغرق قطعها ثمانية أيام".

الدرعية

اجتاز الركب في يوم ٥ مارس وادي حنيفة واعتلى الهضبة الجافة، فأصبح الوادي على ميمنته. وسار فوق حزون تميل نحو الجنوب بتدرج طفيف حتى اجتاز التحصينات الخارجية المهجورة لخرائب الدرعية التي باتت على يمينهم مباشرة. وتشغل هذه الخرائب المبعثرة المنتشرة في عدّة مواقع، والتي تضم أطلالاً لمنازل من طابقين، حيزاً كبيراً. وأرض الدرعية جميلة المنظر شاعرية خلّابة، تمتاز بموقعها الذي يحتضنه منخفض من أرض الهضبة يقود إلى وادي حنيفة. خرّب الوهابيون طواعية هذه البلدة والبلاد الأخرى الواقعة على امتداد وادي حنيفة لإرغام السكان على النزوح إلى الرياض ليعمروها، بعد أن استولوا عليها من بني دواس وأقاموا عاصمتهم فيها. ولكن ما إن شرع الأتراك في مهاجمة الحاكم الوهابي في فترة لاحقة، حتى أخلى الوهابيون الرياض وانتقلوا إلى الدرعية مرّة أخرى، وذلك لأنها حصينة بحكم موقعها وتضاريس أرضها، ولأن تحصيناتها كانت أكثر قدرة على الدفاع.

الوصول إلى الرياض

قبل أن يدخل ركب المقيم الرياض بحوالى ساعة صادف منزلاً ريفياً للأمير يقوم داخل حديقة. وحين اعتلى الركب هوناً ما المنطقة التي تقع خلفه مباشرة، أبصر الرياض على ميمنته. يقول لويس بيلي إن الرياض، هذه المدينة الكبيرة، قد خططت بانتظام على هضبة لا تبعد كثيراً عن مجرى وادي حنيفة، ولكنها لا تبدو جميلة. فهي مبنية من اللبن، ولكن تخومها التي تنمو فيها بساتين النخيل تسبغ عليها قدراً من الحيوية. و"يقال إن لفظ الرياض يعني البساتين أو المناطق الزراعية". ويوجد في مجاورة الرياض عدد من المزارع المسوّرة، تُروى من آبار يصل عمقها إلى سبع وأربعين قدماً. وعلى العموم تبدو الرياض كأنها تلقى عناية تنظيمية.

استقبلت المقيم قبل دخوله إلى المدينة بعثة أرسلها الأمير للترحيب به. " وعلى الرغم من أن ترحيبهم كان فاتراً ووجيزاً، كان وافياً... وأنزلونا بيتاً معزولاً خصص لاستضافة الأتراك والكفار الآخرين ومدخّني التبغ كذلك. ولم يمضِ وقت طويل على نزولنا حتى وفد إلي محبوب، أمين سرّ الإمام، وأفاد بأنهم فضّلوا أن ننزلَ بعيداً عن المدينة لأننا ندخّن التبغ، وبما أن هذا الأمر يُعدّ مخزياً، فقد أرادوا لنا أن نبقى بمعزل عن الآخرين."

عرّف بيلي محبوب بمن في معيته، وسأله الأخير عمّا إذا كان ذلك الشخص الذي يضع على رأسه طاقية زرقاء هو من القادة المخولين بالقبض على السفن في الخليج الفارسي. وعبّر محبوب عمّا تحسّه حكومته من مرارة تجاه سلف بيلي في منصب المقيم، وأضاف أنهم كانوا

عازمين على الانتقام منه لما سبّبه من خسائر أنزلها بهم ضباط الأسطول البريطاني، ولكنه غادر قبل تنفيذ ما أزمعوه.

غادر محبوب بيلي ليعود إليه في المساء مرّة أخرى. وواصل لويس بحضور المجموعة المرافقة له ما انقطع من حديثه في اللقاء الأول. قال المقيم لمحبوب إن هذا الضابط الصغير، صاحب الطاقية الزرقاء، ليس من ضباط الأسطول الذين يصادرون السفن العربية ويقبضون على النخاسين، بل هو مجرد ضابط صغير تابع لمكتب المقيم، وإنه اختاره ليرافقه في هذه الرحلة. و"بما أن من الضروري أن يكون في رفقة من يخوض غمار المحيطات بحار ماهر، فقد اقتضى الأمر أن يكون في معيّتنا بحار ماهر أيضاً ليخوض بنا لجّة هذه المحيطات من الرمال". وأطلع لويس – خلال هذه المقابلة – محبوب على الهدايا التي يزمع أن يقدمها إلى الأمير وابنه، وكذلك على الهدايا الأصغر شأناً التي سيقدمها له. "وانتاب الرجل شعور الريبة الذي يمكن أن يحسّه كل من على شاكلته من الخلق خشية من أن يستولي الأمير على حصته من هذه الهدايا، وبدا الرجل كأنه يخشى أن يكون قد رأى أياً من الهدايا، وقام من فوره مسرعاً لينصرف قائلاً إن هناك جواسيس يراقبونه". وسأل لويس محبوب عن الموعد الذي تحدد للقائه بالأمي، ولكن الرجل لم يحر جواباً مفيداً البتة، فقد أجاب بقوله: "بما أن الإمام رجل مقدس، فيتحتم عليه أن يصوم يوماً أو يومين بعد انقضاء شهر الصيام، وبما أن الغد من أيام صومه فقد يؤجل اللقاء إلى فرصة أخرى". ويمكن القارئ أن يلاحظ مدى التحريف في ما نقله بيلي مما يمكن أن يكون قد قاله محبوب.

بداية المحادثات

ترقب المقيم في صباح يوم الاثنين ٨ شوال/٦ مارس وصول مبعوث من سموّ الإمام لتحديد موعد اللقاء، و لم يصدق حدسه. وكان كل الأشخاص الموجودين حول المنزل متيقظين ومتحفظين، فقد أنيط بهم تمثيل أدوار بعينها. وجاء بعد فترة الظهيرة بقليل من يقول للمقيم إن الإمام يسرّه أن يراه في مصلى قلعته، فخرج من فوره مع ذلك المبعوث للقاء الإمام مصطحباً معه كل هيئة مكتبه.

لم تكن القلعة التي تقع في منتصف المدينة وتفتح بوابتها الرئيسة في مواجهة ساحة كبيرة بعيدة عن بيت الضيافة. وما إن تدلف من تلك البوابة حتى تعترضك بعض مدافع قديمة تكاد تسد الممر إلى الداخل. ولا يُحدّث أي قسم من أقسام القلعة عن مظهر من مظاهر المعمار. أما غرفة الاجتماع التي دخلوا إليها عبر درج منبعج فكانت بالغة الطول ذات سقف منخفض يقوم على عواميد خشبية مزخرفة بنحت بدائي. وكان الإمام يجلس في صدر الغرفة على

سجادة أنيقة، مستنداً إلى وسادة عريضة وإلى جانبه جلس أصغر أبنائه. وكان محبوب، كاتم سرّه، يجلس على مسافة منه في مكان أدنى ارتفاعاً من مجلس الأمير. وحين أصبح المقيم على مقربة من مجلس الأمير انتصب قائماً بصعوبة بادية، وأخذ بيد ضيفه ومسح عليها ببطء، ودعاه إلى الجلوس على السجادة بجانبه. يقول بيلي إن الإمام كان ضريراً، ولكن قسمات وجهه الواضحة التقاطيع بنحو استثنائي - والتي تعكس صرامة وقسوة وتجهماً ورباطة جأش وهدوءاً ينمّ عن أنه يستطيع أن يُكيّف نفسه بما ينبغي - كانت تُحدث عن اعتزاز بالنفس. أما عمره فيبدو أنه قد تجاوز سبعين عاماً. وينمّ ملبسه الباهظ التكلفة عن ذوق رفيع، فقد طوى فوق الكوفية العربية شالاً كشميرياً أخضر. وكان صوته المتهدج رزيناً، وكلماته رصينة، وألفاظه موزونة. و"على الرغم من أنه بدا يشعّ رقّة ويتدفق فخاراً، لكنك لا تملك إلا أن يداخلك الشعور بأنه يمكن أن ينقلب فجأة إلى رجل قاسٍ لا يرحم!".

تبادل الإمام وضيفه عبارات التّرحيب، ثم عرّفه المقيم إلى أعضاء البعثة المرافقين له، وعبّر له عن سروره شخصياً بلقائه. وبادل الإمام ضيفه الترحيب، ولكن بأسلوب مبهم يختلف عن الأسلوب الذي وجده من محبوب في اليوم السابق، فقد كان أقلّ منه إفصاحاً. ويستطرد بيلي فيقول إن الإمام قال له إنه قد يدرك أن ظهور أي أوروبي في الرياض ربما كان أمراً مستغرباً، إذ لم يحدث أن حصل أي منهم على إذن بدخولها، ومع ذلك فقد أبدى ثقته بأن الأمور ستسير على ما يرام. حدّث بيلي الإمام بأنه سبق له أن زار عدداً من شيوخ آسيا الوسطى، وأنه لا يحمل لكل من قابله منهم سوى الذكريات الطيبة، وأضاف أنه لا يشك أبداً في أن اجتماعه به سيكون مرضياً مثل اجتماعاته السابقة مع نظرائه الآسيويين. وعبّر بيلي عن رغبته في إزالة أي آثار غير طيبة علقت بذهن الأمير جراء أي حوادث سابقة. وأضاف بيلي أن الحكومة الإنجليزية ترغب في أن ترى قبائل شبه الجزيرة العربية تنعم تحت حكامها وضمن حدودها بالسلام والدعة والازدهار. وأجاب الأمير بأن علاقاته بالدول الأجنبية ليست كبيرة، ولكنه يعرف عن طريق وكلائه المنتشرين حقائق الأوضاع الخارجية. ولاحظ بيلي أن الإمام يستعمل صيغة الجمع حين يشير إلى نفسه، وأشار إلى أنه يرى أن مملكته تشمل الجزيرة العربية كلها. "إن أرض شبه جزيرة العرب في امتدادها من الكويت إلى القطيف وإلى رأس الخيمة وعمان ورأس الحد وما وراء ذلك، هي أرض وهبها الله لنا". وأضاف الإمام أن الأتراك قد استولوا في فترات سابقة على قسم من أراضيه، ولكنه بات لا يخشى بأسهم. وسأل الإمام في معرض حديثه ضيفه إن كان يمكن البريطانيين أن يساندوه ضدهم، فأجابه المقيم بأن السياسة الإنجليزية في الشرق سياسة محافظة تعمل دوماً على أن ترى في جيرانها الأصدقاء الذين يتعاملون معها تجارياً، وأنها لا ترغب في أن تساعد في اعتداء أي طرف على الآخر! ولا نرى من جانبنا في هذا المنطق الكولونيالي المعوج إلا الاستخفاف بساسة الشرق. فمتى كانت إنجلترا جارة

لأي دولة في الشرق إلا كان جوارها استعماراً، وما كان الاستعمار إلا اعتداءً صريحاً! وأشاد الأمير بالسياسة الإنجليزية، وقال إنه سمع من صديقه باشا مصر بعض ما يشير إلى أن الحكومة الإنجليزية هي، من الناحية السياسية، حكومة مُنظّمة وأنها أقل تآمراً من الحكومة الفرنسية. واستطرد قائلاً: "إننا نبغض دينكم"، داعياً الله أن يهدي الكفار ويبيّن لهم خطأ السبل التي يسلكونها.

نعتقد من جانبنا أن هذا الرجل لم يكن دقيقاً في نقله، فلن ينطق فيصل، وهو من الفقهاء، بقول ببغض النصارى الذين هم الأقرب مودّة إلى المسلمين، وربما لم يزد الإمام – في تقديرنا – عن دعوته للكفار بالهداية. ويقول المقيم إن فيصل ميّز بين الدين والسياسة، وقال إنهم يقتلون كل إنسان في ما يتصل بالخلافات الناشئة في الدين، ولكن الأمر في السياسة مختلف. ونعتقد من جانبنا أيضاً أن بيلي أساء الفهم متعمداً أو ربما غير متعمد، انطلاقاً من ثقافته الموروثة. فربما حدّثه فيصل عن حكم الردة في الإسلام. ويستطرد المقيم ليقول إن الإمام أفاده بأن سفينة فرنسية جاءت إلى مسقط وعرضت على سلطانها مساعدة عسكرية ضدّ الوهابيين. وأنكر بيلي علمه بذلك الخبر، مضيفاً أنه يعتقد أن المصدر الذي نقل للإمام ذلك الخبر لم يكن دقيقاً. وينسب بيلي إلى الإمام قوله إن سلطان مسقط رجل ضعيف تحيط به شُلّة رجال ضعاف، وإنه كالغريق الذي يستنجد بقشّة. ويضيف بيلي أن فيصل كان يتحدث بغلّ ومرارة بالغة عن السلطان المعاصر، ولكنه كان يرى في المرحوم السيد سعيد، إمام مسقط السابق، رجلاً مختلفاً يتفهّم الأمور ويرعى التعهدات ويعمل بموجبها. وأضاف فيصل أن ثويني بن سعيد ليس على شاكلة والده، فهو مختلف ويجب إخضاعه بالقوّة. ويرى فيصل أن مسقط "من توابعنا، لقد أخذناها بسلاحنا". وعاد الإمام ليتطرق مرّة أخرى إلى موضوع الفرنسيين، فقال إنه تلقى قبل عدّة سنوات خطاباً من أحد ضباط السفن الفرنسية يعده بأن يقدم له مساندته بحراً، إن كان يحتاج إليها، ولكن الإمام – في ما يقول – أهمل الرد على الرسالة. ويقول الإمام إنه تسلّم قبل حوالى سنتين رسالة أخرى مشابهة عبّرت عن الأمل بأن يرد عليها عن طريق القنصل الفرنسي في دمشق، وإنه أجاب في هذه المرّة شاكراً عرضهم، ومضيفاً أنه لا يحتاج إلى مساعدة في ذلك الوقت. ولعل في عدم ذكر فيصل لزيارة بالجريف إلى الرياض ما يُقوّي شكوكنا في أن الرجل لم يقم بتلك الرحلة.

سأل الإمام المقيم عمّا إذا كان في المهمات التي سيتناولها معه ما يقتضي التداول في اجتماع مغلق والتباحث فيها على انفراد، فأجابه المقيم بالنفي، مضيفاً أن الزيارة ترمي أساساً إلى توثيق العلاقات مع شيخ حسن السيرة حريص حرصه على هدف مشترك، وهو حفظ السلام في المناطق المختلفة من الخليج الفارسي، ما يقتضي العمل الثنائي للحفاظ على علاقات صداقة متبادلة. وأكد المقيم للإمام في معرض حديثه أن العلاقات الشخصية بين "الرجال الشرفاء"

التي تتّسم بالثقة المتبادلة تحول دون تدخل أي طرف ثالث للقيام بأعمال شريرة. وانتهى المقيم بأن عبّر عن أمله بأن تؤدي زيارته إلى تحسين العلاقات بين الجانبين، وأن تتمخض عن نتائج إيجابية تدفع في مسيرة التمدن وتعود بالنفع على كل من يقع عليهما تسيير أمورهم. وانتهى بذلك هذا الاجتماع الاحتفالي. ويفيد بيلي بأن الإمام كان سعيداً بما جرى تداوله، وأنه طلب إليه أن يجتمع به مرّة أخرى في الصباح التالي، على انفراد.

اليوم الثاني من المحادثات

ذهب المقيم في اليوم التالي باكراً للقاء الإمام وفقاً للموعد المحدد، وكان المترجم هو مرافقه الوحيد. استقبله محبوب، فالأمير لم يكن قد فرغ بعد من استبدال ثيابه. و لم يكن بيلي راضياً عن محبوب، فرماه في تقريره بأقذع أنواع السباب، وقال إن أخلاقه تنمّ عن النفاق. فهو في غياب سيده رجل ثرثار للغاية، محبّ للاستطلاع، طائش متقلّب، أما في حال حضوره فهو ينافق بالصمت وربما قد يتحدث فقط لتأييد التوجهات الدينية التي يعبر عنها الإمام. وجاء في ما كتبه بيلي أن ذلك الرجل كان يدخن "السيكار" في حضرته، ولكنه حين يتحدث أمام الإمام يحاذر إلا أن يلوك ما يعتقده الإمام، ويعلن أنه يرى في التدخين شرّاً مستطيراً يمكن أن يعصف بقواعد الدولة الوهابية، كما ادّعى بيلي أن محبوب كان قد طلب، حين زارهم، إلى المترجم أن يتحفه بشيء من البراندي.

مضت فترة قصيرة على وجود بيلي في القاعة قبل أن ينفرج الباب القريب من السجادة عن الإمام مستنداً إلى خادمتين. وتلقّاه فور تجاوزه عتبة الباب عبدان أخذا بيديه وأوصلاه إلى مجلسه. كان ترحيب الإمام بالمقيم في هذا اليوم حاراً جداً، ما يدل – كما يقول بيلي – على أن شيئاً ما لا يعرف كنهه، قد يكون توارد خواطر، قد حدث. تحادث المقيم والإمام طويلاً في موضوعات شتى غير محددة، كان منها ما يقوم به البريطانيون من مدّ الخدمات في مجال البرق. وعبّر الإمام عن اعتقاده بأنهم سيواجهون العديد من الصعوبات في هذا الشأن. وأضاف أن عباس باشا حاول قبل عدّة سنوات أن يقيم خط اتصالات بريدياً مع نجد ولكنه ما لبث أن زهد فيه، للمضايقات المتكررة التي وجدها من القبائل البدوية، حيث لم تجد معها حدّة العقوبات التي أنزلها في البداية بهم. ويدّعي بيلي أن الإمام قارن بين الحكم الإنجليزي للهند والحكم الإسلامي الذي كان سائداً فيها من قبل، وانتهى إلى أن الأول أكثر حداثة من الثاني. ويقول بيلي إنه علق على ذلك بالقول إن الإنجليز ظلوا يحكمون الهند في فترة الثلاثمائة سنة الأخيرة، "ونحمد الله أننا لا نزال في دعة هناك". وعاد الأمير يسأل إن كان يمكن البريطانيين أن يدعموه ضدّ أعدائه لكي "يستأثر بأرضهم"، وهل يمكنهم التحالف معه ضدّ الأتراك أو

غزو مناطق أخرى في الشرق؟ ويضيف بيلي أنه يعتقد أن الشرق المقصود هنا هو فارس. يقول بيلي: "ضحكت من حديثه وأعدت له ما قلته أمس، من أننا لا يمكننا أن نعتدي، ولا يسعدنا إلا أن نرى شعبه يجري تجارته في أراضينا بسلام!".

يقول بيلي إن فيصل كان يتحدث بعقلانية في ما يخصّ الشؤون السياسية والأوضاع الطبيعية في شبة الجزيرة العربية، مؤكداً أن الحاجة إلى الأمطار في شبه الجزيرة العربية ماسة، وأن هطلها يُمكّن البادية من الزراعة، ويجعل بالتالي استقرار القبائل ممكناً. ويفيد بيلي بأن الإمام أرسل له في وقت لاحق رسالة من خلال سكرتيره يطلب فيها الحصول على رافعات للمياه لاستعمالها في المزارع التي تتاخم عاصمته بدلاً من الدواليب الفارسية (السواقي) المستخدمة في بلاده. وقد أبدى بيلي، في ما يقول، سروره للمعاونة في عمل "يتسم بالحكمة مثل هذا العمل". واستلحاقاً بهذا، جرى قياس مستوى الماء في أعماق الآبار. ويدّعي بيلي أنه حاول الحصول عند ذهابه إلى بريطانيا على طلمبتين لفيصل. و"قد طوّقني السير ليارد بعطفه وجرى التصديق لي بمبلغ مئة وخمسين إسترلينياً لشراء طلمبات لإهدائها للإمام"، ولكن مجرى الأحداث بعد ذلك لم يكن ملائماً لتسليمها له. ويفيد بيلي بأن ماكينات محسّنة لسحب المياه تجرّها الحيوانات يمكنها استخراج مئتي جالون في الدقيقة الواحدة من عمق يقارب خمسين قدماً قد شُحنت من بريطانيا "وهي في طريقها الآن إلى بوشهر". ويضيف بيلي أن تلال نجد تضمّ بقايا عدد كبير من القنوات المائية التي رغب الإمام في استصلاحها، ومنعه من ذلك اعتراض الملالي على هذا العمل بحسبانه عملاً مفيداً يؤدي إنجازه إلى أن يحسده الآخرون عليه، وقد تصيبه العين جراء ذلك وتُودي بشخصه!

يقدم بيلي تلخيصاً لمحادثات اليوم الثاني مع الإمام، وينسب إليه القول بأن "شبه الجزيرة العربية، أياً كانت، هي ملك لنا، وإننا نعيش في عزلة عن العالم الخارجي إلا أننا بذلك قانعون، وإننا ملوك بكل ما تحمله الكلمة، وبذلك تنطق كل ذرّة في جسدنا". وأضاف الإمام أنه يسوس عربه ويتعامل بقسوة مع شيوخ قبائله ولا يتسامح معهم أبداً إذا تعدّى أتباع أي منهم على الآخرين بالنهب وارتكاب الجرائم. ودعا فيصل بيلي إلى زيارة السجن ليرى بعينه أكثر من سبعين شيخاً موقوفين هناك. وأضاف فيصل: "نعم نحن قساة ولكننا عادلون".

طلب بيلي إلى فيصل أن يريه خيله فاعتذر له الأخير بأنها ترعى في السيح، ودعاه إلى الذهاب إلى هناك، إذا رغب في ذلك، واختيار اثنين منها هدية له، كما يمكنه شراء ما يريده منها بعد ذلك. ونفى بيلي أنه قصد من سؤاله تلقّي هدية من تلك الخيل، ولكنه كان مدفوعاً في ذلك بحبه للخيل العربية الأصيلة. ويضيف بيلي أنه أراد انتهاز تلك الفرصة ليتمكن من رؤية أميز مهرات العالم. وأُطلع بيلي الإمام بأن السير هنري رولنسون قد أخذ معه إلى إنجلترا حصاناً نجدياً، وأن سلالته قد اكتسبت هذا الاسم "عبية" نظراً إلى لونها. وسأل بيلي فيصل

إن كان لون أديم الخيل يعني شيئاً بالنسبة إلى أصالتها. ونفى فيصل أي صلة للون بهذا الشأن، مؤكداً أن أميز السلالات يمكن أن تكون على أي لون، ومضيفاً أن اللون السائد في أصائل الخيل – بصفة عامة – هو الرمادي بدرجاته المختلفة، ولكن غالباً ما يكتسب الفلو لونه عن أبيه. وعاد فيصل ليقول إن الألوان ليست لها دلالة على الأصالة، كما لا يدل طول الخيول على ذلك أيضاً، فالأصالة تكمن في الدم الذي يميز السلالة.

"كان الإمام يتوقع بالطبع مني أن أثير موضوع النزاع مع مسقط، وتظاهرت بأني لست على علم دقيق بتفاصيل المسألة، ما لا يسمح لي بإبداء رأي فيها. وكنت من ناحيتي أرى أن واجبي يقتضي أن أكون مخولاً من قبل الحكومة قبل أن أجازف بإثارة أي شيء يمكن أن يتصل بهذه المسألة."

يدّعي بيلي أن الأمير أبدى لرجاله الحاضرين رأيه فيه وقال عنه: "إنه رجل طيب وتأسّف لكوني كافراً"، ثم التفت إلى بيلي وقال له إنه يمكنه أن يتجول في البلاد حيث يشاء غير مروّع . وعبّر الإمام عن أمله بطي صفحة الماضي وفتح صفحات سفر جديد عامر بعلاقات الصداقة المتبادلة، ووعد ضيفه بدوام المراسلة ليطلعه على مستجدات شؤون شعبه القاطن عند ضفّة الخليج الفارسي.

عاد المقيم بعد هذه الجلسة إلى المنزل وسمع أن الإمام عبّر بعد نهاية الاجتماع الثاني معه عن سروره بهذه الزيارة. وأرسل بيلي بعد عودته إلى المنزل للإمام الهدايا التي جلبها له، وكانت تضمّ بندقية، وساعة من الذهب، وقطعة قماش حمراء، ومسدساً مزيناً بتطعيم، وسيفاً اختير خصيصاً لإرضاء الذوق العربي. ويعتقد بيلي أن السيف قد ظفر بإعجاب الإمام أكثر من غيره.

هواجس الرحالة

زار محبوب بيلي فور عودته إلى منزل الضيافة، وأجرى المقيم معه حديثاً طويلاً بخصوص زيارته المزمعة لمناطق الرعي والزراعة في الخرج المعروفة بالسيح. ولكن يبدو أن شيئاً ما، يقول بيلي إنه لا يعرف كنهه، قد حدث وغيّر فجأة من الموافقة على الزيارة وأفقدها السلاسة التي اتسمت بها، فقد وضع السكرتير محبوب معوقات في سبيل سفر المقيم إلى الخرج. وعندما وفد محبوب إلى بيلي مرّة ثانية في مساء اليوم ذاته، اقترح عليه إلغاء زيارته للسيح والبقاء في الرياض ريثما يجلبون له فيها بعض الخيول ليتفقدها هناك. واعترض المقيم على ذلك فوراً، محتجاً بأن مدّ فترة بقائه في الرياض أمر غير وارد على الإطلاق. وأضاف أنه حين وافق على زيارة إسطبل الإمام لرؤية الخيل، كان قد قرر أن يقتطع من وقته عدّة ساعات يعرّج فيها في طريق عودته على الساحل إلى تلك الناحية، ثم يواصل طريق العودة ليلتحق بالبخارية التي

تقف في انتظاره عند الساحل، وأكّد أنه لا يمكنه تعديل برامج زيارته لهوى في نفسه يسوقه للاستمتاع برؤية الخيل. ويكشف المقيم عن الخوف الذي بدأ يداخله وهو في وسط شبه الجزيرة العربية حيث لا أساطيل لبريطانيا العظمى يمكنها أن تنجده أو تأخذ بثأره. قال الرحالة:

> ... في الحقيقة فقد حُذّرت في الكويت من هذه الرحلة ونُصحت، إن كان لا بد لي من القيام بها، بألا أقضي في الرياض أكثر من يومين. فالعرب قوم غدارون ومتقلبون، ويمكن أن يغيّروا ما بنفوسهم فجأة وبلا مقدمات. وفي الحقيقة فقد راودتني الهواجس التي بدت مؤشراتها واضحة من التبدل الذي حدث ومما سمعت ورأيت. وكنت على يقين من أن الإمام رجل عاقل مجرب يقدر الأمور، ولكنه كان محاطاً ببطانة مرجفة متقلبة غير مأمونة مجرّدة من المبادئ الأخلاقية، وهي الأكثر خطراً والأبلغ تعصباً من أي من الآخرين الذين يمكن المرء أن يصادفهم في حياته. لقد أصبح وضعي حرجاً، فالإمام رجل أعمى ينظر من خلال سكرتيره في الأمور المتصلة بالعالم الخارجي، وربما كان من المحتمل أن يقوم محبوب، هذا الرجل الهجين الحقود التافه، في أي لحظة بدور يقود إلى تعقيدات خطيرة. وتقديراً لمسؤولياتي الحكومية، وانطلاقاً من واجبي في تأمين سلامة المرافقين لي، فقد قرّرت أن أكفّ عن التزلج في جليد رقيق مثل هذا.

لا نستطيع – بدورنا – تفسير هذا السباب العنصري التافه الحقير من ضيف لأحد أبرز مضيفيه، إلا أنه صادر من رعديد جبان توهّم خطراً غير حقيقي، فلم يملك لتهدئة مخاوفه سبيلاً إلا السباب. ويتقمص لويس دور البطولة الذي يدّعيه كافة الرحالة حين تصادفهم في رحلاتهم صعوبات أو حين يتوهمون أن الصعوبات قد باتت ماثلة. "أخطرت ذلك السكرتير بحزم أنني سأرحل في الغد، وأنهيت له أني قد أصدرت تعليماتي إلى أصحاب الإبل لبدء الرحلة صباحاً". وأجاب محبوب بأنه سيطلع الإمام على الأمر، فمن الضروري أن يلتقي به المقيم لوداعه. وذهب السكرتير ليعود إلى المقيم مرتين متتاليتين في المساء وقد تغيّرت تصرفاته – كما يدّعي بيلي – فأصبحت تنمّ عن جفاء، لا بل عن عداء. تحدث محبوب عمّا قام به سلف بيلي من القبض على سفن الوهابيين، وعن الإجراءات التي تتخذها الحكومة البريطانية ضد النخاسة، وسخر الرجل من الدوافع الإنسانية التي تحركهم، وعبّر للمقيم عن رأيه في الإنجليز ونعتهم بالقراصنة الناجحين. في اعتقادنا أن صراحة محبوب مع المقيم وقوله الحقّ حين وصف سيطرة البريطانيين على مياه الخليج بالقرصنة كان السبب الذي جلب عليه نقمة هذا العنصري اللئيم الذي لم يرَ في هذا الإداري الحصيف سوى عنصره الهجين.

يقول بيلي إن موضوع النخاسة كان من الموضوعات التي تجنّب إثارتها في الرياض وغيرها من مناطق شبه الجزيرة، لما تمثله إثارة مثل هذا الأمر من خطورة بالغة. فحتى في إنجلترا وقع انقسام الرأي بشأن الإجراءات التي تتخذها الحكومة البريطانية في المنطقة الممتدة من موزامبيق إلى رأس الخليج لكبح هذه التجارة. ويضيف بيلي أنه يتمنى أن يأتي يوم تتغير فيه وجهات نظر الرأي العام تجاه هذا الموضوع. ويستطرد بيلي فيقول إن محبوب كان يطمح إلى أن يعقد المقيم البريطاني معه معاهدة تمتنع بموجبها الحكومة البريطانية عن القرصنة التي تمارسها في مجال النخاسة وتعفي عرب عمان وصور من الملاحقة. وطلب محبوب أن يلقى من البريطانيين في هذا الشأن الاعتبار ذاته الذي يلقاه منهم سلطان زنجبار الذي دخلت الحكومة معه في اتفاق قنّنت بموجبه هذه التجارة. وعرض محبوب في نظير ذلك أن يقوم الإمام فيصل من جانبه بضمان أمن المنشآت البرقية ومنع عرب عمان والخليج الفارسي من أي تجاوزات عليها. "وتطاول محبوب فتبسّط معي، ودعا إلى انتهاز فرصة وجودي في عاصمتهم لنصوغ معاً مسودة اتفاق بهذا المعنى. ورفضت بحسم، مستنكراً كل ما قد أثير في هذا اللقاء، وطلبت إليه أن يغادر فوراً. ولكني تيقّنت حينها من أني أوغرت صدر هذا الوغد الذي امتلأ شراً، فانصرف من دون أن يحدد لي موعد لقاء وداع الإمام."

مضى صباح يوم ٨ إبريل من دون أن يأتي السكرتير. وشغل لويس وقته بتهيئة عدد إضافي من الأوعية الجلدية لحفظ الماء (القرب) يعدّها لرحلة العودة. فقد كانت أوعيتهم ترشح الماء بنحو كبير، في وقت عليهم أن يقطعوا فيه، في إحدى مراحل طريق العودة، مسافة خمسة أيام من دون أن يصادفوا ماءً. وقبيل الظهر جاء السكرتير ليستفسر عمّا إذا كان لويس يرغب في الرحيل كما أفاد سابقاً، وطلب إليه أن يؤجل ذلك. أكد لويس لمحبوب عزمه على الرحيل في تلك الليلة، وسأله أن يحدد له موعداً لوداع الإمام. وانصرف محبوب، فيما كان لويس يترقب مجيء الإبل وقادتها ليتهيأ للرحيل، ولكن ذلك لم يحدث. طلب لويس إلى كبير الأبالة أن يسرع بإعداد الإبل لبدء المسير، ولكن الرجل تقاعس واعتذر عن ذلك بمرضه. "وهددته بأن مشاكسته لي وعرقلة أموري قد تكلّفه حياته. فتبرّأ الرجل واعتذر بما يمكن أن يحتجّ به العربي الخؤون". ومن جانبنا لا ندري كيف يمكن بيلي أن يقتل عربياً في وسط قومه من دون أن يكون له أي وسيلة لذلك ولا حول ولا طول، ولكنها العنجهية التي تصور لمثل هذا الرحالة – وهو يكتب مذكراته بعد زوال ما ظنّه خطراً محدقاً به – أنه البطل الذي أنقذته رباطة جأشه من خطر نراه متوهماً.

عرف بيلي في هذه الفترة من أحد الصبيان الملحقين بركبهم أن الإبل ترعى في مكان قريب، وأن تأجيل الرحلة جرى بأمر من سلطات الرياض. وعاد بيلي مرّة أخرى إلى كبير الأبالة يتهدده ويخبره – في ما يروي – أنه مدرك تماماً ما يُحاك له. ويروي بيلي أن الأمور قد بدأت منذ الرابعة عصراً تأخذ منحى خطيراً، فقرر، رغم كل الاعتراضات، أن يذهب إلى

القلعة لمقابلة الأمير ويطلب إليه أن يمكّنه من إبله. ويستطرد فيقول: " رأيت أن أجري بعض الترتيبات تجنباً لأي تعقيدات قد تطرأ إذا تفقدوا متاعنا. ذهبت إلى المطبخ وألقيت في ناره رسماً للأمير كان داوس قد أعدّه ومخططاً لخارطة الرياض من إعداد داوس أيضاً، وكان قد أتحفني بهما. وقد ذهل الطباخ البرتغالي من وجودي في المطبخ الذي لم يكن يرغب في أن يراني فيه، فقد كان يلتهم اللحم وكأنه في مطبخ المقيمية في بوشهر".

يمضي هذا الرحالة الذي ما عادت أفعاله وأقواله تنمّ إلا عن الذعر الذي أراد أن يمسحه بمسوح البطولة ليقول إنه بعد أن اتخذ "كافة الاحتياطات اللازمة!" خرج ومعه المترجم للقاء فيصل. ويدّعي أن أحد الحراس أو الجواسيس همّ عند الباب بمنعه من الخروج، "ولكنني لم أكن في مزاج يجعلني أسكت عن الإساءة فخرجت عنوة". ويضيف بيلي أنه ما إن بات في منتصف الطريق إلى القلعة حتى أبلغ أن الإبل في طريقها إلى المنزل، فقفل عائداً ووجدها قد وصلت إلى فناء الدار، فوضع من فوره أحماله عليها وأوصد الباب دونها. وعاد المقيم بعد ذلك أدراجه في طريقه إلى القلعة ليقابل الإمام الذي تلقّاه بترحاب. "وأعتقد أنه كان صادقاً حين تمنى أن نعمل معاً من أجل السلم العام. ولكن العقل الوهابي، أو بالأحرى العربي عموماً، متقلّب غادر خؤون ومتعصب ولا يوثق به، ولن يثبت على حال ولا لساعة واحدة". واقترح الإمام على المقيم أن يمدّ أجل زيارته "فأجبته بهدوء، لكن بحزم، بأنني أشعر أني أنجزت مهمتي ولم يبقَ لي إلا أن أغادر في هذا المساء".

تحدّث الأمير مع المقيم طويلاً، مُعبّراً عن سعادته بزيارته له، ومُضيفاً أنه رغم إقامته في هذه المتاهات حيث وجده إلا أنه خبر الحياة المتحضرة حينما كان أسيراً في القاهرة. وقال الإمام إنه رأى ممثلي الدول الأجنبية من الأوروبيين حين كانوا يزورون الباشا، ولمس فيهم تهذيباً يقدّره لهم. وطلب الإمام إلى المقيم أن يراجعه إذا وقعت أي حوداث قرصنة في نواحي القطيف والعقير أو حوادث جنوح إلى القرصنة في تلك المناطق، ووعد بأنه سينزل بالجُناة أشد العقاب. وعبّر الإمام عن رجائه في أن يقوم المقيم، بالمثل، بحماية المصالح السعودية في الساحل الفارسي. وانتهى الإمام إلى القول بتأكيد صداقته للمقيم، وقال إنه الصديق الصدوق له، وحثّه على أن يداوم على مراسلته. وذكّر المقيم الإمام بأنه كان قد كتب له مراراً، ولكن ردوده لم تكن تشجع على الاستمرار في المراسلة. فاعتذر الإمام بأن ذلك يعود إلى رواسب علاقاته السابقة مع المقيمية، ولكنه وقد طوى كشحاً عن الماضي أرسل إلى الحكام التابعين له في السواحل لفتح صفحة جديدة في تلك العلاقات. وطلب الإمام إلى بيلي أن يقبل منه حصانين نجديين هدية منه، وأخبره "أنهما الآن في القطيف، فقد كان سابقاً يزمع إرسالهما إلى باشا بغداد". وأفاد الإمام ضيفه بأنه وضع خادماً موثوقاً به في خدمته ليرافقه إلى الساحل.

أشار السكرتير لبيلي عند خروجه من القلعة إلى الخادم الموكل بمرافقته، وصحب الخادم

المقيم إلى القلعة ثم استأذنه بعد ذلك للانصراف ليسبقه بجمله السريع إلى الأحساء. ويرى بيلي أن فراقه كان فألاً طيباً. أما الأبالة فقد تلكأوا بعناد في تجهيز الركاب، حتى ساوره الشك في إمكان أن يغادر في تلك الليلة. ويمضي بيلي إلى القول إنه وجد أخيراً أن من المناسب أن يخبر خدم الإمام الذّين كان قد وضعهم عيوناً عليه أنه مصمم تصميماً تاماً على أن يغادر قبل الساعة التاسعة مساءً، وزاد بأن منّاهم بهدية كبيرة ينالونها إذا أعدّوا إبله للرحيل في الموعد الذي حدده لهم، وأنذرهم بأنهم إذا تلكأوا فلن ينالوا منه ولا فرطاقة واحدة. وكان هذا الترغيب والترهيب كافيين لأن يكون رتل المقيم في الساعة التاسعة على أكوار العير متجهين إلى خارج الرياض. ولم يمضِ وقت على ركوبهم حتى لحق بهم رجل يحمل ساعة الذهب التي أهداها المقيم إلى الإمام، مشيراً إلى أنها لا تعمل كما ينبغي، وأن الإمام يسرّه إصلاحها، إن أمكن. وأخذ بيلي الساعة معه وأرسلها إلى إنجلترا لإصلاح العطب ثم أعيدت إلى الرياض مرّة أخرى. ويكتب بيلي في ٢١ شوال/ ٢٠ مارس بعد وصوله إلى العقير لفيصل شاكراً إياه، مثنياً على رفيق الطريق الذي عيّنه له، مفيداً بأنه تسلّم الحصانين المهدين إليه، وأن أحدهما قد نفق. جاء في هذا الخطاب:

> لا يخفى أننا حال تاريخه وصلنا بندر العقير بالصحة والسلامة، ذاكرين ما تأكد بيننا وبين جنابك من الألفة والصداقة وما شاهدناه من جنابك الشريف من المحبة، ثم إن ادمكم المرسول معنا، وهو المكرم حسين، فقد أدى ما عليه من المأمورية من جنابك ولا قصر، وإننا راضين منه. ومن جهة الحصانين المرسولان من جنابك، فقد وصلت من القطيف وصرنا ممنونين جميلك ما قصرت، شكر الله مسعاك. لكن يكون لجنابك الشريف معلوم أن واحد منهم وهو الأصفر الذي وصف لنا على ما زعم الواصلون بالحصين أنه مات ومرسلين غيره عوض عنه هذا ولما كان المكرم حسين راجع حررنا لجنابك الشريف هذه الأحرف والسلام المأمول أن لا تخرجنا من الخاطر أو راد المراسلات.

"راجع النص في: (IOR) R/15/1/181.

ملخص الرحلة من الرياض إلى العقير عبر الأحساء

أجرى بيلي من على سطح المنزل في الرياض رصداً لحركة الشمس خمس مرات متتالية، تبيّن له منها أن الرياض تقع على خط طول ٤٦ ٤١ ٤٨. واعتذر بيلي أن الظروف لم تكن مواتية

لهم لقياس خط العرض من ذلك المنزل، ولكنهم تمكنوا من ذلك، بعد أن غادروا المدينة لمسافة خمسة أميال في اتجاه الشرق. واستطاعوا من خلال مراقبتهم للأبراج السماوية أن يرصدوا النجم الشمالي، واستوثقوا من دقة هذا الرصد بالآخر الذي كانوا قد أجروه سابقاً للنجم القطبي قبل ست ساعات من دخولهم إلى الرياض، وتوصلوا من خلال المقارنة إلى أن الرياض تقع على خط عرض ٣٤ ٣٨ ٢٤.

يكتب بيلي في طريق عودته عن القرى والمدن التي غشيها في طريقه إلى ساحل القطيف، فيحدثنا عن مدينة الهفوف التي هي قصبة إقليم الأحساء. تضم الهفوف القلعة الرئيسة لهذا الإقليم الواحة الذي يصل طوله إلى ما بين عشرين وثلاثين ميلاً، فيما يصل عرضه إلى اثني عشر ميلاً. وتوجد في هذا الإقليم ست قلاع أخرى. تُروى واحة الأحساء من عدد كبير من العيون العذبة القريبة الغور، التي تجري مياهها متدفقة إلى البساتين إلى القطيف المجاورة لها، والأوفر حصاداً في الأرض الوهابية كلها. وتقع الهفوف على خط عرض ٢٥ ٢٠ ٢٥ كما تحدد برصد النجوم. أما خط الطول فهو: ٥٠ ٤٠ ٤٩. وقد تمكن بيلي وفريقه كذلك من رصد خطوط الطول والعرض لعدد من المواقع التي غشوها، وأثبتوا ذلك في خريطة، ما استدعى عدم إثبات الأرقام في هذا التقرير مرّة أخرى. ويذكر بيلي أن هناك أحساء أخرى تقع في ديرة عشيرة بني سعد من قبيلة حرب بالقرب من المدينة المنوّرة على الطريق الذي يربطها بمكة المكرّمة.

يمكننا أن نثبت بعض الملاحظات الخاصة بهذه الرحلة التي قام بها المقيم بيلي، والتي أثيرت في النقاش في محاضرة أمام الجمعية الجغرافية الملكية بلندن:

يذكر بيلي أن المنطقة الفاصلة بين الكويت والقطيف تُعرف باسم عدان بصفة عامة، وإلا فإن عدان، حين ندققها، تعني ذلك الشريط المقوس من الأرض المرتفعة الذي يقع على مسافة بضعة أيام من الكويت، ويعرف هذا الشريط عند البحارة المواطنين باسم حاجب البنت .وحين تتوغل إلى الداخل اعتباراً من عدان فستقف على حزام آخر من الأرض يسمونه حجر أو الصمان. وللتحري عن الدقة يمكن القول إن حجر تطلق على المناطق التي يسودها الحجر الرملي وعلى الأحجار الهشة بصفة عامة، أما الصمان فتعني الحجر الأصم أو جلاميد الصخور الصلدة. وسطح هذه الأرض التي يبلغ عرضها النسبي مسيرة يومين تقريباً حصوي حجري، وهي تمتد بين الشمال الغربي والشمال إلى الجنوب الشرقي والجنوب حتى تتداخل نهاياتها الجنوبية في الصحراء التي تُعرف بالربع الخالي، أما نهاياتها الشمالية فتنتهي عند تلك المنطقة اليباب غير المأهولة الواقعة في غربي الفرات. أما إذا تركت الصمان مُيمّماً الداخل، فستصل إلى حزام آخر يجري بموازاة الحزام الأول ويُطلق عليه الدهناء أو النفود. ويبلغ العرض التقريبي لهذا الحزام حوالى مسيرة يومين، وهو مثله مثل الصمان، يغوص في نهاياته الجنوبية

الشرقية والشمالية الغربية في الصحراوين المذكورتين آنفاً. ويتكوّن هذا النطاق الأخير من الأرض من عروق رملية متوالية أو موجات من الرمال المتتالية يصل عددها إلى سبع، كما تقول المتواترات الشعبية. ويلاحظ أن اسم الدهناء يطلق على المنطقة التي تسودها الكثبان الرملية، فيما يسبغ اسم النفود على تتابع تلك الكثبان. أما إذا تركت الدهناء متوغلاً في الداخل، فستصل إلى حزام من الأرض الرخوة غير الثابتة يمتدّ عرضه بين الدهناء والمرتفعات التي تكوّن نجد الأساسية، وهو حزام يعرف بعدد من المسميات. يعرف – على سبيل المثال – في أضيق مناطقه باسم سدير، وهي المنطقة التي تقع تحت تلال طويق مباشرة. أما إلى الجنوب من هذه المنطقة، أي في المنطقة المحصورة بين الدهناء والمحمل، فلا يعتقد بيلي أنها تحمل اسماً بعينه، إذ تُعرف أحياناً باسم سدير وتعرف باسم المحمل في أحيان أخرى. أما إلى الجنوب من ذلك، أي الإقليم الواقع بين الدهناء والعارض، فإنه يُعرف باسم العرمة. ويكوّن خط التلال الذي في هذا المسار مباشرة مرتفعات نجد الأساسية. ويجري هذا الخط بنحو عام في اتجاه الشمال مع انحناء طفيف في اتجاه الغرب والجنوب مع انبعاج عند الناحية الشرقية. وتقع الزلفي عند أعلى مناطق هذا الخط شمالاً، وتُعرف المنطقة الممتدة بين الزلفي والحوطة باسم طويق. وتعد هذه السلسلة الأخيرة أعلى مناطق مرتفعات نجد الشرقية. ويُلاحظ انكسار السلسلة في المنطقة الواقعة دون الحوطة، وهي تمتد لمسيرة يوم أو يومين بين قرية ثادق ومدينة سدوس تحديداً، وتعرف الهضبة التي يُشكلها هذا الانكسار بالمحمل.

تأخذ الأرض في الارتفاع التدريجي حين يغادر الراكب سدوس في اتجاه الجنوب حتى يصل إلى الرياض، بعد مسيرة طويلة ليوم كامل يمرّ خلالها بقرى العيينة والجبيلة ثم الدرعية، العاصمة القديمة للوهابيين، ويُطلق على هذه المرتفعات اسم العارض. أما وادي حنيفة الذي يخترق العارض عند العيينة ويمر عبر الدرعية التي تقوم على جانبيه كليهما، فيتدفق في اتجاه الرياض ثم ينحني عنها مشرقاً. ويبدو أن وادي حنيفة، أو ربما أحد فروعه، كان يعرف قديماً في الفترة التي سبقت سيطرة الوهابيين باسم أفتان. وعادة ما يكون وادي حنيفة جافاً، ولكنه ما يلبث أن يتحول إلى مجرى، منحدراً عند هطل المطر ليفقد مياهه حين تغوص في الرمال في اتجاهي الجنوب والشرق. ويبدو أن خط توزيع المياه في مرتفعات وسط شبه الجزيرة العربية يجري في اتجاهي الجنوب والشرق. ويبدو كذلك أن المياه التي تغوص في منطقة الرمال الجنوبية تبقى تحت رمال الربع الخالي. أما المياه التي تتدفق إلى ناحية الشرق فهي تغوص تحت رمال الدهناء لتظهر مرّة أخرى في الطبقات السطحية في منطقة الأحساء أولاً، ثم لتطفو بعد ذلك مرّة ثانية على السهول الأكثر انخفاضا عند ساحل البحر في منطقتي رأس تنورة والقطيف، وتتدفق هذه المياه بعد ذلك في اتجاه الخليج حيث توجد على عمق يتراوح بين أربع إلى خمس قامات تحت سطح مياه الخليج بالقرب من البحرين. شمل هذا الوصف شخصية

الأرض التي قطعها بيلي، وهي تلك الواقعة بين الكويت والرياض، ولذلك اعتذر بيلي بأنه لم يتطرق إلى أقاليم الوشم والقصيم وجبلشمّر التي تقع إلى الغرب وإلى الشمال من طويق، وهي أقاليم ملحقة جغرافياً وسياسياً بنجد.

أما منطقة الخرج التي تعرف أحياناً باليمامة، فتقع إلى جنوبي شرقي الرياض وعلى مسيرة يومين منها. وتؤكد المتواترات أن هذه المنطقة الممحلة إلى حد ما كانت ذات يوم أرضاً زراعية مترامية الأطراف تُعرف بمقاطعة اليمامة. ضرب الزحف الصحراوي عبر العصور هذه المنطقة، التي أودت بها كذلك الاضطرابات السياسية التي خيّمت عليها لفترات متعاقبة. ويعتقد بيلي أن مقاطعة اليمامة كانت تمتد من الخرج التي تُعرف في زمانه باليمامة شرقاً إلى سواحل الخليج، وتضم إقليم الأحساء الذي كان يعرف سابقاً بهجر. وكانت هجر، المهجورة "حالياً"، والتي تقع على مسافة يومين أو ثلاثة إلى الجنوب الغربي من الهفوف، هي عاصمة ذلك الإقليم. ويقال إن اليمامة "الحالية" تقوم على الموقع ذاته الذي كانت تقوم عليه العاصمة القديمة، فالموقع لم يطرأ عليه أي تبديل. وتزدهر في اليمامة "الحالية" التي تفيض أرضها بالمياه بساتين النخيل الشاسعة. ويقال إن بعض هذه المياه يرد من الأسياح التي تقع على مسافة غير بعيدة إلى الجنوب منها، وهي المنطقة التي ترعى فيها خيول الأمير، ويرد بعضها الآخر من العيون والآبار في المنطقة. ولا تقوم اليمامة "الحالية" على حافة الوادي، بل تقف على السهل المفتوح وتبعد عن مدينة الهفوف "الحالية" مسافة ستة أو سبعة أيام، كما تقع على مسيرة أربعة أو خمسة أيام من هجر. وتُعدّ السلمية أيضاً من إقليم الخرج. وتجدر الإشارة إلى أن المنطقة الممتدة بين بيشة ووادي الدواسر تخلو من الأنهار الدائمة الجريان، كما يلاحظ أيضاً عدم وجود أي أنهار أو مجارٍ متدفقة في أي منطقة على الساحل العربي للخليج في المنطقة الممتدة من الكويت على رأس الخليج حتى رأس مسندم عند مدخله.

يضيف بيلي: يبدو أن القانون العام لخط توزيع المياه في شبه الجزيرة العربية اعتباراً من الحدود الشرقية للحجاز، من الجبال الوسطى ومن الهضاب كذلك، يتجه إلى الجنوب وإلى الشرق، أي بقول آخر إنه يتبع النسق ذاته الذي يسير عليه في شرق نجد. تتخلّل هذه المياه طبقات الصحراء العظيمة في الجنوب وكذلك طبقات أرض الأحساء والقطيف وتتصل بالخليج شرقاً. وهذه هي الحال نفسها بالنسبة إلى مياه نجد الجنوبية التي تنفذ إلى الطبقات تحت سطح اليمامة والحوطة والخرج وغير ذلك لتتخذ المياه الفائضة بعد ذلك طريقها إلى الصحراء أيضاً، وتتبع مياه العارض النمط نفسه. فمن حزم الراجي ومن المرتفعات الشرقية لحدود الحجاز الجنوبية تتدفق المياه فتنفذ إلى الطبقات السطحية من بيشة ووادي الدواسر وأفلاج الدواسر التي هي قسم من إقليم الدواسر، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يروى من الأفلاج. ويذهب فائض هذه المياه ليتغلغل في طبقات الصحراء العظيمة بعد أن يروي المناطق التي ذُكرت آنفاً.

يستطرد بيلي فيذكر أن الطريق من الرياض إلى الأحساء يعكس شكل الأرض ذاتها إذا قطعتها من الكويت إلى الرياض، ولكن لأن خط عودة بيلي من الرياض يسير في الاتجاه العكسي لذهابه إليها، فإن الأرض تعكس الاختلاف نفسه. فعند مغادرة الكويت في اتجاه الرياض يقطع المسافر اثني عشر يوماً في اتجاه جنوبي غربي بنحو عام ثم يتجه جنوباً بعد ذلك. يسير المسافر في الأيام الخمسة الأولى من الرحلة بموازاة الأرض المفتوحة غير المستوية المعروفة بالعدان، ثم ليومين عبر أرض الصمان الصخرية يقطع بعدها تلال الدهناء في يومين كذلك، ليجتاز بعد ذلك في يومين أيضاً الأرض السهلية غير المستوية الفاصلة بين الدهناء ومرتفعات نجد المسمّاة بالعارض، ثم يقطع في يوم مسير طويل عبر العارض إلى الرياض. أما طريق العودة من الرياض عبر الأحساء إلى الخليج فيستغرق ثلاثة أيام لقطع منطقة العارض ومجاورته، ثم يومين عبر الدهناء التي تعرف عموماً بالنفود، ويومين آخرين لاجتياز أرض الصمان المفتوحة إلى هجر. وتلي ذلك مسيرة يومين للوصول إلى خط الساحل عند العقير التي تنطق العجير أيضاً. كما يمكن المسافر أن يجتاز من هجر إلى خط الساحل في القطيف طريق رحلة تستغرق منه مسيرة أربعة أيام. وعلى أي طريق من الطريقين الخارجين من هجر سرت، فلا بد لك من المرور بالهفوف، المدينة الرئيسة في الأحساء. ومما تجدر ملاحظته أن لفظ الأحساء يدل أحياناً على الهفوف. وتُعرف الهفوف بكوت الهفوف، وذلك في إشارة إلى القلعة القديمة القائمة هناك، والتي "لا يزال" الحاكم الوهابي يشغل قسماً منها. ولا تبعد المبرز، المدينة التالية في الأهمية في الأحساء، سوى ميلين فقط إلى الشمال من الهفوف. أما تلال القارة التي هي عبارة عن رُبى متصلة يرتادها الناس عند اشتداد الحرّ للاستمتاع بجوّها البارد فتقع إلى الشرق من المدينة.

يستطرد بيلي فيقول: سبق أن ذكرنا أن هذه المنطقة كانت تحمل قديماً اسم هجر التي كانت قصبة الإقليم. ويقال إن هناك أطلالاً ما زالت باقية تحمل اسم هجر، وتحدث عن آثار مدينة كبرى تبعد عن الهفوف مسيرة يومين أو ثلاثة في اتجاه جنوبي غربي. ويمكن القول إن المعركة التي أورثت "المؤمنين" هذه المنطقة قد جرت بالقرب من هجر. وبمنطق الواثق من معلوماته التي يدلي بها يقول بيلي لمستمعي محاضرته في دار الجمعية الملكية البريطانية بلندن: قد يجري الخلط أحياناً بين هجر وحجر، وللتمييز فإن اللفظ الأخير(حجر) يطلق على أرض الصمان بينما يطلق الأول (هجر) على الأحساء القديمة وعلى عاصمتها كذلك. ويضيف بيلي: وقد يقع الخلط أحياناً بين العقير والعجير حين نشير إلى ذلك الميناء البحري الذي يعرف بالاسمين كليهما. ولهذه المسمّيات دلالاتها اللغوية – كما يقول بيلي –، فالعقير كلمة بمعنى الشيء المبتور أو المقطوع. وقد أطلق هذا اللفظ على هذا الميناء للدلالة على المدخل الصغير المبتور أو للإشارة إلى تلك الجزيرة الصغيرة الراقدة عند الساحل والمقطوعة

منه. أما القطيف، وهي الميناء الحالي لمنطقة القطيف القديمة التي كانت إحدى مقاطعات هجر، فاسمها اشتق من الفعل قطف. فقد ازدهرت في هذه المنطقة الزراعات وبساتين النخيل، وشغلت في الماضي مساحات واسعة تفوق ما هي عليه في وقتها الراهن حيث تغولت عليها مع الزمن رمال الصحراء وجارت عليها. وكان الناس يقطفون ثمارها بنحو غير مقطوع، فاكتسبت من ثم المنطقة اسم القطيف، ذلك أن قطف تعني جنى. وبغباء شديد يضيف بيلي: وربما دل اللفظ أيضاً على الشيء المغتصب أيضاً، وذلك في إشارة، كما هو ثابت، إلى طائفة من القرامطة كانوا قد استولوا على الأحساء في القرن الثالث أو الرابع الهجري و"اختطفوا" الحجر الأسود الذي حملوه معهم من مكة المكرّمة إلى القطيف في محاولة منهم لتمييز هذا المكان على مكة كمكان للحج. ولعلنا من جانبنا نلاحظ أن هذا المقيم البريطاني الأكثر رعونة خلط بين لفظي "حجر وهجر" كما خلط أيضاً بين "قطف وخطف" وبنى على هذا الخلط الأخير قصة بعيدة كل البعد عن واقع الحال. يورد أبو عبيد الله البكري من أخبار القرامطة في هجر ما يأتي: ورد الخبر في سنة سبع وثمانين ومئتين بدخول ابن سعيد القرمطي هجر، وذلك بعد حصار أربع سنين، ووصل إلى قوم هلكى جوعاً وهزالاً بعد أن كان الوباء قد وقع فيهم فمات منهم خلق كثير. وقتل منهم القرمطي ثلاثمئة ألف أو طرحهم أحياءً في النار، ونجا منهم قوم قليل إلى جزيرة أوال. قال بلغني أنه لم يبقَ من أهل هجر يومئذ إلا عشرون رجلاً، وسار من أصحاب الجنابي إلى حصن يقال له فلج بينه وبين هجر ستة أيام وبين هذا الحصن ومكة تسعة أيام. (راجع: **جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك**... تحقيق عبد الله يوسف الغنيم، الكويت، ١٣٩٧هـ. ص ٤٦).

أما ما كان من استيلاء هؤلاء على مكة المكرّمة فذلك أمر آخر لا اتصال له البتة بما جاء به هذا المقيم الأرعن الذي قصد أن يكشف لمستمعيه من الأوروبيين بعض عورات تاريخنا الإسلامي، فزجّ بهذا الحدث بلا مناسبة في سرده، أو ربما لأنه خلط بين قطف وخطف ليقول إن القرامطة قد "خطفوا" الحجر الأسود، وفي الحقيقة فإنهم لم يخطفوه بل انتزعوه عنوة.

يقول البكري: " قال إبراهيم بن فارس وأبو بكر بن علي بن قاسم في تاريخه وغيرهما إن أبا طاهر سليمان بن حسن القرمطي، لعنه الله، صاحب البحرين، لما دخل مكة بالسيف وهو في تسعمئة رجل، وذلك في يوم الاثنين لسبع خلون من ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثماية، قتل في المسجد الحرام نحو ألف وسبعمئة من الرجال والنساء وهم مشتغلون متعلقون بأستار الكعبة وزحم منهم زمزم وفرش المسجد وما يليه، وقطع الحجر الأسود، وأخذ أستار الكعبة، وهتك حرمتها.

قال علي بن محمد الذهبي: " وحضرته لما قلع يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من ذي الحجة من العام المؤرخ، قلعه بيده جعفر بن أبي علاج، البناء المكي، بأمر القرمطي،

لعنه الله، وحمل الحجر إلى بلاده... قال أصحاب التواريخ فرمى الله عز وجل القرمطي في جسده، وطال عذابه، وتقطعت أوصاله، وأراه الله في نفسه عبرة. وأعيد الحجر إلى مكانه يوم النحر، ردّه بيده حسن المرزوق، البناء المكي. وكانت بين غيبته من يوم قُلع إلى يوم رد اثنتان وعشرون سنة إلا أربعة أيام. وكان مكانه فارغاً يُدخل المسلمون أيديهم فيه إلى أن ألقى الله في قلوب الكفرة الرهبة.“

يستطرد بيلي فيقول إنه سمع بوجود خرائب مدينة كبيرة مطمورة تحت الرمال على ساحل الخليج على مسيرة يوم ونصف في الطريق الواقع بين القطيف والعقير. ويتساءل بيلي: هل يمكن أن تكون هذه الخرائب بقايا مدينة حماص أو حمص القديمة؟ ويضيف أنه لم يجد أي إشارة تدل على وجود مستقرات بشرية في المنطقة الواقعة على خط الساحل بين القطيف والكويت. ويشير إلى وجود طريق بري يربط الأحساء بالكويت يسير بعيداً من الساحل على بعد حوالى ستة أميال. ويحدثنا عن خرائب قلعة حجرية تقع على موقع ما على يمين هذا الطريق اسمها ثاج، تشير المتواترات إلى أنها بنيت في عهد نمرود. ويأخذ في الحديث عن حصن ثاج فيقول نقلاً عن مرافقيه إن ثاج كانت في غابر الأزمان المدينة الرئيسة في الأحساء، وإن أطلالها التي تنتشر على طول ميل تقريباً وعرض حوالى نصف ميل ما زالت بارزة تحدث عنها. وفي الحقيقة، فقد ورد ذكر ثاج للمرّة الأولى في المصادر الأوروبية في نهاية القرن الثامن عشر حين كانت مسرحاً لمجابهة غير دموية في عام ١٧٩٩م بين جيش عثماني يقوده علي باشا وقوّة وهابية بقيادة سعود بن عبد العزيز. وفي هذا الصدد يذكر لوريمر أن ثاج شهدت أول لقاء فعلي لسيوف الوهابيين والباب العالي. وكان شكسبير هو الأوروبي الأول الذي يزور ثاج في رحلته في عام ١٩١١م التي التقى فيها ابن سعود. ولا نريد أن نسترسل في ورود اسم هذه القرية في التراث العربي الممتد منذ زمن الجاهلية في الشعر والنثر عبر العصور وفي كتب الجغرافيين والمؤرخين العرب الكلاسيكيين. ذكرها من شعراء الجاهلية عمرو بن كلثوم وكذلك ذو الرمة، كما نجدها بعدئذ في شعر الفرزدق، وذكر راشد بن قيس بن شهاب اليشكري حصنها الحجري، وحدد الأصمعي موقعها في ناحية اليمامة، كما وردت عند أبو عبيدة البكري على أنها من أرباض البحرين، وأنها ترسل ضرائبها إلى اليمامة، ”وكانت ملكاً لبني قيس“. أما الهمداني فقد ذكر أن ثاج ومقالع ماءان لبني تميم، وذكر أن ثاج ماء في البحرين... إلخ. ويتناول بيلي في تفسيره لأسماء المواقع جزيرة أوال، كبرى جزر البحرين، وينسبها إلى شخص حمل ذلك الاسم، وذلك – في ما يقول – في مقابل اسم لجزيرة أخرى تقع على الساحل المواجه تحمل اسم جزيرة قيس. ويستطرد في الحديث عن المواقع الأثرية في شبه الجزيرة العربية فيقول إنه سمع عن وجود تلّ ركامي ضخم يقع على مسيرة ساعتين شمالي شرقي جلاجل في سدير وعن حجر هناك يحمل نقشاً يعود إلى فترة بعيدة جداً، ويطلق على

هذه المنطقة اسم جريف. ويذكر بيلي في هذا الصدد أيضاً العمود القديم الشاهق الارتفاع في سدوس بالعارض.

أما الكويت، فيقول بيلي – في محاضرته ما سبق أن أثبته في تقريره – إنها تصغير كوت، والكلمة تعني الحصن. ويرى أن عمر المدينة قد يصل إلى قرن أو قرنين من الزمان، وأن أسلاف شيخها الحالي كانوا قراصنة ينفذون عملياتهم عند مدخل شط العرب، وأن قلعتهم الرئيسة كانت في أم كنور الواقعة على خور الزبير. وأفاد بيلي بأنه عمل في فترة سابقة على استكشاف هذا الخور وأبحر حتى أعلاه حيث يصل عمق الماء إلى أربع أو خمس قامات، وأنه استشرف من هناك بساتين نخيل البصرة. وأفاد أيضاً بأنه أبحر في المنطقة الواقعة بين جزيرة بوبيان والساحل مستقلاً قارباً محلياً من القوارب التابعة للمقيمية، وأفاد بأن عمق المياه في هذه المنطقة من الخور يتدرج من أربع إلى ست إلى تسع قامات على التوالي. وانتهى بيلي إلى القول إن هذا الخور لا يصلح للملاحة، فالعمق عند مدخله لا يتجاوز قامة واحدة فقط، وأشار إلى أن الدخول إلى خور الزبير يمكن أن يتم عبر أعالي خور عبد الله. ويعود بيلي فيذكر أن خليج الكويت يسمى "قرن" وذلك لشبهه بقرن الحيوان. ويقول إن الجهراء تقع عند الزاوية الشمالية الغربية من ذلك الخليج، وإنها تقوم فوق موقع قديم، يؤيد ذلك وجود بقايا " طابوق " (الطوب المحروق) قديم عند الحفر أسفل قلعة الجهراء التي يضيف أنها الموقع الذي يتعامل فيه التجار في خيول نجد التي تشحن إلى الهند.

ينتقل بيلي بمستمعيه إلى مسقط فيقول إن سادتها من البو سعيد ربما كانوا سادة قرية اسمها رويثة من قرى سدير الواقعة تحت تلال طويق مباشرة. وقد وفدت هذه الأسرة إلى عمان وعملت مع قبيلة اليعاربة التي كانت تسيطر على الحكم في ذلك البلد. وما لبثت هذه الأسرة أن اتخذت لها قلعة عند تل يسمى آدم في مجاورة الرستاق وتحولت من المذهب السني إلى الإباضي. ويعدّ سعيد المؤسس لهذه الأسرة، وقد خلفه على كرسي الحكم ابنه أحمد، وأصبح سلطان بن أحمد يعرف بعد ذلك بالإمام. وحين اغتيل سلطان خلفه ابنه سعيد الذي جعل من دولته دولة آسيوية بحرية مرموقة جداً، وامتلك سعيد خط الساحل في شرق أفريقيا في المنطقة بين رأس دلقادو، أو من حد نهر مسندي الذي يقع إلى الجنوب مباشرة من هذا الرأس وصولاً إلى براوة ومقديشو. وتضم هذه المنطقة المستعمرة البرتغالية القديمة في ممباسا وجزر زنجبار وبمبا وما إلى ذلك من مستعمرات، وتمكن سعيد بن سلطان من تطوير التجارة في المنطقة الممتدة من فم الخليج الفارسي وبندر عباس إلى ساحل مكران. وعندما توفي السيد سعيد تنازع الحكم اثنان من أبنائه، وأحيل النزاع على تحكيم إيرل كاننج الذي أصدر حكمه بتقسيم دولة مسقط بين المتنازعين. أعطى كاننج الممتلكات الأفريقية إلى ماجد بلقب سلطان زنجبار، وأعطى المنطقة الساحلية من عمان

إلى ثويني الذي "لا يزال" يحكم هذه المنطقة تحت مسمى سلطان عمان. ويضيف بيلي أنه لا يجد من يعترف لثويني بلقب سلطان عمان غير البريطانيين، فهو يُلقب عادة بالسيد، وسيظل هذا اللقب عالقاً به، وهو في هذا غير أبيه المرحوم السيد سعيد أو جده السيد سلطان اللذين كان يشار إلى كل منهما بالإمام. ويذكر بيلي أن جانبي سلسلة الجبال التي تسود في موازاة هذه الرقعة من ساحل عمان يزخران بوفرة في مياه الري الجيدة، وتزدهر في المنطقتين كلتيهما زراعة الخضر والفواكه. ويرى بيلي أن هذه السلسلة لم يستكشفها الأوروبيون كفاية، وأن هناك عدداً وفيراً من الحقائق التي يعدها مهمة، والتي يجب العمل على استكشافها في هذه المنطقة.

خيول نجد

في معرض حديثه عن المصادر الاقتصادية لنجد يتحدث بيلي عن الخيل النجدية التي يقول إنها لا تتميز بلون معين، ولكن يعكس أديمها جميع الألوان، أما أطوالها فتتراوح بين ١٤،١ قبضة و١٤،٢ قبضة، أما الحصان الذي يصل طوله إلى ١٤،٣ قبضة فيعدّ من الخيول النجدية الضخمة. ونجد أن أطوال أميز هذه السلالات شكلاً وأكثرها قوّة تحمّل لا تتجاوز في العادة ١٤،١ قبضة، وقد تكون أقصر طولاً من ذلك أحياناً. ويقول إنه شاهد "في الأيام القليلة الماضية" مهرة صقلاوية كميت اللون، ومهرة حمدانية، وعبيتين ضخمتين، ومهرتين رماديتين، ومهرة كحيلة، وامتطى بعضها. ويضيف أنه وجد أن اللون الرمادي بدرجاته المختلفة اعتباراً من الداكن الغامق إلى الدرجة التي تقارب البياض تقريباً هو اللون السائد في هذه السلالات جميعها.

يرى العرب أن الخيل يجب أن تُطوّع صغيرة وتذلّل للركوب. فالفلو يجب أن يُمتطى بنحو دائم منذ أن يبلغ عامين من عمره لتأكيد قوته ولتمكينه أن يكون أكثر قدرة على المقاومة. وعلى ذلك نجد أن الفلو الذي يربّى في مرابع البدو يظفر بالتقدير أكثر من الآخر الذي يربّى مدللاً في البحرين، وذلك رغم أن خيل البحرين تمتاز بنقاء السلالة. ويعتقد البدو أن الفلو يحتاج إلى أن يتنسم هواء الصحراء، وأن يدرب في الصحراء أيضاً، وأن يشبّ على لبن النوق، وأن يطعم شيئاً من التمر. ويُروى أن العربي قد يضطر إلى أن يذبح شاته لإطعام فرسه أو مهرته، فيقدم لها اللحم في اليوم الأول، ثم الحساء في ما يليه .

يلاحظ بيلي أن العرب لا يستعملون اللجام لخيلهم إلا نادراً، فتراهم يكتفون بمقود ضعيف يربطونه إلى أنف الفرس، ومع ذلك تجد هذه الخيل طيّعة سهلة القياد حتى حين تعدو بأقصى سرعتها. ويضيف بيلي أن أساليب العرب في تطويع هذا الحيوان وتدريبه جديرة بالملاحظة

حقاً. فقد دربت بعض الخيل التي تعيش في مناطق الكثبان الرملية على أن تبرك مثل الإبل حالما يخط صاحبها على الرمل خطاً بعصاه، وتنقلب بعد ذلك على جانبها فتغدو كأنها راقدة، وتفلت بذلك من أن تقع في عين عدو كامن على مسافة غير بعيدة عنها.

تعيش في نجد خمس سلالات من الخيول هي:

- صقلاوية ابن جدران.
- كحيلة العجوز.
- عبية الشرق.
- دهمة الشهوان.
- وزنة خراسان.

يتعذّر الحصول على النوع الأول من هذه السلالات في نجد إلا بقدر محدود في مضارب قبيلة عنزة فقط. ويمكن الحصول على أنواع مهجنة من هذه الفصيلة تعود إلى أم أو أب غير أصيلين في هذه السلالة. أما كحيلة العجوز فهي المنحدرة من الشيفايمان (؟) ومنها الحمدانية وهدبة وربضة وشهيب ومرادي وزهية ومنجية وطويش وغطرافية وجازية وحارقة وجرادة وغير تلك من هذه السلالة التي توجد في نجد بكثرة. وتمتاز هذه السلالة باستواء قوائمها وبحركتها المتتابعة حين تعدو. أما السلالات الثلاث الأخرى فهي حتى حين تُهجّن تظلّ تُعرف باسم سلالتها الذي حملته في السابق. ولا يأبه العربي بمظهر الحصان كثيراً، إنما يعنيه في الدرجة الأولى ويستغرق اهتمامه قبل أي شيء آخر نقاء السلالة، ويأتي الاهتمام بالمظهر تالياً لذلك. ولهذا نجد أن العربي لا تروقه كثيراً الخيل التي تجلب أسعاراً أعلى في أسواق بومباي، فهو لا يكترث لطول الحصان إلا إذا وضع في اعتباره تسويقه خارج نجد، وفي هذه الحالة فقط نجده يُفضّل الحصان العبل على ما سواه.

طعام العربي

يُكوّن حليب النوق وكذلك الجراد الوجبة الأساس في سائر طعام العرب. فحين يكثر الكلأ في فصل الربيع وتصيب النوق شبعاً، يستغني العربي بحليبها ويعيش عليه بصفة كاملة فيجد فيه الشبع ويغدو عنده كدمه الذي يسري في عروقه. ويقال إن شهية العربي تستسيغ هذا الحليب ولا ترضى منه بديلاً وتأنف تناول أي صنف آخر من الطعام، خاصة الحيواني منه. ويدّعي بيلي أنه تحرى عن هذا الأمر واستوثق من العديد من المصادر التي لا يتطرق إليها الشك أن بعض العرب يعيشون لعدّة شهور في السنة، هم وخيولهم، متمتعين بالعافية الكاملة، على لبن النوق لا تلامس شفاههم أي مادة غذائية أخرى طوال هذه الفترة، "وهذا قول مؤكّد لا

شك فيه ولا مراء". أما الجراد فإن البدو يستطعمونه ويقتاتون به على مدار السنة ويدّخرونه في مخازن خاصة. ويُعدّ الجراد إضافة إلى التمر الغذاء الرئيس للبدوي.

السلطة الوهابية

يسرد بيلي تاريخ الدولة السعودية فيصيب ويخطئ بحسب ما لديه من مصادر، لعل أغلبها كانت شفهية. يقول إن محمد بن سعود، المؤسس، الذي تعود أصوله إلى عشيرة المساليخ من عنزة، كان في بداية أمره رئيساً لعائلة صغيرة تحترف الزراعة على أطراف الدرعية الواقعة على وادي حنيفة. وفي ذلك الزمن أيضاً عاش رجل آخر اسمه عبد الوهاب ترجع أصوله إلى بني تميم، ولد في العيينة في منطقة الدرعية أيضاً. واكتسب عبد الوهاب معرفة فقهية في سعيه لمعرفة الله معرفة حقة. وارتحل عبد الوهاب في تحصيل العلم إلى البصرة وبغداد ودمشق، ثم عاد بعد ذلك في عام ١٧١٠م إلى الدرعية ليعلن على الملأ أن الناس جاهلون بما جاء به الكتاب والسنّة، ودعا إلى التصحيح. ودخل محمد بن سعود في هذه الدعوة، وعمل الإمامان "على قتل كل من لا يؤمن بها".

انبرى محمد بن سعود لمهاجمة الرياض وقاتلها ثلاثين سنة حتى دانت له بعد أن قتل شيخها دهام بن دواس الذي تعود أصوله إلى قبيلة الدواسر. وتفرق من ثمّ أهل الرياض من الذين لم يؤمنوا بالدعوة بين هارب وقتيل. وقاتل محمد بن سعود بعد ذلك الأحساء وقتل جماعة غفيرة من آل عريعر الذين كانوا يحكمون هذا الإقليم.

كان لمحمد بن سعود ولدان هما عبد الله وعبد العزيز. وقد ولد فيصل، الحاكم الحالي لنجد، لتركي المولود بدوره لعبد الله بن محمد بن سعود. ويعرف فيصل بالأمير وكذلك بالإمام، والتعريف الأخير هو الأهم. وعلى الرغم من أن فيصل قد ناهز السبعين، وعلى الرغم من أنه أعمى، هو مهاب يخشى سطوته كافة القاطنين في أرضه الشاسعة الامتداد من بدو ومن حضر.

أما عبد العزيز بن محمد بن سعود فقد ولد له سعود الذي أنجب عبد الله بدوره. وقد وقع على عبد العزيز وابنه سعود من بعده عبء توسيع دائرة السلطة الوهابية. ودخلت المدينتان المقدستان، مكة المكرّمة والمدينة المنورة، في حوزتهما. وتمكن العاهلان من السيطرة على أرض الجزيرة العربية كلها تقريباً، ما خلا اليمن وحضرموت. وكان سعود على وشك أن يغزو اليمن لولا أنه استدعي من تخومها إلى الدرعية لمقتل والده.

تمكن إبراهيم، ابن باشا مصر، من أرض الوهابيين بعد أن لاقى مقاومة ضروساً. وكان سعود قد توفي في هذا الوقت، فتمّ للباشا أسر عبد الله الذي سيق أسيراً مع أخيه خالد

إلى الدرعية. ودمّر إبراهيم باشا الدرعية وفرض مكوساً على الوهابيين. كانت أسرة عبد الوهاب تتقاسم السلطة والقوّة مع أسرة ابن سعود في بادئ الأمر، حيث تمتعت الأسرة الأولى بالسلطة الروحية فيما ظفرت الثانية بالسلطة الزمنية، ومع الزمن ولّى عهد هذه الحكومة المزدوجة وانتهى.

ولد لعبد الوهاب ثلاثة أبناء هم الشيوخ محمد وحسن وعبد الرحمن! توفي الأولان و لم يتبقَّ من الثلاثة إلا الأخير الذي بلغ التسعين من عمره "حالياً"، وأصبح يعيش من دون أي أعباء في إقطاعيته القريبة من الرياض. وعلى ذلك فقد انتقل لقب الإمام إلى فيصل المنحدر من أسرة ابن سعود، وغدا بذلك القائد الديني أيضاً. وبهذا اجتمعت في يد فيصل السلطتان الزمنية والروحية، وأصبح مطلق السلطة على امتداد الأرض التابعة له. وأسند فيصل القضاء إلى أسرة تابعه له. ويعبر بيلي عن اعتقاده "بأن القوانين الوهابية والممارسات القضائية هي الأقسى مقارنة بنظيراتها عند الفرق الإسلامية الأخرى، إلا إن فيصلاً – بالرغم من ذلك – لا يواجه أي معارضة من الفقهاء ولا من أي من أفراد أسرته في نجد.

يمكن أن نلاحظ أن المقيم بيلي قد وقع في سرده التاريخ في أخطاء عديدة، لأنه كان كغيره من الرحالة يستمد معلوماته من البدو وغيرهم من الذين جالسهم أو التقاهم إبان رحلته. وقد يستطيع أمثال هؤلاء أن يمدوا الرحالة بمعلومات قيمة عن طوبوغرافية الأرض، ولكنهم لا يستطيعون أن يقدموا له معلومات تاريخية موثوق بها، إذ لم يزد علمهم في هذا المجال على ما سمعوه من متواترات، منها الصادق ومنها المختلق بحسب الملابسات التاريخية. ومع أننا نؤيد جميع ما في صدور الناس، بدوهم وحضرهم، من تاريخ والإفادة منه بعد تمحيصه ونقده، إلا أن بيلي كان عسكرياً أو ربما إدارياً ليس له معرفة ولا دراية بعلم نقد التاريخ، وربما لم يكن لديه الاهتمام الكافي لتمحيص ما سمعه من أفواه من في ركبه من التاريخ وغير ذلك من المرويّات التي لا تتصل بأهداف رحلته.

يرى بيلي أن تعريف نجد جغرافياً، بحسب الدلالة اللغوية للفظ، تعني مرتفعات قلب شبه الجزيرة العربية، أي إنها تشمل ضمن حدودها الشرقية تلال طويق والعارض، كما تشمل في حدودها الغربية الوشم والقصيم، والخرج والحوطة في حدودها الجنوبية، وجبلشمّر في حدودها الشمالية. أما تعريف نجد سياسياً فيمكن القول إنها تتطابق مع حدود المنطقة التي يسيطر عليها الحاكم الوهابي، والتي تحد من الغرب بخط يجري من الشمال إلى الجنوب ليفصل بين الحجاز من جانب ووادي الدواسر وحزم الراجي من جانب آخر. كما يمثّل جوف العمار النهاية الشمالية القصوى لنجد السياسية التي يمثّل وادي الدواسر بدوره النهاية الجنوبية القصوى لها، وتُحدّ من الجنوب بالربع الخالي أو الصحراء العظيمة. ويجري هذا الخط من وادي الدواسر في الغرب في اتجاه الخليج لينتهي عند نقطة غير محددة في الصحراء. وتصل

حدود نجد السياسية إلى الخليج شرقاً وذلك في المنطقة الممتدة من الكويت في أقصى حدودها الشمالية حتى تصل إلى منطقة أبو ظبي، ثم ينحاز هذا الخط عن الساحل إلى الداخل قليلاً، متجاوزاً المنطقة التي يعمرها العرب البحريون شبه المستقلين، المعروفة بالساحل المهادن، لتصل الحدود إلى البريمي. ويتجه من ثم إلى الجنوب الشرقي ويجري خلف تلال مسقط العمانية. أما خط الحدود السياسية في الشمال فيمتدّ من جوف العمار المذكورة آنفاً إلى جوار الكويت مباشرة في الشرق.

يستطرد بيلي فيقول إن السلطة السياسية داخل هذه الحدود تقوم على كونفدرالية تربط بين القبائل البدوية منها والمتحضرة بالمصالح المشتركة، ويوثّق حبل الدين هذا الارتباط. وتخضع هذه القبائل لإرادة أوتوقراطية واحدة في شؤون الدفاع والغزو. تضم هذه الكونفدرالية القبلية العمور وسبيع والسهول والشوامر والعجمان ومطير وبرية وحرب وشمر وعنزة وآل مرّة وقحطان وعتيبة والدواسر وقبائل عديدة أخرى، وتمارس هذه القبائل الزراعة والرعي. وتسكن القبائل المستقرّة التي تمارس الزراعة في المناطق المجاورة للأودية ومرتفعات القصيم والوشم والعارض. وتحيط بمناطق الاستقرار الزراعي سهوب مترامية عامرة بالرعاة الذين هم في حركة دائبة وراء سوائمهم لا يقر بهم قرار. و"سيظل هؤلاء الرعاة على دأبهم في حركتهم التي لا تهدأ حكماً بطبيعة المنطقة". ويمكن أن نسوق في هذا المجال قبيلتي سبيع والسهول اللتين تقطنان المنطقة بين كرسيت والرياض مثلاً. تعيش هاتان القبيلتان حالة تجوال دائم في هذه المنطقة في فصلي الشتاء والربيع. وتبيع القبيلتان ما تيسر لهما من نتاجهما من الصوف والجلود وكذلك الخيل والمواشي الأخرى في الكويت والمناطق الساحلية الأخرى، ثم يعودون إلى منتجعاتهم بالتمر والبن وأصناف السلع الأخرى التي يحتاجون إليها، ومنها أعواد الخيزران التي يستعملونها عصيّاً للرماح وبعض متفرقات أخرى مما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية. إن حياة البدو في نجد تجري على نسق منتظم وفق فصول السنة. فحين تقطع رُبى نجد شتاءً أو سهولها صيفاً فلن تصادف في المنطقتين بدوياً إلا بالكاد. أما إذا اجتزت هذه الروابي صيفاً أو عبرت السهول شتاءً، فلن ترى هنا وهناك إلا الخيام السود منتشرة في كافة الأرجاء.

يقوم الإمام السعودي على رأس هذه الكونفدرالية القبلية، وتؤدي القبائل له الزكاة إما عيناً أو في شكل خدمات. وتلقى القبائل منه، نظير ذلك، حصصاً من التمر، أو قد يقطعها أحياناً بعض الأراضي الزراعية لاستثمارها، أو قد يخصص لها بعض المراعي لاستغلالها لمصلحة القبيلة.

زكاة قبائل نجد كما جاءت في كتاب رحلته إلى الرياض

أسماء القبائل	عدد أفرادها	المبالغ المدفوعة بالريال	ملاحظات
سبيع	٨٠٠	٦٠٠٠	مقدار الزكاة: جمل في كل أربعين، وشاة في كل مئة، وفرس في كل عشرين... وتجبى نقداً إلا في ما ندر
السهول	٦٠٠	٨٠٠٠	
العجمان أو الرخم	١٢٠٠	٨٠٠٠	
قحطان	٦٠٠٠	١٦٠٠٠	
قحطان الجنب	١٠٠٠	٤٠٠٠	
عتيبة (ثلاثة فروع)	١٤٠٠	١٢٠٠٠	
حرب	١٠٠٠	٨٠٠٠	
عنزة (في نجد)	٦٠٠	٤٠٠٠	
البرية	٨٠٠	٤٠٠٠	
مطير	١٢٠٠	١٦٠٠٠	
مطير الهتيم	٤٠٠	٤٠٠٠	
السحبة	٢٠٠	٢٠٠٠	
بني خالد والعجمان في الأحساء	٢٠٠٠	٢٠٠٠	
بني هاجر	٥٠٠	٣٠٠٠	
المناصير (في نجد)	٤٠٠	٢٠٠٠	
آل مرّة	٦٠٠	٣٠٠٠	
الدواسر	١٦٠٠	١٢٠٠٠	

لا يُعدّ هذا النمط من العلاقة هو النمط الوحيد الذي يربط الأمير بالقبائل جميعها، فهناك بعض القبائل المرتبطة بالإمام بنحو أقل رسوخاً من ارتباطات قبائل أخرى. وعلى هذا نستطيع أن نصنّف ارتباطات القبائل المختلفة مع الإمام على النمط الآتي:

- أولاً: قبائل شمّر، وهي قبائل تؤدي الزكاة للإمام وتتلقى منه الدعم العسكري ساعة الحاجة.

- ثانياً: قبائل يسمح لها الإمام برعي سوائمها في الأراضي النجدية وعلى تخومها، كما يضمن لها - من جانبه - عدم تحرش القبائل الواقعة تحت سيطرته المباشرة بها. أما إذا وقع الهجوم عليها من قبائل غير منضوية تحت سلطته فلا شأن له بذلك.

- ثالثاً قبائل كبرى مثل الظفير، يتعهد الأمير لها بعدم تحرش قبائله بها ويبادلونه التعهد ذاته بألا يرتكبوا أي جرم في حق أيّ من قبائله.

- قبائل مستقلة بنفسها لا يحقّ للأمير إقالة شيوخها أو تعيينهم، ولكنها تُؤدي له الزكاة من دون أن يكون لها حقّ في حمايته أو دعمه. ويدخل سلطان مسقط تحت هذا التصنيف الذي ينطبق أيضاً على شيوخ العرب البحريين في الساحل المهادن وعلى شيوخ البحرين. تؤدي هذه المناطق جميعها الزكاة للإمام، يدفع له سلطان مسقط ٦٠٠٠ ريال، ويؤدي له شيخ البحرين ٤٠٠٠ ريال، فيما يؤدي له الشيوخ البحريون في المنطقة من رأس الخيمة إلى أبو ظبي مبلغ ١٢٠٠٠ ريال.

تُعدّ الأحساء بما فيها القطيف أثرى مناطق الإمام وأكثرها ريعاً، إذ توجد فيها أكبر المساحات

المزروعة بالنخيل. ولهذه المنطقة أن تفخر أيضاً بعمالها المهرة من ذوي الخبرة، ففي الأحساء تصنع الكوفيات والعباءات.

يُقال إن الإمام نفسه يؤدي زكاة قدرها ١٠٠٠٠ ريال إلى الحكومة العثمانية، ويرسل إليها سنوياً هدايا من الخيل النجدية. ويُقال أيضاً إن تلك الحكومة ترسل سنوياً مندوباً لتحصيل الزكاة وتسلّم الهدايا. ويشاع أن الخيول التي عاد بها هذا المبعوث إلى إستانبول قبل سنتين لم تلقَ استحساناً هناك، وجرى الاستفسار عن أسباب تدنّي مستوى السلالات، وأرجعوا ذلك إلى تزايد الطلب على الخيول النجدية في الهند إلى حدّ الاستنزاف الذي لا يمكن أن تقابله المصادر النجدية. وأصدر الباب العالي بعدئذ أمراً بحظر تصدير الخيول من نجد لمدة أربع سنوات.

القطيف هي المنفذ الرئيس لتجارة الأرض النجدية وإن اتصلت بعض تجارة نجد بالكويت. وهناك حركة تجارية تجري عبر الطرق المتعددة التي تشق نجد وصولاً إلى مكة المكرّمة، تلك الطرق الحافلة بالحجيج الفارسي وحجيج العربية التركية (العراق). وهناك طرق تجارية أخرى تمر عبر صنعاء ونجران تحمل من اليمن البن الذي يتعاطاه الوهابيون بشراهة. ويشتري التجار الوهابيون هذا البن في نجران أو في الحدود عند وادي الدواسر. وعلى الرغم من أن التدخين محظور حظراً تاماً في وسط شبه الجزيرة العربية، ويعدّ تعاطيه جريمة عقوبتها القتل، يدخّن عرب المناطق الساحلية بلا قيود، ويفدهم تبغ النارجيلة من مقاطعة لار الفارسية. أما تبغ الغلايين فيصلهم عن طريق البحر من اليمن، كما يصلهم من الموصل كذلك. ومن المحظورات لدى الوهابيين أيضاً ارتداء الملابس الحريرية والقسم بغير الله الذي يعدّ عندهم حراماً.

خواطر ونوادر

لن تجد في الأرض الوهابية من يرفض الاقتران بامرأة غير وهابية. ومع ذلك فالعربي الذي يسكن الحضر، وهابياً كان أو غير ذلك، يأنف من أن يزوج ابنته لبدوي. ولا يرتبط ذلك بكراهة دينية ولا لتمايز قبلي، بل لعدم قبول الحضري بأن تعيش ابنته حياة البادية.

"رويت لي قصة طريفة" عن رجل أبلغ ابن الأمير أن رجلاً من جيرانه يدخن التبغ. وتولّى ابن الأمير التحقيق في المسألة، فاستفسر المدّعي عن أساس اتهامه فقال إنه شمّ رائحة التبغ. فاتهم الأمير الصغير المدعي بأنه انتهك خلوة جاره المدّعى عليه. أنكر الرجل الاتهام قائلاً إنه وضع أرنبة أنفه فقط في السياج الفاصل بين البيتين فأصاب رائحة التبغ. و لم يُفده الإنكار، فقد حكم الأمير عليه بجدع أرنبة أنفه حتى لا يدسّها مرّة أخرى في بيوت الآخرين وينتهك حرمة خلوتهم.

يقول بيلي: تسري تحت الظواهر الوهابية الصارمة التي تقوم على الحرب والضراب روح دعابة. ويضيف أنه يلاحظ أن الأفكار الدينية لأهل الشمال أرقّ من أفكار غيرها لدى القبائل الأخرى، "أو ربما يقال إنهم ليس لهم أفكار في هذا الصدد البتة". ويُروى أن أحد فقهاء الوهابيين ذهب إلى مضارب عنزة للدعوة في أوساطهم، وقال هو يعظهم إن القائم على صلاته وصيامه سيدخل الجنة، وأن من يهملهما سيُلقى به في الجحيم. واستفسره مسنٌّ من رجال القبيلة عن الموكل بباب الجنة فأجابه بأنه محمد صلى الله عليه وسلم. وهنا سأل الرجل: ألا يسرّ محمد صلى الله عليه وسلم حين يرى عنزة وقد وفدته على صهوات جيادها الأصيلة أن يفتح لهم باب الجنة يدخلونها من دون حساب؟

القصة عندنا نكتة سخيفة لا تمت إلى واقع الحال بصلة، فلن تجد فقيهاً، وهابياً أو غيره، يمكنه أن يقول إن الرسول الكريم الذي يهدي إلى دروب الجنة يقف على بابها حارساً يدخل إليها من شاء ويحرم دخولها على من يشاء.

ملاحظات عن الصليب

أثار الرفيق الصلبي في بيلي الاهتمام بالحديث عن قبيلة الصليب أو الصلبة وفق مرويّاتهم. تُسمى هذه القبيلة بالصليب لأنهم يقومون في بعض احتفالاتهم، خاصة المتعلقة بالزواج والختان، بتثبيت صليب خشبي مكسوّ برداء أحمر زُيّن أعلاه بالريش أمام البيت الذي يحتفل بالمناسبة. وتُشكل هذه الإشارة دعوة للآخرين الذين يهرعون إلى المكان ويتحلّقون حول الصليب وينخرطون في نوع من الرقص يتميزون به عن غيرهم. يقف الراقصون في مواجهة الراقصات في صفين متقابلين، ثم يأخذ الصفان يتقدمان في تناغم أحدهما من الآخر حتى يتقاربا فيطبع كل شاب قبلة خفيفة على كتف الفتاة التي تكون في مواجهته. ويُعدّ خارجاً عن اللياقة من يتجاوز القبلة إلى لمس يد الفتاة أو الإمساك بخصرها. ويتراجع الصفان ثم يعودان ليتقابلا مرّة أخرى، وهكذا دواليك.

ينكر أهل هذه القبيلة - كما يقول بيلي - النسبة إلى صليب النصارى، ويدّعون أنهم ينتسبون إلى أصلاب العرب، أي إنهم يعدّون أنفسهم عرباً أقحاحاً من صلب العرب، "ومع ذلك يعدّهم المسلمون من المنبوذين". تقول متواتراتهم إن نمرود حين همّ بإلقاء إبراهيم، عليه السلام، في النار تصدّت ملائكة الرحمة لحمايته. وفي هذه اللحظة تبدّى إبليس للقوم وأشار عليهم بأن يقوم أي منهم بعمل مخز لتولّي الملائكة هاربة ويفقد إبراهيم الحماية التي جاءت لتقديمها له. وعلى ذلك قام أحد العرب بمضاجعة أمه فلم تجد الملائكة عندئذ إلا الهروب. وخفّ الملاك جبريل بعدئذ لإنقاذ إبراهيم، فأخمد النار وأحال المنطقة إلى حديقة وارفة. أما

الرجل الذي ضاجع أمه فقد عُرف نسله بالصليب.

يتهم بيلي الصليب في نجد والمناطق الإسلامية الأخرى بالتظاهر بالتمسك بتعاليم الدين الإسلامي، ولكنهم في خيامهم بعيداً عن عيون المسلمين - كما يعتقد - لا يأبهون لذلك الدين. ويلاحظ أن الصليب والعرب لا يتزاوجون، كما أن العربي لن تراوده ولا للحظة فكرة أن يتوقف لنهب الصلبي أو أخذ ثأر منه. ويستطرد بيلي ليقول إن الصلبة رياضيون مميزون ويعتمدون في غذائهم على ما يصطادونه من لحوم الغزلان التي يتخذون من جلودها جلابيب طويلة تتدلى حتى أقدامهم. ويكوّن الجراد إضافة إلى التمر حين يجدونه، طعامهم المعتاد، غير أنهم لا يعافون أكل أي شيء.

يرعى الصليب أغنامهم وإبلهم، ويتجولون وراءها لثمانية أشهر في السنة، يتنسمون الكلأ ثم يستقرون في ما تبقى من السنة عند أقرب قرية أو مدينة حيث يبادلون منتجاتهم بما يحتاجون إليه من الضرورات. ويميز الصليب خيامهم السود التي يتخذونها من أصواف ماعزهم وينصبونها بعيداً عن مضارب العرب. وأكثر ما يميز الصلبي قذارته البادية، ولكن - مع ذلك - فإن العرب يُقرّون بأن المرأة الصلبية هي الأجمل بين النساء وذلك حكماً بتقاطيعها.

من طقوس الصلبة في الميلاد أنهم يغمسون الوليد في الماء سبع مرات، ومنها أيضاً ما يمارسونه في عقد الأنكحة. فبعد الاتفاق بين الأطراف المعنية، وبعد موافقة الولي - وهو الأب أو الذي يليه قرابة - يتلقى والد الفتاة قدراً من المال وفقاً لمقدرة العريس المادية. ويذهب الخطيبان بعد ذلك إلى ملا أو فقيه أو إلى عين من أعيانهم فيسألهما إن كانا يرغبان في هذا الزواج بمحض اختيارهما. ويعيد السؤال عليهما ثلاث مرّات يردّ العروسان فيها بالإيجاب. وبعد أن يستوفي الفقيه أجره تكون مراسم الزواج قد تمّت. ويجتمع الأهل والجيران عند خيمة الزوجية التي يدل عليها الصليب المثبت في الساحة أمام مدخلها، إشارة إلى أن الدعوة عامة، وينخرط الجميع في الرقص.

يغسل الصلبة موتاهم ويُسجّون الجثمان في كفن أبيض ويدفنون ميتهم بعد الصلاة عليه. أما إذا لم يجدوا قماشاً أبيض للكفن، فإنهم يلفّون الميت في كفن من جلد الغزال. ويعترف الصليب بأنهم يوقرون مكّة المكرّمة، ولكنهم يعتقدون أن مكان الحجّ الصحيح هو "حرّان الواقعة في العراق أو ما بين النهرين". ويعتقدون أيضاً أن لأعيانهم نصوصاً دينية خاصة بهم غير ما جاء في القرآن الكريم، كما أن لهم كتباً مخطوطة بالكلدية أو الآشورية. ويوقر الصليب النجم القطبي الذي يسمونه جاه، ويعتقدون أنه النقطة الوحيدة الثابتة في العالم التي يمكن أن تهدي المسافرين برّاً وبحراً، كما يوقرون نجماً آخر في المجرّة يسمّونه الجدي، وهو المعروف عند الأوروبيين باسم ايرس. عندما يرى الصلبي أياً من هذه الأجرام السماوية يقف ويوجه وجهه تجاه ذلك النجم ويمدّ ذراعيه ليشكل مع جسده شكل الصليب. ويؤمن الصلبي بإله

واحد، "ويتظاهر" بعضهم بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكن بعضهم ينكر نبوته صلى الله عليه وسلم، كما يؤمنون أيضاً بكائنات وسطية يدعونها أمناء الله. ويصلي الصلبي ثلاث مرات في اليوم. تبدأ الصلاة الأولى عند الشروق وتنتهي حين يكتمل ظهور قرص الشمس في الأفق. أما الصلاة الثانية فميقاتها قبيل سقوط الشمس من كبد السماء، ويؤدون الصلاة الثالثة قبيل المغرب وتنتهي طقوسها عند غروب الشمس. ومن المؤكد أن لصليب حرّان أشكالاً خاصة من الصلاة بالآشورية أو بالكلدية. ويصوم الصليب ثلاث فترات في كل سنة: مرّة في رمضان لمدة ثلاثين يوماً، ومرّة ثانية في شعبان لمدة أربعة أو سبعة أيام، ويصومون مرّة ثالثة لمدة خمسة أو سبعة أيام في فصل الصيف.

يقول بيلي إنه لم يصادف في شبه الجزيرة العربية أشخاصاً يعبدون الشمس أو النار، ويضيف "ولكن ربما نجد مؤشرات غامضة تدل على وجود بعض معتنقي هذه المعتقدات في منطقة اليمامة. ففي هذه المنطقة نجد بعض الذين يحملون أسماء اشتقت بنحو لا لبس فيه من مفردات ترتبط بعبدة الأجرام مثل بدر وشمس وزهرة وما إلى ذلك من مسمّيات !".

قياس المسافات في شبه الجزيرة العربية

يرد بيلي الخلط في قياس المسافات في شبه الجزيرة العربية إلى عاملين أساسين:

- العامل الأول: حين تسأل المسافر الذي يقابلك في طريقك عن موقع ما فسيحدده لك بمسيرة الأيام، وذلك على مقدار ما تيسّر له قطعه في يومه، أما إذا سألت رجلاً آخر من المرافقين لقافلة ما عن المسافة إلى الموقع ذاته فإن تقديره لعدد الأيام سيكون مختلفاً، لأنه يعتمد في هذه الحالة على سرعة سير القافلة. فعلى سبيل المثال يمكن أن يقول لك السُّعاة إن المسافة بين القطيف والهفوف هي مسافة يوم واحد فقط، وإن المسافة بين الهفوف والرياض هي أربعة أيام، فيما يقول لك المسافر ضمن قافلة إن المسافة بين البلدتين الأوليين هي يومان، وإن المسافة الثانية هي سبعة أيام.
- العامل الثاني: من مستوجبات الخلط في تقدير المسافات أنهم يقيسون أبعاد المسافات بين المواقع إلى أول نقطة للوصول إلى المنطقة المقصودة وذلك بدلاً من قياسها إلى المدينة الرئيسة في الإقليم. فعلى سبيل المثال يمكن أن يقول لك الدليل المرافق إن المسافة بين بندر عباس وميناو اثنا عشر فرسخاً. وحين تقطع هذه المسافة سيشير لك إلى مجرى ماء يمثل حدود منطقة ميناو وهي المنطقة الأولى التي يرويها نهر ميناو، أما مدينة ميناو ذاتها فتفصلها عن هذه المنطقة حوالى ثلاثة فراسخ أخرى.

وصل بيلي إلى مقرّه في بو شهر. وجرياً وراء أسلوب المقيمين البريطانيين في الخليج في تطبيق

الدبلوماسية الشخصية وادّعاء توثيق روابط الصداقة مع الشيوخ وبذل الهدايا لهم، يكتب إلى شيخ الكويت في ٢٨ شوال ١٢٨١ مطابق ٢٧ مارج

" ... ثم لا يخفى بأننا بفضل الله تعالى قد أتممنا سفر نجد والرياض وجرت الأمور على وفق ما يهواه الخاطر ورجعنا إلى بندر أبي شهر بالصحة والسلامة حالاً قد وجدنا هذه الخشبة عازمة تعجيل أحببنا تحرير هذه الأحرف لإظهار راسم الصحبة والصداقة والسؤال عن تلك الأحوال فحيث إن ما لنا زيادة مجال إن شاء الله تعالى بعد هذا لا نحرر لجنابك مجاري الأحوال مفصلة فالمأمول أن لا تقطع عنا مادة أخبارك السارة إن شاء الله يكون جنابك والأولاد بخير وعافية هذا وخص نفسك من بجزيل الخير."

وكرّر بيلي كتابة الخطاب ذاته إلى يوسف بن بدر: "ولا يخفى هو أننا من فضل الله... هذه الخشبة عازمة إلى ذلك الطرف تعجيلاً ما وجدنا مجال لتحرير بعض التفاصيل سوى هذه الكلمتين إظهاراً لمراسم الصحبة والمودة والسؤال عن تلك الأحوال فبعد هذا مع كل قادم إلى هناك نشرح لك ما نبغي وإن شاء الله تكون أنت والأولاد... "

يعود المقيم بالإنابة ليتصل بهذين الشيخين بعد سفر المقيم إلى الهند. وقد جهز المقيم بالإنابة بتوجيه من المقيم لهما بعض الهدايا. ويبدو أن يوسف بن بدر كان كريماً مع بيلي كما يتضح من خطاب المقيم بالإنابة له في ١٤ إبريل. جاء في هذا الخطاب إلى الحاج يوسف بن بدر:

> وفي أحسن الساعات ابتهج الخاطر بوصول كتابك الشريف المنبي عن صحة ذاتك الحميدة وجميع ما شرحته صار معلوماً ثم لا يخفى من جهة الأشياء التي جنابك أعطاها لجناب الأفخم الباليوز صاحب عند سفره إلى الرياض وتفصيلها... (؟) والساعتين الذهب وصندوق الطبنجات وقوطي... (؟) والدبرة الصغيرة فبعد وصول جناب الصاحب من الرياض فوض الجميع بيد محبك حسب ما دعت الحاجة لها وأمرنا بإرسالها إلى جنابك مع الامتنان البالغ كذلك أمرنا به بإرسال هدية حقيرة في حق جنابك لكنها محضاً للتذكرة والصحبة وهي ساعة ذهب وصندوق طبنجات وقوطين بارود وهذه لجنابك كذلك قطعة ماهون (؟) للأولاد الكرام إن شاء الله يصل الجميع ويتفضل بالقبول والمأمول أن لا تقطع عنا مادة أخبارك كذلك السلام الذي ليوسف ابن صبح (؟) ها هو رسول إن شاء الله تتصدع بإيصاله إليه والسلام.

أما خطابه إلى حاكم الكويت فيجري على النحو التالي:

ثم لا يخفى أنه عند سفر جناب الأفخم الأشيم الباليوز صاحب إلى الهند قد أودعنا تبليغ السلام الوافر من طرفه على جنابكم المحترم وأمرنا بإرسال هدية حقيرة في قدرك لكنها محضاً للتذكرة والصحبة وهي صندوق طبنجات طية وثلاث أذرع ماهون وقوطين بارود وكذلك قطعة ماهون للأولاد الكرام فهذا الجمع مرسول إلى جنابك إن شاء الله تعالى تتفضل بالقبول هذا والمأمول أن لا تخرجنا من الخاطر الشريف.

راجع نصوص الخطابات في IOR) R/15/1/181)

نخلص إلى أن سياسة بيلي التي أخذته إلى قلب نجد ومحاولته التدخل في شؤون البر لم تؤدِّ إلى تحسن في العلاقات السعودية البريطانية. كتب بيلي في ٢٣ شوال من مقرّ إقامته في بوشهر إلى فيصل في أمور نعتقد أنها لم تكن في صلب اهتمامات الرجل، ولربما قصد المقيم منها مواصلة الاتصال بالرياض. جاء في هذا الخطاب:

لا يخفى بأننا حين الاجتماع أوعدنا جنابك المحترم أنه إذا وقعنا على شي من العلوم على سائر ممالك الافرنج نرفعها لجنابك الشريف من الحاضر ما اطلعنا على علم سوى عما سيذكر أفواهاً مما لا اعتماد على صحته أنه وقع الصلح بين مملكة الأمريكان فبعد هذا مما نطلع عليه من أخبار السيم إن شاء الله هي نرفعها لجنابك ثم حين الموداعة مع جنابك بعد ما تفضلت براسين من الخيل على سبيل التذكرة قد أذنت بطريق المحبة بما يوافق مطلوب الخاطر في الخيل التي نراها في السيح نشريها فلعدم الفرصة ما أمكن الوصول إلى السيح مع أن الضرورة داعية إلى شراء كم راس فلأجل ذلك التزمنا تصديع جنابك المكرم بتحرير هذه الذريعة وأرسلناها...

راجع النص في IOR) R/15/1/181)

ويعود بيلي ليكتب لفيصل مرّة أخرى في ٩ ذي القعدة عن أخبار الثورة الأمريكية وكيف يمكن الدول أن تتدخل بالوساطة لتسوية شؤونها في ما بينها، كما ذكر بيلي في رسالته أيضاً أن الأمن يسود العلاقات الدولية في هذه الفترة، وتمنى دوام ذلك، كما كتب عن تدنّي أسعار القطن وعن امتداد الخط البرقي من بريطانيا إلى الهند:

لا يخفى أنه بعد رجوعنا من مواجهة جنابك قد أعلمنا جناب حاكم ممبي عن ذلك وجنابه قد أظهر لنا المسرّة الحاصلة له من حسن سلوك جنابك معنا بنوع

خاص مع وصولنا الرياض ومن استقرار الصداقة الكائنة بيننا الآن ومن طرف أخبار الأمريكان فهو جاري إلى الآن لكن يكن بعد ترتيب المطالعة التي منهم بطريق الصداقة بواسطة صداقة إحدى الدول الافرنج وفي هذا البين قد نزل من القطن زيادة عن النصف أما سائر ممالك الافرنج كلها آمنة ونرجو أن تستقم هذه الأمنية العامة ثم عن سيم الصاعقة فقد كمل من إنجلترا إلى الهند ويمكن إذا خابروا من إنكلتر أن يصل إلى الهند في مدة ثماني ساعات ونرجو كتاب ودادنا هذا يصل إلى جنابك وكونك في كمال الصحة والترقي ونأمل إن شاء الله تعالى أن تكون معاودتنا من ممبي بعد هذا التاريخ بمدة قليلة...

راجع النص في (IOR) R/15/1/181

عمد بيلي إلى توظيف ما يمكن أن نسميه بالدبلوماسية الشخصية التي تتدثر ثوب الصداقة وتستتر بمعسول القول المغلّظ بتقديم الهدايا، وتعتمد أساليب الإيحاء، لجرّ فيصل إلى التعاون معه في تطبيق أسس السياسة الهندوبريطانية في الخليج، بما في ذلك اعتبار المقيم البريطاني وسيطاً أو ربما حكماً ترد إليه نزاعات المنطقة كما هو شأن "الأمم الأجنبية الراقية" في تسوية نزاعاتها بوساطة الآخرين من دون اللجوء إلى قتال. كتب بيلي إلى الإمام فيصل في ٧ إبريل خطاباً يبدي فيه رغبته في التدخل بالوساطة بينه وبين إمام مسقط

... قد طلب إلينا حاكم مسقط أن نبذل مساعينا الجميلة للوفاق بينكما بحكم صداقتنا معكم، ولهذا أرجو من جنابكم أن تقبلوا وساطتنا في هذا الأمر كي نصل إلى اتفاق سلام بينكما وذلك بالنظر في تثبيت مبلغ الزكاة والمسائل المعلقة الأخرى حتى لا تتسبب هذه الأمور مستقبلاً في إشكالات. إن تدخلي في هذا الأمر لا يزيد عن كونه أسلوباً من الأساليب التي تربط بين الدول الصديقة، وهو الأسلوب الذي تعالج به المسائل السياسية في أوروبا إذ تتدخل دولة صديقة للجانبين المتعاركين لتصلح بينهما.

راجع النص في (IOR) loc. cit

أدّت النزاعات اللاحقة بين الرياض ومسقط – وعدم استجابة فيصل لما أمر به بيلي لتسويتها – إلى أن يكتب بيلي تعليقاً على ردّ من الإمام جاءه من فيصل:

إن على فيصل أن يدرك إدراكاً كاملاً أن إمام مسقط صديقنا وحليفنا، وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية تأمل في استتباب السلام وحسن العلاقة بين

الرجلين إلا أنها لا تستطيع أن تتجاهل تآكل أراضي إمام مسقط، فهي تولي ذلك اهتماماً قوياً.

راجع النص في (IOR) Pelly Mss. Pelly to Frere, 25 nov. 1865.

أرسل بيلي إنذاراً تحمله سفينة حرب بريطانية إلى القطيف في ٦ يناير ١٨٦٦ يمهل الإمام مهلة يسيرة للاستجابة لما يريده المقيم وإلا فعلى السفينة أن تدك قلاع المنطقة. وعلى الرغم من وفاة الإمام في جمادى الآخرة ١١/١٢٨٢ نوفمبر ١٨٦٥ ومعرفة بيلي بذلك إلا أنه أمر بحريته بالقيام بالهجوم، و لم يكن ذلك الهجوم ناجحاً. وكان من رأي لورنس - نائب الملك في الهند الذي ظلّ يتمسك بسياسة استرخاء العملاق القائمة في الخليج قبل أن يتولى بيلى المقيمية فيه - الذي كتب به إلى بومباي يطلب إليها الالتزام بأقل قدر ممكن من التدخل في الشؤون الداخلية للقبائل العربية على الساحل وبأقل قدر من هذا القليل كثيراً في التدخل مع قبائل ظهير الجزيرة العربية. "إننا إذا لم نلتزم هذه السياسة فسنجعل العرب أعداءً لنا، فتدخلنا ليس مبرّراً وسيُساء فهمه، وسيكون أمراً ممقوتاً جداً". و لم يكن فريري، حاكم بومباي المؤيد لبيلي، يشارك النائب العام الرأي، فكتب إليه يدافع عن ضرورة أن تكون لحكومة الهند سياسة خارجية أبعد مدى من أن تظل في قوقعتها: "إن هذا النمط من السياسة الصلصالية التي تُؤثر السلامة وعدم التكفل بالنفقات لن يكون تنفيذها ميسوراً عندما تكون لنا اتفاقات وارتباطات ومسؤوليات تحتّم علينا التدخل". كان هذا هو رأي كلكتا وكذلك بومباي في رحلة بيلي التي لم تحقق في ما نعتقد أكثر من هذا الوصف الطوبوغرافي الذي قام به المقيم، كما يمكن أن تكون رحلته قد أفادته في تقدير القوّة الحقيقية للسعوديين، وأدرك أنها قوّة برية لا يُستهان بها، وأيقن أنه يجب على المقيم أن يكون له نفوذ في ما وراء السياج الهامشي على ساحل شبه الجزيرة العربية الذي ينتهي عنده السياج الأمني للهند، وهو أمر تقرّه عليه حكومة بومباي رغم أن حكومة الهند لا تحبّذه. ويسترعي الانتباه أن بيلي لم يُشر في تقريره إلى الأمير عبد الله، ولي العهد، الذي يبدو أنه لم يقابله خلال الزيارة، والذي وقع على بيلي بعد تلك الزيارة أن يتعامل معه حاكماً في مكان أبيه. ويبدو من كتابات بيلي الرسمية أنه كان يمقت هذه الشخصية التي دلّه مسلكها على عدم اتجاهه للتعامل مع البريطانيين. وقد برهن الإمام عبد الله بدوره على ذلك. فحتى في أحلك اللحظات التي تعرضت لها مسيرته السياسية - حين تنكر له الأتراك الذين استدعاهم لمساندته فعملوا على إلغاء حكم الأسرة السعودية تماماً - لم يحاول أن يتصل ببيلي، بل اتصل بخديوي مصر يطلعه على أنه لم يحاول التعاون مع بيلي حين وفد إلى الرياض، وأنه تطلع بدلاً من ذلك إلى التعاون مع الدولة العثمانية. ورد في هذا خطاب الإمام عبد الله:

... الذي نعرضه للمقام العالي أنه قبل هذا بمدة قد وصل إلى طرفنا بنجد بلي

> قنصولوص الإنجليز بخليج بحر فارس ومعه هدية وقد فهمنا بموجب قدومه أن مراده نعطيه مركز في ساحل البحر أما البحرين أو الدمام أو بعض القطع غيرها ولقد تعذرناه ورجعنا هديته عليه حيث إن هذه الأماكن التي في يدنا من الممالك المحروسة الراجعة إلى خليفة رسول الله السلطان نصره الرحمن وقد رجع منا مايوس مكدر بعدم إجراء إيجاب مطلوبه...

ويتهم عبد الله بيلي بدعمه لسعود بالذخيرة والمهمات الحربية والأموال حتى اضطر عبد الله إلى أن ينتصر بالدولة العلية عن طريق والي بغداد، ما استدعى إرسال الجنود بقيادة نافذ باشا. وصدرت بعد ذلك إعلانات "بالاعتراض على آل فيصل وعدم استخدامهم، وهذا خلاف ما كنا نأمله من مراحم الدولة وعدالتها". ويطلب عبد الله إلى الخديوي التوسط له لدى الدولة العثمانية راجع: (**دار الوثائق المصرية، محفظة رقم ١٢، بحر برا رقم ١**). ورغم أن زيارة بيلي لم تحقق هدفاً لحكومة الهند أو للسعوديين، إلا أن ذكرى دخول مقيم بريطاني إلى نجد وزيارته الرياض ظلّت حيّة في أذهان السياسيين من الطرفين. ولعلنا نلاحظ أن الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ظلّ يذكر هذه الزيارة في محادثاته الرسمية وغير الرسمية مع شكسبير، الوكيل البريطاني في الكويت.

الفصل الرابع

دراسة دور مكّة المكرّمة في مكافحة الاستعمار

كرستيان سنوك هورنيكا وأمثاله من رواد الاستشراق العلمي

كرستيان سنوك هورنيكا رحالة غربي في عداد الاستخباريين، ولكنه كان في هذا المجال نسيج وحده هدفاً وغاية ومنهجاً وأسلوباً. فإذا كان هدف معظم الاستخباريين الذين عرفناهم هو كشف عورات العرب واستكشاف دروب أرضهم واستجلاء علاقات القبائل بعضها بالبعض الآخر ودراسة شخصيات شيوخهم، وإذا كانت غايتهم هي توظيف هذه المعرفة بما يحقق للدوائر الاستعمارية مصالح تتصل ببلاد العرب، كما تفيد في إمتاع القارئ الغربي بالبدائي والطريف، ومداعبة الشعور الوطني بروايات تفوّقهم التي يستمتع بها مواطنوهم، فإن هدف هورنيكا كان مختلفاً لا ارتباط له بمسالك العرب ولا بشخصيات حكامهم. كانت مكّة المكرّمة هدفه الذي يحقق له غايته في معرفة مدى تأثير هذه المدينة المقدسة في أهل جاوه (إندونيسيا)، لما لذلك من تأثير مباشر على الاستعمار الهولندي لتلك الأراضي المسلمة. كان حجّ الإندونيسيين يستنزف من خزينة الاستعمار الهولندي مالاً كثيراً، خاصة أن حجاج تلك المناطق الصادق إيمانهم كانوا يحملون معهم مبالغ كبيرة إلى مكّة المكرّمة ينفقونها في الصدقات للفقراء وفي الهدايا لغيرهم من العاملين في أنشطة الحجّ ومن إليهم. أما الآثار السياسية للحجّ على الاستعمار الهولندي فقد كانت خطيرة. وقد مثّلت المقاومة الإسلامية، خاصة في إقليم اتشيه، العقبة الأساس أمام الاستعمار الهولندي للجزر الإندونيسية.

أدى اختلاف هدف هورنيكا وتشابك غاياته إلى اختلاف أسلوب خطابه ومنهجه، وخاصة أنه كان أكاديمياً صاحب منهج علمي يكيد للإسلام وأهله بأسلوب علمي نقدي لا يجنح عادة - إلا بحكم التعصب الموروث - إلى الشتائم والسباب. وفد هذا الرحالة إلى شبه الجزيرة العربية ونزل في جدّة ثم غادرها إلى موئل الإسلام البارز في مكّة المكرّمة (١٨٨٤-١٨٨٥م) لينظر في ما يمكن أن يكون ضعفاً في الإسلام أو المسلمين يمكن استثماره علمياً في ضرب الإسلام وتوهين المسلمين، خاصة في إندونيسيا التي أوفدته سلطاتها الاستعمارية لاستجلاء أمثل الطرق لإصابة ذلك الهدف.

استقر هورنيكا في جدّة ومكّة لفترة طويلة، و لم يكن الرجل جوّالاً كغيره من الاستخباريين الذين كانوا يجوبون المسالك يقودهم درب إلى آخر، وترميهم قرية إلى أخرى فجاءت تقاريرهم في مجملها انطباعات يلونها في الغالب حقدهم الموروث على الإسلام وأهله وسخريتهم من العرب وبداوتهم والتندر على غرائب موروثاتهم. استقر هورنيكا في منطقة جغرافية محددة، مراقباً بعين فاحصة، يحلل الحقائق ويضع الحلول بما يوافق الهدف من رحلته. فهو ليس كغيره من الاستخباريين عاملاً في خدمة دولة استعمارية تنافس نظيرتها في المنطقة العربية، بل كان مستشرقاً عاملاً في خدمة ثقافة الغربيين عموماً، وإن عمل - بصفة مباشرة - في خدمة الهولنديين. وجد هؤلاء الغربيون جميعهم في الإسلام العقبة الكأداء التي تعترض أهدافهم في الاستعمار والهيمنة والسيطرة الثقافية. فالمسلمون، من دون شعوب الأرض المستضعفة قاطبة، هم الذين يدركون أن لهم العزّة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأنهم فوق مستعمريهم، مهما تفوّق هؤلاء عليهم بوسائل القوّة المادية، ما يدفعهم إلى مجاهدة الاستعمار وهم على ثقة - كما قال أحد أئمة يعاربة عمان لقائد برتقالي: "إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة". وكانت مكّة المكرّمة - التي يتجه المسلمون كافة إلى بيتها الحرام خمس مرّات في اليوم والليلة ومهبط الوحي الذي بثّ في صدور المؤمنين الشعور بالعزّة، وأرسى في عقولهم وجوب الجهاد لصدّ العدوان وردّ الظلم - هي موضوع دراسة هورنيكا.

كان هورنيكا من الرحالة الأوروبيين الأوائل في العصر الحديث، وربما كان الثاني بعد ستزن، الذين تصدوا لدراسة الظاهرة الإسلامية في بيت الله الحرام، الذي يتدافع إليه المسلمون من كل فجّ وصوب، دراسة متأنية تعتمد على مناهج علمية ترتقي فوق الشتائم والسباب الذي لطخ كتابات أغلب السابقين له، فأسهم الرجل بذلك في تدعيم مناهج الاستشراق وإرساء قواعدها على منهج علمي. ولعلنا لا نبالغ في القول إن الاستشراق الهولندي هو الأرقى منهجاً والأبلغ أثراً والأقوى حجّة والأضل سبيلاً، ولربما لا يُدانيه في ذلك إلا الاستشراق الروسي.

لم يكن هورنيكا أول رحالة هولندي في شبه الجزيرة العربية، فقد كتب العديد من العاملين الأوائل في شركة الهند الهولندية عن الخليج العربي وعن جولاتهم فيه ووضع مستعمرتهم

هناك، وكم اشتكى إداريو تلك المستعمرة الصغيرة المنافسة التي كانوا يلقونها من القوى الاستعمارية الأخرى والضربات التي كالتها لهم القوى الوطنية في الخليج. ولعل رحلة الهولندي بيتر فان بروكة الموفد إلى اليمن في مهمة كلّفه بها حاكم مقاطعة بنتام في "الهند الهولندية" كانت من أهم تلك الرحلات في نظر المؤرخين، لما ورد فيها من معلومات اقتصادية كشفت بصورة كبيرة عن قدرات عدن التجارية في تلك الباكرة من التاريخ الحديث. ولكن ومما لا شك فيه أن العيون الهولندية لم تمتد أبداً إلى ظهير شبه الجزيرة العربية في ما يلي السواحل. لم تكن هولندا إلا قوّة أوروبية بحرية صغيرة ليس لها من قدراتها ما يجعلها ترنو إلى الاستعمار في ذلك التيه الرملي القفر المجدب في ما وراء السواحل العربية، فقوّتها البحرية لا تؤهلها إلا لاستعمار الجزر.

نافحت هولندا، بمذهبها البروتستانتي، القوى الكاثوليكية في القارة الأوروبية، وامتد هذا النزاع العقدي إلى المستعمرات الأوروبية في الشرق، ما حال دون طموح هولندا في التصدي للعمل في تنصير أي منطقة في مناطق الشرق الأقرب جغرافياً إلى دول أوروبا الكاثوليكية أو الإنجيلية البروتستانية. غير أن التصدي للفكر الإسلامي التحرري الذي لا يرضى بعبودية لغير الله كان شغلاً شاغلاً لجميع قوى الاستعمار الغربي على اختلاف ملل أهله ونحلهم، لما لهذا الفكر من أثر بارز في مناهضة الاستعمار عامة. فلا ريب أن كان الإسلام هو العدو الأول للمستعمرين على اختلاف هوياتهم الغربية ومذاهبهم النصرانية، ولا غرو أن عمل جميعهم على ضربه وتقطيع أواصره الجامعة التي تربط بين مختلف أشكال البشر وألسنتهم وألوانهم بفكر يدين الاستبداد ويرفض إمارة غير المسلم على المسلم في بلاد المسلمين.

وفد هورنيكا إلى مكة المكرّمة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ويرى بعض المهتمين بأدب الرحلة الغربية أنه أوفد إلى هناك في مهمة تنصيرية، وهذا في تقديرنا غير وارد. ولا نجد شاهداً واحداً يمكن أن يؤيد هذا الرأي إلا ما كان من الارتباط العضوي بين الاستعمار والتنصير. وفي الحقيقة فقد أوفد هذا الرجل إلى مكة المكرّمة في محاولة لمساعدة الإدارة الاستعمارية الهولندية في جاوة على فهم أفضل للإسلام الذي يدين به أهل إندونيسيا حتى يسهل عليهم اختراقه بالتنصير وربما بأساليب أخرى يمكن أن تعود على هولندا بما يخدم أغراضها من الاستعمار.

كان هورنيكا، وهو لفظ اعتمدناه لاسم هذا الرحالة من بين جملة ألفاظ وردت في اسمه بالعربية، منها هرخرونيه، هورخرونيه، هورنجيه... إلخ. ونجد أن لفظ هورنيكا مع إمالة الألف الأخير هو الأقرب جرساً إلى الأذن العربية حين ينطقه أهل هذا الرحالة المحدثين.

ولد كريستيان سنوك هورنيكا في ١٣ جمادى الآخرة ١٢٧٣/٨ فبراير ١٨٥٧ لأبوين هولنديين، ودرس اللاهوت وبعض اللغات السامية في جامعة لايدن، ثم نال شهادة الدكتوراه في عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م ببحث عنوانه: **الحجّ إلى مكّة**. وقد نُشر هذا البحث في كتاب بعنوان:

Wet Mekkaanshe، وكان هذا الكتاب هو الأول في سائر اللغات في المكتبة الأوروبية الذي يتناول هذه الشعيرة منهجياً ويُخصّص لها كتاباً قائماً بذاته. وعُين كرستيان في عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م أستاذاً في الكلية ذاتها لقسم مستحدث تحت اسم دراسات لإعداد موظفي المستعمرات. وقضى الفترة من ٦ جمادى الأولى ١٣٠٢/٢١ فبراير ١٨٨٥ حتى أغسطس/ ذي القعدة في مكّة المكرّمة. وعاد هورنيكا إلى بلاده ليصبح في عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م أستاذاً للغة الملاوية في الجامعة ومستشاراً رسمياً للحكومة الهولندية في شؤون المستعمرات. وقد كتب هورنيكا العديد من الأوراق البحثية في موقع الإسلام في المجالات السياسية والعسكرية في الهند الشرقية الهولندية، وظلت هذه البحوث لفترة طويلة سرية لا يطّلع عليها إلا ذوو الاختصاص. وكان هذا الرجل على اتصال مباشر بفان هوتز الذي عيّنته الحكومة الهولندية في عام ١٩٠٢م لكسر مقاومة إقليم اتشيه الواقع في النهاية الشمالية لجزيرة سومطرة، والذي حاولت هولندا منذ عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م استعماره، ولكنه ظلّ يجاهدهم واستعصى عليهم ولم يفلحوا في كسر شوكته حتى خرجوا مندحرين عن إندونيسيا برمّتها. أوصى هورنيكا فان هوتز بأن يوجه اهتمامه في الإقليم لرؤساء العشائر، وكان لهورنيكا علاقات طيبة مع بعضهم تمكن من خلالها من الحصول على معلومات استخبارية مهمة، وأوصى هورنيكا الحاكم فان هوتز بأن يوكل إلى هذه الشريحة الإدارة المحلية ويغدق عليهم. وقلل هورنيكا في توصيته من دور سلطان أتشيه، ولكنه طلب إلى فان هوتز أن يأخذ الفقهاء والملتزمين بالإسلام بالشدة، وألا يثق بأي منهم خلافاً لرؤساء العشائر والقبائل. وهكذا جرى في عام ١٩٠٢م بناءً على توجيهات هورنيكا التي اعتمدتها الحكومة الهولندية وبعثت بها إلى قائدها - تشكيل حكومة (وطنية) في اتشيه تتناغم مع إدارة الدولة المستعمرة التي خاضت في دماء الإندونيسيين وسقط على يديها خلال تلك المقاومة التي قادها العلماء ما قُدّر عدده بين خمسين ومئة ألف شهيد ونحو مليون جريح. وحين هلك كرستيان سنوك هورنيكا ٧ ربيع الثاني ١٣٥٥/٢٦ يونيو ١٩٣٦ كانت أتشيه لا تزال صامدة عزيزة تحت راية علمائها الذين لم يرهبهم ما أوصى به هورنيكا من ضرورة الخوض في دمائهم للتمكين للاستعمار - الاستخراب.

حوى كتاب هورنيكا: **الحجّ إلى مكّة** وصفاً مفصلاً لطقوس الحجّ وتحليلاً علمياً لها على خلفية مادية غير إسلامية. وقد حاول المؤلف ربط تلك الطقوس بجذورها التاريخية، فأصاب أحياناً وأخطأ في هذا المجال مثله مثل غيره من الغربيين العاملين في الإنسانيات من الذين تغلب عليهم الشوفينية ويعميهم التعصب وازدراء الفكر المغاير، فيبتعدون عن جادة الصواب. واستهوت الدراسات الاستشراقية هذا الرجل إلى درجة أنه بات يدرك أن دراسات الاستشراق المعتمدة على البحوث النظرية قد تكسب الباحث زيادة في العلم، ولكنها لن تجعل منه مستشرقاً حقيقياً. فالمستشرق - في تقديره - هو الباحث الذي يُوثق معرفته النظرية بأخرى عملية، وإن

على المستشرق الجلد الجاد أن يطأ بأقدامه الأرض التي يستجلي ثقافتها، وأن يتنفس هواءها ويعايش إنسانها وينفذ إلى دواخله، عاطفة وتفكيراً، يستكشف ثقافته، ويعيش واقع المنطقة التي عاشها قبل ذلك على الورق دارساً. واستجابت الحكومة الهولندية لفكرة هورنيكا التي ربطت بين النظرية والتطبيق. فقد كانت تلك الحكومة تتطلع إلى زيادة المعرفة عن أهل جاوة الذين كانوا بتمسكهم الجاد بإسلامهم يفسدون على حكومة الاستعمار مخططاتها المادية والثقافية ويقاومون جهودها في تنصيرهم.

ما إن فرغ هورنيكا من دراسته العليا حتى عيّنته الحكومة في عام ١٨٨١م مستشاراً دينياً في وزارة المستعمرات للتعامل مع المسألة الإسلامية في الجزر الإندونيسية أو ما سُمّي الهند الهولندية. وكان من رأي هورنيكا أن الفهم الصحيح لسلوكيات أهل جاوة المتمسكين بأهداب دينهم لن يتأتّى لتلك الحكومة إلا باستكشاف الثقافة السائدة في مكّة المكرّمة. يفد عدد غفير من أهل الجزر الإندونيسية إلى مكّة في موسم الحجّ، يعود بعضهم فور الفراغ من أداء المناسك إلى ديارهم، فيما يبقى عدد جمّ منهم لفترات قد تطول أو تقصر، يدرسون الفقه والعلوم الدينية في باحات الحرم ثم يعودون إلى بلادهم بزاد التقوى الذي ساقهم إلى الحجّ قبلاً وقد ازدادوا توهجاً بما حصّلوه من علوم في حلقات الدروس. وكان الاستعمار الهولندي يلقى رهقاً من تأثير هذا الإيمان الذي زاده الحجّ معرفة وثقة ويقيناً بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. إن السمة الأساسية للاستعمار تكمن في مناهضة أهل البلاد المغلوبة ودحض فكرهم لبثّ ثقافته في مجتمعاتهم لتعشى بها، حتى إذا استيقن المغلوبون، جراء تلك الجهود، من تفوّق الرجل الأبيض وتأصلت فيهم "عقدة الخواجا"، تمكن المستعمر من تحقيق أهدافه المادية بسلاسة وهدوء. غير أن الإسلام هو عقيدة لها رأيها القاطع في شؤون الحاكمية، ولها تأثيرها البارز في مجريات الحياة السياسية لتحقيق خلافة الله في الأرض، ولها فلسفتها في وظيفة الحكم وغاياتها. فالهدف والغاية نصرة الدين بإشاعة منهج الحقّ وتكريس العدل والثبات على مبادئ المساواة بين الخلق، إضافة إلى توثيق الأخوّة الإسلامية التي تتجاوز الحدود الطبيعية والعرقية والقومية. غير أن تطبيق هذه القيم الخيرة يتعارض مع أبسط مبادئ الكولونياليين الذين وفدوا إلى تلك المجتمعات لامتصاص عرق إنسانها الذي هو – في تقديرهم – دونهم عنصراً وحضارة وعلماً، وللعمل على نهب مصادرها الطبيعية، فهم الأقدر على استغلالها وإدارتها. يضاف إلى هذا أن الإسلام لا يرى لقوم على غير ملّة الإسلام شرعية تبيح لهم الحكم والهيمنة في ديار الإسلام. وكان أشدّ ما يخشاه المستعمرون الأوروبيون على اختلاف مللهم وأعراقهم من الإسلام نظرته التي تشير صراحة إلى أن الحاكمية لله، وأن السلطان ظلّ الله في أرضه، ولن يكون القائم بشؤون المسلمين في بلاد المسلمين إلا مسلماً. وقد عمد الاستعمار (خاصة البريطاني) في محاولة لتجاوز هذه العقبة إلى اعتماد "إدارات أهلية" لتحكم نيابة عنه

في الشؤون المباشرة في المناطق المستعمرة، وغدا هؤلاء "الأهالي" كمن يمسك قرون البقرة ليحلبها آخرون ثم ينتظرون أن يتكرم عليهم المستعمرون عليهم بقدر غير مشبع من لبنها.

دعا هورنيكا في رسائله إلى ضرورة قطع رابطة الأخوّة الإسلامية بين البلاد المسلمة وذلك بالتنصير، إن كان ذلك ممكناً. فالتنصير، كما يرى هذا المستشرق، يؤدي إلى "تحديث" مجتمع جاوة (إندونيسيا) وذوبان الفكر الإسلامي في جزر إندونيسيا في تيار الفكر الديني الهولندي، ما يتمخض عنه نشوء "هولندا شرقية مزيّفة" في إندونيسيا تتّحد مع "هولندا غربية حقيقية". ويستدرك هورنيكا ليشير إلى أن تنصير المسلمين - حيث كانوا - أمر دونه خرط القتاد، ويُوصي باعتماد أسلوب موازٍ يفضي - في تقديره - إلى توهين المسلمين، وذلك بالتركيز على إذكاء روح القوميات في الشعوب الإسلامية للوقوف بها في وجه تيار الرابطة الإسلامية، حتى لا يهبّ مسلم لنصرة أخيه المسلم أو يهتم بمشكلاته. ويرى هورنيكا أن لا سبيل إلى نفاذ الاستعمار إلى المجتمع المسلم إلا بإحياء العصبيات القبلية والقومية التي عمل الإسلام على وأدها والعزف على الخلافات الطائفية لتشتيت نظرية الرابطة الإسلامية.

وفد هورنيكا إلى مكّة المكرمة في فترة اتسمت بالتسابق الاستعماري المحموم، خاصة على أقطار أفريقيا. وانعكس هذا التسابق بدوره على مستعمرات الغرب في آسيا الأسبق عهداً بالاستعمار من أفريقيا. وقد سعت العديد من الدول الأوروبية التي كان لها مستعمرات في آسيا إلى استحداث مستعمرات أخرى جديدة في أفريقيا ذات الموقع الوسط بين العواصم الأوروبية ومستعمراتها في الشرق. وغدا الاستعمار في الفكر الأوروبي شاهداً على الفخار الوطني وصنواً للعزّة العنصرية في مجتمعاتهم، هذا إلى جانب مردوداته الاقتصادية التى هي لبّ الاستعمار ولحمته وسداه. عملت كافة الدول الأوروبية في هذه الفترة التي شهدت مؤتمر برلين (١٨٨٥م) على ألا تتأخر عن نظيراتها في مجال الاستعمار المادي والهيمنة على ثقافات الشعوب الأفروآسيوية. وغدت برلين قبلة المنظرين للاستعمار، يفد إليها الساسة والمفكرون الغربيون في مؤتمرات تنتهي بعد الحوار والجدل غالباً إلى التوافق حتى لا يعارِض بعضهم بعضاً بتضارب مصالحهم. فلا غرو إذن أن أصدر هذا المفكر الهولندي كتابه عن مكة المكرمّة بالألمانية حتى يتسنّى لكل من الدول الاستعمارية أن تأخذ بنصيبها في مكافحة الثقافة الإسلامية التي تقف حجر عثرة أمام المخططات الغربية كافة في الهيمنة والاستعمار. وتأكدت مع هورنيكا ضرورة تعميق الفجوات العرقية والثقافية بل والجغرافية، إن أمكن، في الجسد الإسلامي، لتمرّ عبر شقوقها مصالح الإمبرياليين. ولعلّ في تحذير مؤتمر الدول الكولونيالية المعقود في عام ١٩٠٧م من رابطة الأخوّة الإسلامية، والتحريض على ضرورة العزف على أفكار التنافر العرقي بين العرب والأفارقة، بل واستنكار التجانس العرقي بين عرب آسيا وأفريقيا، والتأكيد - بكل وسيلة ممكنة - على ضرورة قطع الروابط الإسلامية المشتركة بين الشطرين العربي والزنجي، يفسر كثيراً من ضبابية تاريخنا العربي

الحديث الذي أرسى لنا مؤرّخو الغرب أبجديات أسسه ومفاهيمه. أما خلاصة ما انتهت إليه دراسات هورنيكا للتعامل مع الحركات الجهادية ضدّ الاستعمار فهي ضرورة ضربها بلا هوادة وقتل كل من ينتسب إليها، فلا أمل يُرجى من تصالح الجهاديين مع الحركة الاستعمارية التي يمكن أن تحقق أهدافها من خلال المواطنين غير الملتزمين إسلامياً أو ربما من الذين يمكن أن يبيعوا آخرتهم بدنياهم.

إن حشر هورنيكا في زمرة الرحالة الغربيين افتئات على قدره، فشأنه – علمياً – يفوق أقدارهم جميعاً، رغم أنه بدأ تلميذاً لكافة من سبقوه من الرحالة الغربيين. لم يعمد هذا الرحالة إلى استحداث قواعد منهجية جديدة تكيد للمسلمين في إندونيسيا وتحاول العمل على إبطال آثار الإسلام السياسية والاقتصادية هناك فحسب، بل تجاوز ذلك لتحريض عواصم الاستعمار الغربية لتبنّي أفكاره لضرب المسلمين في كل مصر إسلامي يرزح تحت نير أي نمط من أنماط الاستعمار الأوروبي. حقق هذا الرحالة المتفرد هدف حكومته في توثيق مناهج إدارتها الاستعمارية، وأشار على الحكومات الأخرى بأن تحذو حذوه، فالاستعمار كنهه واحد وإن اختلفت لغات المستعمرين ومواقع عواصمهم. لم يكن هورنيكا – في تقديرنا – رحالة واحداً، بل نعدّه عدداً من الرحالة في رجل واحد، وما ذلك إلا لأنه كان مُنظِّراً وضع خلاصة مجهوداته العلمية في متناول كافة العواصم الاستعمارية الأخرى، التي ما كان لها أن تظفر بكل تلك المعلومات والأفكار حتى وإن أرسلت حشوداً من الرحالة العابرين، كما هو شأن رحالة تلك العواصم دائماً. وضع هورنيكا كتابه عن مكّة المكرّمة باللغة الألمانية لإدراكه أن لكل لغة ظلالها التي لا يمكن لغة أخرى أن تشكلها، فمن غير المنطقي الكتابة بأسلوبين متطابقين تماماً، كما أن من غير الممكن تقمّص شخصيتين. وكان هورنيكا من المهتمين بما كتبه الرحالة الألماني سيتزن بصفة خاصة، فقد توافق الهدف الذي عمل له كل من الرجلين. فبينما تركز اهتمام الرحالة الأول على مكّة المكرّمة للنظر في إثر الإسلام في إندونيسيا، تركز اهتمام الأخير على معرفة أثر الإسلام في آسيا الوسطى. وكان هذا الأمر يسترعي اهتمام القيصر الروسي أكثر مما كانت تشغله مجريات الأمور في شبه الجزيرة العربية، وذلك رغم سيطرة الدولة السعودية في تلك الفترة على الحجاز، بؤرة الاهتمام في شبه الجزيرة العربية. سعت في ذلك الوقت السياسة الفرنسية للتواصل مع تلك الدولة، فيما عملت السياسة الإنجليزية على حجب كافة مؤثرات تلك الدولة عن مستعمراتها الهندية ودروبها الدولية، أما روسيا فقد كان سعيها مختلفاً. ففي تلك الفترة التي أخذ التنافس بين الدولتين الفرنسية والبريطانية يبدو واضحاً من خلال الرحالة المبعوثين إلى شبه الجزيرة العربية الذين مثّلوا قرون استشعار لدراسة مجريات الأمور في المنطقة العربية، أخذت روسيا القيصرية صاحبة التاريخ الطويل مع الدولة العثمانية تتطلع بدورها إلى المشاركة في استكشاف ما يجري في أهمّ بقعة إسلامية وأشدّها تأثيراً في السياسات الجماهيرية في العالم الإسلامي، وذلك لما لروسيا

القيصرية من ارتباطات وتطلعات في آسيا الوسطى. يضاف إلى ذلك أن الوهابية، تلك الثورة الإسلامية التحررية، حركت في أوروبا بأسرها في أوائل القرن التاسع عشر اهتماماً بالدراسات التوراتية والآثار وتطلعاً إلى دراسة الأنثروبولوجيا. كما كان من نتائج الثورة الصناعية إثارة الاهتمام بالجغرافيا الاقتصادية وتأجيج روح التنافس الاستعماري، ما شجع على قيام الجمعيات العلمية والأدبية في أوروبا. وأخذت الجامعات الأوروبية، ومن أبرزها جامعة جوتنجن الألمانية تعمل على تأهيل بعض طلابها للقيام بالدراسات الاستشراقية. فلا ريب أن تخرّج في هذه الجامعة أولريخ جاسبر سيتزن الذي وظّف علمه بعدئذ لخدمة أهداف روسيا القيصرية، كما تخرج فيها بوركهاردت الذي خدم الاستكشاف البريطاني في شبه الجزيرة العربية. وتأتي رحلة سيتزن في السياق الزمني في فترة احتدام التنافس البريطاني الفرنسي في شبه الجزيرة العربية، لكنها تخرج عن السياق الموضوعي لتنافس هذين البلدين؛ فأهداف رحلته كانت مختلفة هوناً ما، ويمكن اعتبارها الرحلة الغربية الأولى لشبه الجزيرة العربية التي لم ترتبط بسياسات التنافس الدولي في المنطقة بصفة مباشرة. وفي هذا الصدد يمكن اعتبار سيتزن صاحب الريادة التي أوحت لهورنيكا بالسير على آثاره.

التحق سيتزن بجامعة جوتنجن حيث تلقى دروساً في الطب واللغة العربية وعلوم النبات وفنون الرحلة والتجوال. وعمل سيتزن بعد ذلك في إحدى الإمارات الألمانية الملحقة بروسيا القيصرية. ثم ما لبث أن تعاون مع فون زاخ، القائد الأعلى في بلاط ساكس ومحرر المجلة العلمية: الرسالة الجغرافية والفلكية، ولقي ستون منه تشجيعاً لدراسة الأحوال في آسيا الصغرى.

بدأ سيتزن، مثله مثل العديد من الرحالة الأوروبيين إلى الشرق، بسوريا التي وصلها في ١٢١٦هـ/١٨٠٢م. وامتهن التسول وعاش في زي شحاذ لمدة أربع سنوات يستجدي المصلين أمام المساجد بعد حضور الصلوات. وتمكن هذا الرحالة بعدئذ من أن يتعرّف إلى بعض تجار دمشق من خلال علاقته بأحد الأرثوذكس العرب، فامتهن التجارة وتمكن من حمل تجارته في عام ١٨٠٦م إلى مضارب عنزة، وعمل على أن يتعرف إلى أنماط حياة البداوة فيها. وعاد هذا الرحالة بعدئذ إلى القاهرة حيث أعلن فيها إسلامه في ٢١ جمادى الأولى ١٢٢٤/٣ يوليو ١٨٠٩، ثم انتظم مسافراً في قافلة الحجّ إلى مكة التي بلغها في رمضان/١٠ أكتوبر ١٨٠٩. وعاد إليها من جدّة مرّة أخرى في ١١ يناير ١٨١٠، وامتهن جاسبر خلال إقامته في مكة لشهرين كاملين بعد الحجّ النطاسة، حتى لم يعد أحد من مسلمي مكة يشكّ في أن الرجل هو الدكتور الحاج موسى.

غادر سيتزن مكة إلى جدّة التي فارقها في ٢٦ مارس ١٨١٠ إلى اليمن ومات في تعز مسموماً. وقد اهتم بكنجهام، الصحافي البريطاني الذي عمل في الهند وبريطانيا، والذي كان له باع في أدب الرحلة الغربية، أيضاً بأخبار هذا الرحالة. وفي اعتقادنا أن سيتزن كان

أول أكاديمي يعمل في الشأن الاستخباري لمكّة المكرّمة، ما يؤكد سبق الاستشراق الروسي على الهولندي، وذلك رغم أن هورنيكا كان أبلغ تأثيراً في هذا المجال.

لم يتيسّر لأوروبا أن تعرف من بحوث سيتزن شيئاً كثيراً إلا ما جاء في بعض رسائله إلى فون زاخ، فقد هلك – على ما يبدو – مسموماً في تعز في ١٦ ذو القعدة ١٢٢٦/١ ديسمبر ١٨١١. أما مذكراته فقد أودعت بعد موته مع إيطالي، ثم انتقلت إلى هندوسي كان وسيطاً لشركة الهند البريطانية في اليمن، وآلت بعدئذ إلى حكومة الهند، ولا ندري إن كانت تلك المذكرات صادقة وحقيقية أو تولّتها الأيدي المختلفة بالتحريف والتبديل.

كان سيتزن قد أبحر إلى اليمن في ١١ صفر/٦ مارس ووصل الحديدة في ٨ إبريل، وتجوّل في تلك البلاد السعيدة حتى لقي حتفه. ولربما استرعى انتباهنا أن رسائله لم تكن مثل بحوث هورنيكا تهتم بمكة المكرّمة فقط من دون غيرها، فقد حوت ضمن ما حوت معلومات عن بعض القبائل. وربما كان سيتزن أول الرحالة الغربيين الذين كتبوا عن الصليب، تلك القبيلة التي أثارت انتباه العديد من الرحالة اللاحقين، لما أوحى إليهم به الاسم من إشارات تتفق مع توجهاتهم التنصيرية. ذكر سيتزن أن تلك القبيلة تعيش عيشة بدائية، وتتخذ مساكنها في المغارات والكهوف والحفر الكبيرة، وتقتات على صيد الطرائد الذي يحمله الرجل على حماره إلى مسكنه. ويضيف أن كل عائلة صلبية لا تملك سوى حمار واحد، وأنهم لا يملكون من الكراع شيئاً عدا ذلك. وأشار سيتزن إلى أن الصليب يصيدون النعام ويبادلون ريشه في أقرب الحواضر إليهم، لا سيما حوران، بالبارود والكبريت وبعض القمح. وقد يلفت النظر الانتشار الواسع لهذه القبيلة التي كتب هذا الرجل عن وجودها في الصحراء السورية، ثم أشار رحالة غربيون آخرون بعد ذلك إلى وجودها في أطراف الكويت وفي مناطق مختلفة من شمال نجد.

وضع هورنيكا وهو يسير على خُطى سيتزن، بعمله وعلمه، بصماته الدامغة على مناهج الاستشراق عامة، ولعله كان أول من أصّل لها علمياً، وأكّد قاعدة الاستشراق في مجال العلوم التي تتبنّاها الجامعات ومراكز البحوث، بعد أن كان الاستشراق عملاً من أعمال الأديرة والكنائس وجمعيات التنصير وغيرها. أصبح لهذا العلم دوره في خدمة العديد من القضايا الوطنية الغربية في أوروبا والغرب عامة، وأضاف بُعداً علمياً للاستعمار ووسائله. وعملت كافة الدول الاستعمارية بعدئذ على دراسة الثقافة الإسلامية وفق قواعد معتمدة وعلى ضوء أهداف بعينها. ودخل فكر مسجدي مكّة المكرّمة والمدينة المنورة إلى دائرة الضوء في أوروبا، بعد أن كانت قبل هورنيكا تهتم بشكل العبادات في الغالب والعمل على نقد ظواهرها. وأصبحت مجموعة المستشرقين بعد هورنيكا تهتم بالجوهر لطمسه قبل المظهر للعنه، وقنع العديد منهم بالدراسة النقدية الجادة، ما خفّف من حدّة الشتائم والسباب الذي لم يكن كافياً

لخدمة أهداف الاستعمار، رغم أن ذلك كان يستهوي قطاعات واسعة من المثقفين الغربيين. وكان عدد غير قليل منهم يجد في رمي الشعائر الإسلامية بكل قبيح من القول والتصوير شيئاً من الطرافة والغرابة وكثيراً من اللامعقول الذي يبثّه خيال الرحالة في أدب الرحلات لتسويقه في مجتمعاتهم. ولا غرابة أن أصبح لهولندا الريادة في مجال الاستشراق العلمي بفضل الريادة العلمية لهورنيكا.

درس هذا المستشرق أحوال المسلمين في مكّة مع عدم وجود مستعمرات لهولندا في منطقة مكّة المكرّمة ومحيطها المباشر، وكذلك فعلت روسيا سابقاً ولاحقاً. فقد اهتمت بدورها بعدئذ بأمر مكّة للتعامل مع وسطها المسلم في آسيا الوسطى. وفي الحقيقة، فإن روسيا سبقت هولندا – كما أشرنا – في استخدام العلماء جواسيس لها في الأماكن المقدسة. وكانت قد أرسلت أولريخ جاسبر سيتزن إلى الحجاز قبل أن يخرج إليه هورنيكا بفترة طويلة. ولكن أولريخ جاسبر لم يكن في حذق هورنيكا ولا في علمه.

تسمى هورنيكا في فترة وجوده في مكّة المكرّمة التي دخلها في ٨ جمادى الأولى ٢٣/١٣٠٢ فبراير ١٨٨٥ بعبد الغفار، وامتهن فيها مهنة الطب الذي كان قبل ذلك قد مارسه في جدّة لخمسة أشهر. سكن هذا الطبيب مكّة المكرّمة وتزوج سيدة من أهلها كشفت له من دون أن تدري الكثير عن حياة الجنس اللطيف في المدينة، فاستوفى هورنيكا زواياها وصفاً لم يغادر همسات بيوتها وصخب احتفالاتها وسلوكيات المرأة في الأفراح والأتراح، ولم يترك الرجل شاردة ولا واردة إلا استوفاها. وصوّر عبد الغفار بكل الدقة الممكنة وبالمنهج العلمي القويم حياة مكّة المكرّمة في تلك الفترة بنحو غير مسبوق.

كانت عين هذا الجاسوس المسلح بالمنهج العلمي حاذقة تنفذ إلى الدواخل لا تكتفي بالظواهر. وقد عكس كتابه الموسوم: **مكّة في الحقبة الأخيرة من القرن الثامن عشر** تحليلاً لما وراء الظواهر التي استنبطها من حياة المكيين التي صوّرها تصويراً حيّاً نابضاً بالحياة، حتى ليكاد القارئ يرى أهل مكّة بعيون هذا الرحالة يتحركون أمامه وهو يتابعهم على مدار العام يوماً إثر يوم وشهراً بعد شهر. ومن الغريب أنه لم يهتم بالحجّ وطقوسه وشعائره، فذلك لم يكن هدفه – كما قال – . فعلى من يتطلع إلى دراسة هذا الموضوع والكتابة فيه أن يراجع كتب المناسك بدلاً من أن يرهق نفسه في رحلة حجّ ويتجشم حضور تلك المناسبة التي لن يرجو من القيام بها غفران الذنوب! فالهدف العام من مثل هذه الرحلة – كما ورد عنده – دراسة حياة آلاف المكيين والوافدين إلى مكّة المكرمة لأغراض دينية أو دنيوية. أما الهدف الأساس الذي نذر عبد الغفار نفسه له فهو تتبّع ممارسات الحجاج الوافدين من أرخبيل الهند الشرقية (الهولندية) والذين يسمونهم في مكة الجاوة. لقد سكن العديد من هؤلاء في مكة المكرّمة لسنوات ممتدة، وشُغل بعضهم بدراسة مختلف فروع العلوم الدينية. وحدث أن عاد بعض هؤلاء

إلى أوطانهم بما أصابوه من علم عملوا على إبلاغه إلى مواطنيهم وأثّروا بذلك تأثيرا بالغاً في فكر المسلمين هناك. ولعل في تخصيص هورنيكا لفصل كامل للجاوة في كتابه المذكور عن مكّة ما يؤكد اهتمامه بهم أكثر من اهتمامه بسواهم.

وضع هورنيكا كتابه في جزءين بالألمانية ونشره في عام ١٨٨٨-١٨٨٩م، ثم ترجم الجزء الثاني إلى الإنجليزية ترجمة غير مطابقة للأصل الألماني. فقد جرى - كما تشير مقدمة الترجمة الإنجليزية التي أخذنا عنها - "تكثيف بعض المعلومات الواردة في النصّ الألماني ودمجها من دون الإخلال بالموضوع". ولعله من حسن الحظ أن الكاتب قد راجع بنفسه الترجمة الإنجليزية وأقرّها. أما الجزء الأول الذي لم يترجم إلى الإنجليزية فيشمل - كما تقول المقدمة - وصفاً طوبوغرافياً لمكّة المكرّمة وملفاً كاملاً لصور مكة والحرم الشريف، وكذلك صوراً لبعض أهل مكّة والحجاج الوافدين إليها وبعض مسؤولي تلك البلدة، وسرداً غير واف لتاريخ المدينة منذ البعثة النبوية الشريفة إلى عام ١٨٨٥م. أما الجزء الثاني الذي أخذنا عنه فقد عني بالحياة الاجتماعية في مكّة المكرّمة. وقد ساعد عبد الغفار إسلامه الذي ادّعاه، كما ساعدته معرفته الأكاديمية وكذلك مهنة الطب التي ادعاها، في أن يجالس الوالي ويناقش العلماء والفقهاء ويخالط العامة والرعاع ويعقد الصداقات مع العامة والأعيان على حدّ سواء.

خرج هورنيكا من مكّة المكرّمة في شوال ١٣٠٢/أغسطس ١٨٨٥ على عجل بعد أن انكشف أمره نتيجة مقال عن حجر تيماء الذي تنازع ملكيته كل من تشارلز هوبر الفرنسي وجوليوس يوتنج الألماني- كتبه القنصل الفرنسي المبعوث إلى جدّة في صحيفة الزمان الفرنسية الصادرة في باريس في ٢٢ رمضان/٥ يوليو ١٨٨٥ - واتهم فيه هورنيكا المقيم في مكّة باسم عبد الغفار بالسعي للحصول على حجر تيماء لصالح جوليوس يوتنج المقيم في دمشق. وجد المقال طريقه مترجماً إلى بعض الصحف التركية للسلطات العثمانية، فانكشف أمره وجرى ترحيله في خلال ساعات من مكّة المكرّمة إلى جدّة. وكان يوتنج وهوبر قد اشتريا في عام ١٨٨٣م هذا الحجر معاً في صفقة كان هوبر الغارم الأكبر فيها. وأرسل هوبر نسخة من بصمة هذا الحجر إلى رينان في باريس، فيما أرسل يوتنج نسخة إلى نولدكة في برلين مع رسالة ادّعى فيها أنه الذي اكتشف هذا الحجر المهم الذي يتحدث نقشه عن ظهور "دين" جديد في تيماء، إله جديد وسادن جديد. وفي الحقيقة فقد كان الرحالة داوتي هو أول من أشار إلى هذا الحجر حين أخبر أنه سمع بوجوده لكنه لم يره. أُودع هذا الحجر في حائل لدى ابن رشيد، وحين قُتل هوبر سعى يوتنج الذي كان في هذه الفترة مقيماً في دمشق للاستحواذ على هذا الحجر بمفرده مستعيناً في ذلك بجهود هورنيكا الذي أنكر في أكثر من مناسبة أنه عمل على المساعدة في ذلك.

حمل الرحالة هورنيكا من مكّة في جعبته زاداً وفيراً من المعرفة التي شملت كافة نواحي الحياة الاجتماعية في البلد الحرام، وذلك بعد إقامة فيها دامت لأكثر من ستة أشهر متصلة. وفي اعتقادنا أن سنوك كرستيان هورنيكا قد أثرى جانباً من المعرفة الإنسانية بما سجّله عن مكة المكرمّة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وكان بحكم تكوينه العلمي يعي خطورة المهمة التي كُلّف بها، ويدرك أن التعامل العلمي مع موضوع خطير يُعنى بقبلة المسلمين يجب أن يقوم على معلومات صادقة وكلمة معبرة ورؤية حقيقية. وفي تقديرنا أن المعنيين منا بشؤون الإنسانيات سيجدون في كتاب هورنيكا مصدراً عن الحياة الاجتماعية في مكّة المكرّمة في ذلك الوقت يُعتمد عليه، بعد النقد اللازم على ضوء هوية الرجل وطبيعة مهنته ومهمته وذهنيته الثقافية الملوثة بأخلاقيات الاستعمار الأوروبي وسلوكياته.

تبنّت مدارس الاستشراق المختلفة التي كرست جهود كراسيها في الجامعات الغربية منذ تلك الفترة من الربع الأخير من القرن التاسع عشر للتعامل مع ثقافة الشرق المسلم تعاملاً علمياً، فعملت على نشر التراث الإسلامي محققاً، كما عملت بعض دوائرها على دراسته تحليلاً لمكوناته وتعليلاً لمضامينه على ضوء مناهج علمية تتحرى عن الدقّة ولا تعرف من الانحياز إلا ذلك المتصل بجرثومة رقي العنصر الأوروبي الذي يسيطر على الذهنية الغربية حين تتعامل مع الشرقيات، وتأكيد الروح الصليبية التي تعجز المنهجية الغربية عن طرحها جانباً حين تتعامل مع الإسلاميات. وراح هذا الاستشراق "العقلاني" ينساب هادئاً من الجامعات ومنابر الفكر وسط دوامات عاصفة لبعض من ثبت منها على أسلوبه القديم سبّاً للآخر ونيلاً منه. ويمكن أن نذكر في هذا المجال جورج أوجستين والين الفنلندي السويدي المولود في عام ١٨١١م. وكان والين من الشباب الذين استهوتهم الدراسات التوراتية، فحصل على منحة من جامعة هلسنجفورس لزيارة الجزيرة العربية لدراسة الخطوط الحميرية والمخربشات في تلك المنطقة. وقد تجول الرجل لمدة سبع سنوات كاملة في العراق وسوريا وفارس ومصر التي غادرها في ١٢ إبريل ١٨٤٥ إلى فلسطين، وخرج منها عبر وادي السرحان والجوف وجبة إلى حائل التي دخلها في ٢٠ سبتمبر من العام ذاته وغادرها ليقوم برحلة حجّ إلى مكّة المكرّمة. وغادر من مكة إلى جدّة فالقاهرة لمواصلة دراساته في بعض مسائل العقيدة والخط العربي وترتيل القرآن الكريم، قبل أن يعود إلى حائل مرّة أخرى في عام ١٨٤٨م ويتركها إلى العراق فالقاهرة حيث كان يتلقى الدعم منها بصفته من رعايا قيصر روسيا. وانتهى بوالين المقام في عام ١٨٥٠م أستاذاً للغات الشرقية في جامعة هلسنكي، ولكنه لم يلبث أن هلك في عام ١٨٥٤م. وكان لهذا الرحالة دوره الرائد في تأصيل الدراسات الاستشراقية في الغرب، كما كانت له اتصالاته مع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن. وقد كتب والين عن دولة ابن رشيد في حائل في الوقت الذي أصبحت فيه تلك الإمارة اعتباراً من عام ١٨٤٢م من المناطق التي استرعت اهتمام محمد علي باشا وكذلك نابليون الثالث في فرنسا. فقد

كان عبد الله بن رشيد الذي انقلب على ابن عمه في عام ١٨٣٥م واستولى على الحكم في حائل يظفر باعتراف محمد علي باشا. وبعد عقد معاهدة لندن في ١٨٤٠م وإطلاق سراح فيصل بن تركي من القاهرة في عام ١٨٤٢م وانحياز ابن رشيد إلى فيصل، أخذت المجريات السياسية في نجد مساراً جديداً عملت كل من مصر محمد علي وبريطانيا وفرنسا على استغلاله. كتب والين الذي زار حائل مرتين عن الانتصارات التي أحرزها آل رشيد على جيرانهم في نجد وعن مزايا ابن رشيد وإقدامه وجرأته وعدالته ووفائه بالعهود وكرمه الذي يجلّ عن الوصف، وعطفه على الفقراء، فما من أحد منهم قصده وعاد منه خائباً. وأشاد والين بسيادة الأمن في بلاد ابن رشيد وبتطبيقه "المذهب الوهابي ولكن من دون تشدد"، فالتبغ مسموح بتدخينه علناً. وكتب والين في ازدهار حائل الاقتصادي، وعلل ذلك بما تتمتع به من موقع وسط في طرق التجارة، وبالعلاقات الطيبة التي تربط عبد الله بن رشيد بالحجاز ومصر والعراق. وكتب عن أسلوب التعبئة العسكرية عند ابن رشيد وفي تنظيم جيشه. فهو يستدعي القرى، كل على حدّة، لتقوم معه بالغزو. يركب كل من مواطني القرى على جمله أو حصانه ويعمل على توفير زاده واحتياجاته لنفسه. ويمثّل هؤلاء القرويون – كما يقول والين – القوّة الرئيسة في جيش ابن رشيد. أما البدو فيصدر لهم نداءً عاماً يستنفرهم فيه، ويحدد لهم موقعاً معيناً ووقتاً بعينه لتجمّعهم. وعلى الرغم من أن البدو ينفرون له بأعداد غفيرة، لا يعدّهم عماد جيشه بل يعدّهم عاملاً مساعداً. وعند انتهاء المهمة يقرر ابن رشيد لكل من أسهم في الحملة نصيبه من الغنيمة أو ربما يعطيه مالاً أحياناً. ويرى والين أن البدوي أشجع من الحضري، إلا أن سلاح الأخير أميز من سلاح الأول وأمضى. ويرى أن علاقة العداء التقليدية بين البدو والحضر لم تعد قائمة في حائل، فأهل الحضر يرسلون أولادهم إلى البادية ليشبّوا في خيام البدو على التقاليد البدوية، كما أن البدو يؤجّرون إبلهم للفلاحين المستقرين لمدة ثلاثة شهور لقاء جُعل معلوم من التمر والقمح، كما بات بعض البدو يمتلكون المزارع. وكتب والين عن قوافل الحجّ والتجارة التي يقودها الشمريون وأثرها في الروابط القوية القائمة بين الحضر والبدو في شمّر الذين يؤجرون إبلهم للقوافل. وأفاض والين في الحديث عن البدوي وجمله الذي يحادثه ويشكو إليه ويوبخه. وكتب في الكرم الذي يبذله لك البدوي حرصاً منه على أن يكسب شهرة أنه كريم، وهذا "أسمى مراتب الثناء في الصحراء... أما إذا حرص الرحالة على اكتساب هذا اللقب فعليه أن يقاسم البدوي اللبن والتبغ الذي يحمله". وكتب والين عن الخوّة وما يكسبه البدوي منها، واتهم البدوي بأنه شره في حب المال لا يقنع بما يمكن لك أن تقدمه له منه. وحدثنا والين عن بدوي ذبح خروفاً على شرف زيارته له ولكنه لم يقاسمه المائدة، ويدّعي والين أنه – نتيجة لذلك – لم يتناول من الذبيحة إلا ربع ما يكفيه ليترك الباقي لمضيفه وأهله الذين كانوا ينظرون إليه "بعيون شرهة تتقد شهوة للطعام"!

عملت مدارس الاستشراق في الغرب منذ نشأتها على التعاون الوثيق وتبادل المعلومات،

أما في شرقنا العربي فلم نبنِ بعد - ونحن في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين - مدرسة علمية للتعامل النقدي مع الاستشراق ودراسته منهجياً. ترى البعض منا مُقرظاً منحازاً إليه نظير ما قدّمه من خدمات جلّى لتراثنا، لا نزال في شرقنا عاجزين عن أن نقدم لأنفسنا مثلها. ونرى مثل هذا الناقد محقاً في هذا الجانب ولكنه عمي أو تعامى عن غائية الاستشراق وعجز عن فهم كنهه. ومنا أيضاً من ينكر على الاستشراق كل فضل على ثقافتنا وينكر على المستشرقين حقاً لا يُماري فيه إلا مكابر، ويمكننا أيضاً أن نلتمس له العذر ونراه في ذلك مُحقاً لأنه نظر إلى خبث غائية الاستشراق، وأنكر عليه حفظه لكثير من تراثنا والعمل على نشره. وفي تقديرنا أن تقاعسنا أو ربما عجزنا حتى الآن عن بناء مدرسة أو ربما مدارس بمناهج نقدية سليمة للتعامل مع الاستشراق يجب ألا يقعدنا، في هذا العالم الذي غدا باتصالاته متشابكاً، عن بذل الجهود في هذا المضمار. حتّم هذا التواصل بين الشرق والغرب علينا معرفة الآخر معرفة حقّة يجب ألا تعشى معها أنظارنا بالبهرجة التي تدثّر بها الغرب. ونعتقد أن على المختصين منا أن يعملوا على مراجعة أفكار المستشرقين ومحاورة حججهم واستكشاف دوافعهم وسبر أغوارها، حتى نتمكن من أن نصيب قدراً من المعرفة يوازي - على الأقل - قدر ما تصوّروا أنهم عرفوه عنا بمناهج الاستشراق وبغيره. ولن يكون الحوار مع هؤلاء ممكناً إلا بندية المعرفة المتعددة الجوانب، نحاول من خلالها معالجة الأفكار الموروثة لدى الغربيين وتوجيهها لما يخدم قضية الإنسان حيث كان، في الشرق أو في الغرب، وتلك هي القضية المحورية في فكر الشرق منذ فجر الإنسانية.

الأعراق التي تعمر مكّة وأنشطتها

يعمر هذه المدينة - كما يقول هورنيكا - الكثير من الأتراك والمصرين والسوريين وأهل بخارى ومناطق آسيا الصغرى، إضافة إلى الهنود ومن إليهم. ويعمل هؤلاء جميعهم في التجارة بصنوفها المختلفة، فيجمعون إلى تجارتهم "الوهمية" من ريع الحجّ والعمرة تجارة أخرى حقيقية يحققون بها الرفاهية في تلك المدينة الفقيرة التي تقع في وادٍ غير ذي زرع، وهذا أمر يعدّه الحجاج من الخوارق. وتنتج مكّة عدداً من المصنوعات المصقولة، وهي من صنع الأجانب الذين وفدوا إلى تلك البلدة. فالنجار واللحام وصانع الأنابيب وغيرهم من فئات الحرفيين وفدوا إليها من المناطق المتحضرة من العالم الإسلامي.

يسير في إثر هؤلاء العاملين عند قدومهم إلى مكة عدد كبير من الشحاذين الذين قصدوا مكّة يدفعهم الحنين لأداء الحجّ، أو الرغبة في أن يقوموا بواجب مهنة الاستجداء بنحو أفضل مما كانوا يقومون به في ديارهم. يفد كل هؤلاء الشحاذون بصفة خاصة من آسيا الوسطى،

يضربون في الأرض متسكعين حتى يبلغوا مكّة. تضمّ مجموعة الشحاذين الدراويش الذين تراهم يتلفحون أسمالاً مرقعة، ويغطون رؤوسهم بطواقي التتار التي تتسم ببروزها وعلوها. ويمسك الرجل من هؤلاء في يده عصا يتوكأ عليها تعينه على قطع الطريق، وبإطار من خشب ثُبتت عليه حلقات معدنية يصاحب رنينها أذكارهم الجماعية المملة. أما في اليد الأخرى فيحمل الواحد من هؤلاء إناءً خشبياً أو قرعة من جوز الهند. وينتمي إلى هذه المجموعة من الشحاذين رجال أقوياء البنية ويتميزون بالوقاحة. وهناك مجموعة أخرى من الشحاذين يعرفون بالمدّاحين، يتّسم سلوكهم باللياقة وحسن الأدب. وينشد هؤلاء الشحاذون أهازيج، أو قل يصدرون هتافاً مفاجئاً يطلقونه من حناجرهم، يوجهونه في الغالب إلى الخالق يستدرّون رحمته. وحين يصادف أحد هؤلاء شخصاً ما أو حين يغشى مسكناً ما، يأخذ في رفع عقيرته طالباً الصدقة. فإذا لم يرغب الشخص في إعطائه شيئاً ردّد: الله كريم، فينصرف عنه ذلك السائل إلى مكان آخر. وهناك فئة أخرى من الفقراء الأجانب والمساكين الذين وفدوا إلى مكّة في ركاب الحجاج الأثرياء ثم آثروا البقاء في مكّة وعدم العودة إلى الديار. ويقنع مثل هؤلاء الفقراء بأن يجدوا لأنفسهم أعمالاً في مجالات تدرّ ربحاً أقل مما تدرّه الأعمال الأخرى التي يختص بها المكي المولد. يعمل هؤلاء الوافدون عادة بوابين للحرم يحرسون نعال المتعبدين الداخلين إليه، أو مناولين في البيوت التي تشغلها عدّة عوائل، كما يعملون أيضاً في كافة الأعمال الأخرى التي يعجز العبيد عن القيام بها.

أما الهنود الوافدون إلى مكة فإنهم يجنون أرباحاً وفيرة من التجارة التي يقومون بها من إقراض المال كذلك. تحرّم القوانين الإسلامية، كما هو معلوم، الربا، إلا أن هؤلاء المرابين يجدون فرصتهم في التحايل على تلك القوانين. وأكثر أساليب التحايل ذيوعاً هي أن يكتب في وثيقة الدين مبلغاً أكبر من المبلغ المقبوض فعلاً ليؤدى المبلغ المكتوب بعد ذلك في تاريخ معين. أما الوسيلة الأخرى فتتمثل في أن يبيع التاجر لزبون سلعة ما بسعر عالٍ يتعهد الأخير بدفعه مؤجلاً، ثم يشتري الدائن في الحال تلك السلعة نفسها بسعر رخيص يؤدى للمقترض فوراً. ويمثل هذا السعر الأخير، في حقيقة الحال، مبلغ القرض المقبوض فعلاً، فيما يمثل الفارق بين السعرين مبلغ الربح. وقد تمرّس العديد من مواليد مكة في هذا المجال بعد أن تتلمذوا بكفاءة على الهنود فيه.

يُعتبر الحضارمة أخطر المنافسين للهنود في مجالات الأعمال كافة. يأتي كل هؤلاء، بلا استثناء، إلى مكّة من دون مال، ولكنهم بقدرة تكيّف كبيرة وبصبر لا ينفذ، ولا ينفرهم الشعور بالأنفة من الانخراط في أي مهنة أو تجنّب أي وضع مُزرٍ، فهم يهتبلون كل فرصة سانحة. يبدأ الكثير منهم بالعمل عتالاً يحمل الأثقال في مناطق جدّة المختلفة، حيث تقوم طائفة العتالين بمهمات حركة النقل كلها بين تلك المدينة والميناء، ثم ما يلبث أن يصبح بعضهم من الأثرياء.

أما في مكّة، فغالباً ما يبدأ الحضرمي عاملاً بأجر يومي، حيث يؤدي أياً من المهن التي تتيحها الظروف، فيكتسبون معرفة محلية وأخرى تقنية، وسرعان ما يستغلون تلك المعرفة لتحقيق منافع لهم. وحدث أن كسب يافعاً من هؤلاء الحضارمة لا يتجاوز عمره الرابعة عشرة مبلغ أربعين ريالاً استثمر عشرين منها على الفور في المرابحة. وجدير بالذكر أن مثل هذه المبالغ الصغيرة يمكن أن تحقق أرباحاً تصل إلى ١٠٠٪ في مدى زمني لا يتجاوز بضعة أشهر.

تفد مجموعة كبيرة من اليمنيين إلى مكّة مدفوعين بالأهداف نفسها التي تحرك إخوانهم الحضارمة، إلا أنهم عادة ما يكونون أدنى من الأوائل معرفة. وتقصد هذه المدينة كذلك مجموعات كبيرة من قبائل البدو الحجازية الفقيرة. تجد مثل هذه العوائل البدوية المأوى في جزء من قاعة "دهليز" في أي من البيوت الكبيرة. ويؤدي البدوي – نظير هذا – في إخلاص منقطع النظير، الواجبات التي تقع على البواب. لمثل هذا العمل المهم أهمية كبرى، خاصة في موسم الحجّ حيث تزدحم القاعات الأرضية لتلك المنازل بمتاع عشرات الأسر التي تفد إلى مكة في موسم الحجّ. وعلى العموم، فإن هؤلاء الحجازيين الفقراء قد برهنوا بسلوكهم على أنهم أدعى للثقة من الآخرين الذين أفسدتهم مؤثرات المدينة.

تقع في الركن الجنوبي من هذه المدينة مستعمرة لبدو ولاية المدينتين المقدستين "الحجاز" يقطن أغلبهم في أكواخ بائسة، أما الأفراد الأوفر حظّاً من هذه الفئة فيسكنون منازل بسيطة. ويقوم هؤلاء البدو بمهمات تأجير الإبل للمسافرين إلى جدّة والطائف والمدينة المنّورة. ويُسمّون "بالمكريين أو المتسببين"، كما يعمل هؤلاء البدو أيضاً في توريد الأغنام، والألبان، والزبد، والتمور، إلى مكّة المكرمّة. وتوجد إلى الشمال من هذه المستعمرة مضارب بدو أصغر شأناً، وهي شبيهة بالمستقرّات الأخرى التي نجدها في شمالي هذه المدينة وجنوبيها، ولكنها تقع في منطقة بعيدة ولا تكوّن جزءاً مُكملاً لهذه المدينة.

يحدّ الجزء الجنوبي من هذه المدينة ويلاصقها أكواخ الزنوج، وهم بصفة عامة من التكارنة الأحرار، ومن العبيد المحررين الذين يساكنونهم في ذلك الحي. ويعمل هؤلاء الزنوج في حمل السلع الثقيلة، وتنظيف المراحيض، وصناعة بعض أنواع من الفخار الخشن، و"المكبّات" التي تُصنع من السعف المزينة بفتلات الصوف، وكذلك مكانس السعف المنزلية وما إلى ذلك.

يفد إلى مكّة كذلك كثير من النساء الباحثات عن الزواج من أماكن مختلفة من العالم، ومن مصر بصفة خاصة. أما الجاوة فإنهم يأتون إلى مكّة لأغراض دينية محضة، مدفوعين باكتساب المعرفة الدينية المقدسة في ذلك المكان المقدس، والعيش مع رجال أتقياء مشهود لهم بذلك، أو بجوار المتصوفة. يسعى هؤلاء الجاوة إلى أن يغتسلوا من الذنوب القديمة، وإلى تزكية أموالهم المدنّسة، وذلك بالإنفاق منها في صالح الأعمال، أو لقضاء آخر أيام حيواتهم في تلك الأرض الطاهرة. هؤلاء الجاوة هم العنصر الوحيد من دون العناصر الأخرى الذين يرغبون في أن

يصبحوا مواطنين مكيين وهم منزهون عن كلٍ غرض مادي للكسب، وذلك بالرغم من أن أعداداً من هؤلاء بعد سنوات من الإقامة في مكة تصيبهم عدوى الشره.

مما يثير الدهشة فعلاً قلة عدد مواطني شبه الجزيرة العربية الذين يتخذون من هذه المدينة سكناً دائماً لهم، إذ لا يسكنها منهم إلا التجار، أما الآخرون من سكان وسط شبه الجزيرة العربية فيأتون إلى هذه المدينة للحج فقط ثم لا يلبثون أن يرجعوا حال أداء المناسك. هؤلاء القوم هم الحنابلة الذين يقدسون هذه الأرض الطاهرة، شأنهم في ذلك شأن سائر الأتقياء الآخرين، ولكن مجتمع مكّة يبدو في نظرهم فاسداً، وهم يعتقدون أن بابل غير مقدسة قد نمت في أطهر تربة، وأن الشيطان قد استورد إلى تلك المدينة العظيمة كل صنوف الموبقات تحت اسم الحضارة.

يبدأ الوافدون من الأعراق المختلفة بتكوين مجتمعاتهم الخاصة من دون الذوبان في الأعراق الأخرى. وبالرغم من أن دوائر التعامل قد تدفع بفئة ما للدخول في فئة أخرى مختلفة عنها، إلا أن التداخل الوثيق لأفراد تلك المجموعة يبقى مقصوراً على المنطقة التي كوّنوها فقط. وعلى العموم فإن مثل هذه الأحياء التي تكوّنها هذه المجموعات العرقية المختلفة لا تحمل بالنسبة إلى الرعايا العثمانيين أو المجموعات غير العثمانية مثل المغاربة، إلا خصوصية اجتماعية فقط، فهي لا تُعبر بأي حال عن أي أهمية سياسية. أما رعايا الدول الأخرى، ومنهم الرعايا البريطانيون، فمن النادر أن يدخلوا في اتصالات شخصية مع المسؤولين العثمانيين، وإذا حدث ذلك فعليهم أن يقدموا التماساً رسمياً يطلبون به حماية السلطان، ويصبح لهم بعد الحصول عليها أن يطالبوا بحقوق متساوية. ولتيسير أداء الأعمال بين الموظفين الرسميين وأعضاء الجاليات الأجنبية الوافدة، فإن كلا الفئتين يحتاج إلى وسيط من نوع ما، وإلا فإن اختلاف اللغة وتباين السلوكيات يجعلان من الصعوبة على الشرطة مثلاً تجنّب الوقوع في الخطأ وتكراره. وقد وجد أولئك في أغلب الأحيان الوسطاء في الشيوخ أو المطوّفين.

للحضارمة الذين لا تخضع بلادهم لأي سيطرة أجنبية، ولا حتى لسيطرة الدولة العثمانية، في مكّة، منذ القدم، شيخهم الذي يقع على عاتقه تسيير الشؤون بين بني جلدته مع السلطات المحلية. كذلك ينظر شيوخ الطوائف المختلفة في مكّة في شؤون مواطنيهم الذين ينتمون إلى تلك الطوائف حيث يتمتع مثل أولئك الشيوخ عادة بمواقع إدارية. وللسلمانيين (الأفغان ومن ينتمي إليهم) شيخهم الذي يتمتع بتلك المعاملة، ولكن حين تنشأ ضرورة لتدخل سلطات الحكومة العثمانية فإنها تتدخل مباشرة "فوق رأس ذلك الشيخ". وعموماً، بما أن مكّة هي مدينة أجانب – جزئياً – فإن كل هذه الجماعات الإنسانية المتعددة الألسن والأعراق تشعر أنها في موطنها فعلاً. فالعديد من الأجانب في مكّة على – أي حال – ما عادوا ينتمون إلى أي دولة أخرى، فقد ربطت التوجهات والمصالح والأسباب الاجتماعية المشتركة الأخرى

بين هؤلاء الناس جميعاً بنوع من الرباط القوي بالمجتمع المكي الأصيل، الذي يبدأ هؤلاء الوافدون جميعهم بأخذ مواقعهم في نسيجه تدريجاً. وبالرغم من أن وجود سلسلة ممتدة من التمايز بين المكيين والأجانب الوافدين، لا يوجد خط فاصل قاطع لحدود هذا التمايز. وبما أن الزواج هو الوسيلة الأساس للارتباط في هذا المجتمع، فإن الشخص الذي يتزوج فتاة نشأت في مكة سيصبح مكّيّاً بنحو أو بآخر، وسينشأ الجيل الثاني أو الثالث بعد هذا الارتباط ليجد أن الأصل الأجنبي لأسرته قد طواه النسيان. بناءً على ذلك يمكن القول إن في مكة جسداً مركزياً من المواطنة يمتصّ، وبالتدريج، من خلال المصاهرة، عناصر جديدة تضاف إلى المجتمع المكي. وحين نأخذ في حسابنا تعدد الزوجات، وجواز التسري، يمكننا أن نقول إن كل جزء من المدينة يضمّ في داخل كل نوع ما يمكن أن نتخيله من الأعراق الإنسانية. ففي كل أسرة مكية أثر لسحنة تمثل هذا العرق أو ذاك، ذلك أن عملية الامتصاص المتواترة تنتج تأثيراً متكافئاً. ولا نكاد نلحظ شكل وحدة هوية غير متكاملة إلا في ما يمكن أن يمثله الملبس، والحديث، والأخلاق الشخصية. وعلى الرغم من هذا التشكيل المتباين الأعراق للمجتمع المكي، يعكس بنحو جلي شخصية عربية متماسكة تنتمي إلى غرب شبه الجزيرة العربية، رغم الممارسات والتقاليد الأجنبية المختلفة. وتسود هذه الروح العربية نتيجة للتيار المتدفق من أعلى، الذي يمثله السادة والأشراف وكذلك الأسر المكية القديمة، كما تنبع من أسفل أيضاً، وذلك نتيجة لتدفق الحجازيين وقبائل الحروب إلى مكة بنحو دائم. كذلك يمكن تفسير الحفاظ على هذه الشخصية العربية للمجتمع المكي بنحو كبير أيضاً بأن المهاجرين إلى مكّة من الجنوب العربي يماثلون المكيين في الأخلاق، والعادات، وأسلوب الحديث.

يمثّل الحضارمة القادمون من الجنوب، كما يمثّل اليمنيون أيضاً، الطبقة المنتجة في هذه المدينة التي يغذونها بتوافدهم باستمرار، فلا عجب أن غدت هذه الطبقة هي التي تمثل الشخصية العامة لكل مجتمع هذه المدينة. أما الوافدون الجدد الآخرون القادمون من كل فجّ عميق، وحدب سحيق، فينبغي لهم أن يتخلوا عن كثير من عاداتهم الأصلية قبل أن يصبحوا مواطنين أصيلين. ولا يعني هذا القول أن عادات وتقاليد هؤلاء الناس الوافدين إلى مكّة من كافة الأمصار لا تؤثر في مجتمع تلك المدينة. فلكل أمة من تلك الأمم بصماتها المتمثلة في دخول بعض الألفاظ الغريبة إلى لهجة مكّة، إلا أن هذه اللهجة - مع كل هذا - تظل وبنحو شامل لهجة عرب غرب الجزيرة. وعلى الرغم من أن ملابس المكيين قد استعارت عدّة تفاصيل من الزي الهندي، لا تكاد تخطئ العين ملابس المكي التي تتميز عن غيرها من الأزياء. كذلك نجد أيضاً أن المكي يحرص في بعض الأعياد والمناسبات الأخرى على التزيّي بزي البدو. ويمتاز المكيون بالكرم الأصيل، فهم كرماء إلى درجة التبذير. ويجد المرء على موائد المكيين العديد من أصناف الطعام الأجنبية.

في الحقيقة، فإن لمن المستغرب أن تحتفظ أحياء مكّة المختلفة بعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر بالتقاليد الموروثة التي تسود وسط وشبه الجزيرة العربية. فالثأر – كما هي الحال هناك – لا يُترك ولا يُنسى مهما تقادم عهده. وعادة ما ينجم الثأر عن أمور تافهة، فقد تحدث مشاجرة بين أطفال من حيّين مختلفين، أو قد يطرد بعض الأوغاد بعض الكلاب إلى حي آخر، فتنشأ المشكلات التي تجرّ في أثرها العداء. وقد لا يجرؤ أحد سكان هذا الحي، بسبب هذا العداء، على أن يخرج من حيّه ليعبره إلى الحي الآخر، من دون أن يُلقى عليه حجر من أحد المنازل، أو ربما يهاجم بالمدى إذا كان الوقت ليلاً.

يتسلح الأعيان من الأشراف وبعض السادة المنتمين إلى الأسر الكبيرة دائماً بالخناجر "الجنبية" التي يجعلونها في أحزمة حول خصورهم. أما ابن الحي فيحمل المطواة تحت سترته، أو قد تتدلى على صدره العاري. ولكن إذا حمي وطيس المشاجرة "الهوشة"، فإننا نجد هؤلاء الصبيان يهرعون لاستعمال العصي الغليظة "النبابيت". ولمعارك الأحياء هذه أبطال يعرفون في أوساط أصدقائهم برؤوسهم الحليقة تماماً لإظهار آثار الندوب على جماجمهم التي سبق أن نال منها الأعداء. وعادة ما تُسوّى مثل هذه النزاعات بين الأحياء المختلفة عند جبل أبي قبيس. وينتهز هؤلاء الشباب عادة فرصة الأعياد المكية حيث تُشغل المدينة باحتفالاتها، فيسعون إلى تسوية حساباتهم من دون تدخل الشرطة في الوقت غير المناسب. أما إذا حدث أن سقط أحدهم في تلك المعارك قتيلاً، أو توفي متأثراً بجروحه بعدئذ، فإن شيخ الحي المعني عادة ما ينظم مسألة دفع ديّة "الدم" التي يجبي مبلغها دائماً من الحي بأكمله. ويسهم كل رجل في الحي بدفع حصّة "فرقة" وذلك على قدر سعته في مبلغ الدية المطلوب الذي لن يكون – إلا نادراً – أقل من ثمانمئة ريال ماريا تريسا، تدفع مقسّطة، أما الجروح الناجمة عن هذه المشاجرات فتعامل بالقصاص. وإذا كان لا بد من أخذ الثأر، فإنه يقع على أول رجل من هذه الجماعة يمكن أن تصل إليه يد أحد من الجماعة المناوئة التي تطلب الثأر، ويبقى بعد ذلك دائماً حساب يجب أن يُصفّى من قبل هذه الجماعة أو تلك، فالثأر دوامة لا تنتهي. وعندما يتعرف بعض المعتدى عليهم إلى الذين أحدثوا بهم إصابات بالغة، فإن الشيوخ عادة ما يحتاطون للأمر ويسوّونه تسوية سلمية، وذلك في ما يسمى "النقاء". يدعو الحيّان المعنيان أحدهما الآخر إلى وليمة يجتمع فيها رجال الحيّين، ويقوم الرجل الذي أنزل الإصابة بخصمه بإحداث إصابات في جسده بالسكين أمام الملأ. ويستمر ذلك الرجل على هذا الدأب حتى يصيح به رجال الجبهة المضادة: يكفي هذا! ثم يجلس الفريقان إلى الوليمة التي أعدّت لهذه المناسبة يتقاسمانها معاً، وبهذا يصبح ما بينهما "عيش وملح". ثم يسود السلم بين هذين الحيّين بعد ذلك إلى ما شاء الله. ولهذا يمكن القول إن المواطنين المكيين لا يظهرون الخضوع لأوامر الأتراك وقوانينهم ولا يلتزمونها في إصلاح ذات البين في ما بينهم، فيفسدون بذلك السلم

الذي يجب أن يُظلّل تلك الأرض المقدسة أبداً. فللمكيين - مثلهم مثل سادتهم الأشراف، وتماشياً مع العادات العربيّة العامة - مشاجراتهم التي يعالجونها بأنفسهم وفقاً لأعرافهم.

يحصل جميع أهل مكة، اعتباراً من أبرز شريف فيهم إلى أدنى شحاذ في هذه المدينة، على أرزاقهم بنحو مباشر أو غير مباشر من الأجانب "ضيوف الرحمن" الذين يتوافدون إلى بلدهم في كل سنة، فليس في مكّة مصدر آخر للكسب. وفي الحقيقة فإن من يخالط عامة المكيين قبل موسم الحجّ يجد أنهم مرحين ولطفاء وكرماء إلى حدّ الإسراف، يعيشون الحياة الاجتماعية بطولها وعرضها. أما من يخالط أسراً مكية محترمة فإنه يجد في أوساطها الرجل الفظّ الخشن الأخلاق، كما توجد في مثل هذه الأسر أيضاً شخصيات إنسانية طيبة ذات ورع أصيل.

معاملة الرقيق

يروي هورنيكا أن مكياً مرموقاً "كباريه" ينتمي إلى أسرة عمل رجالها سابقاً في الإفتاء كان يزوره دائماً. وكان الرجل، مثله مثل سائر المكيين، قد اعتاد أن يسير وبرفقته عبد أسود صغير. وقد أثارني فعلاً الأسلوب المهذب الذي اعتاد زائري أن يخاطب به عبده حين يطلب إليه القيام بأمر ما، كما كان ذلك الرجل أيضاً دائماً ما يدعو خادمي الذي يقف عند الباب لكي يشاركنا المجلس. وقد أثارت تصرفاته من هذا القبيل في معاملة الرقيق والخدم انتباهي كثيراً. قرّظته ذات مرّة على سلوكه، وحمدت له هذه المعاملة، فحكى لي القصة الآتية :

- عندما كنت صغيراً، لم يكن هناك أحنّ عليّ من عبد رقيق لأبي اسمه سالم. أصبح بالنسبة إلي "داد" أو شبيهاً بالأب، وكان سالم لا يني يفعل أي شئ من شأنه أن يدخل البهجة والسرور إلى نفسي، بل يمكن القول إنه أدّبني وأحسن تأديبي. ولكني كنت دائماً كلما قدّم إلي خدمة أكلفه بالمزيد. كنت ذات مرّة ألهو في الطابق الثالث من المنزل، وبما أني كنت فتى كسولاً فقد ناديت على سالم الذي كان في الساحة، في فناء الطابق الأرضي، ليأتيني ويناولني لعبة كانت على مرمى حجر مني. ولم يسمع سالم ندائي حتى بعد أن طلبته عبر النافذة. ورحت أزعق زعيقاً مشوباً بغضب: يا سالم، يا سالم، لقد قلت لك اصعد إلى هنا. ولكن سالم لم يسمع زعيقي، فاشتد بي الغضب ورحت أصيح: أنت يا سالم، يا وغد، ألا تسمعني؟ في هذه الأثناء جاء والدي ووقف خلفي ولم أشعر بوجوده، وإذا به يصفعني على إحدى أذني صفعة طرحتني أرضاً. ثم جلدني والدي بعدئذ على رجليّ وهو يلقي عليّ مواعظ في ضرورة التأدب مع الأتباع، فمن لا يرحم لن يرجو رحمة الله. وطلب إليّ أبي أن أنزل من فوري إلى الطابق الأرضي لأعتذر للعبد الرقيق الذي لم يكن يعلم من الأمر شيئاً. وما زلت منذ ذلك الوقت إلى اليوم أتذكر الصفعة التي تلقيتها من والدي، ولم أنسَ الدرس الذي لقّنني إياه، كذلك أصبحت

منذ ذلك الوقت أقدّر بحقّ عطف "داد" سالم عليّ بعد أن عدل ذلك الدرس سلوكي تجاه أولئك الذين وهبهم الله لنا ليكونوا عبيداً في خدمتنا. ويصف الرحالة العبيد بسعادة الحال، فهم يعاملون كأفراد من الأسرة، ويرى أن العديد منهم يفضلون حياة العبودية ولا يتطلعون إلى العتق الذي يلزمهم للقيام بأعباء معيشتهم التي كانت مكفولة في بيوت سادتهم، ويضيف أن من حقّ العبد إذا لم يرضَ عن سيده أن يعلمه بذلك صراحة ويطلب إليه أن يبيعه إلى سيد آخر، وسيجد من سيده استجابة لطلبه العادل. ويرى هورنيكا أن الإجراءات الأوروبية في قمع تجارة الرقيق قد أفضت إلى الشرّ أكثر مما جلبت من الخير. ويسترسل هورنيكا فيصف الجواري الحبشيات اللاتي تبدي سحناتهن كافة ألوان الطيف في ما بين الأصفر الفاتح إلى البني الغامق، وأنهن يجدن من التقدير لدى المكيين وحسن التعامل ما لا تجده الزوجة. كذلك يحدثنا عن الشركسيات اللواتي يُؤتى بهن إلى مكة من إستانبول، وأنهن أغلى ثمناً من الحبشيات، أما الزنجيات فيوكل إليهن القيام بالأعمال المنزلية وأعمال المطبخ، وذلك لما يتمتعن به من بنية جسدية قوية.

الزمازمة

تعتبر سقاية الحاج من الأمور الوراثية لبني العباس، ولكنهم منذ أن تخلوا عن ذلك الحق فُتحت زمزم للجميع، ولذلك فإننا نجد أن السور السميك الذي تقع بداخله عين زمزم لا يزال مفتوحاً لكل راغب في الإفادة من مائها. ومن الناحية النظرية، فإن كل فرد يستطيع أن يتسلق ذلك الجدار ثم يدلي بدلو جلدي بين فتحات الشبك الحديدي إلى البئر، ولكن على وجه العموم نجد أن الفقراء والآخرين من الذين يقدمون خدماتهم للزوار يحتلون دائماً الأماكن الأكثر ملاءمة لسحب المياه، فيسحبونها للزائر، ويقدمونها إليه، ويطلبون على ذلك أجراً بطريقة صريحة. كما توجد طائفة ممن يعرفون بالزمازمة يحتكرون توزيع مياه هذه البئر. وعموماً، فإن على كل راغب في الحصول على مياه زمزم طازجة تماماً، وعلى كل من يسعى لسكب مياهها على جسده، أن يذهب إلى ذلك المبنى ويحقق غرضه. أما المكيّون فإنهم عادة ما يذهبون إلى هناك لملء جرارهم من مياه تلك البئر. وبصفة عامة فإن حراس الأماكن المقدسة وما إليها، وكذلك خدم المسجد والبوابون يقدمون خدماتهم إلى أهل مكة من دون أن يطلبوا على ذلك أجراً. ويسعد هؤلاء العاملون بأن تكون الروابط بينهم وبين كافة المكيين طيبة، وذلك لأن لكل فرد من مواطني مكّة أصدقاء من الحجاج، وستمكن تلك الروابط الطيبة لأولئك العاملين من استغلال نفوذ المكيين ومقاسمتهم الأرباح التي يجنونها من الحجاج.

ويجب أن تكون للزمازمة في المسجد:

١. جرار فخارية كبيرة توضع على قوائم خشبية، تربط عليها بالسلاسل بعض الأكواب المعدنية.

٢. جرار تبريد فخارية مسامية "دوارق". ونجد عدّة عشرات من هذه الدوارق تجهز وتوضع في الأماكن الأبرد هواءً في جوانب المسجد.

وقد استحدث الزمازمة أنفسهم استعمال كلا هذين النوعين من هذه الجرار. فالجرار الكبيرة التي لا ترطب الماء كثيراً هي تلك التي يشرب منها الفقراء من مرتادي المسجد. أما الأوفر حظاً من زوار المسجد فيخدمهم الزمازمة وذلك بتقديم الماء لهم في أكواب نحاسية من الجرار الأصغر حجماً، والأكثر برودة. ومن الناحية النظرية، فإن أي شخص يستطيع أن يقيم سبيلاً للعموم مستخدماً جراراً من أي من النوعين، وموظفاً لحسابه أحد الأفراد ليقوم بأعباء ملء الجرار، وتوزيع الماء على الشاربين بانتظام. ومن المعهود أيضاً أن تُوكل مثل هذه الخدمات تقليدياً إلى الزمازمة فقط. وبالرغم من تعهد هؤلاء الزمازمة للمنفقين على السبيل سلفاً بأنهم سيعملون لخدمة المصلحة العامة، وأنهم سيقدمون الماء للجمهور نظير الأجر الذي يتلقونه من أولئك المتبرعين، إلا أنهم من الناحية الفعلية، لا يخدمون من الغرباء إلا أولئك الذين يدفعون لهم ما يقابل خدماتهم. فالأجنبي ما إن يصل مكة المكرمّة حتى يدفع للزمزمي الذي أشير إليه به ريالاً واحداً على الأقل، ويشتري الزمزمي بذلك الريال جرّة لترطيب المياه يكتب عليها اسم المتبرع، ويضيفها إلى الجرار التي في حوزته. ونرى الزمزمي بعدئذ، وبنحو دائم، يهرع إلى مقابلة ذلك الحاج المتبرع حاملاً دورقه، ولن يفشل في اقتناص الفرص التي تهيّئها الظروف للفت انتباه ذلك الزائر وترغيبه في توسيع دائرة تلك المؤسسة الخيرية "السبيل". كذلك يتوقع الزمزمي من مثل هذا الزائر عطاءً خاصاً حين يسكب له الماء على جسده، وذلك لمقابلة هذه الخدمة الإضافية أيضاً. ويحاول الزمزمي دائماً أن يقنع ذلك الزائر بأن الحصر والسجاد التي تفرش لاستعمال المتعبدين في المسجد قد أخذت تبلى، وأنها في حاجة إلى تجديد، وأن ذلك العمل يُعدّ من أعمال البرّ الذي يقع على الزائر أن يسهم فيها. وباختصار، فإننا نرى مثل هذا الزمزمي يضغط، وباستمرار، على سيور محفظة القادم الجديد ليستنزفها.

يستطيع الرجل الذي ينفق بسخاء أن يحصل كل يوم على جرّة مملوءة بالماء يؤتى بها إلى منزله، كما يستطيع أيضاً أن يحصل على أعداد كبيرة من هذه الجرار المليئة خلال شهر رمضان، وذلك لاستعمال كافة النزلاء في منزل ذلك الزبون ليتمكنوا من أن يبدأوا إفطارهم بماء زمزم. ويضمن الزمازمة بذلك أن التهانئ التي يقدمونها للزبائن في نهاية هذا الشهر لن تذهب هباءً، من دون عطاء. وأذكر هنا خبر اثنين من الزمازمة جاءا إلى منزلي لملء الدوارق، وجرت بين الاثنين مشاجرة على الدرج انتهت بسقوط كليهما، وكسر جرّتيهما.

يحصل الخدم المسؤولون عن البئر على أرباح كبيرة من تعبئة آنية الصفيح والآنية الزجاجية

بماء زمزم، وإعدادها للتصدير. وإذا تمكن الزمزمي من التحدث بلغات أجنبية عدّة، فتلك ميزة تجعله أدعى إلى كسب ثقة زبائنه، فيبزّ منافسيه. تهتم الحكومة بمهنة الزمازمة التي تُعدّ من المهن المجزية وتؤمن لمتهنيها الحماية، وذلك بموجب "تقرير رخصة" يصدرها الشريف، ويتعذر بطبيعة الحال الحصول على هذا "التقرير" مجاناً.

المطوفون ومن إليهم

تقع خارج دائرة الحرم عدّة أماكن مقدسة لا يستطيع المرء زيارتها إلا بعد تقديم هدية ما لمالكها أو للمسؤول عن حراستها. من هذه الأماكن "مسقط ستنا فاطمة"، وهو المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة، والذي كان بيتاً ومستقراً للرسول صلى الله عليه وسلم وزوجته السيدة خديجة لعدّة سنوات. ويستطيع الزائر لذلك المكان أن يُقبّل حجراً مُفرّغاً في منتصفه، يقال إنه شهد مولد السيدة فاطمة حيث تلقاها وشهدت عيناها النور لأول مرّة عليه. كما يستطيع المرء زيارة مسكن أبي بكر رضي الله عنه وكذلك المنازل الأخرى التي ولد فيها كل من الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما. ونجد في هذه المنازل أحجاراً سوداء وخضراء يسعى الناس إلى تقبيلها. وقد وُضعت على قوائم خشبية مغطاة بالسجاد، مثلها مثل تلك القوائم التي نجدها في أماكن أخرى من الأضرحة في مقابر المعلاة وفي قبتي السيدتين خديجة وآمنة، وكذلك في مسجد الجنّ حيث نزلت السورة الثانية والسبعون على الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي المقابر القريبة من ذلك المسجد هناك أماكن لا تُحصى لها أهمية تاريخية يمكن الزائر الوقوف عليها، ولكنها لا تظفر بشعبية كسابقاتها.

يقوم حراس هذه الأماكن المذكورة بدور الملقن للأدعية المأثورة. وترى الحاج يردد ما يقوله ذلك الرجل جملة بعد جملة، وعادة ما يختم الزائر دعاءه بفاتحة الكتاب على روح الولي القابع في ذلك المكان. ويعتقد ذلك الزائر أنه قد وجد بزيارته هذه "شاهداً موثوقاً به في يوم القيامة"، يؤكد إيمانه، ويشهد عليه. أما الأماكن المقدسة الأخرى المفتوحة للجمهور من دون حراسة فتجد فيها عدداً من المتطفلين المستقرين عندها كشحاذين أو كملقنين، يقلقون راحة الحجاج في الغالب بتهافتهم عليهم. وليس لهؤلاء المتطفلين أيّ صفة رسمية، ولكنهم دائماً يؤكدون بقبضات أيديهم حقوقهم المكتسبة حتى لا يتغول عليها المتنافسون.

يكسب القسم الأكبر من المكيين أرزاقهم بنحو غير مباشر من زوار الأماكن المقدسة، ولا يهمهم ما إذا كان الزائر الغريب يعرف واجبات الحجّ والعمرة وسننهما أو لا يعرفها. وفي الحقيقة فإن أغلب الوافدين إلى مكة هم من الذين لم يحدث أن تهيّأت لهم فرصة دراسة تلك السنن والفروض، ولهذا فلن يستطيع أي من الزوار أن يستغني عن خدمات رجل يحسن معرفة

تلك الأمور. ويصحّ هذا القول أيضاً عن الحجاج والمعتمرين في الأماكن المقدسة الأخرى. فما إن يطأ الزائر التراب العربي - وغالباً ما يكون ذلك في جدّة - حتى يحتاج إلى دليل لكي يهتم بشؤونه، ويدله في بداية الأمر على قبر حواء، ثم ليؤجر له بعد ذلك الإبل والأدلاء للرحلة إلى مكة. وإذا كان الحاج غير عربي، فإن ذلك الدليل سيعينه في الترجمة أيضاً، وفي استئجار المنزل، وفي مقتضيات الإقامة في مكة، ويساعده في القيام بأعمال التسوق، وما إلى ذلك من أمور. أما الحاج الذي يحاول أن يشق طريقه من دون وسيط رسمي فيلاقي مصاعب جمّة. فالزائر، خاصة في فترة الأسابيع الأولى من وصوله، لن يتمكن من أن يخطو أدنى خطوة، أو أن يدخل في أي علاقات مع الآخرين، أو أن يراجع أي مسؤول، إلا من خلال مطوّف. هذا والجدير بالذكر أن كلمة مطوّف اشتقت من الطواف حول الكعبة، ولكن الكلمة تطلق عموماً على كافة العاملين الذين يدلّون الغرباء، ويتولون تدبير شؤونهم.

تعتبر طائفة المطوّفين في مكة أبلغ الطوائف أهمية. يعمل في هذه المهنة مطوّفون صغار يُسيّرون أعمالهم بأنفسهم وبمساعدة أفراد عائلاتهم وخدمهم، ويستعينون - إذا دعت الظروف - بالفقراء من أصدقائهم. أما المطوّفون الأوفر حظاً فإنهم لا يتعاملون شخصياً إلا مع الأمور ذات الأهمية القصوى. ولا يهتمون بنحو خاص إلا بالأثرياء من زبائنهم. أما إجراء العمل الحقيقي، فإن مثل هؤلاء المطوّفين يوكلونه إلى أبنائهم وأقاربهم وعبيدهم وموظفيهم الثابتين أو الموسميين. وتضم طائفة المطوّفين أيضاً متصوفة وفقهاء لا يمارسون المهنة لكنهم يسبغون أسماءهم الفخمة على مؤسسات طوافة يجريها بعض أقاربهم المغمورين الذين يستغلون ذلك الاسم والمكانة التي يتمتع بها ذلك الفقيه أو المتصوف، ثم يجرون بعدئذ على صاحب الاسم قسمة من الأرباح.

يخدم كل مطوف أمّة معينة من الحجاج بعينها، أو قد يتخصّص المطوف أحياناً في خدمة مقاطعة بعينها يجيد لغة أهلها، ويكون بتلك الخاصية المميزة معروفاً لديهم أكثر من غيره. ويستطيع كل مطوف أن يحصل من خلال علاقات العمل على المعلومات الخاصة بوصول أيّ سفينة يكون على متنها حجاج تابعون له.

يذهب المطوف بشخصه إلى جدّة لاستقبال الضيوف المهمين. وقد يرسل المطوف ابنه أو وكيلاً عنه إلى هناك ليشرف على الاستقبال. أما الحجاج الأقل شأناً فيُترك أمرهم لتدبير الوكيل. يقوم هؤلاء المطوفون أو رجالهم بمتابعة الحاج منذ وصول أمتعته من المرسى إلى الساحل بواسطة المركب البحري الصغير "السنبوك والزميعة وقطيرة"، فيؤجرون له الحمالين لترحيل أمتعته إلى المدينة، كما يقومون بقسط كبير في توزيع الهدايا لضباط الجمارك. ويستطيع هؤلاء المطوفون بسرعة أن يسبروا غور زبائنهم، وأن يتعرفو إلى نوعية السكنى التي يرغبون فيها، والمدّة التي سيقضونها، والأمور التي يهتمون بها أكثر من غيرها. ويتمكن المطوفون

منذ البداية من أن يختاروا لكل زبون السكن الذي يناسبه من مجموع المساكن المتاحة لهم.

بعد أن يفرغ الحجاج في جدّة من زيارة أم الخلق "حواء" التي يصل طولها إلى عدّة ياردات، تؤجر لهم الإبل التي ستأخذهم في رحلتهم القادمة ويرتدون ملابس الإحرام، ويبدأون من ثمّ رحلتهم التي تستغرق يومين إلى مكة المكرمّة. وما إن يصل الحاج إلى مكة حتى يقوم من فوره بأداء العمرة ثم ينزع عنه ملابس الإحرام بعد ذلك. ويحتاج الزائر إلى مرشد أو اثنين لمساعدته في أداء العمرة. وهؤلاء المرشدون هم الذين يجب أن نطلق عليه حقاً لقب مطوف كما تفيد الدلالة اللغوية للكلمة. ولكنهم يعملون عادة في خدمة المطوفين فيطلق عليهم لفظ "أدلّاء"، أما إذا كانوا من صغار السن فيطلق عليهم لفظ "صبيان". ويقع على هؤلاء الأدلاء أن يرشدوا الحجاج تحت كافة الظروف، وأن يوجهوا مسارات العطاء الخيري الذي يتدفق من الحجاج دائماً في مثل هذه المناسبات، لتصل الهدايا الخيرية إلى أيدي رفاق العمل الآخرين. فحين يحصل هؤلاء الأصدقاء من الأدلاء على قسمة من هذه النفحات الثمينة يصبح لزاماً عليهم أن يقدموا بدورهم الخدمات لأولئك الوسطاء.

من العادات العامة المتبعة لدى العرب استحقاق الوسيط الذي لم يتدخل سوى ببضع كلمات توصية لدى الجهتين المتعاملتين لهدية صغيرة. وإذا كان الأمر كذلك كما جرت عليه العادة، فما بالك بالمطوفين الذين يفرغون محافظ الحجاج يصبّونها في أسباب الخير، ويعتقدون أن من حقهم الحصول على نسبة من نتاجها؟ يحصل هؤلاء المطوفون على قسمة من الأرباح من كافة الأنشطة التي يتعاملون فيها، اعتباراً من إيجار المنزل، وتكاليف مواد الأكل والسلع الأخرى، ولا يستثنون أيضاً المبالغ التي يأتي بها الحجيج معهم لتنفق على ذمّة الموتى من أقاربهم. كذلك يتلقى المطوفون أيضاً نسبة من إيجار الحمير التي تأخذ الحجاج إلى منطقة التنعيم حين يذهبون إلى هناك لارتداء ملابس الإحرام مرّة أخرى استعداداً للحجّ، وكذلك من المبالغ التي تنفق في شكل صدقات في المقابر، ولا يستثنون أيضاً أن ينالوا حظاً من الهبات التي تعطى ل"المزورين" في تلك المقابر.

تختلف ثقافة المطوفين كما تختلف حياتهم اختلافاً كبيراً. نال بعضهم تعليماً عالياً، وبعضهم لا يمتلك الحد الأدنى من الثقافة، لكن هذه الفئة مع جهلها تؤدي أعمالها التي تدين بازدهارها إلى الأقارب الذين يحتلون مراكز رسمية عُليا. ونجد أن مثل هؤلاء الأشخاص المؤيدين بأقاربهم من الرسميين سرعان ما يرتقون بلمسة سحرية من معاونين إلى مطوفين يعملون لحسابهم الخاص. ويتميز أغلب هؤلاء المعاونين المعتمدين على أقاربهم الرسميين بجهل مُطبق، رغم أنهم يعرفون المراسم مثلهم في ذلك مثل مرافقي زوار المتاحف الذين يعرفون محتويات المجموعات، ولكنهم لا يعون معانيها.

يقع على المطوف في موسم الحجّ أن يتولى عن الحجاج كل أمر يهمّهم. يقع عليه أن يوفر

لهم الإبل، والخيام، والمؤن، والوقود والهدي الذي يسوقونه إلى منى، كما يقع عليه أيضاً أن يهيّئ لهم مساعد مطوف ليفصّل لهم المراسم والشعائر، وليعتني بكافة شؤون الحجاج الذين تناط به مهمة رعايتهم، وعليه أن يتحدث إليهم بلغتهم، وأن يتلو عليهم الأدعية الصحيحة، ويلقنهم ما يجب عليهم قوله في المشاهد المختلفة.

يذهب الحجاج، قبل الحجّ أو بعده، لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. ولا تُعدّ هذه الزيارة إجبارية أو واجبة، بل هي – في أحسن حالاتها – عمل ملحق بالحجّ. ويقع على المطوفين أن يؤجروا للحاج الإبل اللازمة لهذه الرحلة، وأن يجهزوا للإبل محفّاتها "يتدلى شقدف على كل من جانبي البعير" وكذلك المفارش "الحنابل" وهي السجاد الذي يوضع على المحفّة ليقيها وهج الهجير، وكذلك الأسرّة "الفروش" وما إليها.

يرأس شيخ المطوفين جهاز الطوافة، ويمثل مصالحه العامة، ويعمل على حماية تقاليده. ويعمل هذا الشيخ أيضاً على مساعدة الحكومة لإجراء أي تعديلات جديدة في القوانين واللوائح المنظمة لشؤون الحجاج. ويؤلف مطوّفو كل عرق من الأعراق المختلفة مجموعة قائمة بذاتها منغلقة على نفسها بنحو أو بآخر. فحجاج كل منطقة من المناطق الإسلامية في العالم لا يختصّون بلغتهم الخاصة فقط، ولكنهم يتميزون أيضاً بعاداتهم الخاصة، وبالأماكن المقدسة التي يفضّلون زيارتها من دون الأماكن الأخرى. ومن الطبيعي أنينجم عن هذه الفروقات عن نشوء دوائر خدمات خاصة تمثل مصالح خاصة. فإن لكل من الحجاج الأتراك، والمصريين، والمغاربة، والجاوة، طائفة من المطوفين قائمة بذاتها لها شيخها الخاص.

يُعرف كل مطوف من هؤلاء المطوفين بلفظ شيخ، فيقال شيخ الأتراك، وشيخ المصريين، وما إلى ذلك. أما ذلك المطوف الذي يرأس مطوفي الطائفة الواحدة جميعهم فيطلق عليه لفظ شيخ المشايخ. والجدير بالذكر أن كلمة شيخ من الكلمات القليلة التي يتغير معناها تبعاً لظروف استعمالاتها. يقال لرئيس القرية شيخ، ولكبير العائلة شيخ، ولعميد مجموعة من الأسر شيخ أيضاً، كما يحمل هذا اللقب أيضاً شيخ الحي، وشيخ مجموعة من الأعيان. وإذا تحدث أحد الإخوة في حلقة صوفية فذكر عن "شيخنا"، فإنه يشير بذلك إلى رئيسه الروحي، كما يعرّف التلميذ أستاذه بلفظ شيخ أيضاً. ويطلق هذا اللقب ذاته على كبير الفقهاء. كذلك نلاحظ أن استعمال هذا اللفظ في التخاطب بين الأفراد شائع أيضاً، الأمر الذي جعل مدلول هذه الكلمة أكثر شمولاً، وأفضى بها – شأنها شأن الألقاب الشائعة في التخاطب – إلى التدنّي. وعموماً فإن شيخ أي طائفة هو رئيسها، ولهذا فالمطوف هو شيخ الحجاج الموكل بهم.

يستند نظام "الطوافة" على التقاليد فقط. ولهذا، فمن الناحية النظرية، يستطيع كل شخص أن يقدم للحجيج ما يمكن أن يقدمه من الخدمات، ويكسب مالاً لقاء ذلك. ولكن مثل هذا الشخص سيواجه – عملياً – من المصاعب التي يأبى صاحب العقل السليم أن يعرّض نفسه

لها، فهو بذلك سيقلق راحته، ويزجّ باسمه في مخاطر لا قبل له بها. فكل أعضاء هذه الطائفة سيهبّون في وجه مثل هذا الرجل الدخيل هبّة رجل واحد. فهم رغم تنافسهم المتبادل، يتكتّلون وينسون خلافاتهم ويتعصبون لزملاء الطائفة حين يتعاملون مع دخيل على هذه المهنة. ولن يجد هذا الدخيل منهم – في السر والعلن – إلا العداء الصريح. ولن تجد أي عاقل ينصح أي حاج بأن يوكل أمره إلى دخيل كهذا. يحدث مثل هذا التدافع للوقوف ضد كل دخيل بالطبع عند كل طائفة، ولكننا نجد أن طائفة المطوفين هي أكثر الطوائف مراعاة لتقاليد المهنة، فهي أكثر الطوائف أهمية، وأكثرها وفرة في عدد الأفراد، وأبلغها قوّة وتأثيراً. وعلى أي حال، فهناك – على الرغم من هذا – بعض الدخلاء على هذه المهنة من الذين لا يؤبه لهم، ولا يعترف بهم في هذا التنظيم. ويتكون زبائن هؤلاء الدخلاء عادة من الحجاج المعدمين أو من البخلاء الذين لا يبذلون العطاء. ويسمى مثل هؤلاء الدخلاء "جرّارون"، وتراهم يقفون عند مدخل المدينة في انتظار صيدهم، كما تجدهم بالقرب من الحرم، أو في صحنه أحياناً.

قد يفد نفر من الحجاج من أقطار لا يأتي أهلوها إلى شبه الجزيرة العربية إلا نادراً. وحين لا يكون لمثل هؤلاء الزوار شيوخ أو مطوفون معيّنون لرعاية شؤونهم، يقع على رئيس المطوفين تسمية مطوف لهم يتولى شؤونهم. ويمكن هؤلاء الحجاج إذا لم يقبلوا بمن حدده لهم الشيخ أن يستأنفوا قراره لدى السلطات الحكومية. ويقع على شيخ المطوفين كذلك النظر في إدراج أعضاء جدد في هذا التنظيم، كما أن عليه أن يفصل في حدّة المنافسة التي قد تحدث جراء زيادة عدد أعضاء هذه الطائفة. ويقع عليه أيضاً أن ينظر في أن المرشح للعضوية يتمتع بسلوك مشرف، وبكفاءة مشهودة، كذلك موازنة كافة ما ترجح كفته للدخول في الجماعة. ومع ذلك، سيكون من الصعب على شيخ المطوفين – وهو موظف حكومي – أن يرفض قبول مرشح أوصى به بعض كبار الموظفين. كذلك يمكن مرشحين آخرين أن يزكّوا أنفسهم بواسطة بعض ذوي النفوذ أو بتقديم هدايا قيمة للشيخ كعربون لقبولهم. وتلعب الأهواء الخاصة أيضاً دورها في هذا المجال، وذلك بالرغم من أن مثل هذا الشيخ يعلن دائماً أنه والد للجميع يكنّ لكل أبنائه القدر نفسه من الود، ويحدب على مصالحهم جميعاً، ويرعاها من دون تمييز.

لإشهار قبول عضو جديد في هذه الطائفة يدعو المرشح "المقبول" كل أعضاء الطائفة إلى حفل صغير، وتسمى هذه الدعوة "معلمية". وفي ذلك الحفل يقول المرشح مخاطباً الشيخ أمام هذا الجمع: أطلب إلى شيخنا أن يسمح لي بممارسة هذه المهنة التي هيّأها لي الله. وهنا يسأل الحاضرون: ومن هو الشيخ؟ فيردّ المرشح ذاكراً اسم الشيخ تعييناً. وينبري ذلك الشيخ من ثمّ ليسأل ذلك المرشح عمّا إذا كان سيتقيّد بتوجيهاته، وسيصبح أخاً لأبنائه، أبناء الشيخ الآخرين من زملاء الطائفة. ويرد الرجل بالإيجاب. وهنا يقوم كل الحاضرين، بمن فيهم المدعوون من خارج دائرة الطائفة، بتلاوة فاتحة الكتاب همساً. والجدير بالذكر أن فاتحة الكتاب توثّق كل

القرارات المهمة، كما تُتلى الفاتحة عقب كل دعاء في الأماكن المقدسة، وتستقبل بالفاتحة أيضاً كافة الأخبار السارة. ولهذا فإنه حين يشار إلى اعتماد عضو حديث العضوية في هذه الطائفة يقال إنه "قرأ الفاتحة مع الشيخ".

تُعيّن الحكومة شيخ الطائفة وتمنحه جُبّة لمناسبة تعيينه، ولهذا يشار إلى تعيينه مجازاً بكلمة "لبس"، أي إنه لبس جُبّة الحكومة. بناءً على ذلك، فإن الشيخ لا يدين بأي استحقاقات لزملائه الآخرين، فالوظيفة قد نالها من الحكومة، وليس بجهود أي منهم ولا بترشيحه أو معاضدته. وعادة ما يستمتع الشيوخ مع زميلهم المعيّن حديثاً من قبل الحكومة بوليمة يقدم لهم فيها الطعام أو القهوة وتوابعها من الحلوى. وتنتهي الوليمة بدعاء الحاضرين للشيخ المعيّن بالتوفيق.

لا تمتد الطاعة التي يجب أن يقدمها أعضاء الطائفة لشيخهم وراء حدود أداء ذلك العمل، بل إننا نجد أنه حتى في المسائل المتعلقة بأداء ذلك العمل فإن أعضاء هذه الطائفة مقيدون بنطاق القانون الحكومي. ولكن الأعضاء يدركون - على أي حال - أن الحكومة دائبة التشاور مع ذلك الشيخ بصفة مباشرة في كل المسائل المتصلة بشؤونهم، كما يدركون أيضاً أن شيخهم لن يسعد إذا بدرت من أي منهم أدنى بادرة لتسيير الأمور من وراء ظهره بالاتصال المباشر.

منازل مكّة

يقول هورنيكا إن هناك مصدرِ دخل مهم مكفول لكل المكيين يتمثل في إيجار المنازل في موسم الحجّ. ولا توجد في مكّة فنادق لاستقبال الزوار، ولكن في الشهور الأخيرة من كلِ سنة "هجرية"، فإن كل مكي يصبح صاحب فندق، يستوي في ذلك من يشغل منزلاً كاملاً ومن يسكن في طابق أوِ حتى في نصف طابق من أي مبنى.

بُنيت كافة منازل مكة من الحجر المجلوب من الجبال المجاورة للمدينة. وقد شيدت أميز بيوت البلدة بحجر الشميسي المستخرج من جبل الشميسي قرب حدود الحرم في اتجاه طريق جدّة. ويختلف أسلوب المنازل الأكثر بساطة التيِ تسقف بعوارض يجعلون فوقها حصراً مجدولة من سعف النخيل، ثم يفرشون فوقها رملاً. أما الأشراف والأثرياء من التجار فإنهم يستقدمون المهندسين الإستانبوليين والسوريين الذين يستخدمون مواد بناء أقوى من سابقتيها، وأكثر صلابة، كما يستخدمون نوعاً من الأسمنت يسمى "الطبطاب" للعتبات، لإقامة الطوابق العليا، وتعالج المصاطب والردهات في المنازل القديمة الطراز التي يجري تحديثها بهذه المادة أيضاً، ويجري تغيير العتبات العالية غير المتناسقة الارتفاع، المصنوعة من الحجر غير المعالج بأخرى تصنع من مادة الطبطاب أيضاً، وذلك في حالة إمكان إجراء التعديل من دون الإضرار بأصل المبنى.

لا تتميز بيوت مكّة بنسق معماري موحّد، ومن الصعوبة أن نثبت وصفاً عاماً يصلح أن نتخذه نموذجاً لسائر منازل البلدة، ولكننا، مع هذا، نستطيع أن نثبت سمات عامة لبيوت مكّة كلها مهما بلغت الاختلافات الأخرى. عندما تدخل البيت المكي وتجتاز الباب تصل إلى الدهليز مباشرة، وهو أرض فُرش سطحها بالرمل أو مُلّطت ب"الطبطاب"، وترى في كل دهليز من دهاليز المنازل الصغيرة أريكتين خشبيتين تشابه الأرائك التي نجدها في سائر مقاهي البلدة. ويستقبل صاحب المنزل – إذا كان من المتصرفين في الطابق الأرضي أو الطابق الأول – ضيوفه العابرين في هذا المكان، كما يستقبل في الدهليز أيضاً جموع الزائرين من غير موعد.

تفتح على جانب من جوانب هذا الدهليز أو على جانبين منه غرف صغيرة تسمى "مقاعد". والملاحظ أن سطح أرض هذه الغرف الجانبية أعلى من سطح أرض الدهليز، وذلك تجنباً لدخول مياه السيل إليها. وتستخدم هذه المقاعد كمكاتب لإجراء المعاملات، كما يمكن صاحبها أن يستقبل فيها بعض المعارف أحياناً، وربما يستضيف فيها "شلة" صغيرة من المعارف اللصيقين، كما يمكن أن تستعمل تلك الغرف أحياناً غرفاً للنوم، أو ربما استخدمت – مثل بعض أجزاء أخرى من الدهليز ذاته – مخزناً للأمتعة والسلع.

أما دهاليز المنازل الأرقى فهي مهيبة فخمة يُصعد إلى الجزء الخلفي منها ببضع عتبات. ويُفرش هذا الجزء الخلفي بالسجاد، وتُسند إلى جدرانه بعض المساند والوسائد للجلوس عليها أو الاضطجاع فوقها. وقد ساد في الآونة الأخيرة تقليد جديد، وهو وضع هذه الوسائد على أرائك "كراويت" خشبية يُصف بعضها إلى جوار بعض على امتداد الجدران، فتبدو كأنها منجّدة.

أما الديوان في المنازل الكبيرة فيخصص للمقابلات العادية، وفيه يتناول الرجال طعامهم عندما يزورهم فجأة ضيوف، كما يستقبلون فيه الأصدقاء. والديوان مع الغرف المجاورة له مكان لائق لاستضافة أرفع الضيوف مكانة، ولا حاجة إلى صعودهم إلى الطوابق العليا من المسكن. أما الغرف المجاورة للديوان فتجهز لتفي بكافة أغراض الاستقبال، فيمكن أن تستخدم إحداها غرفة مكتبة أو مكتباً، كما يمكن "شلّة" الأصدقاء الذين يريدون أن يستأنسوا من دون أن يزعجهم الضجيج الصادر من المتعاملين في الدهليز أن يستخدموا غرفة أخرى من هذه الملحقات.

في هذا الطابق – كما في الطوابق العليا – "بيت الماء" أو بيت "الطهارة" كما يقول العامة، وهو مبنى مجهّز كحمام. ويحتوي "بيت الماء" على جرّة فخارية كبيرة "زير" يوضع فيه الماء الذي يستعمل لكافة متطلبات هذا الطابق من المنزل، ويفصل منطقة "الزير" عن المرحاض جدار ضعيف. ويضمّ المرحاض مقعداً يصل علوّه إلى حوالى دسيمتر فوق مستوى أرض الغرفة، به فتحة في المنتصف كأنها الشقّ المتسع، ويجلس الإنسان هناك مقرفصاً لقضاء الحاجة.

يدخل المرء إلى المرحاض ومعه إناء صغير "إبريق" يحوي ماء الطهور الأول "الاستنجاء"، أما الطهور الآخر الأكبر منه "الجنابة"، وكذلك الأصغر الذي تتطلبه شعائر العبادة "الوضوء"، أو الاستحمام وتبريد الجسم، فمكانه منطقة أخرى من ذلك المرحاض.

حين يهمّ المرء بالطهور الأكبر، فإنه يسكب علي جسده الماء الذي يؤخذ من ذلك "الزير" بواسطة إناء معدني يسمى "المغراف" يوضع دائماً فوق الغطاء الخشبي للزير، وبهذا يملأون الجرار الطينية التي تستعمل لماء الشرب، ولآنية الغسل، ولأدوات المطبخ، وقد نجد من خدم المنزل من يشرب بتلك المغارف نفسها. يميل سطح أرض هذه البقعة من المرحاض في اتجاهات متعددة، وذلك حتى يجد الماء طريقه إلى الأنابيب التي تخترق الجدار ليصبّ خارجه. والآن يجدر بنا أن نغادر هذا المكان الذي لا يذكر فيه اسم الله، والذي فيه إلى جانب الصراصير، كافة أنواع الشرور غير المنظورة، والتي يمكن الشخص التقيّ أن يقي نفسه منها بأن يقرأ قبل دخوله الآية التاسعة والسبعين من السورة السابعة والثلاثين: "سلام على نوح في العالمين"!

يضم الطابق الأرضي لبعض المنازل عدّة غرف لا تفتح في الدهليز، وهي تشكل الديوان في بعض المنازل. ويقيم الأثرياء من أهل مكة عادة خزاناً حجرياً "بركة" في أرض مثل تلك الغرف تسكب فيها بضع مئات من دلاء الماء، وذلك لتلطيف جوّ المنطقة المحيطة بها مباشرة بواسطة التبخر.

لن تواجَه في الطابق السفلي من البيوت المكّية أبداً بخطر مقابلة النساء، ولكن ربما تصادف بين الحين والآخر أشكالاً محجّبة تمرّ في طريقها إلى داخل المنزل، إلا أن مثل هذا الأمر لن يستدعي إثارة القلق. وعموماً فالمرء لا يستطيع أن يصعد الدرج، أو أن يقصد الطوابق العليا من المنزل الذي تشغله أسرة واحدة إلا بإذن من البواب، أو بصحبة أحد أصحاب المنزل، ولكن في المدينة العربية الكبيرة، فإن أغلب السكان – على أيّ حال – لا يجدون مناصاً من أن يشغلوا طابقاً واحداً فقط، أو ربما نصف طابق، في المنازل التي ترتفع ثلاثة أو أربعة طوابق. ويستطيع الأشخاص المحترمون – بشيء من الحرص – صعود الدرج لزيارة معارفهم في أي من هذه الطوابق في مثل تلك المنازل. وعلى الشخص وهو يصعد الدرج أن يحترس جداً في كل خطوة يخطوها، وأن ينادي في كل لحظة باسم من أسماء الفرد الصمد، نداءً فيه تلميح ظاهر بالهدف منه: "يا ساتر"، وذلك حتى تتمكن النساء اللائي قد يتصادف مرورهن من غرفة إلى أخرى – من دون حجاب – أن يحجبن أنفسهن ويفسحن للزائر الطريق. وحين يصبح الزائر في الطابق الذي يرغب في زيارة ساكنيه، عليه أن ينادي باسم الساكن، فإذا لم يسمع تصفيقاً من إحدى النساء يدل على عدم وجود الرجل في المنزل، فله أن يتابع خطاه في اتجاه الباب، وسرعان ما سيظهر له الرجل الذي يقصده.

يمرّ الزائر أحياناً في الدرج بأبواب خلفها دواليب كبيرة، أو مخازن، أو مطابخ صغيرة

يدخلها الضوء من الباحة، وعادة ما تكون مثل الأبنية خاصة في الطابق الذي يليها. وتختلف أعداد المقصورات ومساحاتها في كل طابق عن الطابق الآخر، كما تختلف أيضاً دورات المياه التي لا غنى عنها في مثل هذه المنازل اختلافاً كبيراً جداً. أما في المنازل الفضلى بنياناً، فإن كل طابق فيها يماثل الطابق الذي يليه، غير أننا نلاحظ – في الغالب – أن مساحات الطوابق العليا تتقلص في العادة، وذلك لتجاوز السطح جزءاً من المساحة المبنيّة، أو لتوقف أعمال التشييد نتيجة قصور مالي أحياناً. نجد مثلاً أن ربع مساحة الطابق الأرضي في مثل هذه المنازل تشغلها المساحات المفتوحة عادة في الطابق الأعلى، ولذا يكاد يكون من المحقق أيضاً أن يخسر الطابق الذي يليه مساحة مماثلة للسطح.

يعتبر السطح المنطقة الأكثر خصوصية في المسكن، ولا يرجع ذلك إلى كونه مستخدماً لكافة الأغراض المنزلية مثل نشر الغسيل وتجفيفه فحسب، ولكننا نجد أيضاً ربّ المنزل وأسرته عادة يستمتعون برطوبة الهواء النسبية مساءً، كما يستخدم السطح أيضاً كمكان للنوم في المواسم الحارة من السنة، ولهذا تُبنى في العادة جدران من الطوب حول السطح لحجب أنظار الغرباء الوقحين. ويُنظم الطوب في مثل هذا الجدار بعضه فوق بعض بحيث يسمح بوجود فراغ بين كل طوبتين لمرور الهواء. ومن هنا كان الحرص على أن يكون لكل أسرة سطح خاص بها، أما إذا استدعى الأمر أن يستخدم عدّة أزواج سطحاً واحداً، فيمكن في هذه الحالة تقسيمه إلى أجزاء منفصلة بستائر أو بفواصل. وانطلاقاً من هذه الوظيفة التي يؤديها السطح، فإننا عادة ما نجد عليه غرفة صغيرة غير عالية تسمى "المبيت" تضمّ سرير الزواج. وعلى السطح أيضاً يجد الشباب، وكذلك العبيد، مكاناً مريحاً للنوم، بالرغم من أنك قد تجد مثل هؤلاء الشباب أو العبيد ممدّدين أحياناً على الأرائك الموضوعة عند باب المنزل، أو على أرائك المقاهي، مثلهم في ذلك مثل الأشخاص الأكثر فقراً. وبالرغم من أن المكيين لا ينامون في مواسم البرد في الفناء المكشوف خارج الغرف، إلا أن للقليل منهم غرفة نوم خاصة به. وفي الحقيقة لا يحتاجون إلى مثل هذا الترف، فهم يستحمّون في مقصورة المرحاض، كما أنهم لا يبدِّلون ملابسهم عند النوم، ولا ينزعون عنهم إلا "الجبة والعناتري والشاهية" التي لا تصلح لباساً للمنزل. وعلى ذلك يمكن الرجل أن يضع سريره في أي منطقة من المنزل يراها مناسبة لنومه، فتجد المكيين يتحرون عن الأماكن ذات الهواء الجاف لوضع أسرّتهم عندها. ويستلقي الكثير منهم ببساطة فوق "طراحات" أو مساند أو وسائد "مخدات"، ولا تكاد تخلو غرفة في المنزل من هذه الطراحات والمخدات، ما يجعل كافة الغرف صالحة للاستعمال كغرف نوم. يستنزف المكّيون وقتاً طويلاً في النوم أثناء فترة القيلولة، وينام الرجل ما عنّ له ذلك، أو وجد الفرصة المواتية للنوم. أما الليالي – خاصة حين يبرد النسيم – فتخصّص أوقاتها عادة – كلياً أو جزئياً – للمناسبات الاجتماعية.

تقع غرفة الجلوس في مقدمة المنزل في مواجهة الشارع، ولكل طابق غرفة جلوسه "مجلسه" التي تمتاز بوفرة النوافذ. وتوضع المقاعد المزودة بالمساند والوسائد عادة قرب تلك النوافذ، وتحاط النوافذ الوسطى "براشانٍ" التي تبرز من المبنى وتطلّ على الشارع بشباك خشبي "شبك"، به ثقوب صغيرة لا تُمكّن المارة من رؤية ما يجري داخل الغرفة، وتُزود كل نافذة بمزلاج صغير يُرفع ليفتح أو ينزل ليقفل، ويثبت ذلك المزلاج عادة بمشابك صغيرة. وعندما تفتح النافذة يمكن أن تطالعك ستارة ملونة من أعواد رقيقة صغيرة نُظم بعضها إلى جوار بعض حتى غدت كأنها نسيج الحصير شكلاً. ويمكن أن نجد أيضاً "كراويت" قد بنيت على امتداد جدران الغرفة. وتفصل الحصر المصنوعة من سعف النخيل بين أرض الغرفة والسجاد المفروش فوقها، وذلك لحفظ هذا السجاد النفيس من التلف.

يمرّ الشخص الداخل إلى غرفة الجلوس الرئيسة عادة عبر غرفة انتظار أصغر مساحة، صمّمت لتؤدي الغرض نفسه، وتسمى: "الصّفة"، ويمكن أن يستقبل المرء فيها ضيوفه، وذلك في حالة وجود نساء في غرفة الجلوس، كما يستخدم "الصّفة" أيضاً المقرّبون من صاحب المنزل "المباشرون" الذين عليهم واجب خدمة الضيوف الآخرين في المجلس الرئيس في الولائم التي تقام لبعض ذوي الشأن. وفي غرفة الجلوس وعلى كلا جانبيها، وكذلك في "الصّفة"- إن كان هناك متّسع - دواليب حائط صغيرة، ومخازن كبيرة، وملحقات يطلق عليها في العادة اسم "الخزانة". وقد تستخدم بعض هذه الملحقات لإعداد الطعام، فيطلق عليها في هذه الحالة اسم مطبخ. ويمكن أن تلجأ زوجة صاحب الدار إلى الخزانة إذا صادف وجودها في غرفة الجلوس مع زوجها، ثم جاء زائر غريب، أما إذا كانت تلك الخزانة كثيبة، لا تصلح للانتظار، فإن فيها باباً جانبياً يمكن أن تعبر الزوجة منه إلى داخل منزلها. ولا توجد في الطابق الواحد عادة إلا غرفة جلوس واحدة، إلا في البيوت الكبيرة حيث الأمر مختلف، إذ نجد أكثر من غرفة للضيوف، أما الغرف الأخرى في هذا الطابق ذاته فليس هناك عرف يحكم توزيعها، أو يحدد أنماط استعمالها. وفي هذا الصدد يمكن أن نذكّر بوجود غرفة جلوس أخرى أصغر من غرفة الجلوس الأساس، تطلّ على فناء الدار، أو على الشارع الخلفي، وتسمى "مئخار".

حين تتقاسم عدّة أسر سَكَنَ طابقٍ واحد فإنها تضع الفواصل اللازمة، مستخدمة في ذلك الستائر، وألواح الخشب، وغيرها. وعلى كل الأحوال، يجب على الإنسان أن يأنس من جيرانه حرصاً على عرضه، ويمكن أن نلاحظ أن من العادات الحميدة السائدة في مكة الالتزام بمساعدة الجيران في المناسبات الطارئة. فعلى سبيل المثال: على الجار أن يمكّن جاره في مثل تلك المناسبات من الغرف الخاصة به، وأن يعيره المعدّات الأخرى اللازمة، ولا يستثنون حتى الملابس، يعيرها بعضهم بعضاً في المناسبات الاجتماعية، ولذا نستطيع أن نفهم كيف يصدق في مكة المثل القائل: "الجار قبل الدار".

إذا أساء بعض الساكنين الذين يتقاسمون المنزل الواحد السلوك، فإن ذلك يعطي الساكن المتضرر حقّ فسخ العقد مع صاحب المنزل. وفي هذه المساكن المشتركة تجد سكاناً آخرين دائمين لا يتركون أحداً إلا آذوه، وتلك هي جماعات القطط والضِّباب وأسراب الحمام، كما نجد أحياناً ضيوفاً آخرين نادري الزيارة وهي الثعابين. وتتكاثر في هذا البلد الحرام التي لا يسمح فيها بإهدار حياة أي ذي روح إلا ما كان من أمر قتل بعض الوحوش الضارة مثل هذه المخلوقات، كما يحظر هنا أيضاً ذبح أي من الحيوانات ما خلا الحيوانات المخصصة للذبح. والجدير بالذكر أن الحمام هنا كثير، ويمتد وجوده إلى فترة ما قبل الإسلام.

حينما يبتعد المرء عن الشارع العام، يدخل إلى المنطقة التي تسودها المساكن ذات الطابق الواحد، أما إذا ابتعد عن قلب المدينة أكثر من ذلك، وبلغ المناطق الطرفية، فسيجد أن المنازل لا تزيد عن كونها أعشاشاً "عشاشة" يأوي إليها المعوزون والشحاذون.

يقضي بعض المكيين الليل في المسجد الحرام، لأسباب منها: أنهم قد يتطلعون إلى رؤية كشفية، أو ربما كانوا هاربين من أشياء غير سارة يتحاشونها في منازلهم، أما الفقراء والبخلاء من الحجاج فإنهم يتخيرون أماكن مكشوفة في العراء، يقضون فيها الليل، علماً بأن لأغلبهم مأوى يضعون فيه متاعهم، وقد يستخدمونه للنوم أحياناً.

مكّة في المحرم

في المحرم من كل عام تأخذ الدوامة المحمومة التي وصلت إلى ذروتها في موسم الحجّ في الانحسار. لقد غادر جدّة في هذا الوقت العديد من الحجاج بالبخاريات، ولا يزال المطوّفون يدفعون كل أسبوع بأفواج أخرى من الحجيج إلى ذلك الميناء. ويكسب السماسرة والوسطاء جراء هذه الحركة بعض المال لجهودهم التي يبذلونها في خدمة مصالح بعض شركات الملاحة، أما الحجاج الآخرون الذين لم يغادروا مكة واختاروا البقاء فيها بغرض العبادة والتمتع، فقد ألقوا عصا الترحال، وأخذوا يستعدون لممارسة حياتهم الجديدة. في هذا الوقت يبدأ المجتمع لملمة أطرافه التي كانت قد تناثرت حيناً، ويستعيد شكله القديم.

لا يخلد المكيون جميعهم إلى الراحة والترويح عن النفس، فقد نجد منهم تجاراً يسافرون في هذه الفترة في رحلات تجارية، كما يسافر أيضاً بعض وكلاء الحجّ إلى أقاصي أصقاع الأرض على نفقة مطوّفيهم، ليبذلوا كل جهودهم من أجل كسب حجاج جدد لموسم الحجّ القادم. ومع ذلك نجد العديد من المكيين لم يألفوا الأسفار، ولم يحدث أن سافروا طيلة حياتهم إلى أبعد من الطائف أو المدينة المنّورة، بل إنهم ربما لم يذهبوا إلى جدّة إلا مضطرين. تشرّب هؤلاء منذ نعومة أظفارهم خوف الاجتماع بالكفار الذين تعطيهم سحناتهم البيضاء شبهاً بالمصابين

بالبرص، أولئك الكفار الذين لا يتطلعون إلى السماء إنما يمشون مكبين على وجوههم كالأنعام. تعلم هؤلاء المكيون من أمهاتهم أن الكفار وحوش مزعجة، تختلط نساؤهم برجالهم، يعبّون جميعاً الخمر عبّاً، وهم إلى ذلك قذرون يدخلون إلى الحجرات بنعالهم، ولا يعرفون كيف يتطهرون من النجاسة الصغرى والكبرى، غلاظ الطبع، يرفعون أصواتهم ويقهقهون كالضباع، ويبدأون الحديث فجأة بنبرات مختلجة وإن لم يكونوا سكارى. هؤلاء الكفار الذين لا دين لهم، يهبهم الله خير هذه الدار الدنيا ثم يموتون في السبت غالباً من دون ألم، ليلاقوا العذاب المقيم في الجحيم. في الحقيقة إن جهود فقهاء المسلمين في استنكار مثل هذه الأفكار والمتواترات الأخرى الموروثة في المجتمع المكي تذهب سدى، ولا يزال المكي يخشى لقاء الكفار أكثر مما يخشى لقاء الأشباح.

نرجع إلى القول: إن الكثير من المكيين يبقون في ديارهم بعد موسم الحجّ يعبّون من مباهج الحياة عبّاً، فالمكي مرح بطبعه. وإذا كان هؤلاء المكيون قد ملأوا أفواههم خلال موسم الحجّ بعبارات مقدسة، فإن ذلك لم يكن نفاقاً ولا رياءً ولا بدافع ذاتي طاغ، ولكنه ببساطة كان تعبيراً عن أداء واجب يرى المكي أن الله قد حتّم عليه أداءه، بحكم مُواطنته في هذا البلد، وبحكم منصبه ومهنته. وما إن ينهي المكي أعمال سنته في الحجّ حتى يحنّ في فترة الاسترخاء هذه إلى المتعة والراحة، وهذا مما يهيّئه له منزله أولاً حيث يستمتع بصحبة أبنائه وزوجته، كما يلتمسه في زياراته المتبادلة لأصدقائه، حيث تقام الولائم "العزيمة" في كل المناسبات الطيبة، كما تقام أحياناً لقاءات اجتماعية ورحلات "قلة" في بعض أرجاء المدينة أو في الخلاء، ينظمها ويستمتع بها بمصاحبة رفاقه.

يهاجر أثرياء مكّة بعد موسم الحجّ قاصدين الطائف في رحلة تستغرق يومين، حيث يستمتعون بالنسيم العليل والحدائق الجميلة جداً المجاورة لتلك البلدة. تقول المتواترات المكية: إن الله قد نقل هذه القطعة من الأرض التي تضمّ الطائف من سورية إلى شبه الجزيرة العربية ليُسرّ بها المجاوِرون لحرمه، ولكن إذا صادف أن وافق موسم الحجّ الموسم الحار من السنة، فلن يتمكن المكيونِ الأثرياء من الاستمتاع بهذه المباهج التي توفرها لهم الطائف. أما إذا بلغت حرارة الجو في مكة ذروتها في شهر رمضان، فإن ذلك يحقق للمغادرين منهم إلى الطائف منفعتين: الأولى زوال حدّة العطش الذي هو أقصى ما يعانيه الصائم، والأخرى تكمن في أن المكيين من ذوي الشأن الذين لا يملكون منازل في الطائف يتسنى لهم استخدام منازل أصدقائهم هناك، ثم يسدون لهم المقابل بعدئذ في مكّة خدمات جليلة أخرى.

تعود مكّة في المحرم إلى وعيها بعد حلم محموم عاشته في موسم الحجّ. ولا ينعكس هذا الوعي جليّاً في الحياة الأسرية فحسب، ولكن يمكن أن نلحظه أيضاً بوضوح في الحرم ذاته. يعتبر العاشر من المحرم "عاشوراء" عامة يوماً من أيام الصيام، إلا أن الشيعة يحتفلون به،

ويحيون فيه ذكرى استشهاد الحسين، وفي هذا اليوم تفتح الكعبة للعموم. وتبدو مكّة في هذا اليوم مدينة أجانب حيث يتوافد كل الحجاج الذين يستعدون للسفر ويتجهزون لرحلة العودة إلى بلادهم في المحرم ويتجمهرون عند السلالم التي يصفّها لهم الآغوات عند الكعبة، كما نجد في الأيام القليلة التالية لهذا اليوم جمعاً غفيراً من الرجال والنساء يملأون البيت الحرام، ويطوفون بالبيت جهد استطاعتهم، وذلك قبل عودتهم إلى أوطانهم. تضيق تلك الدوائر حول الكعبة بالتدريج وتتقلص، ويجد مواطنو مكة الفرصة بعدئذ في الظفر بأماكن مريحة في ساحة المسجد وأفنيته المجاورة. وتأخذ حلقات الدرس التي كانت قد توقفت تماماً في موسم الحجّ بمعاودة نشاطها من جديد، كما تبدأ حلقات المتصوفة في معاودة نشاطها أيضاً، وتتكوّن تجمّعات صغيرة لهذه الفرقة أو تلك، ثم ما يلبث بعض المكيين أن يتجمعوا من جديد في أماكنهم المعلومة التي كانوا يلتقون فيها عقب كل صلاة مكتوبة. أما شارع المسعى الذي ظلّ أسابيع متصلة مزدحماً بحشود الحجاج التي كانت تسعى بين الصفا والمروة ويصعب على المرء اجتيازه، فقد أصبح الآن يضم كتلة إنسانية هادئة في غير تدافع، تمارس البيع على العربات الخشبية التي يزدحم بها المكان، كما تعكس الأسواق المجاورة "سويقة وسوق الليل" هذه الظاهرة أيضاً، ولكن ما يلبث هذا التوازن العام أن يضطرب مرّة أخرى، وذلك لعودة قافلة الحجاج الثانية من المدينة المنورة. والجدير بالذكر أن الحجاج الذين لم يتيسر لهم الوصول إلى مكّة قبل وقت كاف من موسم الحجّ يؤجلون الرحلة إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما بعد الحجّ، حين تخرج القافلة الثانية التي يحرسها أيضاً بعض الجنود الأتراك بعد أن تعلن الحكومة سلامة الطريق. ومع رجوع هذه القافلة وما يتبعه من رحيل هؤلاء الحجاج لاحقاً، تشغل كافة الطوائف - بنحو أو بآخر - بالأنشطة المختلفة، كما يشغلون قبل رحلة العودة من مكة إلى الوطن بالاحتفالات الدينية المرعية، وبالقيام بالمشتريات المختلفة.

الحوليات في شهر صفر

ما إن يهلّ صفر، الشهر الثاني من العام الهجري العربي، حتى يبدأ المكيون بالاستعداد للاشتراك في أحد أحبّ الاحتفالات المحلية إليهم. ففي الثاني عشر من هذا الشهر يقام سنوياً احتفال "ستنا ميمونة"، وهي إحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم. وتقول المتواترات: إنها رضي الله عنها دفنت في تلك المنطقة في الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة على مسيرة نصف يوم في اتجاه الشمال الغربي من مكّة. وكانت هذه المنطقة تعرف في الأصل بالصريف، ثم بدل الاسم بعد ذلك إلى النورانية، ثم أصبحت تعرف ببساطة باسم "ستنا ميمونة".

إن الاحتفالات في يوم معيّن بأحد الأولياء هي في الحقيقة أمر غير مفهوم بوضوح من قبل

الناس الذين يقولون: إنها "حولية"، والتي ربما تعني بنحو أدقّ الاحتفال السنوي بوفاة ذلك الولي، ولكن هناك أولياء تقام لهم عدّة حوليات في السنة الواحدة، ما يدل في اعتقادي على أن تاريخ وفاة هؤلاء الأولياء مشكوك فيه. ولعل من المناسب أن نخلص - على ضوء الأسلوب الذي تعقد به حوليات الأولياء - إلى أن الكثير من الاحتفالات الوثنية القديمة قد تحولت لتأخذ اسم ذلك الولي وتزدان به، لتضمن لنفسها المحافظة على البقاء.

يتجمع المعارف والأصدقاء قبل أسبوع من تاريخ حولية "ستنا ميمونة"، ويكوّنون مجموعات للإعداد لرحلة الزيارة. وتسمى مثل هذه المجموعة "بشكة"، وتختار كل بشكة أمين مال يؤدي إليه كل عضو نصيبه من التكاليف التي لا تتجاوز بضعة ريالات يشتري بها ما يحتاجون إليه في الرحلة، ويدعى أمين البشكة "القيّم"، ويكون قيّماً على تأجير الخيام أو استعارتها، وتجهيز السرر والسجاد وأدوات المطبخ وآنية الشراب، وكذلك تدبير الإبل. وأما الآخرون من أفراد هذه المجموعة فما عليهم إلا أن يفكروا في إعداد ملابسهم وغلايينهم، وتجهيز بعض أطباق الطعام التي يحملونها معهم من منازلهم معدّة جاهزة، لأنهم لن يجدوا عند السيدة ميمونة إلا اللحم وبضعة أصناف من الفاكهة، فالمستوطنات التي تقوم هناك ليست بذات أهمية كبيرة. كذلك تشترك بعض النساء في مثل هذا الاحتفال.

يرتدي الرجال في العادة في فترة الحولية حُللاً تختلف عن تلك التي يرتدونها في المدينة. أما العمامة فإنهم يخلعونها ليحل مكانها غطاء الرأس عند البدو "صمودة" وتلك العصابة المستديرة الشبيهة بالثعبان "العقال". ويرتدي أولئك المكيون في هذه المناسبة فوق ثيابهم سترة صغيرة "صلتة" يجعلون فوقها عباءة طويلة من وبر الإبل. وفي الحقيقة إن مثل تلك العباءة يرتديها عادة أهل اليسار من البدو، كما يرتديها في موسم البرد أيضاً أفراد الطبقة الوسطى في المجتمع المكي.

تبدأ هذه الرحلة إلى "ستنا ميمونة" في الحادي عشر من شهر صفر، إذ يخرج الزوار مساءً لإقامة خيامهم في تلك المنطقة، ثم يزورون القبر الذي تقول المتواترات: إنه في نفس البقعة التي شهدت زواج السيدة ميمونة بالنبي صلى الله عليه وسلم. وشعائر الزيارة هنا تماثل شعائر زيارة قبور الأولياء الآخرين المدفونين في المعلاة، فهي بسيطة جداً، لا تزيد على ترديد كلمات مثل: "السلام عليكم يا أهل القبور، السلام عليك يا ستنا ميمونة"، ويلي ذلك قراءة الفاتحة. ويجري بعدئذ الاحتفال الذي ربما حوى إشارات إلى تاريخ تلك السيدة التي أكرمها الله، وكذلك الدعاء الذي يصوغ به المتعبد رغباته الخاصة، ويفصح فيه عن أمانيه. ويرى الكثير من الناس أن مثل تلك الدعوات مستجابة، لأنهم وإن أوكلوا تحقيق مصالحهم إلى مخلوق مثلهم، إلا أنه أثير لدى الله القادر، ما يحقق للصديق الزائر للقبر أمنياته.

يرجع أكثر المحتفلين بعدئذ إلى خيامهم لتسلية أنفسهم بشتى الوسائل، بينما يبقى العديد

منهم من الذين تؤرقهم المشكلات في توسلات سرية عند قبر تلك السيدة، أما الذين عادوا إلى خيامهم فإن عدداً قليلاً منهم يعمل على قضاء ليله في ممارسات دينية، ويحييه بالذكر أو الإنصات إلى قراءات من المولد، أو تاريخ بعض الصالحين، لأن العديد من هؤلاء الشباب جاؤوا إلى هنا بدوافع أخرى مختلفة.

جاء هؤلاء الشباب إلى هذا المكان للترويح عن النفس، والاستمتاع باستنشاق هواء الصحراء النقي، ولإطلاق العنان للعواطف المكبوتة التي ظلت فترة طويلة تبحث لها عن متنفس. فبعد أن يتناول هؤلاء الشباب طعامهم المكون من كرات اللحم "المبشور"، وقطع اللحم المشوية، والأرز والتوابل "السلات"، تراهم يبحثون عن مباهج حرّمها الإسلام عند قبر السيدة ميمونة، يقرأون الشعر المبتذل، ويغنّون القصص الشعرية، والأسوأ من ذلك كله أنهم يستعملون الآلات الموسيقية المعتادة التي ترافق تلك الأغاني، خاصة "القابوس" التي هي آلة رباعية الأوتار تشبه "الكمنجة" إلى حدّ كبير، كما يعزفون على آلة القانون المعروفة لدينا. ويأخذ أولئك الغلمان في الرقص، يسودهم الهرج والمرج. وترسل الحكومة عادة وحدات قوية من الشرطة إلى تلك الأماكن لضبط الأمن في مواسم مثل تلك الحوليات. ولا غرو إذاً في أن الفقهاء - رغم حبهم للأولياء - لا يحبِّذون مثل تلك الاجتماعات، بل إنهم لا يسمحون للشباب من أبنائهم بتكوين "بشك" ما لم يكن فيها رجال يرقون بسلوكهم فوق الشبهات. وعموماً فإن مثل تلك الحوليات لا تعدّ عند الورعين من المسلمين مناسبة للنحيب والعويل على القبور. فعلى الرغم من أنها تقام في المقابر تظل الأفكار الخاصة بالموت بعيدة عن أذهان الزائرين. فقبر الولي في اعتبار هؤلاء الزوار هو كبيته الذي يمكن أن يستمع فيه بين الفينة والأخرى إلى ما يقوله له الزائرون.

في الطريق بين مكّة ومنطقة "ستنا ميمونة" تقع منطقة الشهداء أو التنعيم التي يطلق عليها عادة اسم العمرة، لأن المكّيين وضيوفهم يحرمون للعمرة والحجّ من هذا المكان. ويضم هذا المكان أيضاً قبر الحسن بن علي رضي الله عنهما الذي جاء من ينبع مع شيعته، وكذلك قبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي يحيي المكيّون ذكراه أيضاً. وعادة تقام حولية ابن عمر - ترجيحاً - في ١٤ صفر، وهو تاريخ توصّل إليه المكيون، بصفة توفيقية، ولهذا فإن العائدين من حولية ستنا ميمونة يجدون الفرصة للوصول إلى هذا المكان في الوقت المناسب.

يمتلك العديد من أهل مكّة منازل صيفية في التنعيم، فالهواء هنا عليل بليل، كما يمتاز الماء في هذه المنطقة بالصفاء والنقاء، ما جعل علية القوم في مكّة يحصلون يومياً على ماء الشرب من هذه المنطقة.

يعدد المسؤول عن القبر كما يعدد بعض القراء المهرة ما يعدده كافة القراء الآخرين في مثل هذه المناسبات من أعمال ذلك الولي وصفاته "المناقب"، التي تصاغ عادة بأسلوب

مفخم. ويكمن الهدف الرئيس للشباب هنا - كما كانت عليه الحال لدى ستنا ميمونة - في اقتناص ساعات البهجة والمسرّة طيلة فترة انعقاد احتفالات الشهداء في هذا المكان، التي تستمر أسبوعاً.

الأربعاء الأخير من صفر

في آخر أربعاء من شهر صفر يظلّ بعض المكيين في حالة حزن تختلف الآراء حول دوافعه وتفسير أسبابه اختلافاً كبيراً. وعلى العموم فالفكرة التي تجد الرواج في هذه البلدة هي أن أيام هذا الشهر حبلى بكافة أنواع المصائب التي تتجمع تباعاً، ثم تولد دفعة واحدة في آخر أربعاء من هذا الشهر. ولهذا يعتقد الكثيرون أن للشخص الذي يجتاز هذا الأربعاء من دون أن يلحق به مكروه أن يستقبل ما تبقى من سنته موفور الآمال. ونجد في هذا الاعتقاد مدعاة لأن يقضي كثير من المسلمين سحابة ذلك اليوم وأكثر ساعات ليله في الصلاة والتعبّد. ولربما ورث هؤلاء القوم هذا التقليد عن الممارسات الوثنية السابقة للإسلام. وعلى العموم فإن جلّ المكيين لا يعرفون أبداً أساساً لهذا الاعتقاد البائس في هذه الأسطورة، فهم لا يعبأون بها، ويقضي العديد منهم هذا الأربعاء الأخير من صفر في رحلاتهم وتجوالهم وحفلاتهم الترفيهية الأخرى.

المولد النبوي الشريف

يُعدّ الثاني عشر من ربيع الأول موعد الحولية الكبرى، إذ تقول المتواترات: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد توفي في ذلك اليوم. وقد حوّل هذا اليوم توفيقياً ليصبح تاريخاً لولادته. يعد الفقهاء لهذا اليوم قبل حلوله بعدّة أيام، فيبدأون بإلقاء المحاضرات العادية في حلقات الحرم، ويأخذون في قراءة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي اليوم السابع من هذا الشهر يعلن في مكّة رسمياً بدء احتفالات المولد، وذلك بإطلاق قذائف المدفعية. أما في اليوم الثاني عشر فتتوافد إلى المسجد الحرام أعداد كبيرة من المسلمين، وتأتي نساء مكّة وهن يرفلن في ملابس الاحتفالات إلى الحرِم، ويتجمعن فيه بأعداد وافرة على غير عادتِهن في سائر الأيام، إذ إن أعداد النساء غير المكيات من المصليات في الحرم أكثر من أعداد المكيات فيه. ويسترعي الانتباه في هذه المناسبة ملابس الأطفال المتعددة الألوان التي تتوهج بحلي من الذهب والفضة تبزّ تلك الحلي الباهظة الثمن التي تزين ملابس النساء جمالاً. يأتي هؤلاء الأطفال إلى المسجد برفقة أمهاتهم، فتسود المسجد كله - خاصة في مجاورة المنطقة المخصصة للنساء - جلبة

وضوضاء غير لائقتين يحدثها الصغار من أولاد وبنات بتلك السلاسل التي يعلقونها عليهم، ويجعلون فيها التعاويذ ذوات الأجراس، ويبدي العديد من المؤمنين الورعين انزعاجهم من تلك الأصوات التي لا تناسب جلال المكان. أما شباب مكّة فيتوافدون إلى المسجد في هذا اليوم وهم في قمّة الأناقة. وفي الطريق إلى المسجد، حيث شوارع السوق تفيض بعبق الاحتفالات وتعكس مظاهرها، ترى العربات الخشبية الصغيرة لصانعي الحلويات وقد ازدانت منذ الظهيرة بأكسية جديدة أُعدّ بعضها خصوصاً للاحتفال بهذه المناسبة.

ما إن يؤدي إماما الحنفية والشافعية صلاة المغرب حتى تبدأ الاحتفالات، فالوقت لا يتّسع لإمامي المذهبين الآخرين، وتُضاء سُرج المسجد الزيتية التي تزداد أعدادها في هذه الليلة أكثر من المعتاد. ويظلّ الناس في حركة دائبة في المسجد يحيّون أصدقاءهم، ويستعرضون أناقة ملابسهم، ويستمر هذا المشهد قرابة نصف ساعة. ولا يعرف إلا القليل جداً من هؤلاء المحتشدين ما يحدث في هذا الوقت عند بهو الأعمدة قرب باب دريبة. في هذه المنطقة نجد الإمام يقرأ المولد من على منبر خشبي، جاعلاً ظهره إلى الكعبة وهو في مواجهة الحضور، ليتمكن المنصتون له - الواقفون منهم والجلوس على حدّ سواء - من أن يوجّهوا أنظارهم تجاه ذلك المبنى المقدس. وعلى منصّة الشرف التي وضعت عند هذا المكان يجلس شريف مكّة والوالي العثماني كلاهما بكامل بزته الرسمية، ما لم تكن هناك ظروف سياسية تمنع مثل هذا اللقاء الحميم بين هذين المسؤولين. أما خدم المسجد فيديرون القهوة والحلوى على الجالسين.

يسمي العامة ما يقرأ في مثل هذه المناسبات خطبة خطأً. فالخطبة لا تكون إلا في صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وبعض المناسبات الدينية القليلة الأخرى. والمادة التي تقرأ في هذه المناسبة تشبه الخطبة في الظاهر، ولكنهم - على أي حال - لا يأبهون إلا بالشكليات، وقلّ أن تتسع صدور العامة للإصغاء إلى مثل هذه الموضوعات الطويلة، وإن أنصتوا لها، فإنهم لا يفقهون - إلا ما ندر - شيئاً مما يقال. وما إن ينتهي الإمام من القراءة حتى تعمّ الجلبة ذلك المكان المقدس، ويتسابق الجميع لمشاهدة موكب الشريف، ورجال الحكومة، وخدم المسجد الذين يسيرون خلفهم مجتمعين، في مسيرة تستضيء بالمشاعل عبر الشوارع القشاشية وسوق الليل إلى تلك القبّة في شارع الشعب حيث وُلد النبي صلى الله عليه وسلم. أخذت هذه الاحتفالات شكلها هذا قبل أكثر من ثلاثمئة عام. ومنذ ذلك التاريخ أبدى المتشددون من المسلمين معارضتهم للاحتفال بالمولد، بدعوى أن مثل هذا الموكب، وهذه التجمعات التي تغيب عنها الرقابة - والتي تزخر بالعديد من النساء اللائي هجرن منازلهن لحضوره - يثير الريبة، ويستثير سوء الخلق أكثر مما يستثير التدبر في التقوى، ولا يزال هذا الخلاف مستشرياً حول هذا الأمر بين المكيين.

يتقدم "الريس"، أو كبير مؤذني الحرم، وهو يتغنى بأنشودة في ذكر النبي ومدحه - وكذلك

الفلكي - هذا المواكب، وعندما يصل هذا الجمع مكان ميلاده صلى الله عليه وسلم يدخلونه ويقرأون شيئاً مختلفاً عمّا كانوا يقرأونه من المولد وهم في الطريق إليه، ثم يصلي جميعهم على النبي. وما يلبث هذا الجمع أن يتفرق بسرعة فائقة بعد ذلك، ليهرع إلى المسجد لأداء صلاة العشاء. وتنظم التجمعات البهيجة بعد ذلك ليلاً، إذ يمكن أن ترى مجموعات من الرجال وأخرى من النساء في حركة دائبة، تضرب في الشوارع من دون اختلاط. وتروج أيضاً تجارة المقاهي التي تغصّ في هذه الليلة بمن فيها، أما الفقهاء والأتقياء فيجلسون وأصدقاءهم في دوائر يقرأون البردة قراءة جماعية، كما يقرأون الحمزية، ويرددون أناشيد أخرى في ذكر النبي، ثم يأخذون بعد ذلك في ممارسة "الصراخ الوثني" المسمى بالذكر!

حوليات النساء

تمتاز الحياة الأسرية في مكّة في شهري ربيع الآخر وجمادى الأولى بالترابط والازدهار. ففي هذا الوقت من السنة يوصى بإتمام الزواج على أسس دينية. ويناسب هذا الأمر مواطني مكة خاصة، إذ تكون ارتباطات العمل قد خفت وطأتها. ويأخذ المكيون في هذه الفترة في التجهيز لحفلات الزواج الفخمة التي يسرفون فيها وينفقون عليها ببذخ، وكأني بهم مدفوعين برغبة جامحة في التخلص من تلك الأموال التي اكتسبوها في موسم الحجّ. ويتساوى الفقراء مع الأثرياء في هذا الصدد، فكل ينفق من سعته.

أما الشهر السادس من السنة، وهو جمادى الآخرة، فهو الشهر الذي تنتظره نساء المكيين وفتياتهم بفارغ الصبر، كما ينتظره رجال مكة بشيء من القلق. ففي الخامس عشر من هذا الشهر تقام حولية الشيخ محمود بن إبراهيم الأدهم الذي نجد ذكره في القصص الديني الشعبي لبلاد الهند الشرقية. وتقع القُبّة المقامة لذكره على مسيرة نصف ساعة من مركز المدينة في النقطة التي يلتقي عندها المسافرون إلى جدّة، الخارجون من أسافل مكّة وأعاليها. وهي مكان عادة ما يرافق البعض أصدقاءهم المسافرين إلى جدّة لوداعهم فيه قبل الرحيل. ويتوقف كل شخص يصل إلى هذه المنطقة ليقرأ الفاتحة مرّة واحدة على الأقل على روح هذا الشيخ. ويمكن اعتبار هذا الضريح جزءاً من المدينة نفسها، إذ لا يفصله عنها إلا مجموعة بيوت صغيرة وبعض أكواخ البدو في حي جرول الذي يسكنه الجمالون. ولمّا كان احتفال ستنا ميمونة والشهداء هما احتفالان خصصتهما التقاليد المرعية للرجال، وجعلتهما مقصورين عليهم من دون النساء، وجب أن تقتصر حولية الولي عند الحدود الغربية لمدينة مكّة على النساء من دون سواهن. صحيح أن بعض الرجال قد يذهبون إلى ضريح الشيخ محمود في الأمسية السابقة للحولية ليستمعوا هناك إلى مناقبه، ويبثّوه همومهم، إلا أنه اعتباراً من اليوم التالي الذي تستعد النساء فيه لزيارة هذه

المنطقة – ولمدة ثلاثة أيام بعد ذلك – تبقى كل المنطقة خاصة بالنساء تماماً من دون أي منازع لهن فيها. ولا تستطيع النساء أن يصبن هذه المتعة – بالطبع – من دون موافقة أزواجهن الذين يدركون أن زوجاتهم سينغّصن عليهم حياتهم فترة طويلة إذا رفضوا الاستجابة لهن برفضهم هذا الأمر، وسيجعلون من زوجاتهم مثاراً للهزء والسخرية من المكيات الأخريات. وتسلك الزوجة في هذه المناسبة كافة السبل لتبين لزوجها بجلاء أن مستحضرات التجميل الخاصة بها يجب أن تزداد كمّاً وتتحسن نوعاً، وتؤكد له أن مدخراتها المالية لا تكفيها لقضاء هذه الأيام الثلاثة عند قبر ذلك الولي. ولعل في هذا ما يفسر أهمية تلك الزيارة لهذا القبر ومعناها الذي تحمله المكيات. ولا يجد الرجال بُدّاً من الرضوخ والاستجابة لما تريده الزوجة التي تعتبر أنه حق موروث لها أن ترفّه عن نفسها بما يوحي به مزاجها في هذه الفترة احتفالاً بالشيخ محمود. ويضيف هورنيكا أن للزوجة على الزوج حقوقاً مكفولة في مكة، وأن الكثير من الأزواج لا يعقدون أمراً مهماً إلا بعد استشارتهن. أما إذا اشتكى الزوج من إسراف زوجته فيُذكّر بالآية الكريمة "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"، ويقول إن المكية عادة ما تتزوج في حياتها أكثر من مرّة، فالطلاق سهل إذا لم يقع التوافق بين الزوجين. ويلاحظ أن تعدد الزوجات غير مألوف في المجتمع المكي، فهو مقصور على الأغنياء فقط الذين يمكنهم الوفاء بمتطلبات التعدد.

في هذه الفترة التي تقام فيها حولية الشيخ الأدهم، يتمكن البدو من الحمالين، المقيمون بمجاورة جرول، من كسب المال على شاكلة ما يفعل المكيون في موسم الحجّ، فتراهم ينسقون بعض أكواخهم لتأجيرها للزائرات مقابلٍ أجر زهيد، أو ربما نظير أن يظفروا منهن ببعض الهدايا الصغيرة. لا ريب في أن لأثرياء مكة علاقاتهم الطيبة مع بعض هؤلاء الحمالين نصف المتحضرين، ولهذا تدعو زوجاتهم نساء أولئك الأثرياء وصديقاتهن لقضاء اليوم الأول من الاحتفال في ضيافتهن. وقد يضمّ البيت الواحد من هذه البيوت الصغيرة في مثل هذه المناسبة أكثر من عشرين امرأة من نساء مكة.

في اليوم الأول تدعو ربة البيت البدوية كل الحاضرات اللاتي تعرفهن، واللاتي لا تعرفهن كذلك، إلى وليمة "ضيافة"، وتهدي المدعوات إلى مضيفتهن "تمباك" للنارجيلة، وشيئاً من البن وغير ذلك من الهدايا، أما في اليومين التاليين فتكون ربات تلك البيوت وأهلهن في ضيافة نساء مكّة اللاتي أتين إلى هذا المكان، وجلبن معهن من منازلهن السجاجيد والأسرّة ولوازم الأكل والتدخين، إضافة إلى أصناف مختارة من الطعام أعددنها في بيوتهن سلفاً. أما إذا داخل هذه المستلزمات نقص فيبادرن إلى إرسال خادماتهن المرافقات لهن إلى مكّة لسدّ النقص، فالمسافة بين المدينة والضريح غير بعيدة.

تجود كل امرأة بكل ما تحويه الأوعية والآنية على زميلاتها بسخاء، ويستمتع بعضهن بكرم بعض، كما يستمتع بعض السيدات في هذه المناسبة الاحتفالية بالاستماع إلى أغاني المغنين

المحترفين، تؤديها لهن خادمة مملوكة درّبتها سيدتها على الغناء، وتتابع بقية النسوة حفظ إيقاع النغم بالضرب على الطار أو على الطبلة التي تصنع من الطين نفسه الذي تصنع منه آنية حفظ الماء في مكة. وعادة ما تكون المادة الغنائية في هذه المناسبات فجّة تنوء بثقل الموروثات الرديئة، حتى إن المرء - مهما حاول - لا يستطيع أن يستخرج منها معنى أو دلالة، ولن يجد فيها - مهما حاول - إلا تداخلاً.

تُشغل النساء عادة في هذه الفترة الغنائية بتناول المشروبات التي تشتمل على جميع أنواع الشاي، الأحمر منه والأخضر، وبتدخين النارجيلات، وأغنيات زميلاتهن الأخريات. وقد تصحب بعض النساء معهن "كريماتهن" إلى مثل هذه الحفلات. و"الكريمات" في الغالب عند أولئك النسوة هن من بنات مكّة الصغيرات، كما يمكن أن يكنّ أحياناً من الإماء. وتستمر تلك الاحتفالات التي ربما يسيء بعض النساء استغلال الحرية الممنوحة لهن فيها، وتتواتر أيامها الثلاثة على هذا المنوال.

احتفالات حولية أخرى

يقيم الرجال في السابع عشر من جمادى الآخرة من كل عام - في فترة حولية النساء تقريباً - حولية تعقد على مسافة غير بعيدة من مدخل وادي منى. أما أصل هذه الحولية فتحكي المتواترات المكية أنه حدث في اليوم الثالث عشر من شهر الحجّ، قبل عدّة سنوات - حين كان الحجاج يستعدون للنفرة من منى بعد أن قضوا فيها ثلاثة أيام - أن تحركت القوافل في اتجاه الغرب، ولكنها توقفت فجأة عند نقطة معينة في منى. ولم يستطع أي إنسان أو حيوان أن يتجاوز تلك المنطقة قيد أنملة. وجرت عدّة تساؤلات عن السرّ في ذلك، ما اضطر شريف مكّة إلى أن يأمر بالبحث في المنطقة للتحرّي عن السبب، علّهم يهتدون إلى تفسير له. وجرى البحث فوجدوا عند نقطة خارج الطريق العام، في مواجهة النقطة التي توقف عندها الركب، جثة ملقية في العراء، وكانت تلك الجثة لولي الله مهدي. وما إن قام الحجاج بغسل ذلك الجثمان والصلاة عليه ودفنه، حتى انطلقت القافلة تسير في طريقها من دون أدنى عائق. وأقيمت بعدئذ -بموجب أوامر عليا - قبّة فوق ذلك القبر، وقامت عنده مؤسسة للبر تهيّئ مطعماً كبيراً في مجاورة ذلك الضريح في كل عام بغرض إطعام الطعام في فترة الحولية. ولكن كيف تحولت هذه الحولية من شهر ذي الحجة إلى شهر جمادى الآخرة؟ هذا ما سكتت عنه تلك الأسطورة، ولم يجهد المكيون رؤوسهم للتفكير فيه.

تكوّن لهذه الحولية "البشك" مثلما هي الحال عند زيارة قبر السيدة ميمونة. ويقضي العديد من المكيين في فترة هذه الحولية يوماً أو اثنين في الخيام بجوار ذلك الوادي. وهنا يجد أبناء

أحياء مكّة المختلفة الرغبة في قضاء بعض الوقت في المشاجرات التي تشبّ بين شبان تلك الأحياء بعيداً عن مضايقات الشرطة وتدخل الجنود في تلك المنطقة النائية المعزولة عند قبر الغريب، أو ضريح المهدي. وتتسم هذه المشاجرات بعنف لا تعرفه المشاجراتِ التي تدور في أحياء المدينة، ما عدا تلك التي تقع عند سفح جبل أبي قبيس. وعموماً، في فترة وجودي في مكّة، لم يكن الوقت ملائماً لعشاق المشاهد الدموية لممارسة الشجار، فقد اتخذت الشرطة في هذه الفترة إجراءات قوية لضبط الأمن في المدينة.

تعتبر حوليات السيدة ميمونة، والشيخ محمود، والشهداء، حوليات خاصة بالمكيين، ولكننا نجد قائمة طويلة من الحوليات في مكة لا تنتهي. فهناك حوليات تهم قطاعات معيّنة، ولكنها لا تنتمي بصفة مباشرة إلى حياة هذه المدينة. ومن تلك الحوليات مثلاً: حولية الولي جوهر، وهو ولي من أصل هندي، يذهب بعض أهل مكة لزيارة قبره عند قلعة جبل هندي. وهناك يعكف مريدو هذا الولي في تعداد مناقبه وتلاوة القرآن، في الفترة من مغيب الشمس حتى منتصف الليل، ويستمتعون باحتساء القهوة وتناول الحلوى، كما يزور بعض المكيين قبر المجذوب أيضاً، إذ نجد تجمعات مماثلة للزوار عند ضريحه عند باب العمرة. وهناك عدّة قبور أخرى كانت في الأزمنة السابقة مزارات لبعض المكيين.

تشهد مكّة أيضاً – غير الحوليات السنوية – أخرى تقام في كل شهر على مدار السنة. ففي الحادي عشر من كل شهر يحلّ موعد الاحتفال بالسيدة خديجة، زوجة الرسول الأثيرة لديه. ويقام هذا الاحتفال عند ضريحها الذي تعلوه قبّة في منطقة المعلاة. وتجري في الثاني عشر من كل شهر على مدار السنة القمرية الاحتفالات بستنا آمنة، والدة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أقيم هذان الضريحان في فترة زمنية متأخرة نسبياً لا تتعدى ثلاثة قرون. وينذر أهل مكّة – ذكوراً وإناثاً – في هذين الضريحين النذور لشفاء مرضاهم، أو تحقيق أي رغبات أخرى، كما تدخل إليهما مجموعات أخرى بالشموع أو البخور، وفاءً لنذر سابق.

تشهد مقابر المعلاة زيارات أسبوعية، إذ يقصدها كل من له فقيد من أقارب أعزاء أو معارف يسعى للترحم عليهم. وقد استغلت هذه الزيارات لخدمة أغراض مشبوهة للجنسين، ولذلك أصدرت السلطات أمراً حدد زيارة النساء للمقبرة بيوم الخميس فقط، في الفترة من بعد صلاة الظهر حتى مغيب الشمس، وتبدأ الشرطة بإجلائهن شيئاً فشيئاً من المكان لتبدأ زيارة الرجال. ومع هذا لا يزال بعض الشباب الفاسد يحقق ما يصبو إليه بهذه الزيارة. ففي الطريق إلى مقبرة المعلاة بعض المقاهي التي أقيمت على مكان رطب الهواء يقصدها المحبون للجنس اللطيف، يدخنون التبغ ويحتسون القهوة. وحين تمرّ النساء بذلك المكان، ويلعب الهواء بالحجاب، يدخلون مع بعضهن في محادثات مطوّلة من على البعد بغمزات العيون. وفي الحقيقة إن كافة المسلمين لا يزورون المقابر للبكاء والنحيب على الموتى، فالإسلام لا يقرّ

هذا الأمر، لا نظرياً ولا عملياً.

من المرغوب فيه إسلامياً أن يمد الأحياء المتوفى بكل ما يحتاج إليه. فإضافة إلى المقابر النظيفة المحلاة ببعض الزهور التي توضع في ذكرى المتوفين، فإن الميت يحتاج إلى أن تصله أعمال البرّ حتى يظهر أمام الله من دون وجل أو خوف. فمثل هذه الأعمال الخيّرة – كما يعتقدون – تلحق بالموتى. أما الهدايا "الصدقات" التي تقدم لهم، فهي إطعام الفقراء عند قبر ذلك الميت، وقراءة بعض أجزاء القرآن، ولكل من هذين العملين عند الله ثواب كبير. وبعد تقديم هذا العطاء الصدقة، يضرع أهل المتوفين إلى الله أن يخفف الحساب عن موتاهم من الأقارب والأصدقاء، ويتولاهم برحمته.

نجد في مقابر المعلاة دائماً عدداً كبيراً من قُرّاء القرآن الذين يتنازلون – لقاء عطاء دنيوي قليل يبذل لهم في هذا العالم – عن ثوابهم الأخروي في القراءة للمتوفى المشار به عليهم، كما نجد أيضاً باعة الخبز، والمتسولين الذين يجعلون بذل الإحسان ممكناً بتلقيهم له. أما الرجل الذي يريد أن يهدي صلواته إلى أحد الأولياء أو إلى غيرهم، أو يظهر حبّه لهم، فإنه سيجد دائماً العديد من الفقهاء المستعدين لمصاحبته، وتلقينه الدعوات.

لا تُشغل المكيات في أثناء زيارتهن للمقابر كثيراً بهذه الصدقات التي تساق للمتوفى، إذ ينصبّ أكثر همهن على ما يقدمه الباعة من أنواع الحلويات والفاكهة، وعلى الاستئناس مع صديقاتهن، فهن قد أتين في الحقيقة إلى هنا لفتح قلوب بعضهن لبعض، وليتحدثن بما قمن به من أمور خلال الأسبوع. وحين تؤول الشمس إلى المغيب تنهض أولئك النساء متثاقلات، كالمرغمات، يصحب بعضهن البعض الآخر في جماعات، ويسرن ببطء في اتجاه البوابة التي تفضي بهن إلى الطريق إلى منازلهن. وسرعان ما يحلّ بعد ذلك دور الرجال في زيارة مدينة الموتى. ونجد الذين يبكرون في العادة من الرجال لزيارة المقابر هم من الذين يحتفلون بمرور حوْلٍ على وفاة أحد الأعزاء. وقد جرت العادة عند هؤلاء الزوار أن يشتروا للميت في هذه المناسبة هدايا فوق العادة، كما يقومون أحياناً بدعوة الأصدقاء إلى إحياء الليل بالممارسات الدينية. ويقوم بعض الرجال أحياناً بزيارتهم الأسبوعية للمقابر في الصباح الباكر بعد أن يؤدوا صلاة الفجر جماعة في المسجد. ولا يحمل هؤلاء المسلمون من زوار المقابر أي أفكار حزينة.

أما في اليوم الحادي عشر من كل شهر، فتذهب مجموعات كبيرة من أهل مكّة إلى قبر السيدة خديجة، حاملين معهم قِصَعاً مترعة بالأرز واللحم، وصنوف الطعام المختلفة. يدخل بعضهم إلى الضريح، بينما يجلس الآخرون أمام الباب يستمعون إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي قرأها المسؤول بالوراثة عن حراسة ذلك القبر. وحين ينتهي هذا الرجل من دعواته ويردد الجميع بعده آمين، يُتحفونه بهدية مالية، ثم يستمتع الجميع بعد ذلك بصنوف الطعام الذي جلبوه معهم. ولا ينقطع سيل الزوار عن المكان في هذا اليوم، إذ تجد القوم يتوافدون

حتى ينتصف الليل.

في الثاني عشر من رجب يقام احتفال مهيب - كما تعرف المدينة كلها - في مبنى يعرف باسم الزاوية، أقيم عند سفح جبل أبي قبيس. ويوافق هذا اليوم ذكرى وفاة مؤسس الطريقة السنوسية. ويذبح في هذه المناسبة العديد من الخراف في الصباح الباكر، وتُعدّ كميات كبيرة من الأرز. فإذا حان وقت الظهر وضع هذا الطعام أمام الزوار جميعهم، لينالوا حظهم منه.

الطب في مكّة

الطب - مثل أي حرفة أخرى في مكّة - يتوارثها الابن أو ابن الأخ الذي يكتسبها من الأب أو العم، أو قد يكتسبها أحياناً المساعد من غير الأقربين. ويأخذ الحلاقون في مكة على عواتقهم عملية الحجامة وإسالة الدماء الفاسدة، والعمليات الجراحية البسيطة الأخرى. فهم عادة يتجاوزون حدودهم، ويتطفلون على المجال الطبي، بالرغم من أن الناس في مكة لا يعتقدون أن دراسة الطب وممارسته تستوجبان أن يقصر الإنسان جهوده كلها على هذه المهنة. وقد عرفت طبيباً مشهوراً في مكّة كان يحترف - إلى جانب الطب - إصلاح الساعات والبنادق، وتقطير الزيوت العطرية، والتطعيم بالذهب والفضة. وكان مع كل هذا يفوق، كطبيب، كل منافسيه. يبدأ هذا الرجل - مثل أصدقائه من الأطباء الأخرين - بجسّ نبض المريض وبفحص لسانه وعينيه، ويظهر دربته بألا يستمع إلى شكوى مرضاه، لتحديد أمراضهم، بالأسئلة التي يلقيها عليهم، ولكنه - بدلاً من ذلك - يعلن للمريض بجزم وبثقة أنه يشكو من ألم في منطقة كذا من جسده. وبمثل هذا الجزم في تحديد طبيعة المرض ومكانه من دون أن يفصح عنه المريض، يعرف الناس في مكة الطبيب الأمثل. ولا يلحظ مثل هؤلاء المرضى البسطاء أنهم جعلوا اكتشاف أمراضهم للطبيب هيّناً، وذلك بحديثهم مع المرضى الآخرين المنتظرين دورهم أمام باب الطبيب.

يقول صديقنا الطبيب لمريضه: إن بك "نوازل". وهذا مصطلح عام يدل على كافة الأمراض الناتجة من الإصابة بالبرد. أما "ريح" فتعني كل العلل المتأصلة في الدم، والتي تظهر في صورة طفح جلدي، أو احتقان، أو أورام، وغير ذلك من الأمراض، كما تعني "قبض" إمساكاً أو ضعفاً، أو ربما يستعمل الطبيب - عندما يتوصل إلى فهم طبيعة المرض - مفردات أخرى أقل شيوعاً من سابقاتها.

يصف الطبيب بعدئذ لمريضه الحمْية، وقد يوصيه بالابتعاد عن الطعام الساخن، أو الطعام البارد، أو الرطب، أو الجاف، أو أكَل الخبز الخمير، أو الفطير، ثم يعطيه "شربة"، أو يكتب له وصفة للمكونات اللازمة للدواء، التي يمكن أن يشتريها من العطارين، أو قد يُعطي الطبيب

المريض من ذوي اليسار دواءً من إعداده، ويضع له سعراً عالياً، مدّعياً أن إعداد هذا الدواء من الأسرار الكبيرة التي لا يكشف عنها إلا لمثل ذلك المريض الثري. ولصديقنا الطبيب أيضاً طرائقه الخاصة التي انبنت عليها شهرته، فهو يستطيع أن يفرغ العين من الماء الأبيض، وأن يعالج بالجراحة التورم الذي يصيب الجفن، والذي يمكن أن يكون سبباً في العمى إذا لم يعالج في الوقت المناسب.

يقال: إن الأطباء المحترفين من العسكريين الأتراك أكثر تميّزاً من الآخرين الممارسين لهذه المهنة في مكة، إلا أن الأوائل لا يعرفون كيف يتعاملون مع المكيين، كما نجد أنهم - مهما بلغ حذقهم العلمي - لا يعرفون شيئاً عن ضرورات المناخ المحلي، وإلا فكيف نفسّر رفضهم للحجامة وإسالة الدم، ومنعهم جنودهم من اللجوء إلى هاتين العمليتين المفضيتين إلى بلوغ الصحة؟!

العين والحسد في مكّة

عندما يتخفّف المكي من ملابسه - وكثيراً ما يحدث هذا نتيجة شدة وطأة حرارة الجوّ - تستطيع أن تلحظ تحت القميص الداخلي الشفاف صفاً من الحقائب الصغيرة الملونة "عزيمة أو حجاب" تتدلى من الكتف. تعد هذه الحجب صيغة سرية، يعرفها الأولياء من دون سواهم، وتستمر محفوظة بينهم بالتواتر لمعالجة أنواع الشرور التي قد تنزل ببني البشر. وللأطفال صيغ سرية أخرى مماثلة، توضع في صناديق فضية صغيرة تشبك في ملابسهم. ويمكن أن تلاحظ - حين تصادف طفلاً صغيراً يسير عارياً - جملة من عملات قديمة تتدلى من رقبته للغرض نفسه، كما تهتم الأمهات كثيراً برسم ثلاث "مشالي" على خدود أطفالهن حماية لهم من العين.

أما إذا وجدت مكياً يلبس خاتماً معدنياً صقيلاً، فعليك أن تعرف أنه قد لجأ إلى ذلك وقاية من النزف المنتشر انتشاراً كبيراً في هذه الأرجاء، أو للعلاج منه. ورغم كل هذه الإجراءات الوقائية قد يسقط المريض طريح سريره، ولا تجد زوجته علاجاً له، فتأخذ في طرد قوى الظلام من الغرفة، وذلك باستعمال بخور "المستكة"، أو عطر آخر مماثل. فإذا لم يُجْدِ كل هذا العلاج نفعاً، فإنهم يذهبون بالمريض إلى بعض الأتقياء الذين يعمدون أولاً إلى تشخيص المرض، ثم يكتبون للمريض رقية من بعض الحروف أو بعض الكلمات يخطّونها على ورق، ويطلبون من المريض إحراقها واستنشاق دخانها. وبعد أن يعهد ذلك الفقيه إلى المريض بتلاوة همهمات تعويذية مختلفة يُطلب منه تعاطي رماد تلك الأوراق ذائباً في الماء "وسيشفى بإذن الله". وهناك بالطبع العديد من الوصفات الشافية "المجربات" التي أعدّها شيوخ سابقون، إلا أن اللاحقين من الشيوخ يدّعون أن تلك الوصفات وورقها الذي كتبت عليه وغير ذلك لن تفيد المريض

ما لم يكن كاتبها رجلاً صالحاً، وما لم يتخيّر المريض الأدعية المناسبة. ولا يلجأ المكي العادي إلى الطبيب عادة إلا بعد أن يستنزف عدداً لا حصر له من مثل هذه الأساليب.

يُبخّر أطفال مكّة دائماً حتى وصولهم سن البلوغ، ولعل في هذا ما يشير إلى النسبة الكبيرة من وفيات الأطفال. وتوضع تحت وسادة الطفل المريض ليلاً سبعة أقراص من الخبز، وفي الصباح يؤخذ الخبز من تحت الوسادة ويرمى للكلاب. وحين يفشل هذا العلاج، وتصاب الأم بخيبة أمل كبيرة، تجري سلسلة من العلاجات المماثلة تفشل كلها بطبيعة الحال، فيسود الاعتقاد حينئذ بأن عيناً شرّيرة قد أصابت الطفل، ولهذا ظلّ كل هذا العلاج من دون تأثير. ويعتبر بخور "الفاسوخ" – وهو نبات راتنجي ذو رائحة غير طيّبة، حين يحرق مع الملح في مبخر واحد – علاجاً مخصصاً للإصابة بالعين. يعرض المصاب بالعين يديه ووجهه ورجليه ثلاث مرات لدخان هذا البخور، ثم يخطو فوق ذلك المبخر سبع مرات حتى يعمه الدخان تماماً "والباقي على الله".

للوقاية من العين يلجأ البعض إلى وضع بعض الأحذية القديمة في مدخل مخزن السلع، أو المكان الذي يراد حمايته من العين. ولمّا كان أي شخص يمكن أن يصيب الأشخاص الآخرين بالعين – من دون أن يدري في الغالب شيئاً عما يمكن أن تسببه عينه – فإن من المحتّم على المرء ألا يداعب طفلاً، أو أن يمسّ شيئاً جميلاً لا يخصّه، أو أن يقحم نفسه في دائرة اجتماعية يسودها المرح والسرور من دون أن ينطق بالقانون المحيّد للإصابة بالعين، وهو: "ما شاء الله، تبارك الله".

ترتبط العين في كثير من الحالات بالحسد، أما إذا لم يتمكن الحاسد عينه من قضاء أربه – بالإضرار بالشخص الذي يضمر له العداء – فإن عليه في هذه الحال أن يدفن له "سراً" عملاً سحرياً تحت سور المنزل الذي كان الحاسد يريد شراءه ولكنه ما استطاع، وذلك حتى يضمن تخريب المنزل المعني بالنار، أو ربما يلجأ عمرو إلى وضع طقوس مكتوبة وعلامات سحرية تحت جدار ذلك البيت الذي يسكنه زيد مع امرأة كان عمرو يحبّها ليستفحل العداء بين الزوجين، ولذا تُنصح عند شراء جارية أن تُبدل اسمها، لأن السحر يلحق في العادة بالاسم، فإذا تغيّر الاسم فإن السحر سيخطئ ذلك الإنسان. أما الشخص الذي يريد الانتقال إلى منزل جديد، فعليه أن يحسب الوقت الأمثل لهذا الأمر، ويحرص عليه تماماً. ولا يكفي هذا الإجراء وحده لدفع الشرور، إذ على الساكن أيضاً قبل أن يستقر في المنزل الجديد أن يُبخّره، وأن يأتي ببعض القراء المحترفين لكي يقرأوا فيه القرآن كاملاً. وبهذا الأسلوب فقط يمكن أن يطمئن الساكن الجديد إلى أن القوى الشرّيرة قد طُردت من المنزل.

الزار في مكّة

الزار في لغتنا العامية نوع من الجنون، أو هو نوبات هستيرية تنتاب الفرد. ففي فترة سابقة كان الشخص الذي يتقمصه الزار في شبه الجزيرة العربية يعدّ مجنوناً أو يقال عنه: "إن الجنّ قد تمكنت منه"، ولكن لفظة مجنون في شبه الجزيرة العربية أصبحت حالياً تعني فاقد العقل، ولا تحمل أدنى مدلول عن أي عمل تقوم به الأرواح.

تسمع البنات – وهن يافعات – أساطير تروى عن الزار، فإذا أُصبن ببعض الأمراض لاحقاً، فسرعان ما يعتقدن أنهن أصبن بالزار، وتظهر أول أعراض هيمنة الزار على المرأة عادة حين تقع مغشياً عليها على الأرض، وتظل فاقدة الوعي ساعات طويلة، ثم يتكرر هذا الأمر بعدئذ في ساعات بعينها. وكذلك يشخّص إصابة المرأة بالزار حين تعاني أعراضاً معروفة بعينها تتكرر بين الفينة والفينة، تهاجمها فجأة وتسكن فجأة، فلا يتبقى من آثارها سوى اللون الشاحب، والإعياء الشديد، والجفون المفتوحة عن عيونها. وتبدو بعض النساء في هذه النوبات أحياناً كأنهن مستوحشات ثائرات. ويميل الرجال – خاصة المتعلمون منهم والأطباء – إلى استعمال العقاقير أو الوصفات الدينية لمعالجة القوى الشيطانية، بينما تميل صديقات المرأة وقريباتها من ناحية أخرى – بلا تحفظ – إلى استدعاء تلك المرأة العجوز المتمرسة بالتعامل مع الزار "شيخة الزار".

يحدث الزار في أوساط كافة الأعراق في مكّة، ولكنٍ اسمه ربما اختلف في أوطانهم القديمة عن هذا الاسم. أما الاسم الذي يأخذه الزار في مكة فقد اشتق في أغلب الظن من الإثيوبية، وفي هذا الاشتقاق دلالة على أن هذا النوع من السحر قد وفد إلى المنطقة بواسطة بعض العبيد الأحباش. ونجد أن الفروق العرقية في ممارسة طقوس الزار لا تزال في مكّة، فهناك الأساليب المغربية، والسودانية، والإثيوبية، والتركية التي تمارس لطرد الزار عن جسد المريض، وتستخدم كل الأساليب المذكورة في حالات بعينها، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أن تحديد هوية الزار تعود دائماً إلى تلك المرأة "شيخة الزار" التي تستدعى وتؤدي محاولاتها إلى نتيجة صحيحة "في نظرهن". ولا تلجأ شيخة الزار إلى سؤال المريضة نفسها عمّا ألمّ بها، ولكنها تعمد إلى استجواب الزار الذي يسكن جسدها. وتجري مخاطبة الزار أحياناً بلغة عادية يفهمها الحاضرون، ولكن في الغالب لا يجري التحاور معه إلا بلغة الزار التي لا يستطيع أحد أن يفهمها ما لم تفسّرها الشيخة. عموماً هناك فارق طفيف في نتائج كل هذه المحادثات مع الزار، إذ تتركز عادة في رجاءات "طلبات" متكررة من تلك الشيخة، يعلن بعدها الزار نفسه – بعد تحقيق طلباته – رغبته في مفارقة ذلك الجسد الذي يسكنه. ولعل من الطريف هنا أن نلاحظ كيف تراعي تلك الأرواح الشريرة سن وذوق ومطالب الجسد الذي تنزل به.

في اليوم المحدد لمفارقة تلك الأرواح للجسد، تتجمع المدعوات من صديقات المريضة اللائي يأتين إليها عصراً أو مساءً وتقدم لهن القهوة والشاي والغلايين، كما يقدم لهن الطعام غالباً. ترى في هذه المناسبة الشيخة وخادماتها من الإماء اللائي يتحتّم عليهن أن يحضرن هذه العملية ويحيينها بضرب الدفوف، وصنوف الأغاني، ويشاركن في تناول هذه المرطبات، ويتجهزن لأداء عملهن. ولعل من اليسير علينا أن نلاحظ أن مثل هذا العمل لا يعني – إلا في النادر جداً – طرد الزار الحقيقي، فالمرأة المكية لا يستهويها شيء أكثر من الملابس الجميلة والاحتفالات المبهجة، فهي تفضل الزينة والبهجة على كل ما سواهما، كما أن للمكية قدراً كافياً من الدهاء يمكّنها من تمثيل دور من يتملكها الزار. وبهذا استشرت هذه الكوميديا المرضية، وغدت في مكّة مرضاً مستوطناً، وأصبح من الضروري منع المرأة من الاختلاط بالنساء الأخريات حتى لا تصاب بتلك العدوى. فكما يمكن أن تقول: سأذهب غداً إلى عرس فلانة، يمكن أن تقول أيضاً في يوم آخر: سأذهب إلى فلانة هذا المساء، لأنها ستقيم حفلة زار. وقد يتجرأ بعض النسوة ويقلن لأزواجهن: لقد أصبح ضرورياً لي أن أقيم زاراً، لأني قد حضرت عدّة حفلات زار عند لفيف من صديقاتي. ولن تفيد الزوج اعتراضاته، ولا يستطيع أن يستغل حقّه القانوني لمنع زوجته من أن تغادر المنزل، لأنها في هذه الحالة ستتصرف كالمجنونة، مدّعية أن الزار قد تملّكها، ولا تفيق منه إلا إذا تخلى الزوج عن اعتراضاته، أو إذا طلقها. وبماذا يمكن أن يفيد الطلاق الزوج؟ فهو لن يستطيع في هذه الحالة إلا أن يرتبط بأخرى، وستبدأ الزوجة الجديدة بعد فترة وجيزة بالمطالبة بإقامة حفلة الزار. وفي الحقيقة إن الزار ضروري لأكثر النساء هنا، فهو عندهن في أهمية التبغ أو الذهب، أو التطريز والوشي لملابسهن.

لقد اكتشف صديقي الطبيب علاجاً قوياً للزار. رأى هذا الطبيب من زوجته – ولمّا تمض فترة طويلة على زواجه بها – ما يرى به منها في هذا المجال، وبدأت تلك الزوجة تستقبل شيخة الزار سرّاً، وتعمّد هذا الرجل أن يقابل شيخة الزار في درج منزله، وخرق كل القوانين التي تحمي حرمة الحريم، وحقق حتى كشفت له عن نفسها، فهددها بالموت إن رآها على درج منزله مرّة أخرى. ودخل الرجل بعدئذ إلى زوجته التي كانت في نوبة هوس زار حقيقية، فأكّد لها بدوره أنها تعاني الزار فعلاً، وأنه يريد أن يستخرجه منها تماماً، وأنها لن تعانيه بعدئذ إلى الأبد. وأوقد الرجل مبخراً، ووضع فيه حديدته الكاوية، وبدأ يحادث نفسه قائلاً: إن الشياطين مخلوقة من النار، وإن النار لا تكافحها إلا النار، وإن من العسير عليه أن يحدد في جسد زوجته تلك المنطقة التي تختبئ فيها تلك الشياطين، وعليه لا بد للمكواة الحديدية المتوهجة التي وضعها في النار أن تصافح ذلك الجسد كله، وأن تجوس فيه حتى تصادف منطقة الزار. وتنبّهت الزوجة إلى ما يقوله زوجها وما يدبره لها فشفيت قبل بدء العلاج، وطلبت منه أن يصفح عنها، وأكدت أن الزار قد فارق جسدها تماماً، وإلى الأبد.

الختان

عادة ما يختن المكيّون أبناءهم من عمر السنة الثالثة إلى السابعة. وينتظر الفقراء حفلات الختان التي يقيمها جيرانهم الأثرياء أو ساداتهم من الموسرين، حتى يظفروا بحفلة ختان لأبنائهم على نفقة أولئك الجيران الأثرياء، أو على حساب أصحاب العمل الذين يعملون عندهم، أما ختان البنات فإن المكيين لا يعلنونه.

تقام حفلة للنساء في يوم ختان الأولاد، بينما يبقى الرجال في استقبال أقاربهم أو أصدقائهم المقربين. أما في اليوم السابق لإجراء عملية الختان "الطهور" فيؤخذ الطفل في مسيرة مهيبة تجوب المدينة. ويفد المدعون إلى المنزل حيث يتناولون الطعام بعد صلاة الظهر، أما بعد العصر فترى مجموعة من الرجال عند باب المنزل يقرعون الطبول الصغيرة والطارات، ويعلو صوت الذكْر الذي يؤديه إنشاداً بعض هؤلاء وأولئك الرجال، وكثيراً ما يقع الاختيار لإحياء مثل هذه المناسبة الاحتفالية على أتباع الطريقة الرفاعية. حين تبدأ المسيرة، يسير خلف المنشدين الطفل الذي سيختن، راكباً على حصان، متلفعاً بملابس كثيرة موشاة بالذهب والفضة ومحلاة بالجواهر، حتى إنك لا تكاد ترى وجهه من كثرة تلك الملابس المزيّنة، كما يزين الحصان بنحو مماثل لراكبه. ولمّا كان الطفل لا يحسن ركوب الخيل، تراه محاطاً بعدد من الرجال على جانبي الحصان، يمسكون بالطفل، يرفعونه ويخفضونه على ظهر الحصان، وهم ممسكون بقطعة قماش غمست في عطر يجعلونها تحت أنفه.

تسير خلف هذا الموكب خادمة عجوز مملوكة لوالد المختون في الغالب، وهي المرأة التي تقوم على تربية الصغير "دات"، وهي تحمل فوق رأسها مبخراً كبيراً "منقال" يُغذى دائماً بالفاسوخ والملح الذي يرش على نار الفحم المتقد. ويثير خليط الفاسوخ والملح أصوات قرقعة قوية، ويبعث رائحة كريهة، ولكنه في رأيهم يبطل "العين" التي يُخشى شرها خشية كبيرة في مثل هذه المناسبات. ويمكن أن ترى أيضاً عدداً من رفاق ذلك الطفل من أبناء الفقراء، وهم يمتطون الخيول مثله، ولكنهم يرتدون أزياء لا تحدِّث عن أبهة وفخامة زيّ زميلهم. يجوب الموكب شوارع مكة ثم ينتهي مع المغيب تقريباً عند المنزل الذي بدأت منه المسيرة، حيث يتواصل أيضاً الذكر وقرع الطبول. ثم يؤخذ الطفل إلى الحريم، ويتفرق الرجال بعد ذلك.

تبدأ بعد صلاة العشاء "حوالى الساعة والنصف بعد مغيب الشمس" حفلة تستمر حتى منتصف الليل تقريباً، تستمتع فيها صديقات العائلة بسماع بعض المغنيات اللائي اعتدن الغناء في حفلات الختان، وفي حفلات الزواج أيضاً. وعند شروق شمس اليوم التالي يأتي الحلاق "المزيِّن" حاملاً "عدته" وموساه، وبعد أن يذكر اسم الله تجري عملية الختان بسرعة لذلك

الطفل المستلقي على ظهره، والذي تحاول أمه أن تلهيه عما يحدث له بأن تجذب انتباهه بشيء من الحلوى. ويوقف بعدئذ النزف الناتج من القطع بوضع رماد قطن محروق على الجرح، ثم يضمّد بشريط لاصق "لزقة" تسمى "مارتاك". ويبرأ الجرح عادة بعد أسبوع من العملية. وبعد أن تنتهي عملية الختان مباشرة يستمتع أصدقاء العائلة من ذكور وإناث بإفطار من فطيرة شهية تسمى "الزلابية".

الزواج

يعتمد أسلوب الزواج على الظروف المحيطة به، وعلى ما إذا كانت العروس بكراً أو ثيباً، كما يعتمد على سن العريس. يدعو العريس عادة أقرباءه وبعض أصدقائه المقربين إلى وليمة تقام بعد بضعة أيام من إتمام الزواج، كما تدعو العروس قبل أن تغادر منزل أهلها إلى منزل الزوج مجموعة من النساء لقضاء أمسية أو بضع أمسيات غنائية. أما إذا كانت العروس ثيباً استعاضت بهذا العرس عن زواج سابق لها، فإنها ستنظر إلى مثل هذه المباهج الباهظة التكاليف بعين أخرى، وستعمل على أن تقتصد في النفقات بقدر الإمكان، كي لا تتحمل عبئاً مالياً مكلفاً. وليس من المستغرب أن يعقد في مكّة زواج يتفق فيه العروسان على عدم إقامة حفلات البتّة، ولكن مثل هذا الزواج غير المتواتر الحدوث لا يثير الاهتمام في ذلك المجتمع.

حين يتم عقد الزواج ينقل الأثاث المعدّ للعروس من منزل أهلها إلى منزل العريس، ويؤتى بالعروس ليلاً إلى منزل الزوج. ويراوح سن العروس في مكة بين اثني عشر وعشرين عاماً، أما العريس فيتراوح عمره بين الرابع عشر والخامس والعشرين.

تبدأ الخطبة أو عرض طلب الزواج بزيارة إحدى قريبات العريس لأم العروس. وتعتبر هذه الزيارة استكشافية، تنظر فيها هذه المرأة إلى الفتاة المرشحة، وتتحرى عن شخصيتها وأخلاقها. وإذا توافقت نتيجة التحريات مع الآمال المرسومة، تأخذ بالتدريج في تغيير مجرى الحديث وتوجيهه الاتجاه المطلوب، وذلك حتى تتمكن من أن تقدم حال رجوعها تقريراً عن درجة النجاح التي يمكن أن يصيبها الطلب المباشر من أهل العروس. أما إذا كانت العائلتان ترتبطان سابقاً بروابط الصداقة، فهناك طرق أمثل من هذه الطريقة للحصول على معلومات محددة بشأن إمكان إتمام الزواج المرتجى، وذلك بأن تثير إحدى النساء حديثاً عارضاً في هذا الشأن. وعلى الرغم من وجود مثل تلك الروابط السابقة، يتطلب النمط التقليدي للخطبة زيارة مثل تلك المرأة المشار إليها آنفاً، ما يجعل الأمر مجرد تمثيلية كوميدية لا معنى لها. وتقتضي القواعد التقليدية ألا تكون الفتاة التي ستخطب في غرفة الضيوف حين تأتي تلك الزائرة بغرض

الخطبة. وتعبّر الزائرة عن رغبتها في رؤية الفتاة، وسيتضح حالاً من الأسلوب الذي يقابل به طلب الزائرة إن كان هناك شك في رفض عرض الزواج المقترح. ويمكن الخاطبة – على ضوء ما تقدم – أن تتدرج إلى مدى أبعد في تناولها الموضوع، أو أن تتوقف عن إثارته إذا وجدت عدم استجابة لرؤية الفتاة. فإذا أجيب طلب الزائرة في رؤية الفتاة، فإنها تبدأ حديثها معها بقولها: "إن شاء الله نصير أهل"، وترد عن العروس السيدات الأكبر سنّاً ما يؤيّد ذلك القول، بينما ترسم تلك الفتاة على وجهها ظلالاً من الخجل المؤيد للقبول.

حين ترجع تلك المبعوثة بتقريرها الإيجابي، يذهب أحد أقرباء العريس إلى عائلة العروس ليوثق بكلمة الرجال اتفاقية النساء. وعادة ما يختار لهذا الغرض أبلغ الأقرباء لباقة، وأكثرهم تدريباً على إتمام الصفقات. ويستقبل ذلك الرجل في منزل أهل العروس بالحفاوة، شأنه في ذلك شأن تلك المرأة التي سبقته، وتقدم له القهوة وغيرها. ويحدد الرجل بعدئذ موعد العقد "يوم الملْكة"، ويبدأ – في لباقة مصطنعة، وبدقة الحاذق في التجارة – تحديد قيمة المهر. ولكن لَيس هناك – غالباً – الكثير مما يمكن أن يقال في تحديد تلك القيمة. فالعوائل ذات الوضع الطيّب تطلب مهراً كبيراً يضيف إليه والد العروس بسخاء بعدئذ مبلغاً آخر لمقابلة نفقات الزواج، أما الوالد من الطبقة الوسطى فيطلب لابنته مهراً يقدره بعدّة مئات من الريالات، ويدّعي أنه لم يفعل ذلك حبّاً في المال، ولكن تقديراً منه لشأن ابنته. أما الطبقات الفقيرة نسبياً فتصرّ على أعلى قدر ممكن من المهر الذي ينفق في تجهيز الفتاة، كما يهيّئ لها هذا المهر في حال طلاقها استثماراً مادياً صغيراً. أما المعوزون فيجب عليهم أن يوطّنوا أنفسهم على تجاوز كل شيء في هذا الصدد، وعليهم أن يقنعوا بمهر لا يتجاوز بضعة ريالات، هذا إذا لم يكن جمال فتاتهم الكاعب الحسناء قد أثار رغبة بعض الأثرياء في الاقتران بها. أما هدية الزواج فتتباين بدورها تبايناً كبيراً بتباين الطبقات. وأخيراً يجري توثيق الاتفاق الذي تمّ بين الرجال بقراءة الفاتحة، ويعني هذا أن الفتاة قد أصبحت على عتبة الزواج.

يرسل والد العريس – أو العريس نفسه قبل التاريخ المحدد للعقد – بعض أقاربه إلى والد العروس حاملين معهم المهر أو مقدم المهر الذي يدفع قبل الزواج. يحمل أحد هؤلاء الرجال صينية فضية مغطاة بحوالى خمس ياردات من قماش الشاش الأحمر، تحتوي على عدد من القطع الذهبية تمثل مقدار المهر المتفق عليه، كما تحتوي على قطع من سكر النبات، وقليل من حب الهان، وياقات الفلّ المنسقة في أشكال جميلة. وتغطى تلك الصينية بقماش التلّ الرقيق المطرّزة أطرافه بأشكال زهور، وبزخارف مذهبة.

يشتغل في هذه المناسبة أهل العروس، رجالاً ونساءً، كل في منطقته المخصصة له، بتقديم القهوة والشربات للضيوف. وما إن يظهر هؤلاء المبعوثون من قبل العريس حتى تجلجل

"الغطرفة" من مقصورة النساء، بينما يخرج الرجال لاستقبال الضيوف فيتسلمون المهر ويشيدون به. وتعتبر هدية الزواج في هذه المناسبة "المهر" حقّاً شرعياً للعروس، كما يمكن المرأة في زواجها اللاحق أن تتسلّم المهر بنفسها، مباشرة، بعد حسم أتعاب الوسطاء. أما البِكر التي تكون في ريعان الصبا، ولا تملك القدر الكافي من الخبرة، فإن الأب أو الوصي هو الذي يدبر لها أموال المهر المستحق، ويشتري لها مستلزمات منزلها الجديد. ولهذا نرى مثل هذا الولي يدّعي أنه قد أنفق المهر قبل أن يُؤدّى إليه فعلاً. أما إذا كان ذلك الولي ميسور الحال، فإنه يضيف – بلا شك – إلى ذلك المال مقداراً آخر كبيراً لتجهيز الفتاة، وعلى العكس من ذلك فإن الولي – إذا كان من الفقراء – سيحتفظ بالطبع بجزء من ذلك المهر لنفسه ليحلّ به بعض مشكلاته المادية. وحين يحين موعد مغادرة ممثلي العريس حاملي المهر لبيت أهل العروس، فإنهم يطلبون من أقارب العروس أن يكتبوا لهم صك إعلام بتسلّم المال، وسيقدمون لذلك الاعتذار بالقول: نحن أصدقاء بلا شك، ولكنكم تدركون... وقبل أن ينتهوا من قولهم، يقاطعهم أقرباء العروس، ويتحفونهم بصك الإعلام المطلوب.

أما مراسم العقد "المِلْكة" أو عقد النكاح، فهي بسيطة جداً. فهناك في تلك الجلسة يُتلى قبول من ممثلي العروس يليه حالاً قبول وموافقة رسمية من جانب العريس. ويجب أن يوقّع هذا العقد من شاهدين على الأقل، وبهذا تتمّ مراسم الزواج. وهناك أشياء غير ملزمة استحسنها الشرع في هذا الصدد يمكن أن نذكر منها: زيادة عدد شهود العقد إلى أكبر عدد ممكن، وكذلك إلقاء خطبة أو خطبتين من قبل أحد الأطراف أو كليهما عن ضرورة الزواج باعتباره واجباً مقدساً، وسنّة مؤكدة.

يتمّ عقد الزواج في المنزل، "منزل العروس غالباً"، أو في المسجد حيث نجد المدعوين يجلسون في صفوف، متجهين إلى القبلة كأنهم يريدون أن يؤدوا صلاة الجماعة، ويجلس في منتصف الصف الأول صاحب الاحتفال، ونادراً ما يكون ذلك الرجل المتصدر والد العروس، ففي الغالب الأعم يوكل الولي إتمام العقد إلى شخص آخر يقوم مقامه. وليست هناك وظيفة محددة يتحتّم على المملِّك أو عاقد النكاح أن يقوم بها، ولكن عليه أن يكون مُلمّاً بالشكليات، وحافظاً للخطبة التي تلقى في هذه المناسبة. ويندر وجود هذه الطائفة من المملِّكين المتفقهين في القرى، إذ لا نجد منهم في القرية الواحدة سوى واحد أو اثنين، ولكنهم يعدّون في المدن بالعشرات. وعادة ما يكون هناك شخص واحد في كل أسرة بارزة يملك من المؤهلات الضرورية ما يمكنه من القيام بهذه الوظيفة، كما يمكن أيضاً الفقهاء وكل المتعلقين بالحرم أن يؤدوا هذا العمل. ويمارس القاضي نوعاً من السيطرة على هؤلاء المملكين، فهو – بحكم مهنته – يفصل في الحالات المتنازع عليها في شرعية الزواج واستمراره. ونجد أن القضاة في عدد من الأقطار الإسلامية يعيّنون عدداً من الرجال للقيام

بهذه المهمة، وعلى هؤلاء المملكين في هذه الحالة أن يجعلوا القاضي مرجعهم.

في مكة يستطيع أي متعلم أن يحصل من القاضي على تصريح يؤهله للقيام بمثل هذا العمل، ولهذا ازدادت أعدادهم إلى بضع مئات. ومما يجدر ذكره أن العاملين في الدوائر الشرعية العليا المسؤولة، وكذلك الفقهاء البارزين، لا يحتاجون إلى تفويض من القضاء للقيام بإجراءات عقد النكاح. وقد حاولت السلطات العثمانية ضبط هذا الأمر، فعيّنت عدداً من المملّكين لكل حي في المدينة، ولكنها فشلت لعدم استجابة المواطنين لما قرّرته، فهم يرغبون – عادة – في أن يسندوا شرف هذا العمل إلى أحد الفقهاء من أبناء الأسرة، كما يوكلونه في أحايين أخرى – مع دفع الأتعاب في العادة – إلى إمام المسجد الحرام، أو أحد القراء.

عندما يلتئم شمل المدعوين في حفل العقد يدخل العريس في صحبة بعض الأصدقاء، ويأخذ مكانه أمام الحاضرين بالقرب من المملّك. ويبدأ الأخير خطبته بالبسملة والصلاة على النبي، ثم يستشهد على كنه الزواج وأهدافه بآيات من القرآن الكريم، ونصوص من الأحاديث الشريفة، ويُذكّر الموجودين بأن كل زوجين لا يمكن أن يرتبطا أو ينفصلا إلا بإذن الله ومشيئته. ويختتم عاقد النكاح خطبته بالكلمات الآتية: أقدم لك بهذا الزواج وعقد القران المرأة التي اخترتها، فليحفظها الله من كل سوء، وهي فلانة بنت فلان، وذلك على المهر الذي جرى تسليمه والذي اتفقتما عليه. ويرد العريس حالاً: أوافق على الزواج منها بالشروط المذكورة. وهنا يرفع الحاضرون أيديهم أمام وجوههم ويقرأون فاتحة الكتاب. وبهذا المشهد، أو ما يشابهه، يتمّ عقد القران في مكة المكرمّة.

من المتبع في مكّة حديثاً إتمام الزواج في منزل العروس بعد شروق الشمس بساعات، أما عقد الزواج في ساحة المسجد قبيل مغيب الشمس فهو أمر مألوف، ولكنه معارض لما جرت عليه العادة. ويجري الأسلوب الذي يتم به إكرام الضيوف في مثل هذه المناسبة على النحو الآتي: يقدم للضيوف – بينما هم جلوس في غرفة الاستقبال – نوعان من الطعام: أحدهما "حلو"، والآخر "حادق"، كما تقدم أيضاً أنواع من اللحم والحلوى، وأنواع من البسكويت يسمى "البقسماط". ويحصل كل ضيف عند انصرافه على حوالى نصف رطل من "الحلاوة السكرية" أو سكر النبات، في طبق مصنوع من السكر أيضاً، وله غطاء صيغ من نفس تلك المادة " صحن بمكبّته " ويقف من أهل العروس ألصقهم قرابة بها عند باب تلك الغرفة لتلقّي تهانئ الضيوف عند انصرافهم، ويشكرونهم على حضورهم.

أما عقد القران في رحاب الحرم فيتم عادة بعد صلاة العشاء. ويقع اختيار مكان مجلس العقد بالاتفاق مع بعض متعلقي المسجد الذين يحددونه عادة عند حجر إبراهيم، أو على سطح بئر زمزم. وجدير بالذكر أن الحكام وكبار الموظفين يؤدون صلاتي الظهر والعصر على السطح العلوي لزمزم حيث يتمكنون من تأدية الصلاة في الظلّ وقرب الكعبة، في ذلك الوقت

الذي تضرب فيه الشمس بعنف ساحة المسجد.

حين يتم تحديد موقع حفل العقد في ساحة الحرم يفرشون تلك المنطقة بالسجاد الأنيق، ويُضاء المكان بعدد من مصابيح الشموع "التنانير أو الفوانيس"، وحين تقرأ الفاتحة لتوثيق العقد، ويهم الضيوف بالانصراف، توزع الحلوى بإحدى ثلاث وسائل: تكمن أميز تلك الوسائل في إعطاء كل ضيف نصف رطل من سكر النبات في كيس صغير من الشاش الأحمر، أما الوسيلة الثانية التي هي أقل ترفاً من سابقتها وأوفر تكلفة، فهي أن يعطى كل ضيف مجموعة من الحلوى الطويلة الرفيعة المعروفة باسم "أبانيت، ومفردها أبنوتة" ليحملها معه في خرقة خاصة، أما الأسلوب الثالث، وهو الأقل تكلفة، فهو إكرام الضيوف بتقديم الشربات في نهاية الحفل حين يهمّ الضيوف بالانصراف. ونلاحظ في مثل هذه المناسبة وجود أسلوبين لتقديم الشربات: مكي، ومدني. يقضي الأسلوب المكي في تقديم الشربات بأن تُملأ الكؤوس ثم تُدار على الحاضرين، يقذفها فم لفم آخر، يتناول كل ضيف جرعات قليلة منها، ثم يناولها للآخر وهكذا. أما الأسلوب المدني فيقضي بأن يحصل كل ضيف من الضيوف على كأس شربات مترعة، وعليه أن يأتي عليه كله لا يستبقي منه شيئاً. ويحدد الضيوف البارزون الذين يقدم لهم الشربات قبل غيرهم أسلوب تقديمه في تلك الجلسة، لأن الآخرين سيقلّدونهم، ويجرون على منوالهم الذي سلكوه. ويأخذ توديع الضيوف، حين يهمون بالانصراف، نفس صورته حين يقام العقد في المنازل، إذ يقف أقارب العروسين عند باب الحجر، أو عند باب مبنى بئر زمزم، شاكرين للمدعوين حضورهم.

قد يحدث أحياناً أن يتمّ عقد القران في المنازل بعد صلاة العشاء على النحو ذاته المتبع في عقده في المسجد الحرام. ولكنهم هنا يضربون على طبول كبيرة "زيرط"، يجعلونها أمام باب المنزل وذلك للإعلام بالمناسبة، كما يزين مدخل الشارع المؤدي إلى المنزل بمصابيح الزيت "القناديل أو البرم". وهي سرج زيتية أسطوانية كبيرة. وهم في العادة لا يقدمون في مثل هذه المناسبة الأكل في المنزل للضيوف، لكنهم يقدمون لهم القهوة التي تقدّم لكل زائر في المناسبات الأخرى. ويستطيع العروسان شرعاً أن يمارسا حياتهما الزوجية بعد عقد القران مباشرة، غير أن التقاليد تحتّم عليهما الالتزام قبل ذلك بسلسلة من الاحتفالات الكثيرة المرهقة، فالأصدقاء والصديقات بصفة خاصة لا يمكن أن يحرموا أنفسهم من متعة المشاركة في الاحتفالات، عاملين في خدمة المدعوّين أو متفرجين عليها.

في اليوم السابق لموعد عقد القران يكون هؤلاء الأصدقاء من الجنسين قد هيّأوا أنفسهم للاشتراك في تلك الاحتفالات، وذلك بعد أن يكونوا قد أسدوا خدمات جلّى لعائلة العروس، وساعدوها في تجهيز اللوازم الكثيرة التي تجلّ عن الحصر، وكدّسوها في منزل العروس. وجدير بالذكر أن بعض تلك اللوازم باهظة التكاليف، كما يُلاحظ أيضاً أن نفقات تكاليف الأكل

والشراب والإضاءة، وما يدفعونه من مبالغ نقدية للمغنين، وما يتبع ذلك من نفقات باهظة جداً يعجز الكثيرون عن تحمل وطأتها ووطأة ما يتبعها من تجهيز أثاث غرف العروس ومتاعها ومتطلباتها الأخرى، ولا يستطيع تحملها إلا الأثرياء. يقتني هؤلاء الميسورون عادة التجهيزات الضرورية لإقامة مثل هذه الاحتفالات، ولا يمانعون في إقراضها الأصدقاء أو الأشخاص الآخرين من الذين لا يعرفونهم، إذا أوصى بهم أولئك الأصدقاء. أما الأشياء الأخرى غير الأرائك وسُرج الإضاءة وغيرها - والتي ربما لا تكون في منازل الميسورين - فيمكن الحصول عليها بالإيجار.

جدير بالذكر أن بعض أثرياء التجار في مكّة يقيمون مؤسسات خيرية قوامها الزينات ومتطلبات أفراح الزواج، يقدمونها مجاناً لكل من يطلبها. ويستطيع أي فرد - وفق شروط معينة - أن يحصل على حقّ استعمالها. وعلى هذا تتمكن أفقر الفتيات - خاصة اللائي ترجع أصولهن إلى عائلات كريمة - أن تؤدي في هذه المناسبة دور الملكة مرّة واحدة في حياتها على الأقل. تقول النساء: البارحة كانت "ملكة" صديقتنا، أما الليلة فستذهب "للحنّة"، وغداً سننصب "الأريكة"، وبعد غد ستكون "غمرتها"، أما ليلة "الدخلة" فهي الليلة التالية للغمرة. تلك هي أبرز ليالي الزواج في مكّة المكرمّة.

التعليم

التغنّي بالقرآن وتجويده على ضوء قوانين معقّدة تتحتّم مراعاتها تماماً هما أول أمرٍ يجري الاهتمام به في التعليم الإسلامي في مكة. ونبدأ هنا بالنظر في مدرسة الأطفال "الكتاب" حيث يقضي المدرس "المعلم أو الفقيه" كل وقته في تعليمهم أصول هذه التلاوة. أما الأطفال الذين لا يستطيع آباؤهم تقديم النفقات الزهيدة التي يتطلبها هذا النوع من التعليم، فيمكنهم تعلم تلاوة بعض قصار السور التي يحتاجون إليها لممارسة شعائرهم، وذلك بالإنصات إلى بعض العلماء والفقهاء. أما الآباء الذين لا يرغبون في أن يختلط أبناؤهم كثيراً بالأطفال الآخرين، فإنهم يستأجرون فقيهاً خاصاً يأتي يومياً لتدريسهم في المنزل. هذا وقد تتفق الأسر مع أسر أخرى على أن ينال أبناؤها تعليماً خاصاً معاً على يد فقيه معين يستأجرونه لهذا الغرض.

تذهب البنات الصغار إلى المدارس عادة مع البنين، ويبقين على هذا النحو حتى سن الثانية عشرة، ثم يحبسن بعدئذ في المنزل، أو قد يوكل أمر تعليمهن بعد ذلك إلى فقيهة. فقد جرت العادة، إذا أرادت بعض الفتيات من الإماء اللائي بلغن سن النضج، أو النساء الأخريات، أن يستزدن من تجويد قراءة القرآن، بأن يوكل أمرهن إلى مدرّسات من جنسهن.

يخطّ الأطفال في المدرسة بإشراف المدرس واجباتهم القرآنية بالحبر على لوح خشبي، فإذا انتهى الواجب بعد المراجعة غسلوا اللوح فأصبح نظيفاً. وعلى كل طالب من أولئك الطلبة أن يحفظ عن ظهر قلب بعض السور، أما الطالب الحاذق فهو الذي يستظهر القرآن كله، ويكتسب حينئذ لفظ "حافظ".

عندما يلحق الأب ابنه بالمدرسة يمنح الفقيه المدرس هدية طيبة تسمى "استفتاح"، تراوح قيمتها بين ربع ريال وريالين. وعلى التلميذ بعد ذلك أن يتحف أستاذه كل يوم خميس بهدية تراوح قيمتها بين نصف ريال وثلاثة أرباع الريال. أما في الأعياد الرسمية، والموالد، وليلة النصف من شعبان، وليلة الإسراء والمعراج، فعلى الأب أن يعطي بنفسه الأستاذ أو أن يرسل له مع التلميذ هدايا تتناسب ومقدرة ذلك الأب المالية.

يجلس الطلاب في المدرسة في دائرة حول المعلم على الأرض، يدندنون بقراءة جماعية، وعلى كل منهم أن ينتبه تماماً إلى تلك النغمة المجتمعة لا يشذّ عنها. أما من يحدث منهم نغمة نشازاً فستلاحقه خلجات وجه الفقيه الذي سيلاحقه بعصاه أيضاً، فمثل ذلك الرجل يستطيع أن يتبين صوت أي تلميذ يخطئ من بين تلك الأصوات المتجمعة، ويعاقب محدثه حالاً.

حين تخاطب أحد أطفال المدرسة تسأله: ما هي سورتك؟ وسيحدد ردّه المستوى الدراسي الذي وصل إليه. وعندما ينجح أحد من التلاميذ في حفظ نصف القرآن الكريم أو ثلثيه، يخبر الفقيه والد الطالب بهذا الأمر، فيحدد الأخير يوم الاحتفال بهذه المناسبة "العزيمة" التي يُدعى إليها الأستاذ وطلابه الآخرون.

يرتدي في ذلك اليوم كل طلبة المدرسة أميز ثيابهم الموشاة عادة بالذهب، ويقصدون دار صديقهم السعيد، وهم يحملون ألواحهم فوق رؤوسهم حيث يجدونه حاملاً لوحه أيضاً، وقد لفّه في قماش زيّنت أطرافه بفتلات الذهب، ثم ينظم هؤلاء الطلاب أنفسهم في صفوف يجعلون صاحبهم المحتفى به في منتصفها، ويسيرون به في طرقات المدينة احتفالاً بالمناسبة. ويقوم أحد التلاميذ الأكبر سناً في هذا الموكب بإنشاد بعض القصائد الخاصة بتمجيد القرآن الكريم، أو مدح الرسول الكريم، أو ترتيل آيات من القرآن الكريم تناسب ذلك المقام. وتنتهي هذه القراءات بخواتم معينة يرددها وراءه الجميع، ومن هذه الخواتم على سبيل المثال ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ **(الأنبياء : ١٠٧)**.

يعود الطلبة جميعهم بعدئذ إلى منزل المحتفى به حيث يجدون أقاربه جلوساً مع الفقيه، ويستمتع الجميع حينئذ بالأكل الشهي، ويحصل الفقيه في هذا الاحتفال المسمى "الشرافة" على مبلغ يراوح بين ريال وثلاثة ريالات، كما تكون صورة الاحتفال المسمى "إقلاباً" الذي يقام لمناسبة ختم الطالب للقرآن على هذا النمط أيضاً. وعلى العموم، فإن نهاية سني حياة الطالب الدراسية وتخرّجه تشهد احتفالاً يدعى إليه عدد من الناس على نطاق أوسع من

سابقه، إذ تقام وليمة لسيدات الأسرة أيضاً، وعادة ما تكون الوليمة التي تقام في هذه المناسبة أبلغ ترفاً من وليمة "الشرافة"، كما يكون العطاء المادي للفقيه أكبر قيمة، والكرم أوفر قدراً. ويمكن الفقيه أن ينال من أهل الطالب ذوي المركز الممتاز ثلاثين ريالاً، وبدلة كاملة، أو جبّة على الأقل. والجدير بالذكر أن من المعتاد جداً في هذه المناسبة أن تكون هناك تلاوات دينية مختلفة تعقب وصول مسيرة الطلبة التي يزفون فيها زميلهم عبر شوارع المدينة، ويتم بعد التلاوة تقديم الطعام "الوليمة" للضيوف.

الفصل الخامس

داوتي... اللؤم العنصري مُجسّداً

رحالة جاب أصقاعاً مختلفة من شبه الجزيرة العربية، وهو يلعن طوال عشرين شهراً متصلة استغرقتها رحلته في تلك المنطقة رمالها وجبالها وتلالها ووديانها وكل قطعة من أرضها التي لم تبخل عليه بما تقدمه لإنسانها، فأفضت دروبها به من بادية إلى حضر ومن وبر إلى مدر. فهي أرض ميتة في تقديره لا تورث إلا التلف أو الوهن.

عاش هذا الرحالة في بعض مزارع شبه الجزيرة العربية، وتفيّأ ظلالها، وتزوّد من تمورها ولحوم حيواناتها كرماً من مستضيفيه الذين لم يطلبوا إليه أن يؤدي لهم عملاً أو يدفع لهم رسماً نظير إقامته، ولكنه لم يصف ظلّ تلك المزارع إلا بالحرور، وأنكر طعم ما اقتاته من لحوم الإبل التي تغذى بألبانها وحملته أكوارها، فهي حيوانات بليدة وجبانة – بحسب كلماته – و لم تعد منه إلا بالسخرية من أشكالها وألوانها. أدان سلوكها، وهزىء من رعايتها.

سبّ داوتي كل من تصدّق عليه وأحسن إليه، و لم يسلم منه شيوخ العرب الذين وفّروا له الحماية والأمن في وقت تصرّم فيه حبل السلم الاجتماعي، وانفرط عقده بانهيار الدولة السعودية الوسطى "الثانية"، وكان إنسان شبه الجزيرة العربية، على اختلاف قبائله وبلدانه، يفتقر إلى الحماية والأمن. و لم يسلم من قلمه أيضاً رفاق دربه الذين حملوه من منطقة إلى أخرى، وأحاطوه برعايتهم، و لم يُجازِهم في كتابه إلا بالشتائم المقذعة والسباب ونكران الجميل.

اعتقد هذا الرحالة وهو يضخّم من ذاته ويفاخر برقي عنصر أمته أنه أصاب الأمن في تلك الأصقاع بهويته التي لم يكن أهل شبه الجزيرة يقيمون لها وزناً، وبمسدسه الذي لم يستعمله قطّ في الرحلة، وبحرصه على سلوكه الحذر من أن يأتي بجرم يهيّئ للعرب ذريعة للعقاب. وفي الحقيقة لم يكن هؤلاء أو أولئك يحتاجون إلى التحرّي عن سبب أو اتخاذ ذريعة إن أرادوا

قتله، فلم يكن هذا البائس في نظرهم جيشاً جراراً يتهيّبون لقاءه، و لم تكن في العديد من المناطق التي زارها دولة منظمة تراعي السنن الدولية، وتهيّئ له الحماية الرمزية التي تهيّئ له قدراً من الأمن. وعلى الرغم من أنه ينكر أنه كان مبعوثاً من دولة أو جماعة كنسية أو علمية، نجد في كتابه خطاباً من والي جدّة بتاريخ ١١ يناير ١٨٧٨ جاء في جزء منه أنه درس رسائل التوصية والأوراق المتعلقة به، وعرف أن غرض وصوله إلى خيبر هو "تصحيح الأطلس والتعرف إلى أسلوب الحياة بهدف نشر معلومات لفائدة العالم". وعبّر الوالي للرحالة عن رضاه الكامل لقيامه بهذه الدراسة، لكنه نصحه بالعودة إلى حائل حتى يتّقي "تهوّر البدو"، وألحق الوالي بخطابه إلى داوتي خطاباً آخر لابن رشيد ليمكنه من القيام برحلاته باطمئنان. ورغم ذلك فإن المتواتر عن داوتي أن قريحته هي التي ساقته إلى شبه الجزيرة العربية، وأنه لا يُمثّل إلا نفسه، و لم تكن أهدافه إلا ذاتية تتصل بشخصه فقط. ولا نجد بين ثنايا كتابه إشارة إلى الجهة التي تولّت الإنفاق على هذه الرحلة، ما يجعله في هذا الصدد نسيج وحده بين كافة من عرفنا من الرحالة.

بدا لهذا الرحالة أنّ كافة البدو - كما ورد في كتابه - "يعيشون على العوز ويقتاتون العداء"، وراح يسأل أحد رفقائه:

"هل يمكن أن تأمن على نفسك ولو يوماً واحداً في أوساط هؤلاء التعساء المتوحشين؟ انظر كيف يتعلق أمل كل فرد منهم ليظلّ على قيد الحياة بالتهام الآخر؟ إنهم جياع لا يأبهون للسير الطويل من دون أن يتجرع الفرد منهم قطرة ماء واحدة أو يتناول طعاماً إلا عرضاً حينما يتمكن من الظفر بتمرة".

كذلك وصف داوتي أول رفيق له فوق رمال شبه الجزيرة العربية فقال:

" تبدو عيناه الحادتان اللتان تشعان قسوة فوق خديه الغائرين كأنهما قد انشقا عن أرض المجاعة التي لا تعرف القانون. أما غذاؤه في مجمله فبضعة فناجين من القهوة، يظلّ يداوم على احتسائها منذ الصباح مع بضع تمرات، إضافة إلى فضيلة الصبر التي تنم عن شجاعة فرضها عليه الجوع فرضاً."

أما عامة العرب البسطاء الذين خالطهم وأحاطوه بعطفهم وأمتعوه بحكاياتهم فهم عنده مغفّلون لا تتسع عقولهم للاستيعاب ولا صدورهم للصبر، ولا تعرف أيديهم عمل الخير، فهم لا يعترفون للحكيم الذي عالجهم بفضله ولا يحملون له جميلاً. يماطلونه في ثمن الدواء، و لم يطف بباله أبداً أنه لم يكن طبيباً مؤهلاً، وأن ثمن كل ما في جعبته من مسكنات ومسهلات لم يكن يكفي لإعالته شهراً واحداً.

بالغ هذا المأفون وأمعن في الإساءة إلى ثقافة العرب، وازدرى معتقداتهم، فنفث سموم حقده العنصري الذي اتسعت دائرته، وتجاوزت مسلمي شبه الجزيرة العربية وبلغت نصارى الشام. فالسامي، مسلماً كان أو نصرانياً، عند هذا الرحالة مثل الجالس في بالوعة قاذورات

وحاجباه معلقان بالسماء. ويزيد هذا الحقد ويفيض عند داوتي إذا اتصل بثقافة الوهابيين، فيبدو مُجسّداً يعبر عنه بمزيد من الشتائم والسباب.

يكشف كتاب داوتي: **رحلات في العربية الصحراوية** عن شخصية كتابه، فإذا هو جريء ولكنه جبان عنيد سرعان ما ينكسر ويخنع، متطلع ولكنه عطل من المؤهلات اللازمة لتحقيق التطلعات. ولا يكشف هذا الكتاب عن تناقض في شخصية مؤلفه فقط، بل يمتد التناقض إلى المضمون. يقول الكاتب: "أقدم كتابي هذا راجياً ألا ينظر القارئ إلى أي جزء منه إلا على أساس أنه رؤية لرجل جائع وحديث لمرهق أنهكه الإعياء، يضاف إلى ذلك أن الشمس التي عشت وهجها لفحتني، وجعلت مني عربياً، ولكنها لم تلفني بفكر الشرق و لم تدثرني بدثاره". وعلى ضوء ما ذكر هذا الرحالة يمكن المؤرخ أن يرى تناقض المضمون في هذه العجالة في جانب واحد منه فقط، وهو المتصل بالوهابيين الذين أشبعهم سباباً وشتماً، ولكنه لم يسق في سفره الضخم الذي حوى ما يزيد على ستمئة ألف كلمة دليلاً واحداً يقنع القارئ من أي جنس وأي ملة بأنهم يستحقون ذلك، وأن تلك الشتائم المتواترة البارزة في مفردات الكتاب تنقلب إلى ضدّها حين ينظر في مضمونها.

وصل هذا الرحالة – كما سبق أن بيّنّا – في فترة كانت فيها الدولة السعودية الوسطى تلفظ أنفاسها الأخيرة، فصوّر كتابه تلك الفوضى الضاربة أطنابها على طول الجزيرة العربية وعرضها، حيث راحت كل قبيلة تهاجم الأخرى، وباتت كل حاضرة تتربص بالأخرى، وما كان يجمع بين حكامها الذين لا تتعدى سلطاتهم أسوار حواضرهم – أو ربما تمتد إلى حلفاء من قبائل البادية، لا يثقون في أهل المدن ولا يوثق بهم –إلا البغض والتنافر، ما يجعل القارئ يدرك أن الوهابيين هم الذين لملموا سابقاً شعث الجزيرة العربية وآخوا بين قبائلها، وألّفوا بين مدنها، فأقاموا الأمن. ولن يعدم القارئ – وهو يطالع الثرثرة التي فاض بها هذا السفر – ما يشير إلى أن الأميّة قد حوربت في ذلك المجتمع في فترة حكم الوهابيين، بل ربما أثبت لفقهائهم بعض الكرامات التي ما كان لهم أن يدّعوها لأنفسهم.

علينا – معشر المؤرخين، حين نضطر إلى اعتماد رحالة ما مصدراً لما نكتب – أن ندرس قبل ذلك كتابه كله وألا نكتفي بنقل بعض مفرداته، فالمضمون – في حقيقة الأمر، كما يدلّ هذا الكتاب – ليس مجموعة مفردات، ومن المؤكد أن البعض مختلف عن الكل لا يكوّنه مظهراً ولا يمثله جوهراً. وربما يقودنا هذا إلى مشكلة بحثية أخرى تجابه من يأخذون عن كتب الرحلات الغربية المترجمة إلى العربية، وهي كلها – في ما نعلم – ناقصة، لا تضمّ ترجمة الكتاب المعني كله، بل تسقط الترجمة أحياناً فصولاً كاملة، أو تتجاوز عن كثير بإسقاط الفقرات التي تسيء إلى إنساننا وثقافتنا. ولعلنا لا نخطئ حين نقول: إن في ذلك جرماً شنيعاً، إذ يجرّد المترجم الكتاب من روحه، ومن فكره، ومن مضمونه، ويضع في روع العديد من المعتمدين

على الترجمات أن هذا الرحالة أو ذلك كان منصفاً للعرب، بل ربما أظهرته هذه الترجمات الانتقائية وكأن العناية قد بعثت به ليسجل أمجاد العرب ويجلو من ثقافتهم ما عجزوا عن جلائه.

لا تثريب علينا إن اعتبرنا داوتي شيخ الرحالة الصعاليك الذين شهدت شبه الجزيرة العربية عدداً منهم، فهو أعلاهم كعباً بلا منازع، وأكثرهم شهرة في عالم الرحلة، وأصدقهم سعياً في تحقيق هدفه الخاص الذي كان في ما يبدو استشراقياً بحتاً، كما أن كتابه كان أكثر كتبهم تفصيلاً، وأكبرها حجماً. وعلى الرغم من تهوسه وتعصبه وكراهيته المتدفقة لتجرف كل شيء في شبه الجزيرة العربية اعتباراً من إنسانها، نزولاً إلى حيوانها وطبيعة أرضها وحرّها اللافح، إلا أننا نقدر له إبرازه بعض مثالب العرب التي على المؤرخ الحاذق أن يضعها تحت مجهر النقد ويجردها من المبالغة والتهويل ووهج الزيف الذي لفّها، لنتعرف أو نزداد معرفة بعيوبنا التي لا نحسّها، أو ربما لا نعترف بها، فنحن خلق ممن خلق، لم نرقَ إلى درجات الملائكة، إضافة إلى أننا بذلك نرى أنفسنا في مرآة الآخرين العمياء، فيصبح من حقّنا أن نرد عن أنفسنا، ليس بأن نكيل لهم الصاع بصاع مقابل، ولكن بالعمل من جانب أهل الاختصاص منا لإبراز صورتهم الحقيقية في مرآة تاريخنا ونشرها في مجتمعاتهم كي يستبين القارئ الغربي كم تجنّت الدوائر الرسمية والكنسية في الغرب على مجتمعاتنا، وكم عمد رحالتها إلى تشويه صورتنا في مجتمعاتهم.

الرحالة تشارلز مونتاجيو داوتي

ولد في سافلوك في رمضان ١٢٦٤/أغسطس عام ١٨٤٣م وتخرّج في جامعة كامبردج عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م في الجيولوجيا، و لم يكن علم الأرض يستهويه أو يخدم أهدافه أو أهداف أسرته، فهو من أسرة تملك الضياع والحيازات، ودخل معظم أفرادها في خدمة التاج البريطاني في البحرية أو خدمة الكنيسة الأنجليكانية. حاول تشارلز الالتحاق بالأسطول ولكنه استبعد في المعاينات، لأنه كان يعاني التأتأة، واتهم بأنه لا يستطيع أن يفصح عن نفسه بسهولة، والتحق بعد ذلك بجامعة كوبنهاغن التي قضى فيها بعض الوقت يتعلم الهولندية والدنماركية، ثم عاد وتوّج دراسته بسنة دراسية في أوكسفورد، درس فيها شعر عهد أليزابيث، تلك الفترة الزاهية في تاريخ الأدب والشعر في بريطانيا، واستهواه من الشعراء سبنسر وتشوسر خاصة، وتأثر بهما تأثيراً جعله ينعى على قومه تفريطهم في تلك اللغة الجميلة القوية المعبرة التي قال: إنها قد انحدرت في زمانه إلى هوّة سحيقة من التردي المتلاحق. أخذ داوتي يقرض الشعر على نهج تشوسر وينسج على منواله، ولكنه كما يقول نقّاده كان في زمانه كمن يغني خارج السرب.

وحين كتب قصيدته "الفجر في بريطانيا" قال بعضهم: إنها تماثل في طولها واسترسال وصفها ووحشية قوّتها المتفرّدة سلسلة جبال مترامية يصعب النفاذ إليها. لم يتمكن داوتي من أن يؤكد رسالته التي نذر لها نفسه بإعادة اللغة الإنجليزية إلى نقائها القديم بجهوده الشعرية والنثرية، فاهتدى إلى طريق آخر: أدب الرحلة.

قرر داوتي أن يقوم برحلة إلى شبه الجزيرة العربية يستكشف آثارها ويعيش حياة البادية، ويكتب في البدائي وفي الغريب، ويخرج بمادة يصوغها كتاباً في رحلات يجدد به حيوية لغته الأم، ويسهم في انتشالها من هوتها التي انزلقت إليها بعد عصر أليزابيث، ولهذا كان الرجل نسيج وحده بين الرحالة هدفاً وغاية، عمل على إثبات ذاته بعد أن رفضته البحرية، فسعى إلى تأكيد تفرّده لغة وثقافة وعلماً، وطلب من أدباء عصره تنقية لغتهم الفصحى الأصلية المتأنقة التي داخلتها المصطلحات الصناعية وثقافة الآلة وأسلوبها وفكرها.

خرج داوتي من الجزيرة البريطانية وأخذ يتسكع اعتباراً من عام ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م في بعض مناطق من جنوب أوروبا، "كي يعتاد مشاق الرحلات". زار إسبانيا كما زار إيطاليا في العام نفسه، ووقف يشاهد ثورة بركان فيزوف، يسمع "فحيح خبثه الزاحف في تصاعد وهو يتلوى كالثعبان"، وانتقل من هناك إلى اليونان، وقد التقى في أوروبا بعض المستشرقين وناقش معهم بعض التفاصيل في ما يخصّ رحلته المزمعة إلى شبه الجزيرة العربية.

وصل داوتي إلى القاهرة التي فارقها عبر سيناء إلى فلسطين، ووقف على البتراء ومعان، وربما كان له اتصال بالمنصّرين الأمريكان في الشام. جاء في كتابه أنه صادف في أحد المنازل وهو في طريقه إلى حائل شاباً سأله إن كان معه كتب عربية، فأبرز له كتاباً في الجغرافيا لأحد المنصرين الأمريكان "المثقفين" من بيروت، واطّلع الشاب على الكتاب وأظهر تقديره لما جاء فيه بأن وضعه على رأسه "وتلك إيماءة شرقية" تدلّ على الإعجاب. ويفيد داوتي أن وجود الكتب نادر في شبه الجزيرة العربية، ويضيف أن كتب الاستشراق غير موجودة فيها البتّة. ورغب الشاب العربي إلى داوتي بأن يبيعه ذلك الكتاب فرفض، ولكنه سمح له باستعارته حتى الصباح. كذلك يمكن أن نلاحظ – في هذا الصدد أيضاً – أن داوتي لم يترك مجلساً يجمعه بالعرب إلا أشار فيه إلى أنه نصراني، وربما ما قدّم في بعض تلك المجالس نقداً للشعائر والممارسات الإسلامية إذا سنحت له الفرصة، ولكن كراهيته للدين الإسلامي ونقده لشعائره التي ما كان يستطيع أن يُصرّح بها في كثير من تلك المجالس برزت واضحة لتسود – من دون مبالغة – كل صفحة من صفحات كتابه الضخم. ويمكن أن نسوق هنا شيئاً من نقده في أحد المجالس للختان كممارسة إسلامية. فقد صرّح لجلسائه في مناسبة احتفال بختان بعض الأطفال أنه يمثل نوعاً من الإعاقة لابن آدم، فأثار بذلك دهشة مستمعيه. وحين سألوه عن قصده أجاب بأنهم بفعلهم هذا إنما يغيّرون خلق الله. وجادله جلساؤه بأن للختان فوائد

عديدة، فأجابهم بسؤاله عن فروض الإسلام فذكروا له بعضها، وظنّ أنه غلبهم في النقاش حين ابتدرهم قائلاً: إن ليس فيها ذكر للختان الذي يسمّونه الطهارة! وفي مناسبة أخرى ينصحه أحد معارفه بألا يغشى المجالس ويعلن أنه نصراني حتى لا يثير حفيظة البعض. وانتهز داوتي هذه الفرصة ليقول لمحدثه إنه اعتاد في بلاده قول الحقيقة، فهل عليه أن يتعلم الكذب في شبه الجزيرة العربية؟ وعلى الرغم من أن ذلك الرجل الذي لم يكن مُشرّعاً أو مفتياً، و لم يقلْ له تظاهرْ بالإسلام لتخدع الناس، اتهم داوتي، وهو يكتب عمّا دار في هذه المناسبة، الإسلام بأنه دين يقوم على الكذب والخداع، وأضاف أن الظروف التي يعيشها إنسان الجزيرة العربية لن تستقيم إلا بالمكر والخداع والغش الذي أباحه هذا الدين.

يدّعي داوتي أنه سمع في بعض مقاهي الشام عن مدائن صالح، فعمد في شوال ١٢٨٣/ نوفمبر ١٨٧٦م إلى زيارتها للتعرف إلى آثارها. وفي تقديرنا أنه ادّعاء أجوف، فقد أعدّ لتلك الرحلة التي لم يكن قيامه بها نتيجة لما سمعه في أحد المقاهي. من مدائن صالح أخذ يعدّ العدّة للدخول إلى شبه الجزيرة العربية الصحراوية، وشملت أسفاره خيبر، ومرّ بالقرى حتى بلغ حايل في ٢٩ ربيع الأول ١٢٩٥/الأول من إبريل عام ١٨٧٨م، وغادرها إلى بريدة التي طرد منها إلى عنيزة التي طردته إلى الخبر ثم أعادته إليها بعد أن توسل ببعض أعيانها إلى شيخها، فلبث فيها فترة قبل أن تأخذه إحدى قوافلها بعد ذلك إلى الحجاز، وبلغ جدّة في ٥ شعبان ١٢٩٥/٣ أغسطس عام ١٨٧٨م حيث انتهت رحلته المثيرة.

عاد الرجل إلى بلاده مُزوّداً بمادة أدبية لم يهتم بزيفها أو صدقها، أو يميز فيها بين الحقيقة والخيال، و لم يعجمها على ضوء الواقع الذي عاشه، فقد انصرف اهتمامه إلى غرضه الذي يقول إنه هاجر من أجله: بيان جمال اللغة الإنجليزية في زمانها الرومانسي. و لم يكتب للكتاب أول الأمر قبولاً ولا ذيوعاً، و لم يجد له ناشراً يتولاه، فقد رأى الناشرون أن أسلوب الكتاب يعجز عن فهمه العديد من المثقفين في المجتمع البريطاني آنذاك، أما مفرداته فقد كانت خليطاً غير متجانس من الكلمات الإنجليزية المكتوبة في العصر الأليزابيثي الباكر، والساسكونية القديمة، إضافة إلى ألفاظ عربية من البادية.

جاء كتاب **العربية الصحراوية** متفرداً تفرّد كاتبه، تيّاهاً بلغته الفخمة وبمفرداته الضخمة، وبأسلوبه الصعب البعيد عن لغة عصره. وعادة ما كان داوتي يسمع من الناشرين الذين قدّم لهم عمله عبارة واحدة ترددت عند جميعهم: مادة عملك ما أروعها؟ أما أسلوبك فما أصعبه من أسلوب، يكاد يرقى إلى الاستحالة. و لم يوافق داوتي – وهو العنيد الذي تجشّم صعاباً كبيرة – على أن يعود بمادة يؤلفها على النحو الذي أراده الناشرون الذين أشاروا بتعديل الأسلوب ومراجعته، مُحتجّاً بأن الأسلوب هو روح العمل. وظل الرجل ثابتاً على رفضه، فهو قد عاش هذه التجربة التي استغرقت منه السنين الطوال، منها عشرون شهراً كاملة في شبه

الجزيرة العربية، ليخرج كتابه على النحو الذي أراده لتحقيق هدف عزيز على نفسه. فالمادة العلمية التي جذبت إليه الناشرين لما فيها من سخف الإساءة للغير لم تكن ترقى عنده في أهميتها إلى أهمية الصياغة والأسلوب. وهكذا فقد حرم جنون داوتي بالكلمات والتعابير والصيغ الكلاسيكية الكتاب - أول أمره - من القبول.

بعد المحاولات الدائبة التي لم تنجح قنع داوتي في عام ١٩٠٨م بنشر كتابه مختصراً تحت عنوان: **رحلات في العربية الصحراوية**. واسترعى الكتاب المنشور انتباه بعض دوائر الثقافة، ورأى فيه النقاد "منظومة رائعة". وتدخل لورنس صاحب كتاب: **أعمدة الحكمة السبعة** فسعى لنشر هذا الكتاب الذي تحمّس له كاملاً، وأشار بضرورة ذيوعه وانتشاره، فهو - على حد رأي لورنس، صاحب الجزيرة العربية أو "لورانس العرب كما يقال" - إنجيل في تفرده، وليس من شبيه له في الكتب الأخرى. وبتحريض من لورنس نُشر الكتاب كاملاً، وما زال يروج له حتى انتشر في أوساط صفوة المثقفين الذين وصفته دوائرهم بعدئذ بأنه أعظم كتاب في أدب الرحلة. وهكذا قُيّض لشارلز داوتي أن يعيش طويلاً ليرى انتشاراً واسعاً لكتابه الذي صدر كاملاً، فقد هلك عن ثلاثة وثمانين عاماً في مدينة سيسنجهرست sisinghurst في يناير ١٩٢٦م، وفيها دُفن.

نخلص من هذا العرض إلى أن علينا - معشر المؤرخين - إذا أردنا أن نأخذ عن هذا الرحالة أن ندرك أنه عاش - كما قال بعض نقاده - غريباً في مجتمعه البريطاني فكيف به في البادية العربية؟ وأن ندرك أننا نتعامل مع رحالة غربي يهتم بالأسلوب وينفعل بالهوس القومي أكثر من اهتمامه بالحقيقة المجرّدة. رجل سعى لإثبات رقي ثقافته، وفصيح لغته وتفوق عنصر قومه على كافة من عداهم. وعلينا أيضاً أن نستخلص بالنقد القويم الحقيقة من مرقد الزيف، ونشكر هذا الرجل الذي تجنّى علينا وأساء إلى كل ما يمكننا أن نعتز به روحياً ومادياً، ولكنه - مع ذلك - أهدى إلينا بعض عيوبنا وضخّمها فبدت واضحة جلية، وإن كانت كاريكاتورية. وقديماً قال أحد فقهائنا من الذين لم يتحرّجوا في الأخذ عن ناقديهم لإثراء الفكر والمعرفة مثل هذا القول.

داوتي في قافلة الحجاج

يقول داوتي: إنه حين أزمع الرحيل مع قافلة الحجّ من دمشق، استأذن الوالي في الخروج، واستشار الوالي بدوره القنصل البريطاني الذي يقول داوتي: إنه يشغل وظيفة مرموقة في هذه المنطقة من العالم، وأجاب القنصل بأن هذا الأمر لا يهمه، فسكت الوالي عن طلب داوتي.

يستطرد داوتي فيقول: إن المبالغ التافهة يمكن أن تُعدّ مكسباً لأي فرد في هذه الأرض

(ولاية دمشق) التي تحكمها "الحكومة الفاسدة". وسرعان ما استهوى المال خمسة أو ستة رجال اجتمعوا على ذلك الرحالة وهم يقسمون بأغلظ الأيمان بأنهم يستطيعون أن يأخذوه ضمن القافلة ليبلغوا به مدائن صالح بأي وسيلة مواصلات يختارها، بغلاً أراد أو حماراً أو - إذا شاء - على محفّة فوق ظهر بعير. واختار داوتي من بين تلك المجموعة التي عرضت عليه خدماتها فارسياً تعاقد معه ليوصله من مزيرب الواقعة على بعد ست وعشرين مرحلة من المدينة المنورة وأربعين مرحلة من مكة المكرّمة إلى مدائن صالح. وارتدى داوتي ملابس سورية وانخرط ضمن الحجاج الفرس في قافلة الحجّ، وسمّى نفسه خليل. بدأت القافلة تستعد للانطلاق إلى وجهتها من مزيرب في حوالى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٦ شوال ١٢٩٣/١٣ نوفمبر ١٨٧٦ حيث رُفعت المحفّات على الإبل الباركة واعتلاها الحجاج، بينما ظلّ سائقوها واقفين على أقدامهم أو جالسين ليصيبوا قدراً من الراحة قبل أن يبدأوا مع خدم القافلة الآخرين، رغم ضعفهم البادي، بالسير على أقدامهم الحافية لقطع حوالى ثلاثمئة فرسخ صعوداً وهبوطاً حتى الوصول إلى الأماكن المقدسة. ومع انطلاق قذيفة المدفع التي أذنت بالرحيل تقدم الباشا على محفّته الركب، وسارت القافلة خلفه في صفوف يتكون كل منها من ثلاثة جمال، وربما يصل طول الصف إلى خمسة أحياناً، ويصل طول المسيرة إلى ميلين اختلطت فيها الجمال بالأحصنة والحمير التي تحمل الحجاج وأحمالهم ببعض أصائل الإبل التي تحمل العائدين من العرب الذين وجدوا الأمان في مرافقتهم القافلة إلى أوطانهم.

هجوم على قافلة الحجّ السورية

ركب داوتي إلى مدائن صالح مع قافلة الحجّ السورية التي ضمّت نحو ستة آلاف حاج، كان نصفهم يسير راجلاً، أما النصف الآخر فلهم حوالى عشرة آلاف رأس من الإبل والخيول والبغال والحمير، يركبون بعضها، ويحملون أمتعتهم على بعضها الآخر، ورافقت القافلة قوّة حرس من ثلاثمئة جندي من المشاة ومثلهم من الخيّالة ومعهم مدفعان، كما رافقتهم أيضاً مجموعة من عقيل، يرى داوتي أنهم "لا يختلفون إلا قليلاً عن لصوص الصحراء"، وأضاف "ويل للحاج الذي يقع في أيدي عقيل منفرداً، فسيفقد حافظة نقوده، وربما فقد رأسه".

يستطرد داوتي ويذكر أن قافلته وصلت مع الشفق معسكراً عند مضارب بني عطية الذين يسميهم أهل المناطق القريبة من القطر المصري آل معزى، ومعزّ هو أخو عنز جدّ عنزة. ويروي داوتي أن قسماً من قبيلة معزّ رحل إلى ما وراء البحر الأحمر، وعبر صحاري ما وراء سيناء ثم تفرقوا بعدئذ في المناطق التي يسميها العرب "برّ العجم"، مشيرين بذلك إلى قارة أفريقيا العظيمة. ويستطرد فيذكر أن القبائل المتجولة - عبر العصور - عرفت صوراً من التشتت

والاجتماع، ويقال: إن الذين هاجروا منهم إلى مناطق نائية نسوا الأرض التي انشقت عنها بذارهم، ولكنهم لم ينسوا اسم جدّهم الذي ينتمون إليه، فهم يمتازون بالوشم المتبقي لهم، والذي يدلّ عليهم ويميزهم عن غيرهم من سائر البشر.

يتسلم بنو عطية صُرّة من إدارة الحجّ في المنطقة، وذلك من كافة القلاع التي في الممر الصحراوي، اعتباراً من هذه المنطقة وحتى تبوك، وتؤدى هذه الصُرّة التي يوضع فيها مبلغ ثابت كل سنة إلى الشيوخ الرئيسيين من ذوي المقام الرفيع الذين أحصيت أسماؤهم في دفتر الخازن في دمشق. ويرى أنه شيء عجيب أن ترتبط حياة أولئك الساميين من الحجاج بصُرّة دراهم يحصل عليها أولئك البدو من دون جهد يؤدونه أو عمل يقومون به. ويذكر أن على باشا الحجّ أن يكون رجلاً حصيفاً يتمتع بأسباب الحكمة الآسيوية التي يرى أنها جماع خداع ومكر الثعلب والشجاعة الفذّة، وذلك حتى تتهيّأ له أسباب قيادة قافلة إلى الأرض المقدسة بسلام عبر طريق بالغ الطول في هذه التيه المترامي، وسط خضم من مؤامرات البدو من ذوي القلوب الحرّى.

يحكي داوتي أن رجال القبائل هاجموا بضراوة قبل عدّة سنوات قافلة الحجيج الذين كانوا في غفلة من أمر ذلك الهجوم. وقد هزم رجال القبائل الحرس أولاً ثم استولوا على بضع مئات من إبل الحجيج وما كانت تحمله من أمتعة، ويُروى أن أسباب هذا الاعتداء تعود إلى أمر بسيط وهو (صُرّة البنت) وتجري تفاصيل هذا الأمر على النحو الآتي:

> كان صراف الباشا في قافلة الحجّ يصرف للشيوخ المجتمعين في تلك المنطقة المنح المقررة لهم من الفضة والملابس وأنواع المتاع الأخرى، ورفض ذلك الصراف أن يعطي بنتاً النصيب الذي كان يتقاضاه والدها الذي كان قد توفي قبل سنة أو سنتين، وأخفى البدو خبر موته عن السلطات. وقد كانت السلطات تصرف مستحقاته في هذه الفترة لابنته اليتيمة في السنتين الماضيتين. وحين اكتشفت السلطات الخطأ، أحجم الصراف عن إعطائها مستحقات والدها المتوفى، فتعالت صيحات أقاربها منادية (نصيب البنت). وقد كان والد تلك البنت المتوفى هو الأخير في سلسلة شيوخ تلك الأسرة، أما صُرّته فلم تكن تزيد على ستة كرونات فقط. ويستطرد داوتي فيقول: إن أولئك البدو الشرهين الظالمين انتهزوا رفض السلطات تسليم هذا المبلغ الضئيل للبنت المذكورة ليقوموا بالهجوم على تلك القافلة، فأوقعوا بأهلها من حجاج المدن، وتعاملوا معهم كأنهم أعداء ألدّاء، ويذكر أن أولئك الأبرياء لاقوا حتوفهم في هذا الهجوم.

يوصي داوتي من يأتي بعده من الرحالة إلى شبه الجزيرة العربية بأن يكون واثقاً من نفسه، وأن يبدو في أعين هؤلاء الرجال جديراً بالحياة تحت سديم سماء الله، ويجب أن يتمتع مثل هذا الرجل بلقب جسور، وبقدرة كافية على تحمل المعاناة التي يتحتّم عليه أن يحتضنها تحت بردية فلا تبدو ظاهرة للعيان، ويخلص إلى أنه يجد في هذا القدر ما يكفيه زاداً في هذا الطريق المحفوف بالصعاب، ويمكن أن يصل به إلى أطراف العالم. ويعبّر داوتي عن كراهيته لهذه الأرض التي "هي أرض ميتة"، إذا نجا المسافر فيها من الموت فإنه لن يرجع منها إلى دياره بشيء سوى الإعياء المقيم الذي يتمكن منه ويسكن في عظمه. ما أشبه هؤلاء الساميين برجل يجلس فوق بالوعة قاذورات وحاجباه معلقان بالسماء حتى ليكادان يلمسانها. وفي الحقيقة هناك إرث إنساني قديم في هذه الصحراء السامية يفسح لحظة معينة في أديم الأخطار، فتمكن الرجل من أن يتقدم عبرها في جرأة غير هيّاب، وسيقابلونه - والحالة هذه - بالترحاب. "وإذا سمعوا منك كلمة طيبة فإنهم سيقدمون لك الكثير، فكل العرب - بداية - تستهويهم الكلمات الطيبة". ويسبّ داوتي حتى سماء شبه الجزيرة العربية، فهي صاحية أبداً،شحيحة بخيلة كل البخل عندما تمطر فكأنها تبكي بكاء المنافقين. ويعتقد داوتي أن القرى التي في الواحات هي أبلغ خطراً على الرحالة من البادية، فهي لا تعدو - في تقديره - أن تكون مستعمرات أقامها أولئك البدو أنفسهم، وهي حين انتظمت في صورها تلك راحت تفسد تقاليد الصحراء الموروثة، ولم تعد "نفوس أهلها إلا مراتع تفرخ التعصب والهوس".

معاقبة لص

يذكر داوتي أن قافلتهم وصلت العقبة التي يقول عنها: إنها تمثل بداية الحدود الطبيعية لشبه الجزيرة العربية، وكما هو معروف عند داوتي من الخوض حتى في التفاصيل الصغيرة، يقدم لنا هنا أحد المشاهد الحية بتفاصيل وافية. يقول: إنه سمع جلبة وضوضاء، فذهب يستطلع الخبر، فرأى جمعاً غفيراً من الناس، فاخترق صفوفهم وهو يلكزهم بكلتا يديه حتى وصل إلى قلب الجمع، وهنا رأى داوتي رجلاً تتناوله العديد من الأيادي باللكمات والضرب المبرح، وصرخات الرجل المدوية تكاد تصل إلى عنان السماء. فاستفسر داوتي عن السبب الذي جعلهم يضربونه، وعرف منهم أن الرجل قد سرق وخبّأ المسروقات في مكان ما، وأنهم يضربونه لكي يقرّ ويعترف. واعترض داوتي على ضرب الرجل، مُحتجّاً بأنه سيلقى حتفه جرّاء ما يفعلونه به، واعترضوا عليه بأن اللص إذا لم يعترف بجريرته فلا حقّ له في البقاء. ويسترسل داوتي في وصف المشهد فيقول: لقد هالني أن رأيت أربعة من الرجال من ذوي الكراديس الضخمة وقد كلّت أيديهم من الضرب، بينما كانت يدا الرجل الضخم الخامس لا تزالان قويتين لم ترهقا

بعد، وقد بدا متجهّماً يرفع ذراعيه كلتيهما عالياً في الهواء ثم يهوي بهما بكل ما أوتي من قوّة على ذلك اللص الذي كان مطروحاً على الأرض، وكانت مجموعة من الرجال تمسك بقدميه لتثبيته على الأرض، ومجموعة أخرى تمسك بكتفيه، وكان يتلوى كأنه دودة وليس بشراً. وما لبثت الصرخات العالية التي كان يصدرها الرجل أن خفّت وتحولت إلى أنّات متقطعة خفيفة، وظنّ داوتي أن الرجل قد أصبح على حافة العبور إلى العالم الآخر. وعلى الرغم من أنه لم يكن يريد أن يفصح عن هويته كطبيب، غلبته روح الإنسانية فيه – كما يقول – فطفق يصرخ منادياً: "يا سادتي أنا حكيم أقول لكم: إن هذا الرجل لم يعُد يتحمل، أمسكوا أيديكم عنه، وإلا فإنه سيموت. هذا الرجل لم يعد يحتمل؟". و لم يهتم أحد بكلمات داوتي، ولكنه سرعان ما رأى القوم يرفعون ذلك الوغد عن الأرض، فقد اعترف بجريرته. سار الرجل وهو يتوكأ على بعض الذين كانوا يسندونه من إبطيه، تلاحقه لعنات الآخرين ليرشدهم إلى المكان الذي خبّأ فيه المسروقات. وكان هذا السارق – وهو بغدادي أحمق أشيب الشعر يعمل في خدمة أحد الحجاج الفرس – قد سرق من مخدومه حوالى أربعين استرلينياً، دفنها بقرب الخيمة، ثم اضطر إلى إرشادهم إلى مكانها.

موت درويش

يذكر داوتي أن الدراويش اعتادوا أن يرافقوا قافلة الحجيج سيراً على الأقدام حتى يبلغوا الأراضي المقدسة، وأشار إلى أنه رأى أحد الدراويش في أطماره البالية ملقى على الرمل، مستنداً إلى يديه المعقودتين معاً مثل مخلبي نسر جراء الألم يطلب الرحمة. وراح ذلك الدرويش يصرخ من حدّة الألم، فخفّ بعض الدمشقيين لإغاثته. وهمهم الرجل بصوت ضعيف: أنا ميت. وما زال به أحدهم، يقول داوتي أنه خادمه ويصفه بالوغد الخارج على القانون غير المقيد بنوازع دينية، حتى تمكن من أن يردفه خلفه على راحلته، ورفع معه أيضاً حقيبته المليئة بلقمات من كسرات الخبز. وكان جسد الدرويش ينتفض ألماً ويرتعش خوفاً، ولكنه لم ينسَ رغم ذلك أن يعبّر لهؤلاء القوم عن حسن صنيعهم بالشكر، وبدت رنّة صوته وكأنه صراخ طفل صغير.

يلاحظ داوتي عدم وجود خدمات إسعاف في قوافل الحجّ، ما يؤدي إلى موت كثير من مرضى الحجيج. ويفيدنا بأن متاع أولئك الحجيج الذين كانوا يلقون حتوفهم يومياً كان يُختم فوراً، بينما تُحمل الجثث حتى تصل القافلة إلى أول معسكر ليلي، وهناك تُدفن بعد الصلاة عليها في قبور غير عميقة. ويشير هذا الرحالة إلى أن المسلمين يعدّون كل من يلقى حتفه في رحلة الحجّ شهيداً. وينعى داوتي على المسلمين قيامهم بأداء فريضة الحجّ قي كل عام، والمعاناة

البشرية التي يعيشها الحجاج الذين يسقط بعضهم من الإعياء في الطريق، فيسلبه البدو وتأكل جثته الضباع، ورأى في هذه "الفكرة العبثية" جهداً ضائعاً وتضحية باللحم البشري، وخلص إلى أنه "يمكن ذرّة ضغيرة من ملح العلم أن تذيب دينهم كله".

وصل داوتي إلى مدائن صالح حيث كان عليه أن يفارق القافلة. وقد قدّم هذا الرحالة وصفاً لاقتراب القافلة من القلعة ونزولها في ذلك المكان فيقول: نزلت القافلة بالقرب من القلعة بعد أن أدّت مدفعية القلعة لها التحية بعدد من القذائف التي أطلقتها، ونصب الحجاج خيامهم أمام القلعة، وسرعان ما تحولت المنطقة إلى سوق كبير أمّه القصابون الذين توافدت إليهم جموع الحجيج لشراء اللحم، ويمكن المرء أن يلاحظ بعدئذ قطعاً من أطراف الخراف أمام الخيام. وأسرع الطهاة إلى جمع الحطب بينما أخذ البعض يحفر حفراً يوقدون فيها النار لإعداد الطعام.

يستطيع المرء أن يرى هنا وهناك جماعات من بائعي التمر على حميرهم، وكذلك عدداً من البدو يعرضون ريش النعام للبيع. وشُغل عدد من الدمشقيين بغسل ثيابهم، بينما راح آخرون يقومون بأنشطة حياتية أخرى. وكان جميع أهل القافلة - عدا داوتي - سعداء بتلك الحركة الدائبة والجلسة والضوضاء، لا يخشون مكروهاً إلا الخوف من أن يباغت اللصوص معسكرهم. أما رحالتنا فراح يلعن الشرقيين، ويدعو عليهم بالثبور والهلاك: "لأنهم قوم جاحدون".

ترجع هذه الغضبة الداوتية إلى خلاف بسيط بينه وبين المتعهد الفارسي الذي نقله إلى هنا. أوفى ذلك الرجل بعهده وساق داوتي إلى مدائن صالح. وكان هذا الرحالة قد اتفق سلفاً مع حارس القلعة (القلعجي) الذي كان قد قابله في فترة إقامته في دمشق على أن يستضيفه في مدائن صالح ريثما يدبر له أمر دخوله إلى شبه الجزيرة العربية مع مرافق يرتضيه. أنزل خدم الفارسي متاع داوتي في معسكر الحجاج، بينما ذهب داوتي لمقابلة حارس القلعة الذي طلب إليه الانتظار ريثما يفرغ من مهماته في وداع تلك القافلة. وحين عاد داوتي وطلب من الفارسي حمل متاعه إلى داخل القلعة اعتذر الرجل عن عدم أداء المهمة لغياب خادمه. وراح داوتي يلعن كافة الشرقيين في شخص هذا الفارسي، ويلعن جحودهم. فقد "ابتلع هذا الفارسي" في الطريق كل الكميات التي يستطيع أن يبتلعها من الأدوية التي زوّده بها داوتي من دون مقابل، ثم تراه "يطلب أتعاباً لأداء هذه المهمة". ويذهب داوتي إلى باعة التمر علّه يجد من ينزل عن حماره أثقاله لينقل له متاعه، ولكنه لم يجد منهم إلا الاعتذار، وخاصة أن الرجل كان لا يريد أن يدفع أجراً.

في منتصف الليل، انطلقت قذيفة من مدفع القلعة لتعلن قرب موعد الرحيل، ودبّت الحركة في المعسكر الذي أخذ يتأهب للرحيل، وعندما انطلقت القذيفة الثانية تحركت القافلة. ويشير

داوتي إلى أن تلك القافلة كانت تتألف من نحو ستة آلاف فرد، كان أكثر من نصفهم يسير راجلاً، أما الآخرون فقد استقلوا حوالى عشرة آلاف دابة من الإبل والبغال والحمير، ركبوا بعضها وحملوا على البعض الآخر أثقالهم. تركت القافلة داوتي وراءها ضيفاً على حارس القلعة، وانفضّ سوق البدو بعد رحيلها.

داوتي ينتقد متاعب الحجّ ويدين القيام به

يقول داوتي ".... في أمسية كنا جلوساً في قاعة مجلس القهوة في الطابق الأعلى من القلعة نستدفئ بنار متقدة بفروع من شجر الهشاب، فراعنا صوت ينادي، فانتبه الجمع وأنصتوا، فإذا بالصوت المُجهد يطرق مسامعهم مرّة أخرى". واستفسر محمد علي (حارس القلعة) بالتركية - التي كان قد تعلمها في فترة عمله بالجندية - عن الداعي، فأجابه بنفس لسانه التركي. قال محمد علي: "إنه حاج مسكين... افتح له يا محمد"، وأسرع الجميع في "تعاطف ديني" بالترحيب بالرجل.

أطلّ عليهم رجل مسكين، طيب السمات رغم تقدمه النسبي في العمر، وكان شبه عار، وهو يرتعد من قسوة زمهرير ذلك الليل، وتبين أنه من الدراويش الذين كانوا في صحبة القافلة وقد قطع - بعد أن خرج من موطنه في آسيا الصغرى - حوالى ستمئة ميل حتى بلغ هذا المكان، و لم يكن رغم هذا بادي الإعياء.

قال الرجل إنه أصابه الإرهاق في الطريق، وبينما كان يغفو فوق الرمال عند قرية مدورة فارقته القافلة التي كان يسعى وراءها و لم يدركها. وطفق يضرب في هذه التيه، مقتفياً - كما كان يظن - أثر القافلة حتى بلغ هذا المكان، بعد أن قطع حوالى مئتي ميل وحيداً. و لم يكن يمكن هذا البائس الذي يسافر بمفرده أن يدرك قافلة الحجّ التي كانت قد ابتعدت وجدّت في سيرها لتبلغ مقرّها.

قام محمد علي إلى هذا الرجل مرحّباً، وكساه حلة حلبية يتّقي بها البرد، إذ كان البدو قد سلبوه ملابسه قبل بلوغه القلعة بحوالى ثلاث ساعات. وأخذ جميع من في المجلس يهوّنون الأمر على ذلك الرجل الذي استقبلوه بعطف بارز، وزوّدوه بالعشاء، وطمأنوه إلى أنه سيبقى في ضيافتهم إلى حين عودة قافلة الحجيج ليعود أدراجه معهم إلى بلاده، ثم يرجع - إن شاء الله - ليؤدي الشعيرة. ولكن الرجل لم يكن يرى رأيهم، فقد هجر موطنه وشخص إلى هذه الأرض الأجنبية بنيّة زيارة المدينتين المقدستين، وقال: إنه لن يعود إلى بلاده وينكص على عقبيه. وفي اليوم الثالث للضيافة التقليدية زوّده محمد علي بقربة ماء صغيرة ودلّه وهو يودعه على الاتجاه الذي سلكته القافلة. وما لبث هذا الرحالة الفاجر أن لعن بعدئذ شعيرة الحجّ التي

شرّعها هذا الدين الذي وعد الفقراء والمعوزين خيراً يصيبونه في دنياهم، "غير أن كلام ذلك النبي العربي الذي ادّعى أنه رسول الله يودي في كل عام بعشرة آلاف من هذا الجنس البشري المبتلي بهذا الدين". وحين بلغ داوتي من بعض من زاروا القلعة بعدئذ أن الرجل قد لقي حتفه في الطريق، لعن البدو الذين رووا له – في ما يدّعي – أن قوافل الحجيج تتخلى أحياناً عمّن يسقطون في الطريق فتدهمهم الضباع التي تقف فاغرة أفواهها لتلتهمهم حالما يلفظ الجسد الدافئ آخر أنفاسه. ويتهم البدو الذين لا يدفعهم التقى إلى الإحسان إلى الموتى الغرباء بدفنهم ما لم يجدوا من يدفع لهم عنه أجراً.

رأى داوتي الحجرات التي يستأجرها الفقراء والمعوزين في مكة المكرّمة وبالاً على الجنس البشري بأكمله، إذ يحتشد هؤلاء الذين وهنت أجسادهم بعد مشاقّ رحلة مرهقة في تلك الغرف الضيقة تخالط أجسادهم التي تحمل أمراضها بعضها بعضاً، ثم ما يلبث العائدون منهم أن يحملوا الأوبئة المنتشرة في أوساطهم إلى العالم العريض. ويرى أن المسلمين الذين يقول إنهم يمثلون عشر الجنس البشري يمتثلون لما يقوله لسان هذا الرسول الإسماعيلي النبوئي الذرب.

يحكي داوتي في هذا الصدد طرفة سوداوية سمعها من أحدهم عن عام الكوليرا الذي عاشته قافلة الحجاج قبل ثلاث أو أربع سنوات من رحلته، فيقول إن الموت قد تفشّى في تلك السنة بين الحجاج، وكانت قافلة الحجّ تترك في المنزل وراءها عدداً من الموتى والمحتضرين، فلم يرجع من الحجّ في ذلك العام من الحجاج إلى دمشق سوى نصفهم بالكاد. وحدث أن احتضر أحد الحجاج فتوهّم أصدقاؤه أنه توفي، فدفنوه في قبر غير عميق وانطلقوا في طريقهم مع القافلة وأبلغوا أهله بموته. ودبّت الحياة في الرجل مرّة أخرى وتتبّع آثار القافلة من منزل إلى منزل قاطعاً مئات الأميال حتى انتهى إلى بيته في دمشق. أنكره جميع أهله، فقد سبق لهم أن حزنوا على موته ثم عاد إليهم في غير الأوان بعد أن تقاسموا تركته!

في العلا

سار داوتي مع محمد عبر الطرقات التي يصفها بأنها منظمة إلى بيت الضاهر، شيخ العلا، وعبّر عن دهشته عندما أقبل ذلك الشيخ للترحيب به، إذ لمح خلال ذلك الضوء الخافت بعض السمات الزنجية في الرجل، ويدّعي داوتي أنه تبيّن لكنة أفريقية في صوته، "وقد صحبت الضاهر إلى الطابق الأعلى من منزله، فرطوبة الأرض في واحات الحجاز هذه تجعل سكانها يتخذون غرف سكناهم في الطابق العلوي دائماً".

ينحدر ضاهر – في ما يروي داوتي – من قبيلة حرب، وقد ورث الشياخة عن أبيه، شأن كافة شيوخ البدو الآخرين الذين يسيرون بنظام الوراثة الصلبية. ويعبّر هذا الرحالة عن اعتقاده

بأن أفراداً قلائل فقط في تلك المدينة لم يتأثروا بالدم الأفريقي، بالرغم من أن كافتهم ينكرون ذلك الأثر. ويردون ذلك الشكل "الباهت البائس" الذي يميزهم إلى جوّ واديهم المغلق. "وفي الحقيقة نجد بعض ذوي البشرات السمراء من المنحدرين من أصلاب قبيلة حرب انحداراً مباشراً من المستقرين في تلك الواحات العديدة في المنطقة التي تفصل بين الحرمين، بالرغم من أن أصولهم عربية غير مشوبة".

يتبع داوتي تاريخ نشأة بلدة العلا أو بالأحرى إعادة تأسيسها، ويذكر أن مجموعة من أربعين درويشاً من البربر المغاربة وفدوا حجاجاً مع أحد شيوخهم عبر طريق الحجّ السوري، وراقهم وهم عائدون من مكة والمدينة ذلك الموقع المنعزل الذي كانت تسوده الكثير من الخرائب، وطلب ذلك الشيخ إلى حوارييه أن ينتظروه في ذلك المكان ريثما يذهب إلى القدس للصلاة في محرابها ثم يعود إليهم. وتساءل الأتباع - كما تروي القصة - كيف يمكنهم أن يتحملوا البقاء في ذلك المكان الصحراوي اليباب مع عدم وجود ماء للشرب. وضرب ذلك الشيخ الرمل بعصاه فانبجست عين ماء، هي العين نفسها ذات الماء الفاتر التي ما زالت مياهها تروي هذه المدينة، وقد ضربت عصا الدرويش بجذورها في هذه الأرض وأورقت لتصبح بعدئذ شجرة نخيل!

ارتدى شيخ العلا جبة من قماش قرمزي، وهي خلعة من الدولة اعتادت أن تمنحها للشيوخ الرئيسيين دلالة على رضاها عنه. ورأى داوتي في الشيخ ضاهر رجلاً متزناً أريباً حلو الحديث، راح هذا الرجل يتتبع كلماته، يريد أن يستشف منها هويته. وفي أثناء ذلك انطلق صوت المؤذن من سطح مسجد قروي صغير ينادي للصلاة الأخيرة (العشاء)، "وملأت أنغام ذلك النداء ليل الشتاء الذي نعيشه، وابتهج قلب ضاهر بذلك النداء، كما هو شأن كافة المسلمين المخلصين، وراح يردد بصوت هادئ وراء المؤذن تلك الكلمات: الله الأحد الذي يُصلى عليه، أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله". والتفت ضاهر نحو داوتي وأخذ يراقبه متفحصاً، "فإذا كنتُ مسلماً فلا بد لروحي من أن ترقص طرباً حين سماع ذلك الآذان، فليس ثمّة مسلم - مهما كانت ظروفه وأحواله - لا تتعلق شغاف قلبه بذلك النداء المتجدد أبداً، فتراه حين يسمعه يندفع بحرارة وفي شوق لأداء الصلاة".

خاطبني الشيخ قائلاً: يا خليل إذا لم تكن مسلماً فأخبرني إلى أي ملة تنتمي ولا يريبك مني شيء، فأنا في مكانة والدك، وهذه مدينة مسلمين. وقد أراد الرجل بهذه العبارة أن يقول: إن مدينته مسلمة تستظل بلواء الدين الحق، وإنها ليست مثل سباسب البدو يُخشى شرها.

" بينما كانوا ذات يوم جلوساً على (الدكاك) سألني بعض الأشخاص: ما هي جزية الرؤوس التي تدفعونها للسلطان؟ فأجبت: إن سيدتنا الملكة إمبراطورة الهند هي أكبر سلاطين الإسلام. وأردفت ذلك سائلاً: أليست الهند داراً للمسلمين؟ وما لبثوا أن عقبوا على ذلك

بقولهم (خلاص الإسلام راح) أي إن الإسلام قد زال عن الهند بالسيطرة البريطانية. وأضاف هؤلاء: ولكن ما هي الجزية التي يدفعها المسلمون للحكام النصارى هناك؟ فأجبت بأن كل رعايا السلطنة يتمتعون بحقوق مدنية متساوية أياً كانت أممهم وأديانهم. وقد شعرت أنهم استحسنوا هذا الأمر لما فيه من فوائد للمسلمين."

يستغرب داوتي أن يرى أولئك القوم الذين "يقرأون القرآن" يتمتعون بهذا السلوك الحضاري وبهذا الفهم الهادئ الرزين، وهم قد نشأوا في أودية منعزلة تحيط بها جبال جرداء وسط صحارى مترامية، ويضيف أنه قد رأى أغلب الرجال في هذا المجتمع يعرفون القراءة والكتابة، وأن الأطفال يتلقون التعليم عن آبائهم، كما تُقام في المساجد في شهر رمضان من كل عام حلقتان أو ثلاث للقراءة. ويستطرد داوتي ويذكر أن أهل العلا اشتهروا بتجويد القراءة، لكنه ادّعى أنه وجد أن أصوات مخارج حروف أهل المدينة سطحية تماماً "مثل طباعهم"، وأنهم إذا أرادوا أن ينطقوا كلمة (ماء) مثلاً فإنهم ينطقونها (مي) بالإمالة، فتبدو تماماً مثل ثغاء الخراف. ومع ذلك يشهد داوتي بأن أهل العلا أتقياء معتدلون مستغرقون في عباداتهم، متأملون في دينهم غير متعصبين، مثلهم في ذلك مثل النبي (صلى الله عليه وسلم)، ويستطرد ليعبّر عن مقته للنجديين الذين تجري في عروقهم الدماء البدوية، ويراهم أكثر تشدداً في هذا الصدد، وأن تعصبهم ينفجر فجائياً دونما مناسبة.

يتبع أهل العلا - شأن المغاربة - مذهب الإمام مالك، ويفيد داوتي أنهم "يضعون نسبة معلومة على تمورهم وقمحهم يؤدونها كضريبة اختيارية يرسلونها بمحض اختيارهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو في الحقيقة للمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة"، ولعله يقصد أنهم يؤدون زكاة الزروع، ويفيد أن علاقة أهل العلا بالدولة العثمانية لا تزيد عن أنهم قانعون بأن يقال عنهم: أصدقاء للدولة.

يعرض داوتي طرفاً من تاريخ البلدة، إذ يذكر أن ابن سعود جاء مع عصابته قبل خمسين سنة حينما كانت قوّة الوهابيين في أوجها يجرّ مدفعاً لاحتلال العلا، ويذكر أن أولئك الوهابيين ظلوا فترة طويلة عند مشارف تلك المدينة و لم يحققوا عليها نصراً، و لم يتمكنوا من إطلاق قذائف مدفعهم. "وأخيرا اقتنع الوهابيون وانسحبوا قائلين: إنها مشيئة الله، ومن العبث أن نبقى هكذا قابعين عند أسوار العلا، فلنرجع أدراجنا".

يذكر داوتي أنه بينما كان يتجول في القرية سمع رنين جرن قهوة، فدلف إلى مصدر ذلك الرنين. فكل غرفة مقهى عام في تلك المنطقة، وهي مكان أخوّة وترحيب يبذله الشيوخ لضيوفهم، يرحبون في تلك الغرف بكل طارق، وعادة ما يكون ذلك الطارق بدوياً وفد إلى سوق القرية، ويضيف أن الجيران يجلسون في مثل تلك الغرفة يتآنسون ويحتسون القهوة في غير إسراف، ويدخنون التبغ، "ولكن ما أقل كمية القهوة التي يصبونها لك في العلا،

فكل أهلها مقتصدون؟". ويلاحظ داوتي أيضاً أن

أهل العلا يجوبون طرقات مدينتهم مسلحين، ويذهبون إلى المسجد وهم يحملون سلاحهم أيضاً. يحمل أعيان البلد السيوف أو الحراب القصيرة، بينما يتسلح الفقراء بالهراوات الطويلة (النبوت) أو (الشومة) التي تمثل سلاح عامة أهل الحجاز. ويضع هؤلاء السكان أسلحتهم حين يفدون إلى المسجد عند مداخله، كما يتركون نعالهم أيضاً. أما إذا رأيت (النبابيت) مسنودة أمام أي بيت في العلا، فإن تلك الإشارة كافية لأي غريب إلى وجود قهوة في هذا المكان.

ويعود داوتي ليسبّ القهوة وشاربيها الذين "تميزهم تلك النظرات الشاردة التي تلازم وجوه آكلي التمر".

تفرش على أرض الغرف الترابية بعض الحُصر المجدولة من السعف والتي تصنعها النساء خلال وجودها في مزارع النخيل. وغالباً ما يرى الداخل إلى منزل في العلا الدرع (الدرقة) معلّقة عند نهاية درج السلم، وهذه أيضاً عادة حجازية لا نلاحظ مثيلاً لها في شبه الجزيرة العربية. ويلاحظ داوتي أن أهل العلا يضعون على رؤوسهم أغطية الرأس التي يستعملها البدو، ولكنهم لا يربطونها بالعقال الذي يمثل فخر الزي العربي. ويذكر أن ملابسهم المصنوعة من قماش "الشيت" تراها قد تشرّبت دائماً العرق والتراب حتى تيبّست على ظهورهم، ويلتمس لهم العذر حين يذكر أنه يعزّ الحصول على الصابون في هذه المنطقة."

يلاحظ داوتي أن كل قوم من الساميين ينتمي إلى جد، ولهذا سأله العرب: من هو جد الإنجليز؟ ويرى داوتي أن جد أهل العلا الذين ينتمون إليه هو عليوي الذي طرد آل بني شكر، واستقر في هذا المكان الذي يسمى بيت النعام، أو شعب النعام. ويضيف: إنهم وجدوا بعد ذلك اسماً مكتوباً على بعض الرقاق القديمة، وهو بندر علوش، أو بندر علوت. وينقل داوتي رواية مفادها أن بعض القبائل البدوية من بني شكر لا يزالون يفدون إلى العلا حتى الآن ليحصلوا على مستحقاتهم من تمورها، ويلاحظ أن ديار بدو شبه الجزيرة العربية أصابتها تغيرات وتحولات واسعة على مدى القرون القليلة الماضية.

بعد قدومه إلى العلا بيومين ارتعدت السماء صباحاً، وسحّ المطر مدراراً متواصلاً حتى الصباح التالي، وكان أهل العلا قد عاشوا جفافاً منذ حوالى ثلاث سنوات تقريباً.

سكن داوتي في "العلا" الغرفة العلوية في بيت الشيخ، وذكر أن لكل ثري من أعيان العلا ثلاثة منازل أو أربعة، واحد له ولزوجته، واثنان لأبنائه من زوجة سابقة في العادة أو لأحد أبنائه المتزوجين، ثم الثالث وهو المخزن.

يسكن العرب هذه الأرض التي يصفها بأنها أرض القحط والجوع، وطعامهم التمر الذي يقول إنه لا يعرف طعاماً أسوأ منه، ويتحتّم عليهم أكله حيث يتيسر لهم الحصول عليه من تلك الأودية القليلة التي فيها المياه. ويدّعي داوتي أن التمر يورث الجوف حرارة، ويشبعه ضيقاً، في

ذلك الجو الحار الرطب، وأن حلاوة التمور الزائدة جداً والمتخمة تورث الوهن، ولا تورث الجسد بلحمه وعظامه إلا السقام. ويخلص إلى أن كافة آكلي التمر يتميزون بشكل معين ينمّ عن مظهر هزيل، ويرى أن هذا الهزال أشد ما يكون وضوحاً في أوساط قرى نجد الأكثر فقراً، ويستطرد فيقول: إن الأثرياء من الذين ينتمون إلى هذه الواحة ذاتها يمتازون بشكل مقبول، أو قل بشكل يشعر بالنزاهة أكثر مما يمكن أن توحي به أشكال الآخرين من أهل نجد. "وتكفي نظرة عابرة للتفريق بين ملامح هؤلاء القرويين وبين ملامح البدو شاربي اللبن". ويشهد على هذا الرأي الذي أقول به قولهم بأنفسهم: حين يؤكل التمر من دون غيره من أصناف الطعام الأخرى فإنه يبلي الطبيعة الإنسانية. ويضاف إلى هذا أن أهل العلا يشربون مياه الآبار الفاترة، والتي نادراً ما تكون في هذه الأرجاء من العالم صحية، وهذا مما يورث وجوه هؤلاء القرويين من أهل العلا شكلاً متفرداً، حتى إني أستطيع أن أميز العلوي في ذروة زحمة سوق دمشق، وإن لم يكن مرتدياً زيه الأبيض.

البدو

حين يرحل العرب من منزل إلى آخر تراهم فوق أكوار إبلهم التي يسوقونها على مهل فتسير بخطى وئيدة، وترعى ما قد تجده في طريقها. يتقدم الشيوخ هذه المسيرة، تتهادى بهم إبلهم في طليعة الركب، ويلي المقدمة ركب النساء اللواتي يركبن على إبل تحمل الأمتعة أيضاً. وإذا احتاجت أي من هذه النسوة إلى مساعدة، ترى الرعاة يسيرون إليهن لتقديم يد العون، كما ترى الجيران في هذه الرحلة متكافلين يساعد بعضهم بعضاً. وتساق قطعان الماشية جنباً إلى جنب في القافلة مع الإبل التي تحمل المتاع. وترى النسوة يثرثرن، وقد يقمن خلال الرحلة بغزل خيوط الصوف أيضاً.

يجتمع الشيوخ والأعيان عادة في خيمة أكبر الشيوخ مكانة عندما يترجلون ويشربون القهوة، فيما لا يزال معظمهم يمسك بعصا الإبل التي هي في لهجتهم المشعاب أو المحجان أو الباكورة في أيديهم كالصولجان، يتبادلون الآراء حول الترتيبات للمنزل القادم. ويجتمع البدو الآخرون حيث تجهز القهوة، يتبادلون الأحاديث المألوفة التي سبق لهم أن تناولوها مئة مرّة قبلئذ، وهم يرسمون بعصي السوق على أديم الرمل الكسول. ثم ينهض أولئك الرجال الحفاة، كل منهم في إثر أخيه، عائدين إلى بيوتهم فوق ذلك الرمل الحار، يصلّون الظهر ويتناولون طعامهم ثم يهجعون لساعات القيلولة في ساعات الظهيرة القائظة الحر، الشديدة الرطوبة، في مخادع زوجاتهم. ويروي داوتي أنه سأل إحداهن: كيف يقضي مغفّلوكم ذلك النهار الطويل إلى المساء؟ "فأجابت مبتسمة في حياء: كيف لهم ذلك يا سيدي إلا بالتلهّي مع الحريم".

يقول عرب الواحات - كما يحكي داوتي - إن الحياة في الصحراء أفضل حياة يمكن أن يعيشها الإنسان لولا وجود البدو فيها. فالبدوي، ذلك الشخص المعوز، مفعم بالخطيئة ملعون الوالدين. يصحو البدوي مع فجر الصحراء الذي ينبثق من جهة الشرق وينخرط في صلاة لا يعرف بعضهم شكلياتها، فتراه يتمتم بتضرع نابع من طبيعته البشرية الخنوعة: يا رب، يا إلهي، فليكن يومي سعيداً، نجنا من الشر. ويحدثنا داوتي عن أن البدوي الذي لا يكاد يملك نصف ما يكفيه من الطعام في ذلك التيه والجفاف والمحلِ الذي لا تسمع فيه زقزقة عصافير تحيّي بزوغ الفجر، يقضي ليله مستلقياً على الرمال، متلفعاً عباءته تحت خيمة، ويستقبل صباحه بالقهوة يصبّها في فناجين لا يملك أكثر من ثلاثة أو أربعة منها، يحتفظ بها ملفوفة بخرقة قديمة قذرة يدعكها بها باهتمام بارز وكأنها ستغدو بهذا الفعل نظيفة. وينخرط داوتي في الحديث عن تجهيز البدوي للقهوة، يبدأ بتحميص تلك الحبات القليلة من البن التي تمده بها زوجته ويضعها في مدقّ نحاسي أو ربما في مدقّ آخر خشبي رصّعه حداد بدوي بالمسامير. وحين يُدق البن بإيقاعات، تحدّث رناتها عن شهامة بارزة، ويصبح ناعماً يوضع في (الدلّة) ويُصب عليه الماء المغلي، ويُترك الخليط على النار لحظات حتى يغلي، وعندها يأخذ البدوي من صُرة في منديله شيئاً من القرنفل أو القرفة أو أي بهار آخر فيسحقة ويرمي به بالمسحوق في الدلة. وبهذا تصبح القهوة جاهزة، فيتذوقها قبل أن يقدّمها إلى الآخرين، فيبدأ بمن يجلس على يمينه، أو بأكثر الرجال اعتباراً من شيوخ وغيرهم.

الجمعية العامة في القبيلة

حينما تتحرك القبيلة من مكان إلى آخر تظل إدارتها في حالة عمل. يقول داوتي: إن مجالس العرب لا تنقطع حين تكون القبيلة في رحلاتها التقليدية. يجتمع الشيوخ وأصدقاؤهم من رفاق "القهوة" صباحاً في أي منطقة يكون فيها الشيخ الأكبر. وترى البدو الذين يرغبون في مراجعة المجلس يحومون هنا وهنالك في هذا المعسكر الواسع وهم يسألون كل من يقابلهم: أين يعقد المجلس اليوم؟ وهل جلس الشيخ؟ وهل بدأوا؟

يُعقد مجلس الشيوخ، ويأخذون في تبادل الرأي في القضايا العامة، ويتداولون في شؤون علاقتهم مع إبن رشيد (يلقبه البدو بالدولة)، ويناقشون ارتباطهم مع القبائل المجاورة. ويجري الحديث في هذا المجلس في كل خبر سمعوه عن تحركات الأعداء، وأي إشارات يحسّون أنها تدل على غزو قريب، كما يدور بين العرب الحديث عن المراعي ومناطق الكلأ التي عاد رعاتهم المنشورون في البادية بأخبارها. ويستطيع كل شخص عنّ له الحديث أن يتحدث في هذا المجلس، وأن يجعل صوته مسموعاً. ويُعدّ هذا المجلس مجلس الأعيان أو

الجمعية العامة التي تخطط لكافة الأمور التي تخصّ القبيلة، والبدو يطلقون عليه "الشور" أي مجلس الشورى. ويستطيع كل فرد في القبيلة أن يشاور في مداولات المجلس حين يعقد، وأن يتحدث به بما يشاء، وإلى هذا المجلس أيضاً يتوافد الخصوم لتسوية نزاعاتهم.

يدلي المدّعي والمدّعى عليه، كل بما لديه من أقوال من دون حظر، ويحدث صخب وجلبة وضوضاء، ترى الشيوخ خلالها يتداولون الآراء مع الشيوخ الآخرين، ويستفتون كبار السن والأشخاص الآخرين من ذوي المكانة، ثم يصدرون الحكم. ويعدّ الحكم الذي يصدره المجلس غير قابل للاستئناف. وعلى الشيخ المعني أن يتولّى فوراً تنفيذه. وعادة ما يفقد المحكوم عليه جراء الحكم عدداً من رؤوس الماشية أو الإبل للطرف الآخر، وعليه أن يؤديها إلى غريمه من فوره. وفي العادة يماطل فقراء البدو في أداء الغرم، ويعتذرون بأنهم غير قادرين على الوفاء بمتطلبات الحكم في الوقت الراهن، ثم يهربون إلى قبائل أخرى يلجأون إليها، وعادة ما تجد في مضارب كل قبيلة عدداً من بيوت الأشخاص المنفيين من قبائل أخرى.

يرفع المجلس عادة عند الظهر، ويتفرق الجمع، ويعود كل فرد من أولئك البدو الحفاة وهو يسير فوق تلك الرمال المتقدة إلى خبائه ليغفو حتى موعد العصر، وعندها تراهم يتيممون لأداء الصلاة ولا يعودون بعدها إلى النوم حتى حلول الظلام، فالنوم بعد العصر يُعدّ في تقليدهم عملاً غير صحي، أما في ساعات الليل فترى القوم يهجعون متيقظين: فهذا الخلاء الفسيح تكتنفه المحاذير من كل جانب، بينما تسمع كلابهم وهي تنبح كالذئاب حتى يسفر الصبح وينقشع الظلام.

مجلس حائل العام

عندما يصل هذا الرحالة إلى حائل يبدي ملاحظات مماثلة عن مجلس أميرها فيقول: إن الأمير "يبرز" إلى مجلسه بعد حوالى ساعتين من شروق الشمس، وهذا المجلس يشبه في مجمله مجالس البدو. يجلس الشيوخ الكبار إلى جانب الشيخ في مواجهة الجموع التي تفد إلى المجلس، ويرأس الأمير المجلس الذي هو مكان التداول العام.

يُعقد هذا المجلس تحت سور القصر حيث تمتد مصطبة عالية تحت ذلك السور، وترتفع درجة في منتصفها لتهيّئ للأمير درجة أعلى في المجلس. يجلس الأمير فوق ذلك الدرج الأكثر ارتفاعاً من دون أن تمد له سجادة أو يفرش له عليها فرش، كما يجلس ناصر - كاتب الأمير وسكرتيره - في الدرجة الأدنى عند قدمي الأمير. ويلاحظ داوتي أن مكان مجلس حمود بن رشيد مرتفع قليلاً عن أماكن جلوس الشيوخ الآخرين، إلا أنه لا يرتقي إلى علوّ مقعد الأمير، كما يلاحظ وجود مصطبة مرتفعة عند أسوار المجلس حيث يجلس الشيخ في ظلّ المسجد

عصراً للجلسات التي تعقد في ذلك الوقت.

يجلس القاضي – وهو الفقيه المسؤول للشؤون الدينية – عادة في مواجهة الأمير، ليفتيه في المسائل الصعبة بما ورد في القرآن الكريم. ويلاحظ داوتي وجود أكثر من واحد من هؤلاء الفقهاء في حائل. ويجلس على تلك المصطبة على جانبي الأمير في صف متصل الشيوخ الآخرون، رفاق المجلس، وفي مواجهتهم يقف عبيد الأمير، وعلى جانب الشيوخ المتراصين يجلس المسؤولون عن الخدمات العامة، ويختلط بهؤلاء وأولئك شيوخ البدو الذين يفدون إلى حائل للزيارة. أما (الرجاجيل) الذين يبلغ عددهم نحو مئة وخمسين رجلاً فتراهم مستندين إلى سيوفهم عند نهايات المجلس من الجانبين، فيشكلون قوساً يدخل من ناحية وتره المتحاكمون والشهود. ويمكن المرء أن يرى هؤلاء الرجاجيل من حملة السيوف يومياً في المجلس الذي ما إن ينفضّ حتى يذهب جميعهم إلى ممارسة أعمالهم في المدينة.

يذكر داوتي أن الأمير يسمع كافة القضايا، ويصدر حكمه فيها فوراً، وهو في حكمه عادل "بقسوة غير معقولة". ويذكر أن الأمير قريب من قومه، مطلع على كافة شؤونهم، وأنه لم يسمع في فترة الشهر التي قضاها في حائل أي شخص شكك في نزاهة الأمير. وقدْ سأل هذا الرحالة صراحة عن تأثير أي رشى تعطى للأشخاص الذين يمكن أن يهمسوا في أذن الأمير، فكان الرد نفياً قاطعاً. ويحكي داوتي بعدئذ عن أحد الذين أصابتهم عدوى المدينة، وحاول بذل رشوة لأحد القضاة، ثم ما وجده بعدئذ ذلك الرجل من ضرب مبرح من القاضي والأمير كليهما. وينتهي داوتي إلى القول: إن فترة عقد جلسات هذا المجلس في حائل لم تكن تتجاوز عشرين دقيقة يومياً في العادة.

أول مجلس لداوتي مع ابن رشيد

وصف داوتي محمد بن رشيد، أمير حائل، في أول مجلس جمعه به، بأنه رجل في منتصف العمر، وهو أصغر أبناء عبد الله بن رشيد الأمير الأول في شمّر، وذكر أنه كان في فترات حكم شيوخ شمّر السابقين قائداً لقوافل الحجاج، ما مكنه من زيارة مدن ما بين النهرين واكتساب "شيء من أخلاق الدولة العثمانية".

وجد داوتي الأمير جالساً على وسائد، متكئاً على مسند قرب نار وقودها من حشائش الصحراء الجافة، فحيّاه داوتي: السلام عليكم، و لم يردّ ابن رشيد لفظاً لكنه رفع يده اليمنى باتجاه رأسه، "ذلك شكل من أشكال التحية اكتسبه مما رآه في الأقطار المجاورة". ويشير داوتي إلى أن رد السلام ليس حقاً ملازماً لكل من يسلم، "فأي شخص لا ينتمي إلى دين الخلاص الذي يؤمنون به لا يستحق رد السلام".

طلب الأمير إلى داوتي أن يجلس، فأرشده رئيس الحرس إلى موضعه في المجلس، في منتصف السجادة الطويلة المفروشة على امتداد الحائط الطيني، وقد فصل بينه وبين مجلس الأمير شخصية كبيرة من أقارب ابن رشيد يصفها داوتي بالشخص المحترم اللطيف التقاطيع، وكان هذا الرجل أيضاً متّكئاً على وسادة.

بادر الأمير بسؤال الرحالة عن الجهة التي وفد منها والغرض من زيارته، فأجاب بأنه أتى من سوريا عبر تيماء إلى مدائن صالح. فتدخل هذا الشيخ المحترم قائلاً (رجّال صدوق والله) إنه ليس مثل ذلك الشخص الذي وفد إلينا في المرّة الماضية. هذا رجل يتحدث بصراحة. وسأل الأمير مجدداً: من تيماء؟ طيب: كيف وجدت تيماء؟ فأجاب داوتي: إنها بقعة نخيل طيبة الهواء، وكان داوتي قد مرّ بتيماء التي قال عنها إنها مستعمرة طيبة لأهل شمّر الذين وفد أسلافهم إليها قبل ما يزيد على ثلاثمئة عام. وتحدث عن نخيل تيماء الذي كانت أوائله قد جُلبت من جبل شمّر ما عدا الحلوة التي جُلبت من الجوف، ورأى أنه فارع الطول، حتى إن القليل فقط من الزنوج يستطيعون التسلق لقطع تموره. ويسترسل فيقول إنه رأى هنا للمرّة الأولى أهل نجد النحيلين المعجبين بأنفسهم السليطي اللسان. ويصف المستوطنة، ويرى أنها عامرة لم يرَ أكبر منها في شبه الجزيرة العربية. وقال إن السكان ينقبون عن الآبار القديمة ويستثمرونها لمصلحتهم، فهم كسالى. وينسب إلى المسلمين القول إنهم لا يستطيعون حفر مثل هذه الآبار، فهم ليسوا محبين للعمل كما هو شأن النصارى واليهود. وقد استرعى انتباه هذا الرحالة عدم وجود متسوّلين في تيماء، فليس هناك سوى رجل عاجز كان يغشى أي بيت من بيوت المدينة في وقت العشاء ويلقى الترحيب، كما قد يتصادف وجود بدوي أو اثنين من المعدمين لا يجد أي منهما صعوبة في الحصول على طعامه وقهوته في أي بيت من بيوت المدينة، ثم يقضي ليله بعد ذلك على قارعة الطريق.

سأل الأمير داوتي: ما اسمك؟ خليل. كنت في أوساط البدو يا خليل، فماذا ترى في البدو؟ أجاب داوتي ليس في البدو ما يمكن وصفه بأنه طيب. وأعاد الأمير السؤال: هل أكرمك البدو؟ هل أعطوك لبناً؟ فأجاب داوتي: إن لبن البدو أقل من أن يكفيهم فكيف أنال منه؟ وأرخى الأمير رأسه برهة، فقد سمع – كما يزعم داوتي – بأنه كان يتجول مع البدو ليشرب من لبن نياقهم.

يستمر الأمير في أسئلته مع إجابات من داوتي غير كافية ولا شافية. ويمكن أن نختار بعضاً من هذه الأسئلة، وإجاباتها: ما هي مهمتك؟ أنا حكيم ومعي أدوية. هل عندك كانيكا؟ – يقصد كينيا – نعم عندي أحسن أنواعها. ثم ماذا عندك بعد؟ عندي عدّة أشياء متفرقة، والأسماء أكثر من أن تذكر، وعندي شاي أيضاً سأقدم منه هدية للأمير. وهنا يقاطعه الأمير... لا. الشاي عندنا نأتي به من بغداد... لدينا منه كميات كافية. ويعلق داوتي على رفض الأمير

هديته بأنه قد سمع لاحقاً أن الأمير ما كان له أن يقبل منه ذلك الشاي أبداً، فابن رشيد لن يشرب أو يأكل شيئاً لا يتولى جلبه وتجهيزه عدداً من عبيده الذين يثق بهم، فالرجل يعيش في رعب دائم من أن يدسّ بعضهم له السم في الطعام.

يسأل الأمير: ما هي الأمراض التي يمكنك علاجها؟ هل يمكنك أن تعالج المجنون؟ وكان داوتي – كما يقول – يدرك أن بعض أبناء عمومة الأمير من أبناء عبيد يعانون الجنون. وكانت إجابة داوتي عن السؤال: المجنون هو المجنون. وكرر الأمير بعده هذه الحكمة، والتفت إلى الحاضرين قائلاً: هو صادق.

سأل الأمير: هل رأيت شيئاً من الطرائد في الطريق؟ وأجاب داوتي بأنه رأى بعض الأرانب البرية والغزلان، وأضاف: إنه ليس صياداً. وسأل الأمير: هل لحم الأرانب البرية نجس؟ أيمكنك أن تأكله؟ هل تأكل لحم الخنزير؟ وكانت إجابة داوتي بأنه عرف أن في بادية الشرارات حيواناً غريب الشكل هو الثور البرّي أو ما يسمونه الوضيحي wolhyhi، وأنه رأى قرون هذا الحيوان في تيماء، وذكر له الأمير أن في حظيرته "وضيحي"، ووعد داوتي بأن يريه إياه. ثم سأله الأمير إن كان من مدخّني التبغ. وهناك يلاحظ داوتي أن شوارع نجد كلها تخلو من المدخنين، ولكن يجري التغاضي عن الذين يدخنون في منازلهم. ويختتم الأمير أسئلته بسؤال تقريري "يعني أنت مسيحي؟". ويرى داوتي أن الأمير قد تفضّل عليه حين أطلق عليه صفة مسيحي ولم يُسمّه نصرانياً. وهنا يقول داوتي إنه سمع أن للأمير زوجة مسيحية. وربما دلت هذه الملاحظات على جهل داوتي باللغة العربية، واستعمالات الألفاظ. فلفظ نصراني في اللغة العربية أصحّ من لفظ مسيحي. ونستدل على قولنا هذا بأن القرآن الكريم حين أشار إلى أتباع المسيح سمّاهم نصارى، ولم يرد فيه أبداً لفظ مسيحي. فالمسيحي منسوب إلى المسيح، فيما ينسب لفظ نصارى في اللغة إلى النُصرة حينما سأل المسيح: من أنصاري إلى الله؟ وهم الحواريون، أو ربما ينسب البعض اللفظ إلى الناصرة، مهد المسيح عليه السلام، أما أن يكون للأمير زوجة نصرانية فهذا من الغرائب التي أتى بها داوتي، فالأمراء في هذا الوقت تحديداً كانوا يتخيّرون زوجاتهم سياسياً، وما كان أمراء حائل يتزوجون إلا من الأسرة والقبيلة نفسها، أو ربما يتزوجون من أسر أخرى لها مواقع سياسية موازية لمواقعهم أو تفوقها. والمعلوم أن لمحمد بن عبد الله بن رشيد أربع زوجات هن: موضى بنت السبهان، وهي شمّرية من جعفر أرفع بيوت تلك القبيلة، وعموشة بنت عبيد ابنة عمّه، وتركية بنت جوعان بنت مهيد، وهي من بريدة، ولؤلؤة بنت مهنا، أمير بريدة. ولم يتزوج أي من أمراء حائل الأربعة الذين سبقوا محمد بن عبد الله بن رشيد، وهم عبد الله بن رشيد المؤسس ١٨٣٥–١٨٤٨م، وطلال بن عبد الله ١٨٤٨–١٨٦٨م، ومتعب بن عبد الله ١٨٦٨–١٨٦٩م، وبندر بن طلال ١٨٧٣–١٨٦٩م من خارج قبيلة شمّر، سوى طلال بن عبد الله الذي تزوج بالجوهرة بنت فيصل بن تركي

من الأسرة السعودية، ويرجع ذلك لأسباب سياسية بحتة تتصل بظروف الإمام السعودي السياسية المتردية التي قضت عليه أن يزوج ابنته لأمير شمّر.

يقول داوتي: إن الأمير طلب إلى سكرتيره أن يقرأ ما ورد في شأن عيسى بن مريم عليه السلام ومعجزاته في كتاب **أخبار الدول وآثار الأول**. وكان هذا الكتاب المجلد بجلد أحمر من مقتنيات الأمير، يحتفظ به في رفّ القاعة. وفي عنجهية غريبة من هذا الرحالة الرافض للثقافة العربية جملة وتفصيلاً يقول: إن الأمير كان يستمع بشغف إلى تلك الأحجية، ثم ما لبث أن التفت إلى داوتي وسأله عن السبب الذي جعله يقوم برحلته، فأجاب داوتي: (العلوم). ويدّعي هذا الرحالة أنه وجد صعوبة في أن يشرح للأمير المقصود بكلمة: العلوم، وسأل الأمير مرّة أخرى: هل تعلمت العربية من البدو؟ هل تقرأ اللغة العربية؟ وأمر بكتاب ليمتحن به لغة داوتي الذي ذكر في هذا الصدد أن "الأمير من الدارسين لفنون اللغة العربية، وكان شاعراً أيضاً، لكنه شُغل لاحقاً بإدارة شؤون دولته، وأصبح وقته لا يتسع لمعرفة ثقافية لا تدرّ عليه ربحاً".

انبرى الأمير – كما يقول داوتي – في لحظة حب استطلاع طفولي – وهو الأمر الذي يرى هذا الرحالة أنه يميز الجنس العربي برمّته – فقام من مجلسه ليجلس إلى جواره، وأشار إليه بأن يقرأ. ومن المصادفة التي يقول داوتي إن الشيطان قد هيّأها له أن كانت الجملة التي وقع عليها هي: "فقتل الملك جميع إخوته وذوي قرابته"، وقد استثير الأمير، كما يقول داوتي، من هذا النصّ الدموي بوضوح، وقد ظنّ – انطلاقاً من شعور العربي – أن الرحالة يعدّه رجلاً قاتلاً. وهنا إشارة واضحة من داوتي إلى مقتل بندر بن طلال بن عبد الله بن رشيد، والأمر الذي أصدره محمد بن رشيد فور تولّيه الإمارة بقتل أبناء طلال جميعهم، الذين لم ينجُ منهم إلا نايف. وقد كتب داوتي في هذا الأمر باستفاضة وتفصيل. قال له الأمير بانفعال بالغ: لا، لا تقرأ من هنا، إنما هنا. ونقر بإصبعه على منطقة أخرى في أعلى الصفحة، وقرأ له داوتي ما جاء فيها، وهناك علّق الأمير: أعتقد انك تعرف القراءة قليلاً. فقام بعدئذ إلى مجلسه، فسأل هذا الرحالة مرّة أخرى: إلى أين تزمع أن تسير من هنا؟ فأجاب داوتي: إلى بغداد. ووعده الأمير بأن يرسله إلى هناك. وفي هذه اللحظة قام الأمير لينفضّ ذلك المجلس، وبينما كان ومرافقيه ينحنون للبس نعالهم، جاء سكرتير الأمير بمظروف إلى داوتي وطلب إليه أن يقرأ ما ورد فيه. وعلق داوتي بأن الخط ليس عربياً، فأجابه السكرتير: من أجل هذا أتينا به إليك لتقرأه. وسأل داوتي: من أين لكم هذا المظروف؟ فأجاب السكرتير: إنهم أخذوه من أحد النصارى الذين وفدوا من حوران إلى هذه الناحية. كان على المظروف من الخارج حروف إغريقية كتب بها: بطريركية دمشق. أما الورقة التي كانت داخله فكانت مكتوبة باللاتينية التي قرأها داوتي بعد ترجمتها إلى العربية بصوت جهوري: "اخرجوا في كل العالم واكرزوا بالإنجيل لجميع الخلائق..."، وقاطعه ذلك الرجل المحترم قائلاً للأمير: محمد أتسمع هذا؟ إنها كلمات المسيح.

مجلس آخر مع الأمير

يحكي داوتي أخبار مقابلة أخرى مع الأمير دامت حوالى ساعتين، سأله فيها أحد الجالسين، وهو يرمقه – كما يدّعي داوتي – بعين حاقدة: هل يأمل أن يعود إلى بلاده مرّة أخرى؟ فأجاب داوتي على ذلك الصوت المخيف الشرير بأن كل شيء مرهون بمشيئة الله، وعندها قال الأمير: نعم، نعم كل شيء بيد الله. وسأل الأمير داوتي عن التلغراف وقد أدركه في بغداد، وطلب إليه أن يشرح له كيف تعمل هذه الآلة، فأجاب داوتي: إذا افترضنا جدلاً أن شخصاً رأسه ممدود في إستانبول وقدماه في حائل، وقام إنسان ما بحرق رجله في حائل ألا يحسّ بذلك فوراً رأسه الراقد في إستانبول. وتلقّى هذا الرحالة بعد ذلك العديد من الأسئلة الأخرى راح يفتي لهم فيها بما عنّ له. سألوه عن الزجاج، وعن النفط، وعن العالم الجديد، وموقعه. واستمع الجميع في برود – كما يقول داوتي – لما رواه عن الأرض الجديدة، في ما وراء البحر، واستفسروه عدّة استفسارات أخرى منها: هل كانت تلك القارة خالية من السكان حين اكتشفت؟ وأخيراً سأل الأمير: كيف وجدت حائل؟ وكيف وجدت شارع السوق؟ ولكنه ما لبث أن أجاب مستدركاً على نفسه: هذا سوق عرب لا يقارن إلا قليلاً بأسواق العالم الرئيسة، ثم سأل الأمير أيضاً إن كان ذلك الرحالة قد سمع في موطنه بجبل شمّر؟ وكم كان اغتباطه عظيماً حينما أجاب داوتي بالنفي، لأنه أدرك – كما يقول هذا الرحالة – أن النصارى لا يتطلعون إلى مقاطعته الصحراوية، رغم أن ذلك النفي "لم يُرضِ طموحه الفارغ"، إذ لم تصل أي شائعات عن أخبار جهوده المضنية التي يدير بها حكومته إلى آذانهم في تلك البلاد السعيدة، وهنا سأله حمود: ماذا؟ ألم تسمعوا أبداً بابن سعود الوهابي؟

في المجالس العامة

ما أكثر المجالس التي جلس فيها داوتي، اعتباراً من مجالس الأمير إلى مجالس العامة عند كل نار يوقدونها للقهوة! فإضافة إلى أن هذا الرحالة كان حريصاً على تلقّط كل كلمة شاردة وواردة من أفواه العرب وإدراجها في كتابه بما يناسب مفاهيمه التي دفعت به إلى شبه الجزيرة العربية، فإنه لم يكن يحمل من المال ما يكفيه، و لم يكن يكسب ما يمكن أن يسدّ به رمقه. وبقدر ما دفعت به هذه الفاقة إلى أن يغشى الموائد العربية العامرة منها والعاطلة، فإنها زادت في الوقت نفسه من حقده على هؤلاء القوم الذين يتفضّلون عليه، وهم في اعتقاده أدنى منه درجة في سُلّم الإنسانية. غير أن حكايات داوتي التي حصل عليها من هذه المجالس أثرت المصادر التاريخية والتراثية في الغرب. ويبقى سفر داوتي مصدراً للمؤرخين والمهتمين الغربيين بمجالات الثقافة

والتراث والسياسة العربية، ونجد أن من سوء الحظ أن يهمل المهتمون بالعلوم الإنسانية من العرب هذا السفر الضخم ويبقى في منأى عن نقدهم ومناقشة ما ورد فيه علمياً. وقد يحتج هؤلاء بصدق أن الرجل كان يزدري العرب ومعتقداتهم وثقافاتهم، فازدراء العرب أمر معتاد لدى كل الرحالة الغربيين، بل هو منطقي. فكل رحالة وفد إلى هذه المنطقة ليستكشف أهلها وإدارتها وأرضها، وهو يرى – صرّح أو لم يصرّح – أن هذه الأمة غير مستكشفة، وفي هذا ازدراء كبير، كما يرى أن من واجبه كأوروبي ينحدر من أمم أرقى عنصراً وثقافة أن يقوم بالاستكشاف لتحقيق أهداف بلاده الاستثمارية منها والاستعمارية والإنسانية، وتحديث هذه الأمة العربية التي مهما أشاد بعض الرحالة بخصائصها إلا أن أياً منهم لم يتعدَّ الحقيقة تماماً حين رسم لها صورة موغلة في البدائية، وفي التفرقة والتنافر والتشرذم. أما الخطاب الصليبي الفاضح عند داوتي فهو من خصائص أدب الرحلة الأوروبية في شبه الجزيرة العربية، ومن مهمات أدب الرحلة الغربية ومقاصدها، تجده بدرجات متفاوتة عند كافة أهل الرحلة الغربيين في شبه الجزيرة العربية. وقد لمحنا إلى أن الأخذ من الرحالة في هذا المجال غير جائز البتّة، لأنهم يهرفون بما لا يعرفون. أما ما يرد عندهم عن المرأة في المجتمع العربي فهو أبداً حديث خرافة من نسج أوهام يستثيرون بها خيال القارئ الغربي، فتراهم يأخذون بظاهر القول الذي سمعوه وينسجون عليه. ولكن – مع كل هذا – على معشر المؤرخين أن يكشفوا لغيرهم هذا الفكر غير المؤسس في هذه المجالات. لأنه تيار منساب في الذهنية الأوروبية عن العرب يُروى ويعتمد في العصر الحديث؛ فالمرأة العربية في العيون الأوروبية ما زالت حتى الآن ترزح في قيود عبودية الرجل، ولا يزال الدين الإسلامي عند كثير من مفكري الغرب قيداً على الحرية الفكرية والشخصية. وعلى المفكرين العرب أن يدركوا أبعاد صور مجتمعاتهم وثقافاتها، خاصة في هذا العصر الذي أخذت "الكوننة" تمسك برقبته جاهدة في إرساء ثقافة الأرقى مادياً على حساب الثقافات الروحية للأقوام الذين يعيشون عالة على العالم المادي، يستهلكون كثيراً وقليلاً ما ينتجون...

يحدثنا داوتي – قبل وصوله إلى حائل – عن عربي أسمر طويل نزق، متأنق في ملبسه، دخل إلى المقهى الذي كان هذا الرحالة يجلس فيه مستأنساً فيقول: إن هذا الرجل القادم من عفار ألقى التحية على الجميع في برود واضح، واتخذ له مجلساً في المقهى، وسرعان ما أتحفوه بطبق التمر. وأخذ الرجل يجول ببصره على الجالسين وتفحّصهم فرداً فرداً، وكلما وقع بصره على أحد منهم – أو أكثر – كان قد صادفه في السنين الماضية يقوم إليه بأنفة ظاهرة ويقبله ويسأله عن حاله. يقول داوتي: إن هذا الرجل الذي كان شمرياً من العراق، والذي كانت "ديرته" على بعد حوالى مئتين وخمسين ميلاً، حدجه بنظرة غاضبة ثم سأله: من هذا؟ هل أنت نصراني؟ أفصح يا هذا؟ وقال الرجل مخاطباً الجالسين إن هذا الرجل يقوم بعمل خطر

لا يدركون مدى خطره. هذا رجل فرنسي. فأجاب الرحالة بأنه من المعلوم لدى الجميع في هذا المجلس أنه إنجليزي ولا يجدون ضيراً في ذلك. وسأل الرحالة بدوره الرجل: أنت من تكون؟ ما الذي دفع بك إلى هنا؟ فأجاب بأنه في طريقه إلى حائل لقضاء مهمة تتصل بالأمير، ثم التفت إلى الجمع وأضاف: إن هذا الرجل ليس إلا جاسوساً جاء ليستكشف أخبار هذه الأرض. وهنا أبدى أحد الجالسين ملاحظة بأنه قد جاء قبل عدّة سنين إلى هذه المنطقة أجنبي ادّعى أنه مسلم، ولكنه في ما يبدو كان مثل خليل يكتب كل إجابة لاستفساراته الكثيرة. لم يأبه معظم الجلوس كثيراً لما قاله الرجل، ربما – كما يقول داوتي – لأنهم كرهوا منه نزقه ونظراته المترفعة، إضافة إلى أنهم لم يكونوا معادين لخليل. وانتهت هذه المشكلة بسلام حين تدخل الرجل المرافق لداوتي قائلاً: إن خليل في طريقه لزيارة الأمير في حائل، وإذا كان هناك أي اشتباه في مهمته فإن الأمير سينظر في ذلك. ويبدو أن ذلك الضيف – حينما أدرك أن المجموعة لم تأخذ برأيه – تراجع عنه، وخفّت حدّة نظراته المتوثبة، وبدأ يلاطف خليل ويحادثه.

انتهى الحديث عند رواية خليل في المجالس بما يؤكد أن الرحالة كانوا دائماً على حذر، وعيونهم مفتوحة، وآذانهم مرهفة، وعقولهم حاضرة أبداً. يقول الرجل: إنه لبّى دعوة للعشاء في منزل حمود بن رشيد، وحين فرغ وهمّ بغسل يديه همس أحد الحاضرين في أذن حمود: ما أشدّ بياض لون بشرته؟ فأجاب حمود هامساً: إنه البرص. والتقطت أذن داوتي الحديث، فتدخل قائلاً: الحمد لله ليس في يدي أثر لبرص. وتغيّرت ملامح حمود الذي فوجئ بسماع داوتي لكلماته، ومع ذلك أصرّ على قوله: إنه البرص... الحمد لله. وتدخّل أحد الجلوس مؤكداً أنه شاهد امرأة بيضاء شقراء في بغداد حتى لتبدو كأنها أخت خليل. وفي الحقيقة إن بياض بشرة الرحالة الغربيين كثيراً ما استرعى أنظار العرب، وكثيراً ما اعتزّ به أولئك الرحالة العنصريون.

داوتي يحصل على جواز مرور من ابن رشيد

كلف الأمير ابن رشيد كاتبه بأن يكتب لداوتي إذن مرور، فكتب على قطعة مربعة صغيرة من الورق ما نصّه: "على كل من يرى هذه الورقة من الأشخاص الموالين لابن رشيد أن يدرك أن الأمير قد قضى ألا يعترض على هذا النصراني معترض، وألا يتعرض له أحد بإساءة". وغمس الأمير ختمه النحاسي المنقوش عليه اسمه في الحبر ومهر به تلك الورقة.

داوتي والإبل

يحدثنا داوتي عن هذا الحيوان منذ ولادته عندما تدفع به الناقة المستلقية على جنبها عند

المخاض، وحين يخرج حوارها يكون حجمه في حجم الرجل البالغ، ويسحبه البدوي إلى أمام أمّه التي تشمّه ثم تقف فتلعقه فينهض مترنحاً ليرضع منها ولمّا تمضِ على ولادته سوى ثلاث ساعات. ويستطيع ذلك الحوار أن يتبع أمه في اليوم التالي لولادته إلى المرعى. ويصدر هذا الحوار ذو الوبر الناعم كالحرير صوتاً كثغاء الغنم، ويستطيع بعد عدّة أسابيع من ولادته أن يقتطف شيئاً من شجيرات الصحراء. ويعتقد داوتي أن ثمن الحوار الوليد يساوي ريالاً واحداً وترتفع قيمته بهذا المقدار كل شهر تقريباً. وعادة ما يذبح فقراء البدو الحوار حتى يتمكنوا من أن يظفروا بلبن ناقتهم كله فلا يشاركهم فيه. وتبدأ الناقة بعد فقد حوارها تخور وهي تبحث عنه وعيونها دامعة، ولكنها ما تلبث أن تنساه وتدرّ لبنها مدراراً ثلاثة ليترات في الصباح وقدراً مماثلاً في المساء. أما الناقة التي لم يُذبح حوارها فتحلب في المساء فقط. ويعرض داوتي الطرائق التي يمنع البدو بها الحوار عن ضرع أمه حتى لا يستنزف لبنها كله، كما يحدثنا عن لبن الناقة كغذاء أساس في البادية، ويقارن بينه وبين ألبان النعاج والماعز وغير ذلك، ويصل إلى أن البدو يجدونه صحياً ويفضّلونه على جميعها.

تبقى الإبل في موسم الربيع الجيد في "الديرة"، حوالى شهرين ونصف الشهر لا تفارقها، ترعى الربيع الممرع الريان، وتظل طيلة هذه الفترة "جزين" لا ترسل إلى مواطن المياه، فهي لا تحتاج إلى الماء أبداً. ويلاحظ داوتي أن الإبل العطشى حين ترد منطقة تتجمع في تجاويفها الصخرية مياه الأمطار، تبدو كأنها تعاف الماء. تمد الإبل أعناقها الطويلة نحو الماء في تثاقل واضح حتى تلامس شفاهها الغليظة المكتنزة سطح الماء، ثم تغمسها وكأنها تبغي غسلها، ثم ما تلبث أن ترفعها خارج تلك التجاويف المائية وتهز رؤوسها كأنها تعاف الماء، ثم تبدأ بعد ذلك في ري ظمئها.

يقول داوتي نقلاً عن بعض الرواة العرب: إن الإبل لا تعرف النوم أبداً، فهي تمدّ أعناقها الطويلة على الأرض، وتغمض عيونها الواسعة الدامعة لحظات ما تلبث بعدها أن تنتبه وتأخذ في الاجترار، ويضيف داوتي: إن الإبل ترعى الكلأ في مواسم الوفرة طيلة النهار، وتجدها تتسلل من مضارب البدو وهم نيام لترعى على ضوء القمر. ولكن لما كانت حيوانات تتميز بالجبن، فإنها لا تسدر بعيداً عن المضارب. ويقول داوتي إنه كان يصحو أحياناً بعد منتصف الليل ويجد أن إبلهم قد تفرقت وتشتتت هنا وهناك، وكان حين يحاول ردّها يقول له العرب: نم يا خليل ودع الإبل وشأنها ترعى كما يحلو لها.

يرى داوتي أن الإبل هي "المادة" الرئيسة عند البدو، فهم – كما قال البدو لهذا الرحالة – يحملون "يشيلون" عليها، ويشربون حليبها ويتخذون منها غذاءهم، ويضيف هذا الرحالة: إن النسوة كن يغسلن أبناءهن ببول الإبل، ويعتقد أنهن بذلك يبعدن الحشرات عنهم، ويضيف أن بول الإبل لاذع، خاصة إذا رعت تلك الحيوانات شجيرات ذات طبيعة قلوية مثل الرمس،

كما يشير إلى أن الرجال والنساء على حدّ سواء يجعلون بول الإبل على شعورهم لتقوية ضفائر الشعر وتثبيتها.

المرأة البدوية

كتب خليل عن المرأة البدوية، وعرض كافة ما كُتب عنها في المصادر السابقة وأضاف إليه من روافد الفكر الغربي عن المرأة العربية، إضافة إلى ما سمعه أو شاهده أو توهّم أنه شاهده من المرأة العربية جافى خليل الصواب حين خاض مجال المرأة العربية واستعرضلا في هذا الصدد وضع المرأة في شريعة موسى ، عليه السلام ، ويذكر أنها تعتبرها نجسة، ويضيف أن الملك الحكيم في أورشليم لم يصادف امرأة صالحة أبداً، وبالطبع فليس ثمّة رابط بين تلك الشريعة والمرأة العربية، ولكنها عنجهية الرحالة التي لا ترى في البادية إلا القديم الذي يتجاوز قدمه فترة موسى ربما إلى آدم. وكتب داوتي أيضاً عن الصورة النمطية للمرأة في الجاهلية، وتحدّث عن وأد البنات في تلك الفترة (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم...) وبالطبع لا يؤخذ داوتي مصدراً للعصر الجاهلي، فهو ليس مؤرخاً ولا مصدراً، فالمصدر يجب أن يعيش الفترة التي يتحدث عنها، ولا يمكن الجاهلية الفكرية التي ميزت داوتي في هذا الصدد أن تعفيه من معايشة المكان والزمان.

يرى داوتي أن العربي يستغني عن المرأة التي تقوم بكافة الأعباء المنزلية إذا فقد الدفء في أحضانها، ويناقش موضوع تعدد الزوجات وينتقده بعنف، فالأنثى تُعطى عروساً بكراً لرجل لا يكافئها سناً، ولا يكون قلبه مقصوراً عليها وحدها، إذ تشاركها فيه أخريات، تبقى المرأة مع زوجها المسن – كما يقول داوتي – وهي تنتظر موته تطلعاً إلى زواج آخر في المستقبل القريب، أما إذا ذبلت فيها زهرة العمر – وهذا ما يحيق بالمرأة العربية سريعاً – كما يرى داوتي – أو إذا كانت عقيماً، فسرعان ما تصبح شيئاً غير مربح. ويضيف الحاج خليل أن بعض نساء العرب قد يعرفن طعم الحب الطبيعي اللذيذ الذي قد ينتعش في تلك القلوب فترة وجيزة ثم ينحسر، لأن الحب مثل الحمامة تظل على الفنن ما أحسّت بالاطمئنان، ولكن الحب لن يفرخ في قلب امرأة تلقى الإساءة. ويدّعي خليل أن الزواج السعيد في حياة البدو نادر (؟)، ولن تجد زواجاً استمر في المجتمع البدوي فترة طويلة. ويذكر داوتي أن المرأة التي تفقد زوجها في الحياة أو الموت تجد له بديلاً سريعاً، لأن الرجال يوالون الزواج ولا يرفضون الزواج من ثيب إلا إذا كانت "معيل"، أي كثيرة العيال، أو كانت من الأرامل المعوزات، فالزواج لا يرفضه أي من الرجال – كما يقول – إلا إذا كانوا في حالة فقر مدقع، أما الشيوخ والأعيان فهم عادة ما يهجرون زوجاتهم القدامى لتستقبلهم مخادع عرائس جدد، أما الذي لا يقوم بذلك منهم "فإنه

غير مسلم". ترى هؤلاء الموسرين ينفقون بسخاء على زوجاتهم الجدد ويتحفونهن بهدايا من الملابس لينالوا رضاهن. ويشير داوتي إلى الاعتقاد السائد في أواسط العرب بأن أعداد النساء في المجتمع تفوق أعداد الرجال، ولذلك فمن الطبيعي أن يكون للرجل أكثر من زوجتين اثنتين، ويبدي داوتي اقتناعاً بهذا الاعتقاد.

يذكر داوتي أن المرأة العربية تجد رضاها في أن تكون أمّاً لعدد كبير من الأبناء. وينعى على نساء البدو أنهن قليلات الإنجاب، فهن يعانين عضّة الجوع تسعة أشهر في السنة، تبدأ بنهاية الربيع وتنتهي عند الربيع التالي، ويقول إنه لم يسمع أن بدوية أنجبت توأماً، ويضيف: إن البدوية أم رؤوم، فهي ترضع ابنها القليل من اللبن كالسراب من صدرها الأعجف، وتستمر في تغذية وليدها بلبنها فترة طويلة من عمره. ويدّعي داوتي أنه رأى أمّاً ترضع صغيرتها التي بلغت عامها الرابع. وعندما استفسر منها داوتي أجابت بأنها لا تملك أغناماً، و"لا أجد في هذا الخواء شيئاً يمكن الصغيرة أن تقتات به، فماذا أستطيع أن أفعل إلا إرضاعها".

يتهم خليل المرأة البدوية بعدم أداء الصلاة إلا في رمضان، شهر التقوى الذي يقول إنه ينهى عن شهوات الجسد، وأضاف أنه لم يرَ بدوية تصلي إلا نادراً، وإن القليل منهن يؤدّينها على النحو الصحيح، ويدّعي - وتلك فرية مضحكة - أن النساء اللاتي يصلين لا يؤدين السجود مثلما يفعل الرجال. ويكتفين بترداد نوع من الكلمات وأيديهم مقبوضة على صدورهن ثم يركعن.

يخرج خليل المرأة البدوية من عداد بني البشر، وذلك حين يدّعي أن العرب يعتقدون أن الأنثى هي "أميز الحيوانات"، وأن لها سبع أرواح، وهي نجسة، ويدّعي أيضاً أن العرب معادون لجنس المرأة، فهي ذات طبيعة شريرة، وهم حين يذكرونها يتبعون ذلك بأن عليها لعنة الله، وأن العديد منهن - كما يدّعي أنه سمع من البدو - زانيات، ولهذا تجد المرأة دائماً مكان شك من الرجل الذي يظلّ يحبسها في المنزل طوال اليوم، ما يؤدي إلى توترها وإرهاقها نفسياً. فلعنة الله على هذا الرحالة، لأننا لا نتخيل قط وجود مثل هذا الفكر في أي مجتمع عربي، مهما كان بدائياً. فالمرأة عند العرب هي الأم التي وضع الإسلام الجنة تحت قدميها، وهي الزوجة التي هي عرض الرجل، وهي الابنة والأخت. ولا يعرف هذا الأرعن أن المجتمعات العربية الأصيلة هي أشدّ مجتمعات العالم بأسره غيرة على المرأة وتقديراً لها، وحرصاً على شرفها.

يستنكر خليل أن تسير المرأة العربية كاسية، واستنكر الحجاب والنقاب، ويلاحظ أنهما في الحاضرة أكثر انتشاراً من البادية، ويعلل ذلك بأن مجتمع الخيام كله يعود إلى أصل واحد، وأن النساء فيه قريبات الرجال، ولهذا يغلب في البادية عند كثير من القبائل العربية أن تسير المرأة نصف محجبة. وعندما سئل: هل تسير النساء في بلاده محجبات؟ أجاب بأنهن سافرات وأنهن محصنات (؟)، يعشن وسط رجال أمناء (؟)، فلا سبب يحملهن على أن يخفين وجوههن.

ولا أدرى كيف أباح هذا الرحالة لنفسه أن يلصق العفة بمجتمعه المتهتك في أعمّه، الذي لا يضع لهذه القيمة اعتباراً كبيراً. ويدّعي داوتي أنه قذف نساء قبيلة بعينها، ووجد بذلك من سامعيه قبولاً: أي والله إنهن فاجرات. ولاحظ داوتي – وقد نوافقه انطلاقاً من واقع العرب الراهن – أن العرب يُسرّون كثيراً عندما يسمعون إساءة موجهة إلى فريق غير الذي ينتمون إليه.

يذكر داوتي أن البدوية تكتحل وكذلك تفعل الحضرية، والاعتقاد السائد هو أن الكحل يحفظ للنظر حدّته، ويضيف: إن الرجال الذين يريدون القبول في أعين النساء يكتحلون كذلك، ويفيد أن محمد بن رشيد يستخدم لعينيه "الشبيهتين بعيني الطائر" هذا الكحل، ويستطرد فيقول: يبدو مثل هذا الرجل بعينيه الكحلاوين الزائغتين – وهو يربط منديلاً ملوناً فوق شعره الطويل المفروق في منتصفه إلى ضفيرتين طويلتين – في أعين الأوروبيين نصف أنثى، و"هم بالفعل أشباه نساء". يقول: إن النساء، مثل الرجال، يغسلن شعورهن ببول الإبل لاعتقادهن أنه يقضي على القمل، إضافة إلى تثبيته جذور الشعر وتقويته، كما يغسلن أبناءهن ببول الإبل، إذ يعتقدن أن ذلك يبعد الحشرات عن أجسادهم، خاصة إذا رعت تلك الإبل الشجيرات ذات الطبيعة القلوية مثل الرمث.

يحكي داوتي عن امرأة كان طفلها يلهب ظهرها ضرباً بالعصى، و لم تكن تردّه، وحين استغرب الحاج خليل الأمر سأل الوالدة فأجابت بأن "ابنها كافر". ويفسر هذا الرحالة هذه الكلمة بأن ابنها كان شديداً لا يعرف المزاح، ويسترسل فيذكر أن هذا الطفل الذي لم يكن بدوياً خالصاً حين يشبّ عن الطوق، فإنه سيضرب والده كذلك، ويسند هذا القول إلى البدو أنفسهم، ويدّعي أن أطفال البدو يشبّون من دون أن يظفروا من آبائهم بعناية أو توجيه، ويروي في هذا الصدد قصة طريفة فحواها أن بدوية جاءت إلى خيمته تنتحب وتتوسل إليه "أن يفتح كتبه" ليرى ما حلّ بوليدها الذي كان خرج في اليوم السابق معها ليرعى الغنم ولكنه تاه و لم يعد. ويدّعي أن تلك المرأة التي كانت في حالة حزن حقيقي لم تقتنع بأن "كتبه لا تتضمن علم الغيب"، ويدّعي كذلك أنه لم يستطع أن يثير في عرب ذلك المنزل ولا في والد الطفل الحمية للاهتمام بأمر الطفل المفقود وضرورة البحث عنه، فاهتمام الرجل في البادية متبلد أبداً، فإذا فقدت إحدى الأرامل جملاً فإنها لن تجد من يتعاطف معها إنسانياً من الرجال ليبحث عنه ويردّه إليها ما لم تدفع ريالاً، ونحمد لخليل أنه وصل بقصته إلى نهاية سعيدة، إذ أفاد أن الطفل قد عاد إلى حضن والدته المذعورة مرّة أخرى بعد أن قضى الليلة السابقة في خباء بعض أقاربه.

يتحدث داوتي عن القسم الذي تشغله المرأة في الخيمة البدوية، فيقول إنه معزول بستارة توجد عندها أكياس قليلة من الخيش، تضمّ كل مدخرات أهل البيت (الغوش) من الذرة والأرز إذا كانوا يملكون شيئاً من ذلك، وبعض أحجار من الملح الصخري والصوف الذي غزلته النساء، والجلد الذي يتخذون منه قرب الماء ومستلزماتهم الأخرى، كما تملك كل بدوية،

حتى الفقيرات منهن، صندوقاً لزينتها يضم المشط والمرآة (المرقوبة) وحليها من أقراط وأزمّة الأنف الفضيّة وحتى الذهبية التي ورثتها عن أجيال سابقة، وكذلك بعض الأشياء الصغيرة الخاصة بزوجها، فملابس الرجال ليس فيها جيوب. أما إذا كان الزوج شيخاً ثرياً، فعادة ما يكون لزوجته خزانة حديدية مغلقة تضع فيها حزمة ريالاته، إضافة إلى ما لها من أشياء نفيسة، ويوثق الصندوق خلال الرحلة على جمل حمولتها، ويتدلى مفتاحه مع كشتبانها ومنقاشها الذي يستعمل لانتزاع الشوك من أصابع قدمها الحافية بخيط قرمزي زاه كقلادة تلمع على خلفية حجابها. ويشبه هذا الصندوق "تابوت العهد" الذي كان يضم المقِدسات في الأديان المعروفة في الحياة البدوية لبني إسرائيل.

يرى داوتي أن النساء في الحواضر السامية، حتى النصرانيات منهن، يجدن متعة في الخروج إلى المقابر في يوم معين يندبن فيه موتاهن، ويضيف أنه رأى أرملة صحبت بناتها لزيارة قبر والدهن، وجلسن جميعهن راكعات أمام ذلك القبر، وراحت تلك المرأة تدرب بناتها على سلوك البكاء على الموتى، فراحت تنتحب وهي تتثني ويختلج جسدها ويتراقص، وتنوح بصوت تخنقه العبرات: "يا حبيبي... أها.... أها... أها يا حبيبي... أها...".

"الصلبة" من الجماعات التي اهتم بها الرحالة الأوروبيون

لا تزال أصول الصلبة في شبه الجزيرة العربية موضع جدال، وخاصة أن البعض يردونهم إلى أصول غجرية، بينما يأخذ آخرون خطاً مغايراً تماماً فيردونهم إلى "أصلاب" العرب، ويقول آخرون إنهم بقايا الصليبيين الذين فروا إلى متاهات الجزيرة العربية بعد أن استعاد المسلمون القدس في نهاية الحروب الصليبية. ويرى داوتي في الصلبة، هؤلاء الغرباء "المنبوذين، أجساداً أكثر صحة ونظرات أكثر توقداً من البدو الذين عضّهم الجوع". والصلبة - عند داوتي - صيادون ماهرون، كما أنهم يقومون بالأعمال التي يقوم بها الغجر، ويصنعون للبدوي المطرقة والسندان "القدوم" الذي يستعمله في قطع أغصان السدر التي يقتات عليها بعيره، وكذلك المنجل وغيره من آلات القطع التي يحتاج إليها، ويعالجون سلاح البدو إذا احتاج إلى معالجة، ويصنعون للبدو الآنية المنزلية، ويقومون بكل فنون الحدادة والنجارة، وهم الذين ينجرون من خشب السدر رحال الإبل، ويجهزون للعربي الآلات التي تعينه على متح المياه من الآبار، كما يصنعون من الخشب أيضاً بعض الآنية البدائية لحفظ اللبن وغيره، إضافة إلى أنهم يقومون بالأعمال البيطرية ومعالجة الحيوانات. ومع ذلك فقد التزموا في هذا المجال حكمة أحد حكمائهم الذي طلب إليهم أن يتركوا اقتناء المواشي لغيرهم ويخرجوا للصيد في البرية.

ينزل هؤلاء الصلبة عند خيام البدو، ويسألونهم اللبن، إذ ليس لهم من الحيوانات ما يدرّ

حليباً، وترى البدوية تصبّ للصلبي اللبن من "الثملة" في ماعونه، فالبدو لا يشربون من إناء شرب فيه الصلبي البائس، لأنهم - كما يقال - يأكلون الميتة "الفطيس" كما يأكلون الحشرات والديدان أيضاً. ويتهم داوتي الإنسان البدوي بالإثم، لأنه يطلق على الصلبي لفظ الكافر، لأن عدداً كبيراً من هؤلاء الجماعة لا يعرف كيف يؤدي الصلاة، ويستطرد داوتي قائلاً إن البدوي نفسه ينال حظه من مثل هذا الاحتقار حين يخرج من البادية إلى المدينة. ويلاحظ داوتي أن الصلبة لا يظهرون تعلقاً بدين هذه الأرض التي وُلدوا فيها، لكنهم أيضاً لا يعرفون شيئاً البتّة عن أي أديان أخرى أيضاً. ومع ذلك، ورغم هذا الوضع البائس، فهم إنسانيون متسامحون، رغم أنهم مضطهدون ومكروهون.

ترى الصلبة في الصيف حين يعزّ اللبن في منازل البدو يزورون تلك المنازل على ظهور حميرهم، الصنف الوحيد من الحيوانات التي يسعى الصلبة إلى امتلاكها ويضربون بها في الخلاء المفتوح حتى يجدوا بئراً بعيدة في منطقة غير مطروقة ينزلون عندها. الصلبة من دون سواهم من سائر العناصر في الجزيرة العربية يرتحلون إلى حيث يشاؤون، أحراراً لا يعترضهم معترض، إلا أنهم قد يدفعون للبعض أحياناً جُعلاً صغيراً. فالبدوي لن يسلب الصلبي وإن وجده وحيداً في أقاصي مناطق البرية المفتوحة للصلبي على مصراعيها. ويكتفي البدوي حينما يمرّ بتلك البئر البعيدة الوحيدة التي ينزل عندها الصلبي المسكين بأن يجد الترحيب، وأن يهب الصلبي له قسمة كبيرة من طريدته.

يركب الصلبي حين يخرج للقنص على ظهر حماره، ويلاحظ داوتي أن الحمير حيوانات لا تقوى على عطش الصحراء، إذ يجب أن ترد الماء يوماً بعد يوم، ولكنها في غير ذلك ليست أقل من الإبل كفاءة كحيوان من حيوانات الصحراء. يقطع الصلبي مصحوباً بعائلته وأطفاله في أطمارهم البالية على حميرهم المفازات البعيدة التي يستعصي على البدوي أن يقطعها وهو على ظهر ذلوله في ثلاثة أيام كاملة، ويتجول الصلبة فوق وجه شبه الجزيرة العربية الشاسع اعتباراً من مرتفعات سورية حتى اليمن، يمارسون الحرف البدوية التي ورثوها كابراً عن كابر. وقد "حدثني العرب" بأن الصلبة خير من يمكن استفسارهم بشأن تلك الأمور التي لا يمكن أن تستوعبها "عقول العرب الصغيرة التي تشابه عقول الفئران".

الصلبة - كما يذكر داوتي - روّاد الصيد والقنص في هذه الأرض العربية التي يصفها بالموات، ولا ينافسهم في هذا المجال منافس. ففي تلك المناطق التي قد لا يرى فيها البدوي أثراً لأقدام فريسة، ترى الصلبي المسكين يستمتع بلحم الغزال الطازج، كما تجده يستمتع في بعض المناطق الرملية بلحم الوعل، ويقول البدو: إن الصلبي "راعي" الطرائد، فالصلبة حينما يبصرون قطيعاً من الطرائد يتخيرون منه ما يريدون، تماماً كما يفعل الرجل مع قطيع الماشية الذي يمتلكه، فتسمعهم يقولون: سنأكل هذه الفريسة اليوم، أما تلك فنؤجل صيدها

حتى بعد الغد! ويستطرد هذا الرحالة في ما يمكن أن نعدّه تعبيراً عن حال قلمه فيقول: إن من طبيعة الإنسان أن يبالغ في طبيعة الأمور، وإن المبالغة والتضخيم يحسّنان الصورة حتى لتبدو مدهشة، ويجد المرء فيها لذّة ومتعة. ويضيف أن ما حكاه له العرب عن حال الصلب مع الطرائد يُعدّ "من مبالغات العرب". إلا أنه مما لا شك فيه، فإن الصلبة قوم أشداء، حريصون، يأكلون مما تهيّئه لهم أيديهم، وإن الصلبي – كان حاد البصر – صياد ماهر لا يُشقّ له غبار.

يعدد داوتي بعدئذ الأسماء الكثيرة التي يُعرف بها الصلب في المناطق المختلفة. فهم يُعرفون في بعض المناطق بكلاب الخلاء، وفي مناطق أخرى بالخلع أو بالخلعي، وغير ذلك من الصفات والأسماء. ونعتقد أنه أخطأ في بعضها، فهو يجمع من الروايات في مجالس القهوة الغث إلى السمين، ولا مندوحة من القول إن تلك المجالس تضم أحياناً ضروباً من الهزر، وفنوناً من القول السخيف التي لم يكن قائلوها يدركون أنها تسجل لتبقى في ذاكرة الزمن شاهدة على العربي في فكر الرجل الغربي.

الرحلة إلى القصيم

وفد من العراق بدويّان يسوقان إبلاً محملة بالأرز "التمن" خاصة بطلق ومطلق، وهما بدويّان يعملان حمّالين في قوافل الحجّ التي يديرها ابن رشيد. لقد دُهش داوتي كيف تمكن هذان البدويان من الاهتداء بعد تلك الرحلة الطويلة إلى مضارب خيامهما، وأشار مطلق إلى أحد الرجلين، وسأل داوتي إن كان يرغب في أن يستأجر ذلك الرجل الأمين ليوصله إلى القصيم فوافق الرحالة. وحين حدّثا الرجل في ذلك أبدى خشية من اجتياز هذه المنطقة المفتوحة، وأنه قد يفقد ناقته لبعض العتبان الذين يعيثون في هذه المنطقة، وينهبون كل من يحاول اجتيازها. وما زال مطلق بالرجل يستحثّه على قبول العرض ويرغّبه فيه مجادلاً إياه بأنه سيتمكن من أن يشتري بالأجر الذي سيناله حملاً من التمر الزهيد الثمن في القصيم، ويعود به سالماً غانماً إلى بيته. واقتنع البدوي أخيراً بأن يرافق داوتي إلى البكيرية، ثم استقر الأمر به أخيراً على أن يحمله إلى بريدة لقاء خمسة ريالات.

هكذا تواصلت أسفار هذا الرحالة في شبه الجزيرة العربية التي بدأت بوصوله إلى العقبة التي يصفها ببوابة هذه الأرض، في ٢٤ نوفمبر ١٨٧٦م، وشملت مدائن صالح ثم حائل التي دخلها في أول إبريل ١٨٧٨م، وها هو يغادرها إلى بريدة في القصيم التي لم ترحّب به وطردته إلى عنيزة التي استضافته ريثما تغادر قافلة السمن منها إلى مكة المكرّمة. وقد أفضت به تلك القافلة بعدئذ إلى حدود الحرم، فأوكل قائدها أمر داوتي إلى من يبلغه جدّة التي وصلها في ٣ أغسطس ١٨٧٨م، منهياً بذلك تسكعاً دام عشرين شهراً.

خاطبني حمد، ذلك البدوي، قائلاً: اركب، ثم جعل أمتعتي على ظهر دابته وتسلق الدابة ليستقر خلفي، وانطلقنا في طريقنا، تشيّعنا دعوات مطلق: ليبلغك الله نهاية رحلتك بسلام، لا أراك الله مكروهاً. ورحنا نشق طريقنا ونحن نسابق الشمس التي لم يتبقّ على موعد مغيبها سوى ثلاث ساعات، واجتزنا في طريقنا أرضاً بازلتية حتى بلغنا فريح، ذلك الوادي الذي ضمّ بيت حمد. وهنا أخذ حمد من بيته قربة الماء وتزوّد بعض قبضات من "الهريسة". وقد كان هذا الكمّ كل مؤونته التي يحتاج إليها لرحلة يبلغ طولها أربعمئة وخمسين ميلاً. ولم يقل الرجل لزوجته وهو يودعها سوى كلمات موجزة "يا امرأة، سأذهب مع هذا الأجنبي فأبلغه بريدة". وأظهرت زوجته موافقتها على هذا الأمر من دون أن تنبس ببنت شفة. وفي الغالب فإن البدوي حين ينطلق من بيته في رحلة فإنه لا يعمد إلى وداع زوجته، قال حمد لزوجته: "اسمعي، انطلقي مع هؤلاء العرب ولا تبرحي مضاربهم حتى أعود إليكم مرّة أخرى". ورفع حمد ابنه الصغير بكلتا يديه وقبّله ثم انطلقنا لنبدأ الرحلة.

اتجه الركب شمالاً أولاً، وذلك تفادياً للعتبان الذين يسكنون في تلك المتاهة التي تكوّنت أرضها من تليلات غرانيتية، وتلال بازلتية، وكانت السهوب التي وراء هذه المنطقة تفيض بأفرقاء العرب المفرقة الضاربة فوقها هنا وهناك. ثم ما لبثوا أن شاهدوا خياماً سوداء تملأ أرجاء المكان، وكانت تلك هي مضارب قبيلة حرب الذين أخذوا يتجمعون من كل صوب وحدب في رحلتهم إلى سميرة SAMIRA التي هي من ديار شمّر. ويذكر داوتي أن أولئك الحروب جاؤوا لتأدية الزكاة لابن رشيد وفق موعد معلوم حدده لهم جُباة ذلك الحاكم ليكونوا في تلك المنطقة ذات المياه الوفيرة التي يمكنها أن تروي سوائمهم الكثيرة العدد.

ترك داوتي ودليله جبل بيناني (؟) على مسيرة نصف يوم إلى الغرب من مسيرتهما، وطفقا يخبّان في اتجاه مجرى وادي الرمة. واستمرا كذلك حتى اهتديا إلى موقع ذلك الوادي الذي كان على بعد بضعة أميال من ميمنتهما، وتبدّت لهما على مسافة غير بعيدة من مسيرتهما حجارة بازلتية سوداء، قال حمد: إنها تقع وراء ذلك الوادي. ويذكر داوتي أن هذا المجرى المائي العظيم يحدّ ديار حرب في نجد، أما ما وراء ذلك فأرض عتيبة، ويضيف: إنهما صادفا في مسيرتهما مرتين متتاليتين قطعاناً من الإبل، ونالا حظهما من لبن النوق، وسألا رعاتها عن الأخبار، فأطلعوهما على ما عندهم منها.

مرّ الرجلان مع مغيب الشمس تحت سفح جبل بازلتي شديد الانحدار، فأبصرا في مواجهتهما من على البعد بقعة سوداء قائمة على منحدر تلّ رملي عظيم، وتبيّنا بعدئذ أنها تجمُّع خيام لبعض البدو، ثم ما لبثا أن أبصرا إبلهم. "وراحت البهجة تدغدغ قلبينا ونحن نفكر فيما يمكن أن نظفر به من سعادة بجرعات من اللبن لعشائنا". وانبرى حامد يقول: ألا تلاحظ أن هذا القطيع يتكوّن من الجمال فقط، فهو - كما ترى - ضاوٍ عجيف قد ذابت

أسنمته من أثر الأحمال، أما النوق فإن العرب لا يحملون عليها أثقالهم ويتركونها في هذه الفترة لتكتسي شحماً.

اقترب داوتي من ذلك المكان، وتبيّن لهما أن عدد خيام المضارب كانت أكثر مما كانا يظنانه أول وهلة، إذ كانت تلك الخيام تختبئ وراء ذلك الكثيب. ترجّل الرجلان عند أولئك البدو، وكم راع داوتي أن خبره كان معلوماً لديهم، وراح صبي صغير منهم يزعق: "انظروا إلى النصراني"، وكانت تلك الجملة كافية لتجعل قلبينا وقلوبهم على السواء ترتجف، ولكن مثل هذه الأزمة تمرّ عند البدو من دون كبير عناء، وقد استرعىٰ انتباهي أن النساء في هذا المخيم يجعلن في أنوفهن خزامات من فضة، وقد أسعفتنا شفاه هؤلاء البدو بأخبار غير صادقة مفادها أن ابن سعود و"غزو" عتيبة تمكنوا من الوصول إلى أسوار بريدة.

يلاحظ داوتي أن في مثل هذه المساكن البدوية يكون الجزء المفتوح منها للرجال، وهو يكوّن بالكاد الجزء الثالث والأخير، وأن مقصورة الزوجة في خيمة العنزي أو الشمّري تقع على الجهة اليسرى حين دخولك الخيمة، أما في خيام حرب فمثل تلك المقصورة على يمين الداخل إليها غالباً، ولكنها أحياناً قد تكون إلى اليسار، أما في خيام الهتيم، وفي أكثر بيوت بلي فموقعها إلى اليسار.

لم يعجب داوتي ذلك الفريق من العرب "المتبلد الصامت" الذي لا يمتاز بالكرم، بالرغم من أن رب البيت الذي طرقاه حمل إليهما إناءً من حليب نوق حُلِب مساءً. وتبادلا معه بضع كلمات ثم غادرا ومضيا في حال سبيلهما. وتواصلت المسيرة حتى لاح لهما جبل سلمى على يسارهما، وأخبر حمد زميله الرحالة أن قرية الرويثة تقع عند نهاية سفح ذلك الجبل، كما أخبره أيضاً أن هناك قرية مستجدة هي أصغر حجماً من تيماء.

فارق الدليل الاتجاه الذي كان يسلكه وسلك طريقاً جنوبياً عبر سهل غير منبسط تحفّ به المناطق الصحراوية. وقد حفى خف ناقته التي عانت الآلام في قطع تلك الأرض. واستمرت المسيرة حتى تجاوزت الناقة بليزية (؟) وهي مستعمرة زراعية صغيرة زرعت قمحاً ولا يوجد فيها أي نخيل. وفي هذا النجع الصغير خمسة منازل داخل "قصرين" مسوّرين، ويلاحظ داوتي أن ليس لهذا النجع الذي يتوسط هذا التيه المترامي شيء يحميه إلا اسم ابن رشيد، الرجل القوي الذي يخشاه البدو، كما يلاحظ أيضاً عدم وجود أثر للبدو في هذا السهل المتسع في تلك الفترة من السنة.

وصلت الناقة عصراً ماء الشبرية، ونزل حمد مسرعاً ليملأ القرب، ولاحظ داوتي أن عيون المياه هنا لا تتجاوز عشر أقدام عمقاً، وأنها تتغذى من مياه الأمطار "الحلوة"، وأن تلك العيون قد حفرت في أرض شعيب سيلاً يرمي مياهه في وادي الرمة، حيث تنتهي هناك. قال حمد: إن حفر عين "ثميلة" مثل هذه لا يستغرق سوى يوم واحد من رجلين يحفر أحدهما الأرض

بعصاه بينما يقوم الآخر بإزاحة التراب بيديه المجردتين. ويلاحظ داوتي أن ظاهر هذه الأرض يتكوّن من الحصى الغليظة، أما باطنها فيتكون من صلصال ورمال ناعمة، كما يلاحظ أن الأرض المجاورة لهذا الوادي العظيم مترعة بالمياه السطحية القليلة الغور.

واصلت الناقة سيرها، واقترح حمد على زميله الرحالة ضرورة الإسراع في السير لاجتياز هذه المنطقة المفتوحة لأنه كان يخشى من العتبان: "فإذا مرّ غزو الآن فإنه سيرانا". وسأل داوتي حمد عن طبيعة ديار قبيلة عتيبة التي تقع خلف الوادي والتي كان حمد قد جابها شخصياً حين ركب في غزو لابن رشيد، فأجاب بأنه سهل متسع ذو مراع معشبة وإن كثرت فيها نتوءات حجر الغرانيت والبازلت. ويضيف داوتي أنه قد سبق لحمد أيضاً أن تيسرت له زيارة مشكلة وثرية، وهما معسكران غير دائمين للبدو في أرض القصيم، وكثيراً ما ركب حمد مع غيره في غزوات الأمير ليروا كم يهيّئ الله لهم من الغنيمة. "فحين تتفرق سوائم الأعداء الذين يهجرون خيامهم هاربين لا يلوون على شيء فلن تعجز أيادى أولئك الرجال المستعدة أبداً من أن تصيب شيئاً منها". ويذكر داوتي أن حمد أصاب في إحدى هذه الغزوات الناقة التي يمتطيانها في رحلتهما تلك، والتي كان قد ركب عليها محارباً في الغزوات التالية بعد ما أصابها. ويدّعي داوتي أن حمد لم يتمكن من أن يجيبه عمّا إذا كانت ناقته تلك من الذلولات الأصائل أو غير ذلك، فقد استولى عليها من الأعداء ولا يعرف عن سلالتها شيئاً. ويروي داوتي أنه سأل حمد عمّا إذا كان لا يرى في قتل الناس والاستيلاء على متاعهم إثماً، فأجابه الرجل من منطلق كونه مسلماً بأنه يعتقد ذلك، وشكر الله أنه لم يقتل في حياته أحداً قطّ، فهو يأخذ الغنيمة فقط.

يقول داوتي: من الملاحظ أن الإبل في مثل هذه الميادين، حين تستعر نيران المعمعة، تتفرق أيدي سبأ وتضيع هرباً قي كل اتجاه، فهي حيوانات بليدة لا تتجاوب مع مشاعر راكبها. وإذا حدث أن قسرها راكبها قسراً وحملها حملاً على ما يريد، فليس من المستبعد على ذلك الحيوان الشبيه بالخروف أن يبرك براكبه في حمأة المعركة، وهو يرغي، أما إذا استحثّه الراكب بالخطام فلربما قام وهو يرغي أيضاً ويسعي جاهداً في الفرار براكبه الذي يتحتم عليه أن يهرب بأقصى ما يستطيع من سرعة. ولأن بعض هذه الإبل تتميز بالعناد تراها تحمل راكبها إلى وسط دائرة أعدائه بدلاً من أن تندفع به بعيداً عنهم. أما سرعة الإبل فإن أسرع نوع منها يمكن أن يفوقه عدواً أسوأ نوع من خيول الصحراء. ويضيف داوتي أنه من الجدير بالذكر أن لراكبي الخيول ميزات كبيرة في حروب الصحراء حين يجابهون رجالاً يمتطون الإبل مسلحين ببنادق الفتيل البطيئة الاشتعال. وإذا حدث أن كان أحد هؤلاء الآخرين على جمل غير سلس القياد وكانت بندقيته الطويلة خالية من البارود، فعليه حين يقصده أحد الفرسان لمنازلته أن يلقي بنفسه من فوق بعيره أرضاً، وأن ينسى تماماً أنه يحمل بندقية. وهنا يضيف داوتي إلى سيل كراهيته للعرب

وأرضهم وتمرهم ومياههم إبلهم أيضاً.

يمتد التيه أمامنا سهلاً حصوياً مترامياً وعلى مسيرتنا جبل صغير، قليل الارتفاع، تحته ماكول والثليم، وهما موقعان يضمان خمسة بيوت. وفي فترة ما بعد العصر، دهمتنا زخّات مطر من السماء المثقلة بالغيوم، ثم ما لبث المطر أن انهمر فجأة مدراراً ليضرب تلك الأرض الحصوية الخشنة ويحدث أزيزاً عارماً جياشاً، وما لبث السهل أن اكتسى مياهاً متحدرة، وبركت ناقتنا تحت ثقيلنا متجهمة، وهي تصابر تلك العاصفة الباردة، فنزلنا عن ظهرها وقد ابتلّت ملابسنا الثقيلة بنحو كامل ونحن هامدان لا نتحرك إلا لنتحسس على الجانب الآخر من جسد الناقة ملجأً يعصمنا من البلل والجو العاصف. وبعد نصف ساعة انقشعت تلك العاصفة، فواصلنا مسيرتنا مرّة أخرى تحفّ بركبنا طيور صغيرة، ترفرف فوقنا أحياناً، ثم ما تلبث أن تسرع أمامنا وهي تزقزق جذلى ترفرف فوق ذلك السهل الممتد، وراحت الشمس التي أذنت بالمغيب ترمق الأرض بعين هانئة، وتتجلّى لنا بمنظر أخاذ... ولاح أمامنا قوس قزح ثلاثي الألوان وهو يزدهي في الأفق مكوّناً قوسين متساويين في غير تطابق، امتطاهما قوس ثالث تدلت مؤخرتاه عند أقدام أولهما في تناسق ألوان لطيف بديع، وتعتبر هذه الأقواس السماوية الوافرة البهاء التي شكلتها الشمس علامة سلم تكتنف السماء بعد هدوء حرب العناصر الطبيعية فوق أرض شبه الجزيرة العربية.

أخذت الشمس تتهادى في طريقها إلى المغيب حتى ودعتنا إلى غبش العتمة، والذي سرعان ما استحال ليلاً فاحماً شديد السواد. ورحنا في هذا الليل البهيم نستحث خطى ناقتنا على أمل أن نقع على أي فريق عرب قريب. وكان الرذاذ الخفيف يلاحقنا بينما كان البرق المتلوّي كالثعبان يعكس صوره المائجة فوق مياه الأرض المختلجة، ومع ذلك لم نكن نحسّ للرعد صوتاً. وتنوّعت صور البروق وتباينت أشكالها بين بروق هلالية الشكل طويلة تنطلق متعارضة في كبد السماء فتبدو لنا كالمعلّقة بخيوط اللحظات القصيرة في ذلك الأفق المترامي، وأخرى في صور ومضات طويلة متقطعة تنطلق متجهمة إلى أسفل عبر سلسلتين متلازمتين من الضوء الساطع. وحين تتدفق ومضات هذه البروق المتعددة الألوان تبدو أشعتها المنعكسة من الضوء المشتت كأنها الصوف قد نُثر فوق أديم الماء. ورحنا نسمع بين الفينة والأخرى صدى صوت رعد خافت.

في لحظة صفا الجوّ فيها طالعنا الهلال الوليد، الذي لم يتجاوز اليومين عمراً، وهو يتدلى في الأفق متخذاً طريقه للمغيب. والجدير بالذكر أن الهلال الوليد يُستقبل في صحراوات شبه الجزيرة العربية بابتهال، وبعاطفة دينية. وقد أدّينا – نحن سراة الليل البائسين – تلك التحية للهلال بشغف، ورحنا نواصل الرحلة لا نحيد عن طريقنا وعيوننا تتطلع بشغف إلى نيران البدو، متسربلين هدأة ذلك الليل الذي لا نكاد نسمع في هجعته سوى صرصرة وأصوات

لطيور برية لا أعرف لها اسماً، وأخيراً عبّر حمد عن اعتقاده بأنه بات يبصر نار حايس تتوهج قبالته. ورحنا نسير حثيثاً باتجاه تلك النار، تتجلى لنا حيناً وتحجبها عن ناظرينا في أحايين أخرى تموّجات أرض ذلك التيه غير المستوي. وأرخى الليل سدوله وتكاثف ظلامه وادلهمّ حتى لفّ ناقتنا التي أخذت تتعثر في خطوها، بينما كنا لا نكاد نبصر من الأرض تحتنا شيئاً. وخشي حمد أن تسقط تلك الناقة في مكان من الأرض وعر، ورأى ألا نغامر أكثر مما فعلنا فنزلنا. ولما لم يكن لدينا شيء نأكله فقد عمدنا إلى النوم، تلفّعنا بملابسنا المبتلة، واضطجعنا على الأرض بالقرب من ناقتنا، تتدثر رذاذ المطر. وهبّ النسيم عليلاً فاستسلمت عيوننا للنوم.

أقبل الصباح تزفّه إلينا زقزقة الطيور التي راحت تغاريدها تملأ الأفق من حولنا. وكانت ملابسنا المبتلة قد جفّت، وأصبحت أخفّ حملاً على كاهلينا، ونهضنا لنواصل مسيرتنا، و لم نكن نحسّ سوءاً. و لم نكد نتقدم في دربنا إلا مسافة يسيرة حتى أبصرنا منازل البدو وأعطان إبلهم التي لم يكن يفصلها عن مكان مبيتنا إلا حوالى ميل واحد، فحملنا ناقتنا على الخبب، ورفع حمد عقيرته بالحداء.

أصبح حمد وزميله على مقربة من ذلك الحمى، فسعى إليهما بعض أولئك الأعراب الذين هم من بني علي. وحين أبصر هؤلاء البدو أجربة داوتي (جمع جراب) القماشية الحمراء التي كانت تتدلى على رحل الناقة، اعتقدوا أنه أحد أولئك النفر من السماسرة الذين يفدون إلى أرضهم الصحراوية بين الحين والآخر لشراء الإبل (مشموم). وعندما وصلا إليهم سمعا أحدهم يقول للآخر: "ألم أقل إنه سمسار؟" فأجاب الآخر: "لقد عرفته من الوهلة الأولى".

نزل الرجلان عند إحدى تلك الخيام، وأنزلا أمتعتهما، وقادهما البعض ناحية بيت الشيخ وهم يقولون: "إن قهوة الصباح جاهزة فلنذهب لتناولها، ثم تطلعاننا على أخباركما". وأرسل حمد ناقته طليقة لترعى الكلأ. وسار الرجلان في طريقهما إلى القهوة، لكن صاحب البيت الذي نزلا عند خبائه أولاً هرع إليهما داعياً إياهما إلى بيته، فعادا إليه أدراجهما وتناولا معه الإفطار ثم نالا قسطاً من الراحة.

تعلقت الشمس بكبد السماء، وراح أحد البدو ينادي للصلاة، وعندما وصل إلى آخر كلمات الأذان "الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله، يا خاتم النبيين" انتظم البدو خلفه صفاً واحداً وبدأوا بأداء قيامهم وركوعهم وسجودهم في أحسن ما يكون الأداء. وكانوا قبل أن يدخلوا في الصلاة قد نادوا داوتي قائلين "صلِّ يا... تعال صلِّ"، ولكنه اعتذر لهم، وانسحب من ذلك المكان وراح يجول على بعد حوالى نصف ميل منهم فوق تلك الرمال المتقدة، وهناك وجد بعض الشجيرات فأوى إلى ظلها غير الظليل "ولكنها لم تعصمني من نظراتهم المتفحصة". وعندما عاد إليهم بعد أدائهم الصلاة وجدهم يقولون إن هذا الأجنبي لا يؤدي الصلاة ولا بد أنه غير مسلم.

ووقع جدال بينهم في هذا الصدد، فأجبتهم بإيجاز قائلاً: "لا داعي للتساؤلات يا أصدقائي، فأنا نصراني". وعندما استيقنوا أنني أعالج الأمور بصبر وأناة، أخذوا يسايرونني، وتساءلوا بينهم: "ولكن هل يمكن أن يكون في هذا العالم حتى الآن من طمست عين بصيرته فلا يعبد الله؟"، وراحوا يحملقون إليّ ويسألون رفيق طريقي:

كيف لك أن ترافقه؟ فكيف يمكنك أن تأمن على نفسك مع هذا الرجل الوثني؟ فأجاب حمد بلطف بأن خليل رفيق طيب، وأنه سمع عني قبل أن يرافقني ما يسرّ الخاطر في أوساط العرب، وإذا تحدث في أي وقت عن الدين فيبدو أن له فكرة صحيحة عن الله، وتبدو كلماته في هذا الصدد قريبة جداً من كلمات المسلمين.

وبهذا القول اطمأنت تلك الجماعة من بني علي وانفرجت أسارير وجوههم، وأدركت أنني لمّا كنت عابر سبيل فإنهم لم يمسّوني بأذى، ولكنهم أجابوا عما قلته لهم بالدعاء لي بالهداية، عسى الله أن يمكنني من البقاء لفترة بالقصيم حتى تتوافر لي هناك المعرفة الدينية، وسيجعل الله لي حينئذ مخرجاً، ويهديني سواء السبيل.

أشرف داوتي ورفيقه على النفود، رمال القصيم التي تبدّت له كأنها أمواج بحر لجّيّ عالية طويلة متدافعة بعضها في إثر بعض في اتجاه يمكن وصفه بأنه شمالي جنوبي. "وحين دلفنا إلى تلك الرمال وسرنا فوقها حوالى أربعة أميال، وصلنا واحة العيون التي تحيط بها تلك السلاسل الرملية ذاتها، وكانت تلك الواحة في فترة سابقة تعرف باسم سارة".

يصف داوتي مرقب الواحة المبني من الطين والذي يشبه برج الحراسة ويقوم فوق صخرة عند طريق النفود، ويضيف أن القوم هنا يسهم كل منهم بقسط في أداء أجر المراقب الذي يقف أعلى هذا المرقب، والذي يجب أن يكون حاد البصر. وفي موسم الربيع، حين يسرّح القرويون أغنامهم لترتع خارج نطاق الواحة، على ذلك الرجل أن يقوم من فوق ذلك المرقب بالنظر بالعين المجردة يراقب في الفترة منذ بزوغ الشمس حتى مغيبها تلك الأغنام. وقد راع داوتي رؤية ذلك المراقب وهو يقف قلقاً في مقصورته تلك عند رأس البرج تحت وهج الشمس، وهو يتلفت يمنة ويسرة، ولا يستقرّ جسده على جهة معينة. ينظر ذلك الرجل هنا وهناك، واضعاً يديه على حاجبيه، متطلعاً إلى ذاك التيه الرملي المشتعل بوهج الهجير.

العيون

"العيون في منطقة يتقاطع عندها درب الأبّال الذين يخرجون من القصيم إلى جبل شمّر وأرض الشمال من ناحية، وإلى المدينتين المقدستين من ناحية أخرى". ولهذا بدا حمد مقتنعاً بأن يترك رفيقه هناك حيث يمكن أن يجد في هذه المنطقة من يحمله إلى أي صقع يريد بلوغه:

"فحتى إذا أردت أن أتوجه إلى الكويت أو البصرة فلن يعجزني ذلك (والله) إنك لتجدهم هنا أكثر عدداً مما يمكن أن تجدهم في بريدة". وقد عرف داوتي من حمد أن عدد سكان العيون يتراوح بين أربعمئة وخمسمئة فرد، وأن أعداد نخلها تصل إلى حوالى نصف نخيل تيماء.

أبصر داوتي قطعاناً من الأبقار ترعى في النفود وهي تسير خلف رعاتها فقال لحمد إنه سيذهب إلى أولئك الرعاة ليرويا ظمأهما من اللبن، فأجابه حمد: "ستطلب ذلك عبثاً. لا تذهب إليهم يا خليل، إن هؤلاء أهل قرى (قريا) وهم ليسوا مثل البدو، فالكرم ليس من شيمهم"، ثم أردف قائلاً: "أمامنا قرية أخرى سنبصر مرقبها بعد وقت وجيز، وهناك سننزل نتناول إفطارنا".

القصيم

يذكر داوتي أنهما صادفا واحة في مسيرهما لم يستطيع حمد حين سأله أن يسميها له فأجاب: "والله القرايا كثير في القصيم"، ثم ما لبثا أن وصلا بعد مسيرة ساعتين إلى جازا التي هي قرية مسوّرة ذات نخيل. واسترعى انتباه داوتي أن نخيلها أكثر النخيل الذي صادفه كثافة منذ أن ترك تيماء. وعندما سأل خليل عن معنى اسم جازا أجابه بأن نوعاً من الدباء يسمى بهذا الاسم.

أوصل حمد رفيقه إلى القصيم التي يقول داوتي إنها أرض الأبّال، ولم يدخل حمد إلى تلك القرية التي صادفتهما على أطرافها، ولكنهما عرّجا على بيت في بستان عند المرقب. وكان ذلك اليوم في أول شهر إبريل، وهو من أيام موسم حصاد الشعير. ورحّب بهما ربّ المنزل الذي هرع خارجاً من ساحة منزله وقادهما إلى القهوة، بينما تولى أحد الأطفال حمل حقائب داوتي "ولم نكد نجلس على أرض تلك الغرفة المفروشة برمال النفود ونرتشف فنجانين من القهوة حتى دعانا مضيفنا إلى مخزنه، ووضع أمامنا طبقاً من تمر لم أجد ألذّ منه، كما أتحفنا كذلك بإناء من الماء". ويروي داوتي أن الرحالة الفقراء الذين يسافرون من دون أن يحملوا معهم نقوداً يعتقدون أن أهل القصيم غير مغرمين بالكرم، ويقول البدو أيضاً: "إنك لن تنال هناك شيئاً إلا بنقودك"، ويستصوب داوتي هذا الرأي.

يذكر داوتي أن القصيم شأنها شأن المناطق الحدودية عموماً، أصبح سكانها متحضرين، وأن المستوطنات التي قامت في هذه الديار ذات الرمال الكثيفة في قلب شبه جزيرة العرب تكاد تنافس مستوطنات سورية لكثافة سكانها، ويشيد بأهل القصيم ويرى أنهم عاقلون ومغامرون، ويجري في عروقهم كثير من دم بني تميم الطيبي المحتد، ويضيف أن نحو ثلث سكان القصيم تقريباً هم من الأبّال الذين ينسجون الدروب بأسفارهم إلى المناطق الأجنبية وإلى المدينة المنورة ومكة المكرّمة، وكذلك إلى الكويت، والبصرة وبغداد، وإلى ديار الوهابيين وإلى شمّر، وأن

كثيراً منهم يغادرون ديارهم منذ عهد الصبا بحثاً عن الرزق خارج الحدود، وأنه وجد أن الكثير منهم يعملون جنداً للعثمانيين، ويذكر أنهم كانوا - حتى فترة قريبة مضت - هم العقيل في بغداد، وفي دمشق، وفي المدينة، وفي كل نجد الغربية في المنطقة الواقعة إلى الشرق من تيماء، كما أنهم يعملون كذلك حراساً لدى قوافل الحجيج الفرس، ويتجهون من هنا مباشرة إلى سورية. ويستطرد فيقول: إن النكهة الأجنبية لنجد هي نكهة عراقية، وإن المناطق الحدودية مع العراق تعمر بالكثير من مهاجري القصيم، يعملون زُراعاً وتجاراً صغاراً. وقد أصابت فئة قليلة منهم الثراء من العمل في التجارة، ويضيف: إن فقراء القصيم والوشم يمتازون بالنشاط ويسعون إلى طلب الرزق في أي منطقة حتى في ديارهم. يضرب العمال الزراعيون في الأرض من قرية إلى أخرى، يطلبون عملاً في المنطقة التي يسمعون أن أجر (العرق) فيها مُجز، ويخلص إلى أن القصيم لو لم تكن عامرة، لكانت شديدة الشبه بأراضي ما وراء نهر الأردن، تيه يعج بخرائب القرى البائسة.

لاحظ داوتي أن مضيفه كان يجلس مع صديق له مغلقاً باب ساحة منزله ليتّقي تطفل أعين المتسكعين. ويصف في هذه السانحة ملابس أهل القصيم، ويذكر أن الرجال المحترمين من أهل القصيم يضعون على رؤوسهم الطرابيش التركية الحمراء، ويجعلون فوقها بنحو غير مرتب مناديل بغداد الحريرية التي تتدلى على أكتافهم.

وسألني المضيف من أي الأقطار أتيت؟ قلت له: إني رحالة وفدت من دمشق، فأجاب الرجل: لا أنت من بعض قرى حوران، أفصح من أنت؟ أنت لست مسلماً، هل أنت يهودي أم نصراني؟ قلت: نعم يا مضيفي أنا نصراني، فهل ستطردني أم تقتلني؟ فأجاب: لا تخشى سوءاً، أليست هذه الأرض هي أرض القصيم التي جال أغلب أهلها في البلاد الخارجية؟ إن هؤلاء الرجال الذين جابوا العالم ليسوا جهلاء كالآخرين، وسيعاملونك بلطف. ورغب المضيف في أن يشتري دواء الكينيا من الحكيم، فطلب إليه ريالاً ثمناً للدواء، ولكنه لم يظفر منه بأكثر من أربعة قروش.

هذه هي بريدة

يروي داوتي أنه سمع عند وصوله إلى بريدة أن حسن - أمير بريدة - الذي يسميه العامة ولد مهنا قد خرج على رأس فرقته المسلحة غازياً في الصحراء. ويتهم مهنا والد حسن الذي كان جمالاً ثرياً أو صاحب إبل بأنه كان مرابياً يقرض المال لأهل بريدة بالربا، حتى دخل نصف أهل المدينة تحت طائلة دينه، ويتهمه أيضاً بأنه اغتصب أخيراً - بمساعدة الوهابي - منصب الأمير في تلك البلدة.

تبدّت لنا كما تتبدى الرؤيا في الأحلام – من على البعد – مدينة طينية عظيمة تقوم على هذا التيه الرملي، محاطة بأسوار وأبراج. وسرعان ما طالعتنا المدينة بشوارعها ومنازلها، تلك هي بريدة، وتلك هي المئذنة المربعة التي تقوم فوق مسجدها الكبير. لقد خُيّل إليّ في هذه اللحظة كأني أنظر من على جبل الزيتون قدساً في تلك الصحراء.

ويروي داوتي – من دون أن يذكر مصدره – أن بريدة أنشئت قبل حوالى أربعة قرون من قدومه إليها، ويقال إن أهلها ينحدرون من بني تميم، وإن عدد سكانها لا يتجاوز خمسة آلاف نسمة، إلا إذا أضيف إليها سكان النجوع المجاورة والقرى التابعة للبلدة، فيصل إلى ستة آلاف.

أخذت آخر خيوط أشعة الشمس الآيلة إلى المغيب تلقي بأشعتها على تلك المدينة الطينية الغبشاء فتنيرها بنحو مهيب، ثم تنثني تلك الأشعة تداعب أشجار الطرفاء المتبلدة وتنداح بينها وتتشتت. "وسألت رفيقي مستفسراً: "وأين أشجار نخيلهم؟ فأجاب: إنها ليست في هذا الجزء المقابل لنا من الأرض، إنما هي وراء تلك الكثبان العظيمة في اتجاه وادي الرمة".

قال حمد لرفيقه وهو يودعه:

> سامحني إن كنت قد أخطأت ولو لحظة في حقك خلال مسيرتنا، أرجو أن تكون قد وجدتني رفيقاً طيباً لك، هذه هي بريدة يا خليل، سأفارقك اليوم وأذهب إلى حال سبيلي، ولكني أوصيك بألا تقول لهؤلاء القوم حين تنزل في قراهم إنك نصراني، لأنهم سيبغضونك أيّما بغض. عليك – حال وجودك بينهم في هذه الأرض – أن تصلي كما يصلون، ولا تجعلهم يرتابون أبداً أو يشكون في أنك لست مسلماً. قل لهم إنك (مُداوٍ)، وأطلعهم على الأدوية التي في حوزتك، والأمراض التي يمكن أن تعالجها، وستكون المداواة هي حرفتك التي ستعيش عليها.

صادف حمد وزميله خارج أسوار المدينة بعضاً من مواطنيها وهم يتجولون مستمتعين بالنسمات التي ترسلها السماء. وعندما لحظوهما سألوا البدوي المرافق عن قصده، وكان سياف القلعة "الخبيث" التابع للأمير معهم، فأجابهم حمد بأنهما قاصدان نزل الأمير، فردوا عليه بأن دون ذلك مسافة بعيدة، وأن الشمس قد غابت، ودعوهما إلى النزول في منزل قريب من بوابة المدينة يقضيان فيه الليل، حتى إذا أقبل الصبح توجّها إلى الأمير.

دلف داوتي برفقة حمد من بوابة المدينة ذات السور الطيني الذي شيّد حديثاً، والذي لا يبلغ سمكه أكثر من ذراعين. ولم يصادفا في طريقهما أي شخص في تلك الشوارع المعتمة، فقد انصرف الناس عنها إلى منازلهم ليتناولوا طعام العشاء، أما حوانيت السوق فكانت قد

أغلقت أبوابها ولا تفتح إلا صباح اليوم التالي. ولاحظ داوتي أن منازل المدينة قد بُنيت من الطين المختلط بحبيبات الرمل، أما جدرانها فمهترئة غير عالية. وراحت تلك الناقة التي كلّت وناءت بحملها تجرجر قوائمها في خطوات متعثرة في طرقات المدينة التي اكتست الصمت وتدثرت الهدوء بعد أن هجرها طارقوها. ومرّت الناقة بالمجلس العام للأمير الذي يقوم على أرض غير مرصوفة، نالت منها أقدام أهل المدينة حتى تآكلت وجرفت. ولاحظ داوتي أن المسجد الكبير بمئذنته العالية يقع في تلك المنطقة. هكذا وصل حمد ورفيقه إلى "مناخ الشيخ".

فتح البواب تلك البوابة غير المصقولة، فترجّلا ودخلا. ولم يكد يستقرّ بهما المقام حتى دخل عليهما طباخ حدث، وطلب منهما أن يقوما باسم الله، فانطلقا في إثره، وقادهما عبر صالات معتمة، ثم اعتليا بعدئذ بضع عتبات طينية، وصلا إلى المكان الذي أعدّ لهما فيه طعام العشاء. ويروي داوتي أن تلك العتبات كانت متآكلة في منتصفها حتى بدت كالميزاب، وأن خطاهما قد تعثّرت بنحو خطر وهما يجتازان تلك العتمة صاعدين.

ومررنا بعدئذ عبر مطبخ أقيمت عنده (دكاك)، ما ذكرني بأبنية أديرتنا، وساقنا ذلك الفتى بعدئذ إلى نهاية الردهة حيث شعرت بأن الأرض تحت أرجلنا قد غدت مهلهلة مهترئة. ويذكر أن طعام العشاء تكوّن من عصيدة قاسية أعدّت من البرغل العربي المغلي في الماء من دون أن يوضع عليه السمن.

إننا الآن ضيوف أمير بريدة، ذلك الرجل الفلاح، وهذه هي أكلة العشاء الشائعة في القصيم، ولكن أهل القصيم غالباً ما يزيدون في قيمتها الغذائية فيثرونها بقليل من الحليب أو الزبد. أما في منازل أهل اليسار، فإن مثل هذا البرغل يُطهى في مرق اللحم، ويضاف إليه الأرز (التمن)، ثم يقدم مع اللحم المسلوق.

ما إن فرغنا من عشائنا وغسلنا أيدينا حتى كان علينا أن نتحسس طريقنا في الظلام مرّة أخرى لنعود أدراجنا من حيث جئنا، مواجهين خطر التعثر، وكسر رقابنا التي هي أغلى ما نملكه، وأثمن من هذا العشاء الذي أصبناه.

ودّع حمد رفيقه بكلمة وجيزة كشأن سائر البدو في مثل هذه المناسبات، وامتطى ناقته، وانطلق بها لا يلوي على شيء، ويضيف داوتي: "كم سرّني أن أرى رفيقي يرحل سالماً عبر تلك البوابة في الوقت الذي كان القمر فيه يتهادى معتلياً مدارج السماء، وقد عرفت أنه سيقضي الليل في إحدى تلك القرى القريبة من هذه المنطقة".

طلب داوتي أن يلتقي بالأمير الذي هو أخو حسن، استخلفه عنه في بريدة، وقيل له: إن الوقت غير ملائم، وقد أليل الليل، واعتذروا له بأن الأمير غير موجود في تلك المنطقة، وأنه في منطقة أخرى من المدينة، "ستراه غداً". وبينما كان داوتي يجلس على دكة طينية

يلتقط ضوء القمر الخافت - كما يقول - تجمع حوله البواب، والرجل الموكل بإعداد القهوة والسياف، وبعض الخدم الموكلين بخدمة مناخ الشيخ. سمع صوت المؤذن ينادي للصلاة الأخيرة (العشاء) التي تؤدى في نهاية اليوم، ولكن كيف لي أن أتصرف ولا يوجد في هذا المكان أمير، بل لا يوجد أحد يمكن أن يأخذني إلى الأمير إلا في الصباح؟ يا لذاكرتي الخؤون؟ وتساءلت في نفسي كم أنا سيّئ الحظ، ووجدت نفسي أسألهم متعجلاً: أين مكان النوم؟ وتجاوبت معي تلك الضباع بنوع من السخرية المكتوبة وهي تسأل: هلّا أديت معنا الصلاة قبل النوم، ثم أشاروا إلى غرفة في مبنى المناخ المظلم كانت أصلاً غرفة قهوة صغيرة، وكانت هي المخدع الذي سأقضي الليل فيه.

دخل هذا الرحالة تلك الغرفة التي بدت له كأن الصمت قد اتخذها مسكناً، حتى غدت كالمحراب، وراح يتحسّس الأعمدة الطينية في طريقه إلى داخلها، ووطئت قدماه رماداً في مكان الموقد. واضطجع الرجل بعدئذ فوق سطح تلك الأرض القاسية. يقول داوتي:

> لما كان مسدسي يرقد في أعماق حقائبي التي حملها البواب عني، وأغلقها في مكان آخر، رحت أتحسّس المطواة التي أحملها تحت سترتي، وأدركت حينئذ أن هؤلاء القوم لن يذهبوا بكل ما أملك إذا ما أضمروا لي شرّاً، ومع ذلك فقد تمنيت أن ينقضي ذلك الليل سريعاً. وعالجت النعاس حوالى ساعة، ثم رابني بعدئذ صوت وقع أقدام تتحسّس طريقها إلى داخل الغرفة. وانطلق صوت يقول: قم اتبعني، لقد طلب الشيوخ أن يقابلوك وهم مجتمعون الآن في قاعة القهوة.

يروي داوتي أنه سار وذلك الصوت يقوده حتى انتهى إلى مقهى جلس فيه بعض الأشخاص الذين بدوا له كأنهم حرس الأمير، وطلب أولئك الرجال إليه أن يجلس، وقدّم إليه أحدهم فنجاناً من القهوة، ثم أخذوا يحققون معه.

هل أنت النصراني الذي كان أخيراً في حائل برفقة نفر من قبيلة عنزة ثم طردك من تلك البلدة عبد وضعك على ذلول جرباء لتأخذك إلى خيبر؟ فأجبت: نعم أنا ذلك الرجل. وراحوا يسألونني مرّة أخرى إذاً لماذا لم تذهب إلى خيبر؟ فأجبت: لقد قلتموها بألسنتكم، فالناقة كانت جرباء لا تقوى على المسير، ولم يتمكن أولئك البدو من أن يبلغوا بي هناك. وقد كان العبد عنبر يدرك هذا الأمر جيداً، إن ذلك العبد لا يرتدع. ورحت أسأل: "ولكن قل لي كيف عرفت ذلك؟ فأجاب الرجل: كنت في حائل ورأيتك هناك"، وأضاف: ألم ينهك عنبر عن أن تأتي إلى القصيم، فأجبت قائلاً: "لقد سمعت منه ذلك الهراء، وسمعت

أيضاً أنكم معادون، أما أنه نهاني و لم أنته فتلك حقيقة، فكيف لعبد أن يمنعني من السفر خلف حدود ابن رشيد؟ وضحك القوم حين سمعوا هذه الجملة حتى اهتزّت "رؤوسهم الخاوية"، وتبيّنت في الظلام بريق أسنانهم، وكانت تلك بارقة فأل حسن. وانبرى أولئك المحققون السادرون في ظلمهم المطبق يسألون: ما نوع الأوراق التي تحملها؟ اذهب وأحضرها لنا فوراً، إننا سنقدمها للأمير.

وأومأوا بعدئذ إلى أحد الصبية ليذهب في صحبة النصراني حتى يأتيهم بالأوراق.

فتح البواب لداوتي باب المخزن الذي ضمّ حقائبه وأخرج منها صندوق دواء. ويشكو داوتي أن يديه المرهقتين لم تسعفاه في دفع أولئك الرجال ذوي العقول الصغيرة الذين كانوا في أثره، ويصف "ذلك القحطاني" بأنه أسوأ هذه الجماعة.

وكزني بقبضة يده وكزة خفيفة، وتنادى أولئك الرجال وهم يصرخون: "أخرج لنا كل أوراقك لنذهب بها إلى الأمير". وخرج أولئك النفر بعدئذ وارتجت الأبواب من خلفهم، وبقيت في تلك الساحة وحيداً مع ذلك الوغد الذي كان قد وكزني سابقاً، ثم ما لبث أن تقدم متحفزاً شاهراً سيفه مغمغماً: "أيها الكافر قل لا إله إلا الله". وجاء في إثر ذلك الرجل رجل تلاه آخرون فقلت لهم: سأسمع منكم في هذا الأمر غداً، أما الآن فإني مجهد إلى درجة الإرهاق.

يدّعي خليل أن بعض أولئك النفر تحسّسوا سترته بحثاً عن النقود، فانبرى واقفاً، فإذا بهم يحتشدون حوله، وهمس البواب في أذنه قائلاً: "إن كنت تملك فضّة فيمكنك أن تسلمها لي لأن هؤلاء الرجال سيسرقونها"، ويدّعي كذلك أنه تحقق من فوره أن ذلك البواب من طينتهم لا يفرق عنهم بحال. وحين استيقن أن كل أولئك الأوباش "كانوا يداً واحدة عليّ"، رأى أن يصرخ بأعلى صوته: "حرامية... أغيثوني أيها الجيران"، ثم انتظر برهة ليرى نتيجة الاستغاثة.

وقد وقعت هذه الحادثة في ساعة متأخرة من الليل، ولما كنا في جزء منعزل من تلك المدينة لم يستجب أحد لصدى صرخاتي التي كنت واثقاً بأنها ما كانت لتأتي بنتيجة تذكر حتى ولو سمعها العرب الذين يسكنون في مثل هذه المناطق – حيث يد السلطة واهنة وواهية، وحيث المخاوف جمّة – يتميزون في العادة بالجبن. ومع ذلك فقد هالني أن أرى أولئك النفر الذين كانوا يرعبونني يقفون مشدوهين برهة ثم قالوا لي: "لا تصرخ وإلا (فوالله...)". وبذلك أدركت أن هؤلاء المهاجمين يتحركون ضدي من منطلق حقدهم الدفين الذي يكنّونه لي، فرحت أصرخ وألحّ في الصراخ.

ويدّعي أنه حين همّ بتحريك يديه، تبيّن له أنهم جبناء، وتحقق من أنه يستطيع استعمالهما – رغم وهنه – ويمكنه أن يتخلص من جمعهم من دون صعوبة كبيرة. ويستطرد فيقول إنه

مع ذلك تقاعس عن استعمال القوّة خشية مما قد يجرّه ذلك من احتمالات أبلغ وبالاً، فقد يعود إليه أولئك النفر شاهرين أسلحتهم في وجهه "في الوقت نفسه الذي أكون فيه محاصراً بين تلك الأسوار، ولا أستطيع الهرب من هذه المدينة". "واجتمعت كل تلك المجموعة الذميمة المكوّنة من ستة رجال ضدي" كما يقول داوتي، ووجد أن لا مناص من أن يظلّ يصرخ ويرفع عقيرته بالصراخ: "حرامية... حرامية".

"وأدركت أن لا بد من أن أقاوم بكل ما وسعني، على أن تكون مقاومتي مقاومة خفيفة لا ترقى إلى القتل، ممنّياً نفسي أن يصل زعيقي إلى ذلك الحارس الذي كان قد ذهب إلى الأمير". ويدّعي داوتي أن الرجال تمكنوا من محفظته الخفيفة التي رآها استقرت في "أيديهم الآثمة".

وقد أزعجني كثيراً أن البارومتر قد بدا في نظرهم في ضوء النجوم وكأنه ساعة، واختطفه القحطاني بعد أن قطع الخيط الذي كانت تلك الآلة الدقيقة تتدلّى به من عنقي، وجرى به بعيداً حتى بدا كأنه كلب ظفر بعظمة كبيرة حملها بين فكيه لا يطيق لها تركاً، أما الرجال الآخرون فجردوني من عباءتي وسلبوني منديلي، ثم تدافعوا نحو الباب حيث مكان حقائبي، وقد ساورني شك بأنهم لن يعثروا في هذا الظلام الدامس على مسدسي في حقائبي، وقد صدق حدسي فعلاً.

رجع مبعوث الأمير وطفق يطرق الباب طرقاً عنيفاً وينادي بأعلى صوته كي يسمحوا له بالدخول، فقام البواب متكاسلاً وفتح الباب، وسأله ذلك الجندي الداخل لتوّه: ما الخبر؟ فأجاب البواب: لقد سلبوا النصراني، فأردف سائلاً: ومن الذي فعل به ذلك؟ وتولّى داوتي الرد بعدئذ: لقد بدأ بها القحطاني ثم إن هذا الرجل نفسه كان أكثرهم كيداً.

تفرق جمع أولئك الأشخاص داخل المناخ حين عاد جندي الأمير الذي راح بدوره يصرخ فيهم: يا له من عار أن تُسرق أمتعة رجل وهو في قصر الأمير، إنه يحمل خطابات من السلطان، ماذا فعلتم به؟ لعنكم الله جميعاً.

طلب داوتي إلى ذلك الجندي أن يطلب من المجموعة أن يعيدوا إليه ملابسه التي استولوا عليها، وطمأنه الجندي قائلاً: سيعطيك الأمير غيرها. وبينما أخذ أولئك اللصوص يخرجون من جحورهم المظلمة التي قد آووا إليها، راح ذلك الجندي يصرخ فيهم قائلاً: ردوا على هذا الأجنبي ما أخذتموه، ثم التفت إليّ قائلاً: إن كل ما سرقوه منك سيُعاد إليك وإلا قُطعت أيديهم، والله إن أي يد تثبت عليها السرقة ستقطع، وتوضع في حقيبتك كفارة عما سرقته. لقد أتيت لتوّي لأصحبك إلى المأوى الذي جهّزناه لك، لكن يتحتّم عليّ قبل ذلك أن أعود إلى الأمير. وناداهم الجندي بأسمائهم وقال لهم محذراً: لا تعودوا إلى ما فعلتم مرّة أخرى، فذلك من شأنه أن يجرّ عليكم غضب الأمير، وجادلوا قائلين: ولكن هذا الرجل رفض أن يقول لا إله

إلا الله. و لم يجد داوتي مناصاً من أن يبطل حجتهم ويعمل على استرضائهم سوى أن ينطق بالشهادة: فنطقت بالشهادة أربع أو خمس مرّات، وأردفت قائلاً: اسمعوني سأعيد عليكم مرّة أخرى: لا إله إلا الله.

طمأنه ذلك الجندي، وأبلغه أنه سيذهب الآن ثم يعود حالاً، فتوسّل إليه داوتي ألا يتركه بمفرده مع هذه الجماعة، فأجاب الرجل: لا تخشَ بأساً، فلن يجرؤ أحد منهم على القيام بأي شيء ضدك بعد الآن. وخرج الجندي وطلب إلى البواب إغلاق الباب.

في قصر حجيلان

زار بعض أعيان بريدة داوتي وهم يرتدون زي بلاد ما بين النهرين (العراق)، ولاحظ هذا الرحالة أن كثيراً من أصحاب اليسار في بريدة هم من (الجماميل) وأصحاب الإبل الذين يعملون بنقل القمح في بلاد ما بين النهرين، ومن الذين يجلبون من هناك الملابس والأرز (التمن) إلى نجد، كما كانوا يحملون تمر القصيم وقمحه إلى المدينة المنورة حين تكون الأسعار في القصيم متدنية. أما في الخريف، حين يتوافر السمن، فيحمل هؤلاء الجماميل السمن الذي يحصلون عليه من البوادي ويعرجون به إلى مكة المكرّمة التي يعودون منها بالبن. "هؤلاء المواطنون العرب الذين هم أشبه ما يكونون بالفلاحين، رجال أسفار، ولكني وجدت فيهم مع ذلك تعصّباً لا يهدأ أواره أبداً".

حين انصرف أولئك الرجال قال له جبير، جندي الأمير: "الآن سنذهب إلى الأمير"، وانطلقا عبر إحدى السكك إلى مكان أمام بيت الأمير، وهناك رأى داوتي شخصاً رثّ الثياب جالساً على الثرى عند قارعة الطريق وكأنه أجير، وقد جلس إلى جانبه رجلان أو ثلاثة، وكان هذا الرجل في حوالى الخامسة والثلاثين من عمره، قلت أين الأمير؟ فأشاروا إليه، فهمست في إذن جبير: أحقاً هذا هو الأمير؟ فأجابني بالإيجاب، فاتجهت إلى الرجل وسألته: هل أنت ولد مهنا؟ فأجابني (إيه) فقلت: هل من العادة هنا أن يُسرق الغريب في مدينتكم؟ لقد أكلت من لحمكم وخبزكم ثم تعدّى عليّ خدمكم في نزلكم. فأجاب: إن البدو هم الذين سرقوك، فقلت: ولكني عشت مع البدو فترات طويلة و لم أسرق في أي منزل من منازلهم، و لم أفقد أي شيء البتة في الفترات التي حللت فيها في خيام البدو. وأردفت قائلاً: إنك ترد الاتهام عن هذه المجموعة بأن أولئك الجُناة كانوا من البدو، ولكنهم لم يكونوا إلا من رجال الأمير. فأجاب: أقول: كلهم من قحطان.

يدّعي داوتي أن الأمير طلب إليه بعد ذلك أن يريه ساعته، فأجاب إنها ليست معه، ولكن "دونك هذا التلسكوب" (النظارة المكبرة)، فأخذه الرجل، ووضعه على عينيه برهة ثم ردّه

إلى صاحبه الذي ادّعى أنه قال: "سأعطيك إياه بشرط أن تكسوني كسوة عوضاً عن التي سرقها رجالك". و لم يقبل ذلك الحاكم الهدية، كما أنه لم يعمل على ردّ الثياب المسروقة. قال الأمير لداوتي: إنه يجب أن يغادر هذا اليوم إلى عنيزة، وسيجد هناك بعض الأبّال الذين غادروا بريدة البارحة في طريقهم إلى سدوس ليرحل معهم، وارتفع صوته صائحاً "(مين يشيل) إلى الوادي؟"، أي من الذي يتولى ترحيل النصراني على بعيره إلى الوادي.

يذكر داوتي أن عبد الله بن عبد العزيز بنى هذا القصر الذي يسكن فيه الأمير حالياً، وكان كلا الرجلين أميراً في وقته في بريدة، ثم قتل مهنا عبد الله واغتصب حكم المدينة الذي أصبح خالصاً له، ووجد بعد ذلك تأييداً معنوياً من الأمير الوهابي، وأصبح شيخاً على المدينة عدّة سنوات، وكان لمهنا ابنان هما حسن – الأمير الحالي – وعبد الله. ويستطرد داوتي فيقول: إن أبناء الأمير القتيل هربوا إلى عنيزة المجاورة، ولبثوا هناك عدّة سنين. وفي أحد مواسم الربيع – بينما كان حسن يعسكر وعصبته المسلحة في النفود – تسلل أبناء ذلك القتيل إلى بريدة، واختبأوا في منازل بعض الأصدقاء، وفي اليوم التالي هاجموا مهنا "ذلك الظالم" الذي كان في طريقه إلى المسجد لأداء صلاة الظهر، وأعملوا فيه السكاكين، وذبحوه على قارعة الطريق، ويضيف: إن أحد الفرسان من جنود المدينة من الذين لم يكونوا في رفقة حسن، ركب واجتاز مسرعاً أبواب المدينة لا يلوي على شيء متجهاً إلى النفود، وهناك وجد حسن الذي أصدر أمره لمجموعته بالرجوع، وركبوا سراعاً في اتجاه الديار، ووصلوا إلى بريدة ليلاً. ويستطرد داوتي فيقول: إن عبد الله الابن الثاني لمهنا، الذي كان في البلدة، كان يتميز بقريحة وقّادة تسعفه في فنون القتال رغم أنه كان أعرجا. صمد عبد الله في موقعه في المدينة، وكان في غمرة خوفه وتفاقم مشكلاته أثبت جناناً من الآخرين. فأهل المدينة، بالرغم من الرعب الذي يقول داوتي إنه ألمّ بهم جرّاء الظلم الذي أوقعه بهم مهنا، لم يكونوا على استعداد لمساندة أولئك القتلة الصغار. وأسرع عبد الله وأغلق الأبواب على أولئك الأحداث حتى لا تستعر الفتنة في تلك المدينة. ووصل عبد الله ليلاً إلى البيت الذي اختبأ فيه أولئك الصغار، واستوقد ناراً في ذلك الشارع لتضيء ما حوله. وكان أبناء عبد الله بن عبد العزيز – الأمير القتيل – وبعض رفاقهم الذين انضموا إليهم يدافعون عن حياتهم في يأس ببنادق الفتيل من على سطح ذلك المنزل، وتقدم بعض الرجال الشجعان الذين كانوا في زمرة عبد الله بن مهنا تحت ساتر من جريد النخل ما زالت تموره عالقة به، يتّقون به تلك الطلقات الضعيفة المصوّبة تجاههم، وفتحوا فجوة في جدار ذلك المنزل بسرعة، وصبّوا فيها البارود، ثم قذفوا فيها جمرة من نار، فحدث انفجار مُروّع قتل كل نوع من أنواع الحياة بين تلك الجدران، و لم يبقَ على قيد الحياة إلا فتى واحد أصابه جرح بالغ، وهمّ قافزاً وسيفه في يده، في الوقت الذي كان فيه رجال مهنا بدورهم يهمّون بالدخول

إلى المنزل، و لم يجد إلا الفرار سبيلاً، وراح يترنح هنا وهناك، وهو يشيعهم باللعنات التي لم تفتر شفاهه عن إطلاقها عليهم حتى أصابه طلق ناري أورثه الردى.

يروي داوتي أن حسن وصل إلى المدينة ليلاً، فوجد أن قتلة أبيه لقوا حتوفهم، كما وجد المدينة تغطّ في نوم هانئ وكأن شيئاً لم يكن. وهكذا وجد حسن نفسه أميراً لبريدة. ويدّعي داوتي أنه صادف بعد ذلك بعض أبناء أمراء بريدة السابقين في منفاهم في عنيزة، وعرف منهم أخوين: أحدهما أعمى كان ينبغي أن يكون أمير بريدة بالوراثة.

تجوّل داوتي في هذا القصر الذي يمكن أن يقارن – كمسكن خاص بالأمراء – بقصر حائل، رغم أنه أقل شأناً من سابقه، لأن بريدة بدورها أقل شأناً سياسياً من حائل، ويستطرد فيقول: إذا عمدنا إلى عقد مقارنة بين المدينتين، يمكن القول: إن حائل مدينة نصف متحضرة، بها سوق للسلع الأجنبية، أما بريدة فهي حاضرة متمدنة عظيمة في قلب هضبة نجد.

يذكر داوتي أن ساحة هذا القصر المترامي المساحة – كأنه ساحة سوق – اتشح برمل النفود. وداخل هذا القصر المتهدم قاعة قهوة عالية، تقوم فوقها شرفة بُنيت جدرانها من الطين المخلوط بالرمل وزُيّنت بالجص. ويستطرد فيقول إن تلك النقوش الشبكية المجصصة في ذلك القصر الصامت – الذي أكلته السنون في قلب صحراء شبه الجزيرة العربية – قد استرعت انتباهه، ويبدي إعجابه بعمارة ذلك القصر الطيني الرائع الذي زيّن البناؤون إفريزه الأعلى بما يمكن أن نشبّهه بأسنان الحوت، ذلك الشكل المميز أيضاً لقصر حائل، والذي يزين جدرانه صف من النوافذ المقوسة في أعاليها التي استحدثت بغرض توفير أكبر قدر من الإنارة ودخول الضوء، أما الجدران الخارجية للقصر فقد طُليت بمغرة خضراء وحمراء. ويفترض داوتي أن بناء هذا القصر كان قد أوكل إلى بنّاء (معلم) من بغداد. "وبهذا نستطيع أن نفسر وجود هذا المبنى الكبير الذي يقف وحده شامخاً على أطراف الصحراء بعيداً عن كل الأراضي المتحضرة". ويضيف داوتي أنه رأى قلعة على خرائب عثيرة في منطقة جبل صير عند ماء عين كبيرة من مياه الحويطات، وكانت تلك القلعة غير المهدمة ذات بناء ريفي ساذج.

وقد أخبرني رفيقي محمود وقتئذ بأنه شهد بناء تلك القلعة التي شيّدها البدو بأنفسهم، وقد أدهشني ذلك الخبر جداً حتى إني سألت: إذا كان للبدو تلك المقدرة على البناء فلماذا...؟ وهنا قاطعني محمود قائلاً: لقد أتوا (بمعلم) من دمشق ساعدهم على اختيار أنسب الأحجار من تلك الخرائب، وبدأ يدربهم على أعمال البناء واستجاب له البدو.

ويلاحظ داوتي أن للبدوي عقلاً طيّعاً يتقبّل تفهّم الأشكال التي لا تخرج عن دائرته ويعيها. ويضيف أن بعض القبائل البدوية أصبحت تمتهن الزراعة صيفاً.

يذكر داوتي أن جبير يسكن في "المضيف" القديم لهذا القصر، ويرى أن "هؤلاء الفلاحين سادة بريدة، ليس لديهم مكان للضيافة العامة، ما ينزل بهم في أعين البدو، ولذلك فإن

الضيوف ينزلون في ذلك المضيف القديم أيضاً.

سوق بريدة

خرج هذا الرحالة مع جبير ليبتاع أشياء من السوق وليتعرّف إلى المدينة، ومرّا بسوق الأعلاف حيث كان الباعة يعرضون أنواعاً من الحشيش والعشب. وتقع منطقة المطاعم وراء سوق العلف. وقد راع داوتي أن يجد حبالاً طويلة من النقانق التي يقول إنها ربما جلبت من بلاد الرافدين، تتدلى من أبواب تلك المحال، كما يلاحظ في كثير من تلك الحوانيت وجود سلال مترعة بالجراد المجفف، ولاحظ أيضاً كثرة المطاعم، ويرى أن مثل هذا المنظر غير مألوف في مدينة حائل شبه المتحضرة. ويذكر داوتي أن المرء يمكن أن يبذل شيئاً من نقوده في بريدة ويستمتع بوجبة ساخنة من الأرز ولحم الضأن أو لحم الإبل المسلوق، ويرى أن المرء يمكن أن يعيش في بريدة، في قلب شبه الجزيرة العربية ووسط بدوها، على ذلك النسق الذي يمكن أن يعيش به في بلاد الرافدين، مع فارق وحيد هو عدم وجود مقاهٍ عامة. ولاحظ أيضاً أن نساء بريدة يعملن مثل الرجال في بيع الخضر، ويذهب إلى القول: إن دمشق ليست بمثل هذا التحضّر، ويضيف بعدئذ أن سوق عنيزة يمكن أن يجد المرء فيه بعض البائعات الفقيرات.

يقول داوتي: إن بريدة مدينة واحة في شبه الجزيرة العربية، ترتبط بمناطق الاستقرار في الشمال بخطّ قوافل تجارية، وإن عرب بني تميم ليسوا بعيدي الشبه عن هؤلاء السكان من أهل بريدة ذوي الدم العربي المختلط، الذين يسكنون هذه المناطق الحدودية.

تجمع حول داوتي في السوق بعض الأولاد المشاكسين، وبعض المتسكعين من المارة الذين راحوا يحملقون في "هذا النصراني الأجنبي بينما كنا نمضي في سبيلنا غير عابئين بهم". وأبصر حارس قلعة الأمير، ذلك الرجل الذي كان قد شاهده مساء اليوم السابق خارج البوابة، وكان يجلس على دكّة طينية في المجلس في ساحة السوق، وما إن رأى ذلك الرجل داوتي حتى أخذ يوبّخ جبير على اصطحابه له علانية أمام أعين الملأ في السوق، ثم أخذ ذلك الحارس عصاه، وراح يضرب بها – باسم الأمير – أولئك المتجمهرين حول داوتي. فبدا كأنه ينفض الغبار عن ثيابهم.

مؤامرة ضد النصراني

حلّ وقت الظهيرة وأوى جبير إلى منطقة نائية من ذلك القصر الخرب ليهجع قليلاً، أما أنا

فبقيت ملازماً غرفتي، وغشي النعاس جفوني، ولكن ما كدت أستسلم له حتى سمعت صرير ذلك الباب الأحمر القديم، فتنبهت لأجد أمامي بغياً صغيرة، فسألتها: لماذا أقلقت راحتي؟ فأجابت: تخيّلني أنام في حضنك؟ ورحت أسائل نفسي ما الذي دفع بتلك الفاجرة الشاحبة إلى هنا. وأدركت أن هؤلاء العرب أبلغ الأعداء الذين يمكن أن يصادفهم المرء نذالة، وأنهم لا يتورعون عن ابتهال أي فرصة سانحة لإلصاق مثل هذا الاتهام بالنصراني.

أصرّت تلك المرأة اللعوب على تحقيق إربها، و لم تثبط لها همّة، ويدّعي داوتي أنه انتهرها ليصرفها فانبرت قائلة للأجنبي بصوت متحشرج يثير الاشمئزاز: "أيها النصراني اللعين، إنني على وشك أن ألقى حتفي بأيدي هؤلاء الرجال الأتقياء الذين سيرسلهم الأمير في إثري، وربما لا أستطيع الآن الفرار من قبضتهم".

نهضت واقفاً وأزحت أمتعتي وأحكمت إغلاق الباب. وعجبت من كلمات تلك المرأة ورحت أفكر: كم يدخلني اختلاف الدين في مصائب مثل هذه تتكرر يومياً في شبه الجزيرة العربية. وحين عاد جبير من مخدعه إلى غرفتي حكيت له تلك المغامرة، ولكنه ما لبث أن استأذن وتركني في منزله قائلاً: إنه يجب أن يذهب إلى الأمير. وما إن غادر جبير المنزل حتى سمعنا جلبة حول المنزل أحدثها بعض سكان المدينة الذين راحوا يقذفوننا بالحجارة، بينما تمكن بعض أولئك المشاغبين من دخول الساحة الأمامية الكبرى للمنزل، وامتلأ بهم الدرج حتى فاض، وكانوا يثبون بعنف ويطرقون على بابنا الذي أغلقته النسوة ربات ذلك المنزل. وأخذت أولئك النسوة يلوين أيديهن المتشابكة أصابعها ويقلن: إن هؤلاء المشاغبين سيهمّون بك، سيقتلونك للأسف، ماذا نستطيع أن نفعل وجبير ليس في الدار؟

يلاحظ داوتي أن إحدى الامرأتين كانت حضرية والأخرى بدوية، ولكنه يشهد أن كلتيهما كانتا مضيافتين ترعيان حقوق الضيف.

واعتدلت في جلستي وقلت لهما: يا أختيّ يجب عليكما أن تدافعا عن بيتكما بالصراخ والاستنجاد، وعليكما أن ترفعا الصوت بالزعيق". وهنا أطلت المرأة الحضرية على ذلك الجمع المشاغب وانبرت صارخة مخاطبة إياهم: أيها الرعاع الذين يرجمون بالحجارة غرف الحريم، اخسأوا (إخس) ماذا تريدون، لعنكم الله؟ إن كنتم تريدون خليل النصراني فهو ليس هنا أيها المهابيل، إنه ليس هنا... اذهبوا... اذهبوا... استحوا... يلعنكم الله". أما المرأة البدوية التي كانت تحرس الباب فقد راحت هي الأخرى تصرخ في المتجمهرين في الخارج: "ماذا تريدون منا؟ (إخس) ومن أنتم يا من تريدون أن تقتحموا علينا دارنا؟ أيها الفتيان الذين تملك الشياطين زمامهم فما عادوا يستحون. إن خليل ليس هنا، لقد خرج. اذهبوا وابحثوا عن النصراني في مكان آخر، لقد خرج خليل ولا ندري أين ذهب... اخسأوا". وظلت المرأتان على تلك الحال تصرخان، بينما ازداد وقع الرشق على الباب بالحجارة

وبالهراوات، وظللت أُمنّي النفس بأن يسوق الحظّ لنا جبير.

وأخيراً وصل جبير وتصدّى للمتجمهرين عند بابه باسم الأمير، وما زال بهم يدفعهم حتى أجلاهم عن ساحة بابه، وأغلق الباب خلفه ثم هزّ أكتافه وخاطبني قائلاً: "إنهم تجمهروا في فترة سابقة عند الأمير وأحدثوا الشغب هناك وهتفوا بموتك قائلين: إن بريدة لم يدخلها نصراني من قبل. هذا ما تنادي به جماهير المدينة، وقد وجدت أن عبد الله يساند هذا الاتجاه ضدّك ولكنني استعطفته في شأنك". وأضاف جبير قائلاً: "سنقضي هذا الليل بسلام إن شاء الله، ولكن إن أسفر الصباح فسأبعث في طلب ذلولي التي أمرت بتجهيزها للسفر، وسآخذك عبر الأزقّة الخالية خارج المدينة ثم أرافقك إلى عنيزة".

جاء بعدئذ بعض أعيان المدينة لزيارة خليل قبل أن يغادر بريدة وجلسوا حول الموقد، وكانوا يلبسون الأزياء البغدادية، يضعون المناديل فوق رؤوسهم من دون عصابات. وقد تبيّن له من بين هؤلاء الزوار رجلٍ يرتدي العمامة البيضاء كأهل المدينة المنورة. وذكر داوتي أن الرجل كان شاهداً على ما حلّ به في حائل. وجلس جبير يعدّ القهوة للضيوف "بينما رحت أسأل ذلك الرجل: من أنت؟ ألا تذكر أننا التقينا في حائل؟ هل رجعت من الهند بهذه السرعة؟ فأجاب الرجل لقد قابلت الأمير وأنهيت مهمتي معه، أما الهند فلن أذهب إليها إلا بعد الحجّ".

الوصول إلى عنيزة

يذكر داوتي أن الطريق بين بريدة وعنيزة عبارة عن جرف رملي متداع عبر رمال النفود ذات السطح غير المستوي. ولا ترى على رمال ذلك الطريق أي آثار لإنسانٍ أو حيوان، فقد محتها الرياح وطمستها الأمطار. وراح حسن – رفيق ذلك الرحالة – يسلك درباً متعرجاً بين الفينة والأخرى، يتلوّى بين الكثبان ويفارق ذلك الطريق غير المطروق كي يتفادى – كما يقول – البدو غير الموالين لبريدة.

يذكر داوتي أن القبائل الكبرى في هذه المنطقة تتكوّن من مطير وعتيبة حلفاء زامل أمير عنيزة.

والحقيقة أجد لاسم زامل وقعاً خفيفاً على أذني وقلبي، فقد سمعت عنه – حتى من أعدائه رجال قبيلة حرب – أنه رجل مهذّب. أما ابن مهنا الذي عاضدته قبيلة حرب قبل سنتين مع ابن رشيد مناصرة له ضدّ عنيزة فهو فلاح فظّ ظالم. وفي الحقيقة لم أحاول أن أركب من ديرة حرب مباشرة إلى عنيزة بسبب عداء تلك القبيلة لهذه المدينة.

مرّ داوتي بالمنازل الواقعة على أطراف عنيزة حيث يسكن الفقراء. وأبلغه مرافقه أنه سيتركه في أحد تلك المنازل حيث يسكن بعض خدم زامل ويرحل عنه ويتركه. وقرع الرجل أحد

الأبواب بالحلقة الدائرية المثبتة عليه، والتي تشبه مقرعات أبواب مدينة دمشق. فأطلّت من وراء الباب زنجية صغيرة كان زوجها القصاب لا يزال في السوق حتى تلك الساعة، وكان الرجل يعمل أيضاً خفيراً لدى زامل.

نقل داوتي أمتعته إلى داخل الدار وأودعها مناخ الإبل في ذلك الكوخ الصغير الخالي من مظاهر الثراء رغم نظافته. وأقبل الزنجي ربّ المنزل بعد فترة قصيرة ليجد أجنبياً واقفاً في صحن داره، فتقدم منه مسلّماً ثم قاده إلى مقهاه الصغير. وتجمّع لديه أشخاص قلائل تلبية لصوت مدقّ الجرن. وأعدّ لي الزنجي القهوة، ذلك الشراب الذي يلاحظ داوتي أنه يعدّ دائماً في بيوت عنيزة حتى الفقيرة منها. وحين فرغوا من رشف القهوة أتى الرجل بصينية إفطار شهية وجلس يشارك ضيفه الطعام، "ورحت أتأمل كم هو فيّاض كرم الفقراء؟".

خرج الرحالة بعدئذ مع علي لمقابلة زامل. وبالرغم من أن الساعة قد شارفت على الثانية بعد شروق الشمس أفاد مضيفه الزنجي أن الوقت لا يزال مبكراً جداً. ويلاحظ داوتي أن شوارع المدينة تبدأ من هذه المنطقة وتتداخل مع حظائر فقيرة مفتوحة يلاحظ أنها نظيفة. أما السوق فيقع على بعد فرسخين من مدخل المدينة، وعادة ما يفيض في مثل هذا الوقت بحشود أهل المدينة، وكلهم من الرجال، فالنسوة في عنيزة لا يخرجن إلى المناطق العامة. وعند تقاطع أحد الشوارع صادف داوتي يافعين أنيقين، "خاطبا علياً: يا علي: إن هذا الأجنبي الذي تصحبه معك نصراني؟". ثم التفت هذان الأحمقان إليّ محيّيين: "صباح الخير يا خواجا"، فأجبتهما بأني لست خواجا بل إنجليزي، وأضفت: "ولكن كيف عرفتما ما عرفتما من خبري؟" فقالا: "عرفنا بوصولك الليلة السابقة إلى هنا"، ثم ما لبثا أن سألا علياً: "علي، إلى أين أنت ذاهب به؟". فأجاب المسكين الذي راعه أن يكون ضيفه نصرانياً: "إلى زامل". فقال أحدهما: "إن زامل لم يغدُ إلى مجلسه بعد، هلّا أخذت هذا النصراني ليشرب القهوة معنا، فنحن من جدّة، وقد اعتدنا أن نرى هنالك كل أشكال النصارى".

قاد اليافعان علي ورفيقه إلى منزل كبير بالقرب من مربع باحة السوق عبر درج إلى غرفة يسمّونها في القصيم: المجلس. وكان ذلك المجلس مفروشاً بالسجاد الفارسي. وعرف داوتي أن هذين الرجلين من تجار عنيزة العاملين في جدّة، عرض أحدهما على داوتي بندقية وستمنسر ذات سبع عشرة طلقة، وأخبره أن هناك خمسين بندقية مثل هذه في عنيزة، وأنهم يثقون بمثل هذه البنادق التي يقتنونها، وأضاف أنهم يعتمدون عليها اعتماداً كبيراً يجعلهم لا يخشون الحرب مع ابن رشيد. وأضاف الشابان أنهما يعتقدان أيضاً أن الحرب مع ابن رشيد ستثور مرّة أخرى، وأنها وشيكة الوقوع، وأضافا قائلين: إنهما سبق أن عملا في فترة الجهاد جنوداً في جدّة. ثم سألا بخبث: "إن خضنا حرباً ضد بريدة هل ستكون في صفنا ؟".

غادر علي ورفيقه هذا البيت، ولمّا يمضِ وقت طويل على وجودهما فيه، ووصلا إلى ساحة

السوق، ولحسن الحظ وجدا الأمير جالساً فوق دكّة صغيرة في عريش تحت رواق في مواجهة سوق البزازين على ناصية الشارع الذي يقود إلى بيته الطيني، وضمّ عريش هذا الأمير دكتين إحداهما مفروشة بالسجاد العجمي، جلس فوقها زامل، وسيفه إلى جانبه.

يصف داوتي زامل بأنه رجل ضئيل الجسم يُحدّث مظهره عن رجل مهاب لكنه ودود، "وكانت عيناه الكبيرتان الجاحظتان تنظران في حنوّ إليّ عند اقترابي منه". وما إن مثلت أمامه حتى نهض عن مقعده وأخذ بيدي، وقال لي بعطف بالغ: "اجلس، اجلس" ثم أجلسني بجانبه. وانبريت قائلاً "وفدت إليكم من بريدة خالي الوفاض، أنا حكيم إنجليزى نصراني، وهذه أوراقي الثبوتية في حوزتي، فهلّا تكرّمت في سماحة فسهّلت أمر سفري من بلدكم إلى الساحل".

اهتمّ زامل بما وضعه داوتي في يده من أوراق، وأخذ يقرأ فيها، فيما غشت تعابير وجهه مسحة من الجدية، ولكنه ما لبث أن رفع رأسه، وقد انجلت عن وجهه تلك السحابة الثقيلة "وخاطبني بلطف قائلاً: عليك ألا تغشى مجالس القوم هنا معلناً أنك نصراني. يمكنك أن تقول: إنك جندي هارب"، والتفت إلى علي قائلاً: "ارجع بخليل الآن من حيث أتيتما، ثم أوصله إلى خلوة منزلي بعد صلاة الظهر، ولا تغشى به الأماكن العامة".

مرّ داوتي – في رجوعه إلى بيت علي – بشوارع البزازين ثم بسوق القصابين. و لم يظهر المواطنون المشغولون بهمومهم الخاصة بهذا السوق اهتماماً به، ولكن "مع ذلك فقد انبرى أحد أولئك العرب الخبثاء – وكان نحيف البنية يرتدي زي أهل بغداد – يمسك بطرف ثوبه قائلاً: "من أين أتيت؟ هل أنت نصراني؟"، فأجبت (إيه) أي نعم، أما علي فكان إذا جُوبه بسؤال عن هويته يجيب بصوته الجهوري: "أجنبي في طريقه إلى الكويت".

يصف داوتي عنيزة بأنها مدينة طينية، إلا أن المرء يجد فيها كل المستلزمات التي تتطلبها الحياة المتحضرة. ومرّ داوتي في طريقه بمسجد حسن البناء، وهو غير المسجد الكبير الذي في الساحة الرئيسة، ويذكر أن كل المباني في هذه المدينة العربية تُبنى من الطين.

يخوض أهل عنيزة هذه الأيام في مناقشة أمر نقض الصلح بين مدينتهم ومدينة بريدة، بالرغم من أن ولد مهنا كان قد كتب إلى زامل كتاباً جاء فيه: "أنا ولدك"، وبالرغم من ذلك ردّ زامل عليه بقول: "أنا صديقك".

داوتي يستقر في عنيزة

جلس القوم عند موقد القهوة يتجاذبون أطراف الحديث، فقال بعضهم: "والله لن يكون هنا ما يربط بين هذه البلدة وبين بريدة أبداً، وإن حلفاء زامل سيصلون إلى عنيزة في غضون

أيام قلائل من مناطق الشرق والجنوب الممتدة حتى وادي الدواسر"، وعند ذلك – كما قيل له – سيرى رجالاً مسلحين يجوبون هذه الطرق.

غادر داوتي مضيفه إلى منزل زامل بعد صلاة الظهر وسلك إليه – بعد مروره عبر ساحة المجلس – طريقاً صغيراً غير ممهد، حتى وصلا إلى غرفة زامل التي فرشت بحصائر السعف. وكان زامل جالساً في صحبة عدد قليل من الأشخاص، أما عبد الله، بكر أبناء زامل، فكان يجلس خلف الموقد يعدّ القهوة، ودخل إلى المقهى من يحمل أخباراً بأن بعض بدو عتيبة من العرب الرحّل الموالين لعنيزة قد سطوا في النفود على حمير لأهل المدينة. واستدعى زامل أحد المسلحين من أتباعه وسأله: "هل كل إبلك على أهبة الاستعداد؟". أجاب الرجل: كل شيء جاهز تماماً. قال زامل: "خذ معك بعض الرجال واركب في إثر هؤلاء البدو، ويجب أن تلحق بهم اليوم". وسأل الرجل الأمير: "ولكن ماذا إذا فقدت ذلولي؟ وهنا قاطعه زامل قائلاً: "سأتولى دفع نصف مقدار الخسارة". وخرج ذلك الرجل بعدئذ ليؤدي مهمته. ولاحظ داوتي أن زامل كان يتحدث بصوت هامس، وكأنه غير مؤهل للقيادة، ويستطرد ليقول: إن الأمير ليس كذلك، إنما مبعثه ذلك الهدوء الطبيعي الذي يمتاز به شيوخ العرب.

دخل علي – عمّ الأمير – المقهى. وكان زامل قد عيّنه قبل بضع سنوات أميراً تنفيذياً في عنيزة، كما كان حين يسير إلى الحرب نائباً عنه فيها، وكان في الأصل جمّالاً، وليس له أصدقاء كثيرون من المتعصّبين دينياً. انتحى جميع الجالسين مفسحين لعلي الطريق حتى جلس ذلك الرجل الضخم الجثة في صدر المجلس. أما الأمير المضيف فقد كان يجلس في مواجهة القوم، متّكئاً على وسادة، بينما كان ابنه عبد الله جالساً عند الموقد يدخن غليوناً. والجدير بالذكر أن تدخين الغليون أمر لم يكن مقبولاً من ذلك الابن في الشارع العام.

انتهى إعداد القهوة وأصبحت جاهزة للتقديم، وأخذ عبد الله الفناجين وذهب ليصبّ القهوة بادئاً بزامل، ولكن الأمير أشار إليه بلطف كي يبدأ بالأمير علي أولاً. وأديرت أقداح القهوة على الجلوس، بينما كان الأمير يخاطب عمّه قائلاً:

هذا الأجنبي يعمل حكيماً، وهو رحالة وفد من الشام، وسنرسله استجابة لرغبته إلى الكويت. قال علي: سمعت بأن هذا الرجل نصراني، فهل يمكن لنصراني أن يأوي إلى مدينتك، فأجاب الأمير: إنه عابر سبيل ولا ضير في أن يبقى بيننا بضعة أيام.

تناول علي فنجانين من القهوة ثم انتفض في نزق واضح وراح إلى حال سبيله. وحين انصرف جميع الحضور كشف زامل لداوتي عن ساعد مقروحة ملتهبة بحكّة لازمته في العشرين عاماً الأخيرة، "وقد سبق لي أن رأيت مظاهر مثل هذا المرض لدى مرضى آخرين في عنيزة"، قال زامل: "إذا استطعت أن تعالج هذا المرض فسوف أعطيك فلوساً".

رجع داوتي إلى منزله ليجد فيه عدداً من المرضى توافدوا لزيارة الحكيم، وقد أعاره أولئك

المرضى (دكاناً) في أحد أزقّة السوق. وقبل أن يحين وقت العصر، أتى علي الخفير بحمار عليه حقائبه ليستقر في (حانوت الطبيب).

وهناك رحت أفكر وأسأل نفسي هل يمكن أن أجد هنا في شبه الجزيرة العربية راحة أبداً؟ وحين نادى المؤذن لصلاة العصر تواتر وقع أقدام الغادين إلى المسجد الذي كان في نهاية هذا الشارع. وقد لاحظت أنهم كانوا في هذا اليوم ينطلقون إلى المسجد في نشاط بارز، وكأنهم أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذا غدوا إلى صلاتهم. أما أنا فقد أغلقت حانوتي مثل الآخرين وجلست عنده، بينما راح الصوت من فوق المئذنة ينداح ليملأ دائرة المدينة: الله أكبر، الله أكبر.

لاحظ داوتي أن الحركة في عنيزة تهدأ بعد صلاة العصر، وينصرف الأعيان إلى منازلهم لتناول القهوة مع الأصدقاء، ويرجع بعض المصلين من المسجد في طريق يمرّ بدكان داوتي لرؤية النصراني، والسؤال عن الأدوية التي جلبها. ويعلق هذا الرحالة على ذلك بأنه يجد أن كل العرب مرضى، أو يتوهمون أنهم مرضى، أو أن بهم مسّاً من السحر. ويضيف أن نفراً من العاطلين وبعض الأطفال قد يجتمعون عند دكانه، إلا أن سلوكهم كان سويّاً، وقد أصدر زامل أوامره بوجوب ألا يضايق أحد الحاج خليل أبداً. ويدّعي أن زامل أسبغ عليه لقب الحاج حين عرف أنه زار القدس عدّة مرّات، وكان يرى أن حمل هذا اللقب يفيد داوتي، ويقيه ويؤمن له السلامة في أوساط المواطنين.

يجنح داوتي إلى القول بأن وجوه مواطني مدن قلب شبه الجزيرة العربية المتحضرة ليست كتلك الوجوه البدوية التي تميز حضر حائل "الذين يرتجفون في حضرة ابن رشيد"، ويشيد بزامل حين يقول: إن عنيزة مدينة حرّة تحت حكم أمير حقيقي، يتحدث مثل الآخرين من مواطنيه، ويحكم كشيوخ العرب العظام – بين المواطنين الذين هم إخوته لا رعاياه – . ويروي داوتي أن العديد من أهل عنيزة يرجعون بأصولهم إلى قبيلة بني خالد، وهي قبيلة بدوية قديمة لم يكن يداني اسمها اسم آخر في نجد قبل اشتداد أمر الوهابي، ولكن أكثر من نصف السكان يرجعون إلى بني تميم. ويلاحظ وجود شيوخ وراثيين معروفين في أحياء عنيزة المختلفة، ولكنه ينفي عنهم التحزب والمعارضة، فهم جميعاً تابعون لزامل عن اقتناع وبرضاء تام، وأن كل أهل عنيزة يشعرون بالرضا ويستشعرون وحدة غير منفصمة لا يخشون معها تربّص الأعداء من خارج المدينة.

في منزل الخنيني

يقول داوتي إن أحد المواطنين أخذه إلى بيته على مسافة غير بعيدة من حانوته لرؤية أمه المريضة

وعيادتها. ودخل الرجل منزله من باب جانبي، ثم ما لبث أن فتح له باباً آخر دخل منه، وكانت ساحة المقهى الكبير المزينة بالجص على النمط الذي شاهده في بريدة مفروشة بحصائر ممتازة جُلبت من الأحساء، كما وضعت عند حفرة الموقد سجادة فارسية للضيوف، وجلس الرجل خلف الموقد وأخذ يعدّ القهوة.

كان هذا الرجل هو عبد الله الخنيني، وهو من أسرة طيبة، وإن كانت فقيرة سابقاً. هجر هذا الرجل عنيزة فقيراً في طلب الرزق، وبعد أن عبس فيه الحظ في البداية، ابتسم له في عنيزة ليصبح أحد أبرز تجار عنيزة الذين يعملون خارج حدود بلادهم. عمل في تجارة القمح في البصرة، وعاش فيها يتمتع بهدوء الخاطر. ويدّعي داوتي أن قلب الرجل لم يكن معلقاً بعنيزة التي كره فيها حرفية الوهابيين وتعصّبهم. ويضيف أن هذا الرجل ائتمن أخاه صالحاً على متجره في البصرة وعاد إلى عنيزة ليقضي عاماً في موطنه علّه يستعيد صحته الواهنة باستنشاق هواء النفود.

نظرت إلى وجه الرجل الذي ابتسم لي قائلاً: أعلم أنك إنجليزي. ولكن لماذا تعلنها هكذا صراحة في هذه الأرض المتعصبة الموحشة؟... سبق أن قضيت سنين عدّة في بومباي الخاضعة لحكومة الإنجليز، ويمكنك أن تقول لي بلا مشاحة إنك إنجليزي، ولكن لا تعلنها هكذا لهؤلاء الجهلاء الحمقى. إنهم يعتقدون أن النصراني ابن للشياطين، جدير بالموت.

وأضاف قائلاً إن نصف سكان هذه المدينة وهابيون، ورحت أسأله: "هل يعني هذا الحديث أن لا أقول الحقيقة في هذه المدينة كما اعتدت أن أقولها في وطني؟". فأجاب الرجل بأننا نذبّ عن أنفسنا وندفع شر أعدائنا بألسنتنا. وفي الحقيقة، إن الكذب في كثير من الأحيان يسترضي الآخرين... وأجد أن في كل شيء – حتى في الكذب والخداع – جانباً طيباً وآخر خبيثاً. فأجبت: "ألم تسمع بالمثل القائل إن الحقيقة لا يمكنها أن تسير في العالم وهي عزلاء من السلاح؟". وقال: "نعم، ولكن الإنجليز لا يعملون وفق هذا المثل، لقد عرفتهم أهل سياسة. ففي الحرب بين عبد الله وسعود أرسل مقيمهم في الخليج مئات من جوالات الأرز سرّاً لسعود". ويذكر داوتي أن الأخير هو الطرف المتجنّي في النزاع، وفي هذا تفسير لكراهية الإدارة البريطانية في الخليج اسم "عبد الله الوهابي".

قاده الرجل إلى غرفة داخلية ارتقيا منها إلى الطابق الأعلى، يقول داوتي: إن عبد الله اشترى هذا البيت الطيني الضخم بألف ريال، "حوالى مئتي استرليني". ويلاحظ داوتي أن البناء الطيني في عنيزة قوي، وأن جدران ذلك المنزل يمكنها أن تُغالب الزمن أكثر من مئة سنة، ويفيدنا أن عبد الله كان قبلاً يستأجر هذا المنزل بخمسة عشر ريالاً قبل أن يشتريه من مالكه في السنة المنصرمة.

يصف داوتي الطابق الأعلى لبيت عبد الله الذي ضم عدداً من الغرف الجيدة لكنها كانت

في نظره عارية خالية من الأثاث، ويلاحظ أن أثاث هذا البيت الحضري الضخم لا يزيد على أثاث بيت بدوي يمكن حمله على ظهر ثلاثة من الإبل، ويضيف أن استعمال الأسرّة غير معروف في البلاد العربية، وأن المواطنين يفترشون الثرى، ثم استدرك قائلاً: هذا على الرغم من أن بعض الأشخاص المنحدرين من أسرة ثرية أو الأشخاص الذين أصابوا الثراء لاحقاً يفترشون حشوات قطنية رفيعة يجعلون فوقها ملاءة، كما لاحظ أيضاً وجود بعض الخزائن لحفظ الملابس في منازل أهل اليسار.

يستطرد داوتي في وصف المنزل، ويذكر أن الضوء يدخل منازل هذه الأرض المشمسة عبر فتحات عالية في الجدران تمثل النوافذ، ويرى أن عبد الله لا يعيش في البصرة بمثل هذه البساطة. "وهناك على أطراف هذا العالم الكبير قاعات منازل التجار العرب المزوّدة بالكراسي، ولكن عبد الله حين يفد إلى عنيزة يعيش كما يعيش المقيمون فيها، ويجلس في بيته الريفي على الأرض المفروشة بالسجاد".

قاد عبد الله داوتي إلى إحدى الغرف في ذلك الطابق حيث كانت والدته جالسة على الأرض، وهي محجبة مثل كافة النساء العربيات، وكانت ترتدي عباءة فضفاضة صبغت بالنيلة، وقد أرخت الحجاب لتستر به تقاطيع وجهها العجوز.

خاطب عبد الله والدته قائلاً: "يا أمي، لقد أتيت إليك بالحكيم. حدثيه بما تحسّين ودعيه ينظر إلى عينيك"، ثم رفع عبد الله الحجاب عن وجه أمه بيد حانية. قالت لي تلك المرأة "إن رأسي وكل هذا الجانب من جسدي يؤلمني، حتى إني لا أستطيع النوم يا ابني". "وهنا يجدر بي أن أذكر أن عبد الله كان رجلاً في الأربعين من عمره، ورغم ذلك فإن والدته ظلت تتحرّج من أن ينظر رجل أجنبي إلى عينيها اللتين جار الزمن عليهما".

عاد عبد الله مع داوتي إلى غرفة القهوة مرّة أخرى وابتدره قائلاً إن والدته امرأة مسنّة مريضة، وهو يقاسي الكثير لما تجده من ألم، "إذا تمكنت من علاجها فستسدي لنا معروفاً كبيراً". وبينما كانا يخوضان في هذا الحديث دخل عليهما اثنان من مغتربي عنيزة، عين بارز وتابعه، وكان الرجلان يرتديان زي بلاد الرافدين، ويضع كل منهما على رأسه عقالاً ثقيلاً من وبر الإبل يشبه العمامة. كان هذا العين جمالاً في وادي الرافدين، يعمل في نقل التجارة الخارجية إلى سوريا عبر الطريق الطويل الممتد إلى حلب، وحدث أن ضلّ ذلك الرجل الطريق يوماً بقافلته فما عاد بعدها يحتمل مثل تلك الأخطار، فباع إبله واشترى بأثمانها مزارع. وقد أصبح هذا الرجل بعدئذ مزارعاً مشهوراً في بلدة العمارة يُشار إليه بالبنان، وهو أيضاً من المتعاملين مع الخنيني، أحد تجار القمح الرئيسيين في مدينة البصرة النهرية.

الحياة اليومية في عنيزة

مع شروق الشمس جاء علي موفداً من زامل إلى داوتي يطلبه لتناول طعام الإفطار فأجاب. وعند الموقد جلس الرجل مع زامل، وتناول القهوة الصباحية، ثم جيء بصينية الإفطار ووضعت في منتصف الغرفة، "وجلسنا ثلاثتنا: الأمير والنصراني وعلي، ففي الحياة العربية عموماً ليس هناك اعتبار لمقام أو تمايز بالميلاد".

يذكر داوتي أن طعام الإفطار في عنيزة يتكوّن من خبز ساخن يبدو مذاقه مُرّاً للأوروبيين، ولكن الأهالي لا يجدون فيه تلك المرارة. وقد فسّر له علي أن هذا الطعم يرجع إلى أنهم يضيفون إلى القمح حفنة ملح قبل طحنه. ويقول إنه تناول التمر مع هذا الخبز، إضافة إلى الزبد الطازج. ووضعت "سلطانية لبن زبادي" جانباً حتى يصيب المفطرون حظّهم منها بعد إفطارهم مباشرة قبل أن يقوموا لغسل أيديهم. ويلاحظ أن الماء لغسل اليدين يصبّ من إبريق معدني ينزل من اليدين في حوض معدني أيضاً.

عندما يفرغ الناس من تناول إفطارهم ينصرفون إلى أعمالهم ويبدأ يوم عمل جديد. كان داوتي يغدو يومياً إلى حانوته منذ الصباح، ويقضي اليوم كله هناك. وكان زامل يرسل إليه أحياناً فخذ خروف من سوق القصابين، "وذلك بغية أن أتغذى غذاءً طيباً". ويروي داوتي أن ثمن فخذ هذا الخروف الصحراوي الغث الذي لا أثر فيه للدهون يصل إلى حوالى ستة قروش، أما لحم الإبل فيباع للفقراء. ويحدثنا عن القديد، ويذكر أن اللحم يقطع إلى شرائح ثم تُعلّق تحت وهج الشمس المتقدة مدّة ثلاثة أيام وتبقى بعدئذ صالحة للأكل ولا تفسد. ويلاحظ داوتي أن البدو يأتون إلى هذه المدينة بالغزلان ليشتريها المواطنون عادة ليُربّوها لذبحها، أو ليتلهّى بها الأطفال، وأن الواحد من شوارد الصحراء هذه يساوي ثمانية قروش.

ما إن ينتصف نهار الجمعة حتى يجتمع كل رجال هذه المدينة وعمال المزارع للصلاة في المسجد الكبير حيث يستمعون إلى قراءة القرآن وخطبة الجمعة. ويذكر داوتي أن الجمعة في عنيزة هي يوم السوق أيضاً، ويلاحظ أن الفقراء من أهل عنيزة يرتدون الملابس نفسها التي يرتديها الآخرون، ويثبتون الطرابيش ومناديلهم على رؤوسهم بالعُقل، أما الأغنياء فيضعون على رؤوسهم الطرابيش المغربية ثم يضعون فوقها مناديل زاهية الألوان، ولا يعمد هؤلاء إلى وضع العُقل على رؤوسهم إلا في الأسفار. ويلاحظ أيضاً أن رباط الوسط (حقب)، حزام يصنع من ضفيرة جلدية، لا يلبسه في عنيزة إلا النساء، بينما العرب المواطنون في مكة والمدينة يتمنطقون به، كما يلبسه أيضاً رجال حائل وأمراؤهم. ويرتدي الرجال هنا عباءة فضفاضة من الصوف، وينفق ميسورو الحال من الفتيان من المال ما يوازي ثمن هذا القماش ليدخلوا عليها تطريزاً من خيوط معدنية، وتتولى النساء في الغالب أعمال التطريز،

ولديهن الدربة الكافية لتطريز شريط غير محدد الجوانب تتخلّله - بإعمال الإبرة - أشكال زهور متناسقة تحاكي الأشكال التي تظهر في السجاد الشرقي. ويشير داوتي إلى أن الرجال العجائز يسيرون في الشارع وفي أيديهم عادة عصيّ طويلة جُلبت من مكة، ويشيد بالهدوء المميز في سلوك الرجال في عنيزة وأخلاقهم "لطيفة جداً"، أما النساء فلا تكاد تصادفهن في تلك الشوارع.

وفد إلى داوتي بعد يوم أو يومين من وصوله عنيزة شاب من المواطنين الميسورين بدعوة من والده ليتناول معه طعام الغداء. وعرف أن صاحب الدعوة هو عبد الله البسام، عميد بيت البسام في عنيزة، الذي يعمل تاجراً في جدّة. وأشار إلى أواصر الصداقة التي تربط بين عبد البسام وعبد الله الخنيني، واستشهد على ذلك بأنهما يتبادلان الزيارات يومياً، ولا يتناولان طعام الإفطار أو الغداء إلا معاً، كما أنهما يتبادلان تناول القهوة في بيتيهما. وجد داوتي الخنيني في بيت البسام، وكان معهما الشيخ ناصر وكذلك السمري الذي هو أيضاً من تجار عنيزة العاملين في جدّة. وأفاد بأن السمري رجع إلى عنيزة أخيراً، لأنه لم يصب من تجارته ثراءً كبيراً، وأنه يسكن في بيت اكتراه، وقد كان السمري يشارك الخنيني كل سنة في صفقات شراء بعض خيل العرب الصغيرة ويرسلانها إلى بومباي لتباع هناك.

يشير داوتي إلى أن أهل عنيزة يبتاعون احتياجاتهم اليومية من المؤن من "الدكاك" المنتشرة في السوق، وذلك بعد شروق الشمس مباشرة، أما الدكاكين ذات الأبواب التي يمتلكها أشخاص من ذوي الأملاك الميسورين فإن أصحابها لا يبدأون بالتوافد إلى السوق إلا بعد الإفطار، ويلاحظ أن الوسطاء "السماسرة" يلهثون في شوارع البزازين حيث يذرعونها جيئة وذهاباً وهم ينادون على السلع المختلفة التي يحملونها بأيديهم، والتي أوكلها البعض إليهم ليبيعها نقداً، ويلاحظ أيضاً أن سلع هؤلاء الوسطاء تتنوع من البنادق الطويلة والحراب ودلال القهوة والعباءات، والقماش الخام، وغيرها من السلع التي يمكن أن تدرّ عليهم مالاً. وينادي كل من هؤلاء الوسطاء بما يحمله، وإذا استدعاه شخص فإنه يهرع إليه حالاً ويجيبه فوراً. وتجلب أيضاً الملابس والأقمشة من بغداد، وعادة ما توكل إلى الدلالين لبيعها فور وصولها.

يقول داوتي إن الأيام التي لا يفد فيها البدو إلى عنيزة لا يجد التجار عملاً إلا اليسير، ولهذا نراهم في مثل تلك الأيام لا يفتحون محالهم التجارية إلا ساعة من نهار ثم يغلقونها قبيل الظهر ويذهبون إلى منازلهم، وتخلو الشوارع شيئاً فشيئاً من المارة، وعندما ينادي المؤذن لصلاة الظهر يهرع أهل المدينة زرافات ووحداناً فيملأون الطرق المؤدية إلى المسجد. ويرجع بعد أداء الصلاة نفر قليل من الباعة إلى السوق، أما الأغلبية - خاصة ميسوري الحال - فيذهبون مع أصدقائهم لتناول القهوة، بعضهم في بيوت بعض، كما يخرج الأشخاص الذين يملكون حدائق من أهل المدينة إلى حدائقهم يتفيّأون ظلال نخيلها، وحين صلاة العصر يترك متناولو

القهوة أماكنهم حول تلك المواقد والمباخر ويذهبون إلى الصلاة "مرّة ثالثة في كل يوم"، وبعد أداء صلاة الجماعة يقصد الباعة السوق مرّة أخرى ليجلسوا عند دكاكهم، وينشط الدلالون مرّة أخرى، وتزداد الحركة في السوق، أما أهل اليسار فيعودون بعد الصلاة إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء. وبعد ساعة تقريباً – بعد العصر– تغلق كل المتاجر معلنة نهاية اليوم، فيخرج العديد من المواطنين خارج أسوار المدينة، يتجولون هناك ثم يعودون إلى المدينة ساعة أن تؤول الشمس إلى المغيب حين يُنادي المؤذن للصلاة الرابعة (المغرب) التي يؤديها المواطنون جماعة في المسجد أيضاً، ثم يتوجه الناس إلى بيوتهم بعد صلاة المغرب حيث يجلس السادة في قاعات القهوة مع عمالهم الزراعيين. وفي الغالب يعد هؤلاء السادة وجبة من البرغل الساخن يتناولونها معاً مع عمالهم، أما العمال الزراعيون الذين يعملون في المزارع النائية فيبقون فيها ولا يفدون إلى المدينة، ولا يحتاجون إلى سقف يظلهم، فهم يفترشون الثرى رقوداً في ثيابهم ذاتها، ويلتحفون النجوم الساطعة حتى يغلبهم النوم.

ينادي المؤذن مرّة أخرى لأذان آخر بعد حوالى أقل من ساعتين بعد وقت المغرب، داعياً إلى صلاة خامسة، وتلك هي صلاة العشاء أو الصلاة الأخيرة. يخرج البعض من المواطنين للصلاة في المسجد، بينما يبقى المجهدون منهم في منازلهم يؤدون تلك الصلاة التي يعتقد داوتي أن بعضهم لا يؤدونها. ولا تزال هناك فسحة من الوقت بعد الصلاة الأخيرة، إذ يجتمع الخواص من الأصدقاء مجموعات صغيرة في "قهوات" بعض الميسورين والتجار العنيزيين الذين يعملون في مناطق خارج عنيزة.

العلاقة بين الجناح وعنيزة

خرج داوتي إلى إحدى المزارع، وصادف في منتصف الطريق مستعمرة الجناح التي أسسها فند، وهو من بني خالد، وذلك قبل تأسيس بلدة عنيزة التي تسمى الآن أم نجد. وقد ارتبط هذان البلدان اللذان لا يفصلهما سوى ميل واحد بعداء مستحكم. وقد هُجرت الجناح وذهبت ريحها منذ خمسة وتسعين عاماً من وصول داوتي، ولكن العديد من المواطنين الذين لا يزالون على قيد الحياة شهدوا بأن أطلال منازل دارسة كانت تشاهد هنا قبل أربعين عاماً. ويفيد داوتي أن العمال يحفرون في هذا الموقع القديم لاستخراج الجص، وأن عرب بني خالد الذين عمروا الأحساء زمناً ما زالوا يتجوّلون في الشمال باتجاه منطقة الكويت. ويتحدث داوتي في نسب الخوالد ويردّهم إلى قيس، وهم مثل آل مرّة والعجمان يرجعون في نهاية الأمر إلى سام. ويروي داوتي عن الشيخ ناصر أن الجناح أسّست قبل حوالى ستمئة عام، أي قبل تأسيس عنيزة بثلاثة أو أربعة أجيال. وكانت الجناح في بداية عهد الوهابيين في حلف

ثويني، شيخ المنتفق، ذلك الشيخ العظيم الذي تقع دياره إلى الشمال في أرض الرافدين، أما عنيزة فقد تحالفت في ذلك الوقت مع الوهابيين. ودهمت المشكلات بعد ذلك أهل الجناح حتى اجتاحتهم، فجلا الكثير منهم إلى الشمال ليعيش هناك، ورحل من تبقّى منهم إلى عنيزة.

يروي داوتي أن عنيزة تأسست بجهود بعض الحضر من قبيلة سبيع التي تنتهي نسباً إلى قيس، أما العرب الرحّل من سبيع فقد ظلوا في ديارهم في العروض، وكانت قصبتهم حائر التي يعمرها حضر البدو، ويشير إلى أن الكثير من عرب سبيع يسكنون في وادي سبيع على الحدود بين نجد والحجاز في منطقة تبعد أربع مراحل إلى الشمال الغربي من مكة، وتعتبر الخرمة ورنية أهم قريتين لهم.

في مزرعة الخنيني

يقول داوتي إن مساحة أرض الخنيني المزروعة نخلاً وقمحاً تبلغ ثلاثة أفدنة ونصف الفدان من الأرض الرملية. كانت أغلب مساحة هذه المزرعة تزرع قمحاً، و لم يكن فيها سوى أربعين نخلة قديمة هزيلة، لأن مالكها السابق كان رجلاً ضعيف الحال، و لم يشبع مزرعته ريّاً، وأفاد أن الخنيني عمد إلى جلب فسائل النخيل الصغيرة من الوادي إلى مزرعته، وأنه يدفع ريالاً ثمناً لكل فسيلة، ويلاحظ أن قدر ملاّك الأرض الصغار في هذه المنطقة أن يفقدوا أرضهم "لأنهم وما يملكون من تراب الأرض في هذا العالم ليسوا سوى لقمة سائغة للمرابين، فتظل تركبهم الديون حتى تعلوا هاماتهم ثم ما يلبثون أن يغوصوا في الديون الربوية، فيتعذر بعد ذلك الأداء".

يذكر داوتي أن البئر التي حفرها عبد الله الخنيني، والتي تغوص إلى القشرة التي تلي الصخر الرملي، تبلغ ست قامات عمقاً، وقد غطيت جوانب هذه البئر بقطعة من الحجر الرملي المستخرج من منطقة بالقرب من عنيزة، وبلغت تكلفة حفرها حوالى ستمئة استرليني، ويعلّق على ذلك بأن هذه الأرض زهيدة الثمن لبعدها عن مركز المدينة، ويعود ليقول إن القمح في هذه المنطقة كثيف النمو، ولكن سنابله غير مثقلة بالحبوب، ويردّ ذلك إلى موالاة الزراعة في البقعة نفسها من الأرض كل موسم، سنة إثر سنة، حتى ما عادت تلك الأرض المرهقة تدرّ غلة تذكر، ويرى في ذلك تفسيراً لندرة القمح في منطقة شبه الجزيرة العربية الفقيرة.

بعد أن يذكر داوتي أن فصائل الإبل في عنيزة سوداء، يفيد بوجود أربع نياق في تلك المزارع تعمل بلا انقطاع في متح الماء، ويلاحظ أن الناقة الواحدة تستطيع متح الماء من بئر يتراوح عمقها بين ست إلى ثماني قامات لري فدان واحد تقريباً في اليوم. ويفيد بأن المالك الجديد استحدث بئراً جديدة على أمل أن يتمكن مستقبلاً من شراء قطعة أرض أخرى من الأراضي المجاورة. ويلاحظ أن عبد الله – مثل مُلّاك الأراضي الأثرياء – يملك طاقمين من إبل السقيا،

يعمل كل طاقم شهرين حتى يكلّ ويهزل ويُرسل من ثمّ إلى المرعى ليستريح، ويؤتى بالطاقم الآخر ليحلّ مكانه لري المزرعة.

يركب عبد الله كل صباح إلى مزرعته ليستمتع بالهواء الطلق وليشبع عينيه من منظر زراعته، وكان يسعى كي يقيم لنفسه في المزرعة بيتاً ريفياً حتى يتيسر له عندما يفد إلى عنيزة مرّة أخرى الاستمتاع باستنشاق هواء النفود.

من تجار عنيزة

يرى داوتي أن تجار عنيزة الذين يعملون خارج حدود بلادهم مثقفون، يستعملون المعاجم ويقرؤون معلقات الشعراء العرب الجاهليين، وأن الرجل منهم ما إن يفارقه آخر أصدقاء المساء حتى يجلس في ضوء مصباحه الذي يضاء بالبترول، منكبّاً على كتبه يطالعها، يغذي بها روحه حتى مطلع الفجر تقريباً، مشغولاً بها عن زوجته ورفيقة صباه. ويشير إلى أن حامد الصافي الذي كان قد نشأ في بغداد والذي لا يثق بالعالم، قديمه وحديثه - أخذ يتجه حالياً إلى مطالعة الدراسات الحديثة.

يدّعي داوتي أن كثيراً من هؤلاء التجار من أهل عنيزة كانوا يطلبون منه النصيحة بشأن دواء للأدواء المختلفة جميعها، كما كانوا يسعون أيضاً لكي يتعلموا منه بعضاً من المفردات الإفرنجية، وكذلك كتابة حروف أبجديتها، لأن سلعهم التي تشحن بحراً تقع في دائرة تعامل البحارة الأوروبيين. ويشير إلى أن عدداً قليلاً من هؤلاء التجار العرب يعيشون في بعض الموانئ التجارية الأجنبية، ولهذا تعلموا أن يوقّعوا أسماءهم بحروف "رومانية" على الفواتير المكتوبة بالإفرنجية، وقد استطاع أحد أبناء عبد الله البسام الذي كان غائباً في الهند في ذلك الوقت، وكذلك نفر من العرب الآخرين، أن يقرأوا الإنجليزية وأن يتحدثوا بها، "وإن كنت أعتقد أنهم لا يجيدونها". وأشار إلى أن عرباً آخرين من الذين عاشوا في بومباي - كالخنيني مثلاً - يتحدثون الهندية، وأفاد بأن حامد نقل عنه كتابة - بالحرف العربي - عدد كبير من المفردات الإنجليزية التي يعتقد أنها ستفيده في إجراء تجارته بطرق الخليج البحرية. وذكر في هذا المجال أن والد حامد يسكن في بغداد منذ ثلاثين سنة لم يرجع فيها إلى عنيزة أبداً، وأشار إلى أن العمران قد ازداد في عنيزة التي اتسعت أخيراً، حتى إن العائد إليها من أهلها بعد طول غياب لا يكاد يستحضر إلا القليل ممّا ألفه منها سابقاً، ونقل عن الخنيني أن عنيزة قد تضاعفت في الخمسة عشر عاماً الأخيرة، وربما وصل عدد سكانها في فترة زيارة داوتي إلى خمسة عشر ألفاً.

يتحدث داوتي عن عبد الله الخنيني الذي يقول إنه لم يفسد زهرة شبابه بالعلم الذي يُدرّس في المدارس، ولم ينتظم في الجامعات التي تعرقل صقل المواهب وتودي بالكفاءات الجيدة.

وامتاز عقل هذا الرجل بالقدرة على رؤية الأشياء وفق علاقاتها الصحيحة، ونضجت مقدرته بالعمل الدؤوب تحت شمس العالم الإنساني. وقد كلّله الله في سباقه مع الحياة بتاج التوفيق السريع، وكان والده، شأن كثير من أعيان هذه المدينة، يعمل في تجارة الخيول، ولكنّ المنيّة لم تمهله ليبلغ الثراء. ويستطرد فيقول إن عبد الله أخذ يمارس مغامراته في العالم، فقصد بغداد، ولكنه اصطدم هناك باللهجة التي يتحدثها أهل الشمال، وهي لهجة لم تكن مألوفة لديه. وهناك بدأ تجارته، ولكنها كانت من النوع الذي أطلق عليه عبد الله صفة "ما ينفع". وعمل بعدئذ في بيع الرقيق وشرائه، وسافر- جرياً وراء تجارته - إلى زنجبار، وركب بعد ذلك البحر إلى موريشوس للعمل في تجارة السكر، ثم ما لبث أن أصبح من التجار الذين يشحنون القمح من بومباي إلى الموانئ العربية، واستقر في البصرة مؤسّساً لنفسه مكاناً ومكانة. قال عبد الله لداوتي وهو يفاخر بازدهار تجارته إن ما يملكه من قمح في "شونته" المفتوحة بالبصرة يساوي خمسة آلاف إسترليني. وعرف داوتي منه أن تلك "الشونة" مفتوحة لا تقيها من العوامل الطبيعية في حال سقوط الأمطار إلا بعض الحصائر والمجدولات.

يذكر هذا الرحالة أن الأوساط الثرية في هذه المدينة تحترم اسم الخنيني، ويقولون إن الله قد أغناه لأنه رجل طيب وجريء. ولم يجد داوتي من يجيب عن سؤاله: كيف أن عبد الله الذي بدأ حياته معوزاً لا يملك أن يشتري لنفسه نعلاً قد أضحى ثرياً يُشار إليه بالبنان؟ فهم يجيبون فقط بأن الله قد بارك له في رزقه. وتبرّع داوتي بالتفسير فقال: إن أسعار سوق القمح في الشرق متذبذبة، تنخفض فجأة وترتفع فجأة، وكانت تلك فرصة طيبة اغتنمها عبد الله، هذا الرجل ذو التقدير السليم، ليضاعف من ثروته حتى أصبح تاجر قمح شهيراً يبيع لتجار التجزئة الذين تعامل معهم بالثقة، وهو - كما يقول - يعرف أحوال زبائنه، ويتوافق معها. ويشير داوتي إلى أنه حينما كان في دمشق شهد ارتفاعاً عظيماً في أسعار دقيق الخبز في الفترة التي تسبق نهاية فصل الشتاء.

مقدمات الوقائع والحروب

تواترت شائعات عن أن قيام حرب بين عنيزة من جانب وبين بريدة وقحطان من جانب آخر قد بات وشيكاً. وفي حال قيام مثل هذه الحرب فإن حسن وأهل بريدة الذين هم أقل عدداً وعتاداً لن يجرؤوا على ملاقاة أهل عنيزة في النفود، وإنهم سيعتصمون بأسوار مدينتهم الطينية التي لا يزيد سمكها على شبر واحد، تاركين حقولهم ومنازلهم تحت رحمة الأعداء. هذا هو عين ما كانت عليه الحال في فترات الحروب السابقة. ويستدرك داوتي فيقول: لمّا كان هؤلاء الأعداء يتمتعون بمُثل عالية، فإنهم لن يعبثوا بالمزارع ويقطعوا النخيل ما يؤدي إلى البوار الذي

سيلازم تلك البلدة سنوات عديدة، وإنهم لن يفعلوا ما فعلته حشود ابن سعود سابقاً مع عنيزة حين قطعوا نخيلها في الوادي. ويعبر عن اعتقاده بأن هؤلاء الأعداء غير الغرباء سيكتفون بثمار النخيل فقط، ويتركون تلك المزارع من دون ري، ويلاحظ داوتي أن طعم لبّ طلع النخيل في هذه الفترة لذيذ جداً يُحبّه العرب كلهم، ويأكله الأطفال بشره.

يذكر داوتي الأخبار المؤلمة التي جاءت إلى عنيزة من الشمال، والتي اهتزت لها البلدة كلها، ومفادها أنه قد نزل على عرب مطير - وهم عرب "صدوق" لعنيزة ينزلون على مسافة مسيرة أربعة أيام منها - "غزو" من قبيلة قحطان، أعدائهم الرئيسيين، تقاتلا على المراعي. ويبدي اعتقاده أن البدو عادة ما يحاربون حتى الموت، مستميتين دفاعاً عن مزارعهم ومياههم. ويروي أن قحطان قد أغارت على مطير على حين غرّة، وكانوا يفوقونهم عدداً، فقتلت قحطان نفراً من مطير، ونجا الباقون هاربين بجلودهم، تاركين حيواناتهم الثقيلة الحركة، وخيامهم ومتاعهم في أيدي الأعداء الذين - في ما يرى داوتي - لم يراعوا تعاليم دينهم، فأعملوا الحراب في النساء وجردوهنّ مما عليهنّ من ثياب . وكان من بين قتلى مطير أيضاً شيخ رئيس تعرفه عنيزة تماماً، وواصلت مطير انسحابها حتى وصلت إلى عنيزة، "وهنا وجد شيوخها أن أهل هذه المدينة يشاركونهم الرأي في وجوب تخليص هذه الديار تماماً من ذلك الوباء المشترك المتمثل في قحطان".

يشير داوتي إلى أن مطير من القبائل الأصيلة التي تنحدر من عدنان، ويُعدّون في قيس من أنمار، وقد ولد ربيعة - أخو أنمار - وائل جد قبيلة عنزة، ويستطرد فيذكر أن مطير يشار إليهم بـ"أهل قبلي"، وأن موطنهم الحرّة الكبرى بين الحرمين، وأن قراهم القديمة على الدرب الشرقي (درب الحجّ) شرقي مكة، ولكنهم أصبحوا يُعدّون بعدئذ - جزئياً - من أهل الشمال، لأنهم يسيرون في كل صيف شمالاً وراء الكلأ ويسيحون في التيه الشمالي، حتى إن حدود مسيراتهم تصل في مداها الكويت والبصرة تقريباً، وكذلك إلى شمال منطقة شمّر الشمالية. ويشير إلى أن عرب مطير غير تابعين لابن رشيد، ولكنهم أصدقاء له، وأن لهم في هذا القصيم في هذه الفترة أكثر من مئتي بيت، ويضيف: إن هؤلاء العرب يفدون إلى عنيزة سنوياً، وإن زامل يحتفي بشيوخهم، ويتحف شيخهم الرئيس بحمل أو اثنين من التمر، حتى تمرّ قوافل عنيزة بديارهم من دون مضايقات.

يذكر هذا الرحالة أن من القبائل البدوية الأخرى التي تفد إلى عنيزة قبيلة عتيبة، وأنهم مثل مطير، ليسوا من أصدقاء بريدة، ويضيف أن ديار عتيبة تزيد عن مئة فرسخ، وهي في منطقة إلى الشمال من القصيم، وتمتد حتى أرض مكة. وتراهم يفاخرون بأنهم أصدقاء قدامى لأشراف مكة، خاصة أنهم يعمرون المنطقة الفاصلة بين ديار الوهابيين والحرم، وأن ديارهم تزخر بأطيب المراعي الصحراوية. ويرى أن عتيبة تُعدّ إحدى القبائل البدوية الكبرى، فهي

تضمّ حوالى ستة آلاف نفس، بينما تضمّ قبائل مطير نحو خمسة آلاف نسمة. وتتميز عتيبة بأنها أكثر ثباتاً من كثير من القبائل البدوية، وهم حلفاء – كما يقال – في كل حالة من السرّاء والضرّاء لعبد الله بن سعود.

يعود داوتي ليحكي سيرة زامل الذي يراه رجلاً محباً للسلم وللهدوء، ففيهما – كما يرى هذا الرجل – ازدهار للإنسانية وتمكين لعبادة الله في أرضه. ولكن إذا لم يكن بدّ من الحرب، فإن أهل عنيزة يثقون بالقرار الذي يتخذه زامل. ويضيف داوتي أن زامل عيّن ركباً من مئتي رجل على إبلهم، وجعلهم في فرقتين، وأرسلهم في مهمة تمشيط النفود، وجعل إمارة ذلك الركب في يحيى، ابن الأمير علي، وهو فتى قوي، ولكنه مثل أبيه "يتقيّد بالمبادئ الوهابية حرفياً".

يحكي داوتي عن قحطاني جاء يتزود من سوق عنيزة، فتكالب عليه المارة حين فضحت لهجته هويته، فأمسكوه بذلوله، وجر بعضهم سرج دابته. ويلاحظ داوتي أن العربي من عادته – حين يجد أنه قد أحيط به – ألا يقاوم خشية أن يقع في خطر. تعالى صراخ ذلك الجمع: "هلم معنا إلى زامل". فأجاب الرجل: "حسناً سأذهب معكم". وأنزل المتجمهرون السلع عن بعير القحطاني وعقلوه، بينما كان الباعة من أصحاب الحوانيت يراقبون – بروح متحضرة – هذه المغامرة التي لم تسترع الكثير من انتباههم، وظلوا جلوساً أمام محالهم التجارية، ولم يتدخلوا في ما يدور. ويروي أن زامل لم يكن قد أعلن بعد أن قحطان أعداء لعنيزة، ولم تكن هناك تهمة موجهة إلى شخص هذا البدوي، فأمر هذا الأمير العادل بفك وثاقه، وتركه يمضي إلى حال سبيله.

يشير داوتي إلى عدم وجود سجون في عنيزة، ولهذا تراهم يشدون المتهم بجريمة ما بوثاق حتى يحين موعد جلسة الأمير ليحاكمه. وفي هذا الصدد ذكر الخنيني لداوتي أنه لا يتذكر طيلة حياته وقوع جريمة كبرى في عنيزة، إلا مرّة واحدة وذلك قبل خمسة عشر عاماً.

كانت رسالة زامل التي أرسلها مع الركب إلى شيوخ قحطان في الصحراء أن يردوا كل ما سلبه أتباعهم من مطير، وبذلك فقط يمكنهم أن يعودوا إلى سابق صداقتهم معه، أما إذا رفضوا فإنه سيعتبرهم في عداد الأعداء.

جلسة سياسية في عنيزة

يرى داوتي أن البسام معجب بالإنجليز أكثر من غيرهم من الأمم الأجنبية الأخرى، ويروي أنه قال له ذات مرّة: "إنه (من الله) أن حكامنا وشعبنا من محالفي السلطان". وقد استبان لهذا الرحالة أن محدثه يعرف أسماء الوزراء العظام مثل بالمرستون ودزرائيلي. ويشير إلى أن البسام

يدين سوء الحكم العثماني وفساده، ويحتجّ على ذلك بأن الوزير الأعظم قد لا يستقر في منصبه في إستانبول أكثر من ثلاثة أشهر، وسأله: "لكن كم هي المدة التي يحتفظ بها الإنجليز بوزرائهم؟"، فأجابه بأن "البعض منهم يستمر في منصبه عدّة أعوام"، فردد الرجل "عفارم عفارم ممتاز ممتاز إنجليز". ويدّعي داوتي أنه وجد في الخنيني أيضاً كراهية للعثمانيين تعادل كراهية الأوروبيين لهم، وقد كان ذلك الرجل يكره حتى مفاهيمهم. قال داوتي للخنيني: "لقد وجدت فيهم تفاهماً رغم جهلهم، كما وجدت في أحاديثهم روحاً وثّابة تفيض بالحكمة الإنسانية"، فاعترض الخنيني على ذلك قائلاً: "لقد تعرفت إلى الكثير من هؤلاء الحكام الأتراك في البصرة. هل تصدق أن آخر من قابلت منهم لم يسمع بقناة السويس؟"، ولهذا تجدني أتساءل كيف يمكن لمسؤول يعيش في مثل هذا الظلام العقلي أن يرعى مصالح الناس في الأرض التي أرسل لحكمها؟ وأضاف:

لقد وجدت بعض الباشوات يتميزون بمعرفة أوفر من المذكور، ولكن لما كانوا أجانب، فإنهم لن يعملوا في المصلحة العامة لهذه الأرض. ألم يشترِ هؤلاء الباشوات مناصبهم؟ فما المستغرب إذاً حين يُحوّلون الأموال العامة إلى مصلحتهم الخاصة؟ قد يأتي أحد الباشوات المتميزين ويعمل على إقامة بعض الأعمال، ولكن من المحتمل أيضاً أن يُقال قبل أن ينتهي من تنفيذ مشاريعه، إذ يكون هناك من تمكن من شراء المنصب، ثم نجد بعدئذ أن الباشا الخلف ربما لا يرغب في إنجاز مشاريع ارتبط تنفيذها بالباشا السلف.

خاض المجتمعون بعدئذ في مسائل العداء بين فرنسا وبروسيا، وذكر الخنيني أن ظنونه تحدثه بأن العالم سيغرق حالاً في الدماء بين بسمارك والإسكندر، وأضاف أنه رأى في البصرة أخيراً صورة للإسكندر، واصفاً شكله بأنه رجولي. وعرف داوتي في هذا المجلس بخبر الحرب بيت تركيا وروسيا التي بدأت وانتهت في هذه الفترة التي يجوب فيها سهوب شبه الجزيرة العربية. وأخبره البسام – وهو مسرور – بأن الأسطول الإنجليزي اجتاز المضائق للدفاع عن إستانبول بالرغم من رفض السلطان لذلك الأمر.

المماطلة بأداء الدين

يدّعي داوتي أن أدويته نالت في عنيزة سمعة طيبة، وقد شفيت – لحسن الحظ – والدة الخنيني التي كانت أثيرة لديه شأن سائر العرب، فهم يُحبّون أمهاتهم، فراح هذا الرجل يُضخّم في مجالس أصدقائه ومعارفه مفعول الدواء. وأضاف ذلك الرجل الطيب أن ذلك الدواء لم يكلّفه كثيراً، بالرغم من أنه – كما يقال – قاسم خليل كل ما يملك.

يشير داوتي إلى مريض آخر عالجه بالنصيحة فقط، وذلك حين ذكر أن النجديين مشهورون

بتناول القهوة التي يحبونها أكثر من أهل الشرق الآخرين. كان أحد الموكلين بتقديم القهوة من المرضى الذين جاؤوه للعلاج، وكان عليه أن يتذوق القهوة كلما قدمها، وكان – نتيجة لذلك – يشرب حوالى ستين فنجاناً من القهوة يومياً، إضافة إلى أنه كان يدخّن الغليون حوالى ستين مرّة في اليوم أيضاً. طلب الحكيم إلى مريضه أن يخفف تدريجاً من تناول القهوة، وأن يشرب في كل أسبوع عدداً من الفناجين يقل بمعدل عشرة أكواب يومياً عن الأسبوع السابق له. وقد التزم الرجل بما أشير عليه وزاد فيه، وعبّر حين شفي بقوله: حقاً إن في النصارى لحكمة، وخليل يستطيع أن يعالج من دون دواء، إن علاجه سهل ناجع وغير مكلف.

يذكر داوتي أن القوافل تحمل إلى عنيزة سلعاً مختلفة تشمل حتى الأدوية الإنجليزية التي تفد من الهند عبر الخليج، وحدث أن وصف لمريض زيت كبد الحوت علاجاً، ووجد هذا الرجل – في اليوم نفسه – زجاجة منه في السوق. ويروي أن الاعتقاد السائد في عنيزة أن تناول زيت كبد الحوت في فترة الأشهر الحرم أمر غير مستحب، ويُشخّص داوتي مرض الرجل بإصابة البرد. فقد فوجئ يوماً وهو في النفود بهبوط الأمطار فابتلّت ملابسه وتركها بعدئذ تجف على جسده. ويضيف: إن مثل هذا المرض في الغالب يحدث من تأثير ندى الصباح، ويصيب عادة الأشخاص الذين ينامون في العراء، ولكنه غير معهود في نجد لهوائها الصحراوي الجاف.

يتهم خليل مرضى العرب، الفقراء منهم والأثرياء على السواء، بأنهم لا يدفعون للحكيم شيئاً لقاء خدمتهم، و لم يؤدوا له شيئاً من مستحقاته وحتى ثمن دوائه، "وبالرغم من أنني ساعدت في إنقاذ حياة كثير من الموسرين إلا أنهم لم يسدوا للنصراني كرماً إلا ما كان من أمر دعوتهم لي لتناول القهوة في منازلهم، اعترافاً بالجميل الذي أسديته". ويدّعي داوتي أنه كان يحسّ بالسعادة تنتابه حين يوزع دواءً على المرضى المعدمين. وبالرغم من أنه ظلّ دائما يوبّخ "هؤلاء المحتالين" من المدينين له بثمن الدواء على مماطلتهم، أصبح أخيراً راضياً عنهم جميعاً، ويدّعي أنه قد أصاب جرّاء مماطلتهم وخداعهم معرفة أكثر بطبائع سكان هذه الأرض. وكان أحد المتخلفين عن أداء الدين له يعمل مزارعاً له مزرعة وراء أسوار المدينة، فانتهز داوتي الفرصة للخروج إلى تلك المزرعة للنزهة وتحصيل دينه.

مرّ داوتي في طريقه بسور طيني متهدم لا يتجاوز ارتفاعه قامة واحدة في منطقة غير بعيدة من باب عنيزة. أخبره مرافقوه أن هذا السور هو كل ما بقي من قلعة الوهابي القديمة، وأن إبراهيم باشا حينما قاد الجيش المصري إلى عنيزة توالت على هذه القلعة مدافعه طول الليل، و لم يتبقّ منها عند الفجر إلا كومة ترابية، وأن إبراهيم باشا قد أجبر في ذلك اليوم حامية لابن سعود على الجلاء من المدينة. كذلك توجد في المكان ذاته بئر حفرت في الصخر الرملي عمقها خمسون قدماً. وذكر داوتي أن الحفارين في عنيزة يجهدون أنفسهم إجهاداً يفضي بهم إلى التلف، ويسلمهم إلى البوار، وأن الأجر الكبير الذي يلقونه يحفز العديد من الشبان الذين

هم في ميعة الصبا للعمل مع متعهدي الحفر وقاطعي الأحجار، فيموتون قبل الأوان، حتى قبل أن يبلغوا منتصف العمر. ويرد الناس ذلك إلى أنه ابتلاء من الله لهؤلاء الشباب لإسرافهم في أمورهم. ويشرح داوتي طبيعة ذلك المرض، فيرى أن الشبان يرهقون أنفسهم في قطع الأحجار، فتستقر ذرات التراب الدقيقة الحادة في رئة كل منهم، فتقطعها فتبليها، وتفعل بها ما يمكن أن يفعله بها مسحوق الزجاج، ولن تستطيع أي قوّة في الطبيعة أن تطرد تلك الذرات من الرئة مرّة أخرى. ويحكي أن شاباً لم يطرّ شاربه بعد من هؤلاء الذين يعملون في المحاجر قد زاره ذات مرّة وكان يعاني هذا المرض الذي كاد أن يفضي به إلى الموت وهو لا يكاد يستطيع المشي خطوات قليلة. فقلبه – كما يقول – ينهج، وشكا الشاب إلى الحكيم علّته قائلاً: إن صدري يتمزق. ويذكر داوتي أن الشيخ ناصر أخبره أن العاملين في المحاجر من أمثال هؤلاء الشبان يموتون في سنّ مبكرة، ولعل في هذا تأكيداً لما يراه الحكيم.

سار خليل في طريقه إلى المزرعة التي خرج يقصدها، ووجد الرجل الذي كان يقصده واقفاً عند مكان البئر، فجاء للترحيب به، وقاده إلى مقهاه في الظل بعيداً عن وهج الشمس، وجلس يعدّ له القهوة، فابتدره داوتي قائلاً إن هذه العزبة جيدة لأنه شاهد فيها نخيلاً وقمحاً وإبلاً وأكواماً كبيرة من القمح والشعير مُعدّة للدرس، "فلماذا تماطلني في أداء المبلغ الضئيل المستحق عليك ثمناً لدوائي"، فأجاب الرجل قائلاً:

إنك لا تعرف يا خليل كيف تسير الأمور. كم تمنيت من الله أن تكون كل هذه الأشياء ملكي حقيقة كما هي ملكي في ظاهر الأمر. هل ترى هذه الإبل، إنها جميعاً تخصّ فلاناً، بل إن هذا القمح كله تقريباً سيؤول إليه لقاء تسديد دينه عليّ. إننا نستدين منه كل سنة، وحين نؤدّي ديوننا لا يتبقّى لنا من المحصول إلا القليل. هذه الأرض ملك لي، ولكنها الآن تضيع من يدي، فقد أصبحت كالأجير أستثمرها للدائنين.

يستطرد داوتي فيذكر أن نسبة الربح على القرض تصل إلى ١٥٪ عن السنة حين يؤدّى المبلغ نقداً، ولكنه حين يؤدّى عيناً – وهذا ما يفعله المقترضون الفقراء – فإن نسبة الربح عن الدين تصل إلى ريال ونصف عمّا قيمته ريال من التمر أو القمح، اعتماداً على أسعار المحصول وقت الحصاد، وإن الدائنين يخزنون الحبوب والثمار حتى يتسنّى لهم بيعها في ما بعد للبدو الفقراء بأسعار باهظة. وفيما هم جلوس دخل عليهم رجل من معارفه، ولام ذلك المزارع على ظلمه للحكيم قائلاً: "يا رجل خفِ الله وأعطِ الحكيم ما يستحقه، وعليك أن تدرك أن الله فوق الجميع يراقبك وما تفعل".

يسترسل داوتي في حديثه عن ذلك المزارع، ويذكر أن له ابناً كان مقيماً في سوريا، وعمل هناك بعض الوقت في خدمة نصراني من تجار القمح في الناصرة. ويدّعي أن ذلك الابن كان يُكبر في مخدومه همته وكرمه، ويعود ليقول إنه أدرك أن التهرب من أداء الدين والتعامل بالربا

هما أسّ البلاء في البلاد العربية، وأن بعضاً من العرب يرى أن اقتراض المال "حلو" مثل الغنيمة تماماً، فيوم الحساب لا يزال بعيداً. ويشير إلى أن الفقه القرآني يحرّم التعامل بالربا، ولكن – مع ذلك – فإنه يُمارس حتى في هذه المناطق. ويخلص إلى أن التعامل بالربا يحكم حياة القرويين والبدو على السواء، وأن هؤلاء جميعهم لا يزالون يغوصون في الدين ثم يعجزون عن أداء المستحقات الواجبة الأداء سنة بعد أخرى.

يلاحظ داوتي أن المسلمين في سوريا لا يتعاملون بالربا، ولكن اليهود يلتهمون مدّخرات الناس في تلك المناطق التهاماً بالربا، ويذهب إلى اتهام "النصارى الظالمين" في سوريا، ويرى أنهم أبلغ من اليهود أثراً في أكل الربا، فهم يقرضون الأموال بنسبة ربح تصل إلى ٢٥٪، وذلك حين يجنحون إلى الرحمة في التعامل مع المقترض، وسرعان ما تسقط أرض المقترض بسهولة متناهية تحت وطأة الدين للمرابين، ويضيف أن المزارعين المسلمين يقترضون من هؤلاء النصارى، ويرهنون أرضهم لقاء سداد الدين، ثم ما تلبث مزارعهم أن تؤول لقمة سائغة إلى هؤلاء المرابين الذين يستخلصون الدين قسراً، فيضطر أولئك المزارعون بعدئذ إلى هجر قراهم والرحيل عنها بعد فقدانهم الأرض.

يرى داوتي أن أساليب الزراعة وفنونها في واحات شبه الجزيرة العربية ليست أقل جودة من مثيلاتها في غوطة دمشق، فالواحات هي الأراضي الخصبة في الصحراء، وهي – عامة – أرض منتجة حين تُروى، رغم تلك الشمس العربية الحارقة. وتُزرع قطعة الأرض ذاتها سنة تلو الأخرى بأنواع من البقول، ورغم ذلك تدرّ هذه الأرض المجهدة نتاجاً ليس بالقليل. ويذكر أن مناطق زراعة الحبوب تُخصّب بسماد طبيعي من روث الإبل في مرابدها (الدمن)، وحين تُحرث الأرض للزراعة في الخريف تُسطّح ثم تُوزع أحواضاً وتجهز بسرعة حتى تغمر مياه البئر ذلك الحقل الصغير كله. أما زراعة النخيل فتقوم على غرس الفسائل عند حافة الجداول، وتستمد ريّها من تلك الأرض المبللة كلما أُترعت تلك الجداول بالماء، مرّة أو مرّتين في كل يوم عادة.

تجارة الخيل

التقى داوتي أبا نجم، وهو من العاملين في تجارة الخيول. ويذكر أن لفظ نجم أو أبو نجم كنية يطلقونها على كل شخص اسمه عبد الله وإن لم يكن له ولد. كان أبو نجم من سماسرة تجارة الخيول التي تُصدّر إلى الأسواق الهندية. ويلاحظ داوتي أن تربية الخيول ليست من الأعمال التي تمارس في بريدة أو عنيزة، ولا في أي قصبة نجدية أخرى، ولكن يغدو السماسرة من تجار تلك المدن إلى ديار القبائل العربية يبتاعون صغار الخيل من البوادي، ويضيف أن أسعار الخيول

ليست باهظة في العادة إلا إذا كانت ممتازة حقاً. وقد وجد داوتي خيول أبي نجم القليلة، المعدة للبيع، ترعى مع خيول أخرى. كان ذلك الرجل يعلفها لحساب بعض أصدقائه في حقل نخيل في الجهة الشمالية من المدينة، وقد استرعى انتباه داوتي اثنان من صغار الخيل يأكلان معاً من حوض طيني مربع الشكل، وقد تلاصق رأساهما، وكان كل منهما مربوطاً بعصابة من رجله الخلفية إلى وتد في الأرض، أما العلف الذي يقدم لهذه الخيل فهو العشب الأخضر (جت) الذي يغذونها به منذ أن جُلبت من الصحراء في الصيف عجافاً، ولا تزال على ذلك حتى فترة هبوب الرياح الموسمية في البحار الهندية، وحينئذ يدفعها رعاة الخيل العاملون مع التجار عبر المسارات الشمالية، ويقطعون بها سبع عشرة مرحلة، تحمل لهم الإبل ماء الشراب حتى الوصول إلى الكويت، ثم يشحنونها بحراً إلى بومباي.

استرعى انتباه ذلك الرحالة في طريقه إلى مرابط الخيل وجود الكثير من بيوت النمل، فشدّ اللجام – كما يقول – إلى تلك المنطقة ليمعن النظر في ما تقوم به بعض النساء المعوزات اللائي كن يجلسن بالقرب منها. وراعه أن يراهنّ وهنّ ينهبن محتويات مستعمرات النمل الجبلية من الجريش لتستقر في غرابيلهن، لتظفر كل زوجة صغيرة بعد ذلك بحفنات من سقط السنابل تضعها على منديلها المبسوط أمامها، وتعود به إلى أهلها.

يذكر داوتي أن التجار يشترون خيول الصحراء الصغيرة في فترة الشتاء عادة ويتركونها حتى موسم الإبحار إلى الهند لتكتسي لحماً، وتكتسب قوّة بعلف الواحة الريان، ثم ترسل بعد ذلك إلى مراعي الهند المخضرّة. وفي الهند – كما يرى داوتي – يختلط جهل المشترين الأجانب بالإطراء الذي تلقاه خيول النجديين والعرب الآخرين في بومباي، فينتج عنه تباين وهمي – بين خيول عنيزة وخيول نجد، ولكن ليس ثمة تباين ولا اختلاف في الحقيقة. ويشير إلى عدم وجود أعداد كبيرة من الخيول في المناطق العربية القريبة من عنيزة، ما يجعل العرب يسعون إلى شرائها من مناطق بعيدة. ويشرح الفرق بين ما يُسمى خيول عنيزة، وهي التي تفد من القصيم "عنيزة وبريدة" وخيول نجد التي تُدفع إلى بومباي من ديار ابن رشيد. وقد علم داوتي – حين كان في بريدة – أن بعض المتعاملين في تجارة الخيل فيها خرجوا قبل بضعة أيام من وصوله إليها لشراء الخيل من البادية، ورجّح أن تكون تجارة عنيزة للخيل أوسع من تجارة بريدة، ويفسر ذلك بأن بريدة ليست إلا مدينة ودويلة عربية صغيرة لا يحكم أميرها إلا في بعض القرى المجاورة، وأن كلمتها غير واجبة النفاذ في الصحراء، ويشير إلى أن الخبرا "التي تضم حوالى ستمئة منزل، قرية تابعة لبريدة، وأن العديد من سكانها كان يعمل سابقاً عقيلياً في المدينة المنورة، ولكنهم هجروا أخيراً الخدمة العسكرية مع الأتراك بعد أن أصبحت الرواتب لا تُؤدّى إليهم في أوقاتها. ويذكر أن قرية الخبرا لا تتمتع بحصانة طبيعية، وأنها كانت تحاط في الماضي بسور طيني.

الحرفيّون

يضم الحرفيون في عنيزة – كما يلاحظ داوتي – صانعي الأسلحة والسمكرية، وصاغة الفضة والذهب وكذلك النجارين العاملين في صناعة الآنية الخشبية وأقفال الأبواب، وصانعي سروج الإبل، وعجلات متح المياه من الآبار، والمعدات الخشبية الأخرى، كما يضمّون الحجارين الذين يعملون في المحاجر وحافري الآبار، وصانعي أجران القهوة، وغيرهم من بنّاءين ومجصصين، ومنهم أيضاً الخياطون والمطرزون، والسكّافون. ويلاحظ داوتي أن العاملين بالإبرة – من الجنسين ممن تعرّف إليهم – يرجعون إلى أصول وضيعة، كما لاحظ أن صاغة الذهب والفضة فنانون يعملون في التطريز أيضاً، وأن بعض هؤلاء قد استقرّوا في مكّة المكرّمة، ويُقال إنهم برّزوا الآخرين هناك في هذا المجال.

يلاحظ داوتي أن الأحياء البعيدة من المدينة تضمّ حوانيت عامة تعمل النساء في بعضها، يتعاملن في بيع البصل والبيض والخبز والملح والمسامير والكبريت، كما أن بعض النساء الفقيرات قد يبعن اللبن إذا توافر لديهن شيء منه، ويلاحظ أيضاً أن بعض النساء المحجبات يبعن في ساحات المجلس في أيام الجمع الفراخ والزقاق المدبوغة الجاهزة للاستعمال، أما الأثرياء من أهل عنيزة فهم المتعاملون في الزراعة وفي تجارة الإبل والخيول. ويشير إلى أن أثرياء المدينة هم من مُلّاك الضياع، ويعتقد أن عدد العاملين البارزين في التجارة الخارجية في عنيزة بلغ نحو خمسة عشر شخصاً. يضم تشكيل الباعة في عنيزة بائعي الملابس والأقمشة، والسلع الصغيرة مثل الأدوية الخام وأدوية الإبل، وسكر النبات، والبهار، والصابون السوري الذي يأتي إلى عنيزة عن طريق المدينة المنورة، والبن الذي تأتي به القوافل العائدة من مكة المكرّمة، ويضمّ هذا التشكيل أيضاً باعة المواد الغذائية.

عنيزي في أوروبا وآخر في قناة السويس

يذكر داوتي عن صالح الذي يتمتع بجسم فلاح فارع، أن الناس في عنيزة حين يتحدثون عنه في غيبته يصفونه بأنه "بطال بن بطال" وكان في نظر هذا الرحالة مفعم القلب محدود التفكير، إلا أنه ظلّ يرى في نفسه ما لا يراه الآخرون. قال صالح لخليل ذات مساء إنه سافر إلى أوروبا وجاب بلاد النصارى الرائعة في رحلة كلفته سبعمئة ليرة (خمسمئة وستين إسترلينياً) وأضاف أنه أبحر من البصرة إلى إستانبول بعد مروره بجزيرة لا يذكر اسمها، ووصل بعدئذ إلى لندن، ثم زار باريس وفيينا وإيطاليا، وهي مدن النصارى الكبرى. ويقول صالح:

وظللنا هناك نتجول عدّة أشهر، وقضينا شهر صيف في لندن، وقد كانت رائعة جداً، كما

قضينا شهراً في باريس وهي مدينة جميلة جداً، وكان الناس يحملقون بدهشة في ملابسنا الشرقية، ولهذا فقد عمدنا إلى أن نلبس كالأوروبيين بزيادة طاقية رأس (الطربوش) وسأله: من كان رفيقك في تلك الرحلة؟ فأجاب: يوسف الخالدي.

يذكر داوتي أنه كان في فيينا عندما كان الخالدي هناك، وقد راعه وجود "أجنبيين من بني سام" يجولان في المناطق العامة بطاقيتيهما الحمراوين، وكان اسماهما معروفين لديه، وقد زار هذان الرجلان المستشرق فون كريمر الذي كتب له بعدئذ عنهما. ولما واجه هذا الرحالة صالح بالحقيقة، اعترف بأن أخاه علي – التاجر وصاحب الأطيان في مدينة البصرة، والذي تفوق مساحة أرض نخيله هناك عنيزة بأسرها – كان رفيق الخالدي. كان علي قد ترك أخاه صالح في فترة غيابه في البصرة ليتولّى إدارة أعماله ريثما يعود. وقد سمع داوتي في عنيزة أن علي أرسل إلى عنيزة ذات مرّة "أجنبياً كافراً" من الشمال – لا يعرفون إن كان يهودياً أو نصرانياً – لإقامة "طلمبة" لضخّ المياه توفيراً للنفقات التي يتطلبها الري بالإبل. ولكن قبل أن يفرغ من عمله "نفد صبر الوهابيين القليل" وطردوا الميكانيكي الذي لم يكن على دينهم.

يستطرد داوتي ويروي سيرة علي الذي كان والده قصاباً يحمل لحوم الضأن والإبل على رأسه، يروح بها من منزل إلى آخر. وتحول الرجل بعد ذلك إلى تاجر يبيع الملابس وأخمرة النساء، وسرعان ما أصبح يشار إليه بالبنان، وكان في عنيزة لغط بشأن الثروة التي أصابها الرجل. فمن قائل إنه حين كان في طريقه مع قافلة الحاج عائداً من مكة المكرّمة وجد كنزاً، إلى آخرين يقولون إنها بركات من الله يهب الثروة من يشاء ويحرم منها من يشاء، ازدادت ثروة الرجل، وبدأ يجري تجارته مع الشمال حتى أصبح أحد كبار تجار الساحل. ويشير داوتي إلى أن عمله أصبح مقصوراً على البصرة، وأن له أبناءً يعملون بالتجارة أيضاً في الزبير وفي العمارة وفي الكويت، وله ابن آخر يعمل تاجراً في عدن، كما يعمل ابن صهره تاجراً في وادٍ في منطقة بيشة، وقد سمع داوتي أن علي الذي غدا عجوزاً سيصل إلى عنيزة في القافلة المنتظرِ وصولها.

تعرّف خليل إلى إبراهيم كذلك، وهو أحد النجديين "الشروق" من الذين ذهبوا قبل عدّة سنوات للعمل في حفر قناة السويس، وقابل في منطقة القناة جنسيات متعددة من النصارى، من الفرنسيين والإيطاليين والإغريق، وقد كان يظن أولاً أنهم جميعاً يتحدثون لغة واحدة. ويروي داوتي أن إبراهيم انتظم في خدمة امرأة إفرنجية مسترجلة تضع المسدسات في حزامها وتراقب العاملين التابعين لها بحذق. وعلق إبراهيم بأنه قد اختلطت في ذلك التجمع بلبلة ألسن الأمم، وقد ضمّ كل لون وجنس أمة، وكل شخص رمت به ظروفه القاسية أو أفضى به حظه العاثر في دوامة التيارات المتضاربة المشوشة.

يدّعي داوتي أن إبراهيم قال له إن له في ذلك التجمع ذكريات سعيدة، وحكى عن صداقته لبعض النصارى. وقد حدث ذات مرّة أن دعاه أصدقاؤه وبعض جيرانه من النصارى ليشرب

معهم خمراً في "عشتهم"، ولكنه اعتذر، فاستبدلوا بتلك الدعوة عشاءً جُهّز بكرم سخي. ويروي داوتي أن إبراهيم عاد بعد رحلة عمل دامت اثني عشر شهراً بتلوّث معنوي، وغدا بعد عودته – إنسانياً – أفقر حالاً، ولكنه أصبح – مادياً – أغنى بمئة أو مئتي ريال مما كان عليه حين هاجر. وبالرغم من أنه لم يكن معوزاً أو محتاجاً في بلدته التي رحل عنها، قطع سبعمئة ميل ليعمل حفّاراً في قناة السويس مدفوعاً بالفقر الطبيعي في واحات شبه الجزيرة العربية. ويروي داوتي أن عقول كثير من هؤلاء العرب قد أفعمت بذكريات قناة السويس، وكانوا كثيراً ما يسألون: "ألا يمكن أن تُشقّ قناة في نجد؟". وهم يعتقدون أن مثل هذا العمل سيكون في مصلحة بلادهم.

حكايات الشقراوي وقصص أخرى

صادف داوتي من "العيال" الذين يعملون في المزارع شاباً وفد من شقرا. ورغم أنه كان كادحاً يكسب بعرقه وكدّ يده، كان يضم بين جنبيه روحاً طيبة، ويتمتع بإنسانية تبدو دفاقة في جلسات المجموعات بعد الظهر وهو يحكي لنا قصصاً، ويختلج متلوياً وهو يقطع حديثه تقطيعاً ليسبغ حيوية على كلماته، تماماً مثلما يفعل الساحر حين يستعرض سحره أمام الآخرين فيملك ناصية قيادهم. وكان لهذا الرجل صوت طيب مؤثر، ينساب كالموسيقى في آذاننا فيمتعنا، ويدغدغ مشاعرنا، ولا يطلب مثل هذا الرجل من مستمعيه حين يروي لهم قصصه أكثر من ذلك.

وكانت الروايات التي يرويها للمجموعة شبيهة بتلك التي سمعها خليل في خيبر، كما كان يتحفهم أحياناً بقصص لإثبات الحكم المستفادة من الأمثال، فالحكمة من المثل القائل إن على العاقل ألا يبوح لآخر باسمه حين يكون في منطقة أجنبية تكمن – حسب رأيه – في القصة الآتية: حدث ذات مرّة أن كان الحجيج في منى، وتعالى صوت وسط همهمة الحجيج الخافتة يسأل: هل أجد هنا المدعو إبراهيم الصالح من أهل الرس؟ وصودف أن كان في الجمع رجل من أهل الرس في القصيم يحمل ذلك الاسم فأجاب النداء. فتقدم منه ذلك المنادي وأعمل فيه السيف فوراً وأرداه قتيلاً، فقد كان يطلب ثأراً؟ ولكن تبين بعدئذ أن هذا البدوي القصيمي قد قُتل خطأً، إذ إن القاتل كان يطلب رجلاً آخر من أهل رس اليمن، ولهذا يندر في حياة الصحراء أن يسمي سكانها للأجنبي "روحه".

كان فيما يرويه الشقراوي من قصص شيء يثير التفكير ويحقق للباحث في مجال التاريخ فوائد أبلغ من الفائدة التي نقلها عنه داوتي. فهناك قصة "النهاية الختامية للوهابي"، تلك القصة التي يقول خليل إنها لا تزال مجهولة في أوروبا. فعندما توفي فيصل، ذلك الرجل المسن

الأعمى، تولى الحكم في الرياض عبد الله، أكبر بنيه. وكان سعود - الابن الأصغر - ذا نفس تواقة وطموح كبير، فانسحب إلى اليمن وهناك حشد جمعاً من وادي بيشة، ووادي الدواسر، ومن مضارب البدو أيضاً، حارب بهم أخاه، وأطاح حكومته، وأضحى عبد الله لاجئاً في أرض ابن رشيد، بينما تولّى سعود زمام الحكم. وكان على سعود أن يضرب قبيلة عتيبة، لأنهم كانوا متحالفين مع عبد الله. خرج سعود مع حلفائه العجمان، وعرب الدواسر، وآل مرّة وقحطان ومطير، في إثر عتيبة. وكان لكل قبيلة من هذه القبائل بيرق خصّصه لها سعود، وكان عرب عتيبة في تجوالهم متفرقين عبر الصحراء المترامية. وترامت الأخبار إلى الرياض عن وجود معسكر صيفي كبير للعتبان عند ماء معين، وانطلق سعود من الرياض مسرعاً إلى تلك المنطقة حتى يباغتها بحشوده قبل أن تبلغ نازليها أخبارهم. وعند صلاة العصر كان على مرأى من مضاربهم، ولكن البدو كانوا مستعدين لمجابهتهم بأسلحتهم. وأحجم سعود فلم يهاجم، فرجاله ودوابه كانوا منهوكي القوى من طول المسير وتواصله، فانسحب الوهابيون من الموقع قبل الغروب وعسكروا في مكان آخر لقضاء الليل.

صودف أن كان هذا الشقراوي في هذا الوقت في أحد منازل عتيبة مع زميل له آخر يبيعان الأقمشة. وحين صلى عرب عتيبة الفجر، عيّن شيخهم بعض الرجال لحراسة مؤخرة مضاربهم. وخاطب أحد الشيوخ هذين البائعين الصغيرين، الشقراوي وزميله، قائلاً:

"ابقيا في مكانكما حيث أنتما "يا أولاد" واهتمّا بأمر نفسيكما، وسيكون ما قدّره الله".

انبرت قبيلة عتيبة تستعد لملاقاة العدو المتقدم نحوها، والذي عدده ستة أمثال عدد هؤلاء العتبان الذين استطاعوا في الهجمة الأولى أن يردّوا مطير ويستولوا على بيرقها، ثم ماذا كان بعد ذلك؟ لقد انقضّت قحطان - الذين هم من أفضل من يحمل السلاح بين البدو تقريباً - على صفوف أصدقائهم من حلفائهم وانقلبوا عليهم، وقضوا على فرسان ابن سعود، واستولوا على مئتي فرس تمثل في مجملها كافة خيول الوهابي تقريباً! وانبرى "أولئك الزنابير القحطانيون" بعدئذ يحاربون مطير أيضاً، ولم يتذكر البدو في معسكر سعود بعد ذلك سوى عداوتهم القديمة، وراحوا يتقاتلون في ذلك المعسكر الذي كان متّحداً. وانسحبت قحطان بعد ذلك إلى ديارها تاركة عتيبة سيدة الموقف. وسقط من رجال سعود ثلاثمئة رجل، وأصبحت خيامه القليلة وما تضمّه تحت رحمة عتيبة، وهكذا تراجع "ذلك الذئب الوهابي" كما ينبغي عبر الصحراء إلى الرياض. وبفقد الوهابي هذه الخيول، فإن الحكم الوهابي الذي استمر مئة عام قد دخل طور الاحتضار، ولكنه لا يزال قابعاً في الرياض في انتظار لحظة الموت، ولن تقوم لابن سعود - كما يعتقد أهل نجد - بعدئذ قائمة أخرى.

يستطرد داوتي ويعرض تاريخ بداية الدعوة الوهابية فيقول: حمل محمد بن عبد الوهاب - وهو من الشيوخ الفقهاء من ساكني الدرعية في شرق نجد - راية الإصلاح الوهابي، وهو ينتمي

إلى بني تميم، ولكن هناك من ينسبه كذلك إلى عنزة. كسب هذا الشيخ بدعوته الأصولية سعود بن عبد العزيز، أمير تلك البلدة (الدرعية)، ومن هنا أخذت القوّة الوهابية تنمو شيئاً فشيئاً وتتسع حتى شملت أرجاء نجد كافة، وذلك في السنوات الأولى من هذا القرن، ثم احتلت هذه القوّة الحجاز بعدئذ بنجاح. وقام محمد علي، حاكم مصر الألباني، بأسطول وبجيش، نائباً عن السلطان، لتخليص الحرمين من الوهابيين. وراح هذا الرحالة يتابع بسرده خطوات إبراهيم باشا وهو يسير وسط شبه الجزيرة العربية حتى وصل عنيزة التي فارقها إلى الدرعية وخرّبها. و لم تعمر تلك المدينة بعدئذ، إذ أسّس الوهابيون – بعد أن قامت دولتهم مرّة أخرى – الرياض، تلك المدينة الطينية. وعندما استفاق الوهابيون من أثر الحملة المصرية، عملوا بجد حتى دانت لهم نجد كلها مرّة أخرى، ودخلت الصحراء العربية حتى حدود اليمن في حوزتهم، بينما راحت المدن الساحلية في الخليج تؤدي إليهم الزكاة مرّة أخرى، ولكنهم لم يقربوا الحجاز هذه المرّة. وهنالك شائعة لا تُصّدق، فحواها أن الأتراك قد تنازلوا عن مقاطعة الأحساء التي يحتلونها في الخليج للوهابيين، وذلك لقاء مبلغ معين من المال يؤدّونه. علّم الحكام الوهابيون البدو الصلاة، ونشروا الأمن في الصحراء، وحذّروا القرى من الانقسام والتحزب، وعلّموا الناس القراءة أيضاً. ومع كل هذا، فإن لقب وهابي يعتبر سبّة في عنيزة، ويطلقه "العيال" في هذه المزرعة على كل خبّ ضيق الصدر في أوساطهم.

لم يتبقّ للوهابيين بعد انقسامهم بين عبد الله وأخيه سعود أرض يحكمونها سوى الرياض ونجوعها والقرى التي حولها. فقد أضحت الرياض بعدئذ إمارة صغيرة ضعيفة، شأنها في ذلك شأن إمارة بريدة، وهكذا همدت تلك المدينة العظيمة التي كانت في هذه الفترة الأخيرة قصبة مناطق شبه الجزيرة العربية العليا (نجد) بأكملها، كما غدت قاعة الضيوف الكبيرة في الرياض مهجورة، و لم يعد يغشاها في هذه الفترة طارق. وقد هجر أتباع ابن سعود هذا الرجل وتركوه ينعى حظه العاثر وذهبوا ليعملوا في خدمة محمد بن رشيد، حتى لم يبقَ من البدو حالياً من يوالي الوهابي. أما القرى الكبيرة في شرق نجد فقد ردّت محصّلي الزكاة التابعين لعبد الله، رغم أن الجميع كانوا لا يزالون مرتبطين ارتباطاً تاماً بالدعوة الوهابية. وتفيد الأخبار أيضاً بأن عبد الله أصبح في هذه الفترة الأخيرة بديناً مترهّلاً واكتسى شحماً ولحماً.

يستطرد داوتي فيقول إنه لم يُقدّر لسعود أن يعيش طويلاً، فقد ظلّ "هذا الوهابي المتعصب" يحكم الرياض سنتين ثم توفي – كما يقال – بعلّة قديمة. ويعتقد الكثير من الناس أن سعود لم يكن رجلاً طيباً، بل كان ميّالاً إلى النهب والسلب، أما عبد الله فإنه – حين حظي بردّ كرامته بوفاة أخيه، وآل إليه الحكم مرّة أخرى – ترك أبناء سعود الصغار و لم يمسّهم بأذى، بل إنه سمح لهم بأن يسكنوا الرياض، ولكني سمعت أنهم قد ثاروا عليه، و لم تمضِ سنة واحدة تقريباً من تصالحهم.

يأخذ خليل – بعد ذلك – في سرد أخبار الحروب التي خاضتها عنيزة أخيراً، وذلك مما رواه له بعض أصدقائه، فيذكر أن جلوي، أخا فيصل بن سعود، الذي قيل "إنه لا يزال حيّاً"، كان هو الحاكم الوهابي المعين في عنيزة، وكان يرهق الناس بما يأخذه منهم يومياً، فمرّة كان يطلب منهم تمراً، وتارة علفاً لخيوله من دون أن يؤدي إليهم من ماله الوفير شيئاً. وكانت تلك المواد تؤدى كمساهمات إضافية تحصّل جنباً إلى جنب مع الزكاة السنوية. ويروي أن أعيان عنيزة عقدوا اجتماعاً سرياً تداولوا فيه هذا الأمر، ثم أكدوا تصميمهم على طرد جلوي ليعيشوا بمعزل عن السعوديين تحت راية أمير من أمرائهم. وتدارس أولئك الشيوخ في مجلسهم أمر القائد الذي سيقود المدينة لتنفيذ خطتها المزمعة. وخشي البسام أن يكون ذلك الرجل من أفراد أسرته، لأن ذلك من شأنه أن يشجع ابن سعود ويحفّزه على شنّ حرب على البلدة لمصادرة أموال البسام. وانبرى يحيى فخاطب المجتمعين قائلاً: إنني لا أملك إلا القليل، ويمكن أن أخوض غمار هذه المغامرة، ولكني أطلب إليكم أن تمدوني بخمسين سيفاً "لفتياني الفقراء". ويضيف داوتي أن العرب يتميزون بسرعة التنفيذ، فسرعان ما ظهرت الأسلحة التي جاب بها المواطنون الطرقات علناً، ووضعوها أمام يحيى الذي كان يجلس مع فتيانه، ونادى في الجمع قائلاً: "على كل من يريد أن ينضم إلينا لتحرير عنيزة أن يحضر بسلاحه".

قاد هذا الشيخ الجموع إلى بيت الحاكم، وراح يطرق بابه بعنف. وجاء من الداخل صوت عبد من العبيد "من الطارق؟"، فأجاب الشيخ: "اذهب وأبلغ سيدك أن يحيى وصل مع رجاله وهو يطلب إليك أن تجلو عن هذه المدينة وتغادرها فوراً". وهنا ابتدره صوت جلوي من الداخل "ولكن كيف يتيسر ذلك يا صديقي؟ فاليوم يوم جمعة وقد أوشك ظهرها أن يحين، نؤدي الصلاة جماعة ثم نفارقكم بعدها"، فأجاب يحيى: "لكني أقسمت بالله ما إن يحن وقت الأذان إلا وتكون أنت خارج أسوار عنيزة يا جلوي". وهنا سأل جلوي: هل يمكن أن تمدني بأربعين ذلولاً فأجاب يحيى: "نعم لك ذلك". كانت في عنيزة إبل كثيرة لبعض الأهالي يعقلونها في ساحات منازلهم، فجُلبت الإبل المطلوبة إلى بوابة جلوي، فحزم الحاكم وحريمه وخدمه أمتعتهم على عجل، ثم ركبوا وساروا إلى بريدة. وبدا ذلك الجمع بأحماله كأنه قد تزوّد الماء بكميات وفيرة لقطع تلك المسافة القصيرة بين البلدتين، وذلك بالنظر إلى تلك الزقاق السود التي كانت تتدلى على جانبي رحال الإبل، ولكن تلك الزقاق كانت في الحقيقة مترعة بالسمن، "وهل يمكن أن يترك العربي خلفه سمنه أو ماله؟".

خرج فيصل من الرياض ليستعيد عنيزة، تلك المدينة التي تمرّدت على جلوي، وجاء تابعه ابن رشيد من جبل شمّر لمناصرته، وعسكرت تلك الجموع المحاصرة للمدينة على جانبي الوادي مدّة سنة كاملة، ولما لم يؤثر الحصار في قصبة عنيزة، عقد الوهابي السلم مع مواطنيها وتراجع عنهم. وتُسمى هذه الحرب التي وقعت في ١٢٦٩ – ١٢٧٠هـ، أي قبل وصول داوتي

إلى عنيزة بخمس وعشرين سنة، "حرب الأول". وكان أمير عنيزة وقتئذ عبد الله بن يحيى بن سليم، ثم وقعت الحرب الثانية مع الوهابي بعد ذلك بثماني سنوات. ففي عام ١٢٧٨هـ لجأ عبد الله آل عزين آل محمد، الذي كان يناصب الوهابيين العداء، بعد هزيمته إلى عنيزة، ولكنه لم يكن يظنّ نفسه في مأمن في هذه البلدة، فأعدّ عدّته وخرج ملتجئاً إلى شريف مكة. وأرسل ابن سعود وراءه رجالاً يتعقبونه في الصحراء، فأدركوه في حراسة مجموعة من رجال عنيزة وقتلوه. ووصلت هذه الأخبار إلى عنيزة، فأرسل شيوخها ركباناً مسلحين دهموا أتباع ابن سعود في النفود وقاتلوهم وهم يصيحون: كيف تقتلون جيش عنيزة؟ وكان عبد الله بن يحيى في هذه الأثناء لا يزال أميراً على عنيزة، ولكنه كان قد عيّن زامل، ابن أخيه، أميراً تنفيذياً.

كان "هذا العمل النبيل" الذي قام به رجال هذه المدينة مدعاة لأن يجرّ عليهم الوهابي الحرب مرّة أخرى. وجاء محمد بن رشيد والمطاوعة لحصار عنيزة، واجتمعت معهم على عنيزة "كل شبه الجزيرة العربية" التي هي بالتحديد كل حواضر شرق نجد وبدوها، وآخرون من الأحساء وعمان، وكذلك مهنا تتبعه بريدة وكل قرى القصيم، إضافة إلى الأمير طلال وعبيد بن رشيد وكل ساكني الواحات، والبدو التابعين لابن رشيد في هذه المنطقة الممتدة حتى الجوف. ووقف ذلك الحشد المسلح فوق رمل النفود في مواجهة هذه المدينة الطينية التي ربما لم تكن تضمّ حينئذ أكثر من ألف مواطن من القادرين على حمل السلاح. وفي المعسكر المقابل، فإن الجماعات الوافدة لمناصرة الوهابيين من عمان والأحساء لم تكن تبعيّتها إلا واهية، كما أن "القصمان" لم يكونوا حريصين على حرب أبناء منطقتهم، ولم يكن المواطنون في عنيزة – رغم الحصار – وجلين ولا هيّابين، وراح المزارعون في هذه البلدة يمارسون زراعتهم داخل أسوار مدينتهم المترامية بهدوء غير عابئين.

سأل داوتي: "لماذا إذاً لم يدكّ العدو أسوار مدينتكم بالمدافع؟". وكانت الإجابة بأن أولئك المهاجمين كانوا يخشون مدافعهم أكثر مما يخشاها المحاصرون، إذ لم يكونوا يعرفون طريقة تشغيلها، وذكروا له أن طلقة واحدة فقط من طلقات هذه المدافع سقطت في منطقة خالية ولم تحدث فيها أي ضرر. ويؤكد داوتي ذلك القول، إذ يذكر أنه رأى دانة مدفع قديمة في منطقة من المدينة قيل إنها للوهابي، ويعتقد أنه يمكن مطارق الحدادين العرب أن تصنع مثل تلك الدانات الحديدية المستديرة.

قصّ أحد الذين يعملون في سياقة إبل الري لداوتي قصة ذلك النزال العظيم ومقارعة الأسلحة فقال: في إحدى الليالي أرسل زامل مئتي مسلح ليكمنوا عند عين في الوادي بالقرب من العيارية، وقال زامل لرجاله: "لا تخشوا بأساً، لأني سأكون قريباً منكم لمساندتكم". وقبل مطلع الفجر جاء السقاة الوهابيون فأرسل عليهم رجال عنيزة وابلاً من الطلقات بلغ دويّها معسكر العدو، فأرسلوا عليهم خيالة نجد، فلقي اثنان من هؤلاء الخيالة حتفهما، وتنحّى

الآخرون منهزمين. وعندما أسفر النهار، جاء عبد الله اليحيى مع فتيانه، وظهر من التجمع الوهابي جمع مسلح فنادى اليحيى: "عليهم يا فتيان". وانبرت جماعات عنيزة يؤازر بعضها بعضاً مطلقين نيرانهم تجاه العدو. وتراجع العدو، ووقع البيرق الوهابي في أيدي أهل عنيزة الذين وصلوا مسرعين إلى معسكر الوهابيين وسيطروا على أطرافه. وسقط العديد من رجال ابن سعود كما سقط عدد ليس بالقليل من الوهابيين الآخرين الذين خدعوا حين أسرعوا للتجمع تحت بيرقهم الذي كان في حوزة فتيان يحيى ظنّاً منهم أنهم قد انتظموا مع رفاقهم، ولكنهم كانوا في الحقيقة قد تداخلوا مع أولئك الفتية، ونالوا منهم. ويلاحظ داوتي أن حرب هؤلاء العرب تشبه حروب الغجر، فليس من عاداتهم أن يحصّنوا معسكراتهم، ولو بساتر ترابي.

دخلت نساء عنيزة أرض تلك المعركة وهن يسقن الحمير تحمل أوعية الماء، يسقين عطاشى المحاربين، ويجلين الجرحى عن أرض المعركة. وسقط عبد الله في أرض المعركة جريحاً وهو يقود فتيانه المقدامين. وقامت بعض النسوة بوضع "ذلك الشيخ العزيز" على حمار، وحملنه في ركابهن إلى المدينة، بينما راح زامل يصول ويجول بفرسه وهو ينادي لوقف المعركة صائحاً: "مبارك، لا تقتلوا المسلمين".

تبدلت الأمور بنحو فجائي قاس. فعندما اشتد وطيس المعركة داخل معسكر الوهابيين ذهب الرؤساء إلى قائد المطوِّعين الذي كان يجلس في خبائه ونادوه قائلين: قُم يا طويل العمر واخرج من خيمتك واظهر لنا حتى تلهب الجند بالحماسة. فأجاب الرجل: تعالوا يا أصدقائي نُصلي معاً أولاً. وبينما هم سجود كرجال نذروا حياتهم للجهاد، هطل المطر في منطقة الوادي فارتوت. ولم يمتدّ هذا المطر، ولم يبلغ أثره أي منطقة أخرى غير هذا الوادي، وعيقت بذلك دروب المنتصرين من أهل عنيزة الذين كانوا يحملون أسلحة نارية ابتلّ بارودها وخبت نارها، ولم تعد ذات جدوى. وكان هؤلاء القوم حينئذ على بعد ميلين من بلدتهم، وظلوا على تلك الحال من دون أي دفاعات تقيهم شرّ العدو، ثم تقهقروا وفي إثرهم أكثر من ألف حربة للوهابيين، وقتل في هذه الأثناء أكثر من مئتي شخص من أهل عنيزة. ويمثل هذا العدد من القتلى نحو خمس أو سدس عدد الرجال المحاربين في تلك البلدة.

يروي خليل أن ذكرى هذا اليوم قد صيغت شعراً في تخليد ذكرى "يحيى البطل"، وراح أهل عنيزة يتغنون به. كان هذا الرجل المقدام قد فقد في فترة سابقة أحد أطرافه، كما فقد عينه أيضاً، إلا أنه كان هدافاً صيوباً يجيد الرمي. رجع يحيى من ساحة القتال مجهداً، وأوى إلى بستان بعيد ليستريح هنيهة في ظلّه، وجاءه بعض أهل عنيزة محيّين مستفسرين: "ماذا وراءك؟"، فأجاب: "إني أصوم في مثل هذا اليوم وقد أخذ مني العطش كل مأخذ". ويذكر داوتي أن ذلك الرجل اعتاد أن يصوم يومين من كل أسبوع، وهما اليومان الثالث والخامس

من الأسبوع (يقصد أن يقول إنه يصوم الاثنين والخميس). ويشرح داوتي معنى الصيام لقارئه فيقول: إنه الامتناع عن تناول الماء حتى مغيب الشمس. ويستطرد داوتي في روايته فيقول: وانبرى القوم يقولون له: هل هذا يا أبا عبد الله يوم صوم؟ إنه يوم انكسار الأعداء. اشرب أبا عبد الله، اشرب. وأجاب الرجل: "نعم، الحمد لله على ما لقيناه اليوم بالرغم من أني قد أفقد عبد الله وابناً آخر معه". وفي الحقيقة أصيب عبد الله بجرح في فخذه ولكنه تعافى منه في غضون شهر. وهكذا ظفرت عنيزة بنجاة "روح نبيلة جديرة بالحياة".

يذكر داوتي وقوع مناوشتين في حرب "كل الجزيرة العربية" التي امتدت شهوراً عديدة عند أسوار عنيزة التي يصل سمكها إلى شبرين، وعيل صبر طلال بن رشيد الذي رأى أنه أنفق وقته في ما لا فائدة منه، وفقد الآخرون الذين طال غيابهم عن ديارهم صبرهم وهم يخاطرون بحياتهم من دون طائل. وأخيراً لم يجد المطوع محمد بن سعود إلا أن يحمل معسكره ويرحل عن عنيزة إلى الرياض. ويذكر داوتي سقوط نحو أربعمئة قتيل من أهل المدينة في هذه الفترة، ويضيف أن أهل عنيزة يعتقدون أن لهم من القوّة ما يفرضون به سيادتهم على نجد كلها إذا فكر شيوخهم في تنفيذ هذا الأمر، ولكن الله – في ما يقولون – حباهم "بشيوخ مسالمين معتدلين". أما إذا كان لزامل شهية للسلطة مثل شهية ابن رشيد، فقد كان من الممكن أن تدخل كل المنطقة بين وادي الدواسر ودمشق تحت سيادة عنيزة. وعلى الرغم ممّا ذُكر – يقول داوتي – فإن أهل عنيزة قد يكونون البادئين بالعدوان أحياناً. وقد حدث أن شنّ هؤلاء المواطنون حملة لم تتّسم بالحكمة، ولا بحسن القيادة، على ابن رشيد بغية الظفر برأسه. وقد التقى عبيد بن رشيد هذه الحملة الخارجة من عنيزة وهزمها هزيمة نكراء، ثم تابعهم في تراجعهم منكسرين، وقتل عدداً كبيراً منهم.

سيرة زامل

يذكر خليل أن زامل الذي يبلغ الخامسة والأربعين من العمر قائد يتّسم طالعه باليمن كما أثبتت كل الحروب في عهده. قاد هذا الرجل في شرخ شبابه فرقة عنيزة في حملة شنّها الوهابي على أرض عمان البعيدة، فأظهر – في تواضع – قدرة استراتيجية. فالتواضع وحسن الفهم صفتان ملازمتان لهذا الرجل. ويضيف خليل أن أهل عنيزة يفاخرون بأن كل قادتهم الذين يتذكرون كافة ما جرى في عهودهم كانوا رجالاً أفذاذاً متفهمين، ومع هذا – يقول خليل – فإن شخصاً ما – ربما كان من عائلة متواضعة – قد نال ذات مرّة من قدر هذا الأمير زامل. فقد حدث أن ذهب هذا الرجل إلى الحجّ، وعندما عاد الركب واستشرف مدينة عنيزة انتحى جانباً إلى ظل نخلة نائية ليقضي ساعة القيلولة. وسمع زامل بقدوم ذلك الرجل، فسار إليه في بعض فتيانه

ووجدوه وحيداً فقتلوه، وهكذا أخذ زامل بثأره. "وقد أثار هذا الأمر في نفسي أسئلة مفادها: إذا كانت يد زامل نفسه ملطّخة بالدم، فماذا يمكن أن ننتظر من العرب الآخرين؟". ويروي داوتي أن عنيزة حين حلّ بها اليسر بعد العسر الذي عرفته في عهد الوهابي، أصبح زامل البطل الأول من جيل الأبطال الذين يقطنون في عنيزة: "و لم أرَ في أي مكان قوماً يعيشون بسعادة أكثر منهم في هذه الواحة".

يقول داوتيْ في سيرة زامل إنه مولود في أسرة أمراء، و لم يسافر عاملاً مع القوافل أبداً، ويصفه بأنه حكيم المجالس، يحكم مدينته بروح السلام، أما في الأوقات العصيبة فقد كان أهل عنيزة يعقدون عليه كل آمالهم. ويستطرد فيقول: لزامل ستة أو سبعة أبناء من الذكور، منهم ابنه الصغير علي الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره، والذي يعتقد أنه شديد الشبه بوالده. ويضيف: إن زامل كان ابن أمير سابق، إلا أنه لم يخلف والده مباشرة على الإمارة، بل خلف الأمير التالي لوالده (عمّه عبد الله)، فالخلافة هنا – شأنها شأن الحياة في الصحراء – ليست موصولة دائماً بين الأب والابن، "وفي الحقيقة أدرك أن زامل رجل مسلم متمسك حقّاً بما يقضي به ضميره من وجود الايمان، وقد يتظاهر أحياناً بأكثر مما هو عليه من الايمان، لأنه الأمير؟ لقد رأيته وهو ينتحي أحياناً مكاناً قصيّاً في الحقول لأداء الصلاة". ويروي داوتي أن زامل يلتزم بالحيطة والحذر والهدوء وبرود الأعصاب، ما يؤهله للتصرف بحكمة تفضي به إلى حلّ التناقضات التي قد تواجهه، وقد جرت سيرته في المدينة بالعدل والمسامحة، و لم يلجأ إليه أحد قط، حتى البدو بألسنتهم الحادة وأصواتهم المرتفعة، إلا وصرفه راضياً بكلمات طيبة وحكيمة ووجه بشوش طلق. وكان أدنى ما يمكن أن يقوله "بالخير إن شاء الله".

يتناول زامل إفطاره بعد الشروق مباشرة، ثم يخرج إلى حديقته القريبة من المدينة، ويبقى فيها ساعة من الزمن، ثم يرجع ليعود إليها بعد العصر، وذلك حتى يروّح عن نفسه قليلاً من ثقل الالتزامات العامة. وعندما ترتفع الشمس يغدو من مزرعته إلى المدينة، وسيفه بيده، حتى يبلغ مجلسه وهو يردد: "السلام عليكم" لكل بائع جالس أمام متجره، ولكل شخص يصادفه في الشارع، ثم يجلس في سقيفته للفصل في الأمور العامة، ولكنه في أغلب الأحيان لم يكن يجلس هناك إلا لحظات ثم ينصرف، لأن مثل هذه المدينة الحرّة المترابطة لا تنشأ فيها إلا القليل من المشكلات التي تتطور إلى قضايا،

ولهذا لم أرَ في عنيزة "مجلساً" يومياً. فلا غرو إذاً إن رأينا هذا "الأمير الفيلسوف" وهو يجد من وقته متسعاً يزور فيه حدائق بعض من يعتبرهم في عداد أصدقائه، في فترة ما قبل الظهر، ثم يعود إلى المسجد لأداء الصلاة. أما في ما بعد الظهر فيجلس عادة في قاعته أو يجلس في مقهى أحد الأعيان أحياناً. وإذا طرأ أي طارئ عام يستدعي اجتماع الشيوخ فإنهم يجتمعون في أي مكان يكون فيه زامل. وتستمر جلستهم حتى العصر، حين يُنادي المؤذن للصلاة، فيتركون

مشاغلهم الدنيوية ويهرعون جميعاً إلى صلاة الجماعة.

يذكر خليل أن زامل لم يشتهر بالكرم، وهذا مما يؤخذ عليه. فرجل مثله في أمانته المفرطة وينحدر من أسرة نبيلة مؤثلة الأركان طيبة الأرومة، ما كان يجدر به أن يضيف إلى جوهره الطيب خصلة الحرص. ويقول الخنيني: إن زامل يكتنز كل ما يحصل عليه، مثله في ذلك مثل التاجر، وقد برزت هذه الخصلة في زامل حتى اشتهر بها، وأصبح هذا الأمر معروفاً عنه تماماً مقارنة بعمّه الأمير عبد الله قبله الذي كان كريماً متلافاً، حتى إنه توفي مديوناً، "وهذا ما لم يكن يريده زامل لنفسه".

يتقاضى الأمير زامل رسوماً تصل إلى ستة ونصف في المئة، وفي بعض الأحيان خمسة في المئة على القمح، وسبعة ونصف في المئة على التمر، وتعفى من الرسوم في حكومة الأمير كافة المنازل والحوانيت والمواشي. أما التجار الذين يعملون في التجارة خارج عنيزة – والذين هم أثرى من زامل – فيؤدّون رسماً ضئيلاً للأمير مقداره عشرة ريالات سنوياً إذا كانوا يمتلكون منازل في عنيزة. ولا تدخل كل هذه الرسوم التي يُحسد الأمير عليها إلى خزانته، بل تدفع منها تكاليف الخدمات العامة، وخاصة لـ"المضيف" الذي هو جامع الرسوم. ويروي داوتي أن هذا "المضيف" قد زارهم وهم في حديقة الرشيد، وكان قد خرج يتحسّس محصول الحدائق ويتحقق من تقارير الحصاد.

مزارع عنيزة

عاش خليل في إحدى مزارع عنيزة أياماً حارة رطبة سكنت فيها الريح، وقد بلغت درجة الحرارة القصوى في يوم كثيف السحاب ٩٧ ف، وذلك تحت ظل السقيفة التي كانوا يشغلونها. ويلاحظ هذا الرحالة أن أعماق الآبار في هذه المزارع تتراوح بين ثلاث وخمس قامات، ويقلّ غورها كلما قربت من مجرى الوادي. أما ما وراء ذلك بمسافة فرسخ واحد، فإن فسيلات النخيل الحديثة الغرس في هذا الحوض لا تتطلب رياً في غضون سنة أو سنتين بعد غرسها. ويلاحظ وجود آبار ذات ماء عذب، ولكن البئر الأعمق "في القاع" مالحة نسبياً، ويضيف: إن الأهالي يعتقدون أن القمح يزدهر في الأرض المالحة، وإذا اصفرّ نبات القمح الأخضر الذي ينمو في الأرض غير المالحة يمكن أن تردّ الخضرة إليه بذرّ الملح على المزرعة. ويقول داوتي إن كل هذه الآبار تفوح منها رائحة كريهة في الليل، ويضيف أن لسان الإنسان مثل ميزان الحرارة يستطيع أن يفرق بين مياه الآبار التي بعضها قرب بعض، ويميز بينها، فالمياه التي تنبع من الحجر الرملي تكون عادة باردة، أما المياه التي يحصلون عليها من الآبار المنحوتة في الصخور فهي أكثر دفئاً. ويلاحظ أن هناك بئراً واحدة في هذه المنطقة – خلافاً لكل آبار

عنيزة – تمتاز بمياهها الحلوة، وأن الشيوخ يرسلون في نهاية الصيف من يملأ قربهم من تلك البئر التي في ملكية أسرة كبيرة وهي أسرة أبي داود، أحد "القصمان" المهاجرين، من الذين يعيشون في دمشق، شيخاً لعقيل فيها، وقائد حرس المؤخرة في قافلة الحجّ. وقد حدث أن التقى أبو داود هذا الرحالة في دمشق، وذكر له أنه لم يذهب إلى وطنه منذ خمسة وعشرين عاماً إلا مرّة واحدة وأقام فيها هناك شهراً واحداً فقط.

في الحديقة التي سكنها داوتي خمس نياق تستخدم في متح الماء من بئر الحديقة من دون انقطاع. ويجري الماء في جداول رملية زرعوا على جانبيها البطيخ وعلف الإبل، وينتهي هذا الماء بعدئذ إلى حوض صغير أقيم فوق الرمل المملط. وتعمل هذه النوق تحت مظلة من جريد النخيل، ويكون حوض السقي في القصيم عادة تحت ظل كرمة عارية فروعها من الأوراق. ويضيف خليل أن الإبل تبدأ في متح الماء من البئرين المذكورتين بعد منتصف الليل، وتستمر حتى حوالى الساعة التاسعة صباحاً حين تشتد حرارة الشمس فتُراح. ويمكن المرء أن يرى النساء من عائلات الذين يعملون وراء إبل السقي وهن يجلسن منذ شروق الشمس عند نهاية المسار الذي تنتهي إليه تلك الإبل، وذلك لتقديم العلف لتلك الحيوانات المجهدة. تحمل أولئك النسوة في أيديهن قبضات من العشب الأخضر، يخلطنها بعشب الصحراء الجاف، وحينما تبلغ الإبل نهاية مساقها، وقبل أن ترجع تجاه البئر، تُحشر في حلوقها تلك الحزم من العلف.

يستطرد خليل فيذكر أن سواني الآبار تستأنف في تلك الحدائق عملها مرّة أخرى منذ الساعة الثانية بعد الظهر، وتستمر على ذلك حتى الساعة السابعة مساءً حيث تُعلف مرّة أخرى وتُراح، ويضيف: إن الرجل الذي يسوق إبل السقي والذي يقتضي منه عمله أن يقطع وقت راحته كل ليلة، والذي على زوجته أيضاً أن تقطع البرسيم وتعلف الإبل – يتقاضى راتباً قدره ثلاثة ريالات وقرش واحد (حوالى ثلاثة عشر شلناً) في الشهر الواحد، وأن على أولئك السقاة أيضاً أن يشتروا أزوادهم ومؤنهم من ذلك الراتب، وعلى الابن الأكبر مساعدة والده، بينما تقوم بناته الصغيرات بتقديم العلف للجملين العاملين في تلك النوبة.

يروي داوتي أن أولئك العمال كانوا ضعافاً مجهدين تتعالى حواجبهم من أثر الإرهاق، "لا يذوقون في أرض الراحة والخمول إلا القليل من طعم الراحة". أما "العيال" الذين يعملون في مثل هذه الحدائق بصفة دائمة فيتقاضون مبلغ أربع بنسات يومياً كما يزودون بالطعام، أما إذا كانوا يتقاضون رواتبهم شهرياً فإنهم يصيبون ليومهم مبلغاً يقلّ عن هذا المبلغ المذكور. ويشير خليل إلى ذلك الشقاري الصغير الذي يشهد له بأنه عامل ممتاز دؤوب فيقول: إنه اتفق مع مالكي المزرعة ليخدمهم ستة أشهر، لقاء تسعة ريالات، ثم سألهم بعد ذلك مبلغ ثلثي ريال إضافية لدوائه، فلم يبخلوا عليه بها. ولا يرد في مثل هذه الاتفاقيات بين العاملين ومخدوميهم ذكر لأجور المساكن، إذ يستلقي العامل في مكانه من المزرعة مفترشاً الرمل، وملتحفاً السماء،

ويمثل ذلك المكان المفتوح للعاملين في الزراعة ملجأً ليلياً هانئاً أكثر شهور السنة في تلك الأرض الساخنة ذات الصيف المقيم.

يبدأ "العيال" عملهم من شروق الشمس، فيفرغون ماء الحوض الذي يصب فيه ماء البئر (يرشون الماء)، ويوزعون على الأرض المزروعة كل المياه التي تجري في تلك الجداول، وتُروى كل مزروعات الحقل والنخيل في نوبتين يومياً. أما علف البرسيم الذي يصل ارتفاعه إلى حوالى قدم والذي يُقطع مرّة كل خمسة عشر يوماً، فيروى مرتين في الأسبوع. ويلجأ أولئك "العيال" المجهدون - كما رأينا - في ساعات بعد الظهر الملتهب إلى العريشة يستمعون هناك إلى الروايات، ويظلّ هؤلاء العمال على هذه الحال حتى العصر حين يُنادي أحدهم للصلاة فيهرع الآخرون للوضوء، وفي العادة يغتسلون في البئر. ولن يدهشك أبداً أن تراهم يقفزون الواحد تلو الآخر، ويسقط كل منهم على رقبة أخيه من ارتفاع ثلاثين قدماً، ثم يقضون وقتاً يسبحون فيه في ماء تلك الفرجة الضيقة، ثم يتسلقون الأحجار خارجين من فوهة البئر "حتى ليخيل إليك وأنت تنظر إليهم حينئذ أنهم الضباب"، فهم يتعلقون صاعدين بأصابع أيديهم وأرجلهم على النتوءات بين أحجار باطن البئر حتى يتمكنوا من الخروج.

يمضي هؤلاء العمال - بعد أداء الصلاة - إلى العمل معاً حتى مغيب الشمس، ثم يُؤذن بعدئذ للصلاة مرّة أخرى في جماعة، ثم يُؤتى لهم بعشائهم الذي يجلب من المدينة. ويلاحظ داوتي أن العشاء هو الوجبة الأساس في الجزيرة العربية، وأن عشاء أولئك العمال المكون من خليط عصيدة القمح ومادة عشبية معينة يُؤتى به دافئاً إلى هؤلاء الجياع فيستسيغونه على أي حال.

ينتهي مع مغيب الشمس يوم العمل في المزرعة، وأما ما تبقى للعمال من وقت بعد ذلك فهو "للكيف" الذي يستمرئونه أكثر من ساعة، ويؤدون بعد ذلك الصلاة الأخيرة، ثم يقضون بعدئذ ما تبقى من ساعات المساء في الغناء من دون تناول قهوة أو تدخين، يجري بعضهم في إثر بعض كأنهم جحاش تتقافز في عتمة تلك الصحراء. أما في الليالي المقمرة، فيجتمع "عيال" الحدائق المجاورة يلعبون معاً، وعادة ما ترتفع في مثل هذه المناسبات أصواتهم عالية بالغناء المصحوب بالضرب على الطمبور ساعتين أو ثلاث ساعات، وقد يذهب هؤلاء العيال ليجلسوا عند بوابة القصر، وهناك يسرد الشقاري لزملائه بعض القصص المليئة بالمغامرات الممتعة.

في كل واحة عدّة أصناف من التمور، وأكثر ما في عنيزة من هذه الأصناف الرطب، ونوع آخر من واحة الوشم يسمى الشقراء، إضافة إلى بعض التمر الجاف الحلو الذي يحملونه معهم في رحلات القوافل. وتتدلى في تلك المزرعة التي سكنها داوتي في هذه الفترة من السنة عذوق كاملة من التمر الأخضر تتوّج هام النخيل، واعدة بموسم وفير بعد الندرة والخراب الذي سبّبه الجراد، وقد غُطّي كل عذق من هذه العذوق بطلع ذكر النخيل الملفوف بحزمة قش جاف

حماية له من هجمات الجراد. ويذكر داوتي أن المزارع في نجد قد يخسر في كل سنة خسارة كبيرة من جراء هجمات الجراد الذي يتكاثر في تلك الأرض، ومن أسراب الجراد الآخر الذي تذرفه الرياح إلى المزارع وكأنه السحاب الثقيل لا يُعرف له مصدر. ويقول إنه لم تظهر في هذه السنة إلا أسراب ضعيفة غير كثيفة العدد من الجراد، لكن أعدادها تزداد عادة مع النسمات الهادئة التي تعقب شروق الشمس، إذ يمكن المرء أن يرى تلك الأسراب المتلاحقة تترى، وينبري لها العيال بجريد النخيل الذي يبلغ طوله طول الحربة ويلاحقونها جرياً وهم يزعقون ليصدّوها بعيداً عن أشجار النخيل ونبات البرسيم. وتتدافع تلك الأسراب مرفرفة أمامهم في تواتر نحو النفود، فلا يكاد المرء يسمع منها إلا "وررر... وررر". ويلاحظ أن أولئك العيال الطيبين يلتقطون الجراد النافق وهم يتنادون: "كم هي شهية وسمينة؟"، ثم يسرعون إلى الموقد فيشوونه. وحدث ذات مرّة أن طلبوا من داوتي أن يشاركهم في تلك الوليمة، ولكن حين قال لهم الحكيم: لا تأكلوه، لم يرغب أي منهم بعدئذ في أكله ورموا بجرادهم المشوي على تلك الرمال المتقدة، فتكاثر عليه الذباب يلتهمه التهاماً. وقد قلت لهم ذات مرّة مُعلقاً: إن الجراد يلتهم البدو، والبدو يلتهمون الجراد، وبدت هذه الكلمات لمستمعيّ البسطاء كأنها الإعجاز، ورددوا هذا القول حتى أضحى مثلاً سائراً في المدينة. ولقد بات هؤلاء العمال الزراعيون الفقراء في هذه الحديقة من أثر الصحبة في عداد أصدقائي.

وصول قافلة من الكويت

يعتبر يوم وصول القافلة إلى عنيزة يوم عيد، فيه يهرع الأصدقاء والمعارف إلى الراجعين مع القافلة إلى الديار، يزورونهم في منازلهم حيث تُقام الولائم في هذه المناسبة عادة بعد صلاة العصر.

جلس صاحب المزرعة التي سكن فيها داوتي العائد مع القافلة، في وقار في بيته الطيني الذي أعدّه بنفسه ولورثته من بعده، واستقبل المهنئين، وأتحفه زامل بزيارة مجاملة. وعاد ذلك الرجل إلى موطنه بسبعة عشر جملاً موسوقة بالأقمشة (حوالى ثلاثة أطنان) التي تخصّ ابنه التاجر في الكويت ليبيعها في عنيزة ويسدد له من ثمنها قرضاً يبلغ ثلاثة آلاف ريال مستحقة لورثة القاضي، وهو أحد أصدقائه القدامى، كان قد توفّاه الله. وكان العمال القدامى، غير الذين عملوا حديثاً في هذه المزرعة، في زمرة المهنئين، وقد أسرعوا إلى عنيزة ليُقبّلوا يد سيدهم. وقبل أن يحل المساء كان أولئك العمال يحظون بقسمة وافرة من العشاء الذي أُعدّ في المنزل، وقد أرسلت إليهم في المزرعة.

زار الرجل في اليوم الثالث من وصوله إلى عنيزة مزرعته ليتفقد تموره، وكان يمتطي حماراً

عراقياً أبيض اللون، ترجّل عنه بوقار، وأخذ يرفل بزيّه الذي أعدّه خصوصاً لهذه الإجازة، والذي كان يتكون من عباءة صفراء زاهية اللون، وكوفية حريرية بغدادية. وغرس الرجل في حزامه "قدامية"، وتسمى أيضاً خنجراً أو شبرية، ومسدساً، فبدا كأنه على سفر أو "كأنه قد تسلح خشية من أذى يصيبه من النصراني".

راح ذلك الشيخ الذي يصفه داوتي بأنه حسن القامة، أسمر - وكانت عيناه اللتان نال منهما الزمن مكتحلتين - ينقز نقزاً، وهو يمشي على أطراف أصابعه بين أشجاره وثماره ساعة، عاد بعدها إلى مكان الموقد حيث وجد هذا الرحالة. و لم يكد الرجل

يُحيّي هذا الكافر ويجلس معه حتى سأل عمّا إذا كنت أنا النصراني الذي سمع عنه؟ فقمت من فوري فأعددت لذلك التاجر العجوز كوباً من الشاي، فشكر لي جهدي، وكافأني بأن بشرني بأنه لن يمضي وقت طويل - إن شاء الله - إلا وأكون قد غادرت في صحبة القافلة التي ستتحرك قريباً.

نزع الرجل عنه ثيابه الزاهية تلك، وخرج يتفقد أرضه مرّة أخرى وهو يرتدي جلبابه فقط، وقد وضع طاقية قطنية على رأسه، ولكنه ما لبث أن عاد إلى مكان الموقد مرّة أخرى، فقد غلبته حرارة الشمس ظهراً. وجلس ذلك العجوز إلى جوار الموقد وتحرر من ملابسه، لم يستبقِ منها إلا سرواله الذي كان يصل إلى ما فوق الركبة. ثم قام بُعيد العصر بجولة أخرى في المزرعة، وكان "يتبسط" مع عماله كأنه رقيق الحال مثلهم. وأخذ ذلك العجوز يدقق في كل آلة من آلاتهم، ثم شغل نفسه بعدئذ بتنظيف قاع الحوض المتسخ، ورجع مرّة أخرى إلى حيث جلس داوتي، وقد نال منه الظمأ، فعمد إلى قربة ذلك الرحالة المعلقة على فرع النخلة في العراء "وفك رقبتها" وشرب من "فمها" حتى ارتوى مثله في ذلك مثل أي عامل ري يعمل وراء الإبل، أو مثل بدوي يهيم في الصحراء. وجدير بالذكر أن هذه المزرعة تكلفه سنوياً مئتي ريال، ولكن ثمارها لا تبدو مبشرة بالتعويض عن مثل هذا المبلغ.

كان لهذا الشيخ - في ما يقول داوتي - ابن آخر يعمل تاجراً في عدن، ولكنه عاد أخيراً إلى عنيزة وافتتح محلاً تجارياً في السوق يبيع فيه أحمال تلك الإبل من الأقمشة التي رجع بها أبوه. ويلاحظ خليل أن أكثر المشترين لهذه السلعة كانوا من عرب مطير، وقد تمكن أحد العرب، خفيف اليد، من سرقة عباءة من بضاعة ذلك الرجل تساوي عشرة شلنات، وعندما سمع الرجل بذلك أزبد وأرعد ولام أبناءه على تقصيرهم.

وفد ابن ذلك الرجل على خليل يطلب مساعدة الحكيم، وقال له مجاملاً إنه سيعود إلى عدن مرّة أخرى تقديراً له، وإنه سيرافقه في السفينة ذاتها التي سيغادر عليها، وأضاف أنه كان قد ترك زوجة له هناك، كما أنه حصل على حقّ تسجيل ابنه في سجل الرعايا البريطانيين، وزاد بأن قال لداوتي إنه لا يمانع في مرافقته إلى الهند، وذلك إذا رغب في ذلك: "لقد قال لي كل

ذلك، وأتحفني بكل هذا التقدير، وأنا القابع في حديقة والده منذ زمن طويل و لم أظفر فيه منه، ولا من أي من هؤلاء الأشخاص، بفنجان واحد من القهوة".

بينما كان داوتي يجلس ذات يوم في قاعة ذلك العجوز في المدينة، سأل أحد الجالسين: "ما الذي أتى بالنصراني من مدن أوروبا الفخمة إلى أرض نجد الفقيرة المجدبة؟"، فأجاب أحدهم: "إني أعرف أخلاق هؤلاء النصارى. هذا رجل إفرنجي من المحتمل أن يكون فقيراً فآثر أن يؤجر زوجته... لتكسب مالاً ثم يعود إليها بعد الفراغ من رحلته". وأضاف الرجل: "صدقوني إن كل هؤلاء النصارى يمارسون هذا العمل". وفي مناسبة أخرى، وفي إحدى جلسات العصر مع العمال، سأل الشقاري داوتي عن مدى صدق تلك المقولة، مضيفاً أنه لا يُصدقها، فأجابه بأنها خيال لا يمتّ إلى الواقع بصلة، "ولا تعيش إلا في قلب جلف خرب". واستسمح الشقاري داوتي معتذراً، فسأله الأخير: "هل تعانون أنتم مثل هذه الأمور؟"، فأجاب بأن مثل هذه العلاقات الجنسية تقع في أوساطهم أيضاً ولكنها تجري سرّاً.

أخبار الصحف

أُجّل - بأمر من زامل - موعد قيام قافلة السمن من عنيزة إلى مكّة حتى وصول هذه القافلة التي وفدت أخيراً من الشمال، وذلك لمساندة قبيلة مطير ضد قبيلة قحطان التي اعتدت عليها، وحتى تتمّ تسوية هذه المشكلة. قضى داوتي في هذه الفترة أياماً في هذه الحديقة على بعد ميلين ونصف الميل من عنيزة، وحيداً من دون أن يأتي أي من المعارف من البلدة ليزور النصراني. ولقد وجدت صداقتهم كأنها زقزقة عصفور على فنن أفزعه طارق فطار و لم يرجع إلى فننه مرّة أخرى. و لم أكن أعرف أخبار أصدقائي إلا من بعض المرضى الذين يأتون إليّ طالبين مساعدة الحكيم. وكانوا يقولون لي إن زيداً أو عمراً من أصدقائي قد أرسلهم إليّ وهو يقول: إن في يد خليل بركة، فاذهبوا إليه ربما شفاكم الله.

طلب داوتي من صالح، أحد معارفه، أن يأتيه بكتاب يقرأه، فأحضر له من عنيزة كتاباً مجلداً بجلد أحمر وقد تمزقت بعض أوراقه، وأخبره بأن ذلك الكتاب قد تمزق من كثرة قراءة النساء فيه، كما أخبره أن العديد من رجال المدن في المناطق الوهابية يقرأون ويكتبون، وأضاف أن جميع الأطفال تقريباً يوكلون إلى المطوع ليتعلموا القراءة، وعندما يشبّ الطفل وتصبح قامته في طول السيف - كما يقول - يجب أن يُعلّم الصلاة. أتى صالح لداوتي أيضاً بحزمة من نشرة عربية تضمّ مقالات متسلسلة، وبالرغم من مضي عدّة شهور على صدور آخر أعداد تلك النشرة، تظل جديدة - كما يقول هذا الرحالة - في تلك الأرجاء من العالم. ويضيف

أن هذه النشرة وصلت إلى عنيزة مع بعض القوافل، وقد قرأ داوتي فيها موضوعات عن الجهاد. وكان صالح يتابع داوتي في تهجئته للكلمات، ثم سألني عمّا إذا كنت مسروراً بهزيمة سلطان الإسلام، فقد كان صالح – بعاطفته الدينية – يرى أن هذا الأمر يسرّ ذلك الرحالة. ويضيف داوتي أنه وجد صالح هذا يستمتع بقراءة نشرة تصدر من إستانبول فيها العديد من العبارات السياسية والعسكرية، وكذلك الكلمات الأوروبية التي ما كان يستطيع في الغالب أن يستوعبها.

قرأ داوتي للعمال في المزرعة عمّا قام به الإنجليز من إرسال الأدوية والأطباء على نفقتهم الخاصة لمعالجة مرضى المسلمين وجرحاهم، إضافة إلى ما أرسلوه إليهم من ملابس وطعام وأموال. وأبرز الدور الذي قام به الكثير من أثرياء الإنجليز الذين ادّعى أنهم تبرّعوا من حرّ مالهم بمبالغ كبيرة من أجل تحقيق ذلك. ويرى داوتي أن تلك الأخبار كانت فوق ما يستطيع أولئك العرب تصديقه، "وذلك لما يتميزون به من بخل وأنانية؟". ورحت أسألهم: "ماذا ترون في هذه الأعمال؟ أليست هي مجيدة؟ أليست في مصلحة المسلمين؟، فأجابوا: إننا لا يمكن أن نشكرهم أبداً، لعنة الله عليهم وعلى كافة الكافرين، ونشكر الله الذي جعل هؤلاء المشركين يساندون المسلمين".

الحرب على قحطان

يفيد داوتي بوصول شيوخ مطير إلى عنيزة لإجراء المشاورات النهائية مع زامل وشيوخ عنيزة "لما فيه خير الجميع"، ويروي أن قبيلة قحطان كانت تظن نفسها آمنة في تلك الفيافي، إذ لا يمكن أهل عنيزة أن يخرجوا في حملة ضدها في تلك الفترة من القيظ، أما مطير فما كانت قحطان تقيم لها وزناً كبيراً كقوّة مناوئة.

يذكر داوتي أن زامل نادى في الأهالي الذين يمتلكون إبلاً في المدينة طالباً إليهم أن يوافوه بها صباحاً. وكان زامل "كتب" لهذه الحملة ستمئة ذلول، أما الحلفاء من البدو فقد جهزوا ثلاثمئة ذلول وفرس. وبعد عصر اليوم التالي، خرج رجال مطير إلى القتال، ولم يخرج زامل برجاله مع أصدقائه البدو، "فالبدو كما يقول أهل المدينة مخادعون جداً". ويبدي داوتي اعتقاده بصحّة ذلك، فقد أدى غدرهم سابقاً إلى هزيمة سعود والوهابيين، كما يفيد بأنه سمع أن جرماً مثل هذا قد وقع من البدو قبل سنتين، وعانت منه عنيزة كثيراً. ويروي داوتي أنه لا يمكن – في حقيقة الأمر – أحداً سوى ابن رشيد أن يركب بين "الرجاجيل" التابعين له، وأهل القرى، ويخرج بهم ليخوضوا حرباً بثقة في ركاب البدو من أتباعه. ويضيف داوتي: إن زامل ركب في اليوم التالي في أكثر من ألف من رجال مدينته التي باتت على ثقة من النصر

حين تقدم ركبهم. وأغلقت المحال التجارية في عنيزة أبوابها وما عاد بيع أو شراء. وأفاد بأن الحال ستبقى على هذه الوتيرة حتى تعود هذه الحملة إلى البلدة مرّة أخرى. و لم تعقد السوق الصباحية، و لم يعد القصابون يعملون في تلك الأيام. وبالرغم من أن الكثير من الرجال خرجوا إلى ساحة القتال مع زامل، ظلت شوارع هذه المدينة تمتلئ بالمارة. يقول داوتي إنه سأل صالح: ماذا إذا فتح أحد حانوته؟ فأجاب: "سيغلقه الأمير علي، أما إذا أصرّ التاجر على ذلك فإنه سيدّعي أمام الأمير ويُجلد". ويستطرد ليفيد بأن بعض المحال العامة الصغيرة التي يقوم بالعمل فيها المسنون من الرجال الذين أقعدتهم السنون عن الخروج للقتال أو التي تديرها الأرامل من النساء، تؤدي عملها من دون إعاقة من أحد.

يذكر داوتي أن الأمير يكتب أسماء الخارجين في ركابه للغزو في سجل، وهم في الغالب فتية يمثلون الأسر التي تملك إبلاً، ويلاحظ أن الخدمات العسكرية في عنيزة تقع على الأشخاص من ذوي الشأن، وذلك حتى لا يكون من محاربي هذه المدينة في الصحراء شخص يمشي راجلاً. وفي الحقيقة لم نسمع حتى لدى الوهابي الذي يعوزه التنظيم العسكري عن وجود مشاة في جنده، بل هم دائماً على أكوار إبلهم، أما العامة الذين لا يملكون مطايا فيبقون في الديار يمارسون أعمالهم اليومية، وتوكل إليهم أيضاً مهمة حراسة المدينة.

نادى ضابط الأمير على كل الذين سجّلوا أسماءهم، وأخبرهم بأن عليهم أن يركبوا الرديف مع زامل صباحاً. ويفيد داوتي بأن كل رجلين عادة يركبان على ذلول، وعادة ما يكون الرديف من أبناء عمومة مالك البعير، أو ربما كان من البدو المرتبطين به، أو أحداً من عبيده. أما إذا قعد أحد المسجلين للغزو لطارئ لم يُمكّنه من الخروج إلى القتال، فعليه أن يرسل آخر عوضاً عنه، وأن يرسل معه رديفاً أيضاً، أما الأعيان فربما لا يخرجون مع الأمير ولا يرسلون أحداً عوضاً عنهم، ومع ذلك يجري التغاضي عنهم، ولكن لا تهاون في هذا الأمر مع المواطنين الأقلين شأناً، إذ يرغمهم إرغاماً. ويستدرك فيقول إن زامل رجل سمح، يتفهّم أعذار المعتذرين، فإذا اعتذر له أحدهم قائلاً: والله يا سيدي إنني لا أستطيع الخروج لأسباب هي كذا وكذا، فإن الأمير يجيب عادة: "ابقَ إذاً".

عرف داوتي من أحد أقرباء زامل من الذين كانوا معه في تلك الحملة أن قوتهم قد بلغت نحو ثمانمئة رجل، إضافة إلى ثلاثمئة مرافق من مطير، لكنه سمع من آخرين أيضاً أن عنيزة قدّمت مئتي ذلول، عليها أربعمئة رجل، وقيل أيضاً إن عدد رجال عنيزة وصل إلى خمسمئة رجل. ويفيد بأن أهل المدينة ركبوا في ثلاث فرق تحمل شارتها أحياء المدينة الثلاثة الكبرى، ويستطرد ليفيد بأن بيارق أهل تلك المدينة مجتمعة في حالة الحرب التي تُشنّ على ديارهم، ويصل عددها إلى خمسة أو ستة.

يذكر داوتي أن أخبار الغارة المزمعة وصلت إلى بريدة، فأرسل أهلها الرسل إلى قحطان

لتحذيرها، ويفيد بأن زامل لم يعمد إلى المباغتة، وأن ذلك لم يكن تراخياً من ذلك الرجل السياسي، ولكنه كان حكمة مكتسبة، فقد سعى - كما يقول صالح - ليعطي الأعداء فسحة من الوقت علّهم يجنحون إلى السلم، "فيا له من شخصية مختلفة عن صقور الرياض وجبل شمّر".

كانت قبيلة قحطان - في ما يقول داوتي - تنزل العيون، غير أن زامل سمع - حين كان في طريقه إليهم - أنهم ينزلون في الدلامية، بين جبلِ سالك والرس. وظلّ رجال عنيزة بقيادة زامل يجدّون في مسيرهم طوال ذلك اليوم وجزءاً من الليل في اتجاه مواقع قحطان. وفي ظهر اليوم التالي غدا الرجال على مقربة من الرس، فترجّلوا للراحة ونصبوا خيامهم وأقاموا العرائش من السجاد. وسمع أهل عنيزة أن العدو نزل آبار دخنة إلى الجنوب من معسكرهم، فركبوا في ذلك الاتجاه. وفي اليوم التالي كانوا يلتقون بين الحين والحين حشود مطير الذين ذهبوا لمعاضدتهم، ثم جاءت كشافة مطير لتقول إنهم رأوا خياماً لعرب عند دخنة، وإن أولئك العرب لا يمكن أن يكونوا سوى قحطان الذين يجب أخذهم على حين غرّة. وراح المثقفون من أهل عنيزة يحدث بعضهم البعض الآخر وهم جلوس على مقربة من نيران القهوة، ويقولون: إننا سنلاقيهم غداً على مقربة من جبل قزاز بالقرب من دخنة في تلك المنطقة ذاتها التي نازل فيها تُبّع اليمن أبناء وائل، كليب شيخ ربيعة ومعه بنو تميم وقيس. ويفيد داوتي بأن جبل قزاز الصغير يقع على مسيرة ساعة من مجرى وادي الرمة في تلك المنطقة.

في اليوم التالي ركب زامل وأهل المدينة باكراً، وكانت النجوم لا تزال تتلألأ في السماء، أما بدو مطير فقد ركبوا قبل ذلك بزمن وجيز، وكانت دخنة على مسافة قريبة منهم. قامت الخطة على أساس أن يتقدم عرب مطير أولاً لشنّ الغارة على أعدائهم الرئيسيين، بينما يكون زامل ورجاله من خلفهم على أهبة الاستعداد للتدخل لمساندتهم. واستعمل أهل عنيزة بوصلة ليتمكنوا من أن يحيطوا بعرب قحطان من اتجاه الجنوب. ومع سقوط أشعة الشمس الأولى على أديم الأرض، وقع عرب مطير على أعدائهم، وهرع عرب قحطان من بيوتهم في سلاحهم وهم يتنادون، ويلعنون مطير كلما أحاطت بهم قائلين "جابهم الله؟". وكان ذلك يوم امتحان لكلا الفريقين، وموعد بلاء مع الموت الزؤام. وكان لعرب مطير - في ما يقول داوتي - مئتا ذلول، إلا أن إبلهم كانت دون السلالات الشمالية شهرة، وبلغ عدد القحطانيين من راكبي الخيول ستين شخصاً، ثم لحق بهم ثلاثون من منزل آخر كبير لقحطان كانت خيامهم مضروبة على مسافة قريبة. وازداد عدد عرب قحطان وتكاثروا على "غزو" مطير، وأصبحوا أكثر منهم نفراً، فانكشفت مطير وتزحزحت. وتلفّت عرب قحطان حولهم فإذا بعرب عنيزة يحيطون بهم، وراح عرب قحطان الذين لم يكونوا قد عانوا حتى ذلك الحين خسائر بشرية كبيرة يتساءلون فزعين: "هل هذه حشود ابن رشيد؟"، ثم يستدركون: "ابن رشيد يغزو تحت

بيرق واحد، وهؤلاء يركبون كأهل الحضر، أي والله إنهم الحضر".

تقدم أهل عنيزة لمنازلة عرب قحطان مظهرين هويتهم، وراح أولئك العرب يصرخون: هؤلاء هم القصمان، إنهم الزوامل. وتدافع عرب قحطان في محاولة منهم لإنقاذ نياقهم الحلائب. وحين رأى زامل – الذي كان لا يزال على مسافة من الميدان – الفرسان يدفعون أمامهم تلك الأرتال من النياق سأل: "هل هؤلاء هم المسلمون؟ فأجابه شيخ مطير: "لا بالله إنهم قحطان". و لم يندفع فرسان عنيزة في إثر قحطان. لقد كان عددهم أقل من أن يُمكّنهم من ذلك. وراح عرب قحطان يجدّون في محاولتهم إنقاذ حيواناتهم، ويتدافعون وراءها تاركين وراءهم منازلهم بما حوت، وكذلك نساءهم وأطفالهم في أيدي أعدائهم. واندفع فرسان مطير وراء القحطانيين الهاربين الذين ما لبثوا أن لملموا شملهم مرّة أخرى، وكرّوا على أعدائهم فردوهم على أعقابهم. وتقدم أهل عنيزة في هجوم مفاجئ لمساندة مطير، وترجّل عرب مطير مسرعين لجمع الغنائم من خيام الأعداء. وانتقم رجال مطير الذين كانوا قد فقدوا زوجاتهم بفعل حراب قحطان وأحدثوا في أعدائهم ما فُعل بهم سابقاً، وقتلوا عدداً من حريمهم، وقطعوا رقاب الصغار أمام أمهاتهم اللائي كن يسمعن صراخ أولئك الرجال وهم يقولون لهن: هذا هو عين ما فعله رجالكن مع صغارنا في ذلك اليوم. وراحت بعض النسوة الثكالى المهتاجات يجرين كالمسعورات وراء طالبي الغنائم وهن يحملن أعمدة خيامهن ليذدن بها عن أنفسهن. و لم يرحمهن عرب مطير الذين شحذوا سلاحهم، فأعملوه فيهن. وعلى ذلك هلكت خمس أو ست نساء من قحطان وعدد مماثل من الأطفال. وفي شدة الكرّ وعظم البلاء – كما يذكر داوتي – لم تنسَ إحدى النساء أن تخفي عن الأعداء قدراً من فضّة يمتلكها زوجها تساوي ستمئة ريال، فالمبلغ كبير لأي بدوي. أخفت تلك المرأة الفضّة في قربة، ونزعت عنها عباءتها، ومزقت ثوبها الأزرق الذي يمثل إلى جانب "الحقو" كل ما تضعه النساء على أجسادهن التي نال منها الجوع. ووضعت المرأة تلك القربة على كتفها وصغيرها على الكتف الآخر، ثم ظهرت من خبائها عارية وهي تصرخ وتنتحب وتولول "يا ويلي... يا ويلي" هاربة تجري عبر صفوف الأعداء المهتاجين. وحين رأى عرب مطير هذا المشهد، اعتقدوا أن أحداً ما عبث بها، ورأوا أن من العار عليهم أن يتعقبوها، رغم أن البعض منهم كان قد صرخ فيها لترمي ما تحمله على كتفها. وراحت تلك الأعرابية تمثل دور المرأة التي جُنّ جنونها، وطاش صوابها، تصرخ وهي تجري وتنادي مدعية أنها قد استبيحت، "ألا يكفي أن ينال هؤلاء من عرض ابنة شيخ ليعمدوا إلى أخذ قربة الماء الذي تحمله للحفاظ على حياة ابنها؟"، ونادى آخرون في زملائهم أن اتركوا هذه المرأة وشأنها. "وهربت المرأة واخترقت صفوف الأعداء وأنقذت ثروة زوجها بهذا الثمن الذي أهدرته من حيائها". ويفيد داوتي بأن ثلاثين قتيلاً سقطوا من قحطان، ولقي أغلبهم حتوفهم وهم هاربون، كما سقط من مطير عشرة قتلى. ورجع عرب

مطير ليدفنوا موتاهم، "ولكن المروءة الإنسانية التي تقتضي من هؤلاء أن يهيلوا كومة صغيرة من التراب على جثث أعدائهم أمر غير وارد ولا معروف في هذه الأرجاء".

يذكر داوتي أن إحدى النساء وفدت إلى زامل مبعوثة من عرب قحطان الهاربين، وكان عرب عنيزة قد نزلوا في هذا الوقت على الماء وأقاموا خيامهم، وراحوا يشربون القهوة. وطلبت تلك المرأة من زامل الأمان لبعض الشيوخ لكي يأتوا إلى معسكره للتفاوض فأجابها إلى ذلك. وجاء الرجال بعدئذ وقبّلوا زامل متضرّعين إليه ومتوسلين، يشكون أن خيامهم قد أصبحت بما فيها غنيمة لقبيلة مطير، وطلبوا منه أن يسمح لمجموعتهم بأن يردوا الماء، فاليوم يوم صيف قائظ، و لم يعودوا يملكون قرباً ليملأوها، وسيعانون ويهلكون في هروبهم عبر الصحراء بلا ماء ولا زاد. ولكن من الذي يستطيع أن يثق بما يقوله الأعداء من البدو؟ و لم يجد هؤلاء البدو في هذا الموقف إلا أن يربطوا أنفسهم بأغلظ ميثاق: "لك عهد الله، وأمان الله، إننا ما نخونك، الخائن يخونه الله".

هكذا هُزمت قبيلة قحطان الجائرة، التي كانت في الفترة الأخيرة مستعصية حتى على ابن رشيد، والتي كان ابن مسعود – الوهابي المدحور – قد نزل بها في الصيف الماضي في هذا المكان نفسه في دخنة، وردّوه على أعقابه. ويُردّ هذا النصر الذي أحرزته مطير إلى يُمن زامل، فرجال عنيزة لم يدخلوا حمأة تلك المعركة و لم يستعملوا سلاحهم.

يذكر داوتي أن مطير بعثت الرسل إلى ابن رشيد ومعهم فرسان يحملون قسمة من الغنيمة التي أصابوها من قحطان، يبلغونه بالنصر الذي أصابوه. ويضيف هذا الرحالة أن بريدة نفسها سُرّت بتلك النتيجة، لأن تلك القبيلة التي لا تربطها بها أواصر قربى قد أُجليت بالهزيمة من تلك الديار.

عانت قحطان كثيراً، وهلك العديد من أفرادها الهاربين عبر تلك السباسب من العطش – في ما يقول داوتي – كما أصبحت جروحهم حتى الطفيفة منها قاتلة لما كانوا عليه من الإعياء، وهرب أولئك العرب تجاه الجنوب مسيرة ثلاثة أيام. وسمع داوتي أن بعض عرب عتيبة قابلوهم وهم هاربون، فغنموا منهم مئتين من النياق الحلائب التي نجت من الوقوع في أيدي مطير. وقد ذكر بعض القادمين إلى أثيلة أنهم فقدوا مئة رجل آخرين، "وكان هؤلاء القحطانيون عندما تجاوزوا حدودهم يتعلقون بأردان الماضي، ويتذكرون الوقت الذي كانوا يلعبون فيه لعبة الذئب بين الشياه".

سأل داوتي: ماذا يكون من أمر قحطان بعدئذ؟ فأجاب الشقاري:

البدو كالكلاب، لا يموتون أبداً، إنهم شياطين، يتلوّنون بعشرين لون، ستجدهم و لم تمضِ سنة أو اثنتان إلا وقد تكاثروا مرّة أخرى بالزواج والتناسل. وعدت أسأل مرّة أخرى: ولكن ماذا سيكون من شأنهم الآن؟ فأجاب الشقاري: سيحلبون نياقهم، ويطعمون من لبنها،

وسيبيعون بعض إبلهم في القرى ليشتروا بثمنها تمراً وبعض ما يحتاجون إليه من أدوات المطبخ، ولن يقاسي هؤلاء من النوم في العراء طويلاً، فنساؤهم سيجززن صوف ما تبقى لهم من ماشية، وسيعملن في الغزل بهمّة ليلاً ونهاراً، وسترتفع بعدئذ بيوتهم المصنوعة من الصوف المنسوج حديثاً، ويضاف إلى هذا أيضاً أن عرب قحطان النازلين في مناطق الجنوب سيمدون يد العون لإخوانهم هؤلاء الذين حلّت بهم الهزيمة.

ويضيف داوتي أنه عرف بعدئذ أن عرب قحطان أقاموا سلماً مع عرب عتيبة، كما تصالحوا أيضاً مع ابن سعود. "ولكن لا أدري كيف يمكنهم تأكيد سطوتهم مرّة أخرى؟ فهل تحالفت قحطان مع هاتين الفئتين ضدّ ابن رشيد؟".

يحدثنا داوتي عن رجل أجنبي بائس وُجد في خيام قحطان تبيّن أنه درويش من المغرب. وفد هذا الرجل إلى مكة المكرّمة في موسم الحجّ السابق، ثم التحق بقافلة القصيم آملاً أن يلحق من هناك بأرض العراق. وضلّ الرجل في ذلك التيه المترامي طريق القافلة، ووجده بعدئذ فريق من قحطان.

إن المرء ليستشعر عناية الله به حين يصادف بعض خلقه وهم على تلك الحال العصيبة. لم يراعِ ذلك الحي من قحطان السماحة الدينية، فاتخذوا ذلك المغربي عبداً لهم، وحملوه ليرعى لهم أغنامهم، وكانوا يربطونه كلما استشرفوا قرية من القرى حتى لا يهرب منهم إليها. ولربما أصبح حالي معهم مثل حال هذا الدرويش، بل ربما صادفت مصيراً أسوأ، إذ كنت قد نفذت ما أزمعته ذات مرّة من الخروج إليهم. لجأ هذا الحدث المغربي هارباً إلى أهل عنيزة، ورجع به المسلمون العائدون إلى ديارهم ريثما يرسلونه إلى غايته التي يقصدها. وقد ظلّ هذا الصبي في ديار قحطان مستعبداً منذ الشتاء الماضي. قال لي ذات مرّة: "إني لم أكن أعرف أبداً حياة البداوة، ولكنهم أرادوا أن يجعلوني بدوياً، وقد أصبحت والله أكثر من ذلك". وفي الحقيقة إذا قدر للمرء أن يعيش أي فترة وسط العرب فإنه سيشعر في ما تبقى له من سنيّ حياته بشعور الصحراء، ويتجرّع طعم الجفاف.

يذكر داوتي أنه رأى في عنيزة في اليوم الخامس من خروج الرجال فارساً من مطير على أطراف النفود ينزل في خيمة، وكان الرجل أول العائدين من المعمعة. أما زامل فقد رجع بأهل المدينة في صباح اليوم التالي، وقد شاهد هذا الرحالة حشودهم العائدة تسد الأفق. واستمرت مسيرة أولئك الرجال أمام ناظريه تتوالى أكثر من ساعتين، وهم ينتظمون في ثلاث فرق، كل فرقة منها تسير تحت رايتها وهي تضرب "الطمبور". أما جموع البدو، فإن أغلبها لم يصل بعد أن ثار جدل في أوساطهم - كما يحدث في العادة - حول قسمة الغنائم، "فالبدوي أمام الغنائم يتحدى حتى نفسه. ولما كانت قحطان قد "أخذت" مطير في الشمال في فترة سابقة، فقد عرف كثير من رجال مطير سوائمهم التي كانت قد آلت إلى قحطان بذلك الغزو

واستردوها. ويسترسل داوتي فيقول: "رأينا – في المساء ذاته – أعداداً قليلة من الضأن تُساق في اتجاه المدينة، وكانت في أغلبها للرعاة الذين كانوا قد ساقوها معهم حين ذهابهم". ورجع البعض من المعركة بأخبار حزينة ثقيلة على القلوب، فقد سقط في ميادين الوغى صرعى ستة من الرجال الذين كانت مجموعة منازلهم التي تبلغ حوالى ثلاثين منزلاً بجوار المزرعة التي يقيم فيها ذلك الرحالة الذي يذكر أن أولئك المترمّلات حين بلغهن الخبر خرجن ينتحبن، ويشققن عنهن ثيابهن.

نزح بدو مطير من عنيزة ورجعوا إلى ديارهم في الصحراء، "وبهذا القدر نفرغ من سرد المصيبة التي حلت بقحطان".

القافلة تتحرك

بدأ "الجماميل" يعدّون عدّتهم للخروج، بعد أن أعلنت قافلة السمن من عنيزة إلى مكّة المكرّمة. جاءت ب"الزوامل"، إبل الأثقال، من مضرب رعاتها البدو. وأصبح من المألوف أن ترى تلك "الزوامل" الآن تجوب النفود يومياً ترعى بجوار المزرعة التي يسكنها داوتي، كما عسكرت قافلة أخرى في هذه الأثناء من عنيزة، وهي تحمل تمراً وقمحاً في طريقها إلى المدينة المنورة.

بدأ ذلك الرحالة بالاستعداد ليرتحل مع القافلة، فخرج راكباً حوالى ساعة على ذلك الطريق الرملي المجوّف المتآكل من أثر السير، والذي سبق أن سلكه إلى الخبرا. وحين وصل صباحاً إلى النُزل الذي ستتحرك منه القافلة لم يكن الظلام قد انقشع بعد. وهناك التقى سليمان الذي وصل بالأثقال قبلهم، وكان يستحث سائقي إبله. قاد البعض داوتي إلى موقعه في ذلك المعسكر حيث إن لكل شخص وجماعته وما يملكون مكاناً يتجمعون فيه ويعقلون فيه إبلهم. وجلس داوتي عند نار القهوة، وقد أوقدت بالقرب من زقاق سليمان الجلدية المملوءة بالسمن، وكان عددها أربعة وعشرين زقاً، وضع بعضها بجوار بعض في تناسق، وكانت تزن حوالى طن تقريباً. وتمثل كل أربعة من هذه الزقاق – التي يحوي كل منها خمسة عشر صاعاً قصيمياً – حمل بعير، وكان ثمنها الأساس ثلاثين ريالاً، ولكنهم كانوا يتطلعون إلى بيعها في مكة بستين.

قضى العديد من سكان عنيزة الليلة الأخيرة التي سبقت رحلة القافلة في ذلك المنزل مع إخوانهم وأصدقائهم الراحلين عنهم، ويقع هذا المنزل الذي تتحرك منه قافلة مكّة عند عوهلان، وذكر أن بعض أكواخها محفورة في الحجر الرملي في تلك المنطقة، "لكن لم يسعفني الوقت لاستجلاء أمرها".

عرف خليل في هذا المعسكر أول مرّة أن ليس بين أفراد القافلة من يزمع الذهاب إلى جدّة، فكلهم قاصدون مكة المكرّمة، ولهذا أوصى عبد الله الخنيني سليمان، وكلف البسام ابنه عبد الرحمن، بأن يوكل أمر داوتي في المحطة السابقة لمكة – في وادي الليمون أو السيل – إلى "آدمي" يوصله إلى جدّة من دون أن يبلغ الحدود (حدود الحرم).

يصف خليل قافلة السمن بأنها تضم مئة وسبعين بعيراً، تحمل تقريباً ما يزن ثلاثين طناً سمناً، إضافة إلى أربعين بعيراً آخر يركبها بعض التجار، أما الآخرون فهم سائقو الإبل الذين يقطعون كل هذه المسافة سيراً على الأقدام. وجرى تنظيم المسافرين ضمن القافلة في مجموعات صغيرة، تضم كل مجموعة صاحب السلعة، وأصدقاءه وخدمه، والمؤجرين له، وكان لكل مجموعة شراع أو خيمة تنصبها لتتقي بها حرارة الشمس عند الظهيرة، وتوضع تحتها أيضاً "جروم" السمن حتى لا تنضح بحرارة الشمس اللاهبة، ويدهن كل "جرم" بعسل التمر بكثافة لوقايته، ثم يعلق بعروتين من كلا جانبيه على خشبة الرحل. ويحدث أن ينشق "جرم" حين تكون القافلة في مسيرتها "ويسيل ذلك السائل الغالي" كأنه الماء، ويسكب على رمال الفيافي، ويحدث أن ترتطم أحمال الجمل أحياناً بأشجار السنط فتثقب "الجروم" بأطرافها الشوكية. ولهذا تراهم يستحسنون – في ما يقول داوتي – أن يكون في القافلة سكّاف ليقوم – حين ينزلون مساءً – برتق الثقوب التي تركتها حوداث السير في زقاق السمن.

يذكر خليل أن أهل عنيزة يبتاعون السمن من البدو في فترة الربيع، ويخزّنونه في أوعية رخامية حتى يحين موعد مسير القافلة. ويقدّر خليل ثمن السمن الذي تحمله تلك القافلة – حين يباع في مكة – بحوالى ألفي إسترليني، ويذكر أن زامل يعيّن أميراً على تلك القافلة الكبيرة التي تخرج من مدينته، وكان أمير القافلة التي خرج فيها هذا الرحالة أحد أقرباء زامل، وينحدر من أسرة أميرية، كما يفيد أيضاً بأن أمير القافلة يتقاضى ريالاً عن كل بعير فيها، وقد حصل الخنيني من زامل على خطاب لهذا الأمير يوصيه بالرحالة خيراً، ويطلب إليه رعايته على طول الطريق، ويكلفه بالاهتمام بأمر سلامته حتى في المرحلة اللاحقة لمفارقته القافلة.

جلس خليل مع جماعته المرافقة في مخيمهم، وأخذوا يثرثرون حتى أصابهم الإجهاد فاضطجعوا يتهيّأون للنوم، مفترشين رمال النفود، فناموا ثم انتبهوا عند الفجر، وكانت هناك فسحة من الوقت تمكّنهم من أن يشربوا القهوة قبل أن تتحرك القافلة. أما أمير القافلة وبعض ميسوري الحال من التجار الخارجين مع القافلة فقد قضوا ليلتهم في عنيزة. ويذكر داوتي أن هؤلاء يسبقون الركب على العمانيات، وهي إبل تتميز بقوتها العظيمة وسرعتها، لكنها أقل صبراً على الجوع وتحمّل العطش من الإبل الأخرى الأقل ميزة، ويذكر أن سعر العمانية الجيدة في عنيزة يتراوح بين خمسين وسبعين ريالاً، أما في مكة حيث تتمتع هذه الفصيلة بصيت ذائع، فلربما تعذّر شراؤها بأقل من مئة وخمسين ريالاً.

أخذ العمال من الفجر يضعون الأحمال على الإبل، وحين ارتفعت حرارة الشمس أخذت القافلة تتحرك وبدأت المسير، وانحدرت إلى وادي الرمة، وواصلت مسيرتها ساعتين، ثم أناخوا قبل الظهر في شعب الشبيبية للمقيل (يقيلون) وللوقاية من حرارة الشمس الملتهبة، فقد كان الحرّ شديداً، حتى إن درجة الحرارة التي قيست داخل الخيمة وصلت إلى ١٠٥ ف.

يحدثنا خليل عن الشبيبية التي تضمّ مزرعة شتوية لأهل عنيزة محاطة بسور طيني خرب وساحات مسوّرة عالية، وأفاد بأنه قد سكنها في الفترة منذ بداية الخريف حتى وقت الحصاد بعض عائلات العمال الذين يعملون وراء إبل السقيا، وتزوّدت القافلة من هذه المنطقة بماء مالح. ويلاحظ هذا الرحالة معسكراً يضمّ عدّة أشكال من الخيام. فالأشخاص الرئيسون فيها صُنعت خيامهم من الجوت المفصل على هيئة الخيام البدوية، كما أقاموا بعض العرائش من سجاد بغداد، ورأى داوتي أيضاً خيمة مستديرة أو خيمتين اشتراها البعض من مناطق على ساحل الخليج، أما المسافرون الأرقى حالاً فكانوا يستظلّون من حرارة وهج الشمس ببعض الستائر المصنوعة من الصوف، وقد سمع داوتي أنها من الغنائم التي أخذت من قبيلة قحطان.

راحت الشمس اللافحة تتدلّى متهادية في كبد السماء وهي تجنح للغروب، وفي حوالى الساعة الثالثة بادر خادم الأمير إلى إطلاق إشارة بدء المسير بصرخة أطلقها مدوية (شيل)، وما هي إلا لحظات حتى أزيلت الخيام والعرائش، وأنيخت الإبل، وأخذ العمال يُحمّلونها بزقاق السمن الثقيلة بسرعة فائقة تفوق طاقتهم. وركب الوجهاء من أصحاب العمانيات متقدمين الركب، و لم يكن أمام من يتأخر بعد ذلك إلا أن يلزم مؤخرة الركب. ويذكر خليل أن خادم الأمير يقف مثل راعي السوائم في مقدمة القافلة، ناشراً ذراعيه وملوّحاً بهما لإيقاف الركبان المتعجلين حتى يلحق الآخرون بهم، كما يمكن أن تراه أحياناً يجري هنا وهناك، ويدور في المعسكر، وهو يصرخ في الأشخاص الذين تلكأوا في الاستجابة العاجلة للأمر بالمسير.

هكذا بدأت القافلة في المسير مرّة أخرى، وسارت المجموعات وهي تكاد تتلاصق، وذلك خوفاً من المهالك في الصحراء. وكان مسير القافلة في اتجاه جنوبي بالنسبة إلى وادي الرمة، في سهل رملي واسع، لكن رماله كانت أثبت من رمل أرض النفود. وأبصر الركب إلى الغرب منه جبال أبان تتّشح بالسحب الرقيقة. ومع مغيب الشمس أناخت القافلة عند مزارع المجنوي، وهي مزارع مسوّرة تابعة لأهل الرس، على مسافة في الوادي، وأصبحت القافلة في مواجهة الخبرا.

يلاحظ هذا الرحالة أن أهل القافلة لا يضربون خيامهم مساءً، إنما يمدّون قماشها فيصبح كالسجادة، ويجلس على هذا "الفرش" رجال المجموعة ترمقهم نجوم المساء، وفي وقت النوم تصبح تلك "الفرشة" خالصة للشخص الرئيس في تلك المجموعة، لا يشاركه فيها أحد.

ويذكر داوتي أن القافلة حين تنزل منزلاً، يقوم أحد الأفراد في كل مجموعة – وهو الطباخ –

بجمع حطب الوقود، كما ينصرف شخص آخر ليرعى إبل المجموعة في فترة نصف الساعة الذي يفصل بين نزولهم وحلول الظلام.

يستخدم سليمان – في ما يقول داوتي – ثلاثة عمال: أحدهم بدوي، وآخر هو رجل فقير من أهل عنيزة وطباخ المجموعة.

بعد ساعة من نزول الركب في هذا المنزل، أهلّ على مجموعة سليمان طبق العشاء الذي حوى نوعاً من عصيدة القمح. وبعد أن فرغوا من تناول الطعام، تناولوا القهوة، ثم جلس القوم فترة يثرثرون ويدخنون التبغ، وأخيراً تدثر كل منهم بثيابه واضطجعوا على الرمل استعداداً للنوم والراحة في الساعات القليلة المتبقية من بزوغ الفجر.

استيقظ الركب قبل الفجر بساعة على صرخة مدوية: "الرحيل"، وأسرع القوم إلى نيرانهم الخامدة ينفخون فيها حتى استعرت لهباً، ثم زيد لها في الحطب حتى يستضاء بنورها. وارتفع بعدئذ ضجيج الرجال – كما يذكر داوتي – وتنامت جلبتهم وتعالى شهيقهم وزعيقهم، وهم يتنادون لجمع الإبل وتحميلها. و لم تمض دقيقة أو اثنتان إلا وكان جميعهم على أهبة الاستعداد. ركب البعض منهم على الإبل، أما الآخرون فراحوا يتفحصون الأرض المعتمة من حولهم خشية من أن يكونوا قد تركوا شيئاً وراءهم سهواً، ثم ما لبثوا أن ركبوا بعد ذلك ليلحقوا بالآخرين، وهكذا بدأ يوم جديد في مسير القافلة، راحت تغالب فيه حرارة الشمس حتى المساء.

الرس

بعد ثلاث ساعات قطعتها القافلة في المسير عبر ذلك السهل الصحراوي تبدّت لها الرس، تلك القرية التي لم يبخل أهلها قبل عقدين من الزمان – حفاظاً على استقلالهم – بقطع نخيلها لإقامة المتاريس لصد هجمات جيش إبراهيم باشا الذي قاوموه ببسالة – كما يذكر داوتي – وأرسل أمير القافلة أحد رجاله ليتلقط الأخبار في تلك القرية. ورجع الرجل ليقول: إن تجار السمن من أهل الرس انضموا إلى قافلة بريدة التي كانت قد نزلت بهم قبل يومين.

يصف خليل الرس فيذكر ما يقال عن أنها أكبر من الخبرا، وتبدو كأنها ثلاث واحات ترقد غير بعيد بعضها عن بعض في اتجاه شمالي جنوبي، وتقع المدينة الرئيسة في الرويئة، الواحة الأولى، أما الواحة الثانية التي تسمى الرافية فتضم قرية أيضاً، كما تضم برج مراقبة مرتفعاً يختال فوق هامات النخيل، بينما تعدّ الواحة الثالثة – شيناني – أقل شأناً من سابقتيها. ويذكر خليل أن الرس هي آخر قرى القصيم، أو قل هي "باب القصيم" أصلاً. ويلاحظ أن القافلة قد غدت عند أطراف النفود، فلا غرو أن أصبح السهل تحت أقدامهم حصوياً قاسياً حين أشرفت

على أراضي القسم الأوسط من شبه الجزيرة العربية الغرانيتية البازلتية التي تمتد من جبال شمّر حتى مكة المكرّمة. وأبصر هذا الرحالة – في ما يروي – من مكانه الأبانات التي تقع على مسيرة نصف يوم إلى الغرب من مسير القافلة، وهي "ساحل" جبلي غير مرتفع شبيه بمنطقة جبل أجا يمتد في اتجاه الجنوب، ويقوم في هذه المنطقة جبلان، أحدهما خلف الثاني، ويفصل بينهما مجرى الوادي الضيق في هذه المنطقة، ويسمى الجبل الشمالي الأسود، وغالباً ما يشار إليه بالأسمر، أما الجنوبي الذي هو أكثر علوّاً من الأول فيسمى الأحمر. ويعتقد داوتي أن الجبل الأول ربما كان من البازلت، والثاني من الغرانيت، ويشير إلى أن حقول الرس تُزرع قمحاً في وادي الرمة، أما نخيلها ففي المنطقة المرتفعة.

سارت القافلة حتى وصلت ظهراً أم طيّة، وهي مزرعة شتوية أخرى بعيدة على أهل الرس، وعبّر خليل عن اعتقاده أن هذا المكان مأهول غير مهجور، وعاد الأشخاص الذين أرسلوا إلى تلك المزرعة لجلب الماء، وهم يتضاحكون، فقد شاهدوا هناك قطعة من الأرض مزروعة تبغاً. وتحركت القافلة من ذلك "المقيل" في أم طيّة، وراحت تضرب فوق تيه مليء بالأحجار البازلتية، وتقطع نتوءات من الصخر الغرانيتي الرمادي الضارب لونه إلى الحمرة. وأخيراً أخذت الشمس تتهادى في طريقها نحو المغيب وأشعتها الصفراء كالنضار تتساقط خلف جبال أبان، وكان هذا إيذاناً بالنزول لقضاء الليل، فنزلوا.

إبراهيم أمير القافلة

يذكر خليل أن إبراهيم، أمير القافلة – الذي خلف والده في قيادة قوافل عنيزة – شاب في العشرين من عمره، تحدث ملامحه عن الشجاعة، وهو ابن أخت زامل، كما أنه يشبه زامل في شبابه، رغم اختلاف قدر كل منهما عن الآخر. ويمتاز إبراهيم بأنه هادئ الطبع، دائم الابتسام، واثق بنفسه، لا يتدخل في ما لا يعنيه، ولكنه "على الرغم من ذلك، علق الصدأ الوهابي بروحه". يؤدي إبراهيم عمله من دون كبير عناء، فيبدو مثل شباب تلك الواحات الحرّة وكأنه يستمتع بإجازة، لكنه "كان مثلهم أيضاً إذا تغيّرت بهم الحال، يمكن أن يتردّى طواعية وبسعادة، ويدخل في دائرة أولئك العرب القذرين الجائرين".

عندما سلمت إبراهيم خطاب زامل تناوله بسرعة ووضعه في عبّه من دون أن يفضّه، وذلك حتى يقرأ على انفراد بين الفينة والأخرى ما سطّره له خاله "عن النصراني". وكان إبراهيم – في ما يقول داوتي – يتحفه بنظرات حانية يومياً، كما كان يسرع إلى نجدته حين يراه يكاد يسقط عن دابته، كما كان أحياناً يضع غليونه الذي يكون قد أشعله لتوّه في يد هذا الرحالة ليدخنه، ويدعوه أحياناً حين ينزلون مساءً لتناول العشاء معه.

يفيدنا داوتي بأن تجار عنيزة الذين لهم حوانيت في مكّة المكرّمة وعدداً قليلاً من الأعيان يركبون مع إبراهيم في مقدمة القافلة على ذلولات عمانية، وعادة ما يسبق هذا الركب القافلة، كما كانوا ينزلون - من دون غيرهم - بين الفينة والفينة لإشعال النار وإعداد القهوة. ويذكر داوتي أنه كان يفضّل أن يركب ضمن المسيرة الرئيسة في القافلة، وأن إبراهيم داعبه ذات مرّة قائلاً إنه سمع بي أول ما سمع في الكويت حيث قيل: هناك نصراني في حائل طوله ثلاثة رماح.

أناخت القافلة لقضاء الليل على مسافة ساعة من دخنة، عند منطقة الخبر الصخرية. وصلت القافلة إلى الروكة وملأت قربها من ماء بئر ثقيلة الماء مختلط بدمن قديمة خلفته سوائم البدو. ويذكر خليل أن من يعاف في الصحراء تناول مياه الصحراء سيهلك لا محالة عطشاً، ووجد هذا الرحالة في هذا الموقع قلعة مربعة عالية الأسوار بأربعة أبراج تقوم على أركانها الأربعة، ويفيد بأن أهل الرس قد بنوا هذه القلعة ليلجأوا إليها حين يفدون إلى هذا المكان لاستخراج ملح البارود.

ملاحظات على رفاق القافلة

في القافلة رفيق يسمى الشيخ مذكر، وهو شيخ من قبيلة عتيبة الذين يعمرون هذه المتاهة المترامية. صادف خليل مذكر في خيمة إبراهيم، فقد كان ينزل مع ذلك الأمير، ويروي أن هذا الشيخ يركب مع القافلة عبر هذه الأرض لحمايتها من عدوان قبيلته، وقد كان مذكر وتابعان أو ثلاثة مكان العين من القافلة في تلك الأرض، يرشدونها ويوجهونها. هذا بالرغم من أن رجال القوافل من أهل القصيم الذين كانوا ضمن القافلة قد خبروا هذه الصحراوات منذ صباهم، وتمرّسوا بمساراتها، وعرف خليل من صالح - أحد رجال هذه القافلة - أنه عبر هذه الطريق إلى مكة المكرّمة جيئة وذهاباً أكثر من مئة مرّة - أي إنه قطع في هذه الصحراء حوالى خمسين ألف ميل، واستغرق قطعها منه أربع سنوات. وروى صالح أنه ذهب إلى الشمال حوالى مئة مرّة أيضاً في رحلات بدأها من عنيزة في القصيم إلى مدن الخليج المختلفة ومقاطعات ما بين النهرين. ويروي خليل أن صالح يستطيع أن يخبر باسم أي صخرة بارزة على جانبي هذا الطريق الطويل. ويضيف أن هؤلاء الرجال قد خبروا مساراتهم جيداً، ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن المتاهات المترامية الأخرى الموجودة وراء تلك العلامات الأرضية التي زرعوها جيئة وذهاباً.

ما ألطف وقع مزاح البدو مقارنة بمزاح أهل المدينة من ذوي المزاج العكر... سألني الشيخ مذكر ماذا يمكن أن أقدم له من الهدايا إذا زارني في بلادي؟ هل يمكن أن أهبه مهرة وزوجة؟ فأجبته سائلاً بدوري: وماذا يمكنك أن تعطيني أنت يا مذكر إذا حللت ببيتك؟... ويبدو أن هذا السؤال قد أزعج هذا البدوي، لأن خيمته السوداء المصنوعة من الصوف الخشن، والتي

كان ينزل فيها أهله، لم تكن إلا على مسافة قريبة جداً من موقعنا. أجاب البدوي بأنه سيهبني بنتاً جميلة أتخذها زوجة لي. قلت له "ولكني وهبتك مهراً أيضاً يا مذكر". فأجاب: "زين يا خليل، سأعطيك جملاً كذلك". أما إبراهيم فقد قال لي: "سنذهب نحن إلى مكة المكرّمة وستفارقنا إلى جدّة، فأين ستذهب بعدئذ؟ فأجبته إلى الهند". وعبّر إبراهيم لي عن أمله بأن يزور الهند معي، وسأل أمن الممكن أن أنتظره في جدّة حتى يعود من الحجّ بعد أربعة شهور ليرحل معي إلى هناك ؟".

يلاحظ هذا الرحالة أن الإبل تُسرّح في كل منزل تنزله في منتصف النهار لترعى، وتأخذ في التجوال في تلك المنطقة الصحراوية، ولكنها لا تجد - إلا بالكاد - شيئاً تحشره في حلوقها الجافة، و لم تكن هذه الإبل تصيب إلا بعض كلأ قليل تملأ أفواهها به في الصباح الباكر، في الوقت الذي لا تزال فيه برودة الليل تسري فوق الأرض، وتنوء تلك الحيوانات في مسيرها بأثقالها، وتعرق كثيراً فتعطش، ويؤدي بها العطش إلى أن تمتنع تقريباً عن الأكل، وتظل على تلك الحالة مدة سبعة عشر يوماً حتي تصل إلى مكة المكرّمة حيث تُسرّح لتُراح، كما يلاحظ أيضاً أن إبل نجد تعاني بدورها في مكة المكرّمة، وذلك جرّاء هواء تهامة الراكد.

تقضي الإبل أياماً قليلة تراح فيها ثم تعود أدراجها مرّة أخرى إلى نجد حيث تصل إلى عنيزة، وقد تملّكها الهزال تماماً. أما العمال التابعون لمجموعة سليمان فقد قالوا لخليل "وهم يتنهدون، إن ما نعانيه في الرحلة من جهد أمر شاق لا يطاق". ويلاحظ هذا الرحالة أن أحد المستخدمين الثلاثة المرافقين لهم كان يركب في الفترة الصباحية، بينما يسير الاثنان الآخران راجلين، أما في فترة المسيرة المسائية فيركب الاثنان الآخران والثالث على رجليه. ويشير خليل إلى أن مسيرة أهل القوافل من القصمان تختلف عن مسيرة قافلة الحجّ السورية؛ فالقصمان يسرعون بإبلهم، يدفعونها بسرعة وهمّة ونشاط من ماء إلى ماء غير آبهين بحرارة الشمس. ويلاحظ كذلك أن موارد مياه تلك الصحراء المترامية يفصل بعضها عن بعض مسافات شاسعة، وعليهم أن يوردوا الإبل الماء في فترة لا تزيد على أربعة أيام، وإلا فإنها قد تُجهد إلى حدّ الإعياء.

يرى خليل أن أهل القافلة جميعهم يفقدون صبرهم في مدى ثلاثة أيام من بدء المسير - "وصبر الساميين بطبيعته قليل"، - فيبدأون بالزعيق بحيواناتهم بأصوات يشوبها اليأس. يزجرون شاكين حظوظهم بألفاظ تنمّ عن الشر وتفيض بالشؤم (يا مال الطير، يا مال الذباح). ويستجيب الجمل فيجدّ في المسير، ولكنه إذا توقف لحظة واحدة يلتقط قشّة يأخذون في الصراخ تارة أخرى: "يا مال الجوع" أو "يلعن الله أبو ها الرأس" أو "ها القلب" أو "ها الهالك". ويلاحظ خليل أن على سائقي الإبل أن يلازموها ملازمة مستمرة، كما يجب أن تظل عيونهم بصفة دائمة تراقب أحمالها، لأن الإبل حين ترد منطقة غزيرة الرمال، يحتمل أن تسقط على ركبها، وتتمرغ في ذلك الرمل لتخفف ما يحسّه جلدها من شعور بالحكّة.

وهنا يمكن أن يذهب كل شيء على أوارها هباءً.

يعتقد خليل أن الإبل لا تتعرف إلى طعامها بعيونها فحسب، ولكن بأنوفها أيضاً. فقد لاحظ أن الجمل يتوقف عند كل حجر أبيض، وعند كل دمنة (جلة) ابيضّ لونها حتى بدت كأنها حجر أبيض، ويأخذ البعير ذلك الشيء الأبيض ويلوكه في اكتئاب برهة، ثم يلفظه مرّة أخرى. ويروي أن العرب يقولون إن الإبل تصيب منه الملح الذي تستطعمه.

يدّعي خليل أن المسافرين في القافلة يزدادون كل يوم خشونة في المزاج، وتفتر كلماتهم فلا تراهم يرددون إلا اللعنات العظيمة. أما سائقو الإبل الذين جفّت حلوقهم من أثر العطش، وأصبح ريقهم كالحنظل، فلا يكاد يجيب بعضهم على حديث بعض إلا لماماً، وبكلمات نابية مثل: هل أنا عبد أبيك؟ كما قد تسمع أحد هؤلاء الغاضبين يصرخ في وجه جاره قائلاً: "الله لا يبارك فيك، ولا يجيب لك الخير"، أو بكلمات أخرى تدلّ على الفخر والتبجّح مثل: أنا ابن أبيك أو أنا أخو أختي الصغيرة.

يلاحظ خليل أن درجة حرارة الشمس في المقيل بلغت في أحد منازلهم ١٢٠ ف تحت الخباء. وشدّوا الرحال منه مبكرين، وأسرعوا الخطى حتى يردوا الماء التالي قبل غروب الشمس، وفعلاً بلغوا عفيف قبل المغيب بساعتين.

عند آبار عفيف

عفيف بئر قديمة يصل عمقها - في ما يقول داوتي - إلى عشر قامات، بُطّنت جوانبها بقطع من البازلت الأغلف، أسرع سليمان والآخرون من الرجال الرئيسين في القافلة يتسابقون نحو البئر، فكل يريد أن يبلغ فوهتها قبل الآخرين، ويحتل عندها أفضل الأماكن للسقي، ووصل ركب القافلة الرئيس، وتوقف عند جهاز متح الماء الذي هو عمود سميك ضرب في الأرض، وثُبّت بالحجارة، ورُكّبت على أعلاه عجلة (محال) هي نفس العجلة التي يستعملها البدو لمتح الماء من الآبار العميقة، إذ لا توجد لديهم وسيلة أخرى غير هذه الوسيلة، يجرّ الحبل الذي يمرر بالعجلة رجلان يجريان إلى الخلف ووجهاهما باتجاه البئر، بينما يقف رجل ثالث عند حافة البئر ليتلقّى الدلو المليء بالماء، والذي ما إن يظهر حتى يمسك به هذا الرجل ويجري ليفرغه في حوض الإبل. أما حوض الإبل نفسه فهو حُفرة في الأرض حفروها بالعصي والحجارة وبأيديهم المجردة، في تلك التربة الخشنة، ثم فرشوا على قاعها قطعة جلد أو قطعة سجاد. وعادة ما تصاحب مثل هذه المواقف جلبة متعالية، ولغط وأهازيج مثل أهازيج البدو ينشدها الرجال الذين تراهم يعملون بهمّة عندما يجتمع عدد كبير من الإبل ليردوا الماء من قليب (شليب) واحد. وتقدم خليل نحو حوض الإبل بُغية أن ينال حظّاً من الماء، ولكن الرجال طلبوا

إليه أن يحترس لئلّا ينزلق في تلك الميعة، ويسقط من على حافة البئر التي هي مثل "الجلبان" الصحراوية لا سور لها، فهي تفتح على سطح الأرض مباشرة. ويعتقد أن عمل الرجال الذين يستخرجون الماء لا يخلو من خطر، خاصة عندما يأخذ منهم الإرهاق مأخذه. ويروي أن رجل أحد "هؤلاء التعساء" زلّت فهوى إلى البئر، لكنهم أخرجوه منها بسرعة. فالعرب في مثل حالات سوء الحظّ هذه تنطلق إنسانيتهم فجأة بكرم عظيم لمقابلة الموقف، خاصة في مثل هذا الموقف، إذ إن الكثير منهم قد اعتادوا منذ فجر صباهم النزول إلى مختلف أنواع الآبار. ويخبرنا خليل أن ظهر هذا الرجل الذي سقط في القليب انكسر، فحمله صديق له على جمله، ولكنه لم يلبث أن تُوفي في الطريق.

يذكر خليل أن المجموعة الأولى ما إن تفرغ من السقي حتى يتوالى الماتحون التالون على الماء، جماعة إثر أخرى. يرتفع عند فوهة البئر التراب الراكد الناتج أساساً من حفرها عالياً، ثم يأخذ في الانحدار التدريجي، ولهذا نجد أن الرجال الذين يمتحون الماء يعودون إلى الخلف بسهولة ويسر نتيجة لهذا الانحدار، كما يلاحظ أيضاً أن الأوحال الناشئة عن السقي والغثاء لا تجد طريقها إلى البئر التي ترفع فوهتها عن محيطها جراء ذلك التراب المستخرج حين الحفر. واسترعى انتباه خليل عند تلك البئر أول أثر للحياة الإنسانية يصادفه في طريقه، فقد رأى في هذا المكان رماد نار لم تخمد بعد تماماً، وأبصر عند الرماد أكبر قرني غزال رآهما في حياته. ويعبّر عن اعتقاده أن صائدي هذا الغزال كانوا من "الصلب"، فقد تبيّن بعض رجال القافلة آثار حميرهم في الصحراء.

يرى داوتي أن لمن المدهش حقاً - حتى في أوساط العرب - ملاحظة كيف يعيش هؤلاء "الصلبة" المنعزلون مكتفين بصيد الخلاء. يكتفي الصلبي من دنياه ببندقية الفتيل الطويلة، وبقليل من الماء. وقد اعتاد هؤلاء الصلب أن يشربوا جرعات من الماء (المريسة) قبل الفجر بساعتين، ثم يطرقون في الأرض بعد ذلك لا يحسون سغباً ولا عطشاً حتى يحين موعد الظهر. يذكر خليل أنه أخذ هذه العادة منهم، ووجد أن الإنسان عندما يرتوي في وقت مبكر يظل حتى منتصف النهار من دون أن يعطش، بينما رفاقه في هذه المسيرة يشربون في هذه الأثناء حوالى ثلاث مرات، ونادراً ما كانوا يناولونه الماعون الذي يشربون منه عندما يصبّون لأنفسهم إلا بعد أن يصبّوا عليه لعناتهم ويظهرون حقدهم عليّ. أما إذا كان سليمان بعيداً عنهم فإنهم يرفضون إعطاء النصراني ماءً البتة. وعندما شكوت هذا الأمر إلى سليمان الذي لم يكن بدوره الرجل الطيب، لم يزد على أن قال: إننا نقاسي كلنا في هذا الطريق، ولا أستطيع أن أعالج لك هذا الأمر، فهؤلاء هم الأعراب، وهذه هي حالهم. أما عبد الله فلم يكن جوابه إلا: هل ترى هذا الولد يا خليل؟ لقد التقطناه من شوارع عنيزة، أما الثاني فهو ولد بدوي من الشمال ينتمي إلى عنزة، وهو - في ما يُروى - قد قتل والده، أما الثالث وهو الطباخ فهو رجل فقير من عنيزة، فإذا رحت أعنّفهم أو ألومهم فإنهم - والله - سيتركونني في المنزل

القادم "ويروحون" إلى حال سبيلهم.

يشكو داوتي ويذكر أن من العبث أن يحاول أحد الحصول على ماء للشرب من مسافر آخر لا ينتمي إلى مجموعته. ويروي أنه مرّ يوماً بأحد أهل عنيزة من المسافرين في القافلة كان قد نزل عن بعيره ليشرب، وطلب إليه قبل أن يعيد الماعون إلى مكانه أن يصبّ له جرعة ماء، لكن الرجل ربط فوهة قربته بسرعة وتظاهر بأنه لا يعرف خليل الذي يدّعي أن زوجته من المرضى اللائي تولّى علاجهن. ويستطرد فيقول إن الرجل ربما تذكر عندما خاطبه باسمه أنه ما زال يذكر الدين الذي لخليل في رقبته، إذ إنه لم يدفع ثمن الدواء الذي تناولته زوجته، وتحرّج الرجل عندما سمع خليل يناديه باسمه، فحلّ فوهة قربته مرّة أخرى وصبّ له جرعة من ماء الصحراء وهو يقول: "هذه هي متاعب الطريق، فهي تنسي الرجل حتى معارفه، وعموماً يجدر بي أن أقول لك: (أمش أهلك)". ويضيف خليل أن الشحيح بماء قربته لرفاق القافلة يوصمه أصدقاؤه الغاضبون منه بأنه "بياع الماء".

يذكر خليل أن ذلوله كانت ضئيلة الجسم متخشبة الأوصال، ضعيفة لا تستطيع مجاراة الأخريات في سيرها، وكان يتحتّم عليه وهو على ظهرها أن يقوم بالعديد من الحركات ليدفعها إلى المسير قدماً. وقد ذكر له سليمان أن جلد ناقته يابس، وأنه حين يصل إلى مكّة المكرّمة سيحدث فيه عدداً من الحزوز بالسكين لمعالجتها.

وجد خليل أن عفيف أبرد هواءً من سواها من المناطق التي مرّ بها سابقاً، إذ كانت درجة الحرارة ٧٢ ف، أما درجة حرارة ماء تلك البئر فكانت ٧٩ ف، وقد تجمع الذباب والبعوض حول ذلك الماء. ويضيف أن الإبل وردت الماء في الصباح مرّة أخرى، إلا أن إشارة الرحيل المنتظرة لم تصدر، وارتفعت الشمس في الأفق، وعندها سمع خادم الأمير ينادي "اليوم نقيم".

يفيد هذا الرحالة بوجود طريقين رئيسين للقوافل التي تخرج من القصيم إلى مكّة المكرّمة: الطريق الأول ذو الموارد الأوفر والأنقى مياهاً يُسمّى الدرب السلطاني، وهو الطريق الذي تسلكه عادة قوافل السمن الخاصة ببريدة والرس، أما الطريق الثاني فهو الدرب الأوسط الذي سلكته قافلة داوتي وهو بعيد بين الموارد، وتسلكه عادة الجماعات المتعجلة. ويعبّر داوتي عن اعتقاده بأن احتمالات النزاع مع العرب الذين ينزلون صيفاً على الموارد أقل في الطريق الأول، وأن أهل القافلة لا يجرؤون على سقي إبلهم حين يكون "أولئك البدو المتقلبون" نازلين على تلك الموارد، وفي مثل هذه الحالات يظل أهل المدن في انتظار رحيل البدو عن المورد ثم يبدأون السقي، وخاصة أن البدو لا يأخذون كلمات أهل المدن على محمل طيب. أما إذا كانت أعداد البدو النازلين عند تلك البئر كبيرة، فإن أهل القافلة قد يضطرون إلى أن يردوا الماء سراعاً، وهم يحملون السلاح، ثم يدفعون بعدئذ بإبلهم التي لم تكن قد ارتوت ليبلغوا القليب التالي في ذلك التيه المترامي، وتستكمل إبلهم سقيها هناك.

إلى الشرق من المعسكر الذي نزلت به القافلة طريق ثالث يُسمّى درب وادي الصبيا، وهو درب تسلكه الجماعات الخفيفة المتعجلة، فلا توجد في ذلك الطريق - في ما يقول هذا الرحالة - إلا موارد ماء قليلة العدد وشحيحة الماء، ويفيد بأن عبد الله البسام كان قد رجع من جدّة العام الماضي إلى بلدته عبر هذا الطريق، وأنه حين وصل إلى أحد هذه الموارد غير المطروقة، وهو قليب ابن خصيف، اضطر إلى أن يعمل وزملاءه يوماً كاملاً حتى ينظفوا ذلك القليب، ويضيف هذا الرجل أن بدايات كل هذه الدروب المتفرعة بدت له قريبة بعضها من بعض، حتى إنه أمكنه أن يميز العلامات التي على جانبيها.

يفيد خليل بأن عفيف تحيط بها جبال بازلتية غير مرتفعة، وتنمو حولها نباتات متشابكة كثيرة تسمي "ثرم"، وهي شبيهة بتلك التي كان قد رآها في درب قافلة الحجّ السوري. وسرحت إبل القافلة التي كانت جائعة لترعى هذه الأرض، وقام بدو عتيبة المرافقون لمذكر فاعتلوا المرقب الذي هو مكان بازلتي مرتفع، وذلك للقيام بواجب المراقبة، وراحت حرارة الشمس القاسية - في ما يروي داوتي - تضرب بغير هوادة تلك المناديل التي تلتصق برؤوس أولئك النفر الذين كانوا يراقبون الإبل، فهذه الشمس التي يمكن احتمال درجة حرارتها في فترات المسير، حين يخفف من أثرها تيار الهواء المتحرك، غير محتملة الحرارة حتى للبدو في تلك الفترة التي يتعرضون فيها لأشعتها المباشرة وهم وقوف يراقبون الإبل المسرّحة. "وتنهّد عاملنا البدوي والشمس تشوي تلافيف مخّه الصغير وهو يقول: يا لها من شمس؟".

صدرت مع حلول المساء - في ما يقول داوتي - إشارة من المراقب، فجرى تجميع إبل القافلة بسرعة فائقة. فقد لمح أولئك الكشافة خيالاً (زول) لبعض العرب فتوجّسوا منه، ولكن سرعان ما تبيّن لهم أن ذلك الخيال لم يكن سوى أربعة من "الصلبة" على ظهور حميرهم.

ماء شرمة

في اليوم العاشر لرحيل القافلة من عنيزة تبدّى للمسافرين جبل الخال البازلتي الأسود ذو القمّة المخروطية، وكذلك رأوا عن بعد جبل ثلوم الغرانيتي المنبعج ذا الثلاثة رؤوس، وعندما يلوح لهم هذان الجبلان يهلل الحجاج النجديون، ويستبشرون ويشكرون الله، لأنهم يعرفون حينئذ أنهم قد أصبحوا في منتصف الطريق إلى مكة المكرّمة، ويقع مورد شرمة في المنتصف بين هذين الجبلين. وجد داوتي في شرمة آباراً ولكنّ ماءها كان مرّاً، حتى إن القصمان أنفسهم لا يستسيغونه. ولما كانت القافلة ستمرّ بمورد ماء آخر، ولما كانت لا تزال في قربهم بقية من ماء، لم يتزودوا من هذه الآبار بكثير. وقد حاول داوتي أن يقسر نفسه على تجرّع ذلك الشراب النتن الرائحة المثير للاشمئزاز، فقد وجد - في ما يدّعي - أن ذلك أهون عليه وأيسر وقعاً

من التنازع مع عمال سليمان حول جرعة ماء يطلبها منهم. ويروي أن طعم ذلك الماء شبيه بأكسيد الألومنيوم، وعلى الرغم من ذلك ملأ الطهاة منه بعض قربهم ليخلطوه بما تبقّى لديهم من ماء عفيف. ويستخدم الخليط لتجهيز العشاء. ويضيف أن عددها كان ثلاث آبار، وأن إحداها مغلقة بالغثاء ويرتفع فيها الماء إلى قامة واحدة. وقد جفّت تلك الآبار كلها ولمّا ترتوِ الإبل جميعها. فقد استنفدت الحيوانات مياه هذه الآبار تماماً، وظلت جموع الإبل المتعطشة للماء تنتظر ساعة أخرى حتى ارتفع الماء في الآبار مرّة أخرى، فأرسلت تلك الإبل لتشرب.

في اليوم التالي، ما إن أرسل الفجر أشعة النور الأولى حتى أخذت القافلة تجدّ في سيرها، وتبيّن لخليل أن الطريق يسير موازياً لحدود الحرّة التي كانت أجزاؤها السفلى لا تزال تكتسي غيوم الصباح التي راحت تحجبها عن أنظارهم، وتقف فوق تلك الحرّة قمم تلال بركانية، ويمرّ الدرب بالسلطاني الذي سلكته القافلة على مسافة يوم ونصف من ذلك السهل البركاني الذي جانبته، لأنه يبلي أخفاف الإبل التي كانت قد حفيت بعد أن قطعت تلك المسيرة الطويلة السريعة. وقد عرف داوتي أن الإبل التي تتقرح أخفافها يستغني أصحابها عنها. ولخشية بعض عرب نجد على إبلهم من هذا المصير، تراهم يعالجون بالبول خفاف إبلهم حين ينزلون للراحة. "وهنا لا أملك إلا أن أتساءل: ألا يمكن أن يجعلوا هذه الإبل تنتعل قطعاً من الجلد، وخاصة أننا نجد في أبيات المعلقات (لبيد ٢٣) ما قد يمكن تفسيره بأن العرب الأقدمين كانوا يستعملون مثل تلك الأحذية للإبل. وفي الحقيقة فإننا لم نألف من داوتي معرفة بالتراث العربي، ولا ندري كيف اهتدى إلى هذا البيت الذي يجري على النحو التالي:

فإذا تعالى لحمها وتحسّرت   وتقطعت بعد الكلال خدامها

والخدام هو سيور تُشدّ بها النعال إلى أرساغ الإبل.

يفصل بين مسيرة القافلة وبين تلك الأرض البركانية مستنقع أسود مهشّم ابيضّت حشائشه وأحجاره بالملح السباخ الذي لا نلمح عليه أي أثر لقدم. وتتفرع من تلك الأرض المالحة دروب ضعيفة تسير في اتجاه الشرق وتنتهي في منطقة وراء طريق القافلة. وقد أبصر المسافرون – قبيل الظهر – آثار أقدام بقر وحشي انحدر من الحرّة التي فيها موارد مائية طيبة. وازداد القوم عطشاً في ذلك اليوم، إذ لم يتبقّ لهم إلا ذلك الماء الأسود الحامض الذي جلبوه من شرمة، ولم يكن هناك أمل في هذه المرحلة من المسير لبلوغ الآبار التالية إلا ليلاً، أو ربما في صباح اليوم التالي. وازدادت حرارة الجوّ حتى بلغت ١٠٧ ف في الظل تحت الخيمة، وأخذ السمن يغلي من وطأتها.

يلاحظ خليل أن كل مجموعة من مجموعات الرجال في القافلة تحلّ معاً، ويأكل كل سيد منهم مع عماله التمر وما تبقى لهم من عشائهم في اليوم السابق من برغل أو أرز (تمن) قليل، ولكنه لاحظ أيضاً أنهم زهدوا في ذلك اليوم في الأكل، وذلك لزيادة حدّة العطش.

ذهب خليل إلى خيمة إبراهيم والبسام، وكان في ركاب كل منهما عدد من قرب الماء لا يقل

عن عشرة، وذلك أملاً بأن يظفر بفنجان قهوة أو جرعة من ماء. وجاد عليه الشابان بجرعات من الماء، ولكنهما لم يزيداه، "وهذه هي حال العرب في أسفارهم". ومرّ ذلك الصباح ثقيلاً، فالعطش يزداد والماء لا يزال بعيد المنال.

وحانت مني التفاتة ونحن ركوب، إذا بي ألمح رفاقي يحتسون الماء سرّاً، وخطر لي أنهم لا بد أن يكونوا قد شربوا من هذا الماء في فترة غيابي بعيداً عنهم حتى أترعوا، وتركوني أعاني حدّة الظمأ. وذلك رغم ادّعائهم سابقاً أنه لم يتبقّ من الماء شيء، وبدا لي في هذه اللحظات أنني إذا تمكنت من أن أتناول شيئاً من الماء في هذا الوقت فإني سأستطيع أن أصبر على العطش حتى الصباح. وناديت الرفاق أن صبّوا لي شيئاً من الماء: إننا رفاق، وقد أوصى بي عبد الله الخنيني خيراً. وانبرى رفاقي يصبّون عليّ لعناتهم البشعة بدلاً من أن يصبّوا لي الماء، أما سليمان فقد تظاهر بأنه لا يسمع ما يدور في مجموعته من لغط، ووجدت أن هذا الأمر المُلحّ لا يقبل التأجيل، فترجّلت وقصدتهم مصمّماً أن أنال حظي من الماء سواء أرادوا أو أبوا، وأخذ ذلك البدوي يُلوّح لي بهراوته ويتراقص ليصدّني عن مبتغاي، وخشي سليمان من وقوع عراك، وطلب إلى عماله أن يصبّوا ماءً لخليل فامتثلوا لطلبه. وكان ذلك الماء الذي حظيت به حلواً، وقد أصابوه في عفيف ثم خبّأوه يومين متتالين عن "النصراني"، وكان يمكن أن يشربوا منه مرتين أخريين في مسيرة بعد الظهر.

يذكر داوتي أن أهل عنيزة المسافرين في تلك القافلة كانوا من الوهابيين، ولكن أغلبهم كان يجامله بإلقاء التحية عليه، "ونحن نقطع هذه المسافة الشاسعة، كيف الحال يا خليل؟ هل أنت مجهد؟ لا بأس سنبلغ حالاً نهاية رحلتنا". ويضيف أنه لم يسمع من هؤلاء الرجال أي كلمة جارحة إلا مرّة واحدة، وذلك في فترة الراحة المسائية في عفيف. يقول خليل إنه كان يسير في الظلام في اتجاه خيمة إبراهيم ومذكر، فمرّ بمجموعة تعثّر بزقاق سمنها، وصرخ بعض أولئك الرجال "بأصوات بشعة: "إلى أين أيها الكافر؟" ولكن البعض الآخر طلبوا منهم أن يكفّوا عن ذلك وقالوا له: "اذهب يا خليل إلى حال سبيلك، ولا تهتم بهؤلاء الرجال".

حزيم السيد

قال سليمان لخليل إنه سبق أن تعامل أحياناً مع بعض أصحاب السفن الإنجليز، وإنه وجدهم طيبين في تعاملهم وأميز من الأتراك، وأضاف: يمكنك أن توكل بضاعتك إلى الانجليز فيحفظونها لك من دون أن تصاب بسوء من ضياع أو تلف، أما في السفن التركية فعليك أن تبذل المال للعاملين على تلك السفن مرّة تلو الأخرى قبل أن تشحن بضاعتك. ويروي خليل عن سليمان أن البحارة العاملين على السفن التركية عادة ما يقومون بسرقة القدر الذي

يستطيعونه من السلع أثناء الرحلة، أما مع الإنجليز فستجد منهم المعاملة الطيبة، كما تجد أيضاً عندهم جودة التنظيم، "ولكن (والله) إذا حدث أن عمل أحد الإنجليز مع "العصملي" فإنهم سيصيرون مثلهم في زمرة المرتشين، بل سيكونون أردأ من الأتراك في هذا المجال".

استمر المسير في فترة العصر، وأخذت السحب تتراكم وتغطي قرص الشمس النحاسي. سارت القافلة حوالى ثلاث ساعات وهي تتفيّأ الظلال السماوية، تاركة جبال الكاميم وحكران وراء ظهرها. وهنا أحسّ خليل باضطراب في مقدمة القافلة، فقد انبرى راكبو النياق السريعة في عدو سريع ليحصلوا على ماء من آبار على مسافة ليست بعيدة عن الطريق، وعندما بلغوا ذلك المكان قفز كل منهم من على ظهر راحلته إلى قليب ليملأ قربته، وغاص في ذلك الماء القذر حتى خاصرته، وراح يعبّ الماء عبّاً حتى امتلاء كرشه، وذلك قبل أن يفطنوا إلى أن ذلك الماء رديء، تعافه النفس وتتقزز منه. يقع هذا المورد - في ما يروي داوتي - في حزيم السيد التي هي روضة جميلة جداً من أشجار السنط تقف ريّانة في ذلك الخلاء الأجرد، فيها العديد من آبار السقي التي يصل عمقها إلى تسع قامات ونصف القامة، تمتلئ بمياه الأمطار. واقترب بعدئذ النفر المتبقي من هذه الموارد، وبدا كأن العطش قد أنسى سائقي الإبل طريقهم. وحين وصلت كافة الإبل إلى الموارد، أصدر إبراهيم أمره إلى القافلة بالنزول للراحة، ويقول داوتي إنه أدرك منذ الوهلة الأولى أن شرب ذلك الماء بات ضرورة حيوية لا يؤبه معها تأثيره في الصحة، وقد حدث فعلاً أن عانى العديد من أولئك الرجال الذين شربوا من ذلك الماء الإسهال ليلاً، أما داوتي فلم يحسّ وصباً جرّاء تناول ذلك الماء، ويضيف أنه لم يصب بأي مرض يوم أمس أيضاً بعد أن تجرّع ماء شرمة. "ورحت حينها أستحضر - بقلب شاكر - أني لم أدخل في دائرة المرض أبداً في هذه السنوات التي قضيتها في الأسفار، على الرغم من أنها كانت كلها - بنحو أو بآخر - سنيّ معاناة".

أرسل إبراهيم في المساء بعض راكبي النياق ليتحسّسوا الطريق إلى الماء الذي في طريق القافلة، والذي كانوا البارحة يطمعون في الوصول إليه في اليوم التالي، وطلب إليهم أن يعودوا مسرعين ويبلغوه إن كان هناك بدو ينزلون عنده. وحين ارتفعت شمس اليوم التالي - وكان رجال القافلة لا يزالون مقيمين في ذلك الموقع البهيج - خرج بعض الرجال يجوسون خلال تلك الأشجار الشوكية، وهم يحملون بنادق الفتيل الطويلة ليصطادوا الطيور التي تغشى عادة موارد المياه، والتي نادراً ما كانت تظهر في هذا الخلاء. وأشار مذكر على إبراهيم بأن يمنع رجاله من إطلاق الرصاص، فلربما يتقاطر الأعداء الذين قد يحفزهم صوت الرصاص إلى القافلة. فأرسل إبراهيم إلى أولئك الرجال المتفرقين هنا وهناك يطلب إليهم عدم إطلاق النار.

رجع الكشافة إلى القافلة بعد شروق الشمس بنصف ساعة يحملون أخبارهم، وقالوا إنهم صادفوا عند الماء مجموعة قليلة من بدو عتيبة، وإنهم تحدثوا مع واحد منهم، فدعاهم إليه

ليصيبوا بعض اللبن. وظلت القافلة رغم هذه الأخبار في مكانها لم تبارحه، ونُصبت الخيام، وذُبحت إحدى النوق العاجزة عن مواصلة السير (الفاتر)، ووُزّع لحمها على المجموعات التي كانت قد اشترت تلك الحصص من اللحم قبل نحر الناقة. والجدير بالذكر أنه كان في تلك القافلة - كما يذكر داوتي - ثلاثة أو أربعة من حيوانات الذبح، يذبحون منها بين الفينة والأخرى، وبهذه الطريقة كان رجال القافلة يتذوقون طعم اللحم كل بضعة أيام.

المويه

تحركت القافلة بعد الظهر، وكانت السهوب الملحية تمتد وتتصل بالساحل البركاني الذي في قبالتها، أما حين ينظر المرء في اتجاه الشمال، فما كان يحد البصر إلا أفق الصحراء. وانبرت القافلة تسير حتى اجتازت جبل حكران المنخفض والواقع على أطراف الحرّة، ومع مغيب الشمس دخلت في جرف منحدر ذي صخور كوّنتها الحمم البركانية، وكانت تلك الصخور بازلتية صلدة، وقد وجدوا في هذه البقعة مورد ماء يضم عدّة آبار يسمى المويه أو مويه الشعاب، أو مياه حكران، ويعتقد داوتي أن ذلك المورد يُعدّ من موارد العرب الرئيسة.

وصلت القافلة إلى المنطقة مع ظهور الشفق، وكان البدو قد رحلوا عنها، إلا أن أهل القافلة مع ذلك نزلوا بعيداً عن المكان وجانبوه قليلاً، لأن هذه الأرض - في ما يقول خليل - كانت تمتلئ باللصوص في تلك الأيام، وأرسلت كل مجموعة من مجموعات القافلة أحد أفرادها إلى البئر حاملاً قربته ليأتي لهم بماء يشربونه، وكوّنت كل مجموعة من تلك المجموعات معسكراً كالدائرة الصغيرة، وذلك خوفاً من أخطار الصحراء، وأوقدت نيران القهوة والطهو في تلك الليلة الحالكة الإهاب وعيّنت كل مجموعة نوبات حراسة لرجالها، إذ يظلّ أحد الرجال من كل مجموعة مستيقظاً يقوم بمهمات الحراسة حتى تنتهي نوبته، ويتسلّم عنه زميله. وهكذا قامت المجموعات المختلفة بثلاث نوبات استمرت حتى أطلّ الفجر. وكان إذا مرّ شخص قرب هؤلاء المناوبين و لم يتبيّنوه على ضوء تلك النيران الخابية، تسمعهم يصرخون من أعماقهم بصوت واحد: "من هذا؟". وحين تسمع المجموعات الأخرى في داخل الدائرة هذا النداء، تنادي بدورها بصوت بشع: "أصبه، أصبه"، أي اقتله اقتله. وعلى ذلك تميزت بداية تلك الليلة الفاحمة السواد بالصرخات واللعنات المتواترة. وكان بعض الرجال في هذه الفترة يتحركون بين المجموعات لزيارة أصدقائهم هنا وهناك. ويذكر خليل أنه حين عبر المعسكر في طريقه إلى موقع إبراهيم ومذكر وابن البسام، واجهته تلك الصرخات الداوية "من هو؟"، "من هذا؟"، وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة "أنا صاحب" أو "طيب ما في شيء". وقد أخبر سليمان أنهم حين يسيرون في قافلة الحجّ السنوي، التي عادة ما يكون فيها الكثير من

الأمتعة والأموال، فإنهم يقيمون نوبات الحراسة في كل منزل ينزلونه.

مع انبلاج ضوء الصباح دفع القصمان – والسلاح في أيديهم – الإبل إلى الماء، باذلين في هذا الصدد الكثير من الجهد، وارتوت الإبل في وقت وجيز، لأن الآبار كانت كثيرة في ذلك المكان، وغادرت القافلة هذا الموقع بعد ساعتين من شروق الشمس، وكان ذلك هو اليوم الثالث عشر منذ أن فارقوا عنيزة و لم يحدث لأهلها أن صادفوا منذ أن غادروا القصيم إنسيّاً أبداً، ولكنهم رأوا في هذا المكان لأول مرّة مجموعة صغيرة من البدو تدفع بسوائمها في اتجاه الآبار.

أناخت القافلة في وقت الظهيرة لتستريح، وكانت الشمس قد نالت من الرجال،، فأسرعوا إلى أخبيتها فنصبوها، ووفد إلى المعسكر بدوي من عتيبة الموالية، وذكر أن قافلة بريدة تنزل ماء ماران تحت تلك الحرّة.

البدو والقوافل

استمرت القافلة تسير عبر سهل الركابة، وهو سهل مفتوح تماماً، ثم أخذت الأرض بعدئذ في الارتفاع التدريجي حتى وصلت في تدرجها إلى ما يقارب خمسمئة قدم. ويذكر خليل أنه رأى في ذلك الموقع أشجار السنط تنمو متشابكة، كما لاحظ أن رمال المنطقة تمتلىء بآثار الغزلان. وقد بلغت درجة الحرارة تحت الخباء هنا ١٠٢ ف.

في فترة رحلتهم المسائية صادف أهل القافلة قطعاناً من خراف البدو يقوم على رعيها أطفال سمر نحاف عراة، ووقعت أنظارهم كذلك على إبلهم في مرابدها. واقترب أولئك الرعاة من القافلة يستطلعون الأخبار، وكان أحد فرسانهم يركب مهرة غير مسرجة، واقتحم جمع القافلة بجرأة فائقة. تمكن أهل القافلة في تلك اللحظة من أن يلمحوا خيامهم السوداء، وعرفوا أن القوم من عرب الشيابين، من عتيبة. وراحت الشمس تنحدر حينئذ في طريقها إلى المغيب، واستدارت القافلة، وانتحى أهلها جانباً تجنّباً للاقتراب من منازل البدو، وحطّوا الرحال للفترة المسائية. وأقبلت على القافلة حال نزولها مجموعة من نساء البدو اللاتي طلبن شراء بعض الأقمشة، ولكن القصمان كانوا يعتقدون أن أولئك النسوة قد جئن يتلصّصن على المعسكر ليتمكنّ من سرقة بعض الأشياء الخفيفة ليلاً. ولاحظت النسوة بعيونهن الحاذقة أن لون بشرة داوتي أكثر بياضاً من أجساد سائر المسافرين فأخذن يسألن: "من هذا؟ من هذا الأجنبي الذي معكم؟".

تحركت القافلة صباحاً، وأخذت تشقّ طريقها وسط قطعان البدو ذات اللون الأبيض. ويذكر داوتي أنه شاهد عبر هذه الصحراء بعض النباتات الطويلة المتشابكة من الصبار ذات

أزهار مضلّعة ملتصقة بعضها ببعض. وقد عرف أن هذا النبات يسمى "الغورولاثي"، ويستعمل كدواء للماشية، إذ يدعك به العرب أنوف إبلهم المريضة.

تكوّنت الأرض - في هذه الرحلة - من رمل وحصى. ووصلوا قبل الظهر بساعتين إلى رأس جسر كوّنته حمم بازلتية، وصادف إبلاً للشيابين صادرة لتوّها من موارد الشهرة على مقربة من الطريق الممتد أمام القافلة. وكانت هذه الإبل بنيّة اللون، وإن ضمت قطعانها بعض الإبل السوداء. يلاحظ خليل أن جميع تلك الإبل متساوية في طولها، ويرى أن الفرسان الذين كانوا يسيرون وراء تلك الإبل مهذبون ظرفاء.

انتحى خليل جانب الطريق قليلاً، ومرّ بخباء مهلهل منعزل لم يرَ فيه - كما يذكر - إلا بدوية ووليدها وقال: "سلام"، فأجابته تلك المرأة متهللة: "مرحباً مرحباً"، وكان البدو المرافقون في القافلة - في هذه الأثناء - يسيرون وهم يحملون بنادقهم الطويلة الجاهزة بعد أن أخرجوها من أجربتها، وأشعلوا الفتيل، وذلك لعدم ثقتهم بهؤلاء البدو. ويروي خليل أنه صادف في طريقه أيضاً بدوياً نحيفاً يسير خلف الغنم إلى الماء. وكم كان شكل ذلك البدوي الصغير جميلاً وهو يرفل في زيه المكي الأزرق، وقد تدلّت على كتف ذلك الرجل الأنثوي الملامح خصلة شعر سوداء فاحمة. ناداه أحد سائقي الإبل من عنيزة، وكان بدوياً يكره كل البدو الذين لا ينتمون إلى قبيلته، "هوى يا ولد"، ثم التفت إلى رفاقه يسألهم: "(أقول) أهذا رجل أم امرأة؟". وامتلأ قلب ذلك الصبي المسكين أنفة وكبرياء وغيظاً، وراح يرمقنا بنظرات قاسية يتطاير شررها، وأوشك أن ينفجر باكياً.

سمع داوتي أن قافلة بريدة قد ارتوت من هذه المياه ظهر اليوم السابق. ففي هذه المنطقة التي أخذوا يجتازونها منذ أمس تلتقي كل دروب الصحراء القاصدة مكّة المكرّمة، وقد قضت القافلة الليل هنا تحت السلاح. وكان الرجال ما إن ينعسوا حتى يسمعوا تحذيرات وصراخاً وأصوات بنادق الفتيل تنطلق هنا وهناك. وأطلّ صباح ذلك الليل البهيم الذي كانوا يخشون فيه أن يصابوا برصاص بنادقهم الذي كانوا يطلقونه، وقد سمع داوتي أنه إذا قبض أولئك الحراس على لصّ فإنهم يسوقونه قسراً إلى خيمة الأمير، وقد رووا له أنهم يعاقبون مثل هذا اللصّ بضربه حتى الموت. وفي الحقيقة كان أهل القافلة - كما يقول داوتي - يفقدون أشياء كثيرة في كل يوم من أيام المسير، ولكنه رجّح أن أصحابها كانوا يتركونها على الأرض حين يرحلون فجراً قبل انبثاق الضوء، وعادة ما يقوم صاحب الشيء الضائع في المنزل التالي بالوقوف في مكان مرتفع ثم ينادي جاعلاً يديه كالبوق أمام فيه قائلاً إنه فقد هذا الشيء أو ذاك، وعلى من وجده أن يردّه إليه (ويذكر الله).

فارق داوتي القافلة عند حدود الحرم في صحبة رجل أوصوه به خيراً، فبلغ جدّة ثم فارق هذه الأرض التي رحّبت به، رغم أن كراهيته لها كانت بالغة، ملكت عليه كيانه. وفاض

حقده على إنسانها الذي حماه وأكرمه حتى غمر ذلك الحقد قامات نخيلها الذي أظلّه وغذاه، وتجاوز إلى إبلها التي حملته أكوارها وأترعته ألبانها، فراح يسبّ أهلها، ويرميهم بالشحّ، ويتهمهم بما ليس فيهم. وبالرغم من ذلك يبقى لهذا الحقد العنصري الذي جسّده كتاب داوتي بعض فوائد علمية. ويمكن المؤرخين بعد النقد الذي لا يستجيب للّؤم رد الفعل أن يعيدوا صياغة صورة العربي الموروثة في الذهن الغربي، كما يمكنهم أن يعتصروا من ثنايا هذا الكتاب شيئاً يسيراً مما آلت إليه الأمور من تشرد وفوضى، وانفلات أمن وقتل، وفساد في الأرض مع سقوط الدولة السعودية الوسطى.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

بعد طرد المسلمين من الأندلس أرسلت الدول الأوروبية تباعاً رحّالة إلى الشرق لاستكشاف دروبه التجارية وتقصّي أحواله السياسية والاجتماعية والتعرّف إلى الإسلام، وذلك تمهيداً لحركة الاستعمار.

عمل هؤلاء الرحالة على بعث الفكر القومي في شبه الجزيرة العربية ليعارضوا به الرابطة الإسلامية، كما عمل بعضهم على بث التنصير السياسي والثقافة الغربية تسهيلاً للاستثمارات والامتيازات النفطية.

صنّف هؤلاء الرحالة الذين تخرّج معظمهم في مدارس كهنوتية أو عسكرية كتباً تناولوا فيها أخبار رحلاتهم بشكل يمازج بين الحقيقة والخيال، مصوّرين السكان شعباً متوحشاً فاسداً جنسياً، أدنى ثقافةً وتحضراً.

يخلص هذا الكتاب إلى أن أدب الرحلة الغربية قام على أسس صليبية استعمارية عنصرية عُنيت بتوجيه الرأي العام الغربي لتحقيق أهداف وغايات بعيدة عن مصالح المنطقة وشعوبها.

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم باحث وأستاذ جامعي سوداني، اهتمّ بدراسة تاريخ منطقة الخليج. له سلسلة من الدراسات الوثائقية في مجال تاريخ الخليج والجزيرة العربية. صدر له عن دار الساقي «أمراء وغزاة»، «صراع الأمراء»، «نجديون وراء الحدود».



ISBN 978-1-85516-958-6

